من ذخائر التراث الإسلامي

مختصر

تفسير الطبري

للإمام المفسرين أبي جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى

"جامع البيان عن تأويل آي القرآن"

مع تحقيقات علمية هامة

اختصار وتحقيق

الشيخ محمد علي الصابوني

أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

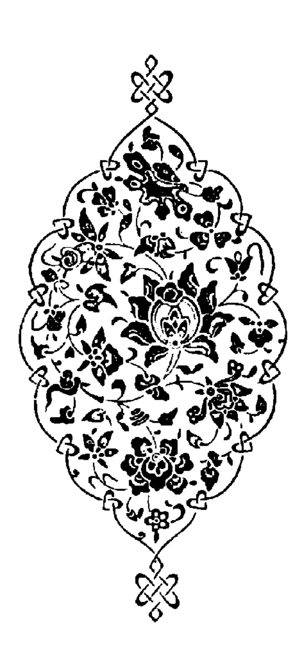
الدكتور صالح أحمد رضا

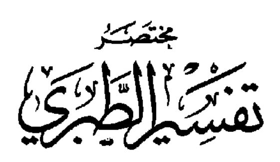
الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية

المجلد الثاني

دار القرآن الكريم

بيروت




مختصر
تفسير الطبري

الطبعة الأولى

بيروت - لبنان

١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ
ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

***

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ الحمد لله الذي خصَّ برسالته محمداً ﷺ ، فابتعثه إلى خلقه نبياً مرسلاً ، وأنزل عليه كتابه ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ لا عوج[1] فيه ، ولا ميل عن الحقّ ﴿قَيِّماً﴾ مستقيماً لا اختلاف فيه ، ولا تفاوت ﴿لِيُنْذِرَ بَأساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ﴾ لينذركم - أيها الناس - عذاباً عاجلاً ، ونَكالاً حاضراً ، شديداً من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويبشِّر الذين صدَّقوا الله ورسوله ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ﴾ الذين يقومون بما أمر الله به ، وينتهون عما نهى عنه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ أنَّ لهم ثواباً جزيلاً من الله على إيمانهم ، وعملهم ، وهو الجنة ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ لا ينتقلون عن الجنة ، ولا ينتقلون منها . ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ ويحذِّر محمد القوم - الذين نسبوا للّهِ الولد من مشركي قومه وغيرهم - بأسَ الله ، وعاجلَ نقمته ، وآجل عذابه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ ليس للمشركين من علمٍ بالله وعظمته ﴿وَلاَ لآبَائِهِمْ﴾ ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ عظمت الكلمة التي تخرج من أفواه هؤلاء القوم ، بنسبة الولد لله ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾ ما

---

(١) العِوجُ : بكسر العين إنما يكون في الأمور المعنوية كالعوج في الدين والعقل ، وما كان في الأمور الحسية فبفتح العين كالعوج في الخشبة والقناة ، وأشار بقوله « قيماً » إلى أنه مستقيم كامل ، لا اختلاف فيه ولا تفاوت بل بعضه يصدّق بعضاً .

فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا
لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ
وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا
مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ
لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ

***

يقولون إلاَّ فرية افتروها على الله ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ فلعلك يا محمد قاتلٌ نفسك ومهلكها ، على آثار قومك ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ إن هم لم يصدقوا بهذا الكتاب المنزل عليك ﴿أَسَفاً﴾ حزناً وتلهفاً بإدبارهم عنك ، وإعراضهم عما أتيتهم به ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ جعلنا كل ما على الأرض من شيء زينةً لها، فالدنيا خضرة حلوة ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ لنختبر عبادنا أيُّهم أترك لهذه الدنيا، وأتبع لأمرنا، ونهينا، وأكثر عملاً فيها بطاعتنا ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾ وإنا لمخربوها بعد عمارها ، فمصيِّروها مستوية لا نبات عليها ، ولا منفعة فيها ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ أم حسبت يا محمد أن أهل الكهف الذين رقم خبرهم[١] ، وكُتب في كتاب ، وأُخفي عن الناس ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ كانوا عجباً ؟ فإنَّ ما خلقتُ من السموات والأرض ، وما فيهن أعجبُ من أمر هؤلاء[٢] ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ حين لجأ الفتية إلى كهف الجبل ، هرباً بدينهم إلى الله ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ فقالوا - إذ أووا إلى الكهف - ربنا أعطنا رحمة من عندك ﴿وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ ويسِّرْ لنا بما نبتغي ، وما نلتمس من رضاك سداداً إلى العمل بالذي تحب ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ فألقينا عليهم النوم ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ سنين معدودة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ ثم أيقظناهم من رقدتهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ لينظر عبادي فيعلموا بالبحث ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أيُّ الطائفتين اللتين اختلفتا في قدر مكث الفتية في كهفهم ﴿أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ أصوب عدداً لقدر لبثهم ، ومعرفةٍ لغايته ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ نحن نقص عليك خبرهم بالصدق واليقين ، الذي لا شك فيه ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ إن أصحاب الكهف الذين سئلت عنهم ، فتيةٌ أذعنوا لربهم بالإيمان ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ وزدناهم إلى إيمانهم إيماناً ، وبصيرةً بدينهم ، حتى صبروا على هجران دار قومهم ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى

---

(١) الرقيم: لوح من الحجارة أو الخشب، كتب فيه أسماء أهل الكهف وخبرهم، وجعل على باب الكهف على المشهور من الأقوال.

(٢) تبهت الآية إلى أن قصة أهل الكهف - على غرابتها - ليست أعجب آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف .

قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾
هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم
مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ
الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا

***

﴿قُلُوبِهِمْ﴾ وألهمناهم الصبر ، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان ، حتى عزفت أنفسهم عما كانوا عليه من لين العيش إلى خشونة المكث في جبل الغار **﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** حين قاموا بين يديْ الجبار « دقيانوس » فقالوا له ـ إذ عاتبهم على ترك عبادة آلهته ـ ربنا ملك السموات والأرض ، وما فيهما من شيء ، وآلهتك مربوبةٌ لا تملك شيئاً **﴿لَنْ نَدْعُوَ مَنْ دُونِهِ إِلَهاً﴾** لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلَهاً ، لأنه لا إله غيره **﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾** ولئن دعونا إلَهاً غيره ، لقد قلنا قولاً مجاوزاً الحدَّ في البطلان والغلو **﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾** هؤلاء قومنا عبدوا من دون الله آلهة **﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾** هلاَّ يأتون على عبادتهم بحجة واضحة **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾** فمن أشد اعتداء ، وإشراكاً بالله ، ممن اختلق الكذب على الله ، وأشرك مع الله في سلطانه شريكاً يعبده دونه ؟ **﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾** وقال بعض الفتية لبعض : وإذ فارقتم أيها الفتية قومكم **﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾** واعتزلتم ما يعبدونه من الآلهة سوى الله **﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾** فصيروا إلى غار الجبل **﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾** يبسط لكم ربكم من رحمته ، فييسّر لكم المخرج من فتنة الملك الكافر **﴿وَيُهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾** وييسر لكم من الغم والكرب الذي أنتم فيه ، ما ترتفقون به من أسباب العيش . **﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾** وترى الشمس حين طلوعها ، تميل عن كهفهم فتطلع عليهم من جهة اليمين **﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾** وإذا غربت تتركهم بذات الشمال ، فلا تصيبهم[١] **﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾** والفتيةُ في متسع من الكهف **﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾** ما فعلنا بالفتية من حجج الله ،وأدلته على عظيم قدرته ، وأنه لا يعجزه شيء أراده **﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾**

---

(١) المشهور أن هذا الملك الجبار ، الذي دعا الناس إلى عبادة الأوثان اسمه « دقيانوس » كما ذكره الطبري ، وكان يقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الفاجرة ،حتى عظمت المحنة على أهل الإيمان ،ففرَّ هؤلاء الفتية الشباب بدينهم إلى الله ،خوفاً من بطشه وجبروته .

(٢) قال ابن عباس : لو أن الشمس تطّلع عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يقلّبون ذات اليمين وذات الشمال لأكلتهم الأرض .

مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ
لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ
مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ
يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

***

من يوفقه الله للإهتداء بآياته فهو الذي أصاب سبيل الحقِّ ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾ ومن لم يوفقه الله للاستدلال بآياته على طريق الحق ، فلن تجد له خليلاً يرشده لإصابتها ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ وتحسب هؤلاء الفتية لو رأيتهم في حال نومهم - أيقاظاً وهم نيام ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ونقلبهم في رقدتهم ، مرةً للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وكلبهم باسط ذراعيه بفناء الكهف ، يحفظ عليهم الباب ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾ لو اطلعت عليهم يا محمد في رقدتهم ، لأدبرت عنهم هارباً ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ ولملئت نفسُك فزعاً منهم ، لما ألبسهم الله من الهيبة ، كي لا يصل إليهم واصل ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ كما حفظناهم في الكهف فكذلك أيقظناهم من نومهم ، لنعرفهم عجيب فعلنا في خلقنا ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ فتساءلوا فقال أحدهم لأصحابه : كم مكثتم[١] ؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فأجابه الأخرون : لبثنا يوماً أو بعض اليوم ولم نتمه ، ظناً منهم أنه كذلك ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فقال الفتية : ربكم أعلم بذلك فسلموا العلم إلى الله ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إلى المَدِينَةِ﴾ فأرسلوا واحداً منكم بالنقود الفضية إلى مدينتنا التي خرجنا منها ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ فلينظر أيُّ أهل المدينة أحلُّ ، وأطهر طعاماً ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ فليأتكم بقوت منه تأكلونه[٢] ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليترفق في شرائه ، وفي طريقه ودخوله المدينة ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ ولا يُعلمنَّ بكم أحداً من الناس ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ إن الملك وأصحابه إن يعلموا مكانكم يؤذونكم شتماً بالقول[٣] ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يردوكم في دينهم فتصيروا كفاراً ﴿وَلَنْ

(١) استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم ، وظنوا أنها يوم أو بعض اليوم ، ثم ردوا العلم إلى الله ، ولكنهم لم يدر في خلدهم أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ، وذكر بعض المفسرين أنهم شابوا وهرموا ، والصحيح أنهم لم يشيبوا ولم يهرموا على مر الدهور والأزمان ، آية باهرة تدل على قدرة الواحد الأحد .

(٢) لما هبوا من النوم شعروا بالجوع فلذلك طلبوا الطعام .

(٣) فسر الطبري « يرجموكم » بالشتم بالقول ، والإيذاء باللسان ، وفسره غيره بالرجم بالحجارة أي يقتلوكم رجماً بالحجارة وهو أظهر =

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

***

﴿تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ ولن تدركوا الخلود في الجنان إن عدتم في ملتهم **﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾** كما بعثناهم من نومهم ، كذلك أطلعنا عليهم الفريق الذين شكّوا في قدرة الله **﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾** ليعلموا أن وعد الله بقيام الحساب حقٌّ لا شك فيه **﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾** ويوقنوا أنَّ الساعة آتية لا ريب فيها **﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾** حين يتنازع القوم بينهم أمرهم ، فيما يفعل الله بمن أماته فأفناه ، أينشئهم أم لا ؟ **﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً﴾** فقال الذين عثروا عليهم : ابنوا عليهم بنياناً **﴿رَبُّهُم أَعْلَمُ بِهِمْ﴾** رب الفتية أعلم بهم وبشأنهم **﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أمرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾** قال الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف : نبني عليهم مسجداً نصلي فيه ، ونعبد الله فيه . **﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾** سيقول بعض الخائضين في أمر الفتية من أصحاب الكهف : هم ثلاثةٌ ، ورابعهم الكلب الذي لحقهم فكان معهم **﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾** ويقول بعضهم هم خمسة سادسهم كلبهم **﴿رَجْماً بِالغَيْبِ﴾** قذفاً بالظنّ عن غير يقين **﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾** ويقول بعضهم إنهم سبعة ثامنهم كلبهم **﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾** ربي أعلم بعددهم **﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾** ما يعلم عددهم إلا قليل من خلقه **﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾** فلا تجادل أهل الكتاب في عدة أهل الكهف ، إلا بما قصصناه عليك **﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾** ولا تسأل عن عدتهم أحداً من أهل الكتاب ، لأنهم يعلمون عدتهم **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً﴾** ولا تجزم على ما يحدث من الأمور أنه كائن لا محالة **﴿إلا أن يشاء الله﴾** إلا أن تقول « إن شاء الله » لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته سبحانه[1] **﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾** واذكر ربك إذا تركت ذكره [2] . **﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾** لعل الله يهديني

= لأنه هو المتبادر في اللغة .

(١) قال ابن جرير : وإنما قيل له ذلك من أجل أنه وعد سائليه عن المسائل الثلاث التي سألوه عنها وهي « خبر أهل الكهف ، وخبر الخضر ، وخبر ذي القرنين » أن يجيبهم عنهن غداً ولم يستثن ، فاحتبس عنه الوحي من أجل ذلك ، ثم أنزل الله عليه الجواب في هذه السورة .

(٢) هكذا اختار الطبري ، واختار بعض المفسرين أن المعنى: إذا نسيت أن تقول « إن شاء الله » ثم تذكرتها فقلها ، وهو قول الحسن.

وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ
لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ
سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

***

فيسددني لما هو أصلح مما أخبرتكم عنه هو ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَثمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ ولبث أصحاب الكهف نياماً في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قل يا محمد : الله أعلم بما مكثوا بعد قبض أرواحهم إلى يومهم هذا ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لله علم غيب السموات والأرض ، لا يغيب عنه علم شيء منه ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ليس للخلق دون ربهم وليٌّ يلي أمرهم وتدبيرهم ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ ولا يجعل الله شريكاً له في قضائه وحكمه في خلقه ، بل هو المنفرد فيهم بما شاء ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركنَّ تلاوته فتكون من الهالكين ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا مغير لما أوعد بكلماته أهل معاصيه ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحداً﴾ ولن تجد من دون الله ملجأً تلجأ إليه ، إن خالفت أمره ، لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه/ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ احبس نفسك مع أصحابك ، الذين يذكرون ربهم بالصباح والمساء بأنواع الذكر ، بالأعمال الصالحة ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يريدون بفعلهم ذلك وجه الله ، لا عَرَضاً من الدنيا ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تصرف عيناك عنهم إلى غيرهم من الكفار ، ولا تجاوزهم إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تريد بتركهم مجالسة الأشراف من قومك ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ ولا تطع من شغلنا قلبه عن ذكرنا ، بالكفر وغلبة الشقاء عليه ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وآثر هوى نفسه على طاعة ربه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ فكان أمره في احتقار أهل الإيمان ، ضياعاً وهلاكاً ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقل يا محمد : الحق من عند ربكم ، بيده الهدى والضلال ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا[1] ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً﴾ فإن كفرتم فقد أعدَّ لكم ربكم على كفركم ناراً ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾

(١) الآية لم يقصد بها التخيير بين الكفر والإيمان ، وإنما وردت مورد الوعيد والتهديد كقوله تعالى ﴿اعملوا ما شئتم﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ
الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى
الْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ
وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾
وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾

* * *

أحاط بكم سورها يطيف بكم ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ وإن يطلب الظالمون الماء في النار ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ يغاثوا بماء قد انتهى حرُّه ﴿يشوي الوجوه﴾ يشوي من حره لحوم وجوههم ﴿بئس الشراب﴾ بئس الشراب هذا الماء ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ وساءت هذه النار متكأ لهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إن الذين صدقوا الله ورسوله ، وعملوا بطاعة الله ، وأمره ونهيه ﴿إنا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ إنا لا نضيع ثواب من أحسن عملاً ، فأطاع الله واتبع الأمر والنهي ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ لهؤلاء بساتين إقامة في الآخرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ تجري من دونهم ، ومن بين أيديهم الأنهار ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يلبسون فيها – من الحليِّ – أساور من ذهب ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ﴾ ويلبسون ثياباً خضراً ممَّا رقَّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وممَّا غلظ منه[1] ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الآرَائِكِ﴾ متكئين في الجنات على السرر[2] ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ نعم الثواب جنات عدن ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ وحسنت هذه الأرائك في هذه الجنات متكأ ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مثلاً رَجُلَيْنِ﴾ واضرب للمشركين مثل رجلين ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ جعلنا للكافر منهما بستانين من عنب ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وأحطناهما بشجر النخيل ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ وأنبتنا وسطهما أنواعاً من الزرع ﴿كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها﴾ كلا البستانين أخرج ثمره ، وما فيه من الغروس ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ ولم تنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾ وأسلنا بين أشجار البستانين نهراً ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وكان للكافر أنواع من الثمار من جنتيه ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ فقال لصاحبه المؤمن ، الذي لا مال له ، وهو يخاطبه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ أنا أغنى منك ، وأعز عشيرة ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ودخل بستانه مع صاحبه ، وهو ظالم لنفسه بالكفر ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ قال ـ لما عاين خيرات جنته – ما

(١) الاستبرق : الغليظ من الحرير ، والسندس : الرقيق من الحرير ، هذا هو المشهور .
(٢) هي سرر ذهبية مزينة بالثياب والستور ، ومكللة بالدر والياقوت كما روي عن ابن عباس .

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ
بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا
مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ
طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ

***

أظن أن تفنى هذه ولا تخرب ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وما أظن القيامة التي فيها الحشر تقوم فتحدث ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي﴾ ولئن رجعت إلى ربي - وهو غير موقن أنه راجع ﴿لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ لأجدن خيراً من جنتي هذه عند الله ، عند رجوعي إليه ، لأنه لم يعطني هذه في الدنيا ، إلاّ ولي عنده أفضل منها في المعاد ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ قال له صاحبه الفقير المؤمن وهو يخاطبه ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ أكفرت بالذي خلق أباك آدم من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ ثم أنشأك من نطفة الرجل والمرأة ، ثم عدلك بشراً سوياً ، ذكراً لا أنثى ؟ فمن فعل بك هذا ، يعيدك خلقاً جديداً بعد ما تصير رُفاتاً ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ أما أنا فلا أكفر بربي ، ولكن أنا أقول[1] : هو الله ربي ، ولا أشرك بربي أحداً .

﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ﴾ وهلاَّ إذ دخلت بستانك فأعجبك ، قلت : ما شاء الله كان ، لا قوة لنا على طاعته إلاَّ به ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً﴾ إن كنت أقل منك مالاً وولداً في الدنيا ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ لعل ربي أن يرزقني خيراً من بستانك هذا ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويرسل على بستانك عذاباً من السماء ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ فتصبح جنتك أرضاً ملساء ، قد عادت خراباً لا غرس فيها ولا نبات ، لا يثبت عليها قدم ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ أو يغور ماؤها في الأرض ولا تلحقه الرشاء ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ فلا تطيق أن تدرك الماء ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وأحاط الهلاك بثمار جنته ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ فأصبح يقلب كفيه ظهراً لبطن[2] تلهفاً وأسفاً على ذهاب ما أنفقه في جنته ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ وهي خالية من نباتها وبيوتها[3] ﴿وَيَقُولُ

---

(١) أصل لكنّا : لكنْ أنا حذفت الهمزة ، وأدغمت النون بالنون فصارت لكنّا .

(٢) هكذا شأن النادم يقلّب كفيه غالباً ، كما قد يعضُّ بعض أنامله ، فهو تصوير لحالته النفسية .

(٣) معنى خاوية أي ساقطة ، قد سقطت سقوفها على الأرض ، وسقطت فوقها الكروم ، والمراد أنها تخربت بما فيها من زروع .

أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ
هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ
ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ
نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ
لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

***

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ يتمنى - بعدما نزلت به المصائب - أنه لم يكن كفر بالله ، ولا أشرك به شيئاً ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يكن لصاحب الجنتين جماعة يمنعونه من عقاب الله ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ ولم يكن ممتنعاً من عذاب الله ﴿هُنَالِكَ الوَلَايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ﴾ هنالك في القيامة ، الانفرادُ بالملك والسلطان[1] لله الحق وحده ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً﴾ هو خير ثواباً للمنيبين إليه في العاجل ، وهو خير عاقبة في الآجل ، إذا صار المطيع إليه ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ واضرب لهؤلاء المستكبرين الذين طلبوا طرد الفقراء من مجلسك - شبهاً بالمطر الذي أنزلناه من السماء ، فاختلط بالماء نبات الأرض ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ فأصبح النبات يابساً متفتتاً ، تطيره الرياح وتفرِّقه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِراً﴾ وكان الله على إزالة دنيا الكافرين قادراً لا يعجزه شيء ﴿المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المال والبنون التي يفخر بها بعض الناس ، مما يتزين به في الحياة الدنيا ، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ وأعمال الآخرة خير من المال والبنين ، التي تفنى ولا تبقى لأهلها ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ﴾ نسيّرها عن الأرض ، ونجعلها هباء منبثاً ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾وترى الأرض ظاهرة لعين الناظرين ، من غير شيء يسترها من جبل ولا شجر ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ وجمعناهم إلى موقف الحساب ، فلم نبق منهم أحداً ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً﴾ وعُرض الخلق على ربك يا محمد صفوفاً ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ويقال لهم : لقد جئتمونا أحياء كهيئتكم ، حين خلقناكم أول مرة ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾ بل زعمتم أيها المكذبون أن لن نجعل لكم وقتاً لبعثكم بعد الممات .

---

(١) الوَلاية : بالفتح النصرةُ والتولي لشئون الغير ، وبالكسر السلطانُ والملك ، وقد اختار الطبري قراءة الكسر ، ولذلك فسّرها بالملك والسلطان .

(٢) هكذا حال الدنيا تظهر في غاية الحسن والنضارة ، ثم تنتهي إلى الزوال والفناء .

وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ
إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ
عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ
ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم
مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾

***

﴿**وَوُضِعَ الكِتَابُ**﴾ ووضع الله يومئذ كتاب أعمال عباده في أيديهم ، فواحد أخذه بيمينه وواحد بشماله ﴿**فَتَرَى المُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ**﴾ فترى المشركين بالله ، خائفين مما كتب فيه من أعمالهم السيئة ﴿**وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا**﴾ ونادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله ﴿**مَا لِهٰذَا الْكِتَاب لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كبيرة إلَّا أَحْصَاهَا**﴾ ويقولون : ما شأن هذا الكتاب لا يُبقي صغيرة من ذنوبنا وأعمالنا ، ولا كبيرةً منها إلَّا حفظها ﴿**وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً**﴾ ووجدوا ما عملوا في الدنيا من عمل مكتوباً مثبتاً ، فجوزوا بالسيئة مثلها ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**﴾ ولا يجازي ربك أحداً بغير ما هو أهله ،وذلك هو العدل﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إلَّا إِبْلِيسَ**﴾ واذكر حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، لم يسجد له استكباراً على الله ، وحسداً لآدم ﴿**كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ كان من الجن فخرج عن أمر ربه(١) ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**﴾ أفتوالون يا بني آدم من استكبر على أبيكم وحسده ، وتطيعونه وذريته من دون الله ، مع عداوته لكم قديماً وحديثاً ﴿ **بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾ بئس البدل للكافرين ، اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله ﴿**مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، فأستعين بهم على خلقها ﴿**وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ**﴾ ولا أشهدت بعضهم خلق بعض منهم ، فأستعين بهم على خلقه ، بل تفردت بخلق الجميع بغير معين ولا ظهير ﴿**وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً**﴾ وما كنت متخذ من يضلون بخلق بني آدم عن الحق أعواناً وأنصاراً ﴿**وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ**﴾ ويوم يقول الله تعالى للمشركين : ادعوا الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في العبادة ، لينصروكم ويمنعوكم مني ﴿**فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبوا لَهُمْ**﴾ فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً**﴾ وجعلنا بين العابدين ومعبوديهم مهلكاً ﴿**وَرَأى المجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا**﴾ وعاين المشركون يومئذ النار ، فعلموا أنهم داخلوها ﴿**وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً**﴾

(١) الآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة ، وانظر التحقيق العلمي في الموضوع في سورة البقرة .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾

***

ولم يجدوا عن النار معدلاً يعدلون إليه ، ولا عن مواقعتها بداً ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد مثّلنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة ، ليتذكروا فيتعظوا وينزجروا ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ وكان الإنسان أكثر شيء خصومة ، لا ينيب لحق ولا ينزجر لموعظة ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ وما منع هؤلاء المشركين الإيمان بالله حين جاءهم بيان الله ، وعلموا صحة ما تدعوهم إليه ، والاستغفار مما هم عليه ﴿إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ إلا مجيء سنتنا في أمثالهم من الأمم المكذبة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أو إتيانهم العذاب عياناً[1] ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أهل الإيمان بجزيل الثواب ، ولينذروا أهل الكفر عظيم العقاب ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ ويخاصم الذين كذبوا الله ورسوله بالباطل تعنتاً ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾ ليزيلوا الحق الذي جاء به الرسول ويبطلوه ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً﴾ واتخذ الكافرون حججي التي أحتج بها عليهم ، وكتابي الذي أنزله إليهم ، سخريةً يسخرون بها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وأيُّ الناس أظلم ممن ذكَّره الله بأدلته التي بها نجاته ، فأعرض عنها ؟ ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب منها ؟ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ إنَّا جعلنا على قلوب المعرضين أغطيةً ، لئلا يفقهوا آيات الله ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ وفي آذانهم ثقلاً لئلا يسمعوها فينتفعوا بها ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ وإن تدعهم إلى الإستقامة على محجة الحق والإيمان فلن يستقيموا إذاً أبداً ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ وربك الساتر لذنوب عباده إذا تابوا ، ذو الرحمة بهم ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ

(١) معنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار ، إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي أوعدهم به الرسل عياناً ومواجهة ، كقول كفار مكة ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء أو آئتنا بعذاب أليم﴾ .

وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ
ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ
لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ
وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ
ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ

***

الْعَذَابَ﴾ لو يعاقبهم بما اقترفوا من الآثام ، لأنزل بهم العذاب ، ولكنه لرحمته بخلقه لا يفعل ذلك بهم **﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾** لكن لهم ميقات لعذابهم ، ولن يجدوا من دون الموعد ملجأ ومنجى[١] ، ينجيهم من عذاب الله **﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾** وتلك القرى من « عاد وثمود . . » أهلكنا أهلها لما ظلموا ، فكفروا بالله وآياته **﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾** وجعلنا لهلاكهم ميقاتاً[٢] **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾** واذكر حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع : لا أزال أسير حتى أبلغ اجتماع بحر فارس والروم **﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾** أو أسير زماناً طويلاً **﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾** فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين ، تركا حوتهما هناك **﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾** فاتخذ الحوت طريقه في البحر مذهباً ومسلكاً **﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾** فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين ،قال موسى أعطنا غداءنا **﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾** لقد وجدنا في هذا السفر عناءً وتعباً **﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾** فأجابه فتاه : أرأيت حين التجأنا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت هنالك **﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾** وما أنساني الحوت إلَّا الشيطان **﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾** واتخذ الحوت طريقه في البحر ، وكان أمره مما يعجب[٣] منه **﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾** قال موسى لفتاه : نسيانك الحوت هو الذي كنا نلتمس ونطلب ، لأنه علامة على المكان الذي نلقى فيه الرجل الصالح **﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾** فرجعا في الطريق يتتبعان آثارهما التي كانا سلكاها **﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾** فوجد موسى وفتاه عند الصخرة عبدنا الخضر ، وهبناه نعمة من عندنا **﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾** وعلمناه من عندنا علماً **﴿قَالَ لَهُ**

---

(١) الموئل : الملجأ يقال : وَأَلَ إذا نجا ، ووأل إليه إذا لجأ إليه .

(٢) الموعد قيل : هو يوم بدر ، وقيل : هو يوم القيامة ، والأظهر أن الله جعل لكل أمة ظالمة وقتاً لهلاكهم في الدنيا .

(٣) لأن الحوت كان ميتاً فدبت فيه الحياة ، وفي الحديث « كان للحوت سَرَباً ولموسى وفتاه عَجَباً » رواه البخاري .

هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ
مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا
تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ
لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

***

مُوسَى هَلْ أَتْبِعُكَ على أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ قال موسى للعالم : هل اتبعك على أن تعلمني من العلم الذي علمك الله ، ما فيه رشاد إلى الهدى ؟ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ قال : إنك لن تطيق الصبر معي ، لأنني أعمل بباطن العلم ولا علم لك إلا بالظاهر ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ وكيف تصبر يا موسى على ما ترى مني ، ولا علم لك بالحادث لأنها غيب ، ولا تحيط بعلم الغيب علماً ؟ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً﴾ قال موسى : ستجدني إن شاء الله صابراً على ما أرى ﴿ولا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ وأنتهي إلى أمرك ، وإن لم يكن موافقاً هواي ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ قال الخضر : فإن اخترت اتباعي الآن ، فلا تسأل عن شيء أعمله مما تستنكره ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ حتى أبيّن لك شأنه ﴿فَانْطَلَقَا. حَتَّى إذا رَكِبَا في السفينَةِ خَرَقَهَا﴾ فانطلقا يطلبان سفينة يركبانها ، حتى إذا أصاباها ركبا فيها ، فخرق العالم السفينة ﴿قَالَ أَخرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ قال موسى : أخرقت السفينة بعد ما لججنا في البحر لتغرق من فيها ؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ لقد فعلت فعلاً منكراً عظيماً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾) قال : ألم أقل لك يا موسى : إنك لن تصبر على ما ترى من أفعالي ؟ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ قال موسى : لا تؤاخذني في نسياني العهد ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ ولا تضيِّقْ عليَّ أمري معك ، وصحبتي إياك ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ﴾ فسارا حتى إذا وجدا غلاماً صغيراً فقتله العالم ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ قال موسى : أقتلت نفساً تائبة لم تذنب قط ، بغير قصاص ؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ لقد فعلت فعلاً منكراً غير معروف ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ قال : ألم أقل لك يا موسى ، إنك لن تصبر على ما ترى من أفعالي ؟ ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ قال موسى : إن صدر عني سؤال بعد هذه المرة ، ففارقني ولا تكن لي

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ
لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا
ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً
وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ
رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

***

مصاحبا ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّيَ عُذْراً﴾ قد بلغت العذر في شأني ، مخالفتي لك ثلاث مرات ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ فسارا حتى أتيا أهل قرية ، فطلبا الطعام منهم ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فلم يطعموهما واستضافوهم فلم يضيفوهما[1] ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ فوجدا في القرية حائطاً ، قد قارب أن يقع ويسقط ﴿فَأَقَامَهُ﴾ فعدل ميله حتى عاد مستوياً[2] ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ قال موسى :لو شئت لم تُقم لهؤلاء القوم جدارهم ، حتى يعطوك أجراً عليه ! ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ قال : هذا الذي قلته يا موسى ، فرقةُ ما بيني وبينك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ سأخبرك بعاقبة أفعالي ، التي لم تستطع الصبر عليها ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أما السفينة التي خرقتها ، فكانت لقوم ضعفاء ، يعيشون من عملهم في البحر ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فأردت بخرقها عيبها ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ وكان أمامهم ملك غاشم ، يغتصب كل سفينة صحيحة ، ويدع المعيبة ﴿وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وأما الغلام الذي قتلته ، فإنه كان كافراً ، وكان أبواه مؤمنين ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ فعلمنا أنه إذا كبر ، يُغْشيهما استكباراً وكفراً بالله ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً﴾ فأردنا أن يبدل الله والديه ، خيراً من الغلام الذي قتلته ، صلاحاً وديناً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ وأقرب أن يرحم والديه فيبرهما ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ وأما الجدار الذي أقمته بغير أجر ، فكان يملكه غلامان يتيمان في المدينة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ وكان تحت الجدار مال مخبوءٌ لهما ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ وكان أبوهما معروفاً بالصلاح والتقوى ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ فأراد ربك أن يدرك الغلامان قوتهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ ويستخرجا حينئذ مالهما المكنوز تحت الجدار ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ رحمة من ربك لليتيمين ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ وما

(١) قال قتادة : شرُّ القرى التي لا تُضيف الضيف ، ولا تعرف لابن السبيل حقه .

(٢) وروي عن ابن عباس أنه قال : هدمه ثم قعد يبنيه .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾
فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا
ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾

***

فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته من تلقاء نفسي ، وإنما فعلته عن أمر الله ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ هذا الذي ذكرت لك ، هو تفسير الأفعال التي لم تستطع الصبر عليها[١] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ﴾ ويسألك يا محمد المشركون عن «ذي القرنين»[٢] ما كان شأنه؟ وما هي قصته ؟ ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾ فقل لهم : سأقصُّ عليكم من خبره ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وطأنا له في الأرض ، ويسَّرنا ملكه فيها ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ وآتيناه علماً من كل شيء يوصله إليه ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ فسلك في الأرض طريقاً ومنزلاً ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ حتى إذا وصل ذو القرنين المغرب ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وجد الشمس تغرب في عين ماء ، ذات حمأةٍ وطين ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ ورأى هناك قوماً من الناس ﴿قُلْنَا يَاذَا القَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ قلنا له : إما أن تقتلهم إن لم يؤمنوا ، ويذعنوا لطاعة الله ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ وإما أن تعلِّمهم الهدى ، وتبصرهم الرشاد ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ قال : أما من كفر فسوف نقتله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً﴾ ثم يرجع إلى الله تعالى فيعذبه في جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ وأما من صدَّق الله وعمل بطاعته ﴿فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى﴾ فله عند الله الجنة ، ثواباً على إيمانه وطاعته ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ وسنعلِّمه في الدنيا ما تيسر لنا تعليمه مما يقربه إلى الله ، ونُلين له من القول ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ ثم سلك طرقاً ومنازل ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ حتى إذا بلغ مشرق الشمس[٣] ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ وجد الشمس تطلع على قوم ، لا جبل في أرضهم ولا شجر ، وإنما يدخلون في

(١) قال الإمام الطبري : وهذه القصص التي أخبر الله عز وجل نبيه محمداً - ﷺ - عن موسى وصاحبه تأديب منه له بترك الاستعجال بعقوبة المشركين المكذبين المستهزئين بكتابه .

(٢) ذو القرنين كان ملكاً مؤمناً عادلاً ، ولم يكن نبياً ، وقد مكّن الله له في الأرض فعدل وأصلح ، وسمي « ذا القرنين » لأنه ملك مشرق الأرض ومغربها ، وأما ما يقال إنه كان له قرنان في رأسه فغير صحيح .

(٣) هذا حسب ما شاهد وأبصر لا حسب الحقيقة ، فإن الشمس أكبر من أن تدخل في عينٍ من عيون الأرض ، كما يرى راكب البحر الشمس كأنها تغيب في البحر .

كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا
قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ
لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ
عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ

***

الأسراب (١) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كذلك سلك طرقاً ومنازل ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾ وقد أحطنا علماً بما عند مطلع الشمس ، من أحوال الخلق وأسبابهم ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ ثم سار طرقاً ومنازل ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ حتى إذا وصل إلى الجبلين، الحاجزين مَنْ وراءهما ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ وجد دون الجبلين الحاجزين ، قوماً لا يكادون يعرفون سوى كلامهم ﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال القوم لذي القرنين: إن يأجوج ومأجوج (٢) - وهما أمتان من وراء الجبلين - سيفسدون في الأرض ، إن تركوا وشأنهم ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً﴾ هل نعطيك من أموالنا ، لتبني حاجزاً يمنعهما من الخروج إلينا ؟ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ قال ذو القرنين : الذي مكنني وقوّاني عليه ربي في عمل السد ، خيرٌ من الأجرة التي تعرضونها عليَّ ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ فاعينوني بعمال وصُناع يحسنون البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ أجعل بينكم وبين القوم سدّاً منيعاً ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ جيئوني بقطع الحديد ، فأتوه بها ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ حتى إذا ساوى بين ناحيتي الجبلين ، بما جعل بينهما من الحديد ﴿قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً﴾ قال للفَعَلة : انفخوا فنفخوا ، حتى إذا جعل الحديد ناراً (٣) ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ قال : أعطوني نحاساً أصب عليه ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلو السدَّ ، فيكونوا فوقه ، وينزلوا منه إلى الناس ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ قال : هذا الحاجز الذي سويته نعمة من الله ، رحم بها الناس ، ليكف غائلة هذه الأمة

---

(١) قال قتادة : كانوا في مكان لا يثبت عليه البناء ، فكانوا يدخلون في أسرابٍ لهم إذا طلعت عليهم الشمس ، فإذا زالت عنهم خرجوا الى معايشهم.

(٢) يأجوج ومأجوج : قبيلتان من بني آدم ، في خلقهم تشوية، منهم مفرطٌ في الطول، ومنهم مفرطٌ في القصر، وهم من أكلة لحوم البشر، كانوا يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه، وقد دفع الله شرهم عن الناس ببناء السدّ، الذي بناه ذو القرنين .

(٣) أي جعل الحديد كالنار بقوة الإحماء ففيه تشبيه بليغ .

رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعْضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعٗا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٖ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنٗا ﴿١٠٥﴾

***

عنهم ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فإذا جاء ميقات ظهور هذه الأمة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ سوّى السد بالأرض وجعله مدكوكاً ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾ وكان وعد ربي في دك هذا السد، وخروج يأجوج ومأجوج، حقاً لأنه لا يخلف الميعاد ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وتركنا عبادنا يوم قيام الساعة، يختلط جنّهم بأنسهم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ ونفخ في الصور النفخة الثانية ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ فجمعنا جميع الخلق حينئذ لموقف الحساب ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾ وأبرزنا جهنم فأظهرناها للكافرين حتى يروها ويعاينوها كهيئة السراب ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ الذين كانوا لا ينظرون في آيات الله، ولا يفكرون فيها ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ وكانوا لا يطيقون سماع ذكر الله، لغلبة الشقاء عليهم، وشغلهم بالكفر وطاعة الشيطان ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أفظن الَّذِينَ كفروا بالله فعبدوا غيره ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أن يتخذوا عبادي الذين عبدوهم أولياء؟! كلاّ بل هم لهم أعداء ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ إنا هيأنا لمن كفر بالله جهنم، منزلاً ينزلون بها ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ قل يا محمد: هل نخبركم أيها القوم، بالذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبغون به ربحاً، فنالوا به عطباً وهلاكاً[1]؟ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذين لم يكن عملهم على هدى واستقامة، بل كان على جور وضلالة، لأنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ وهم يظنون أنهم لله مطيعون، وفيما ندب عباده إليه مجتهدون ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ هؤلاء الذين ذكرناهم، هم الذين كفروا بحجج ربهم وأدلته، وأنكروا لقاءه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ فبطلت أعمالهم، فلم يكن لها ثواب، بل لهم منها عذاب ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ ليس لهؤلاء شيء من الأعمال الصالحة، فتثقل به موازينهم

(١) قال الضحاك: هم القسس والرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع، وقال الحسن: هم اليهود والنصارى، واختار الطبري أن الآية عامة تشمل أهل الضلال وكل مجتهد في بدعته وضلالته.

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا
لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ
أَحَدًا ﴿١١٠﴾

***

﴿ذَلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ أولئك ثوابهم جهنم بكفرهم بالله ﴿وَاتَّخَذُوا آياتي وَرُسُلي هُزُواً﴾ وباتخاذهم آيات كتابه سخرية ، واستهزائهم برسل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواالصَّالِحَاتِ﴾إن الذين صدقوا بالله ورسوله ، وعملوا بطاعته ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ كانت لهم بساتين الفردوس(١) ، التي هي أفضل درجات الجنة ، منازل ومساكن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ لابثين في الجنة أبداً ، لا يريدون عنها تحولاً ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قل : لو كان ماء البحر ، مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات ربي ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ لنفد ماء البحر ، قبل أن تنفد كلمات ربي ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء مدداً ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَر مِثْلُكُمْ﴾ قل يا محمد : إنما أنا بشر من بني آدم ، لا علم لي إلاّ ما علمني الله ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يوحى إليَّ أنَّ معبودكم الذي يجب أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، معبودٌ واحد ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فمن كان يخاف ربه يوم لقائه ، ويراقبه ويرجو ثوابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ فليخلص له العبادة ، ولا يجعل له شريكاً في عبادته .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف »

* * *

(١) عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال « الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، أعلاها الفردوس ، ومنها تفجّر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » ونحوه عن أبي هريرة ومعاذ بن جبل غيرهم من الصحابة . والحديث وارد في الصحيحين .



بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ
الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ
امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا

***

﴿كهيعص﴾[١] ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ هذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا ، نقصُّه عليك يا محمد ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ حين دعا ربه بصوت خفي ، كراهةً منه للرياء ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ قال : رب إني ضَعف ورقَّ عظمي من الكِبَر ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ وانتشر الشيب في رأسي ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ ولم أشْقَ يا رب بدعائك ، لأنك لم تخيب دعائي فيما مضى ، بل كنت تقضي حاجتي ، فاقضها الآن ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ وإني خفت بني العم والعصبة من بعدي ، أن يرثوني فلا يحسنوا العمل ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ وكانت زوجتي عاقراً لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾ فارزقني من عندك ولداً وارثاً ومعيناً ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يرثني من بعد وفاتي ، ويرث النبوة[٢] من أجداده آل يعقوب ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ واجعل الولي ممن ترضاه ديناً وخُلُقاً ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ فاستجاب له ربه فقال له : إنا نبشرك بهبتنا لك غلاماً اسمه يحيى ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾ لم نجعل أحداً مسمى باسمه قبله[٣] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ قال

(١) قال ابن جرير : والقول في ذلك عندنا نظير القول في (الۤمۤ) وسائر فواتح سور القرآن التي افتتحت أوائلها بحروف المعجم، وقد ذكرنا ذلك فيما مضى . أقول : التحقيق أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وانظر أول سورة البقرة .

(٢) قال البيضاوي : المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورِّثون المال .

(٣) وقال مجاهد : ليس له شبيه في الكمال والفضل .

وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ
فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن
لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ
يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾

***

زكريا : ومن أي وجهٍ يكون لي ذلك[١]؟! ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ وزوجتي لا تحبل ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾ وقد صرت من كبر سني ، ناحل العظام يابسها !! ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قال : هكذا الأمر كما تقول ، وخلق هذا الغلام هيِّنٌ عليَّ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ وليس خلق الغلام من زوجتك العاقر ، بأعجب من خلقك بشراً سوياً ، ولم تك شيئاً ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قال زكريا : يا رب اجعل لي علامة على ذلك ، ليطمئن إليه قلبي ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾ قال : علامتك أن لا تستطيع تكليم الناس ثلاث ليال ، وأنت سويٌّ صحيحٌ ، لا علة بك من خرس ، ولا مرض .

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ فخرج زكريا على قومه من مصلاّه ، حين حبس لسانه عن كلام الناس ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ فأشار إليهم بيده أن اذكروا الله صباحاً ومساءً[٢] ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ فلما ولد يحيى وشبَّ قال الله له : خذ التوراة بجدّ ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ وآتيناه الفهم لكتاب الله ، قبل بلوغه سنَّ الرجال ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ ورحمة منَّا به ، ومحبة له آتيناه ذلك ﴿وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً﴾ وطهارة من الذنوب ، وكان لله خائفاً ، مسارعاً لطاعته ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ﴾ وكان مسارعاً في طاعة والديه ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ ولم يكن مستكبراً عن طاعة ربه ،وطاعة والديه ، ولكنه كان متواضعاً متذللاً ، لا يعصي ربه ولا والديه ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ وأمانٌ له من الله يوم ولادته أن يناله الشيطان بالسوء ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ وأمان من الله له من فتنة القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾ ويوم الفزع الأكبر[٣] ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ واذكر في كتاب الله المنزل مريم ابنة عمران ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ حين انفردت

---

(١) الاستفهام للتعجب والسرور لا للإنكار ، أي كيف يكون لي غلام وهذه حالي ؟ قال الطبري : يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذي يكون منه الولد ،لا إنكاراً منه للوعد الذي بُشر به .

(٢) أمرهم بالتفرغ لذكر الله في طرفي النهار ، وقيل : أمرهم بالصلاة أي صلُّوا بكرة وعشياً ، وهذا قول قتادة .

(٣) حيَّاه تعالى في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة والافتقار إلى الله .

فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن
كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى
بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا
مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ
قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ
بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ

***

واعتزلت عن أهلها، في موضع قبل مشرق الشمس ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾ فاتخذت من دون أهلها، ستراً يسترها عن الناس ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ فأرسلنا إليها جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ فتشبه لها في صورة آدمي ، معتدل الخلق ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ قالت : إني أستجير بالرحمن منك أن تنال مني ما حرَّمه الله عليك[1] ، إن كنت تتقي محارم الله ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ قال لها جبريل : إنما أنا رسول ربك يا مريم أرسلني إليك ﴿لأهب لَكِ غلاماً زَكياً﴾ لأمنحك غلاماً طاهراً من الذنوب ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ قالت : من أي وجه يكون لي غلام ؟ ولم يمسسني بشر بنكاح حلال ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ ولم أكن حملته من زنى من الوجه الحرام ؟ ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قال جبريل : هكذا الأمر كما ذكرت ، ولكن ربك قال : خلق الغلام من غير زوج لا يتعذر عليَّ ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ ولكي نجعل الغلام حجة على الناس ، ورحمة منا لك ولمن آمن به ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ وكان خلقه منك أمراً قد قضاه الله ، ومضي في حكمه ، فليس منه بدٌّ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾ فحملته فتنحت به عن الناس ، مكاناً نائياً عنهم .

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فألجأها، ألم الوضع إلى ساق نخلة ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ فقالت : يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه ، وكنت شيئاً نسي فترك طلبه ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ فناداها المولود الذي تحتها أن لا تحزني يا أمه[2] ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ قد أجرى لك ربك تحتك جدولاً ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ وحرّكي جذع النخلة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ يتساقط عليك منها رطبٌ طريٌّ ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ فكلي من الرطب ،

(١) خافت مريم منه وظنته رجلاً يريدها على نفسه لفعل الفاحشة .

(٢) اختلف المفسرون في فاعل ناداها فبعضهم قال «جبريل» وبعضهم قال «عيسى ابن مريم» ورجح ابن جرير القول الثاني ، والقول الأول أظهر ، لأن جبريل هو الذي بشرها وهو الذي أخبرها بما منحها الله من الكرامات الباهرات .

لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾
يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ
فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ
سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

***

واشربي من ماء الجدول ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ وطيبي نفساً بولادتك ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾ فإن رأيت أحداً من بني آدم ، يسألك عن شيء من أمرك ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِياً﴾ فقولي : إني أوجبت على نفسي لله صمتاً ، فلا أكلم أحداً من بني آدم ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ فحملته حتى أتت به قومها ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ فلما رأوها وما معها ، قالوا لها : يا مريم لقد جئتِ بأمر عجيب ، وأحدثتِ حدثاً عظيماً ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ نسبت إلى رجل صالح من قومها[1] ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ ما كان أبوك يعمل الفواحش ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ وما كانت أمك زانية ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيهِ﴾ أشارت لهم أن كلموا عيسى ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ قالوا لها : كيف نكلم من كان رضيعاً في حَجْر أمه ؟ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ قال عيسى لهم : إني عبد الله ، وقد قضى ربي أن يؤتيني الكتاب ، ويجعلني نبياً ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وجعلني معلماً للخير ، نفّاعاً حيثما كنت ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وقضى أن يوصيني بالمحافظة على الصلاة ، وأداء الزكاة ﴿مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ ما كنت في الدنيا موجوداً ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي﴾ وجعلني باراً بوالدتي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ ولم يجعلني مستكبراً فيما أمرني به ، ونهاني عنه ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ والأمان من الله عليَّ من الشيطان وجنده ، أن ينالوني بأذى يوم ولادتي ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ والأمان عليَّ يوم أموت ، من هول المطلع ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ ويوم القيامة ، أن ينالني الفزع الأكبر ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ هذا عيسى ابن مريم ، وما قصصتُه عليكم قول الله وخبره هو الحقُّ ، لا ما قالته اليهود والنصارى ، فاختلفوا في شأنه واختصموا ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ ما ينبغي لله أن يتخذ ولداً ، ولا يصلح ذلك له ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزَّه الله عما يقوله الكافرون ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ

(١) قال قتادة : كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ، مشهوراً بالتقى والصلاح فشبهوها به ، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما يزيد على ألف عام .

وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن
مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ
يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا

***

فَيَكُونُ﴾ إذا قضى الله خلق شيء أو إنشاءه قال له : « كن فيكون » موجوداً حادثاً ، لا يعظم عليه خلقه لأنه لا يخلقه بمعاناة وكلفة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وإنا جميعاً عبيد لله ، فإياه فاعبدوا دون غيره ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ هذا هو الطريق المستقيم ، لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه .

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فاختلف قوم عيسى في شأنه ، وصاروا أحزاباً متفرقين ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فوادي جهنم الذي يدعى « ويلاً »[1] للذين كفروا بالله ، من شهودهم يوم القيامة ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ ما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم في الآخرة ، وما أبصرهم يومئذ للحق ، حين لا ينفعهم الإبصار والسماع !؟ ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لكن الكافرون الذين افتروا الكذب في الدنيا ، في ذهاب عن سبيل الحق ، واضح لمن تأمله ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ وأنذر يا محمد المشركين يوم حَسرتهم وندمهم ، على ما فرطوا في جنب الله ، وأدخلوا النار وأيقنوا بالخلود فيها ، فيا لها من حسرة[2] وندامة !! ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ حين قضى الله بين الخلق ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ والمشركون غافلون عن أهوال يوم القيامة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم لا يصدقون بالقيامة والبعث ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ إنا نحن الوارثون للأرض ومن عليها من الخلق ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنجازي كل عامل بعمله ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ واذكر في القرآن « إبراهيم » خليل الرحمن ، واقصص على هؤلاء قصصه ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ إنه كان من أهل الصدق قد نبّأه الله وأوحى إليه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ حين قال : يا أبت ما تصنع بعبادة الوثن ، الذي لا يسمع ولا يبصر ، ولا يدفع عنك الضُرّ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ

---

(١) إن الإمام الطبري فسر الويل حيث وقع في القرآن باسم واد في جهنم يسمى ويلاً والويل يأتي بمعنى الحسرة والهلاك والقبح . قال الراغب : ومن قال : «ويلٌ وادٍ في جهنم فإنه لم يرد أن ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا ، وإنما أراد أن من قال الله تعالى ذلك فيه ، فقد استحق قعراً من النار وثبت ذلك له . » مفردات القرآن ص ٥٣٥

(٢) يوم القيامة هو يوم الحسرة والندامة ، لأن الموت يذبح فيه ثم ينادى : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، كما صحت بذلك الأحاديث الشريفة .

سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ
مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي
مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ
رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ
وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ

***

﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يا أبت إني قد آتاني الله من العلم ما لم يؤتك **﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾** فاقْبل مني نصيحتي ، أبصِّرْك دين الله ، الذي لا اعوجاج فيه **﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾** يا أبت لا تطع الشيطان **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً﴾** إن الشيطان كان عاصياً لله **﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ﴾** يا أبت إني أعلم أنه سينالك عذاب الله ، إذا متَّ على عبادة الشيطان **﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾** فتكون له ولياً من دون الله فتهلك **﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾** قال له أبوه : أراغبٌ أنت عن عبادة آلهتي يا إبراهيم ؟ **﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾** لئن لم تكفَّ عن ذكر الآلهة بسوء ، لأرجمنَّك بالكلام القبيح والسبّ[1] **﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾** واجتنبني سليماً من عقوبتي إياك[2] **﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾** قال إبراهيم : أمانٌ لك أن ينالك مني مكروه **﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾** سأسأل ربي أن يستر ذنوبك بعفوه **﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾** إن ربي لطيفٌ بي ، يجيب دعائي **﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** وأجتنبكم وما تعبدون من دون الله ، من الأوثان والأصنام **﴿وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾** وأدعوا ربي مخلصاً له العبادة ، عسى أن لا أشقى بدعائه ، فيعطيني ما أسأله **﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** فلما اعتزل إبراهيم قومه ، وعبادة ما كانوا يعبدون من دون الله **﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾** آنسنا وحشته من فراق قومه ، فوهبنا له ابنه إسحٰق ، وابن ابنه يعقوب **﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾** وجعلناهم كلهم - إبراهيم وإسحٰق ويعقوب - أنبياء **﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾** ورزقنا جميعهم من فضلنا ، ما بسطنا لهم من سعة الرزق **﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾** ورزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل عند الناس **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾** واذكر في القرآن المنزل إليك « موسى بن عمران » وخبره **﴿إِنَّهُ**

---

(١) الرجم : الأصل فيه الرمي بالحجارة ، ويستعار للرمي بالظن ، والشتم ، والطرد كقوله تعالى ﴿رجماً بالغيب﴾ والإمام الطبري فسر الرجم حيث ورد في كتاب الله بالشتم والسب ، وفسر الراغب الآية بقوله « لأقولن فيك ما تكره » ونقله ابن كثير عن ابن عباس وغيره وقال في الصفوة : لأرجمنك بالحجارة .

(٢) رجح الإمام الطبري هذا المعنى ورجح غيره أن المراد هو المدة الطويلة .والمعنى : اهجرني دهراً طويلاً .

كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ
هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ
مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ
إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ

***

﴿كَانَ مُخْلَصاً﴾ قد أخلصه الله من خلقه ، واصطفاه لرسالته(١) ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ وكان من الأنبياء المرسلين ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ وناديناه من ناحية الجبل الذي على يمين موسى ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ وأدنيناه للمناجاة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾ ووهبنا لموسى أخاه هارون ، رحمة منا به ، أيّدناه وأعنّاه بنبوته.

﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ واذكر في القرآن « إسماعيل بن إبراهيم » واقصص على قومك خبره ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ كان لا يكذب في وعده ، ولا يخلفه ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ وكان إسماعيل نبياً مرسلاً إلى قومه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ﴾ وكان يأمر أهله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ وكان عمله محموداً عند ربه ، غير مقصِّر في طاعته ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ واذكر في القرآن إدريس فقد كان صادقاً لا يقول الكذب ، وكان نبياً أوحى الله إليه ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ ورفعناه إلى مكان عال مرتفع ، ذكر أنه رفع وهو حيٌّ إلى السماء الرابعة(٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ هؤلاء الذين ذكرتهم في هذه السورة ، هم الذين أنعم الله عليهم فهداهم لطريق الرشد من الأنبياء ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ وهو إدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ومن الذين حملنا في السفينة مع نوح وهو إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم إسحٰق ، ويعقوب ، وإسماعيل ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ ومن ذرية يعقوب : موسى ، وهارون ، وزكريا ، وعيسى ، وأمه مريم(٣) ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ وممن هدينا للإيمان بالله ، واصطفينا لرسالتنا ووحينا ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ إذا تتلى عليهم آيات الله التي أنزلها عليهم في كتبه ، سجدوا لله خضوعاً وتذللاً ، وهم باكون ﴿فَخَلَفَ مِنْ

---

(١) فسر الإمام الطبري الآية على القراءتين بكسر اللام من الإخلاص وبفتحها بمعنى الإصطفاء ، وكذا فعل ابن كثير .

(٢) قال بعض المفسرين معناه : رفعنا ذكره وأعلينا قدره بشرف النبوة والرسالة .

(٣) ذكر الإمام ابن جرير « مريم » في جملة الأنبياء ، والعلماء على أنها صدِّيقة ، وليست نبية ، فإن المرأة لا تكون نبية قط لقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم . . ﴾ وهذا هو الصحيح .

بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ
مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا
مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيّٗا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾

***

﴿بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ فحدث من بعد هؤلاء الأنبياء خلْف سوء، خلفوهم في الأرض ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشهواتِ﴾ تركوا الصلاة ، ولم يؤدوا الزكاة ، وآثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله ﴿فَسَوفَ يَلْقَونَ غَيّاً﴾ فسوف يلقى هؤلاء خسراناً وشراً[1] ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ إلا من تاب من ذنوبه ، وآمن بالله ورسوله ، وأطاع الأوامر واجتنب المحارم ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ فهؤلاء يدخلون الجنة ، ولا يُبخسون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمٰنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يدخلون بساتين إقامة ، التي وعدهم الرحمن بها ولم يروها ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾ إن موعوده بالجنة حقٌّ لأهل طاعته ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلَاماً﴾ لا يسمع أهل الجنة الباطل من القول والكلام ، ولكن يسمعون تحية الملائكة لهم بالسلام ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً﴾ ولهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب ، في قدر وقت الصباح والمساء ، لأنه لا ليل في الجنة ولا نهار ﴿تِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً﴾ هذه الجنة الموصوفة ، هي التي نورثها لعبادنا من كان متقياً الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وما ننزل إلى الدنيا إلا بأمر الله[2] ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ لله ما بين أيدينا من أمر الآخرة ، وما خلفنا من أمر الدنيا ، وما بين وقتنا هذا إلى قيام الساعة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ ولم يكن ربك ذا نسيان فيتأخر نزولي إليك ﴿رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مالك السموات والأرض وما بينهما ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ فالزم طاعته ، واصبر نفسك على العمل بطاعته تفز برضاه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ هل تعلم يا محمد لربك مثلاً[3] في كرمه وجوده ، فتعبده رجاء

---

(١) وقد روى ابن جرير أن « الغيّ » وادٍ أو بئرٌ في جهنم من قيح ودم أهل النّار .

(٢) احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ مدة من الزمن ، واشتاق الرسول إليه ، فلما جاءه جبريل قال له : ما جئت حتى اشتقت إليك فنزلت الآية .

(٣) قال ابن عباس : هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً ؟

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾
فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ
عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا
وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ

***

فضله ؟ ﴿وَيَقُولُ الإنْسَانُ أئِذَا مَا مِتُّ لَسوفَ أُخْرَجُ حَيّاً﴾ يقول الكافر بالبعث : هل سأبعث بعد الممات والفناء ؟ ﴿أوَ لَا يَذْكُرُ الإنْسَانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قبلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ أو لا يذكر المتعجب المنكر ذلك فيعتبر ، ويعلم أن من أنشأه من غير شيء ، لا يعجز عن إحيائه بعد مماته؟﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ فوربك يا محمد لنحشرن هؤلاء المنكرين ، مقرَّنين بأوليائهم من الشياطين ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً﴾ ثم لنحضرنهم قعوداً حول جهنم ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِيّاً﴾ ثم لنأخذن من كل جماعة منهم ، أشدهم على الله عتواً وتمرداً ، فلنبدأن بهم بالعذاب ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً﴾ ثم لنحن أعلم بمن هم أحقُّ بعظيم العقوبة ﴿وَإنْ منكُمْ إلاّ وَارِدُهَا﴾ وليس منكم أحد أيها الناس إلا وارد جهنم[1] ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ كان ورودهم جهنم قضاءً لازماً ، أوجبه الله في أم الكتاب ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ثم بعد ورود الجميع ، ننجي الذين خافوا ربهم ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ وندع الظالمين الذين عبدوا غير الله في النار ، قعوداً على ركبهم .

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإذا قرئت على الناس آياتنا التي أنزلناها على رسولنا ، واضحات لمن تأملها وفكَّر فيها ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً﴾ قال كفار قريش لأصحاب محمد : أينا أوسع عيشاً ، وأنعم بالاً ، وأفضل مسكناً ؟ ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ وأحسن مجلساً ، وأجمع عدداً في المجلس ، نحن أم أنتم ؟! ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾ وكم أهلكنا من أهل الكفر ، من هم أكثر متاعاً من هؤلاء المشركين ، وأحسن منهم منظراً ، وأجمل صوراً ؟ أهلكنا أموالهم ، وغيرّنا صورهم ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدّاً﴾ قل يا محمد للمشركين : من

(١) اختلف السلف في معنى الورود ، فذهب البعض إلى أنه الدخول ، وذهب البعض الآخر إلى أنه المرور على الصراط الكائن على متن جهنم كما وردت الأحاديث بذلك ، وكان المرور أولى بالقبول وهو ما رجحه الطبري ، وهو قول ابن مسعود وقتادة .

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ
أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ
وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾

***

كان منا ومنكم جائراً عن طريق الهدى ، فليطوِّلْ الله له في ضلالته ، ولْيمهله فيما هو فيه ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ إلى أن يأتيهم أمر الله ، إما عذاب عاجل ، أو يلقوا ربهم عند قيام الساعة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ فسيعلمون حينئذ من هو شر مكاناً ، منكم ومنهم ، وأضعف أنصاراً ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ ويزيد الله من آمن به ، وصدق بآياته ، هدى على هداه ، بما يتجدد له من الإيمان والعمل الصالح ﴿وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ والأعمال الصالحات ، خير عند ربك جزاء لأهلها ﴿وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾ وخير رجوعاً وعاقبة ، من مقامات هؤلاء المشركين ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ أفرأيت الذي لم يصدق بحججنا ، وأنكر وعيدنا « وهو العاص بن وائل »[1] ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ وقال : لأوتين في الآخرة مالاً وولداً ﴿أَطَّلَعَ الغَيْبَ﴾ هل علم الغيب ، فعلم أن له في الآخرة مالاً وولداً ؟ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ أم آمن بالله ، فكان بذلك له عهد عند الله أن يؤتيه ما يقول ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ليس الأمر كذلك ، بل كذَّب وكفر، وسنكتب قول هذا الكافر ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً﴾ ونزيده من العذاب بقوله الباطل في الدنيا ، زيادةً على عذاب الكفر ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ ونسلبه ماله وولده ، ويأتينا يوم القيامة وحده لا مال معه ولا ولد ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾ واتخذ المشركون آلهة يعبدونها من دون الله ، لتكون هذه الآلهة عزاً لهم تمنعهم من عذاب الله ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ليس الأمر كما أمَّلوا ، ولكن ستكفر الآلهة في الآخرة بعبادة هؤلاء ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ ويكونون عليهم بلاء ، حيث يتبرأون منهم يومئذ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ ألم تر يا محمد أنَّا سلَّطنا الشياطين على أهل الكفر ، تحركهم بالإضلال ، وتغريهم بالمعاصي حتى يواقعوها ، إزعاجاً وإغواء شديداً ﴿فَلَا تَعْجَلْ

(١) نزلت الآية في « العاص بن وائل » جاءه « خباب بن الأرتّ » يتقاضاه دينه فقال له : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ، فقال له خباب : لا أكفر حتى تموت ثم تبعث أمامي ، فقال له : إني إذا متُّ سأبعث ؟ إذاً فانتظرني إلى ذلك اليوم ، فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك ، فنزلت الآية .

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا
مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ
مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾
إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

* * *

عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ فلا تعجل على هؤلاء بطلب العذاب لهم والهلاك ، إنما نؤخر إهلاكهم ليزدادوا إثماً

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْداً﴾ يوم نجمع الذين خافوا عقاب الله في الدنيا ، ركباناً إلى ربهم[1]﴿وَنَسوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ ونسوق الكافرين الذين أجرموا في الدنيا ، عطاشاً إلى جهنم ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ لا يملك هؤلاء الكافرون الشفاعة لأحد ، حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾ لكن يملك الشفاعة ، من اتخذ عند الرحمن عهداً بالإيمان به ، وتصديق رسوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنِ وَلَداً﴾ وقال الكافرون :الرحمن له ولد ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ لقد جئتم ـ أيها المشركون ـ شيئاً عظيماً منكراً ﴿تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ تكاد السموات يتشقَّقن قِطعاً من هذا القول ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً﴾ وتكاد الأرض تتصدع ، والجبال يسقط بعضها على بعض ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً﴾ أن جعلوا الله ـ سبحانه ـ ولداً ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ وما يصلح لله أن يتخذ ولداً ، لأنه ليس كالخلق الذين تغلبهم الشهوات ، وتضطرهم اللذات إلى جماع الإناث ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾ جميع من في السموات من الملائكة ، ومن في الأرض من الإنس والجن ، يأتون ربهم مقرّين له بالعبودية ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ لقد أحصى الرحمن خلقه كلهم ، وعدَّهم عدّاً فلا يخفى عليه منهم أحد ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾ وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم القيامة ، وحيداً لا ناصر له ، فيقضي الله فيه ما هو قاض ﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إن الذين صدقوا بما جاءهم من الله ، فعملوا به ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ

---

(١) المراد أنه تعالى يحشر المتقين يوم القيامة معزَّزين مكرَّمين ، راكبين على الخيول والنوق كما يفد العظماء على الملوك ، ويسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاةً عطاشاً إذلالاً لهم واحتقاراً .

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم
مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

***

وُدّاً﴾ سيحدث لهم الرحمن حباً ومودة ، في صدور عباده المؤمنين[١]

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ ﴾ فإنما يسرنا القرآن بلسانك يا محمد تقرؤه ، لتبشر به المتقين بالجنة ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾ وتنذر بالقرآن من عذاب الله قومك أهل الجدل بالباطل .

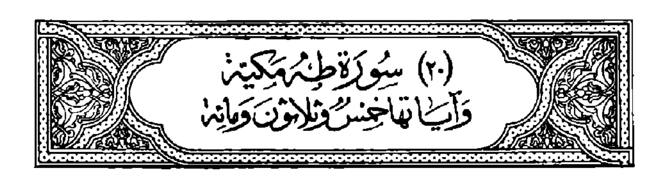
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ وكثيراً أهلكنا قبل قومك من مشركي قريش جماعة من الناس إذ سلكوا مسلكهم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ هل تحس منهم أحداً ، فتراه وتعاينه ؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ أو تسمع لهم صوتاً ؟ بل بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم ، فكذلك هؤلاء المشركون نهلكهم كما أهلكنا من قبلهم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم »

***

---

(١) هذا وعدٌ من الله تعالى لعباده المتقين ، بأنه سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودة ، ومصداقه ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة : « إنَّ الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال له : إني أحبُّ فلاناً فأحبَّه ، فيحبُّه جبريل ثم ينادي في السماء : إن الله يحبُّ فلاناً فأحبوه ، فيحبُّه أهل السماء ، ثم وُضع له القبولُ في الأرض » جعلنا الله من عباده الصالحين . !



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ
وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ

* * *

﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ يا رجل[١] ما أنزلنا القرآن عليك ، لنكلفك ما لا طاقة لك به من العمل ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ وما أنزلنا القرآن إلا تذكرة لمن يخاف عقاب الله ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ هذا القرآن تنزيل من الربّ ، الذي خلق الأرض والسموات العالية ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ الرحمن على عرشه ارتفع وعلا[٢] ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لله ملك جميع الأشياء التي في السموات ، والتي هي في الأرض وما بينهما ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ وله ما تحت التراب ، كل ذلك ملكٌ له ، وهو مدبره ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ وإن تجهر يامحمد بالقول أو تُخفه ، فسواءٌ عند ربك ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ فإن الله لا يخفى عليه ما أسررته في نفسك ، ولم تنطق به ﴿وَأَخْفَى﴾ ويعلم ما هو أخفى من السر ، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الله هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له ، لا معبود سواه ، ذو الأسماء الحسنى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَاراً﴾ وهل جاءك يا محمد حديث موسى حين رأى ناراً ، وكان قد أضل الطريق ؟ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا

(١) ذكر ابن جرير اختلاف العلماء في (طه) ثم رجح أن معناها يا رجل والصحيح الذي عليه أهل التحقيق أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه كلام الله تعالى المعجز ، وليس من وضع البشر . (٢) علوّاً يليق بجلاله من غير تجسيم ولا تشبيه .

هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا
مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

***

إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ فقال لأهله: امكثوا إني وجدت ناراً ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ لعلي أجيئكم بشعلة، لتصطلوا بها ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أو أجد على النار دلالة، تدل على الطريق الذي أضللناه ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فلما أتى موسى النار ناداه الرب ـ سبحانه ـ: ياموسى إني أنا ربك ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ وأمره بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادي ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ نحن اجتبيناك لرسالتنا، فاستمع لما نوحيه إليك، واعمل به ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ إنني أنا المعبود، الذي لا تصلح العبادة إلاّ له، فلا تعبد غيري ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ وأقم الصلاة لتذكرني فيها ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ إن الساعة التي يبعث فيها الخلائق جائية، أكاد أسترها من نفسي[1]، لئلا يطلع عليها أحد ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ لتثاب كل نفس بما تعمل من طاعة ومعصية ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فلا يردّنك عن التأهب للساعة، من لا يصدّق بالبعث بعد الموت، واتّبع هوى نفسه فخالف أمر الله ﴿فَتَرْدَى﴾ فتهلك بذلك.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ وما هذه التي في يمينك يا موسى؟! نبّهه بهذا السؤال إلى أنها خشبة ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ قال موسى: هي عصاي أعتمد عليها، وأضرب بها الشجر اليابس لترعاه غنمي ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ولي فيها حوائج أخرى ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ قال الله تعالى لموسى: ألق عصاك التي بيمينك ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ فألقاها فجعلها الله حية تسعى، وكانت قبل ذلك خشبة يابسة ﴿قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾

---

(١) هذا قول مجاهد، وقال ابن عباس المعنى: لا أظهر عليها أحداً غيري، واختار الطبري رأي مجاهد.

وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾
ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن
لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ
فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ
فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ

***

قال الله تعالى لموسى : خذ الحية ولا تخف منها ، فإننا سنعيدها لهيئتها التي كانت عليها ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيرِ سُوءٍ﴾ واضمم يدك فضعها تحت عضدك ، تخرج بيضاء من غير برص ﴿آيَةً أُخرَى﴾ علامة أخرى على حقيقة ما بعثناك به ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرىٰ﴾ كي نريك من أدلتنا الكبرى ، على عظيم قدرتنا ﴿إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَونَ إِنَّهُ طَغَى﴾ اذهب يا موسى إلى فرعون ، إنه تجاوز قدره ، وتمرد على ربه ، فادعه إلى توحيد الله وطاعته ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ اشرح لي صدري لأجترىء على خطاب فرعون ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وسهِّل عليَّ القيام بما تكلفني به من الرسالة ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وأطلق لساني بالمنطق[1] ، ليفهموا عني ما أخاطبهم به ﴿وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهلِي . هَٰرُونَ أَخِي﴾ واجعل لي عوناً من أهل بيتي أخي هارون ﴿اَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ قوِّ به ظهري وأعني به ، واجعله نبياً مثل ما جعلتني ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ كي نعظمك بتسبيحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً فنحمدك ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ فإنك لا يخفى عليك من أفعالنا شيء ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ قال الله له : قد أعطيت ما سألت يا موسى ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ ولقد أنعمنا وتفضلنا عليك يا موسى قبل هذه المرة ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَي أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ حين أوحينا إلى أمك ـ وكان فرعون يقتل كل مولود ذكر من قومك ـ ما أوحيناه إليها ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ في التَّابُوتِ﴾ أن ضعي ابنك في التابوت[2] ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي اليَمِّ فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فاقذفي التابوت في النيل ، يلقه النيل بالساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ يأخذه فرعون الذي هو عدوّ لله ولموسى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ حبّبتك إلى «آسية» امرأة فرعون حتى تبنّتك وربّتك ، وإلى

(١) الحكمة في طلب حل العقدة كي لا يقع في أداء الرسالةالخلل . روي أنه كان بلسان موسى عجمة لأنه كان ذات مرة في حجر فرعون فأخذ بلحيته ، فغضب فرعون وأراد قتله فقالت له زوجته : إنه صغير لا يعقل ثم أشارت عليه بأن يمتحنه فوضع له جمرة فالتقطها بفمه فكانت بلسانه عقدة ، والرواية ذكرها الطبري عن مجاهد وابن جبير .

(٢) التابوت : الصندوق من خشب ونحوه .

عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن
يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾

***

فرعون حتى كفَّ عنك شره ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ولتُربَّى على مرأى مني ومحبة[١] ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ حين تمشي أختك تتبعك حتى وجدتك ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ فتقول : هل أدلكم على من يَضُمُّه إليه فيرضعه ويربّيه ؟ ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ﴾ فرددناك إلى أمك كيما تقرّ عينها بسلامتك من الغرق ،وكيْ لا تحزن عليك من الخوف ﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ﴾ وقتلت القبطي حين استغاثك الإسرائيلي ،فخلّصناك منهم حتى هربت إلى أهل مدين ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ وابتليناك بلاءً بعد بلاء ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فخرجت من مصر خائفاً إلى أهل مدين ، فمكثت فيهم سنين .

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى﴾ ثم جئت للوقت الذي أردنا إرسالك فيه إلى فرعون ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ واخترتك واصطفيتك لتبليغ رسالتي ، نعمةً مني عليك ﴿إذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ إذهب يا موسى أنت وأخوك هارون بأدلتي وحججي ، ولا تضعفا في ذكري ، فإن ذكركما لي يثبّت أقدامكما ، ويقوّي عزائمكما ﴿إذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ إذهبا إلى فرعون ، إنه تمرّد في ضلاله وغيّه ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ فأبلغاه رسالتي ، وعِظاه ليتذكر فيرجع عن غيّه ، أو يخشى ربه فيرتدع عن طغيانه ﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ قالا ربنا: إنا نخاف فرعون أن يعجل علينا بالعقوبة إن دعوناه ، أو يعتدي علينا بتمرده وطغيانه ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ قال: لا تخافا فرعون فإني أعينكما عليه، وأنا أسمع وأرى ما يجري بينكما، لا يخفى عليّ شيء ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾ فأتياه فقولا له إنا رسولا

(١) من عجائب صنع الله أن موسى تربى في قصر فرعون معززاً مكرماً ، وكان هلاك فرعون على يديه ، وهذا من عناية الله بموسى ورعايته له ، فسبحان من يربي حبيبه في حجر عدوه .

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ
شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

* * *

ربك ، أرسلنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل ، فأرسلهم ولا تعذبهم بما تكلفهم به من أعمال رديئة ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ قد جئناك بمعجزة ظاهرة على إرساله لنا إليك ، فإن لم تصدقنا أريناك إياها ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ والسلامة لمن اتبع بيان الله ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ إننا قد أوحى ربنا إلينا ، أن عذابه على من كذب بما ندعوه إليه من التوحيد ، وأدبر معرضاً عن الحق ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ فقال فرعون : فمن ربكما يا موسى ؟ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أجابه موسى : ربنا الذي أعطى كل شيء نظير خلقه ، في الصورة والهيئة ، ثم هداه لسائر منافعه[1] ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ قال فرعون : فما شأن الأمم الخالية ، التي لم تقرَّ لله بالوحدانية ؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ قال موسى : علم هذه الأمم التي مضت ، في أم الكتاب لا علم لي بأمرها ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ لا يخطىء ربي في تدبيره ، ولا ينسى فيترك فعله ، فكل فعله حكمة وصواب ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ مهّد الأرض لمنفعتكم ﴿وسَلَكَ لكُمْ فِيها سُبُلاً﴾ وجعل لكم في الأرض طرقاً ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ وأنزل من السماء مطراً ، فأخرجنا به ألواناً من نبات ، مختلفة الطعوم والرائحة والمنظر ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ كلوا من طيب ما أخرجنا لكم من الغذاء ، وارعوا بهائمكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ إن فيما وصفتُ من قدرة الله ، لدلالات على وحدانية ربكم ، لأهل العقول لأنهم أهل التفكر والاعتبار ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ من الأرض خلقناكم ، وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ومن الأرض نخرجكم أحياء بعد مماتكم ، مرة أخرى كما أخرجناكم منها أول مرة

---

(١) قال ابن عباس : خلق لكل شيء زوجه ثم هداه لمنكحه ، ومطعمه ، ومشربه . قال الطبري : كالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها أزواجاً ، فلم يزوج الإنسان بالإناث من البهائم ، ولا البهائم بالإناث من الإنس . أقول : وهذا الجواب من موسى في غاية البلاغة والحسن والبيان ، لاختصاره ودلالته على جميع المخلوقات ، ومعنى الآية : ربنا الذي أبدع كل شيء خلقه ، ثم هداه لمنافعة ومصالحه ، فأعطى العين الهيئة التي توافق الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق السماع ، وكذلك اللسان ، والفم ، واليد ، والرجل .

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ
بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ
وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟
صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟

***

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ولقد أرينا فرعون حججنا كلها ، فأبى أن يقبل الحق استكباراً وعتواً ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ قال فرعون : أجئتنا يا موسى بسحرك ، لتخرجنا من منازلنا ودورنا ؟ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ فلنأتينك بسحر مثل الذي جئتنا به ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ﴾ فاجعل بيننا موعداً لا نتعداه ، ولا نخلف ذلك الموعد نحن ولا أنت ﴿مَكَاناً سُوًى﴾ بمكان عدل ووسط بيننا وبينك ، فننظر أينا يغلب صاحبه ؟ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ قال موسى : موعدكم للاجتماع ، يوم عيدكم الذي تتزينون فيه ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحىً﴾ وأن يساق الناس من كل فج وناحية وقت الضحى ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ فأعرض فرعون عن الحق ، فجمع سحرته ثم جاء للموعد معهم ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ قال موسى للسحرة : لا تختلقوا على الله الكذب ، فيستأصلكم بهلاكٍ فيبيدكم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ ولم يظفر بحاجته من اختلق الكذب على الله ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ تخاصم السحرة أمرهم بينهم ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ وتناجوا فيما بينهم سراً ﴿قَالُوا : إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ قالوا في مناجاتهم : إن موسى وهارون لساحران ، يريدان إخراجكم من منازلكم بسحرهما ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ ويغلبا على ساداتكم وأشرافكم[1] ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً﴾ فأحكموا أمركم ومكركم ، واعزموا عليه ، وجيئوا صفوفاً ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ قد ظفر بحاجته اليوم ، من غلب صاحبه فقهره ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ أتى السحرة صفاً ثم قالوا لموسى : إما أن تلقي ما معك قبلنا ، وإما أن نلقي نحن قبلك؟ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ قال موسى للسحرة : بل ألقوا ما معكم قبلي ﴿فَإِذَا

(١) هذا قول مجاهد والسدي ، وقال ابن زيد : المراد يذهبا بطريقتكم الحسنة التي هي أفضل الطرق ، وهذا القول أظهر .

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ
ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ

***

حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ فألقوا ما معهم من الحبال والعصي ، وسحروا أعين الناس ، فخيل إلى موسى أن الحبال والعصي تتحرك ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ فأضمر موسى في نفسه خوفاً ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ قلنا لموسى حينذاك : لا تخف إنك أنت الغالب على فرعون وجنده ، والقاهر لهم ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ وألق عصاك تبتلعْ حبالهم ، وعصيَّهم ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ إن الذي صنعه السحرةُ مكرٌ من ساحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ولا يظفر الساحر بما يطلبه أين كان ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ فألقى موسى عصاه ، فابتلعت العصيَّ والحبال فآمن السحرة ، وسجدوا لله ربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون .

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ قال فرعون للسحرة : أقررتم لموسى بما دعاكم إليه ، من قبل أن أطلق ذلك لكم ؟ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ إن موسى لعظيمكم في السحر ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم مخالفاً بين القطع ، في اليمين واليسار[١] ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ ولأصلبنكم على جذوع شجر النخل[٢] ، ولتعلمن ـ أيها السحرة ـ أينا أشد عذاباً لكم وأدوم ، أنا أو موسى ؟ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ قال السحرة لفرعون : لن نتبعك ، ونكذِّب ما جاء به موسى من الحجج والأدلة ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ ولن نؤثرك على الذي خلقنا[٣] ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ فاعمل بنا ما بدا لك[٤]

---

(١) وذلك بأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو بالعكس .

(٢) روي عن ابن عباس أنه قال: كانوا في أول النهار سَحَرةً ، وفي آخر النهار شهداء بررة .

(٣) وقال بعض المفسرين : هذا قسم والمعنى لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات واللّهِ الذي خلقنا ، وهذا أوضح وأظهر

(٤) قال الحسن : سبحان الله ، قومٌ كفار ثبت في قلوبهم الإيمان طرفة عين ، فلم يتعاظم عندهم أن قالوا في ذات الله :﴿فاقض ما أنت قاض﴾والله إن أحدهم ليصحب القرآن ستين عاماً ثم يبيع دينه بثمن غبن .

مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ
مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾
وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ
طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾
وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن

***

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إنما تعذبنا في هذه الحياة الفانية ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ إنا صدَّقنا بربنا ، ليعفو لنا عن ذنوبنا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وليغفر لنا عملنا بالسحر الذي أكرهتنا عليه ﴿واللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ والله خير منك يا فرعون، وأبقى عذاباً لمن عصاه ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ إنه من يأت ربه مكتسباً الكفر ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى﴾ فإن له جهنم مأوى ومسكناً ، لا تَخْرُج نفسه فيموت ، ولا تستقر في مقرها فتطمئن[1] ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ ومن يأته موحداً لا يشرك به شيئاً قد عمل ما أمره به ربه ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى﴾ فأولئك لهم درجات الجنة العالية ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة لا ظعن عنها ، ولا فناء لها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ تجري الأنهار من تحت أشجارها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ وذلك ثواب من تطهر من الذنوب ، ولم يدنس نفسه بالمعصية ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ ولقد أوحينا إلى نبينا موسى ، أن سر ليلاً بعبادي من بني إسرائيل ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً في البَحْرِ يَبَساً﴾ فاتَّخذ لهم في البحر طريقاً يابساً ﴿لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾ لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده ، ولا تخشى غرقاً ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَونُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ فأتبعهم فرعون بجنوده حين قطعوا البحر ، فعلاهم من البحر ما علاهم ، فغرقوا جميعاً

﴿وأضلَّ فِرْعَونُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ فسلك بهم فرعون طريق النار ، فلم يهدهم ولم يهتدوا ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ وقلنا : يا بني إسرائيل قد أنقذناكم من عدوكم فرعون ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوَى﴾ وعدناكم يا بني إسرائيل جانب جبل الطور لإنزال التوراة عليكم ، كما أنعمنا عليكم بالمنّ والسلوى ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ كلوا يا بني إسرائيل من شهيَّات رزقنا وحلاله ﴿وَلَا تَطْغَوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ ولا تعتدوا فيظلم بعضكم بعضاً ،

---

(١) معنى الآية أن المجرم لا يموت في جهنم فينقضي عذابه ، ولا يحيا في جهنم الحياة الطيبة الهنيئة .

يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ * وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن
قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ
بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا
أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا
لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾

***

فتنزل عليكم عقوبتي ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ ومن ينزل عليه غضبي ، فقد تردَّى وشقي ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ وإني لذو سترٍ لمن رجع عن شركه ﴿وَآمَنَ﴾ وأخلص في عبادته ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ وأدى فرائضي ، واجتنب معاصيَّ ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ثم لزم ذلك فاستقام عليه ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ أيُّ شيء أعجلك عن قومك يا موسى ، حتى تقدمتهم[1] وخلفتهم وراءك ؟ ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ قال : قومي على أثري يلحقون بي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ وعجلت أنا فسبقتهم ، كيما ترضى عني ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ قال الله : فإنا قد ابتلينا قومك بعبادة العجل ، بعد فراقك إياهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ودعاهم السامري إلى عبادة العجل ، فأضلهم عن الحق ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ فانصرف موسى إلى قومه متغيظاً حزيناً ، لما أحدثوا بعده من الكفر بالله ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ قال موسى : ألم يعدكم ربكم أنه غفار ، وينزل عليكم المن والسلوى ؟ ﴿أَفَطَالَ عليكُمُ الْعَهْدُ﴾ أفطال عليكم العهد بي ، وبجميل نعم الله عندكم ، وأياديه لديكم ؟ ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عليكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أم أردتم أن ينزل عليكم غضب من ربكم بكفركم بالله؟ ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوعِدِيْ﴾ فلم تسيروا على أثري ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ قالوا : ما أخلفنا عهدك بقدرتنا وطاقتنا ، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الفتنة ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ ولكنا حملنا أثقالاً من حلي آل فرعون ، فرميناها في الحفرة .

﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ وكذلك صنع السامري ، ألقى ما معه من أثر حافر فرس جبريل ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾ فأخرج لهم السامري ـ مما قذفوه ومما ألقاه ـ عجلاً له صوت البقرة[2] ﴿فَقَالَ هَذَا إِلَهُكُمْ وإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ فقال لهم السامري : هذا معبودكم ومعبود موسى ، وقد

(١) تعجَّل موسى وتقدَّم على قومه شوقاً إلى كلام ربه .

(٢) قال ابن كثير : دعا السامري أن يكون عجلاً ، فكان عجلاً له صوت استدراجاً وإمهالاً واختباراً ، وعكف بنو إسرائيل على عبادة العجل .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ
إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا
مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ
بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ
يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى
نَفْسِى ﴿٩٦﴾

***

نسي موسى ربه أنه العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أفلايرون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم ، لا يكلمهم ولا يردُّ عليهم جواباً ؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا يقدر على ضر ولا نفع ، فكيف يكون إلهاً ؟ ! ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ ولقد قال هارون لعبدة العجل : يا قوم إنما اختبر الله إيمانكم بهذا العجل ليعلم به الصحيح الإيمان من الشاك في دينه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ﴾ وإن ربكم الرحمن الذي عمَّ جميع الخلق برحمته ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فاتبعوني في عبادة الله ، وأطيعوا أمري في إخلاص العبادة له ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فقالوا له : لن نزال مقيمين على عبادة العجل ، حتى يرجع موسى إلينا ﴿قَالَ يَاهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ قال : يا هرون أيُّ شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله وعبدوا العجل ، أن لا تتبعني بالسير بالمؤمنين من ذلك المكان ؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أفعصيت أمري بذلك ؟ ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره إليه ، فقال: يا ابن أمي[1] لا تفعل ذلك ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إني خفت إن فعلت ذلك أن تقول : فرَّقت بين جماعتهم ، فتركت بعضهم وجئت ببعضهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ولم تحفظ قولي ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ قال: ما شأنك يا سامريُّ ، وما الذي دعاك إلى ما فعلته ؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ قال : علمت ما لم يعلموه[2] ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ فأخذت بكفي تراباً من أثر حافر فرس جبريل ، فألقيتها على الحلية ، فصارت عجلاً له خوار ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ وكذلك زينت لي نفسي .

---

(١) خاطبه بقوله﴿يا ابن أمَّ﴾أي يا أخي لاستدرار الشفقة والعطف ، فإن ذكر الأم هنا أرقُّ وأبلغ في العطف والحنان .

(٢) هكذا فسره الطبري وهو قول لابن عباس ، وقال ابن كثير : أي رأيت ما لم يروه ، رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون راكباً على فرسه ، فقبضت من أثر حافر فرس جبريل .

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾
كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ
الْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ
إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾

***

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ﴾ قال موسى : فاذهب فإن لك في أيام حياتك ، أن تقول لا أَمَسُّ أحداً ولا يَمسُّني أحد(١) ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ وإن لك موعداً لعقوبتك على إضلال القوم ، لن يخلفه الله لك ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ وانظر إلى معبودك الذي أقمت تعبده ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً﴾ لنحرقنه بالنار ، ثم لنلقينَّ رماده في البحر ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ما لكم أيها القوم معبود إلا الله الذي لا تنبغي أن تكون العبادة إلّا له ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أحاط بكل شيء علمه ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ كما قصصنا عليك أخبار بني إسرائيل ، كذلك نخبرك بأنباء الأشياء الماضية التي لم تشاهدها ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ وقد آتيناك يا محمد قرآناً من عندنا ، يتَّعظ به أهل الفهم ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً﴾ من ولّى عنه ولم يصدِّق به ، فإنه يحمل يوم القيامة إثماً عظيماً ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين في النار بأوزارهم ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾ وساء ذلك الحمل من الذنوب ، فقد أوردهم مهلكة لا منجى منها ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم ينفخ إسرافيل في الصور ﴿وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ ونسوق أهل الكفر إلى القيامة ، زرقاً من شدة العطش(٢) ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً﴾ يتهامسون بينهم ما لبثتم في الدنيا إلا عشرة أيام ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ نحن أعلم منهم عند إسرارهم بما يقولون ، لا يخفى علينا منه شيء ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ حين يقول أوفاهم عقلاً : ما عشتم في الدنيا إلا يوماً واحداً (٣) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾

---

(١) روي أن موسى أمر بني إسرائيل ألا يؤاكلوه ولا يخالطوه ولا يبايعوه .

(٢) قال ابن كثير : قيل معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال ، وقال الراغب : أي عمياً لا نور لعيونهم .

(٣) قال الطبري : ينسون من عظيم ما يعاينون من هول يوم القيامة ، ما كانوا فيه في الدنيا من النعيم واللذات ، حتى يخيّل إلى أعقلهم وأفهمهم أنهم لم يعيشوا في الدنيا إلا يوماً واحداً .

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ
لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

***

ويسألك قومك يا محمد عن الجبال فقل يذريها ربي ويطيّرها بقلعها من أصولها ، ودكّ بعضها على بعض ، فيجعلها هباءً منبثاً ﴿**فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً**﴾ فيدع الأرض ملساء مستوية ، لا نبات فيها ولا ارتفاع ﴿**لَا تَرى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً**﴾ لا ترى في الأرض ميْلاً ،ولا ارتفاعاً ،ولا انخفاضاً ﴿**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ**﴾ يومئذٍ يتبع الناس صوت داعي الله ، إلى موقف القيامة لا انحراف لهم عنه .

﴿**وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً**﴾ وسكنت أصوات الخلائق للرحمن ، فلا تسمع لناطق منهم منطقاً **قال مجاهد** : لا تسمع من يحرك شفتيه ولسانه[1] ﴿**يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾ يوم القيامة لا تنفع الشفاعة من أحد ، إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ، ورضي قوله فتقبل شفاعته ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ يعلم ربك ، ما يصيرون إليه من الثواب والعقاب ، ويعلم ما خلّفوه وراءهم من أمر الدنيا ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾ ولا يحيط خلقه علماً بربهم ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ**﴾واستسلمت وجوه الخلق وذلّت للحي الذي لا يموت ، القائم على خلقه بتدبيره شئونهم ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً**﴾ ولم يظفر بحاجته من كفر بالله ، وعمل بمعصيته ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾ من يعمل صالحات الأعمال ، وهو مصدّق بالله ﴿**فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً**﴾ فلا يخاف من الله أن يظلمه فيعاقبه على سيئات غيره ، ولا يُنقصه ثواب حسناته ﴿**وَكَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً**﴾ وكذلك أنزلنا هذا القرآن عربياً إذ كانوا عرباً ﴿**وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ وخوّفناهم فيه بضروب الوعيد ، كي يتقوا عذابنا ﴿**أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً**﴾ أو يحدث لهم تذكرة ، فيتعظوا وينزجروا ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ تعالى الله الذي قهر سلطانه كل ملك وجبار ، عما يصفه به المشركون ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾

(١) قال الراغب : الهمس : الصوت الخفي ، وهمس الأقدام أخفى ما يكون من صوتها ، وقد ذكر المفسرون في الآية قولين : هما وطء الأقدام ، والصوت الخفي .

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ
لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

***

فلا تعجل بقراءة القرآن على أصحابك ، من قبل أن يُوحى إليك بيانُ معانيه ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ إلى ما علمتني ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ ولقد وصينا آدم بعدم طاعة الشيطان ، فترك عهدي ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ولم نجد له عزم قلب على حفظ العهد

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ فسجد الملائكة كلهم ، إلا إبليس أبى أن يسجد ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾فقلنا يا آدم إن إبليس عدو لكما ، فلا تطيعاه فيما يأمركما به ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ فلا يخرجنكما بمعصيتكما من الجنة ، فتشقى يا آدم لأن عيشك يكون من كدِّ يمينك ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إن لك أن لا تعرف الجوع في الجنة ولا العري ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ وأنك لا تعطش في الجنة ما دمت فيها ، ولا يؤذيك حرُّ الشمس ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ فألقى الشيطان[1] إلى آدم وحدثه ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ فقال له : هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خُلِّدت ، وملكت ملكاً لا ينقضي ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ فأكل آدم وحواء من الشجرة ، التي نُهيا عن الأكل منها ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ فانكشفت لهما عوراتهما ، وكانت مستورة عن أعينهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ وأقبلا يوصلان على جسديهما من ورق الجنة ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فخالف آدم أمر ربه ، وتعدى إلى الأكل من الشجرة ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ثم اصطفاه الله فهداه إلى التوبة ، ووفقه لها ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال الله لآدم وحواء : اهبطا جميعاً إلى الأرض ، أنتما عدوٌّ لإبليس وذريته ، وإبليس

---

(١) يظهر خطأ اعتقاد النصرانية في أن الشيطان وسوس لحواء ، وحواء أغرت آدم ، مما جعلهم ينظرون إلى المرأة على أنها دنس لا يدخل ملكوت الله إلا من تطهر منها ، فيبين القرآن أن الشيطان وسوس لآدم وفي آية أخرى﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ
كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ
وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ

* * *

عدوُّكما، وعدوُّ ذريتكما ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدى﴾ فإن يأتكم بيان لديني ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ فمن اتبع بياني وعمل به ، فلا يزيغ عن محجة الحق ، ولا يشقى بعقاب الله(١) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ ومن تولى ولم يستجب لأمري ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ فإن له عيشاً ضيقاً شديداً في القبر ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ونحشره في القيامة أعمى عن الحجة والرؤية ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ قال : رب . لِمَ حشرتني أعمى عن رؤية الأشياء ، وقد كنت في الدنيا مبصراً ؟ ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ قال : حشرتك أعمى لأنك أعرضت عن أدلتي وحججي ، فتركتها في الدنيا ولم تؤمن بها ﴿وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسى﴾ وكذلك اليوم ننساك فنتركك في جهنم ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ وكذلك نثيب من عصى ربه ، ولم يؤمن بآياته ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ ولعذاب الله في الآخرة ، أشدُّ لهم من عذاب القبر وأدوم ، لأنه إلى غير نهاية .

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُونِ﴾ أفلم يبين للمشركين، كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم ؟ ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يمشون في مساكنهم ودورهم ، ويرون آثار عقوبتنا بهم على كفرهم، فيتعظوا ويعتبروا؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ إن في تلك الآثار ،لدلالات وعبراً وعظات لأهل العقول ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ولولا ما سبق أن الله قضى لهم أجلاً ، وسمَّى لهم وقتاً في أم الكتاب هم مستوفوه ، للازمهم الهلاك عاجلاً ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ﴾ فاصبر يا محمد على أذى قومك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وصلِّ حامداً لربك ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة

---

(١) قال ابن عباس : من قرأ القرآن واتَّبع ما فيه ، عصمه الله من الضلالة ، ووقاه من هول يوم القيامة ، وتلا الآية﴿فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى﴾.

فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا
نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾
وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ
وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

***

الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ وفي ساعات الليل صلاة العشاء ﴿وأَطْرَافَ النَّهار﴾ صلاة الظهر والمغرب ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ كي يرضيك الله ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ولا تنظر ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ إلى ما جعلنا لأصناف هؤلاء المعرضين عن آيات ربهم ﴿زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعةً في حياتهم الدنيا ، يتمتعون بزهرتها ونضرتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم في ذلك ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ورزق ربك في الآخرة ، خير مما متعناهم به وأدوم ، لأنه لا انقطاع له ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وأمر يا محمد أهلك بالصلاة، واصطبر على القيام بها ، وأدائها بحدودها ﴿لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً﴾ لانسألك مالاً ﴿نحن نرزقك﴾ نحن نعطيك المال ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ والعاقبة الصالحة لأهل الخشية من الله ﴿وَقَالُوا لَولاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّه﴾ وقال المشركون : هلاَّ يأتينا محمد بآية من ربه ، كما أتى الأنبياء أقوامهم !! ﴿أَوَ لَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ أو لم يأتهم بيان ما في الكتب التي قبل القرآن ، من أنباء الأمم ، أهلكناهم لما سألوا الآيات فكفروا بها !؟ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين بعذاب، من قبل تنزيل القرآن وبعثة الرسول ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَينَا رَسُولاً﴾ لقالوا يوم القيامة : ربَّنا هلاَّ أرسلت إلينا رسولاً ، يدعونا إلى طاعتك !! ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ فنتبّع أمرك ونهيك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ من قبل أن نذل بتعذيبك ونُهانَ به ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ قل يا محمد: كلكم أيها المشركون منتظر ، ينتظر دوائر الزمان ، وما يئول إليه أمر الآخر ، فترقبوا وانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ فستعلمون إذا قامت القيامة ، من أهل الطريق المستقيم ، ومن المهتدي إلى الطريق العادل ، أنحن أم أنتم ؟؟

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طــه»



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ
افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾

***

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ دنا حساب الناس على أعمالهم في الدنيا[١] ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وهم في الدنيا في سهو وغفلة ، عمَّا الله فاعلٌ بهم يوم القيامة ، قد تركوا الفكر فيه ، والاستعداد له جهلاً منهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ ما يُحدِث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن ، يذكِّر الناس به ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إلا استمعوا لتلاوته ، وهم يلهون ويلعبون ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ غافلة عنه قلوبهم ، لا يتدبرون ولا يتفكرون فيما فيه من الحجج ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وأخفى المعرضون عن ذكر الله ، الظالمون لأنفسهم ، المناجاةَ بينهم ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فقالوا لبعضهم : أتقبلون السحر وتصدّقون به ، وأنتم تعلمون أن القرآن سحر ؟ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال محمد : ربي يعلم قول كل قائل في السماء والأرض ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهو السميع لقولهم ، العليم بصدقي وحقيقة ما أدعوكم إليه ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ بل قال بعضهم : هو أهاويل[٢] رؤ يا رآها في النوم ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ وقال بعضهم : هو اختلاقٌ ، افتراه من قبل نفسه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وقال بعضهم : بل محمد شاعر ، جاءكم بشعر ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ

---

(١) في ذكر اقتراب القيامة تنبيه للغافلين ، وزجرٌ للمذنبين وإيقاظ لجميع المكلفين إلى أهوال القيامة .
(٢) أهاويـل : بمعنى رؤى منامية مخيفة رآها في نومه .

﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا وَٱرْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُوا يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ۝١٥﴾

***

الأَوَّلُونَ﴾ فليجئنا محمد ـ إن كان صادقاً ـ بحجة على حقيقة ما يقوله ، كما جاءت به الرسل الأولون من قبله **﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾** لم يؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية ، التي أهلكناها مع مجيء رسلها بالآيات المعجزات **﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾** أفهؤلاء المكذبون يصدّقون إن جاءتهم آية ؟! **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِليهِمْ﴾** وما أرسلنا قبلك يا محمد إلى أمة من الأمم ، إلا رجالاً مثلهم لا ملائكة، نوحي إليهم ما نريد ، فلماذا أنكروا إرسالك ؟ **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** فاسألوا أهل التوراة والإنجيل عن الرسل ما كانوا ؟ يخبرونكم عنهم **﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾** وما جعلنا الرسل خلقاً لا يأكلون الطعام ، بل جعلناهم أجساداً مثلك **﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾** ولا كانوا أرباباً لا يموتون

﴿ثُمّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ﴾ ثم صدقنا رسلنا ما وعدناهم به ، من هلاك قومهم المكذبين ، بعد مجيء آيات الله **﴿فَأَنْجَينَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾** فأنجينا الرسل ، وأتباعهم الذين صدَّقوهم **﴿وَأَهْلَكْنَا المُسْرِفِينَ﴾** وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم **﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِليكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرِكُمْ﴾** لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه شرف لمن اتبعه وعمل بما فيه **﴿أَفَلَا تَعْقِلونَ﴾** أفلا تعقلون آياته ؟ **﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾** وكثيراً أهلكنا من أهل قرية ، كانت كافرة بالله ، مكذّبة رسله **﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾** وأحدثنا بعد إهلاك أهل هذه القرية سواهم **﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾** فلما عاينوا عذابنا قد حلَّ بهم ، ورأوه ووجدوا مسَّه **﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾** إذا هم يهربون من قريتهم سراعاً منهزمين **﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾** لا تهربوا وارجعوا إلى ما نُعِّمتم فيه من عيشتكم ومساكنكم **﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾** لعلكم تُسألون من دنياكم شيئاً . . وهذا بطريق الاستهزاء[1] **﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾** قالوا : يا ويلنا إنا ظلمنا أنفسنا بكفرنا بربنا **﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾** فما زالوا يدعون بالويل **﴿حَتَّى**

---

(١) قال الطبري : وهذا على وجه السخرية والاستهزاء كما نقل عن قتادة

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا
فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾
وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ
ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ
لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ

***

جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ حتى قتلهم الله وحصدهم بالسيف ، وأصبحوا هالكين قد انطفأت شرارتهم ، وسكنت حركاتهم ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بينَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ وما خلقنا السماء والأرض عبثاً ولعباً ، وإنما خلقناهما حجة على الناس ، ليعتبروا فيعلموا أن العبادة لا تصلح إلاّ له ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لو أردنا أن نتخذ زوجة وولداً ، لاتخذنا ذلك من عندنا ، ولكنا لا نفعل ذلك ، لأنه لا ينبغي أن يكون لله ولدٌ ، ولا صاحبة ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ بل ننزل كتاب الله الحق ، على الكفر وأهله ، فيهلكه ﴿فَإِذا هُوَ زَاهِقٌ﴾ فإذا هو هالك مضمحل ﴿وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ولكم الويل من وصفكم ربكم بالقول الباطل ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ ولله ملك جميع من في السموات والأرض ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ والملائكة الذين عند ربهم ، لا يستنكفون عن عبادتهم له ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون ولا يملُّون من طول خدمتهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ تسبّح ملائكته ربهم بالليل والنهار ﴿لا يَفْتُرُونَ﴾ لا يسأمون من تسبيحهم إياه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ هل هذه الآلهة التي اتخذها المشركون ، يحيون الأموات ، وينشرون الخلق ؟! ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ لو كان في السموات والأرض آلهة ، تصلح لهم العبادة سوى الله ، لفسد أهل السموات والأرض ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فتنزيهاً لله وتبرئة له ، مما يفتري عليه هؤلاء المشركون ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لا سائل يسأل رب العرش ، عن الذي يفعل بخلقه لأنهم عبيده ﴿وَهُمْ يُسْأَلُون﴾ وجميع العباد مسؤولون عن أفعالهم ، ومحاسبون على أعمالهم ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾أم اتخذ المشركون من دون الله آلهة ، تنفع وتضرُّ ، وتحيي وتميت ؟! ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ قل لهم : هاتوا بيِّنتكم التي تدل على صدقكم فيما تزعمون .

﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ هذا القرآن خبر من معي مما لهم من ثواب الله أو عقابه ﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾

فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟
ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن
دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ

***

وخبر من قبلي من الأمم ، وما الله فاعل بهم في الآخرة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الحَقَّ﴾ ولكن أكثر هؤلاء المشركين ، لا يعلمون الصواب فيما يأتون ويذرون ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ فهم معرضون عن الحقّ ، جهلاً منهم به ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ أنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول ، إلى أمة من الأمم ، إلا نوحي إليه أنه لا معبود تصلح العبادة له سواي ، فأخلصوا لي العبادة ، وأفردوا لي الألوهية ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ وقال الكافرون اتخذ الرحمن ولداً من ملائكته ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له عن ذلك ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ما الملائكة إلا عباد أكرمهم الله ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم ، ولا يعملون عملاً إلا بأمره ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعلم ما بين أيدي ملائكته مما هم فيه قائلون وعاملون ﴿وما خلفهم﴾ ويعلم ما مضى من الأزمان وما عملوا فيه ، لا يخفى عليه شيء ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لمَنِ ارْتَضَى﴾ ولا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ وهم من خوف الله حذرون أن يعصوه ، ويخالفوا أمره ونهيه ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إنِّي إلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ ومن يقل من الملائكة إني إله من دون الله ، نثيبه على قوله ذلك جهنم ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ كذلك نجزي جهنم كل من ظلم نفسه فكفر ، وعبد غير الله ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أو لم ينظر هؤلاء الكفار بأبصار قلوبهم ، فيعلموا أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ، فصدعناهما وفرجناهما، فتقنا السماء بالغيثِ ، والأرض بالنبات[1] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وأحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ أفلا يصدقون بذلك ، ويقرون بألوهية من فعل ذلك ، ويفردونه بالعبادة ؟

﴿وَجَعَلْنَا في الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وجعلنا في الأرض جبالاً ثابتة ، لئلا تتكفأ بالناس ،

(١) يجب التنبيه إلى أن هذه الآية الكريمة ليس فيها أي دليل للنظرية القائلة بأن الكون كان سديماً غازياً ثم تفرق إلى كواكب ونجوم ، وذلك لأن مراد تلك النظرية إثبات أن لا خالق فاعل في هذا الكون ، والآية الكريمة تثبت أن الله هو الفعال الوحيد في هذا الوجود .

بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا
مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ
قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ
هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ

***

وليثبتوا على ظهرها ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وجعلنا في الأرض أعلاماً طُرُقاً ، ليهتدوا إلى السير فيها ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ وجعلنا السماء سقفاً للأرض ، وحفظناها من كل شيطان ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وهؤلاء المشركون يعرضون عن تدبر ما فيها من الحجج ، ودلالتها على وحدانية خالقها ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ والله الذي خلق لكم ـ أيها الناس ـ الليل والنهار ، نعمة منه عليكم ، وحجة على عظيم سلطانه ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وخلق الشمس والقمر ، كلٌّ منهما يدور ويجري في فلكه ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ وما خلدنا أحداً من بني آدم قبلك يا محمد في الدنيا ﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أفهؤلاء المشركون هم الخالدون بعدك ؟! ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ كل نفس معالجةٌ غصص الموت ، ومتجرعةٌ كأسها ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ونختبركم بالشدة وبالرخاء ، فنفتنكم به ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وإلينا تردون فتجازون على أعمالكم ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً﴾ وإذا رآك يا محمد الذين كفروا ما يتخذونك إلا سخرية ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يقول بعضهم لبعض : أهذا الذي يعيب آلهتكم ، ويذكرها بسوء ؟! يتعجبون من عيبك الآلهة ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم كافرون بالذي خلقهم وأنعم عليهم ، لا يذكرونه بما هو أهل به[1] ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ خلق الإنسان على عجل وسرعة ، ولذلك يستعجل ربَّه العذاب ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ سنأتيكم بآياتنا فلا تستعجلوا ربكم بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول الكافرون : متى يجيئنا هذا الذي تعدنا من العذاب ، إن كنتم صادقين بهذا الوعد ﴿لَو يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾ لو يعلم الكفار ماذا لهم من البلاء ،

---

(١) أشارت الآية إلى أن المشركين يغضبون إذا ذكرت آلهتهم بسوء ويتألمون لذلك ، وأما الرحمن الذي منه جميع النعم فهم يجحدون وحدانيته وينكرون فضله وهذا من العجائب .

وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ
بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا
يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ
نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾

***

حين تلفح وجوههم النار فلا يدفعونها عن وجوههم ﴿وَلَا عَنْ ظُهُورِهِم وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ولا يدفعونها عن ظهورهم ، ولا ناصر لهم يستنقذهم من عذاب الله ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ بل تأتيهم مفاجأة لا يشعرون بمجيئها ، فتغشاهم معاينة كالحيران المبهوت ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ فلا يطيقون دفعها عن أنفسهم ، ولا هم يؤخرون بالعذاب ﴿وَلَقَد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ولقد سخر المشركون برسل من قبلك يا محمد ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فنزل بالمستهزئين البلاء والعذاب ، الذي كانت تخوفهم به رسلهم ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ﴾ قل من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم ، من أمر الرحمن إن نزل بكم ؟ ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ بل هم عن ذكر حجج ربهم معرضون لا يتدبرونها ﴿أَمْ لهمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ ألهؤلاء المشركين آلهة تمنعهم منا، إن أحللنا بهم عذابنا؟ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ لا تستطيع الآلهة أن تنصر أنفسها فكيف تستطيع أن تمنعهم منا ؟ ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ولاهم يُجارون من عذابنا ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ بل متعنا الكفار بهذه الحياة الدنيا ، وآباءهم من قبلهم ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ حتى امتدت أعمارهم وهم على كفرهم مقيمون ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أفلا يرى المشركون ، أنا نأتي الأرض نخربها من نواحيها ، بقهرنا أهلها ، وإجلائهم عنها ؟ ﴿أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ أفيظنون أنهم يغلبون محمداً ، ويقهرونه ؟! بل نحن الغالبون[١] .

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ قل يا محمد : إنما أُخوفكم أيها القوم بكلام الله ، الموحى من عنده ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَامايُنْذَرُونَ﴾ ولا يُصغي الكافر إلى وحي الله وما فيه من المواعظ ، فيتذكر ما فيه ويفهم آياته ، ولكنه يعرض عنه فعل الأصمّ ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ ولئن أصابهم نصيب

(١) قال الطبري : وهذا تقريع من الله تعالى لهؤلاء المشركين والمعنى ليسوا بغالبين ولكن رسول الله هو الغالب .

وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ
بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ
وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ
مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ
ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

***

من عذاب ربك ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ليقولن: يا هلاكنا لقد كنا ظالمين في عبادتنا الآلهة، وتركنا عبادة الله الذي خلقنا وأنعم علينا ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوم القِيَامَةِ﴾ ونضع الموازين العدل لأهل القيامة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ فلا يعاقب إنسان بذنب لم يعمله، ولا يُبخس ثواب عملٍ عملَه ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ وإن كان وزن حبة من خردل، جئنا بها فأحضرناها ﴿وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ وكفى أن نكون نحن المحاسبين لهم على أعمالهم، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم منا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهرُونَ الفُرْقَانَ﴾ آتيناهما الحق الذي فرق بينهما وبين فرعون ﴿وَضِيَاءً﴾ وآتيناهما التوراة التي أضاءت أمر دينهم ﴿وذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾ وتذكيراً لمن اتقى الله بطاعته، وأداء فرائضه ﴿الَّذِينَ يَخْشَونَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ﴾ الذين يخافون ربهم في الدنيا، أن يعاقبهم في الآخرة ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ وهم حذرون أن تقوم عليهم القيامة، وقد فرطوا في الواجب عليهم لله، فيعاقبهم بما لا قِبل لهم به ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وهذا القرآن مباركٌ، أنزلناه موعظةً لمن اتعظ به ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أفأنتم منكرون لهذا الكتاب الذي أنزلناه؟ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ من قَبْلُ﴾ ولقد أعطى الله إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ الرشد من قبل موسى وهرون، ووفقناه للحق، وأنقذناه من عبادة الأوثان ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ وكنا نعلم أنه ذو يقينٍ وإيمانٍ بالله ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَومِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عَاكِفُون﴾ حين قال لهم: أيُّ شيءٍ هذه الصور التي أنتم عليها مقيمون؟ ﴿قَالُوا وجَدْنَا آبَاءَنَا لها عَابِدِينَ﴾ قالوا لإبراهيم: وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأوثان، فنحن على ملة آبائنا نعبد ما يعبدون ﴿قَالَ لقدْ كنتُمْ أَنتُمْ وآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لقد كنتم في ذهاب عن سبيل الحق، وجور عن قصد السبيل، ظاهرٍ لمن تأمله ﴿قالوا أجِئْتَنَا بالحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبينَ﴾ قالوا: أجئتنا يا إبراهيم بالحق فيما تقوله لنا؟ أم أنت هازل لاعب؟ ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰواتِ والأرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ قال إبراهيم: بل جئتكم بالحق لا اللعب، ربكم الذي خلق

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا
بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

***

السموات والأرض ﴿وَأَنَا عَلَى ذلكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأنا شاهد على أن ربكم الخالق ، دون كل شيء سواه ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ وأقسم الخليل على أذى الأصنام ، وتكسيرها بعد أن يخرجوا عنها إلى عيد لهم[1] ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾ فجعل الأصنام قطعاً مكسورة ﴿إلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إليهِ يَرْجِعُون﴾ إلا صنماً عظيماً لم يكسره ، ليعتبروا ويعلموا أنها إذا لم تدفع عن نفسها الشر ، فهي من أن تدفع عن غيرها السوء أبعد ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لمنَ الظَّالِمينَ﴾ قالوا : إن الذي كسر الآلهة ، لمن الظالمين المعتدين .

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ قال الذين سمعوه يذكر الآلهة : سمعنا فتى يعيبهم يقال له إبراهيم ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ قالوا أحضروه بمجمع من الناس ، لعلهم يشهدون عقوبتنا له ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يا إِبْرَاهِيمُ﴾ قالوا له بعد أن جاءوا به : أأنت الذي كسرت آلهتنا يا إبراهيم ؟ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فاسْألوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ فأجابهم : بل فعله عظيمهم هذا فاسألوا الآلهة من فعل بها ذلك ، إن كانت تنطق أو تعبر عن نفسها ؟ ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إنكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فرجعوا إلى عقولهم فقالوا : إنكم معشر القوم الظالمون بسؤالكم له ، وآلهتكم حاضرة فاسألوها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ ثم غلبوا في الحجة ، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة له عليهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ لقد عرفت يا إبراهيم أن هؤلاء الأوثان لا ينطقون ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً ولا يَضُرّكُمْ﴾ قال إبراهيم : أفتعبدون أيها القوم ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، وقد علمتم أنها لم تمنع نفسها من أرادها بسوء ، أفلا تستحيون من عبادة ما كان هكذا ؟ ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قُبحاً لكم وللآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قُبح

(١) لم يذكر ابن جرير تفسير هذه الآية ، وإنما ذكر ما روي في ذلك .

قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

***

ما تفعلون ؟ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ قالوا : حرِّقوا إبراهيم بالنار ، نصراً لآلهتكم ﴿إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إن كنتم ناصريها ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ فأوقدوا له ناراً ليحرقوه ، ثم ألقوه فيها فقلنا للنار : كوني برداً وسلاماً عليه فلا تضرِّيه[1] ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ وأرادوا بإبراهيم الأذى ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ فجعلناهم الهالكين ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ونجينا إبراهيم ولوطاً من أعدائهما ـ نمرود وقومه ـ من أرض العراق إلى أرض الشام ، التي باركنا فيها للعالمين ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ ووهبنا لإبراهيم إسحاق ولداً ،ويعقوب ولد ولده ، فضلاً من الله وهبةً له ﴿وَكلًّا جَعَلْنَا صَالِحينَ﴾ وجعلناهم جميعاً عاملين بطاعة الله ، مجتنبين محارمه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، أئمة يؤتم بهم في الخير ﴿وَأَوحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وإِيتاءَ الزَّكَاةِ﴾ وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ وكانوا لله خاشعين ، لا يستكبرون عن طاعته ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ وآتينا لوطاً فصل القضاء بين الخصوم ، وعلماً بأمر دينه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الخَبَائِثَ﴾ ونجيناه من العذاب الذي أحللناه بأهل القرية ، التي كانت تعمل المنكر ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَومَ سَوءٍ فَاسِقِينَ﴾ إنهم كانوا قوماً مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وأدخلنا لوطاً في رحمتنا ، لأنه من الذين يعملون بطاعتنا ، ولا يعصوننا في أمر .

﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ واذكر نوحاً حين سأل ربه ـ من قبل إبراهيم ـ إهلاك قومه المكذبين ، فاستجبنا له دعاءه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ﴾ ونجيناه وأهل الإيمان به ، من الذي

(١) روي عن ابن عباس أنه قال . لو لم يقل « وسلاماً » لأهلكته ببردها .

وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ
إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا
ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم
مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ
وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ
حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا

***

حل بالمكذبين من الطوفان والغرق ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ونصرنا نوحاً على القوم الذين كذبوا بحججنا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَومَ سَوءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إن قوم نوح كانوا يعصون الله ، ويخالفون أمره ، فأغرقناهم جميعاً ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ﴾ واذكر يا محمد داود وسليمان حين يحكمان في الزرع ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ﴾ حين دخلت في هذا الزرع غنم الآخرين ليلاً ، فرعته وأفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وكنا لحكم سليمان وداود شاهدين ، لا يخفى علينا منه شيء ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ ففهمنا القضية سليمان[1] ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ وكلاً من داود وسليمان آتيناه النبوة ، وعلماً بأحكام الله ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ وسخرنا مع داود الجبال والطير ، يسبّحن معه إذا سبَّح ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قضينا ذلك في أم الكتاب ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ وعلمنا داود صنعة سلاح لكم وهي الدروع ﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ لتحفظكم من القتل إذا لقيتم أعداءكم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ فهل أنتم شاكرون ربكم على نعمته عليكم ؟ ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ وسخرنا لسليمان الريح شديدة الهبوب ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ تجري بسليمان حيث شاء ، ثم تعود به إلى بلاد الشام المباركة ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ ونحن عالمون بكل شيء ، لا يخفى علينا منه شيء ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ من البنيان ، والتماثيل ، والمحاريب ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ وكنا لأعمالهم ولأعدادهم حافظين ﴿وأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ واذكر أيوب حين دعا ربه ، وقد مسَّه الضُّر والبلاء ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ قائلاً : يا رب إني مسني الضر ، وأنت أرحم من رحم ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

---

(١) والقصة أن زرعاً دخلت فيه غنم لقوم ليلاً فأكلته وأفسدته ، فجاء المتخاصمون إلى داود وعنده سليمان ، فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن حرثه الذي أتلفته الغنم ليلاً ، فقال سليمان : غير هذا كان أرفق ، تدفع بالغنم إلى أهل الحرث فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها ، وتدفع الحرث إلى أهل الغنم يقومون بإصلاحه حتى يعود كما كان ، ثم يترادان بعد ذلك فيعود لأهل الغنم غنمهم ، ولأهل الحرث حرثهم ، فكان هذا الحكم فقهاً من سليمان أقرّه عليه القرآن .

مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ
وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ
مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾

***

﴿فَكَشَفْنَا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ فاستجبنا لأيوب دعاءه ، فكشفنا ما به من ضر ، وبلاء ، وجهد **﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾** وآتينا أيوب في الدنيا أهله الذين هلكوا ، وآتيناه مثل أهله معهم[١] **﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾** فعلنا ذلك بهم رحمة منا لأيوب **﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾** وتذكرةً للعابدين ليعتبروا ويعلموا أن الله قد يبتلي أحب عباده ، من غير هوانٍ به عليه .

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ﴾ واذكر إسماعيل بن إبراهيم ، وإدريس ، وذا الكفل الذي تكفل بعمل فوفّى به **﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** كلهم من أهل الصبر ، فيما نابهم في الله **﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** وأدخلنا المذكورين في رحمتنا ، إنهم ممن صلح فأطاع الله وعمل بأمره **﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾** واذكر صاحب الحوت « يونس بن متّى » حين ذهب مغاضباً لربه[٢] **﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾** فظن يونس أن لن نحبسه ، ونضيّق عليه[٣] عقوبةً له **﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾** فنادى يونس وهو في ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت **﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾** نادى بهذا القول ، معترفاً بذنبه ، تائباً من خطيئته **﴿إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ﴾** في معصيتي لك **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾** فاستجبنا ليونس دعاءه ، ونجيناه من غم الحبس في بطن الحوت **﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** وكما أنجينا يونس من الكرب ، كذلك ننجي المؤمنين إذا استغاثوا بنا ودعونا **﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾** واذكر زكريا حين دعا ربه **﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ﴾** قال : رب لا تتركني وحيداً لا ولد لي وارزقني وارثاً ،

---

(١) هذا هو الظاهر من الآية الكريمة ، والإمام الطبري لم يذكر رأيه فيها وإنما ذكر قولين، الأول : أن أهله الذين هلكوا لم يحييهم الله له ، وإنما أعطاه مثل أهله في الدنيا وهو قول مجاهد ، والثاني : أن الله أحيا أهله بأعيانهم وأعطاه مثلهم معهم وهو قول ابن عباس والحسن ، ولعل هذا القول هو الأرجح .

(٢) ما ذهب إليه ابن جرير أن « يونس » ذهب مغاضباً لربه قول مرجوح ، والصحيح أنه ذهب مغاضباً لقومه لا لربه ، وهو قول ابن عباس والضحاك ، وذلك أنه أنذر قومه وحذرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، فتمادوا في الكفر والضلال ، فلما تأخر عنهم العذاب ضاق صدره ، فخرج من بين أظهرهم غضبان عليهم لانتهاكهم حرمات الله ، فعاتبه ربه على قلة صبره الخ . وهذا هو الصحيح المعتمد .

(٣) هذا هو الصحيح في معنى قوله ﴿ فظنَّ أن لن نقدر عليه ﴾ أي ظنَّ أن لن نضيّق عليه ، فهو كما قال ابن عباس من القَدْر لا من القدرة ، فتدبره فإنه نفيس .

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾
إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ
لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ
شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

***

وأنت خير الوارثين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ فاستجبنا لزكريا دعاءه ، ووهبنا له يحيى ولداً ووارثاً ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ وجعلنا زوجته ولوداً حسنة الخُلُق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾ إن زكريا وزوجه ويحيى ، كانوا يسارعون في طاعتنا ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ ويعبدوننا رغبة فيما يرجون ، ورهبة من عذاب الله ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ وكانوا لنا متذللين متواضعين ﴿والَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ واذكر « مريم بنت عمران » التي حفظت فرجها من الفاحشة ، فنفخنا في جيب درعها من روحنا بواسطة جبريل ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وجعلنا «مريم» و«عيسى» عبرة للخلق ، في الدلالة على الله ، وعلى عظيم قدرته ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ إن هذه ملتكم ملة واحدة وأنا ربكم أيها الناس فاعبدوني دون الآلهة والأوثان ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ وتفرّق الناس في دينهم ، فصاروا أحزاباً من اليهود ، والنصارى ، وعبدة الأوثان ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ ومرجع جميع أهل الأديان إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فمن عمل من الناس بما أمره الله ، وهو مقرٌ بوحدانية الله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ فإن الله يشكر له عمله ، ويثيبه ولا يجحده ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ ونحن نكتب أعماله الصالحة لنجزيه عليها ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وحرام على أهل قرية أهلكناهم إذ صدوا عن سبيلنا ، أن يتوبوا ويرجعوا إلى الإيمان بنا والعمل بطاعتنا[1] ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ حتى إذا فتح سدُّ « يأجوج ومأجوج » ، وهم من كل شَرَف وأَكَمة يخرجون مشاةً مسرعين .

﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾ واقترب بخروجهم يوم البعث للجزاء ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإذا أبصار الكفار قد شخصت[2] من هول ذلك اليوم ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا في غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ وهم

(١) توضيح معنى الآية : وممتنع على أهل قرية عزمنا على إهلاكها أو قدّرنا إهلاكها أن يرجعوا ويتوبوا إلى أن تقوم الساعة .
(٢) معنى شاخصة أي أبصارهم واقفة لا تتحرك من هول يوم القيامة .

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ
وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى
هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

***

يقولون : يا ويلنا قد كنا في الدنيا في غفلة ، ممَّا نرى ونعاين من عظيم البلاء ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بل كنا ظالمين بمعصيتنا ربنا ، وطاعتنا إبليس ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أنتم أيها المشركون العابدون للأوثان ، وما تعبدون من الآلهة ، حطب جهنم ووقودها الذي يُرمى فيها ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أنتم داخلون عليها وإليها ﴿لَو كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ لو كان ما تعبدون آلهة ، ما وردوا جهنم بل كانت تمنع ذلك عن نفسها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والآلهة ومن عبدها ماكثون في النار أبداً ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ لهم في جهنم زفير[1] ، وهم في النار لا يسمعون شيئاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ إن الذين سبقت لهم السعادة من الله ، وهم المطيعون ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ هم عن جهنم مبعدون ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ لا يسمعون حسَّ جهنم ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ وهم فيما تشتهيه نفوسهم ، من نعيمها ولذاتها ماكثون أبداً ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ لا تفزعهم النفخة الآخرة ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وتستقبلهم الملائكة يهنئونهم ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يقولون : هذا يومكم الذي كنتم توعدون فيه الكرامة من الله على طاعته ﴿يَومَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ يوم نطوي السماء كطي الصحيفة على المكتوب فيها ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ نعيد الخلق عراة حفاة يوم القيامة ، كما بدأناهم أول مرة من بطون أمهاتهم ﴿وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وعدناكم ذلك إنا كنا فاعلين لما وعدناكم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ ولقد قضينا في الكتب من بعد اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أن أرض الجنة[2] يرثها عبادي العاملون بالطاعة ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَومٍ عَابِدِينَ﴾ إن في القرآن لبلاغاً إلى رضوان الله ، لمن عبد الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي . فالمؤمن رحم

(١) الزفير : خروج النَّفس من الصدر ، والشهيق : ولوج النَّفس .(٢) وقيل : المراد أرض الدنيا يستحقها المؤمنون الصالحون .

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ
أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

***

بالإيمان، والكافر دفع عنه عاجل البلاء ﴿قل إِنَّمَا يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قل يا محمد : ما يوحي إليَّ ربي ، إلَّا أنه لا إلَٰه لكم إلا إلَٰه واحد ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم مذعنون له ، ومتبرئون من عبادة غيره ؟ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ فإن أدبر هؤلاء المشركون عن الإيمان ، فأعلمهم أن لا صلح بينكم ولا سِلْم ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعدُونَ﴾ وما أدري متى الوقت الذي يحل بكم عقاب الله ، أقريب نزوله لكم أم بعيد ؟! ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ مِنَ القَولِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ إنه يعلم ما تجهرون به من القول ، ويعلم ما تخفونه ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ وما أدري السبب الذي من أجله يؤخر عنكم عقابه ، لعل ذلك لفتنة يريدها بكم إلى أجل تبلغونه ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالحَقِّ﴾ قل يا محمد : يا رب افصل بيني وبين المكذبين ، بإحلال نقمتك بهم ﴿وَرَبُّنَا الرحْمَٰنُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وربنا الذي أستعينه عليكم ، فيما تقولون عني ، هيِّنٌ عليه تعجيل العقوبة لكم .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء»

***



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن

* * *

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يا أيها الناس احذروا عقاب الله بطاعته ، فأطيعوه ولا تعصوه ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ فإن زلزلة الأرض يوم القيامة أمر عظيم[1] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ يوم ترون الزلزلة تنسى وتترك كل والدة من ترضعه ، من هول الساعة ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ وتُسقط كل حامل حملها ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ وترى الناس سكارى من شدة الفزع ، وما هم بسكارى من شرب الخمر ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ولكنهم صاروا سكارى من كرب ذلك اليوم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومن الناس من يخاصم في الله وصفاته ، جهلاً منه بما يقول ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ويتبع في جداله كل شيطان مريد[2] ﴿كُتِبَ عَلَيهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ قضي على الشيطان أنه يضل أتباعه ، ولا يهديهم إلى الحق ﴿وَيَهْدِيهِ إِلى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ويسوق أتباعه إلى عذاب جهنم الموقدة ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ﴾ يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فإن في

(١) الزلزلة : الحركة العنيفة والهزّة الشديدة ، ترج الأرض بأهلها رجاً فذلك زلزلة الساعة .

(٢) المريد والمارد في اللغة : العاري من الخيرات من قولهم شجرٌ أمرد إذا تعرّى من الورق، والمراد هنا العاتي المتمرد على طاعة ربه .

مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾
وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾

***

ابتدائنا خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم إنشائكم من نطفة آدم معتبراً ومتعظاً لكم ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ﴾ ثم تصريفكم أحوالاً من نطفة ، إلى علقة ، إلى مضغة ، مخلَّقة خلقاً سوياً ﴿وَغيرِ مخلَّقةٍ﴾ السقط قبل تمام خلقه ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ قدرتنا على ما نشاء ، ونعرّفكم ابتداءنا خلقكم ﴿وَنُقِرُّ في الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فمن كنا كتبنا له حياة ، فإنا نقره في رحم أمه إلى وقته ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم أطفالاً صغاراً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ ثم لتبلغوا كمال عقولكم ، ونهاية قواكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ ومنكم من يموت قبل ذلك ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ومنكم من يُؤخر في أجله فيعمّر حتى يهرم ، ويعود كهيئته في حال صباه لا يعقل شيئاً .

﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ وترى الأرض يابسة من النبات والزرع ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عليها المَاءَ اهتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فإذا أنزلنا عليها المطر ، تحركت بالنبات ، ونمت وزادت بمجيء الغيث ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وأخرجت هذه الأرض من كل نوع حسن ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ﴾ ذلك المذكور من الأمور العجيبة ، لتصدّقوا بأن الذي فعل ذلك ، هو الله الحق لا شك فيه ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأنه لا يتعذر عليه إحياء الموتى بعد فنائها ، وأنه تعالى قادر على كل ما أراد من شيء ﴿وَأَنَّ السَاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ وأن القيامة التي وعدتكم بها آتية لا محالة ، لا شك في حدوثها ومجيئها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبُورِ﴾ وأن الله يبعث من في القبور حينئذ أحياء ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللَّهِ بِغَيرِ عِلْمٍ﴾ ومن الناس من يخاصم في توحيد الله ، وإفراده بالألـوهية ، بغير علم منه ﴿وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ وبغير بيان ولا برهان ، ولا كتاب من الله ينير له عن حجته ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ﴾ مستكبراً في نفسه لاوياً عنقه ، يجادل معرضاً عن الحق ، ليصدَّ المؤمنين عن دينهم ﴿لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ﴾ له في الدنيا القتلُ والذلُّ والمهانة ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ ونحرقه يوم القيامة بالنار

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ
ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ
ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ
فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

* * *

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ يُقال له : هذا العذاب الذي تذوقه ، بما قدمت يداك في الدنيا من الذنوب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وأن الله لا يظلم أحداً من عباده ، فلا يعذب أحداً على ذنب غيره ، ولا يعاقب أحداً إلا على جرمه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ ومن الناس من يعبد الله على شك[(١)] ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ فإن أصابه سعة من العيش ، استقر بالإسلام وثبت عليه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ وإن أصابه ضيقٌ بالعيش ، انقلب إلى الكفر ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ خسر دنياه لأنه لم يظفر بحاجته ، وخسر الآخرة لأنه معذب فيها ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ذلك هو الهلاك الواضح ، لمن فكر فيه وتدبره ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَضُرُّهُ وَمَالاَ يَنْفَعُهُ﴾ يعبد من دون الله آلهة لا تضره ولا تنفعه ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾ ارتداده إلى عبادة الآلهة ، هو الذهاب بعيداً عن دين الله ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ يعبد آلهة ضرُّها في الآخرة أسرع من نفعها ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ لبئس الناصر ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ ولبئس المعاشر والصاحب هذا الوثن .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إن الله يدخل الذين صدقوا الله ورسوله ، وعملوا بأوامره وانتهوا عن نواهيه ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يدخلهم بساتين تجري الأنهار من تحت أشجارها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيعطي ما شاء من كرامته أهل طاعته ، وما شاء من الهوان أهل معصيته ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ من كان يحسب أن لن يرزق[(٢)] الله محمداً ﷺ وأمته في الدنيا والآخرة ، فيوسع عليهم من فضله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ فليمدد بحبل إلى

(١) قال الطبري : نزلت في أقوام من الأعراب كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ مهاجرين ، فإن نالوا رخاء من عيش بعد الدخول في الإسلام أقاموا على الإسلام ، وإلا ارتدوا على أعقابهم .
(٢) فسر الطبري النصر هنا بالرزق ، والظاهر أنه على حاله من النصرة على الأعداء .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ
وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۩
* هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ
ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾

***

سماء البيت ، ويعلق الحبل بالسقف ، ثم ليختنق به حتى يموت ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ فلينظر هل يذهب غيظه من محمد؟! ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وكذلك أنزلنا هذا القرآن دلالات واضحات ، يهدين من أراد الله هدايته إلى الحق ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ ولأن الله يوفق لسبيل الحق من أراد ، أنزل هذا القرآن ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن الذين صدقوا بالله ورسله ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ واليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ والذين عبدوا الملائكة ﴿وَالنَّصَارَى﴾ والذين آمنوا بالإنجيل ﴿والمجوس﴾ والذين عبدوا النيران وعظموها ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ والذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ من كان على دين من هذه الأديان[1] ، سيفصل الله بينهم يوم القيامة ، بقضائه العادل ، فيدخل الأحزاب النار ، ويدخل المؤمنين الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يخفى عنه شيء من أعمالهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات من الملائكة ، ومن في الأرض من الخلق ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ في السماء ﴿وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ في الأرض ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ ويسجد كثير من بني آدم لله ، وهم المؤمنون ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وكثير من الناس وجب عليه عذاب الله بكفره ، وإبائه السجود ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ ومن يهنه الله بالشقاوة فما له من يسعده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ يفعل في خلقه ما يشاء ، من إهانة وإكرام ، لأن الخلق خلقه والأمر أمره ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ هذان خصمان : أهل الكفر وأهل الإيمان ، عادى كل فريق منهم الآخر وحاربه على دينه ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ فأما الكافر بالله فيقطع له قميص من نحاس من نار ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ يُصبُّ على رؤوسهم ماء مغليٌّ ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ يذيب الحميم ما في

(١) قال قتادة : الأديان ستة ، خمسة للشيطان وواحد للرحمن .

وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ
بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ
وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

***

بطونهم ، وتشوى جلودهم فتتساقط ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ وتضرب الخزنة رؤوسهم بمقامع الحديد ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ كلما أراد هؤلاء الكفار الخروج من النار ، ـ مما نالهم من الغم ـ رُدُّوا إليها ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدقوا بالله ورسوله وأطاعوهما ، فإن الله يدخلهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ ويحليهم الله فيها من أساور من ذهب ، ويحليهم باللؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وألبستهم فيها ثياب الحرير ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَولِ﴾ وهداهم ربهم في الدنيا إلى شهادة « أن لا إله إلا الله » ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الحمِيدِ﴾ وهداهم ربهم في الدنيا إلى طريق الإسلام ﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن الذين جحدوا ما جاءهم من ربهم ، ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله ﴿وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ ويمنعون الناس عن المسجد الحرام ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ﴾ الذي جعله الله للمؤمنين كافَّة يستوي في ـ تعظيم حرمته ، والطواف به ، وقضاء المناسك ، والنزول فيه ـ المقيمُ به والقادم إليه من غيره ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم ، فيعصي الله فيه ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ﴾ واذكر حين وطّأنا[1] لإبراهيم مكان الكعبة ﴿أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ في عبادتك إياي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ للطَّائِفِينَ﴾ وطهر بيتي من عبادة الأوثان ، للطائفين به ﴿وَالقَائِمِينَ﴾ والمصلين الذين هم قيام في صلاتهم ﴿والرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ في صلاتهم حول البيت ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ﴾ وناد في الناس : أن حجُّوا بيت الله الحرام ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ يأتون البيت مشاةً على أرجلهم

(١) أي يسرنا وبيَّنا له مكان البيت ليقوم الخليل ببنائه .

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا
الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ
اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ
وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ
أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

***

﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ ويأتون ركباناً على الإبل[١] ﴿يأتين من كل فج عميق﴾ تأتي هذه الإبل من كل طريق ومكان بعيد ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ ليشهدوا ما ينفعهم من العمل الذي يرضي الله ، والتجارة ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ وكي يذكروا اسم الله تعالى في أيام التشريق ، على ما رزقهم من الهدايا والبدن ، التي أهدوها من الإبل والبقر والغنم ﴿فَكُلُوا مِنْها﴾ فكلوا من بهائم الأنعام[٢] ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾ وأطعموا مما تذبحون أو تنحرون ، البائس الذي به ضر الجوع والحاجة ، والفقير الذي لا شيء له ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليقضوا ما عليهم من مناسك حجهم ، من الحلق ، والرمي ، والطواف ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ وليوفوا الله بما نذروا من هدي وغيره ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبَيْتِ العَتِيقِ﴾ وليطوفوا طواف الإفاضة ببيت الله القديم[٣] ﴿ذلك﴾ هذا الذي أُمرتم به من الوفاء بالنذور والطواف ، هو الواجب عليكم أيها الناس ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ومن يجتنب ما أمره الله باجتنابه في حال إحرامه ، تعظيماً منه لحدود الله ، فهو خير له عند ربه في الآخرة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عليكم﴾ وأحل الله لكم الأنعام أن تأكلوها إذا ذكيتموها ، إلا ما يتلى عليكم من تحريم شيء منها ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ فاتقوا عبادة الأوثان ، فإنها رجس[٤] ﴿واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ واتقوا قول الكذب ، والفرية على الله ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ شيئاً من دونه ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ ومن يشرك بالله فمثله كمثل من خرَّ من السماء ، فهلك واختطفته الطير ﴿أَو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أو هوت به الريح في مكان بعيد

(١) الضامر : وصف للإبل الهزيلة التي ضمرت بطونها وهزلت لطول السفر .

(٢) الأمر هنا كما قال الطبري أمر إباحة لا أمر إيجاب .

(٣) قد ذكر ابن جرير أقوالاً في « البيت العتيق » واختار القول المذكور ، ومن ذلك أن الله أعتقه من الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه ، وقيل سمي بالعتيق لأنه لم يملكه أحد من الناس .

(٤) قال الإمام الطبري : فإن قال قائل : وهل من الأوثان ما ليس برجس ؟ قيل : كلها رجس ، ومعنى الكلام فاجتنبوا الرجس الذي يكون من الأوثان أي عبادتها .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى
ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ
وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ
وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟

* * *

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ هذا الذي أمرتكم به ، ومن يعظم ما جعله الله أعلاماً من مناسك الحج ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فإن تعظيمه لها من خشية الله ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ لكم في هذه الشعائر منافع ، من شرب ألبانها وركوب ظهورها إلى أن تنحر ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ثم محل الشعائر إلى أرض الحرم .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً﴾ ولكل جماعة من أهل الإيمان ، جعلنا ذبحاً يهريقون دمه ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ليذكروا اسم الله بذلك ، على ما رزقهم من الإبل والبقر والغنم ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فإلهكم واحد لا شريك له ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ فاخضعوا له بالطاعة والعبودية ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ وبشر الخاضعين لله ، المنيبين إليه بالتوبة ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الذين تخشع قلوبهم لذكر الله ، خوفاً من سخطه وعقابه ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ والصابرين على ما نزل بهم من شدة ، ونالهم من مكروه في جنب الله ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ والذين يقيمون الصلاة المفروضة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وينفقون فيما يجب عليهم الإنفاق فيه ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ والإبل العظام جعلناها لكم أيها الناس من أعلام دين الله ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ لكم الأجر في الآخرة بنحرها ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ فاذكروا اسم الله على البدن ، وهي مصطفة عند النحر ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فإذا سقطت جنوبها إلى الأرض بعد النحر ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ فقد حلَّ لكم الأكل منها ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ وأطعموا السائل ، والمعترض للعطاء ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هكذا سخرنا البدن لكم ، لتشكروني على ذلك ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ لن يصل إلى الله لحم بدنكم ، ولا دماؤ ها ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ ولكن يناله اتقاؤ كم إياه ، وتعظيمكم حرماته ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾

اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ * إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ
كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم
بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ
وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن
مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

* * *

هكذا سخر الله لكم البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ كي تعظموا الله على توفيقه إياكم لدينه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالجنة الذين أحسنوا في طاعة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن الله يدفع غائلة المشركين ، عن الذين آمنوا بالله وبرسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ لا يحب الذي يخون ربه فيخالف أمره ونهيه ، الجحود لنعمه عنده ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أذن الله للمؤمنين بقتال المشركين في سبيله بسبب أن المشركين ظلموهم بقتالهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وإن الله على نصر المؤمنين لقدير ، وقد نصرهم فأعزهم ، وأهلك عدوهم .

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الذين أخرجهم كفار قريش من ديارهم بمكة بغير حق ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ لم يخرجوهم إلاّ لقولهم : ربنا الله وحده لا شريك له ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ ولولا دفع الله المشركين بالمسلمين ، وكفُّه ببعضهم التظالم ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾ لتظالموا فهدم القاهرون صوامع الرهبان ، وكنائس النصارى ، ومعابد اليهود ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ وليعينن الله من يقاتل في سبيله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قويٌّ على نصر أهل ولايته ، منيعٌ في سلطانه لا يقهره قاهر ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ هم أصحاب محمد ﷺ الذين إن نصرناهم على أعدائهم ، فقهروا المشركين أطاعوا الله بإقامة الصلاة بحدودها ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وأعطوا زكاة أموالهم ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ ودعوا الناس إلى توحيد الله ، والعمل بطاعته ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ونهوا عن الشرك بالله ، والعمل بمعصيته ، الذي ينكره أهل الحق والإيمان ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ولله مصير أمور الخلق ، في الثواب والعقاب ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مَدْين وكُذِّب موسى﴾ وإن

وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى
فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾
وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

***

يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون ، فذلك سنة إخوانهم من الأمم المكذبة لرسل الله ، فقد كذب كل هؤلاء الأمم رسلهم ، وكذّب فرعونُ وقومُه موسى ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ فامهلتهم ولم أعاجلهم بالعذاب ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ ثم أحللت بهم العقاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فانظر كيف كان تغييري[1] ما كان بهم من نعمة ؟ ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكم من قرية أهلكت أهلها ، وهم يعصون أمر الله ويعبدون غيره ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ فباد أهلها ، وخوت من سكانها ، وتساقطت جدرانها على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ وكم من بئر عطلناها بإفناء أهلها ، وهلاك وارديها ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ وكم من قصر رفيع ، قد خلا من سكانه ، بما أذقناهم من العذاب ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أفلم يسر هؤلاء المكذبون في البلاد ، فينظروا مصارع المكذبين ، فيعتبروا بها ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ يعقلون بها حجج الله على خلقه وقدرته ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أو آذان تُصغي لسماع الحق ، وتُميِّز بينه وبين الباطل ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ فإنها لا تعمى أبصارهم عن رؤية الأشخاص ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم ، عن إبصار الحق ومعرفته ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ويستعجلك مشركو قومك بما تعدهم من عذاب الله ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ والله لا يخلف ما وعدك من إحلال عذابه بهم في الدنيا ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ وإن يوماً من الأيام عند الله ، كألف سنة من عددكم ، وليس ذلك عنده ببعيد ، فلذلك لا يعجل بعقوبة من أراد عقوبته .

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكم من أهل قرية أمهلتهم ، وأخرت عذابهم وهم بالله مشركون ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ثم أخذتها بالعذاب ، وإليَّ مصيرهم بعد هلاكهم ،

(١) النكير : بمعنى الإنكار يعبر به عن الهلاك العاجل لأنه يستلزمه ، أو هو بمعنى التغير وهذا ما اختاره الطبري لأنه أبدلهم بالنعمة محنة ، وبالحياة دماراً ، وبالعمران خراباً .

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا
تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾
لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾
وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

* * *

فيلقون عذاباً لا انقطاع له ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : إنما أنذركم عقاب الله ، لتنيبوا من شركم ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فالذين صدَّقوا بالله ورسوله ، وأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لهم من الله ستر لذنوبهم ، ورزق حسن في الجنة ﴿وَالَّذِينَ سَعَوا في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ والذين صدُّوا عن إتباع رسولنا ، والإقرار بكتابنا مغالبين لرسولنا ليقهروه ﴿أُولئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾ هم سكان جهنم يوم القيامة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾ ولم يرسل الله رسولاً أو نبياً إلى أمة ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنِيَّتِهِ﴾ إلا إذا تلا كتاب الله ، وتكلم ألقى الشيطان في حديثه الذي حدَّث ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فيذهب الله ما يُلْقِي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ ثم يخلص الله آيات كتابه من الباطل الذي ألقى الشيطان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حكِيمٌ﴾ والله عليم بما يحدث في خلقه ، حكيم في تدبيره ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ كي يجعل ما يلقي الشيطان من الباطل ، اختباراً يختبر به الذين في قلوبهم مرض النفاق ﴿وَالقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وللذين قست قلوبهم عن الإيمان ، وهم المشركون ﴿وَإِنَّ الظَّالمينَ لَفِي شِقَاقٍ بعيدٍ﴾ وإن المشركين لفي خلافٍ لأمر الله ، بعيد عن الحق ﴿وَلِيَعْلَمَ الذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ وكي يعلم أهل العلم بالله ﴿أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أن المنزل إليك هو الحق من عند الله ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ فيصدقوا به فتخضع للقرآن قلوبهم بالتصديق بما فيه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِين آمَنُوا إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ وإن الله لمرشد المؤمنين إلى الحق الواضح ، بنسخ ما ألقى الشيطان ﴿وَلاَ يَزَالُ الذِينَ كَفَرُوا في مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ ولا يزال الكفار في شكٍ من أمر هذا القرآن ﴿حَتَّى تأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ إلى أن تأتيهم ساعة الحشر للحساب فجأة ﴿أَو يأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَومٍ عَقِيمٍ﴾ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لا خير فيه ، لا يُؤخرون فيه ولا يُنظرون .

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ
بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ

***

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ السلطان لله وحده ، لا ينازعه يومئذ منازع **﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾** يفصل بين المشركين والمؤمنين **﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾** فالذين آمنوا بالقرآن وعملوا بما فيه في جنات النعيم **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾** والذين كفروا بالله ، وكذبوا بآيات كتابه **﴿فَأولئِكَ لهمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** لهم يوم القيامة عذاب مذل في جهنم **﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا في سَبِيلِ اللَّهِ﴾** والذين فارقوا أوطانهم وعشائرهم ، فتركوا ذلك في رضاء الله وطاعته **﴿ثم قُتِلُوا أَو مَاتُوا﴾** وهم مهاجرون **﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً﴾** ليرزقنهم الله يوم القيامة الثواب الجزيل **﴿وَإِنَّ اللَّهَ لهو خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾** وإن الله يبسط فضله على أهل طاعته **﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾** ليدخلنهم الجنة التي يرضونها **﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾** والله عليم بمن يهاجر في سبيله ، حليمٌ عن عصاة خلقه **﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾** ذلك الذي قصصناه عليك ، ومن انتقم ممن بدأه بالظلم **﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾** ثم بُدىء بالقتال وهو له كاره لينصرنه الله .. وهذا وعد من الله للمهاجرين بالنصر على المشركين ، الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم **﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾** عفوٌّ لمنْ انتصر ممن ظلمه ، غفور لما فعل **﴿ذَلِكَ بأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ﴾** هذا النصر الذي أنصره على الباغي ، لأني القادر على ما أشاء ، فأدخل ما نقص من ساعات الليل في ساعات النهار **﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ في اللَّيْلِ﴾** وأدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل **﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾** لا يغيب عنه شيء فيه ، وهو الحافظ له **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ﴾** ذلك الفعل لأني أنا الحق ، الذي لا مثل لي ولا شريك **﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ﴾** وأن ما يدعوه المشركون إلَهاً هو الباطل ، الذي لا يقدر على شيء **﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾** وأن الله هو العظيم الذي لا شيء أعظم منه **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾** ألم تعلم يا محمد أن الله أنزل المطر من السماء **﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾** بما ينبت فيها من النبات **﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾** لطيفٌ في أفعاله ، خبير

خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم
مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ
بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ

***

بأعمال خلقه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ له ملك ما في السموات وما في الأرض ، والكلُّ عبيده ﴿وإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ والله هو الغني عنهم ، الحميد في إفضاله عليهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ﴾ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، من الدواب والبهائم لحوائجكم ﴿وَالفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وسخر لكم السفن تجري في البحر بقدرته ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ويمسك السماء بقدرته كي لا تقع على الأرض إلا بمشيئته﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ إن الله لذو رحمة بالناس ورأفة ولذلك سخَّر لهم ما سخَّر ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الله الذي أحياكم ثم يميتكم عند مجيء آجالكم ، ثم يحييكم عند قيام الساعة ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ جاحد لنعم الله ، بعبادته غيره من الآلهة .

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ لكل جماعة خلت ، جعلنا مكاناً يعتادونه لعبادة الله فيه ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ فلا ينازعك المشركون في ذبحك ومنسكك﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وادعهم إلى اتباع أمرِ ربِّكَ ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ إنك لعلى طريق مستقيم ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إن جادلك المشركون في نسكك(١) ، فقل : الله أعلم بما تعملون ونعمل ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ الله يقضي بينكم يوم القيامة ، فيما اختلفتم فيه من أمر دينكم ، فتعلمون حينئذٍ أيها المشركون المحقَّ من المبطل ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ ألم تعلم يا محمد أن الله يعلم كل ما في السموات والأرض ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، وسيجزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؟ ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ إن علمه ذلك في أم الكتاب ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وأمره بكتابة ذلك هيِّنٌ على الله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ

---

(١) كان مجادلة المشركين هو قولهم : أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله ؟

يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ
فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ
ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ
ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

* * *

﴿يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ ويعبد المشركون من دون الله ، ما لم ينزل لهم به حجة من السماء **﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾** ويعبدون ما لا علم لهم بأنها آلهة **﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾** وما للكافرين من ناصر ينصرهم يوم القيامة ويرفع عنهم عقاب الله **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾** وإذا تُقرأ على المشركين آيات القرآن واضحة الأدلة ، تتبين في وجوههم ما ينكره أهل الإيمان(١) **﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالذِينَ يَتْلُونَ عَليهِمْ آيَاتِنَا﴾** يكادون يبطشون بأصحاب النبي - ﷺ - الذين يتلون عليهم آيات القرآن **﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ﴾** قل : أفخبركم أيها المشركون ، بأكره إليكم من هؤلاء الذين تكرهون قراءتهم القرآن عليكم ؟! هي النار . **﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** وعدها الله المشركين ، وبئس المكان الذي يصيرون إليه **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾** يا أيها الناس جعل المشركون لله شبهاً ، وذكروا له مثلاً وهي هذه الأصنام التي عبدوها فاستمعوا لحال ما مثَّلوه وجعلوه لي **﴿إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ﴾** إن جميع ما تعبدون من الآلهة لو جمعت ، لم يخلقوا ذباباً في صغره وقلته **﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾** وإن يسلب الذباب الآلهة شيئاً مما عليها ، لا تقدر أن تستردُه منه **﴿ضَعُفَ الطَّالبُ وَالمَطْلُوبُ﴾** عجزت الآلهة عن الاستنقاذ ، وعجز الذباب ، يقول تعالى : كيف يُجعل لي مثل في العبادة ، ويشرك معي ما لا قدرة له على خلق ذباب ، وأنا الخالق لما في السموات والأرض ؟!**﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾**ما عظَّم المشركون ربهم حق عظمته، حين أشركوا به غيره، ولا عرفوه حق معرفته**﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** قويٌ على خلق ما يشاء، منيعٌ في ملكه .

---

(١) المنكر : الغيظ والكلاحة في وجوه الكفار ، والمراد أنهم كرهوا القرآن مع وضوح دلائله وحججه .

(٢) قال الطبري : كان المشركون يقولون : والله إن محمداً وأصحابه لشرُّ خلق الله ، فقال الله لهم : أنتم أشرار الخلق لا محمد وأصحابه .

(٣) قال ابن عباس ضعفت آلهتهم وهي الطالب ، وضعف الذباب وهو المطلوب ، ورجحه الطبري

ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾
وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

***

﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَة رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ**﴾ الله يختار رسلاً من الملائكة، ورسلاً من الناس ﴿**إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ سميعٌ لما يقوله المشركون في محمد، بصيرٌ بمن يختاره لرسالته ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ يعلم ما بين أيدي ملائكته قبل أن يخلقهم، وما هو كائن بعدهم ﴿**وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ وإلى الله في الآخرة تصير أمور الخلق وإليه تعود ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**﴾يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، اركعوا لله في صلاتكم واسجدوا للّه فيها ﴿**واعبدوا ربكم**﴾ وذلُّوا لربكم، واخضعوا له بالطاعة ﴿**وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ وافعلوا الخير الذي أمركم به الله، لتفلحوا بذلك فتدركوا به طلباتكم ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾ واستفرغوا طاقتكم في الجهاد في سبيل الله ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ**﴾ هو اختاركم لدينه ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ وما جعل عليكم في الدين من ضيق وشدة بل وسَّع عليكم، فكل ذنب للمؤمن مخرج منه في دين الإسلام ﴿**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾ وذلك كدين إبراهيم عليه السلام ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ**﴾ الله[1] سماكم يا معشر من آمن بمحمد المسلمين، من قبل أن ينزل القرآن ﴿**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ**﴾ ليكون محمد ﷺ شهيداً عليكم يوم القيامة، بأنه بلغكم الرسالة ﴿**وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ وتكونوا أنتم شهداء على الرسل أنهم قد بلغوا أممهم ما أرسلوا به ﴿**فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ فأدوا الصلاة المفروضة، وآتوا الزكاة الواجبة ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ**﴾ وثقوا بالله، وتوكلوا عليه ﴿**هُوَ مَولَاكُمْ فَنِعْمَ المَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ فنعم الولي الله، ونعم الناصر له على من بغاه بسوء.

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج »

---

(١) وقيل الضمير يعود إلى إبراهيم أي إبراهيم هو الذي سمَّاكم المسلمين من قبل نزول القرآن، والأرجح ما ذكره الطبري وهو قول ابن عباس



بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

***

﴿قد أفلح المؤمنون﴾ قد فاز بالخلود في الجنات ، الذين صدقوا الله ورسوله ، وأدركوا ما يطلبون ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾هم المتذلّلون لله في صلاتهم، بإدامة ما ألزمهم من فرضه وعبادته[1]﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ والذين هم عن الباطل ، وما يكرهه الله من خلقه معرضون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ والذين هم لزكاة أموالهم مؤدُّون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ والذين هم يحفظون فروجهم من الزنى ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم﴾ إلا من أزواجهم بالنكاح ، أو إمائهم بملك اليمين ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فإنهم غير موبَّخين على ذلك ، ولا مذمومين﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ فمن التمس لفرجه منكحاً ، سوى زوجته وملك يمينه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ فأولئك هم المجاوزون ما أحلَّ الله لهم ، إلى ما حرَّم عليهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ والذين هم لما ائتمنوا عليه ، ولما عاقدوا الناس عليه ، حافظون لا يضيّعون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ والذين هم على أوقات صلاتهم يحافظون ، حتى يؤدوا

(١) الخشوع في الصلاة يكون بأمرين : بأفعال القلب كالخوف والرهبة واستحضار عظمة الله ، وبأفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والنظر إلاّ إلى موضع سجوده ، روي أن النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته فقال : « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » ورأى الحسن رجلاً يعبث بالحصى وهو يقول : اللهم زوّجني الحور العين ، فقال : بئس الخاطب أنت .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩﴾

* * *

الصلاة في أوقاتها فلا يضيّعونها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ﴾ هؤلاء الذين هذه صفتهم ، يرثون يوم القيامة منازل أهل الجنة ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوسَ﴾ يرثون البستان أعلى الجنان ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ماكثون فيها أبداً ، لا يتحولون عنها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ولقد خلقنا ابن آدم ، من صفوة ماء استُلّت من آدم ، وآدم من طين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ثم جعلنا الإنسان نطفة ، في رحم المرأة ليستقر فيه ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ثم صيَّرنا النطفة قطعةً من الدم ﴿فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ فجعلنا ذلك الدم قطعة من اللحم ﴿فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً﴾ فجعلنا قطعة اللحم عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحماً﴾ فألبسنا العظام لحماً ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ ثم أنشأنا هذا الإنسان بنفخ الروح فيه خلقاً آخر(١) ، غير النطفة التي بدأ خلقه منها ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ فتبارك الله خير الصانعين ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ثم إنكم ـ أيها الناس ـ بعد إنشائكم عائدون تراباً ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَومَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ ثم بعد موتكم مبعوثون من التراب خلقاً جديداً .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ ولقد خلقنا فوقكم أيها الناس سبع سموات ، بعضُهن فوق بعض ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ وما كنا غافلين عن خلقنا الذين هم تحتها ، بل كنا لهم حافظين ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ وأنزلنا من السماء ماءً بمقدار يوافق حاجاتهم ، فأسكناه في الأرض ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ وإنا لقادرون أن نذهب بالماء فتهلكوا عطشاً ، وتهلك مواشيكم وزروعكم ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فأحدثنا لكم بالماء ،

---

(١) هذه الأطوار التي مر بها الإنسان ، هي ما يثبته علم التشريح ، وعلم الأجنة في عصرنا الحديث ، فمن أين لمحمد ﷺ أن يعرف هذه الأدوار ، في عصر لم تكتشف فيه الأشعة ولا المجاهر الدقيقة ، لو لم يكن هذا القرآن تنزيل الحكيم العليم ؟!

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾

* * *

بساتين من نخيل وأعناب(١) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لكم في البساتين فواكه متنوعة تأكلون منها ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وأنشأنا لكم أيضاً شجرة الزيتون ، تخرج من جبل مبارك ينبت الأشجار ، وهو الذي نودي منه موسى عليه السلام ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ تنبت بثمر الزيتون ، وبصبغ يأتدم به الآكلون ويصطبغون به وهو الزيتُ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ وإن لكم ـ أيها الناس ـ لعظةً في الأنعام ، تعتبرون بها وتعرفون قدرة الله ونعمه عليكم ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من اللبن الخارج من بين الفرث والدم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من الحمل والركوب ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ومن لحومها تأكلون ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وعلى الأنعام تُحملون في البر ، وعلى السفن في البحر .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ ولقد أرسلنا نوحاً ليدعو قومه إلى طاعتنا وتوحيدنا ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فقال لهم : ذلوا يا قوم لله بالطاعة ، فما لكم من معبود يجوز لكم عبادته غيره ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخشون عقابه بعبادتكم غيره ؟ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فقال أشراف قوم نوح ، الذين جحدوا توحيد الله لقومهم : ما نوحٌ إلا إنسان مثلكم ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يريد أن يصير له الفضل عليكم ، فيصير متبوعاً وأنتم له تبع ﴿وَلَو شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ ولو شاء الله أن لا نعبد شيئاً سواه ، لأرسل ملائكة تؤدي إليكم رسالته ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ما سمعنا بما يدعونا إليه نوح من التوحيد في القرون الماضية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ ما نوح إلا رجل به جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ فتلبثوا به إلى وقتٍ من الزمان ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ قال نوح داعياً ربه لمَّا تمادوا في غيهم : رب

(١) قال ابن جرير : « وخص جل ثناؤه الجنات بأنها من نخيل وأعناب دون وصفها بسائر ثمار الأرض لأن هذين النوعين من الثمار كانا أعظم ثمار الحجاز ، وما قرب منها ، فكانت النخيل لأهل المدينة ، والأعناب لأهل الطائف ، فذكر القوم بما يعرفون من نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من ثمارها .

فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى
ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ
ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ

***

انصرني على قومي بتكذيبهم إياي ﴿فَأوحَيْنَا إليهِ أَنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ فقلنا له : اصنع السفينة بمرأى منا ، وبتعليمنا إياك صنعتها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فإذا جاء قضاؤنا في قومك بهلاكهم وفار التنور[1] ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوجَينِ اثْنَيْنِ﴾ فأدخل في السفينة من كل زوجين من المخلوقات اثنين ـ ذكراً وأنثى . ﴿وَأَهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيهِ القَولُ مِنْهُمْ﴾ وأولادك ونساءهم ، إلاّ من سبق عليه القول بأنه هالك لكفره فلا تحمله معك ﴿وَلاَ تُخاطِبْني فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تسألني أن أنجي الذين كفروا ﴿إنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ فإني قد حكمت عليهم بالغرق جميعاً ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ﴾ فإذا اعتدلت راكباً في السفينة ، أنت ومن معك ممن حملته من أهلك ﴿فَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ القَومِ الظَّالِمينَ﴾ فاحمد الله على نجاتك من المشركين ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً﴾ وقل إذا سلمك الله فنزلت من السفينة : رب أنزلني إنزالاً مباركاً ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِينَ﴾ وأنت خير من أنزل عباده المنازل ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ إن فيما فعلنا بقوم نوح ، لعبراً لقومك ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ مختبريهم بتذكيرنا إياهم بآياتنا .

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ ثم أحدثنا من بعد مهلك قوم نوح ، قوماً آخرين هم ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم ، داعياً لهم إلى توحيد الله وطاعته دون الآلهة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ليس لكم معبود يصلح أن تعبدوه سواه ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم غيره ؟ ﴿وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَومِهِ﴾ وقال الأشراف من قوم صالح ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ الذين جحدوا توحيد الله ، وكذبوا بلقاء الله في الآخرة ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي

---

(١) قال ابن جرير : هو التنور الذي يخبز فيه الذي جعلنا فورانه بالماء آية مجيء عذابنا لهلاك قومه ! وقيل : المراد بالتنور وجه الأرض لقوله تعالى ﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ .

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم
بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾
* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ
نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا
ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾

* * *

﴿الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ونعَّمناهم في حياتهم ، بما وسَّعنا عليهم وبسطنا لهم من الرزق ، حتى بطروا وعتوا على ربهم ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ما صالح الذي خصه الله بالرسالة إلا إنسانٌ مثلنا ، يأكل من الذي نأكل منه من الطعام ، ويشرب من الذي تشربون منه ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ ولئن صدقتموه إنكم إذاً لمغبونون حظوظكم ، من الشرف والرفعة في الدنيا باتباعكم إياه ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وكنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ أيعدكم «صالح» أنكم إذا كنتم تراباً في القبور ، وذهبت لحوم أجسادكم ﴿أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ أنكم مخرجون من قبوركم أحياء ، كما كنتم قبل مماتكم ؟ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ بعيدٌ بعيدٌ ما توعدون أيها القوم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ما حياتنا إلا هذه الحياة الدنيا، تموت الأحياء منا ويولد آخرون ، وما نحن بمبعوثين بعد الممات ﴿إِنْ هُوَ إلا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ ما صالح إلا رجل اختلق على الله كذباً في دعوته ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما نحن له بمصدِّقين فيما يعدنا من البعث بعد الممات ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ قال : رب انصرني على هؤلاء القوم ، بتكذيبهم إياي ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ قال : عن قليل ليصبحن نادمين ، حين نُنزل بهم نقمتنا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ فأرسلنا عليهم صيحة العذاب بالحق ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ فصيرناهم بمنزلة الغثاء[1] ، الذي لا منفعة فيه ﴿فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربهم وعصوا رسله .

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ﴾ ثم أحدثنا بعد هلاك ثمود ، أقواماً آخرين ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ما يتقدم هلاك أمة قبل الوقت الذي أجلنا لهلاكها ، ولا يستأخر عن

(١) الغثاء : هو ما يحمله السيل على وجه الماء من أوراق يابسة وعيدان مما لا ينتفع به .

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

* * *

وقته[١] ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ﴾ ثم أرسلنا إلى الأمم رسلنا ، يتبع بعضهم بعضاً ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ كلما جاء أمةً من تلك الأمم رسولُهم ، كذبوه فيما جاء به ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً﴾ فأهلكنا بعضهم في إثر بعض ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ وجعلناهم للناس مثلاً يتحدث بهم[٢] ﴿فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فأبعد الله قوماً لا يؤمنون بالله ، ولا يصدّقون برسوله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ثم أرسلنا بعد أولئك الرسل ، موسى وهارون ، بحججنا وبرهانٍ واضح على توحيدِ الله ﴿إِلَى فِرْعَونَ وَمَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ إلى فرعون وأشراف قومه من القبط ، فاستكبروا عن اتباعها ﴿وَكَانُوا قَوماً عَالِينَ﴾ وكانوا قوماً عالين قاهرين على من في بلادهم بالظلم ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَومُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ فقال فرعون وملؤه : أنتبّع بشرين مثلنا وقومهما من بني إسرائيل ، مطيعون لنا متذللون ؟ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ المُهْلَكِينَ﴾ فكذبوا موسى وهارون ، فكانوا ممن أهلكهم الله ، كما أهلك من قبلهم .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ولقد آتينا موسى التوراة ، ليهتدي بها قومه من بني إسرائيل ، ويعملوا بما فيها ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه، حجة على قدرتنا على إنشاء الأجسام من غير أهل ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ وصيَّرناهما إلى مكان مرتفع على الأرض ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ذات مكانٍ مستوٍ ، وماء ظاهر جار ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ وقلنا : يا أيها الرسل كلوا من الحلال الطيب ، واعملوا بصالح الأعمال ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ إني عالمٌ بأعمالكم لا يخفى عليَّ منها شيء ﴿وَإِنَّ هذه أمتكم أمة واحدة﴾ وقلنا

---

(١) قال الطبري : وهذا وعيد من الله لمشركي مكة ، وإعلامٌ لهم أن تأخيره في آجالهم مع تكذيبهم للرسول كسنته فيمن سبقهم .

(٢) « أحاديث » : جمع أحدوثة كالأضحوكة والأعجوبة لا جمع حديث أي جعلناهم أخباراً يسمعونها ويتعجب منها ، لأنه لم يبق فيهم عين ولا أثر .

وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ
لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ
فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

* * *

للرسل : إن دينكم دينٌ واحد ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ وأنا ربكم ومولاكم ، فاتقوا عقابي ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً﴾ فتفرق القوم في دينهم مذاهب شتَّى ، فدان كل فريق منهم بكتاب ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ كل فريق منهم معجبون بما اختاروه من الدين ، لا يرون أن الحق سواه ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ فدعهم في غيِّهم إلى أجل سيأتيهم عنده عذابي ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ﴾ أيظن هؤلاء أن الذي نعطيهم ، في عاجل الدنيا من مال وبنين ، نبادر لهم في خيرات الآخرة ؟! ﴿بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بل لا يعلمون أنه إملاءٌ لهم واستدراج .

﴿إِنَّ الذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إن الذين هم من عذاب الله خائفون ، فلذلك هم في طلب مرضاته جادُّون ﴿وَالذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ والذين هم بآيات كتابه وحججه مصدِّقون ﴿وَالذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ والذين يخلصون عبادتهم لربهم ، فلا يراؤون بها أحداً من خلقه ﴿وَالذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ والذين يؤدون حقوق الله عليهم في أموالهم ، وقلوبهم خائفة من المرجع إلى الله[1] ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾ هؤلاء الذين هذه صفاتهم ، يبادرون في الأعمال الصالحة ، ويطلبون القرب عند الله بطاعته ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ وقد سبقت لهم من الله السعادة ، قبل مسارعتهم في الخيرات ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ولا نكلف نفساً إلَّا ما يصلح لها من العبادة ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالحَقِّ﴾ وعندنا كتاب أعمال الخلق ينطق[2] بما عملوا من خير وشر ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ بأن يزاد على سيئات

---

(١) عن عائشة أنها قالت يا رسول الله : « يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ! قال : لا يا بنت الصدِّيق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدَّق وهو يخاف الله عز وجل» رواه أحمد،وفي رواية للترمذي : هم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ، وهم يخافون ألا يتقبل منهم .

(٢) المراد بنطقه إثبات كل عمل في سجل صحائف أعمالهم .

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم
بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ
عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ
ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم

* * *

المسيء ، أو ينقص المحسن من إحسانه ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ ولكن قلوبهم في عمى عن هذا القرآن ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ ولهؤلاء الكفار أعمال لا يرضاها الله من المعاصي ، من دون أعمال أهل الإيمان ، لا بدَّ أن يعملوها ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ حتى إذا أخذنا أهل النعمةوالبطر بالعذاب، ضجُّوا واستغاثوا ممَّا حلَّ بهم ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ لا تضجُّوا وتستغيثوا اليوم وقد نزل بكم العذاب ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ فإنكم من عذابنا لا تستنقذون ولا يخلصكم منه شيء ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ فقد كانت آيات كتابي تُقرأ عليكم ﴿فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ فكنتم تكذّبون بها ، وترجعون مولّين عنها عند سماعها ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ مستكبرين بحرم الله تقولون : لا يغلبنا أحد فيه،، لأنا أهل الحرم ﴿سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾ تسمرون بالليل تقولون في القرآن أفحش الكلام ، معرضين عن القرآن وعن الرسول عليه السلام

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أفلم يتدبر هؤلاء المشركون كلام الله ، فيعلموا ما فيه من العبر ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أم جاءهم أمر لم يأت من قبلهم فأعرضوا ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أم لم يعرف المشركون محمداً ، وأنه من أهل الصدق والأمانة فأنكروا قوله لذلك[١] ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أم يقولون بمحمد جنونٌ ، فهو يتكلم بما لا معنى له[٢] ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بل جاءهم محمد ﷺ بالحكمة والحق الذي لا تخفى صحته﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وأكثرهم لاتّباع محمد ساخطون ، حسداً منهم وبغياً ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ولو عمل الربُّ بأهوائهم ،وأجرى الأمور على مشيئتهم لفسد نظام العالم ، ولم

---

(١) نبّه تعالى إلى أنهم عرفوا الرسول ﷺ وعرفوا صدقه وصحة رسالته ، فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على أنه الصادق الأمين ؟!

(٢) هذا هو الأمر الرابع من أسباب كفرهم وسفاهتهم وهو نسبتهم الرسول إلى الجنون مع أنه أرجحهم عقلاً

بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ
وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾
حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ

* * *

تستقر السموات والأرض ، ومن فيهن من خلق الله ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بل جئناهم ببيان ما يحتاجون إليه من أمر دينهم ، وبما فيه شرفٌ لهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ فهم عن هذا البيان والشرف معرضون لا يلتفتون إليه ﴿أم تسألهم خَرْجاً﴾ أم تسأل يا محمد هؤلاء المشركين أجراً ، على ما جئتهم به من النصيحة والحق، فلذلك لم يؤمنوا برسالتك ؟ ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ فأجر ربك خيرٌ لك من ذلك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ والله خير من أعطى ورزق ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وإنك لتدعو المشركين إلى دين الإسلام ، الذي لا اعوجاج فيه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ وإن الذين لا يصدقون بقيام الساعة ، لعادلون عن دين الله الذي ارتضاه لعباده ﴿وَلَو رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ ولو رحمنا هؤلاء ، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجوع والهزال ﴿لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[١] لتمادوا في عتوّهم وجرأتهم على ربهم يترددون ، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ ولقد أنزلنا بالمشركين بأسنا وسخطنا ، وأجدبنا بلادهم ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ فما خضعوا لربهم وأنابوا إلى طاعته ، وما يتذللون له ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ حتى إذا فتحنا عليهم باب المجاعة والقحط ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُون﴾ إذا هم نادمون على ما سلف منهم[٢]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ والله هو الذي أعطاكم السمع الذي تسمعون به ، والأبصار التي تبصرون بها ، والقلوب التي تفقهون بها ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون الله على ما أعطاكم قليلاً ﴿وَهُوَ الذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ والله خلقكم في هذه الأرض[٣] ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد الممات والبعث ﴿وَهُوَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يخلقهم أحياء بعد أن كانوا نطفاً أمواتاً،

(١) العَمَهُ للقلب كالعمى للبصر ، يقال : رجل أعمه إذا كان أعمى البصيرة والقلب .
(٢) الإبلاس : اليأس من كل خير أو السكوت مع التحير ، وفسَّره الطبري بالندم على ما سلف .
(٣) هذه دلائل أخر على الوحدانية بعد أن ذكر في أول السورة طائفة من الدلائل والبراهين .

وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ
ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ
ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

* * *

ويميتهم بعد أن أحياهم **﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾** وجعل الليل والنهار مختلفين **﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** قدرة الله[1] ؟ **﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾** بل قالوا مثل ما قال أسلافهم من الأمم المكذبة **﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾** قالوا : أئذا بليت أجسامنا ، أئنا لمبعوثون أحياء كهيئتنا قبل الممات ؟! **﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾** لقد وعدنا هذا الوعد ، ووُعد آباؤ نا من قبلنا فلم نره حقيقة **﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** ما هذا إلا خرافات الأولين سطّروها في كتبهم ، لا صحة لها ولا حقيقة .

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قل لهؤلاء المكذبين : لمن ملك الأرض ومن فيها من الخلق ؟ إن كنتم تعلمون من مالكها ؟ **﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾** سيقرّون بأنها لله ملكاً **﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** فقل لهم : أفلا تتذكرون فتعلمون أن من قدر على الخلق ، فهو قادر على الإحياء ؟ **﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾** قل لهم يا محمد : من ربُّ السموات السبع ، وربُّ العرش المحيط بذلك كله ؟ **﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾** سيقولون : ذلك كله لله **﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾** فقل لهم : أفلا تتقون عقابه على كفركم به ؟! **﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** قل لهم : من بيده خزائن كل شيء ؟ **﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾** وهو يجير[2] من أراد ممن قصده بسوء ، ولا أحد يمتنع ممن أراده هو بسوء فيرفع عنه عذابه ؟ **﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** صفته التي هو عليها **﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾** فإنهم سيقولون : إن خزائن كل شيء ، والقدرة على الأشياء ، كلها لله **﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾** فقل لهم : من أي وجهٍ تُصرفون عن التصديق بآيات الله ؟ **﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾** جئناهم بالإسلام الحق اليقين **﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** وإن المشركين لكاذبون ، فيما يضيفون إلى الله من الولد والشريك

---

(١) هذا توبيخٌ لهم على كفرهم بعد مشاهدتهم دلائل قدرته الباهرة .

(٢) يجير : أي يغيث ويحمي ومنه الجوار لمن يدخل في حمى غيره .

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ
اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾
رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

***

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ ليس لله ولد ﴿وما كان معه من إله﴾ ولا كان معه في القديم ، ولا حين ابتدع الأشياء إلهٌ تصلح عبادته ﴿إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لو كان معه إله ، إذاً لانفرد كلُّ إله منهم بما خلق ، ولتغالبوا فغلب القويُّ منهم الضعيف والضعيفُ لا يصلح أن يكون إلهاً[1] ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاء المشركون ﴿عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ هو عالم ما غاب عن الخلق ، فلم يروه ولم يشاهدوه وما رأوه وشاهدوه ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فارتفع الله وعلا عن شرك هؤلاء ، وعن وصفهم إياه بما يصفون .

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ قل يا محمد : يا رب إن تريني في هؤلاء المشركين ما تعدهم من عذابك ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي القَومِ الظَّالِمِينَ﴾ ربِّ فلا تهلكني معهم ، واجعلني ممن رضيت عنه ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ وإنا على أن نريك يا محمد ، ما نعدهم من تعجيل العذاب لهم لقادرون ، فلا يحزنك تكذيبهم ﴿إدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ إدفع بالخصلة التي هي أحسن من الصفح والإغضاء أذى المشركين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ نحن أعلم بما يصفون به الله ، وبما يقولون فيك من قبيح القول ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ وقل يا محمد : ربِّ أستجير بك من خنق[2] الشياطين ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ وأستجير بك أن يحضروني في أموري ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ حتى إذا جاء الموت أحد المشركين قال ـ لعظيم ما يعاين ـ : رب ردّوني[3] إلى الدنيا ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾ لكي أعمل صالحاً فيما

(١) قال ابن جرير : سبحان الله ، ما أبلغها من حجة ، وأوجزها لمن عقل وتدبَّر !؟ فإنه لو كان هناك إله غير الله لتغالبوا ، فغلب القوي منهم الضعيف ، لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف ، فيقع التغالب والتنازع.

(٢) فسّر ابن جرير ﴿همزات الشياطين﴾ بأنها خنقه وهو مروي عن ابن زيد ، وفسّرها غيره بأنها وساوسه وإيحاءاته ، وأصل الهمز في اللغة : النخسُ ومنه المهماز ، فإن الشيطان يحث الناس على المعاصي بأنواع الوساوس كما يحث الرائض الدابة بالمهماز .

(٣) إنما جاء بصيغة الجمع ﴿ ارجعون ﴾ للتعظيم .

وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾
قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾

* * *

ضيَّعت قبل اليوم ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ ليس الأمر كما قال المشرك ، فلن يرجع إلى الدنيا ، وهذه الكلمة لا بدَّ أن يقولها ﴿وَمِنَ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَومِ يُبْعَثُونَ﴾ ومن أمامهم حاجزٌ ، يحجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، إلى يوم القيامة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق وهي النفخة الأولى[١] ، وقيل هي الثانية ﴿فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَومَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ فلا أنساب يومئذ يتواصلون بها ، ولا يتزاورون فيتساءلون عن أحوالهم ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ فمن ثقلت موازين حسناته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ فأولئك هم الخالدون في جنات النعيم ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ومن خفت موازين حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فأولئك الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ هم في نار جهنم ، يلفح وجوههم لهب النار فتحرقها ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ وقد تقلّصت شفاههم وبدت أسنانهم[٢] من إحراق النار ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يقال لهم : ألم تكن آيات القرآن تقرأ عليكم في الدنيا ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ولا توقنون بما فيها ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قالوا : ربنا غلب علينا ما سبق لنا في أم الكتاب من الشقاء ﴿وَكُنَّا قَوماً ضَالِّينَ﴾ ضللنا عن سبيل الرشاد وقصد الحق ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ربنا أخرجنا من النار ، فإن عدنا لما تكره منا ، فإنا ظالمون لأنفسنا ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ قال الرب : أقعدوا في النار[٣] ولا تكلمونِ أبداً

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ إنه كان أهل

---

(١) هذا قول ابن عباس ، وقال ابن مسعود : هي النفخة الثانية التي يخرج الناس فيها من القبور ، ولم يرجح الطبري أحد القولين .
(٢) ورد أنه تتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته ، فهذا هو الكلوح .
(٣) قال ابن جرير : فعند ذلك أيسوا من الفرج وكانوا طامعين فيه

فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ
ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن
لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ
ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

* * *

الإيمان يقولون في الدنيا : ربنا آمنا بك وبرسلك ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وارحمنا ولا تعذبنا بعذابك ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيّاً حَتَّى أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ فاتخذتموهم في الدنيا هزواً ، تسخرون منهم حتى أنساكم ذلك ذكري ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وكنتم من عبادتهم لله تضحكون ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمْ اليَومَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ إني جزيت أهل الإيمان الجنة ، بما صبروا في الدنيا على أذاكم ، أنهم اليوم هم الفائزون بالنعيم الدائم ، والكرامة الباقية ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ قال الله لهؤلاء الأشقياء وهم في النار : كم مكثتم في الأرض من السنين ؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوماً أَو بَعْضَ يَومٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ﴾ قالوا : مكثنا في الدنيا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل الذين يعدُّون الشهور والسنين ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَو أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال الله لهم : ما لبثتم في الأرض إلاَّ يسيراً ، لو أنكم كنتم تعلمون قدر لبثكم فيها لعرفتم الحقيقة .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ أفظننتم أنما خلقناكم لعباً وباطلاً ؟ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ وأنكم بعد مماتكم لا تُبعثون أحياء ، فتجزون على أعمالكم ؟ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾ فتقدس الله عما يصفه المشركون ، وأنه يخلق شيئاً عبثاً ، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ﴾ لا معبود إلاَّ الله ، ربُّ العرش المحيط بجميع المخلوقات ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ ومن يعبد مع الله معبوداً آخر ، لا بيّنة له بما يقول ولا حجة ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فإنما حساب عمله السيء عند ربه ، وهو موفيه جزاءه يوم يقدم عليه ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ إنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده ، ولا يدركون الخلود في النعيم ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ وقل يا محمد : ربِّ استر عليَّ ذنوبي بعفوك عني ، وارحمني بقبول توبتي ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ وأنت خير من رحم ذا ذنب ، فلم يعاقبه .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون»



بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

* * *

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ هذه السورة أنزلناها ، وأوجبنا ما فيها من الأحكام عليكم ، وبينا ذلك لكم ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وأنزلنا في هذه السورة علامات على الحق ، واضحات لمن تأملها ، وفكر فيها بعقله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لتتذكروا بهذه الآيات التي أنزلناها ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ من زنا من الرجال أو من النساء ـ وهو حر بكر غير محصن ـ فاجلدوه ضرباً مئة جلدة ، عقوبة لما صنع ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ولا تأخذكم بالزاني والزانية رحمة ، في طاعة الله ، بترك إقامة الحد ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إن كنتم تصدقون بالله ربكم ، وباليوم الآخر وأنكم فيه مبعوثون ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليحضر جلدهما طائفة ، من أهل الإيمان بالله ورسوله[١] ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الزاني لا يطأ إلا زانية تستحل الزنى ، أو مشركة زانية ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ والزانية من أهل الاسلام ، لا تزني إلا بزان مثلها من أهل القبلة[٢] أو مشرك ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وحرم الله الزنى على المؤمنين بالله ورسوله

---

(١) رجح الطبري ان الطائفة تصدق على الواحد فصاعداً ، واستحب أن لا يقصر عن أربعة أنفس ، عدد من تقبل شهادته على الزنا .

(٢) أراد به المسلم الفاسق ، والمراد بالزنى هنا الوطء لا العقد ، قال ابن عباس : لا يزني الزاني إلا بزانية مثله أو مشركة .

وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ
أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ
إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ
عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

* * *

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ والذين يرمون العفائف من حرائر المسلمين بالزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ ثم لم يأتوا على ما رموهن به ، بأربعة شهداء عدول ، يشهدون عليهن أنهن يفعلن ذلك ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾فاجلدوا الذين رموهن ثمانين جلدة ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾ جزاء شتمهم للعفيفات ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله ، وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ إلا الذين تابوا من جرمهم بقذف المحصنات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإن الله ساتر على ذنوبهم بعفوه لهم عنها ، رحيم بهم بعد التوبة فاقبلوا شهادتهم ولا تسمُّوهم فسقة(١) .

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ والرجال الذين يرمون أزواجهم بالفاحشة فيقذفونهن بالزنا ، ولم يكن لهم أحد يشهد لهم بصحة ذلك ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيحلف أحدهم أربع أيمان بالله إنه لمن الصادقين فيما رمى زوجته به ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه حالَّة ، إن كان فيما رماها به من أهل الكذب والافتراء ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ ويدفع عنها الحد ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إنه لمن الكاذبين﴾ أن تحلف بالله أربع أيمان ، أن زوجها الذي رماها بالفاحشة ، لمن الكاذبين فيما رماها به ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما رماها به من الزنا ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم ، وأنه عوّاد على خلقه بلطفه ، حكيم في تدبيره إياهم ،

---

(١) هذا القول قال به الأئمة الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد ، وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء في الآية إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق ويبقى القاذف مردود الشهادة لقوله تعالى ﴿ أبداً ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ
وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ
إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ
بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم

***

لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم وفضح أهل الذنوب .

﴿إِنَّ الذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾ إن الذين جاءوا بالكذب والبهتان جماعةٌ منكم[1] ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لا تظنوا ما جاءوا به من الإفك، شراً لكم عند الله وعند الناس ، بل ذلك خير لكم عند الله وعند المؤمنين ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ لكل واحد منهم جزاء ما اجترم من الإثم ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ والذي تحمَّل معظم الإثم منهم ، وبدأ بالخوض فيه ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ له عذاب عظيم يوم القيامة ﴿لَولَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾ هلاّ حين سمعتم ما قاله أهل الإفك في عائشة ، ظننتم بمن رمي بذلك منكم خيراً[2] !! ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ وقالوا : هذا الذي سمعناه من رمي عائشة كذبٌ وبهتان ﴿لَولَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ هلاّ جاء هؤلاء العصبة بأربعة يشهدون على مقالتهم فيها !! ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ على حقيقة ما رموها به ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ فيما جاءوا به من الإفك ﴿وَلَولَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ ولولا فضل الله عليكم ـ أيها الخائضون في أمر عائشة ـ بتركه تعجيل عقوبتكم ، ورحمته إياكم بقبول توبتكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لمسَّكم عاجلاً عذاب عظيم ، بسبب ما تكلمتم فيه من أمرها ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ حين تتلقون خبر الإفك من أهله ، فتقبلونه على أنه حقيقة ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ وتتكلمون بألسنتكم بما لا علم لكم به ، ولا تعلمون حقيقة ما تروونه ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً﴾ وتظنون أن روايتكم له وتلقّيه سهل ، لا إثم عليكم فيه ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وروايتكم له أمر عظيم عند الله ، لما فيه من إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء زوجته ﴿وَلَولَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا

---

(١) هذه الآيات بدء « حديث الإفك » الذي اتهمت به عائشة الصدّيقة رضي الله عنها ، وما قذفها به أهل النفاق « عبد الله بن سلول » وجماعته ، وفي هذه الآيات تبرئة لها من البهتان ، وتحذير للمؤمنين عن الخوض في أعراض المسلمات .

(٢) ذلك لأن المؤمن فيه من نور الإيمان والعقل والدين ، ما يميز به بين الصحيح والقبيح ، والصادق والكاذب .

مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ
فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

* * *

يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ هلاَّ حين سمعتموه قلتم : ما يحل ولا ينبغي لنا أن نتكلم بهذا **﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾** تنزيهاً لك يا رب ، وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء ، فهذا القول بهتان عظيم **﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً﴾** ينهاكم الله ويذكّركم بآي كتابه ، لئلا تعودوا لمثل فعلكم في أمر عائشة أبداً **﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** إن كنتم تتعظون بعظات الله ، وتنتهون عما نهاكم عنه **﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾** ويفصّل الله لكم حججه **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** والله عليم بأفعالكم ، حكيم في تدبير خلقه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن الذين يحبون أن ينتشر الزنى ويظهر في الذين صدقوا بالله ورسوله **﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾** لهم عذاب وجيع في الدنيا بالحدّ ، وفي الآخرة بعذاب جهنم **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾** والله يعلم كذب أهل الإفك ، وأنتم لا تعلمون ذلك لأنكم لا تعلمون الغيب ، فلا تتحدثوا بما لا علم لكم به من الإفك فتهلكوا **﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾** ولولا أن الله تفضل عليكم أيها الناس ورحمكم ، وأن الله ذو رحمة بخلقه ، لهلكتم فيما أفضتم فيه **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾** يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، لا تسلكوا سبيل الشيطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره ، بإشاعتكم الفاحشة **﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾** ومن يقتف آثار الشيطان ، فإنه يأمر بالزنى والمنكر من القول **﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾** ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم ، ما تطهر منكم أحد أبداً من دنس ذنوبه وشركه **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾** ولكنَّ الله يطهّر من يشاء من خلقه **﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** والله سميع لما تقولونه بأفواهكم عليم بكل أموركم ، ومحصيها عليكم **﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾** ولا يحلف بالله من كان ذا فضل من مال وسعة منكم[1] **﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولِي**

(١) كان مسطح بن أثاثة قريباً لأبي بكر ـ رضي الله عنه ، وكان في عياله ، وكان ممن تكلم بالإفك فحلف أبو بكر أن لا ينيله خيراً أبداً =

وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ
عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ
مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ

***

﴿الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ والمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أن لا يعطوا ذوي قرابتهم ، وذوي الحاجة ، والذين هجروا ديارهم وأموالهم في جهاد أعداء الله **﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾** وليعفوا عما كان منهم من جرم ، وليتركوا عقوبتهم على ذلك **﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾** ألا تحبون أن يستر الله ذنوبكم ، بإفضالكم عليهم !! **﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** والله غفور لذنوب من أطاعه ، رحيم بهم أن يعذبهم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إن الذين يتهمون بالزنى العفيفات ، الغافلات عن الفواحش ، المؤمنات بالله ورسوله **﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾** أُبعدوا من رحمة الله ، في الدنيا ويوم القيامة **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** ولهم في الآخرة عذاب جهنم الشديد ، إلا أن يتوبوا قبل وفاتهم **﴿يومَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** يوم القيامة حين يجحد أحدهم ما اكتسب في الدنيا من الذنوب يختم الله على أفواههم ، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بآثامهم **﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾** في ذلك اليوم يوفّيهم الله حسابهم ، وجزاءهم الحق على أعمالهم **﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾** ويعلمون أن ما وعدهم الله به في الدنيا من العذاب حقٌّ ، ويزول حينئذ الشك **﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾** القبيح من القول للخبيثين من الرجال ،والخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، هم بها أولى لأنهم أهلُها **﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾** والحسن من القول للطيبين من الناس والطيبون من الناس للطيبات من القول ، لأنهم أهلها وأحق بها[1] **﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾** الطيبون من الناس مبرءو ن من خبيثات القول **﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾** لهم مغفرة من الله لذنوبهم ، ولهم الجنة عطية كريمة من الله **﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى**

=فنزلت الآية ، فأعاده أبو بكر إلى عياله وضاعف له العطية .

(١) قال المفسرون في معنى هذه الآية « الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء » وهو أظهر مما فسّره به الطبري .

تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ
يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ
أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ
مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ

***

﴿تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله ، لا تدخلوا بيتاً من البيوت غير بيوتكم ، حتى تسلموا على أهل ذلك البيت ، وتستأذنوا بالدخول ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الاستئذان قبل الدخول خير لكم ، لتتذكروا أمر الله عليكم ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فإن لم تجدوا في البيوت أحداً من أهلها يأذن لكم ، فلا تدخلوها لأنها ليست لكم ، فإن أذن لكم أربابها بالدخول فادخلوها ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ وإن لم يأذن لكم أهل البيوت وقالوا : ارجعوا فلا تدخلوها ، فارجعوا عنها ولا تدخلوها ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ رجوعكم عند عدم الإذن ، أطهر لكم عند الله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ والله عالمٌ بطاعتكم له فيما أمركم ونهاكم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ ليس عليكم إثم ، أن تدخلوا بيوتاً لا ساكن بها بغير استئذان ، إن كان لكم فيه متاع ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ والله يعلم ما تظهرون بألسنتكم ، وما تضمرونه في صدوركم .

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ قل للمؤمنين بالله يكفُّوا عن النظر إلى ما يشتهون مما نهوا عن النظر اليه ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أن يراها من لا يحل له رؤ يتها ، بلبس ما يسترها عن أبصارهم[1] ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ الغضُّ والحفظ أطهر لهم عند الله وأفضل ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ إن الله مطّلع على ما تصنعون من غضّ البصر ، وحفظ الفروج ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ وقل للمؤمنات من أمتك ، يغضضن من أبصارهن عما يكره الله النظر إليه ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن أن يراها من لا يحل له رؤ يتها ، بلبس ما يسترها ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ ولا يظهرن زينتهن للناس ، الذين ليسوا لهن بمحرم ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إلّا الوجه والكفين[2] ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وليلقين

---

(١) قول ابن جرير هذا مستلزم لحفظ الفروج من الزنى ، لأن من سترها عن النظر سترها عما هو أبعد منه ، وقد رجح القرطبي أن المراد بالآية ستر الفروج عن الأبصار وحفظها من الزنى لعموم اللفظ .

(٢) رأي ابن جرير هذا مبناه على أن الوجه والكفين ليسا بعورة ، والصحيح الذي تؤيده النصوص ، ويتمشى مع روح الإسلام أن =

زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

***

خمرهن على جيوبهن(١) ، ليسترن بذلك شعورهن ، وأعناقهن(٢) ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ ولا يظهرن الزينة الخفية غير الظاهرة ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلا لأزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آباء بعولتهن أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أو لأحد من هؤلاء المذكورين ﴿أَو نِسَائِهِنَّ﴾ أو نساء المسلمين(٣) ﴿أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الإماء المشركات ﴿أَو التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أو الذين يتبعونكم لطعام يأكلونه عندكم، ممن لا حاجة له في النساء ﴿أَو الطِّفْلِ الذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أو الطفل الذين لم يكشفوا عن عورات النساء لصغرهن ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ولا يجعلن في أرجلهن من الحلي(٤) ما إذا مشين ، أو حركنهن علم الناس ما يخفين من ذلك ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله ، فيما أمرسم ونهاكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتفلحوا وتدركوا طلباتكم لديه ، بطاعتكم لأوامره ونواهيه .

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ وزوّجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ وزوِّجوا أهل الصلاح من عبيدكم وإمائكم ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إن يكن هؤلاء أهل فاقة وفقر ، فإن الله يغنيهم(٥) من فضله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والله واسع الفضل يوسع

= الوجه من العورة التي يجب سترها ولا يجوز إبداؤها إلا لضرورة أو حاجة كما بينه العلماء ، لأن الوجه أصل الجمال ومصدر الفتنة والإغراء ، وأن المراد بالآية : ما ظهر من غير قصد ، وليس الإظهار بكشف الوجه .

(١) جيوبهن : صدورهن وأصل الجيب في اللغة فتحة الثوب من جهة الصدر .

(٢) في هذه الآية دليل على تغطية الوجه لأن الخمار هو الذي تغطي به المرأة رأسها فإذا أنزلته على صدرها لتغطيه ، غطت ما بينهما وهو الوجه .

(٣) هذا قول ابن عباس ، وقال آخرون : إن المراد جميع النساء ، وقول السلف محمول على الأولى والأحب .

(٤) كالخلخال الذي يوضع في القدم .

(٥) الأصح أن هذا ليس وعداً من الله بإغناء كل متزوج حتى لا يقع فيه خُلْف ، فربّ غني يفقره النكاح ، ولكن المعنى لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم ، ففي فضل الله ما يغنيهم ، والمالُ غادٍ ورائح ، وقيل : إنه وعد .

وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ
فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ
أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ * ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ

* * *

عليهم ، عالمٌ بأحوال خلقه ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الذينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ وليكفَّ الذين لا يجدون ما ينكحون به النساء ، عن إتيان ما حرم الله عليهم من الفواحش ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى أن يغنيهم الله من سعة فضله ، ويوسع عليهم من رزقه ، فيتمكنوا من الزواج ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ والذين يلتمسون المكاتبة[1] من مماليككم ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم قوة على الإحتراف والإكتساب ، ووفاءً بما أوجبوا على أنفسهم ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ وأعطوهم سهمهم من مال الصدقة المفروضة ، الذي أعطاكم الله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ ولا تكرهوا إماءكم على الزنى ، إن أردن تعففاً ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لتلتمسوا بإكراهكم إياهن على الزنى زينة الدنيا وأموالها ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والذي يكره فتياته على الزنى فإن الله غفور لهن ، رحيم بهن ، ووزر ذلك عليهم دونهن[2].

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ دلالات توضح الحق من الباطل ﴿وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وذكر لكم الأمثال لتتعظوا بمن سبق من الأمم ﴿وَمَوعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يخافون عقاب الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الله هادي من في السموات والأرض إلى الحق ، فهم بنوره يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد في قلوب المؤمنين ـ مثل عمود القنديل الذي فيه السراج ﴿المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ السراج في القنديل ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ الزجاجة في صفائها وضيائها وحسنها تشبه الدر[3] ﴿يُوقَدُ مِنْ

(١) المكاتبة : هي أن يدفع العبد لسيده شيئاً من المال يتفقان عليه من أجل عتقه ليصبح حراً

(٢) نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول ـ رأس المنافقين ـ كان له جوار يأمرهن بالزنى ليستدر من ورائهن المال خسة منه ودناءة ، وهن لا يردن ذلك فنهى الله عن ذلك .

(٣) قال ابن جرير : وذلك مثل للقرآن في قلب أهل الإيمان ، يقول تعالى « القرآن الذي في قلب المؤمن ، الذي أنار الله قلبه في صدره ، ومثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله ، واستنارته بنور القرآن ، واستضاءته بآيات ربه ومواعظه بالكوكب الدري ، فقال : الزجاجة =

زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

* * *

شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ المصباح يوقد من زيت شجرة مباركة زيتونة ، تشرق الشمس عليها وتغرب عليها ، فيصيبها ضوء الشمس بالغداة والعشي **﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾** يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه ، وحسن لمعانه ولو لم تمسسه النار ، فكيف إذا مسته نار !! فحجج الله تعالى على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها ، تضيء لمن فكر فيها ولو لم يزدها الله بياناً بهذا القرآن **﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾** نور فوق نور ، يقول : هذا القرآن نور من عند الله أنزله إلى خلقه ، فوق الحجج التي قد نصبها لهم قبل إنزال القرآن **﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾** يوفّق الله لاتباع القرآن من يشاء من عباده **﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾** ويمثل الله الأمثلة للناس ليعتبروا **﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** والله ذو علمٍ بكل الأشياء .

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ في مساجد أمر الله أن تبنى ، وأذن لعباده أن يذكروا اسمه فيها **﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾** يصلي له في هذه البيوت بالصباح والمساء **﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾** رجال لا يشغلهم عن عبادة الله شاغلٌ ، من تجارةٍ أو بيع **﴿وَإِقَامِ الصَّلاَةِ﴾** ولا يشغلهم شيءٌ عن إقام الصلاة ، بحدودها في أوقاتها **﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾** ولا يشغلهم أيضاً عن دفع ما فرض عليهم في أموالهم لمن يستحقه **﴿يَخَافُونَ يَوماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾** يخافون يوماً تتقلب القلوب من هوله[1] ، بين طمعٍ بالنجاة ، وحذرٍ من الهلاك ، وتتقلب فيه الأبصار ، من أي ناحيةٍ يُؤخذ بهم ؟ ومن أين يؤتون كتبهم ؟ **﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾** كي يثيبهم الله بأحسن أعمالهم ، التي عملوها في الدنيا **﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** ويزيدهم بما أحب من كرامته **﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ**

= وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه ـ كأنها كوكب دري في صفائها ، وضيائها وحسنها ، وإنما يصف صدره بالنقاء من كل ريب وشك في أسباب الإيمان ، وبعده من دنس المعاصي كالكوكب الذي يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن .

(١) إنما تضطرب القلوب من أهوال يوم القيامة لما يصيبها من الهول والفزع ، وتقلب الأبصار شخوصها ، وهو أن أبصارهم تقف عن الحركة دهشة وحيرة كما قال تعالى ﴿ إنما يؤخرهم ليومٍ تشخص فيه الأبصار ﴾ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ
حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا

***

حِسَابٍ﴾ والله يتفضل على من شاء من طَوله وكرامته ، مما لم يبلغه بطاعته ، بغير محاسبة على ما بذله وأعطاه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ والذين جحدوا وحدانية الله ، وكذَّبوا بهذا القرآن ، مَثَل أعمالهم التي عملوها كسراب في قاع[1] ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ يظن العطشان السراب ماء ، حتى إذا جاء السراب ملتمساً ماءً يستغيث به عطشه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ فكذلك الكافر يحسب أعماله تنجيه من عذاب الله ، حتى إذا هلك لم يجد عمله ينفعه شيئاً ، لأنه كان على كفر بالله ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ ووجد الكافر ربه بالمرصاد ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ فوفَّاه يوم القيامة حساب أعماله ، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ حسابه سريع لعباده ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ ومثل أعمال الكفار ، كمثل ظلماتٍ في بحر عميق كثير الموج ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوقِهِ مَوجٌ مِنْ فَوقِهِ سَحَابٌ﴾ يغشى البحر موجٌ ، من فوق الموج موجٌ آخر يغطّيه ، ومن فوق الموج الثاني سحاب وهكذا قلب الكافر قد غمره الجهل ، وتغشَّته الضلالة والحيرة ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوقَ بَعْضٍ﴾ فقد ختم الله على قلبه ، فلا يعقل عن الله أمراً ، وعلى سمعه فلا يسمع مواعظ الله ، وجعل على بصره غشاوة فلا يبصر حجج الله ، فتلك ظلماتٌ بعضها فوق بعض ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ إذا أخرج يده أمامه ، لم يرها من شدّة الظلمة ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ومن لم يرزقه الله إيماناً وهدى ومعرفةً بكتابه ، فما له إلى ذلك من سبيل .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ألم تعلم يا محمد أن الله يصلي[2] له من في السموات والأرض ، من مَلَك وإنس وجنّ ؟ ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ والطير في الهواء تسبّح لله أيضاً في طيرانها ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ كل مصلٍّ منهم ومسبّح ، قد علم الله صلاته وتسبيحه ﴿وَاللَّهُ

---

(١) القاع : الأرض المنبسطة المتسعة ، والسراب : ما يتراءى للعين في الصحراء شبيهاً بالماء الجاري ، وليس بماء وإنما هو خيال ، حتى إذا جاءه تلاشى السراب فلم يجد شيئاً ، فكذلك الكافر يظن عمله نافعه وليس له عمل مقبول عند الله ، قال قتادة : هذا مثلٌ ضربه الله لعمل الكافر .

(٢) الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء ، ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة ، وقيل : إن الصلاة لبني آدم ، والتسبيح لغيرهم من الخلق وهو مروي عن مجاهد .

يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ
ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي
ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم
مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي
مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

***

عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ والله ذو علم لا يخفى عليه شيء ، وهو مجازيهم على ذلك ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ ولله سلطان السموات والأرض وملكُها ، دون من هو دونه ﴿**وَإِلى اللَّهِ المَصِيرُ**﴾ ومصيركم أيها الناس إليه بعد وفاتكم ، فقدّموا الصالحات من أعمالكم ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً**﴾ ألم تر أن الله يسوق سحاباً حيث يريد ؟ ﴿**ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ**﴾ ثم يجمع بين متفرق السحاب ﴿**ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً**﴾ ثم يجعله متراكماً بعضُه على بعض ﴿**فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**﴾ فترى المطر يخرج من بين السحاب ﴿**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ**﴾ فيعذّب بما ينزل من السماء(١) من برد من يشاء فيهلكه ، أو يهلك زروعه وماله ، ويصرفه عمن يشاء من خلقه ﴿**يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ**﴾ تكاد شدة ضوء برق السحاب ، يذهب بأبصار من لاقى بصره ﴿**يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾ يصرّف الله الليل والنهار ، ويعاقب بينهما إذا ذهب هذا جاء هذا والعكس ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ**﴾ إن فيما ذكر من آيات الله ، لعظةً لمن اعتبر ، ممن له فهمٌ وعقل ، لأن ذلك يدل على أن له مدبراً ومصرِّفاً لا يشبهه شيء ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ**﴾ والله خلق كل ما يدب على الأرض من نطفة ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ**﴾ فمن الدواب من يزحف على بطنه كالحيّات ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ**﴾ ومنها من يمشي على رجلين كالطير والإنسان ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ**﴾ كالبهائم ﴿**يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ يحدث الله ما يشاء من الخلق ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ إن الله ذو قدرة ، لا يتعذر عليه شيء أراده

﴿**لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ**﴾ لقد أنزلنا علامات واضحات ، دالات على طريق الحق والرشاد ﴿**وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ والله يرشد من يشاء من خلقه بتوفيقه ، فيهديه إلى دين الإسلام

(١) قوله﴿ وينزل من السماء من جبال﴾ المراد بالجبال هنا الكثرة كما يقال : فلان يملك جبالاً من ذهب ، وقيل : إن في السماء جبالاً من برد خلقها الله كما خلق في الأرض جبالاً من حجر ، والقول الأول أظهر

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟
إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾
أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ
قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ
لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

* * *

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ ويقول المنافقون : صدقنا بالله وبالرسول ، وأطعنا الله ، وأطعنا الرسول ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم تُعرض كل طائفة منهم من بعد ما قالوا هذا القول عن رسول الله ﷺ وتتحاكم إلى غيره ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس أولئك بالمؤمنين ، لتركهم الإحتكام إلى رسول الله ﷺ وإعراضهم عنه ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ وإذا دعي المنافقون إلى كتاب الله وإلى رسوله ، ليحكم بينهم فيما اختصموا فيه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن قبول الحق ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيهِ مُذْعِنِينَ﴾ وإن يكن الحق لهؤلاء المنافقين يأتوا إلى رسول الله - ﷺ - منقادين لحكمه ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾ أفي قلوب هؤلاء شك في رسول الله ﷺ أنه رسول ، فيمتنعون من الإجابة ؟! ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أم يخافون أن يجور عليهم رسول الله في حكمه عليهم ، إذا احتكموا إلى كتاب الله وحكم رسوله ؟ ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولكنهم ظالمون لأنفسهم بمعصيتهم لربهم ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين خصومهم ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أن يقولوا : سمعنا ما قيل لنا ، وأطعنا من دعانا إلى ذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وأولئك هم الناجحون ، المخلدون في جنات الله ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمره ونهاه ، ويُسلِّم لحكمهما ﴿وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ ويخف عاقبة معصيته لله ، ويتق عذاب الله ، بطاعته إياه في أمره ونهيه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ برضا الله عنهم يوم القيامة ، ويأمنهم من عذابه .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وحلف هؤلاء المنافقون أغلظ الأيمان وأشدها ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ لئن أمرتهم بالخروج إلى جهاد الأعداء ليخرجن ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ قل : لا تحلفوا فإن هذه طاعة معروف منكم فيها التكذيب ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ إن الله ذو خبرة بما تعملون ،

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ
إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى
شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ﴾

***

لا يخفى عليه شيء ، وهو مجازيكم بكل ذلك ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ قل للمقسمين بالله : أطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فإن طاعته طاعةٌ لله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوا﴾ فإن تُعرضوا عما أمركم به رسول الله ﷺ وتأبوا الإذعان لحكمه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَليكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ فإنما عليه فعل ما أُمر بفعله ، وعليكم أن تفعلوا ما أُوجب عليكم ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وإن تطيعوا رسول الله ، فيما يأمركم وينهاكم ، ترشدوا وتصيبوا الحق في أموركم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ المُبِينُ﴾ ولا يجب على من أرسله الله إلى قوم برسالة ، إلا أن يبلغهم رسالته ﴿وَعَدَ اللَّهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ وعد الله المؤمنين بالله ورسوله ، المطيعين لأمره ونهيه ليورثنهم أرض المشركين فيجعلهم ملوكها ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما فعل مِنْ قبلهم ببني إسرائيل ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وليوطئن لهم ملتهم التي ارتضاها لهم ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوفِهِمْ أَمْناً﴾ وليغيرن حالهم من الخوف الذي هم فيه إلى الأمن ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ يخضعون لي بالطاعة ، ويتذللون لأمري ، ولا يشركون في عبادتهم شيئاً غيري ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ ومن كفر بهذه النعمة ، فأولئك هم الخارجون عن أمر ربهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وأقيموا الصلاة بحدودها فلا تضيّعوها ﴿وآتوا الزكاة﴾ التي فرضها الله عليكم ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وأطيعوا رسول ربكم ، فيما أمركم ونهاكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كي يرحمكم ربكم ، فينجيكم من عذابه .

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ لا تظنن الذين جحدوا وحدانية الله ، معجزين ربهم في الأرض ، إذا أراد إهلاكهم ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ ومأواهم بعد هلاكهم نار جهنم ، ولبئس المصير الذي يصيرون إليه ذلك المأوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ
طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ
ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ
مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ
خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ

***

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، ليستأذنكم في الدخول عليكم عبيدكم وإماؤكم ﴿وَالذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنكُمْ﴾ وليستأذنكم الذين لم يحتلموا[1] من أحراركم ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاَةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاَةِ العِشَاءِ ثَلاَثُ عَورَاتٍ لَكُمْ﴾ ثلاث مرات ، في ثلاث أوقات ، من ساعات ليلكم ونهاركم قبل الفجر ، ووقت الظهر ، وبعد العشاء ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ فلا حرج على الناس من دخول المماليك والصبيان عليهم بغير إذن ، بعد هذه الأوقات الثلاث ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يدخلون عليكم ويخرجون غدوة وعشية بغير إذن ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ كذلك يبيّن الله لكم شرائع دينه ، كما بيّن لكم أحكام الإستئذان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عالم بما يصلح عباده ،حكيم في تدبيره ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ منكُمُ الحُلُمَ﴾ وإذا بلغ الصغار من أولادكم الإحتلام ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فلا يدخلوا عليكم إلا بإذن ، كما استأذن الكبار من الأحرار ﴿كَذَلِكَ يُبِّينُ اللَّهُ لَكُم آيَاتِهِ﴾ هكذا يبين الله أحكامه وشرائع دينه ، كما بيَّن لكم أمر هؤلاء الأطفال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله عليم بما يصلح خلقه، حكيم في تدبيره ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ واللواتي قد قعدن عن الولد من الكبر ، فلا يطمعن في الأزواج ، ولا يطمع الأزواج فيهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ فليس عليهن إثم أن يضعن جلابيبهن عند الغرباء ﴿غَيْرَ مُتَبرِّجاتٍ بِزِينَةٍ﴾ إذا لم يردن بذلك أن يبدين ما عليهن من الزينة للرجال ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ وأن يلبسن أرديتهنَّ خيرٌ لهنَّ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لما تنطقون به ، عليم بما تضمره صدوركم ، فاحذروا أن تضمروا ما قد كرهه لكم ، فتستوجبوا بذلك عقوبة منه .

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لا ضيق على هؤلاء

---

(١) المراد بهم الذين لم يبلغوا سنّ التكليف ، وهو سنّ العقل والرشد .

أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ

* * *

الأعمى والأعرج والمريض ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ ولا عليكم أن تأكلوا من بيوتِ أنفسكم ﴿أَو بُيوتِ آبَائِكُمْ أَو بُيوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَو بُيوتِ إِخْوَانِكُمْ أَو بُيوتِ أَعْمَامِكُمْ أَو بُيوتِ عَمَّاتِكُمْ أَو بُيوتِ أَخْوَالِكُمْ أَو بُيوتِ خَالاَتِكُمْ أَو مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَو صَدِيقِكُمْ﴾ أو من بيوت من ذُكر ، إذا أذن لكم أصحابها ، عند مغيبهم ومشهدهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَو أَشْتَاتاً﴾ ليس عليكم إثم ولا حرج ، أن تأكلوا جميعاً إذا شئتم ، أو متفرقين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فإذا دخلتم بيوتاً من بيوت المسلمين ، فلْيسلم بعضكم على بعض تحية من عند الله ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ لما فيها من الأجر الجزيل ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هكذا يفصِّل الله لكم معالم دينكم ، لكي تفقهوا عن الله أمره ونهيه وأدبه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ما المؤمنون حق الإيمان ، إلاّ الذين صدقوا الله ورسوله ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر يجمع جميعهم ، لم ينصرفوا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أولئك الذين يصدقون الله ورسوله حقاً ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ فإذا استأذنك هؤلاء لبعض حاجاتهم التي تعرض لهم ، فأْذن لمن شئت منهم لقضائها ، وادع الله لهم بالعفو ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لذنوب عباده التائبين ، رحيمٌ بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بعضاً﴾ احذروا دعاءه عليكم ، بأن تفعلوا ما يسخطه ، لأن دعاءه ليس كدعاء غيره ، فإن دعاء الرسول - ﷺ - موجب[1] ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً﴾ إن الله يعلم الذين ينصرفون عن رسول الله ﷺ تستراً

(١) أي موجب لعذاب الله، وهذا التفسير للآية هو ما ارتضاه الإمام ابن جرير ، وقال بعض المفسرين : المعنى لا تنادوه=

فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

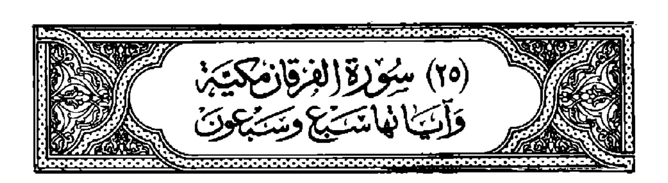
***

وخفية ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ فليتق الذين يخالفون أمر الله ، في الإنصراف عن رسوله ـ ﷺ . ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أن يفتنهم الله فيطبع على قلوبهم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أو يصيبهم في عاجل الدنيا ، عذاب من الله موجع على صنيعهم ﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ألا إن لله ملك جميع السموات والأرض وما فيهن ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيهِ﴾ قد علم الله ما أنتم عليه من طاعتكم إياه ، فيما أمركم ونهاكم ﴿وَيَومَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ ويوم القيامة يرجع المخالفون إلى بارئهم ، فيخبرهم حينئذ بما عملوا في الدنيا ثم يجازيهم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والله عالمٌ بكل شيء عملتموه ، وغير ذلك من الأمور .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النور »

***

= باسمه ولا تقولوا يا محمد ، ولكنْ قولوا يا نبي الله ، ويا رسول الله مع التعظيم والتوقير ، قال مجاهد : أمرهم أن يدعوا رسول الله في لين وتواضع ولا يقولوا يا محمد في تجهم وغلظة .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ
شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾

***

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ تقدَّس الذي نزل الفرقان الفاصل بين الحق والباطل، سورة بعد سورة، على عبده محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ ليكون لجميع الجن والإنس، مخوّفاً لهم من عذاب الله، إن لم يوحّدوه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الّذي له سلطان السموات والأرض، ينفذ فيها أمره، وتمضي فيها أحكامه ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ ولم يكن له ولد، فمن أضاف إليه الولد فقد افترى على ربه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ﴾ وما كان لله أحد يشركه في ملكه، فيصلح أن يعبد من دونه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والأشياء كلها خلقه وملكه ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ فسوَّاه وهيأه لما يصلح له، فلا خلل فيه ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله أصناماً، صنعوها بأيديهم يعبدونها، لا تَخلق شيئاً وهي تُخلق ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ ولا تملك هذه الآلهة لأنفسها نفعاً تجره إليها، ولا ضرّاً تدفعه عن نفسها ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً﴾ ولا تملك إماتة حي، ولا إحياء ميت، ولا بعثه من بعد مماته ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ وقال هؤلاء الكافرون: ما هذا القرآن إلا كذب وبهتان اختلقه محمد ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ وأعانه على هذا الإفك اليهود ﴿فَقَدْ جَاءُو ظُلْماً وَزُوراً﴾ فقد أتوا في قولهم هذا كذباً محضاً

وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ
فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا
مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا
مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ
سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾

***

﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا**﴾ وقالوا : هذا الذي جاء به محمد أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها في كتبهم اكتتبها من يهود ﴿**فَهِيَ تُمْلَى عليهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ فهي تُقرأ عليه غدوة وعشياً ﴿**قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمواتِ وَالأَرْضِ**﴾ قل يا محمد : بل هو الحق أنزله الرب ، الذي يعلم سر من في السموات والأرض ، لا يخفى عليه شيء ﴿**إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً**﴾ إنه يصفح عن خلقه ، ويرحمهم فيتفضل عليهم بعفوه .

﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي في الأَسْوَاقِ**﴾ وقال المشركون : ما لمحمد يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشي في أسواقنا كما نمشي ؟ ﴿**لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً**﴾ هلاَّ أُنزل إليه ملك من السماء ـ إن كان صادقاً ـ فيكون معه منذراً للناس ، مصدقاً له على ما يقول ﴿**أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ**﴾ أو يلقى إليه كنز من فضة أو ذهب فلا يحتاج معه إلى التصرف في طلب المعاش ﴿**أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا**﴾ أو يكون له بستان يتخير من ثماره لطعامه ﴿**وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً**﴾ وقال المشركون للمؤمنين : ما تتبعون إلا رجلاً به سحر ﴿**أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ**﴾ انظر يا محمد إلى هؤلاء المشركين ، الذين شبَّهوا لك الأشباه بقولهم : هو مسحور ﴿**فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**﴾ فضلوا وأخطأوا طريق الهدى والرشاد ، فلا يجدون سبيلاً إلى الحق ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ**﴾ تقدَّس الذي لو شاء ، لجعل لك خيراً مما قاله المشركون ﴿**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ بساتين تجري في أصول أشجارها الأنهار ﴿**وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً**﴾ ويجعل لك بيوتاً مبنية ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ**﴾ ما أنكر المشركون ما جئتهم به لأنك بشر ، ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد ، ولا يصدّقون بالثواب والعقاب ﴿**وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً**﴾ وأعددنا لمن أنكر قيام الساعة ناراً متَّقدة ﴿**إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً**﴾ إذا رأت النار المكذبين ، من مكان بعيد سمعوا

وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾
قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ
ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ
نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ

***

صوت غليانها ، وسمعوا لها زفيراً من شدة التلهب والتوقد ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِين﴾ وإذا أُلقي المكذبون بمكان ضيّق ، في نار جهنم ، وقد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبوراً﴾ نادوا هنالك بالهلاك والويل على أنفسهم ، لانصرافهم في الدنيا عن طاعة الله ﴿لَا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ لا تدعوا اليوم بالندم والهلاك مرة واحدة ، ولكن ادعوا ذلك كثيراً ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ﴾ قل للمكذبين : أهذه النار التي وصفت خيرٌ ، أم بستان الخلد الذي يدوم نعيمه ولا يبيد ؟ ﴿الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾ التي وعدها الله لمن اتقاه في الدنيا ، بطاعته فيما أمره ونهاه ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾ كانت الجنة للمتقين ثواب تقواهم ويصيرون إليها في الآخرة ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾ للمتقين في جنات الخلد ما يشاؤون ، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، ماكثين فيها أبداً ، لا يزولون عنها ، ولا يزول عنهم نعيمها ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وعداً مَسْئُولاً﴾ كان إعطاؤ هم الجنة وعداً وعدهم إياه في الدنيا ، وأعطاهم ما سألوا .

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ويوم القيامة نحشر العابدين للأوثان ، وما كانوا يعبدون من دون الله ، من الملائكة والإنس والجن ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُم عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ فيقول الله للمعبودين : أأنتم أزلتم عبادي عن طريق الهدى ، ودعوتموهم إلى الغي والضلالة حتى تاهوا ؟ أم عبادي هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق ؟ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال المعبودون : تنزيهاً لك يا ربنا ، وتبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون ، ما يصح لنا أن نتخذ من دونك من نواليه ، أنت ولينا من دونهم ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ ولكن متعتهم يا ربنا بالمال والصحة ، حتى نسوا ذكرك ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ وكانوا قوماً هلكى ، قد غلب عليهم الشقاء ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ فقد كذبكم من زعمتم أنهم أضلوكم ، في دعواكم أنهم آلهة ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصراً﴾ فما يستطيع هؤلاء الكفار صرف العذاب عن أنفسهم ، ولا نصرها من

نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ
مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

***

الله ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾ ومن يشرك بالله ، نذقه عذاباً شديداً في جهنم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين ، إلا وهم مثلك يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، فلماذا أنكر المشركون عليك ذلك ؟ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وامتحنا بعضكم ببعض ، لنختبر كلاً من الغني والفقير ، الفقير بصبره على ما حُرِم ، والغنيَّ بصبره على ما أُعطي[١] ، هل تصبرون ؟ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ بمن يجزع ، ومن يصبر على المحن .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وقال المشركون الذين لا يخافون عقابنا ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ هلاَّ أنزل الله علينا ملائكة ، فتخبرنا أن محمداً محقٌ ، وأن ما جاءنا به صدق ! ! ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بذلك حين نراه ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾ لقد تعظم هؤلاء في أنفسهم ، وتجاوزوا في الاستكبار حده بقولهم ذلك ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يوم يرى هؤلاء المجرمون الملائكة ، فلا بشرى لهم يومئذٍ بخير ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ وتقول الملائكة للمجرمين : حراماً محرماً[٢] أن تكون لكم البشرى اليوم من الله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ وعمدنا إلى أعمال المجرمين التي عملوها في الدنيا ، فجعلناها باطلاً كالهباء ، لأنهم عملوها للشيطان لا لله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً﴾ موضع أهل الجنة يوم القيامة ومنازلهم في الجنة ، خير من مستقر المشركين في الدنيا وخير من مستقرهم في الآخرة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ وهم أحسن

---

(١) قال الحسن : يقول الأعمى : لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان ، ويقول الفقير : لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان .

(٢) أي جعل الله عليكم الجنة حراماً محرماً ، والقائل هم الملائكة ، وقيل هم الكفار يقولون ذلك عند رؤيتهم للملائكة فزعاً منهم ، ولفظة ﴿ حِجْراً مَحْجوراً ﴾ كالاستعاذة تقال عند كل شدة ونازلة .

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾
وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾
لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

***

قراراً في الجنة ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ﴾ ويوم تتشقق السماء عن الغمام ﴿وَنُزِّلَ المَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ إلى الأرض ﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ المُلْك الحق يومئذ، خالص للرحمن دون كل ما سواه ﴿وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ وكان ذلك اليوم على أهل الكفر، يوماً صعباً شديداً ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ويوم يعض من ظلم نفسه على يديه، ندماً وأسفاً على ما فرّط في جنب الله، ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع رسول الله، طريقاً إلى النجاة من عذاب الله ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ يا هلاكي. ليتني لم أصادق هذا الإنسان(١) ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ فقد أضلني عن الإيمان بعد أن جاءني من عند الله، فصدني عنه ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ يُسلمه للبلاء، فلا ينقذه ولا ينجيه.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ وقال الرسول: يا رب إن قومي الذين بعثتني إليهم لا يريدون سماع هذا القرآن، ويبعدون عنه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ المُجْرِمِينَ﴾ كماجعلنا لك يا محمد أعداء من المشركين، كذلك جعلنا لكل الأنبياء قبلك عدواً من مشركي قومهم، فاصبر لما نالك منهم ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ وكفاك يا محمد أن يهديك ربك إلى الحق، ويبصرك الرشد، وأن يكون ناصراً لك على أعدائك، فاصبر لأمر الله، وامض لتبليغ رسالته ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عليْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وقال الكافرون: هلاَّ نزل القرآن على محمد ﷺ مجتمعاً جملة واحدة، كما أنزلت التوراة على موسى!! ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ كذلك لنصحح به عزيمة قلبك ويقين نفسك، نزلناه عليك آية بعد آية، وشيئاً بعد شيء ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ وأنزلناه شيئاً بعد

---

(١) نزلت في «عقبة بن أبي معيط» كان يكثر مجالسة النبي ﷺ، فاتخذ ضيافة ودعا إليها رسول الله ﷺ فأبى أن يأكل من طعامه حتى يشهد له بالرسالة ففعل، وكان «أبيّ بن خلف» صديقه فسخط عليه وقال: وجهي من وجهك حرام إن لم تكفر بمحمد وترد عليه دعوته ففعل الشقيُّ ذلك، وارتدَّ عن الإسلام فنزلت.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

***

شيء لتعلمه وتحفظه[1] ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحسَنَ تَفْسِيراً﴾ ولا يأتيك المشركون بمَثل يضربونه ، إلاّ جئناك من الحق بما نبطله ، وأحسن مماجاءوا به من المثل بياناً وتفصيلاً ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ﴾ هؤلاء المشركون الذين يحشرون يوم القيامة على وجوههم ، فيساقون إلى جهنم ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ هم شرٌّ مستقراً في الدنيا والآخرة من أهل الجنة ، وهم أضل منهم في الدنيا طريقاً .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ ولقد أعطينا موسى التوراة ، كالذي آتيناك من الفرقان ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيراً﴾ وجعلنا أخاه معيناً له وظهيراً ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إلَى القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فقلنا لهما : إذهبا إلى فرعون وقومه ، الذين كذبوا بأدلتنا وحججنا ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ فكذبوهما فدمرناهم حينئذٍ تدميراً ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ وقوم نوح لما ردوا على رسلنا ماجاءوهم به من الحق ، أغرقناهم بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ وجعلنا إهلاكنا لهم عظة وعبرة ، لمن جاء بعدهم من الناس يعتبرون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وأعددنا للكافرين في الآخرة ، عذاباً مؤلماً لهم ، سوى العذاب في الدنيا ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ ودمرنا أيضاً هذه الأقوام عاداً وثمود والذين رسُّوا نبيهم في حفرة ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ ودمرنا بين هذه الأمم أمماً كثيرة ﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ وكل هذه الأمم التي أهلكناها مثّلنا لهم الأمثال ، ونبهناهم بالعبر والمواعظ ﴿وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ وكل أولئك استأصلناهم فأهلكناهم جميعاً ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القَرْيَةِ الَّتِي أُمطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ ولقد أتى المشركون على قرية قوم لوط ، التي أمطرها الله بالحجارة فأهلكهم بها ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أولم يروا تلك القرية ، وما نزل بها من عذاب الله ، فيعتبروا ويتذكروا ؟ ﴿بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ بل لا يوقنون

(١) قال ابن جرير : وقيل معنى الترتيل : التبيين والتفسيرُ أي فسرناه تفسيراً ، وهو قول ابن زيد .

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا
وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ
مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

***

بالعقاب والثواب ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ وإذا رآك المشركون ، ما يتخذونك يا محمد إلاّ سخرية يسخرون منك ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ يقولون : هذا الذي اختاره الله من بين خلقه ، فبعثه إلينا رسولاً ؟ ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لقد كاد هذا الرجل يصدنا عن عبادة الآلهة ، لولا صبرنا عليها وثبوتنا على عبادتها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ سيظهر لهم حين يعاينون عذاب الله ، من السالك طريق غير الهدى أنت أم هم ؟

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أرأيت يا محمد من اتخذ شهوته التي يهواها إلٰهاً له ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ أأنت تكون حفيظاً على أفعاله مع عظيم جهله ؟ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أم تحسب يا محمد أن أكثر هؤلاء المشركين ، يسمعون فيعون ، أو يعقلون حجج الله فيفهمون ؟ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ﴾ ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ بل هم أضل طريقاً من الأنعام ، لعدم طاعتهم لربهم وشكرهم لمن أنعم عليهم ، أما البهائم فتهتدي لمراعيها ، وتنقاد لراعيها ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ ألم تر يا محمد[1] كيف مد ربك الظلَّ ، بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ ولو شاء لجعله دائماً لا يزول ، ممدوداً لا تنقصه الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ ثم دللناكم بنسخ الشمس له أنَّ ربكم يوجده ويفنيه إذا أراد ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ ثم قبضنا ذلك الظل قبضاً خفياً ، شيئاً بعد شيء بالظلام الذي يعقبه[2] ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ وهو الذي جعل لكم الليل ستراً تستترون به ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ وجعل لكم النوم

---

(١) لقد اعتبر الإمام الطبري الخطاب موجهاً لرسول الله ﷺ لأنه المتلقي له ، ولا شك أنه خطاب لأمته أيضاً ولكل سامع عاقل ، لأن الغرض منه التذكر والاعتبار بقدرة العزيز الجبار .

(٢) معنى الآية : ألم تر إلى عجيب صنع ربك ، كيف جعل الظلَّ ممتداً منبسطاً على الأجسام ، ولو شاء لجعله ساكناً لاصقاً بكل مُظل ، ثم جعلنا الشمس دليلاً على وجود الظل ، فلولا وقوع ضوء الشمس على الأجرام لما عُرف أن للظل وجوداً ، ثم أزلنا الظل يسيراً يسيراً لا دفعة واحدة ، فإنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل ، فالآية من أدلة التوحيد .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا
خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى
كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ
وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ
وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

***

راحة ، تستريح به أبدانكم ، وتهدأ به جوارحكم ﴿وجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً﴾ وجعل النهار يقظة وحياة ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ والله الذي أرسل الرياح الملقحة حياةً ، أمام الغيث الذي ينزله على عباده[1] . ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ وأنزلنا من السحاب الذي أنشأناه ، ماء طاهراً مطهراً ﴿لِنُحيِيَ بِهِ بَلدَةً مَيْتاً﴾ لنحيي بالمطر أرضاً قحطة لا تنبت ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ ونسقيه لمخلوقاتنا ، أنعاماً من البهائم ، وبشراً كثيرين هم في حاجة إليه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ ولقد قسمنا هذا الماء بين العباد ، ليتذكروا نعمي عليهم ، ويشكروا إحساني إليهم ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ فأبى أكثرهم إلا جحوداً لنعمي عليهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ ولو شئنا لأرسلنا في كل مدينة من ينذرهم بأسنا ، ولكنّا كلفناك إنذارهم لتستوجب ما أعد الله لك من الكرامة ﴿فَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ﴾ فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ وجاهدهم بهذا القرآن جهاداً واسعاً ، حتى يذعنوا للعمل بما فيه طوعاً أو كرهاً .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ﴾ والله الذي خلط البحرين ، وأفاض أحدهما في الآخر ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هذا عذبٌ شديدُ العذوبة ، وهذا مرٌّ لا يشرب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ وجعل بينهما حاجزاً يمنع من إفساد الآخر ، وجعل كل واحد منهما حراماً محرماً على صاحبه أن يغيره ويفسده ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ والله الذي خلق من النطفة إنساناً ، فقرب بينهم بالنسب والمصاهرة ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ وربك ذو قدرة على خلق ما يشاء ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ ويعبد المشركون من دون الله آلهة ، لا تجلب إليهم نفعاً إذا عبدوها ، ولا تضرهم إن تركوها ﴿وَكَانَ الكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ وكان الكافر معيناً للشيطان على

---

(١) هذا التفسير عند ابن جرير على القراءة بالنون ، بينما هي « بشراً » بالباء ، ولم يشر ابن جرير إلى وجود قراءتين في هذا الحرف من القرآن ، ويكون تفسيرها على قراءة الباء « مبشرة بمجيء السحاب بعدها » .

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾
وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ
قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا
مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾

***

ربه ، مظاهراً له على معصيته ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالثواب الجزيل من آمن وصدق ، ونذيراً بالعذاب لمن كذب وتولى ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قل لهؤلاء : ما أسألكم يا قوم على ما جئتكم به أجراً ، فتقولون إنما يطلب محمد أموالنا فلا نتبعه ﴿إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ لكن من شاء منكم اتخذ إلى ربه طريقاً ، بإنفاقه في سبيل الخير ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ وتوكل على ربك الذي له الحياة الدائمة ، فثق به ، وفوض إليه ، واستسلم له ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ واعبده شاكراً له على ما أنعم ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ وحسبك يا محمد بالحي خبيراً بذنوب خلقه ، لا يخفى عليه شيء منها ، وهو مجازيهم عليها ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وتوكل على الحي الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من الخلق من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ ثم علا على العرش الرحمن ، المتصف بالرحمة العامة لخلقه ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ فاسأل يا محمد الرحمن ، فإنه خبير بخلقه ، لا يخفى عليه ما خلق .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ وإذا قيل للمشركين : اجعلوا سجودكم لله خالصاً ، دون الآلهة والأوثان ﴿قَالُوا أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ قالوا : أنسجد لما تأمرنا يا محمد بالسجود له ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ وزادهم ما تدعوهم إليه فراراً ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ تقدس الرب الذي جعل في السماء قصوراً[1] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ وجعل في السماء شمساً ، وقمراً مضيئاً ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يخلف أحدهما صاحبه ، إذا ذهب هذا جاء الآخر ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ لمن أراد أن يتذكر أمر الله ، فينيب إلى الحق ، أو أراد شكر نعمة الله عليه .

---

(١) رجح الإمام ابن جرير ذلك لأنه يتمشى مع كلام العرب، بينما رجح غيره أنها الكواكب العظام ، قال ابن كثير : اللهم إلا أن تكون الكواكب العظام قصوراً للحرس فيجتمع القولان . .

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ
سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ
ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ
حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

* * *

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ وعباد الرحمن الذين يمشون في الأرض بالحلم والسكينة والوقار **﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾** وإذا خاطبهم الجاهلون بما يكرهون ، أجابوهم بالمعروف والسداد من الخطاب **﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾** والذين يبيتون لربهم يصلون ، يراوحون بين سجود وقيام **﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾** والذين يدعون ربهم أن يصرف عنهم عقابه ، حذراً منه ووجلاً **﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾** إن عذاب جهنم كان عقاباً لازماً ، لا يفارق من عُذِّب به **﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾** ساءت جهنم منزلاً وإقامة **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾** والذين إذا أنفقوا أموالهم لم يجاوزوا الحد الذي أباحه الله لعباده ، ولم يقصروا عما أمر الله به **﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾** وكان إنفاقهم وسطاً معتدلاً ، لا مجاوزة فيه ولا تقصير **﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾** والذين لا يعبدون مع الله إلَهاً آخر ، ولكنهم يفردونه بالعبادة والطاعة **﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾** ولا يقتلون نفساً حرَّم الله قتلها إلا بالحق ، إما بكفرٍ أو زناً أو قتل نفس **﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾** فيأتون ما حرم الله من الفروج **﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾** ومن يأت هذه الأفعال ، يلق عقوبة ونكالاً **﴿يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾** يعاقب على الشرك والمعاصي ويبقى في العذاب إلى ما لا نهاية له ، مع الهوان والذلة **﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾** إلا من راجع طاعة الله ، وصدَّق بما جاء به محمد رسول الله **﴿وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾** وعمل بما أمره الله ، وانتهى عما نهاه عنه **﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾** فهؤلاء يبدّل الله أعمالهم السيئة[1] ، حسنات في الإسلام ، فيبدلهم بالشرك إيماناً ، وبالزنى عفةً وإحصاناً **﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾** يعفو عن الذنوب ، ويرحم العباد بعد توبتهم .

---

(١) هذا التبديل إنما يكون في الدنيا ، يبدّل الله أعمالهم السيئة إلى أعمال حسنة ، وهذا ما رجحه الطبري وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد ، وقيل : التبديل في الآخرة يمحو الله ذنوبهم فيجعلها حسنات .

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا
قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

* * *

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ ومن تاب من المشركين فآمن بالله ، وعمل بما أمره الله ، فإن الله يفعل به مثل ذلك ، يقبل توبته ويمحو زلته ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل[1] ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ والذين إذا مروا بالباطل فسمعوه ، مرُّوا معرضين عنه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ والذين إذا ذكَّرهم مذكّر بحجج الله ، لم يكونوا صُمّاً لا يسمعون وعُمياً لا يبصرون ، ولكنهم أيقاظ القلوب يفهمون ويعون ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ والذين يرغبون إلى الله في دعائهم ، فيقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقرُّ به أعيننا ، يعملون بطاعتك ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ واجعلنا للذين يتقون معاصيك ، ويخافون عقابك ، إماماً يأتمون بنا في الخيرات ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ هؤلاء يثابون على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا ، منزلة من منازل الجنة رفيعة ، بصبرهم على هذه الأفعال ، ومقاساة شدتها ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً﴾ وتتلقاهم ملائكة الرحمن فيها بالتحية والسلام ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثون في الغرفة إلى غير أمد ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ حسنت تلك الغرفة قراراً لهم ، ومكان إقامة ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ قل يا محمد لهؤلاء : أي شيء يصنع بكم ربي ، ويَعُدُّكم لولا عبادة من يعبده منكم ، وطاعة من يطيعه منكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ فقد كذبتم أيها القوم رسولكم ، وخالفتم أمر ربكم ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً﴾ فسوف يكون هذا التكذيب عذاباً لكم ملازماً ، قتلاً بالسيوف ، وهلاكاً مضنياً

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»

* * *

(١) قال أبو جعفر ـ رحمه الله تعالى ـ « وأصل الزور : تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته ، حتى يخيل إلى من يسمعه أنه خلاف ما هو به ، والشرك قد يدخل في ذلك لأنه محسن لأهله وهو باطل ، ويدخل فيه « الغناء » لأنه أيضاً مما يحسنه ترجيع الصوت حتى يستحلي سامعه سماعه « والكذب » ـ أيضاً ـ قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظن صاحبه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور ». اهـ



بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ
مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

***

﴿طسٓمٓ﴾[1] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هذه الآيات التي في السورة ، آياتُ الكتاب المنزل الى محمد ، الواضح لمن تدبره أنه من عند الله ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لعلك يا محمد مهلكٌ نفسك ، إن لم يؤمن قومك بما جئتهم به[2] ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ لو نشاء لأنزلنا آية ، تضطرهم إلى الإيمان قهراً ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ فظلَّت أعناقُ المشركين ، ذليلة لتلك الآية ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾ وما يجيء هؤلاء المشركين من تذكيرٍ من عند ربك ، دالٍ على صدقك ، مما يُحدثه الله إليك ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ إلا أعرضوا عن استماعه ، وتركوا إعمال الفكر فيه ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فقد كذب هؤلاء المشركون بالذكر الذي جاءهم من عند الله ، فسيأتيهم أخبار الأمر الذي كانوا يسخرون ، ويحل بهم عقاب الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أولم ير المشركون إلى الأرض ، كم أنبتنا فيها من كل صنف حسن ، بعد أن كانت ميتة لا نبات فيها ؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إن في إحياء الأرض ، لدلالة

---

(١) انظر الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة

(٢) هذه تسلية للرسول ﷺ في عدم إيمان قومه .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾

***

للمكذبين بالبعث على أن الذي أنبت الأرض لا يعجزه إحياء الأموات ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أكثرهم لا يؤمنون بك يا محمد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإن ربك لهو العزيز في انتقامه ممن أراد عقوبته، ذو الرحمة بمن تاب من خلقه.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ واذكر يا محمد حين نادى ربك موسى، أن ائت القوم الكافرين ﴿قَومَ فِرْعَونَ أَلاَ يَتَّقُونَ﴾ فقل لهم: ألا يتقون عقاب الله على كفرهم به؟ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ قال موسى يا رب: إني أخاف أن يكذبوني بقولي لهم: إنك أرسلتني إليهم ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ من تكذيبهم إياي ﴿وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ بالعبارة للعلة التي بلساني ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ﴾ فاجعل أخي رسولاً معي ليعينني ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ ولقوم فرعون عليَّ دعوى قتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ فأخاف أن يقتلون قصاصاً بالنفس التي قتلتها ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ قال الرب سبحانه: لن يقتلك فرعون، فاذهب أنت وأخوك بحججنا التي أعطيناك ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ ما يجيبكم به قوم فرعون ﴿فَأْتِيَا فِرْعَونَ﴾ فأت أنت يا موسى وأخوك هرون فرعون ﴿فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فقولا إنا أُرسلنا إليك من رب العالمين، بأن ترسل معنا بني إسرائيل ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ في الكلام محذوف أي فأتيا فرعونَ فأبلغاه رسالة الله، فقال فرعون لموسى: ألم نربّك صغيراً في بيتنا وعلى فراشنا، ومكثت عندنا مدة من السنين!! ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ وقتلت النفس من القبط، وأنت من الكافرين نعمتنا عليك، وإحساننا إليك، فهذا الذي كافأتنا به أن قتلت منا نفساً، وكفرت نعمتنا[1]؟! ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ قال موسى: قتلت تلك النفس، وأنا من الجاهلين، قبل أن يأتيني

(١) ليس المراد من الكفر جحود وحدانية الله، فإن فرعون ما كان مؤمناً بالله، حتى يعيِّر موسى بالكفر، وإنما مراده كفر النعمة والإحسان كما قال الطبري.

فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ
بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾
قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ
لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي
لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾

***

الوحي(١) ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ ففررت منكم لمَّا خفت أن تقتلوني بالقتيل ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ فوهب لي ربي النبوة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وألحقني في عداد رسله إلى خلقه .

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهل هذه نعمة تمنُّ بها عليَّ ، أن اتخذت بني إسرائيل عبيداً لك(٢) ، وتركتني فلم تستعبدني ؟! ﴿قَالَ فِرْعَونُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ قال فرعون : وأيُّ شيء ربُّ العالمين ؟! ﴿قَالَ رَبُّ السَمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قال موسى : هو مالك السموات والأرض ، ومالك ما بينهما من شيء ﴿إن كنتم مُوقِنِينَ﴾ إن كنتم موقنين بما تعاينونه ، فأيقنوا بوجود الله ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾ قال فرعون لقومه : ألا تستمعون لما يقول موسى ؟ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ قال موسى لهم : الذي دعوتكم إلى عبادته، هو ربكم الذي خلقكم ، وخلق آباءكم الأولين ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيكُم لَمَجْنُونٌ﴾ قال فرعون : إن رسولكم هذا ، الذي يزعم أنه أرسل إليكم مجنونٌ ، قد غُلب على عقله ، لأنه يقول قولاً لا نعرفه ولا نفهمه ﴿قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قال موسى : الذي أدعوكم إلى عبادته هو ربُّ المشرق والمغرب ، أي ملك مشرق الشمس ومغربها ، وما بينهما من شيء ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كان لكم عقول تعقلون بها ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ﴾ قال فرعون : لئن أقررت بمعبودٍ سواي ، لأسجننك مع من في السجن ﴿قَالَ أَوَ لَو جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ قال : أتسجنني ولوجئتك بشيء يظهر لك صدق ما أقول ؟ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال فرعون : فأت بالشيء المبين ، إن كنت صادقاً فيما تخبر وتقول .

---

(١) أي قبل أن ينعم الله عليَّ بالنبوة والرسالة .

(٢) غرض موسى التهكم والإستهزاء بفرعون ، يقول له : تجعل بني إسرائيل عبيداً لك ، ثم تمتنُّ عليَّ بذلك ؟ فهذه نقمة وليست نعمة .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا
لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم
مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا
نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ
وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ

***

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ فألقى موسى عصاه ، فتحولت ثعباناً واضحاً لمن يراه ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ وأخرج يده من جيبه ، فإذا هي بيضاء تلمع لمن يراها ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قال فرعون لمن حوله من أشراف قومه : إن موسى لذو علم بالسحر ، وبصر به ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ يريد أن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر بالسحر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فما تشيرون به من الرأي فيه ؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ قالوا : أنْظِر موسى وأخاه ، وابعث في بلادك ، يجمعون لك كل عليم بالسحر . ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ فجمع الملأ السحرة ، للوقت الذي واعد فيه فرعون موسى ، للاجتماع من يوم الزينة ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ ودُعي الناس للاجتماع ، لينظروا لمن تكون الغلبة ؟ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ كي نتبع السحرة إن غلبوا موسى .

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فلما جاء السحرة للموعد قالوا لفرعون : ستعطينا أجر سحرنا إن غلبنا موسى ؟ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ قال فرعون : نعم لكم الأجر ، وإنكم لمن المقربين منا ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ فقال السحرة لموسى : إما أن تلقي أو نكون نحن الملقين قبلك ، فقال لهم موسى : ألقوا ما تريدون إلقاءه ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فألقى السحرة حبالهم وعصيهم من أيديهم ، وأقسموا بقوة فرعون ، وشدة سلطانه ، إنا لنحن الغالبون لموسى ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فألقى موسى عصاه ، فإذا عصاه تزدرد[1] ما يأتون به من الفرية ، والسحر الخادع ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ

(١) أي تبتلع .

ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ
إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾
قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾
* وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾

***

سَاجِدِينَ﴾ فخرَّ السحرة لوجوههم سجَّداً للهِ ، مذعنين له بالطاعة **﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهٰرُونَ﴾** قائلين : آمنا برب العالمين ، الذي دعانا موسى إلى عبادته .

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ قال فرعون للسحرة : آمنتم أن ما جاء به موسى حقٌّ ، قبل أن آذن لكم في الإيمان به ؟ **﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾** إن موسى لرئيسكم في السحر **﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** عقابي لكم وبال ما فعلتم **﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ﴾** مخالفاً في قطع ذلك منكم بأن أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى **﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** غير مستبقٍ منكم أحداً **﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾** قالوا : لا ضرر علينا من فعلك ، إنا راجعون إلى ربنا ، وهو مجازينا على صبرنا **﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ المُؤْمِنِينَ﴾** إنا نرجو أن يصفح ربنا عن خطايانا فلا يعاقبنا بها ، لأن كنا أول من صدَّق بموسى ، وبما جاء به من توحيد الله **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾** وأوحينا إلى موسى : أن سِرْ ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ، إن فرعون وجنوده متَّبعوك وقومك ، ليحولوا بين خروجكم من أرضهم .

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ فأرسل فرعون في البلاد من يجمع له جنده ، ويقول لهم : إن بني إسرائيل لطائفة قليلة[١] **﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾** وإن هؤلاء الشرذمة لغائظون لنا بأخذهم الحليّ ورحيلهم **﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾** وإنا ذو قوة وسلاح ، قد جمعنا أمرنا[٢] **﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾** فأخرجنا فرعون وقومه من بساتين وعيون ماء ،

---

(١) قال مجاهد : كان بنو إسرائيل يومئذٍ ستمائة ألف ، ولا يُحصى عدد أصحاب فرعون .

(٢) قرىء « حَاذِرون » أي كاملو السلاح مجمعون لأمرنا ، وقرىء « حَذِرون » أي متيقظون منتبهون .

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾
قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ
كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

***

وكنوز ذهب وفضة ، ومقامٍ كريم قيل هي المنابر[١] ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهكذا أخرجناهم مما وصفنا ، وأورثنا تلك الجنات بهلاكهم بني إسرائيل ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ فلحقوهم حين أشرقت الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَىٰ الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فلما تناظر جمع موسى وجمع فرعون ، ورأوا بعضهم ، قال بنو إسرائيل : الآن يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قال موسى ليس الأمر كما ذكرتم ، فلن تُدْركوا ، إن معي ربي سيهديني لطريق النجاة من فرعون ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّودِ العَظِيمِ﴾ فكان كل طائفة[٢] من البحر ـ لما ضربه موسى ـ كالجبل العظيم ، انفلق اثنتي عشرة فلقة ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ وقربنا هنالك آل فرعون من البحر ، وأغرقناهم فيه

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ وأنجينا موسى ومن معه من بني إسرائيل من الغرق ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ ثم أغرقنا آل فرعون وقومه من القبط ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن فيما فعلت بفرعون وقومه ، لدلالة بينة لقريش ، على أن ذلك سنتي فيمن كذب رسلي ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما كان أكثر قومك يا محمد بمصدقين ، بما جاءك من الحق المبين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيزُ في انتقامه ممن كفر به ، الرحيم برسله .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ واقصص على قومك خبر إبراهيم[٣] ، حين قال لأبيه وقومه ، أيَّ شيءٍ تعبدون[٤] ؟! ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ قالوا : نعبد أوثاناً

---

(١) هكذا فسر الطبري المقام الكريم بقوله : قيل هي المنابر ، وهو قول الضحاك ، والراجح أنها المنازل الحسنة والمجالس البهية وهو قول جمهور المفسرين .

(٢) الفِرقُ في اللغة : الجزءُ والطائفة .

(٣) هذه هي القصة الثانية من قصص الأنبياء في هذه السورة ، وهي قصة الخليل إبراهيم عليه السلام

(٤) كان يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم للإلزام والتبكيت .

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾
قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى
فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ
صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى
يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾

***

فنظل لها خدماً ، مقيمين على عبادتها وخدمتها ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ قال إبراهيم لهم : هل تسمع الآلهة دعاءكم حين تدعونهم ؟ ﴿أَو يَنْفَعُونَكُمْ أَو يَضُرُّونَ﴾ أو تنفعكم هذه الأصنام ، فيرزقونكم على عبادتكم إياها ، أو يعاقبونكم على ترككم عبادتها ؟ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قالوا : ما ينفعوننا ، بل وجدنا آباءنا يعبدونها فنحن نقتدي بهم ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وآباؤُكُم الأَقدَمُونَ . فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لي إلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ قال : أرأيتم أيها القوم كل معبود لكم ولآبائكم ، فإني منه بريءٌ لا أعبده ، غير رب العالمين[1] ﴿الَّذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الذي خلقني وهو يهديني للصواب ، ويسددني للرشاد ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ والذي يغذوني بالطعام والشراب ، ويرزقني الأرزاق المختلفة ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وإذا سقم جسمي واعتلَّ ، فهو يبرئه ويعافيه[2] ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ والذي يميتني إذا شاء ، ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ والذي أرجو أن يستر لي خطئي يوم الحساب .

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ هب لي نبوة واجعلني رسولاً إلى خلقك ، لأكون ممن اصطفيته لنفسك ، وائتمنته على وحيك ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ واجعل لي ذِكْراً جميلاً ، وثناء حسناً باقياً ، فيمن يجيء بعدي[3] ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ وأورثني يا رب منازل الجنة ، واسكني فيها ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ واصفح لأبي ولا تعاقبه ، إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى[4] ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا تذلني بعقابك ، يوم تبعث عبادك لموقف القيامة .

---

(١) ﴿إلا ربَّ العالمين﴾ هذا من الاستثناء المنقطع أي لكنْ رب العالمين حبيبٌ لي فأنا أعبده .

(٢) لم يقل « وإذا أمرضني فهو يشفين » رعايةً للأدب في مقام المدح والثناء والتذكير بالنعم .

(٣) أعطاه الله ذلك فإن جميع أهل الأديان يحبونه ويعظمونه ويدَّعون متابعته ، ولم يصدق في ذلك إلا المسلمون .

(٤) إنما استغفر إبراهيم لأبيه طمعاً في إيمانه ، لأنه كان قد وعده بذلك كما قال تعالى ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ =

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ
ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟
فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

***

﴿يَومَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ يوم لا ينفع من كفر بك وعصاك ، مالٌ ولا أبناء ، فيدفعون عنه عقاب الله ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ لا ينفع إلا القلب السليم من الشك في توحيد الله[1] ﴿وَأُزْلِفَت الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقُرِّبت الجنة للذين اتقوا عقاب الله ، بطاعتهم إياه في الدنيا ﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ وأُظهرت النار للذين غوَوا ، فضلوا عن سواء السبيل ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقيل للغاوين : أين الأنداد الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَو يَنْتَصِرُونَ﴾ هل ينقذونكم اليوم من عذاب الله ؟ أو ينتصرون لأنفسهم فينجونها مما يراد بها ؟ ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوُونَ﴾ فرُمي ببعضهم على بعض في الجحيم ، منكبين على وجوههم ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ وجنودُ إبليس الذين تبعوه من ذريته[2]

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قال أهل جهنم وهم يختصمون فيها : والله لقد كنا في ذهاب عن الحق ، ظاهر لمن تأمله أنه باطل ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ حين نعدِلكم بالله ، فنعبدكم من دونه ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا المُجْرِمُونَ﴾ وما أضلنا عن الحق إلا إبليس ، وابن آدم الذي سنَّ القتل[3] ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ فليس لنا شافع يشفع لنا عند الله ، فيعفو عنا ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ولا نسيب من الأقارب﴿فَلَو أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ فلو أن لنا رجعة إلى الدنيا ، فنؤمن بالله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن فيما احتج به إبراهيم على قومه ، لدلالةً واضحة لمن اعتبر وما كان

= وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه ﴾ وهذا هو الصحيح في استغفار الخليل لأبيه المشرك .

(١) قال مجاهد : سليم من الشك في الحق ، وقال قتادة : سليم من الشرك

(٢) المراد أتباع إبليس قاطبة من الإنس والجن .

(٣) قصره الطبري على هذا ، ولا شك أن الآية الكريمة تشمل كل مجرم ، يمنع من فعل الخير ، ويشجّع الشر وينشره ، ويُيَسِّر سبله في الأرض .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ * قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾
قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا

***

أكثر الناس في سابق علم الله مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ شديد العقاب بمن كفر به، الرحيم بمن تاب من عباده. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ﴾ كذَّب قوم نوح رسل الله[(١)]

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ لمَّا قال لهم أخوهم نوح: ألا تتقون ربكم، فتحذروا عقابه على كفركم وتكذيبكم لرسله؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أمينٌ على وحيه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله، وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وما أطلب على نصيحتي لكم ثواباً ولا جزاء، ما أجري إلا على رب العالمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله على تكذيبكم لرسله، وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ قالوا أنقرُّ بتصديقك فيما تدعونا إليه، وإنما اتبعك الأرذلون[(٢)] دون ذوي الشرف؟ ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: إني لم أُكلَّف علم باطنهم، وإنما كُلِّفت الظاهر، فمن أظهر لنا حسناً قبلناه ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ما حساب باطن أمرهم إلا على ربي، لو تشعرون فإنه يعلم سر أمرهم وعلانيته ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ المُؤْمِنِينَ﴾ وما أنا بطارد من آمن بالله، واتبعني بما جئت به من عند الله ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ما أنا إلا نذير، أبيِّن لكم إنذاري، ولا أكتمكم نصيحتي ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ﴾ قال قوم نوح: لئن لم تكفَّ يا نوح عن عيب آلهتنا لنشتمنَّك[(٣)] ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ كذبوني فيما أتيتهم به من الحق، وردُّوا علي نصيحتي ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ

---

(١) هذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء وهي قصة نوح عليه السلام، وإنما قال «المرسلين» بالجمع لأن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل.

(٢) مرادهم اتبعك الفقراء والضعفاء والسِّفلة.

(٣) الإمام ابن جرير يفسر الرجم دائماً بالشتم، لا بالرجم بالحجارة، والصحيحُ قول المفسرين أن المراد به الرجم بالحجارة، فهو تهديدٌ له بالقتل.

وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟
ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾

***

مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فاحكم بيني وبين قومي حكماً من عندك ، تهلك به المبطل ، وتنتقم به ممن كفر بك ، ونجني من ذلك العذاب ، ومن معي من أهل الإيمان ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ فأنجينا نوحاً ومن معه في السفينة المملوءة ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ البَاقِينَ﴾ من قومه الذين كذبوه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن فيما فعلنا بنوح ومن معه ، لآيةً على سنتنا في تنجية رسلنا وأتباعهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولم يكن أكثر قومك بمصدقين ، فقد سبق في قضاء الله أنهم لن يؤمنوا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز في انتقامه ممن كفر به ، الرحيم بالتائب منهم بعد توبته .

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ المُرْسَلِينَ﴾ كذبت عادٌ رسل الله [1] إليهم ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ حين قال لهم هود : ألا تتقون عقاب الله على كفركم به ؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إني لكم رسول من ربي ، أمينٌ على وحيه ورسالته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا الله بطاعته ، وأطيعوني فيما آمركم به ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وما أطلب منكم على أمري لكم بتقوى الله ، جزاءً ولا ثواباً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ ما جزائي على نصيحتي لكم إلا على الله ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ أتبنون بكل مكان مشرفٍ بنياناً تلعبون[2] ؟! ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وتتخذون قصوراً وحصوناً مشيَّدة ، كأنكم تبقون في الأرض وتخلدون ؟ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ وإذا سطوتم على أحد فعلتم فعل الجبارين ، قتلاً بالسيوف ، وضرباً بالسياط ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله بطاعتكم إياه ، وانتهوا عن اللهو ، واللعب ، وظلم الناس ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ واحذروا سخط الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وأعطاكم وأعانكم به من

---

(١) هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة ، وهي قصة نبي الله « هود » عليه السلام ، وقد أسلفنا أن تكذيب رسولٍ هو تكذيب لجميع الرسل .

(٢) قال ابن كثير : كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنياناً محكماً هائلاً ، لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة .

إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا
خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي
لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾

***

المواشي ، والبنين ، والبساتين ، والأنهار ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخاف أن تذوقوا عذاب يوم هائل .

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ﴾ قالوا : يستوي عندنا وعظك إيانا ، وتركك الوعظ[١] ، فلن نصدّقك على ما جئتنا به ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ما هذا الذي نفعله ، إلَّا عادة الأولين قبلنا ، وما الله معذبنا عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فكذبت عاد رسولهم هوداً ، فأهلكناهم بتكذيبهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن في إهلاكنا لهم ، لعبرةً وموعظة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما كان أكثر من أهلكنا ، بالذين يؤمنون في سابق علمنا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بالمؤمنين .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ المُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كذبت ثمود رسل الله[٢] ، حين دعاهم صالح إلى الله ، فقال لهم : ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم إياه ؟! ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إني لكم رسول من الله ، أحذركم عقوبته ، وأنا أمين على رسالته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا ربكم ، واحذروا عقابه ، وأطيعوا أمري ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وما أطلب منكم جزاء ولا ثواباً على نصحي ﴿إِنْ أَجْرِيَ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ ما جزائي وثوابي إلا على رب جميع الخلق ﴿أَتتـركُونَ فِي ما هَهُنَا آمِنِينَ﴾ أيترككم ربكم في هذه الدنيا ، لا تخافون شيئاً ؟ ﴿فِي جنات وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ متنعمين في بساتين ، وعيون ماء ، وزروع مختلفة ، ونخل طلعها يتكسر من لينه ورطوبته[٣] ؟

---

(١) جعلوا نصحه لهم وعظاً على سبيل الاستخفاف ، إذ لم يكترثوا بنصحه وإرشاده .

(٢) هذه هي القصة الخامسة في هذه السورة ، وهي قصة نبي الله « صالح » عليه السلام مع ثمود .

(٣) كانت أرض ثمود كثيرة الحدائق والبساتين ، والماء والنخيل ، فذكَّرهم صالح بنعم الله الجليلة عليهم ليشكروا ربهم ، ومعنى « الهضيم » الرطب اللّين ، وقيل : هو اليانع النضيج .

وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾

***

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ وتتخذون بيوتكم من الجبال ، حاذقين بالنحت[1] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله ، وأطيعوني في نصيحتي ترشدوا ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمرَ المُسْرِفِينَ﴾ ولا تطيعوا أمر المسرفين في معصية الله

﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وهم الرهط التسعة ، الذين يسعون في أرض الله بمعاصيه ، ولا يصلحون أنفسهم بالعمل بطاعة الله ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ﴾ قالوا : إنما أنت من المخلوقين[2] الذين يُعلَّلون بالطعام والشراب مثلنا ، ولست رباً ولا ملكاً فنطيعك ، ونصدقك فيما تقول ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ما أنت يا صالح إلا من البشر مثلنا تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأت بدلالة وحجة على أنك محقٌ وأنك رسولٌ إلينا ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَومٍ مَعْلُومٍ﴾ قال صالح هذه ناقةٌ أخرجها الله لكم من صخرة ، لها حظٌ من الماء ولكم مثله ، لا تشرب في يومكم ، ولا تشربون في يومها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُم عَذَابُ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ ولا تمسوها بما يؤذيها ، فيحل بكم من الله عذاب يوم عظيم ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فخالفوا الأمر وعقروا الناقة ، فأصبحوا نادمين على قتلها ﴿فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ﴾ فأخذهم عذاب الله فأهلكهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إن في إهلاكهم لعبرة لمن اعتبر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ ولن يؤمن أكثر قومك ، في سابق علم الله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بمن آمن به من خلقه

﴿كَذَّبَتْ قَومُ لُوطٍ المُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كذبت قوم لوط[3] رسولهم ،

---

(١) هذا على قراءة « فارهين » وقرىء « فرهين » أي أشرين بطرين ومعنى الآية : تبنون بيوتاً في الجبال أشرين بطرين من غير حاجة لسكانها ؟

(٢) هكذا فسَّر الطبري « المسحَّرين » بالمخلوقين الذين يأكلون ويشربون ، من السَّحر بمعنى الرئة ، والراجح أن المعنى من المسحورين الذين سُحروا حتى غلب على عقولهم ، والمسحَّر مبالغة من المسحور .

(٣) هذه هي القصة السادسة في هذه السورة ، وهي قصة نبي الله « لوط » عليه السلام .

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ
لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ
الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

***

حين قال لهم لوط : ألا تتقون الله أيها القوم ؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ إني لكم رسول من ربكم ، أمينٌ على وحيه ، فاتقوا الله أن يحل بكم عقابه ، وأطيعوني فيما دعوتكم إليه أهدكم سبيل الرشاد ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وما أطلب منكم على نصيحتي جزاءً ولا ثواباً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما جزائي على دعوتكم ونصحي لكم ، إلّا على الله رب العالمين ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أتنكحون الذكور من بني آدم في أدبارهم ؟ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ وتَدَعُون الذي خلق لكم ربكم ، وأحلَّه لكم من فروج أزواجكم[1] ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ بل أنتم قومٌ معتدون ، تتجاوزون المباح إلى المحرَّم !!

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ قالوا لئن لم تكفَّ يا لوط عن نهينا لنخرجنك من بلدنا ﴿قَالَ : إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ قال : إني لعملكم هذا من المبغضين المنكرين ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ رب أنقذني وأهلي من عقوبتك لهم على ما يعملون ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾ فنجيناه وأهله من عقوبتنا ، إلا عجوزاً هرمة أهلكت من بين أهل لوط ، لأنها كانت تدل قومها على الأضياف ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ ثم أهلكنا الآخرين بالتدمير ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ وأرسلنا عليهم حجارة من سجيل كالمطر ، فبئس ذلك مطر القوم الذي أنذرهم نبيهم فكذبوه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ إن في إهلاكنا قوم لوط ، لعبرة لقومك يا محمد يتعظون بها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في سابق علم الله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيزُ في انتقامه ، الرحيمُ بمن آمن به .

---

(١) قال مجاهد : تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال !! أقول : وفي الآية أبلغ الزجر والتوبيخ لهم ، كأنه يقول : خرجتم أيها القوم بفعلكم هذا عن حدود الإنسانية إلى مرتبة البهيمية ، فالذكر من الحيوان يستنكف عن إتيان الذكر ، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان ، فأنتم أحطُّ مرتبة من الحيوان .

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ
رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا

***

﴿كَذَّبَ أصحَاب لْئَيْكَةِ المُرْسَلِينَ إذ قَال لَهُم شُعَيْبٌ ألَا تَتَّقُونَ﴾ كذَّب أهل مدين[1] المرسلين ، حين قال لهم شعيب : ألا تتقون عقاب الله ، على معصيتكم ربكم ؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ إني رسول لكم من الله ، أمين على وحيه ، فاتقوا الله وأطيعوا أمري ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وما أسألكم على نصحي لكم جزاء ولاثواباً،فما جزائي إلا على الله رب العالمين ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ﴾ أوفوا الناس حقوقهم في الكيل ، ولا تكونوا ممن ينقص حقوق الناس ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ﴾ وزنوا بالميزان المستقيم الذي لا بخس فيه ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تكثروا في الأرض الفساد ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ واتقوا عقاب ربكم ، الذي خلقكم وخلق الخلق الأولين ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ﴾ قالوا : إنما أنت يا شعيب بشرٌ ، تُعلَّل بالطعام والشراب مثلنا ، ولست مَلَكاً[2] ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ﴾ وما أنت إلَّا بشر مثلنا تأكل وتشرب ، وما نحسبك فيما تخبرنا به إلا ممن يكذب في قوله ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فإن كنت صادقاً في أنك رسول الله ، فأسقط علينا قِطَعاً من السماء ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال شعيب : ربي بأعمالكم محيطٌ ، لا يخفى عليه شيء منها ، وهو مجازيكم بها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ فكذبه قومه ، فأخذهم عذاب يوم السحابة التي أحرقتهم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن عذاب ذلك اليوم ، كان عظيماً على قوم شعيب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ

(١) الأيكة : الشجر الكثير الملتف ، وهؤلاء هم أهل مدين قوم شعيب ، وهذه هي القصة السابعة في هذه السورة الكريمة . وهي آخر قصة من قصص الأنبياء التي ذكرت تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام .

(٢) هكذا فسَّره الطبري ، وقد قدَّمنا أن ما اختاره الطبري قول مرجوحٌ ، والصحيح أن معناه : ما أنت إلا من المسحورين الذين سحروا فغلبوا على عقلهم ، وهو رأي الجمهور .

كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ
ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ
يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾
فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن
مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

***

أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن في تعذيبنا قوم شعيب ، لعبرة لمن اعتبر ، وما كان أكثرهم مؤمنين في سابق علمنا **﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾** العزيز في نقمته من أعدائه ، الرحيم بمن تاب من خلقه .

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وإن هذا القرآن ، نزّله عليك يا محمد ربُّ العالمين **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ على قلبك﴾** نزل به جبريل فتلاه عليك حتى وعيته بقلبك **﴿لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾** لتكون من رسل الله فتنذر قومك ، بلسان عربي واضح ، يبين لمن سمعه أنه عربي **﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾** وإن ذكر هذا القرآن وخبره ، في بعض ما نزل من الكتب على رسل الله **﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** أولم يكن لهؤلاء المعرضين ، دلالة على أنك رسول رب العالمين ، أن يعلم صحته علماء بني إسرائيل ؟ **﴿وَلَو نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾** ولو نزّلنا هذا القرآن على بعض من لا يفصح بلسانه ، فقرأه على كفار قومك ، لم يكونوا ليؤمنوا به ، لما قد جرى لهم في سابق علمي من الشقاء[1]

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ كذلك أدخلنا في قلوب المجرمين ، ترك الإيمانِ بهذا القرآن ، لئلا يصدقوا به حتى يروا العذاب الأليم في الدنيا **﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** فيأتيهم العذاب فجأة ، وهم لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه **﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾** فيقولوا : هل نحن مؤخرٌ عنا العذاب ، لنتوب ونؤمن ؟ **﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾** أفيستعجلون عذابنا بقولهم : لن نؤمن لك حتى تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ؟ **﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾** أفرأيت إنِ أحييناهم سنين ،ثم جاءهم العذاب الذي كانوا يوعدون به ؟

(١) قال ابن جرير : وهذا تسلية من الله الى نبيه محمد ﷺ عن قومه لئلا يشتد وجده بإدبارهم عنه ،وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن ، لأنه كان ﷺ شديداً حرصه على قبولهم منه ، والدخول فيما دعاهم إليه .

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ
بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾

***

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ أيُّ شيء أغنى عنهم التأخير والمتاع هل زادهم تمتيعنا إلا إثماً وإجراماً ؟ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ وما أهلكنا أمة من الأمم إلا بعد أن أرسلنا إليهم رسلاً ، ينذرونهم بأسنا على كفرهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تنبيهاً لهم ، وتذكيراً على ما فيه النجاة ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وما كنا ظالمين لهم بتعذيبنا إياهم ، لأنه حل بهم بعد الإعذار إليهم ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن ، ولا يصلح لهم ذلك ولا يستطيعونه ﴿إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ إن الشياطين لممنوعون عن سماع القرآن في السماء ، فكيف يستطيعون التنزل به ؟ ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ فلا تعبد مع الله معبوداً غيره ، فينزل بك من العذاب ما نزل بالمكذبين [1] ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ وحذِّر عشيرتك الأقربين إليك من عذابنا ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وألن جانبك وكلامك ، لأتباعك المؤمنين ﴿فَإِنْ عَصَوكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فإن عصتك عشيرتك ، فقل لهم : إني بريء من عملكم .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وتوكل على القويّ العزيز في نقمته من أعدائه ، الرحيم بمن أناب إليه ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك ، ويرى تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك ، حين تقوم وتركع وتسجد [2] ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إن ربك هو السميع لتلاوتك وذكرك ، العليمُ بما تعمل أنت ومن معك ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ هل أخبركم على من تتنزّل الشياطين من الناس ؟ ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ تتنزّل على كل كذابٍ ، بهّاتٍ ، آثم

(١) هذا من باب التحذير للأمة من الشرك ، قال ابن عباس : يُحذّر به غيره يقول : أنتَ أكرم الخلق عليَّ ، ولو اتخذت من دوني إلهاً لعذبتك . اهـ من صفوة التفاسير ٢ / ٣٩٦ .

(٢) المراد أنه تعالى يراك وحدك ويراك في الجماعة .

يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾
وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟
وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

***

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يلقي الشياطين ما يسمعون مما استرقوا سمعه ، إلى أوليائهم من بني آدم ، وأكثر هؤلاء كاذبون في خبرهم ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ والشعراء يتبعهم غواة الناس ومردة الشياطين ، لا أهل الرشاد والهدى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ألم تر أن الشعراء[١] يذهبون في كل واد ، كالهائم على وجهه على غير قصد ، فيمدحون بالباطل قوماً ، ويهجون آخرين بالكذب والزور ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ وأن أكثر قولهم كذبٌ وباطلٌ ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلا شعراء رسول الله ﷺ ، ومن كان بالصفة التي وصفه الله بها ، من الإيمان ، والعمل الصالح ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ وهم يذكرون الله كثيراً في كل أحوالهم ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وانتصروا بشعرهم ممن هجاهم من شعراء المشركين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وسيعلم الذين ظلموا بإشراكهم بالله ، أيَّ معادٍ وأيَّ مرجع يرجعون إليه بعد مماتهم ، فإنهم يصيرون إلى نار لا يطفأ سعيرها ، ولا يسكن لهبها[٢] .

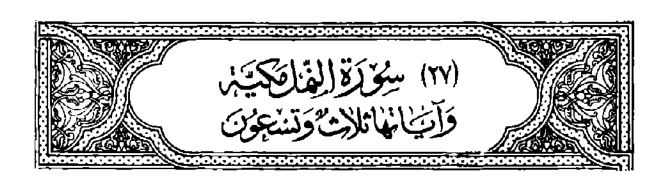
« تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء »

* * *

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الذم في شعراء المشركين ، والصحيح أنه عامٌ في جميع الشعراء بدليل الاستثناء ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

(٢) هذا وعيدٌ عامٌ في كل ظالم ، تتفتّت له الأكباد وتتصدع له القلوب ، أجارنا الله من الظلم والظالمين .



(٢٧) سورة النمل مكية
وآياتها ثلاث وتسعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

***

﴿طسٓ. تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنَ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هذه الآيات[١] التي أنزلتها إليك يا محمد ، آيات القرآن وكتابٍ واضح ، يُبين لمن تدبره وفكر فيه ، أنه من عند الله **﴿هُدَىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** بيانٌ من الله لطريق الحق والرشاد، وبشارةٌ لمن آمن به بالفوز العظيم في المعاد **﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** هدى وبشارة لمن أقام الصلاة بحدودها ، وأدى الزكاة[٢] المفروضة عليه **﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾** وهم بالمعاد بعد الممات يوقنون ، رجاء ثواب الله الجزيل ، وخوف عقابه العظيم **﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾** حبَّبنا إليهم قبيح أعمالهم ، وسهَّلنا ذلك عليهم **﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾** فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون حيارى ، يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً**﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ﴾** هؤلاء لهم سوءالعذاب في الدنيا **﴿ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾** وهم يوم القيامة الأخسرون تجارةً ، باشترائهم الضلالةَ بالهدى **﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾** وإنك يا محمد لتُعلَّمُ القرآنَ وتُحفَّظه ، من عند حكيم بتدبير خلقه ، عليم

(١) تقدم القول على الحروف المقطعة في أوائل السور ، والرأيُ الراجح فيها أنها لبيان إعجاز القرآن .

(٢) هذا هو الراجح من معنى الزكاة ، وقال الطبري : وقيل معناه يطهرون أجسادهم من دنس المعاصي .

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾
فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى
لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾

* * *

بمصالحهم ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ حين قال موسى[١] لأهله ، وهو في مسيره من مدين إلى مصر ـ وقد آذاهم البردُ ـ إني أبصرت ناراً ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَو آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ فامكثوا مكانكم سآتيكم من النار بخبر ، أو آتيكم بشعلة نار أقتبسها منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ كي تستدفئوا بها من البرد ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فلما جاء موسى النار ، نودي أن قُدِّس من في النار[٢] ، ومن حول النار ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وتنزيهاً لله رب العالمين ، ممَّا يصفه به الظالمون.

﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ يا موسى إنه أنا الله ، العزيزُ في نقمته من أعدائه ، الحكيمُ في تدبير خلقه ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ قال له ربه : وألق عصاك ، فألقاها فصارت حية ﴿فَلَمَّا رآها تهتز كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فلما رآها تهتز كحيةٍ عظيمة ، ولَّى موسى هارباً خوفاً منها ولم يرجع[٣] ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنَّهُ لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ يا موسى لا تخف من هذه الحية ، إني لا يخاف عندي رسلي وأنبيائي ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ إلَّا من ظلم منهم ، فعمل بغير الذي أُذن له ، ثم تاب من بعد إساءته ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإني ساترٌ على ذنبه ، بعفوي عنه وتركِ عقوبته ، رحيمٌ به ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وأدخل كفك في جيبك[٤] ، تخرج اليد بيضاء بغير لون جلدك ، من غير برص ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ هي آيةٌ من آياتٍ تسعٍ[٥] ، مرسلٌ أنت بهن إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾

(١) هذه هي القصة الأولى من قصص الأنبياء في هذه السورة وهي قصة موسى عليه السلام .

(٢) المراد بمن في النار موسى ، ومن حولها الأنبياء الأطهار ، وفيه تبشيرٌ لموسى وتأنيس له استعداداً للمناجاة .

(٣) معنى « ولم يعقّب » أي لم يلتفت ولم يرجع .

(٤) الجيبُ : فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس ، وليس الجيب المعروف في الاصطلاح .

(٥) الآيات التسع يراد بها : اليد ، والعصا ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمس على الأموال ، والحجر الذي كان يضرب عليه موسى ، وهي التي ذكرت في سورة الأعراف .

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ
مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

* * *

كافرين بالله ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فلما جاءتهم أدلتنا وحججنا الواضحة ، قالوا : هذا الذي جاءنا به موسى سحرٌ ظاهرٌ ، يبين للناظرين أنه سحر ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ وكذَّبوا بالآيات التسع ، وقد علموا يقيناً أنها من عند الله ، فعاندوا بها اعتداء وتكبراً على الحق﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فانظر يا محمد بعين قلبك ، كيف كان عاقبة تكذيب هؤلاء الجاحدين ؟ .

﴿وَلَقَد آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾ ولقد أعطينا داود وسليمان ، علم كلام الطير والدواب ، وغير ذلك مما خصصناهم بعلمه ﴿وَقَالاَ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال داود وسليمان : الحمد لله الذي فضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين ، بما خصَّنا به من العلم ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ وورث سليمان[١] أباه « داود » في العلم والملك ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ وقال سليمان يا أيها الناس : فهَّمنا ربنا كلام الطير ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ووهب لنا كل شيء من الخيرات ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ أن هذا العطاء لهو الفضل الواضح ، الذي فضّلنا الله به ، على جميع أهل دهرنا ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ وجُمع لسليمان جنوده من جميع الأجناس في مسيرٍ لهم ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فهم يُكفُّون لئلا يتقدموا في المسير ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وادِ النَّمْلِ﴾ حتى إذا أتى سليمان وجنوده على وادِ للنمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ قالت نملةٌ : التجئوا إلى بيوتكم ، لا يقتلنَّكم سليمان وجنوده بأقدامهم ، وهم لا يعلمون بكم ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾ فتبسم سليمان ضاحكاً من قول النملة ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ

(١) هذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة من قصص الأنبياء وهي قصة « سليمان » عليه السلام .

صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا

* * *

أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ قال : رب ألهمني شكر نعمتك ، وأن أعمل بطاعتك وبما ترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ وأدخلني في الجنة مع عبادك الصالحين ، الذين اخترتهم لرسالتك

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْـــر فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَىٰ الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ وتفقد سليمان أنواع الطير فقال : ما الذي جعلني لا أرى الهدهد ؟ أأخطأه بصري فلا أراه وقد حضر ؟ أمْ هو غائب لم يحضر ؟﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباًشَدِيداً أَو لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ فلما أخبر أنه غائب أقسم سليمان ليعذبنَّ الهدهد عذاباً شديداً أو ليقتلنه ﴿أَولَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أوليأتيني بحجة واضحة ، تُبين لسامعها صحتها ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فمكث سليمان غير طويل ، حتى جاء الهدهد ، فسأله سليمان عن تخلفه وغيبته ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بما لَم تُحِطْ بِهِ﴾ فقال : أحطت بعلم لم تحط به أنت ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وجئتك من سبأ بخبر يقين[١] ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إني وجدت امرأة تملك سبأ ، وقد أوتيت كل شيء في الدنيا من العتاد والآلة ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ولها كرسي[٢] عظيمٌ قدرُه و﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وجدتُ هذه المرأة وقومَها ، يعبدون الشمس فيسجدون لها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وحسَّن لهم إبليس عبادتهم هذه ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فمنعهم بذلك أن يتبعوا دين الله الحقّ ، فهم لا يهتدون له ولا يسلكونه ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ زيَّن لهمُ الشيطان

---

(١) قال الطبري وإنما صار هذا الخبر عذراً للهدهد ، لأن سليمان كان رجلاً حبب إليه الجهاد والغزو ، فلما دله الهدهد على قوم كفرة يعبدون غير الله ، له الأجر الجزيل في جهادهم ، حقت للهدهد المعذرة ، وصحت له الحجة في غيابه .

(٢) تفسير الطبري للعرش بالكرسي غريب ، والراجح أن المراد به السرير العظيم المرصّع باللؤلو والجوهر ، وهو قول الجمهور ،وقد نقل الطبري عن ابن عباس أنه قال : عرشها سريرٌ من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ وهذا هو الأرجح .

تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ
إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ
شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ

* * *

أعمالهم ، لئلا يسجدوا لله[1] ، الذي يخرج المخبوء في السموات والأرض ، من الغيث والنبات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ويعلم السر من أمور خلقه والعلانية

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الله الذي لا معبود سواه ، ولا تصلح العبادة إلَّا له ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ مالك العرش العظيم ، الذي كل عرش ـ وإن عَظُم ـ فدونه ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ قال سليمان للهدهد : سننظر فيما جئتنا به من الخبر ، أصدقتَ فيه أم أنت كاذب ؟ ﴿إِذْهَبْ بِكِتَابِي هَـذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِـمْ ثُـمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ خـذ كتابي هذا ، واذهب فألقه إلى ملِكتهم ، وكن قريباً منهم فانظر ماذا يردُّون من الجواب ؟ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ قالت ملكة [2] سبأ لأشراف قومها : يا أيها القوم لقد أُلقي إلي كتابٌ كريم من مَلِكٍ عظيم ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هذا الكتاب من سليمان ، ومبدوءٌ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَّا تَعْلُـوْا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أن لا تتكبروا عما دعوتكم إليه ، وأقبلوا إليَّ مذعنين لله بالوحدانية والطاعة ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا عليَّ في الأمر ، الذي قد حضرني من صاحب هذا الكتاب ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ما كنت قاضية أمراً في ذلك ، حتى أشاوركم فيه ﴿قَالُـوا نَحْنُ أُوْلُـوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال الملأ نحن أصحاب القوة على القتال ، والبأس الشديد في الحرب ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ والأمر في القتال إليك ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فانظري من الرأي ما ترينه صواباً فمرينا به ؟ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

(١) هكذا فسَّره الطبري ، وقيل : إن « لا » مزيدةٌ والتقدير فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا لله ، وقيل المعنى أَلا يا هؤلاء فاسجدوا ، وهذا على قراءة التخفيف « ألَا يسجدوا » وقد انقدح في ذهني معنى للآية غير هذه الأقوال ، وهو أيسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم ، الذي يعلم الخفايا وكل خبيئةٍ في السموات والأرض ؟ ولعل هذا المعنى هو الأقرب إلى فهم روح النص القرآني ، فإن المجال مجال تعجب وإنكار ، لا مجال حديث وإخبار ! والله أعلم وكتبه محمد الصابوني

(٢) اسمها « بلقيس بنت شراحيل » ملك اليمن ، ورثت الملك عن أبيها ، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس ، وسبأ مدينةٌ باليمن قريبة من صنعاء .

أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ
أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾
قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا

* * *

﴿قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ قالت لهم : إن الملوك إذا دخلوا قرية ، عُنوةً وغلبةً خرَّبوها **﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾** واستعبدوا الأحرار واسترقوهم **﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾** قال تعالى : وكما قالت ملكة سبأ تفعل الملوك ، إذا دخلوا قرية عنوة[1] **﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾** وإني سأرسل إلى سليمان هدية أختبره بها ، فإن كان نبياً لم يقبل الهدية ، وإن كان ملكاً قبل الهدية وانصرف **﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾** فأنظر بأيِّ شيء ترجع رسلي ، أبقبول أم برد ؟

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ فلما جاء الرسول سليمان مع الهدية قال : أتمدونني بمال ؟ **﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾** فما أعطاني ربي من المال والدنيا ، أكثر مما أعطاكم منها وأفضل **﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾** لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا **﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾** ارجع إلى أهل سبأ ، فلنأتينهم بجنود لا طاقة ولا قدرة لهم على دفعهم **﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** ولنخرجنهم من أرضهم أذلة حقيرين ، إن لم يأتوني مسلمين **﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾** قال سليمان لأشراف من حضره : أيكم يأتيني بسريرها قبل أن يأتوني طائعين[2] **﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾** قال ماردٌ من الجن : أنا آتيك بعرشها ، قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، الذي جلست فيه للحكم **﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾** وإني لقويٌ على ذلك ، أمينٌ على ما فيه من الجواهر **﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾** قال الذي عنده علمٌ من كتاب[3] الله ، أنا آتيك

---

(١) ظاهر الآيات أنه من كلام ملكة سبأ ، تقول : هذه عادة الملوك وطريقتهم في كل بلدٍ يدخلونها قهراً ، ورجح الطبري أنه من كلام الله وهو مروي عن ابن عباس ، والأول أظهر .

(٢) قال الطبري : السبب الذي من أجله أمر سليمان بإحضار عرش هذه المرأة ، دون سائر ملكها ، ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته ، ويعرفها بذلك قدرة الله ، وعظيم شأنه ، أنها خلفته في بيت مغلق مقفل فأخرجه الله من ذلك كله بغير فتح أغلاق ، وأقفال ، حتى أوصله إلى وليه من خلقه ، فكان لها في ذلك أعظم حجة على حقيقة ما دعاها إليه سليمان ، وعلى صدقه .

(٣) هذا الرجل من الأولياء الصالحين ، واسمه « آصف بن برخيا » وكان يعلم اسم الله الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب وهو قول مجاهد .

مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ
كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن

* * *

بالعرش ، قبل أن يرجع إليك طرفك ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِنْدَهُ﴾ فلما رأى سليمان عرش ملكة سبأ حاضراً لديه ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ قال : هذا التمكن والملك والسلطان من فضل ربي ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ ليختبرني أأشكر فضله وإحسانه عليَّ، أم أكفر نعمته بترك الشكر له ؟ ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ ومن شكر نعمة الله عليه ، فإنما يشكر لنفع نفسه﴿وَمَنْكَفر فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ ومن كفر إحسانه فلنفسه ظلم ، والله غنيٌّ عن شكره ، لا يضرُّه كُفْرُ من كَفر ، كريمٌ يتفضل بنعمه على خلقه .

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُر أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾ قال سليمان : غيِّروا لهذه المرأة سريرها ، لننظر أتهتدي فتثبت عرشها أنه هو، أم لا تهتدي إليه[1]؟ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ولما جاءت أخرج لها عرشها ، وقال لها : أهكذا عرشك ؟ قالت ـ وشبَّهته به ـ كأنه هو[2] ﴿وَأُوْتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قال سليمان : وأوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وقدرته ، وكنا مسلمين قبلها ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومنع هذه المرأة عبادتها للشمس والقمر ، أن تعبد الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوم كَافِرِينَ﴾ إنها كانت كافرة ، من قوم لا يؤمنون بالله ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ قيل لها : ادخلي الصرح ـ وهو الذي بناه لها سليمان ليختبر عقلها ـ فلما رأت الصرح[3] ، حسبتْه لبياضه لجة[4]

---

(١) أراد بذلك اختبار عقلها وذكائها .

(٢) لم تقل : نعم هو ، أو ليس هو ، وإنما قالت ﴿كأنه هو﴾ وهذا غاية في الذكاء والحزم ،حيث شبهته به ولم تجزم بنفي او إثبات .

(٣) الصَّرح : القصر قال أهل اللغة : وكلُّ بناء مرتفع يسمى صرحاً ، ومنه قول فرعون ﴿يا هامان ابن لي صرحاً﴾ قال الطبري في روايته عن وهب : أمر سليمان بالصرح وقد عملتـه الشياطين له من زجاج كأنه الماء بياضاً ، ثم أرسل الماء تحته وجلس على سريره ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، ثم قال لها : ادخلي الصرح ليريها ملكاً أعز من ملكها ، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها .

(٤) لجة : أي ماءً غامراً

قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ
صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾
وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾

* * *

بحرٍ ، وكشفت عن ساقيها لتخوضه ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ قال لها سليمان : إن هذا ليس ببحر ، إنما هو بناءٌ مشيَّدٌ من زجاج ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ظلمت نفسي في عبادتي للشمس ، وسجودي لغيرك ، وانقدت مذعنةً لك بالتوحيد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً[1] ، يدعوهم إلى التوحيد ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ولا تجعلوا معه إلَهاً غيره ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فلما أتاهم صالح داعياً إلى الله ، صار قومه فريقين : فريقٌ مؤمنٌ وفريق كافر ، مختلفون في أمر رسالته ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال صالح لقومه : يا قوم لأي شيءٍ تستعجلون عذاب الله قبل الرحمة؟ ﴿لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هلاَّ تتوبون إلى الله من كفركم ، ليرحمكم باستغفاركم إياه ؟! ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ قالوا تشاءمنا بك وبمن معك ، وستصيبنا بسببكم المكارهُ والمصائب[2] ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ما يصيبكم علمه عند الله ﴿بَلْ أَنْتُم قوم تفتنون﴾ يختبركم ربكم أتطيعونه أم تعصونه ؟

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ وكان في مدينة صالح[3] تسعة أنفس ، يفسدون في الأرض بكفرهم بالله ، ومعصيتهم إياه ولا يصلحون ، فلذا تحالفوا على قتل صالح ، وعقر الناقة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ قالوا : ليحلفْ بعضكم لبعض ، لنقتلنَّ صالحاً وأهله في بيوتهم ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَاشَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ ثم لنقولن لوليه : ما رأينا مهلك أهله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بذلك ﴿وَمَكَرُوامَكْراً ومَكَرْنَا مَكْراً﴾ وغدر هؤلاء التسعة بصالح ، بمسيرهم

(١) هذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة « صالح » عليه السلام .

(٢) كانوا قد أصابهم جدب وقحط .

(٣) هي « الحِجر » بين المدينة والشام .

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ

* * *

إليه ليلاً ليقتلوه وأهله ، وصالحٌ لا يشعر بذلك ، فأخذناهم بعقوبتنا[1] إياهم ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا ﴿فَانظُر كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ فانظر يا محمد بعين قلبك ، إلى مكر ثمود بنبيهم كيف كانت عاقبتها ؟ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَومَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنا دمرنا التسعة وقومهم ، فلم نبق منهم أحداً ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ فتلك مساكنهم ، خالية منهم ، أبادهم الله وأهلكهم بشركهم بالله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوم يَعْلَمُونَ﴾ إن في قصة ثمود ، وما فعلنا بهم لعظةً لقومك المكذبين ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وأنجينا من نقمتنا وعذابنا ، رسولَنا صالحاً والمؤمنين به ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وأرسلنا لوطاً[2] إلى قومه فقال لهم : أتأتون الفاحشة[3] ، وأنتم تبصرون أنها فاحشة ؟ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أئنكم لتأتون الرجال شهوة منكم بذلك ، من دون فروج النساء ، التي أباحها الله لكم بالنكاح ؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَومٌ تَجْهَلُونَ﴾ بل أنتم قَوْم سفهاء جهلة بعظيم حق الله .

﴿فما كَانَ جَوَابَ قومِهِ إلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرِيَتِكُمْ﴾ فلم يكن لقوم لوط جواب له ، إلا قول بعضهم لبعض : أخرجوا أهل لوط من قريتكم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ عما نفعله نحن ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قدرناها من الغابرين﴾ فأنجينا لوطاً وأهله من عذابنا ، أما امرأته فقد جعلناها بتقديرنا من الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيهِمْ مطراً﴾ وأمطرنا عليهم من السماء حجارة من سجيل ﴿فَساءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ﴾ فبئس مطرُ القوم الذين أنذرهم الله عقابه ، على معصيتهم إياه ﴿قُلِ الحَمدُ لِلَّهِ﴾

---

(١) سمّى عقوبته لهم مكراً لأنها جاءتهم بغتةً من حيث لا يشعرون .

(٢) هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة الكريمة وهي قصة « لوط » عليه السلام .

(٣) المراد بالفاحشة الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواطة التي اشتهر بها أهل سدوم .

ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا

* * *

قل يا محمد : الحمد لله على نعمه[١] ، وتوفيقه إيانا للهداية ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ وأمنةٌ من الله من عقابه ، على الذين اجتباهم لنبيه من أصحابه[٢] ووزرائه ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هل الله خيرٌ ، أمّا تشركون به من أوثانكم ، التي لا تنفعكم ولا تضركم ؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ هل عبادةُ الأوثان خيرٌ ، أم عبادةُ منْ خلق السموات والأرض[٣] ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وأنزل لكم من السماء مطراً ، فأنبتنا بالماء حدائق ذات منظر حسن ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ لم يكن لكم طاقة أن تنبتوا شجر هذه الحدائق لولا الماءِ ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أمعبودٌ مع الله - أيها الجهلة - خلق ذلك ؟ !﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بل هؤلاء المشركون قوم ضلّال ، يعدلون عن الحقِّ على عمدٍ منهم[٤]

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ هل عبادة الأوثان خيرٌ ، أم عبادة الذي جعل لكم الأرض مستقرة[٥] ﴿وَجَعَلَ خلالَها أنهاراً﴾ وجعل لكم فيها أنهاراً ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ وجعل للأرض ثوابت من الجبال ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ وجعل بين الماء العذب والملح ، حاجزاً أن يُفسد أحدهما صاحبه ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أمعبودٌ مع الله سواه ، فعل هذه الاشياء ؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعلَمُونَ﴾ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أشركاؤكم خيرٌ أم الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف ما ينزل بكم من سوء[٦] ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ ويستخلف بعد أمرائكم ، خلفاء يخلفونهم في الأرض[٧] ﴿أَإِلَهٌ

(١) هذا شروع في ذكر دلائل القدرة والوحدانية ، رداً على عبدة الأوثان في كل زمانٍ ومكان .

(٢) رجح الطبري أن المراد بـ﴿الذين اصطفى﴾ أصحاب محمد ﷺ ورجح غيره أن المراد به الرسل أي وسلام على عباده المرسلين الذين اصطفاهم لرسالته .

(٣) هذا برهان أول على وحدانيته جل وعلا .

(٤) هكذا فسّره الطبري ، وفسّره غيره بأن معناه : بل هم قوم مشركون ، يجعلون لله عديلاً ومثيلاً ، وهو أظهر .

(٥) هذا برهان آخر على وحدانية الله جلَّ وعلا

(٦) برهان ثالث على وحدانيته جل وعلا

(٧) الراجح أن معناه : يجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وأمة بعد أمة .

مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ
تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

* * *

﴿مَعَ اللَّهِ﴾ أإله سوى الله يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم ؟! **﴿قليلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾** لا تعتبرون بحجج الله إلا قليلاً ، فلذلك أشركتم به **﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾** أشركاؤكم خيرٌ ، أم اللهُ الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر ، إذا ضللتم الطريق[١] ؟ **﴿وَمَن يرسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رحْمَتِهِ﴾** والذي يرسل الرياح نُشْراً[٢] أمام الغيث ، الذي يُحيي مَوات الأرض **﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾** أإله سوى الله يفعل بكم شيئاً من ذلك ، فتعبدونه من دونه ؟ **﴿تَعَالى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** للَّهِ العلوُّ والرفعة عن شرككم ، وعبادتكم ما تعبدون معه **﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الخَلق ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾** هل شركاؤكم خيرٌ[٣]،أم الذي ينشىء الخلق ويبتدعه ، ثم يغنيه إذا شاء ، ثم يعيده إذا أراد؟ **﴿وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾**والذي يرزقكم بإنزال المطر من السماء ، وإخراج النبات من الأرض ، لأقواتكم وأقوات أنعامكم ؟ **﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾** أإله سوى الله يفعل ذلك ؟ **﴿قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ﴾** قل لهم : فإن زعمتم هذا ، فهاتوا حجتكم على أن شيئاً سوى الله يفعل ذلك **﴿ إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** في دعواكم .

﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ قل يا محمد : لا يعلم أحد الغيب الذي استأثر الله بعلمه إلا اللَّهُ، ومن ذلك الساعةلايعلم وقتها إلا اللَّهُ **﴿وَمَايَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾** وما يدري أحدٌ من خلقه ، متى هم مبعوثون من قبورهم **﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾** لم يتتابع علمهم بالآخرة، بل غاب فلم يدركوه[٤] **﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾** بل هؤلاء المشركون في شك من قيام

(١) برهانٌ رابع على وحدانيته جل وعلا .

(٢) هكذا ذكر ابن جرير الآية بالنون ، وهي في المصاحف بالباء ، ثم فسّرها بأنها نشراً لميت الأرض ، أي إحياءً للأرض الميتة ، وتفسيرها على الباء : يرسل الرياح مبشرةً بقدوم المطر بعدها .

(٣) برهانٌ خامس على وحدانيته جل وعلا .

(٤) توضيح معنى الآية : هل تتابع وتلاحق علم المشركين بالآخرة حتى يسألوا عن الساعة وقيامها ؟ إنهم لا يؤمنون بالآخرة ، فلماذا يسألون عن قيام الساعة ؟ ولهذا قال بعدها ﴿ بل هم في شكٍ منها﴾ وقرىء « بل أدرَكَ » ومعنى الآية على هذه القراءة : بل وصل إليهم وتناهى علمُ الساعة في الآخرة حين يبعثون فلا ينفعهم علمهم بذلك .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

* * *

الساعة لا يوقنون بها ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ بل هم في عمى عنها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ وقال الكفار : هل سنُخرج من قبورنا أحياء بعد مماتنا ، بعد أن كنا فيها تراباً قد بلينا ؟ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحنُ وآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ لقد وُعدنا هذا من قبل محمد ، فلم نر لذلك حقيقة ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الوعد إلاّ أكاذيب الأولين ، سطروها وأثبتوها في كتبهم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِينَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المكذبين : سيروا في الأرض فانظروا إلى ديار المكذبين ومساكنهم ، ألم يخربها الله ، ويهلك أهلها عاقبة إجرامهم ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ولا تحزن على تكذيبهم لك[١] ، ولا يضقْ صدرك من مكرهم ، فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ويقول المكذبون : متى يكون هذا العذاب الذي يحِلُّ بنا ، إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به[٢] ؟ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قل لهم يا محمد : عسى أن يكون قد اقترب لكم بعض الذي تستعجلون به من عذاب الله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ وإن ربك يا محمد لذو إحسان على الناس ، بتركه معاجلتهم بالعقوبة على معاصيهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على ذلك .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإن ربك ليعلم مكنون أنفسهم ، وعلانية أمورهم ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وما من أمرٍ خفي ، يغيب عن

---

(١) هذا تسليةٌ للرسول ﷺ ووعدٌ له بالنصر على الأعداء .

(٢) هذا على سبيل السخرية والاستهزاء من المشركين .

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا
مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) * وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ
أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣)
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤)

* * *

الناظرين من أهل السموات والأرض ، إلا في اللوح المحفوظ ، أثبته فيه ربنا جل وعلا ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بني إسرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد ، يقصُّ على بني إسرائيل الحق في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانٌ من الله للحق ، ورحمةٌ لمن صدَّق به ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ إن ربك يفصل بين المختلفين بحكمه فيهم ، فينتقم من المبطل ويجازي المحسن ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ العزيزُ في انتقامه،العليـمُ بالمحقّ منهم والمبطل ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فوِّضْ إلى الله أمورك ، وثقْ به ، فإنه كافيك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ إنك على الطريق الواضح ، دون ما عليه اليهود والنصارى ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوتَى﴾ لا تقدر أن تُفهم الحقَّ من طبع الله على قلبه فأماته ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ولا تقدر أن تُسمع من أصمَّ الله سمعه عن قبول الحق ، لغلبة الكفر على قلوبهم ، فهم يدبرون معرضين عنه ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِـمْ﴾ ولست يا محمد بهادي من أعماه الله عن الهدى والرشاد ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ ما تقدر أن تُفهم الحق ، وتوعيه سمع أحد ، إلاّ سمع من يُصدِّق بأدلتنا وحججنا ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يسمعون ويتدبرون ما تقول.

﴿وَإِذَا وقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دابةً مِنَ الأَرْضِ﴾ وإذا وجب عذابُ الله عليهم ، أخرجنا لهم دابةً من الأرض[١] ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ تحدثهم الدابة أن الناس كانوا لا يوقنون بآيات الله وحججـه ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فوجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ ويوم نجمع من كل قرنٍ وملة ، جماعة منهم ممن يكذب بأدلتنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبس أولهم على آخرهم ليجتمعوا ثم يُساقون إلى النار ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ أكذبتم بحججي

(١) خروج الدابة من علامات قيام الساعة الكبرى ، قال ابن كثير : هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ٢ / ٦٨٢

وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ
ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ
ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾

* * *

وأدلتي ، ولم تعرفوها حق معرفتها ؟ ﴿أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من تكذيب أو تصديق ؟! ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُم لَا يَنْطِقُونَ﴾ ووجب الغضب من الله على المكذبين بآياته ، فهم لا ينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم العذاب ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ألم ير هؤلاء المكذبون تقليبنا الليل والنهار ، يهدأون في الليل لراحة أبدانهم ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِـراً ﴾ والنهار مضيئاً يبصرون فيه الأشياء لمعايشهم ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ لدلالة لقوم يؤمنون على قدرة الله ، وحجة لهم على توحيده ﴿وَيَومَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور[1] ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَـوَاتِ﴾ من الملائكـة ﴿وَمَنْ فِيْ الْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس والشياطين من هوْل ما يعاينون ﴿إلَّا من شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم يُرزقـون ﴿وَكلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ والجميع أتوا ربهم صاغرين مطيعين .

﴿وَتَرَى الجِبَال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وترى الجبال تحسبها قائمة ثابتة ، وهي تسير سيراً سريعاً كمرِّ السحاب ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ذلك صنعُ الله ، الذي أحكم كل شيءٍ خلقه ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُـونَ﴾ إنه عالمٌ بما يفعل عباده من خير وشر وهو مجازيهم على ذلك ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ من جاء الله بتوحيد الله موقناً به قلبه ، فله عند الله الجنة يوم القيامة ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ وهم آمنون من فزع الصيحة الكبرى ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُم فِي النَّارِ﴾ ومن جاء بالشرك بالله ، فكبت وجوههم في نار جهنم ﴿هَل تُجْزَوْنَ إلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقال لهم : هل تجزون إلا جزاء عملكم السيء ؟ ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِالبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ قل يا محمد : إنما أمرني ربي أن أعبد رب مكة ، التي حرمها على خلقه ، أن

---

(١) هذه النفخة هي نفخة الفزع ، وهناك نفخة الصَّعق ، ثم نفخة الإحياء .

وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

* * *

يسْفكوا فيها دماً حراماً ، أو يظلموا فيها أحداً ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ وله الأشياء كلها ملكاً ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربي أن أسلم له وجهي ، فأكون من المسلمين ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ وأمرت بقراءة القرآن ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فمن آمن بي فإنما يسلك سبيل الصواب لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ومن جار عن طريق الحق ، فقل : إنما أنا منذرٌ ، أنذركم عذاب الله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وقل يا محمد للمشركين : الحمد لله على نعمته علينا بتوفيقه إيانا للحق ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فتعرفون بها حقيقة نصحي لكم ، وصدق ما دعوتكم إليه من الرشاد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يحزنك تكذيبهم ، وأيقن بالنصر على أعدائك .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل »

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

* * *

﴿ طسٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ هذه آيات الكتاب الذي أنزلته إليك يا محمد ، المبين أنه من عند الله ، وأنك لم تتقوله ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ نقرأ عليك في هذا القرآن خبر موسى مع فرعون بالحق القاطع . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون بهذا الكتاب ﴿ إِنَّ فِرْعَونَ عَلَا فِي الأَرْضِ ﴾ إن فرعون تجبَّر في أرض مصر وتكبَّر ، وقهر أهلها حتى أقروا له بالعبودية ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ وجعل أهلها من بني اسرائيل فِرَقاً ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ يستعبد طائفة من بني إسرائيل ، فيذبّح الذكور ، ويبقي النساء ﴿ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِين ﴾ بتكبره على ربه ، وتجبّره على أهل الأرض ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ على الَّذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ ﴾ ونريد أن نُنعم على الذين استضعفهم فِرْعون من بني إسرائيل ﴿ ونَجْعَلَهم أَئِمَّةً ﴾ ونجعلهم ملوكاً وولاةً ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ ﴾ يرثون الأرض بعد مهلك آل فرعون ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُم في الأَرْضِ ﴾ ونوطىء[1] لهم في أرض الشام ومصر ﴿ ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامانَ وجُنُودَهُما مِنْهُم مَا كانُوا يَحْذَرُون ﴾ ونُري هؤلاء ما كانوا يخشونه من بني اسرائيل ، من هلاكهم وذهاب ملكهم على يد رجل منهم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا

(١) المراد بالتوطيء التمليك أي نملكهم أرض الشام ومصر ، وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة قصة موسى الكليم موضحة مفصلة من حين الولادة إلى حين الرسالة ، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يبهر العقول .

أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ
قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾

***

خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ ﴾ وأوحينا إلى أم موسى حين ولدته أن أرضعيه ، فإن خفت عليه من عدو الله فرعون وجنده ، فألقيه في النيل ﴿ ولا تَخافِي ولا تَحْزَنِي ﴾ ولا تخافي على ولدك من الهلاك ، ولا تحزني لفراقه ﴿ إِنَّا رادُّوهُ إِلَيْكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ إنا سنردُّ ولدك إليك ، ونبعثه رسولاً إلى الطاغية فرعون الذي تخافين عليه أن يقتله ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ فأخذه آل فرعون فكانت عاقبة[١] ذلك أن صار لهم عدواً وحَزَناً ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامَانَ وجُنُودَهُما كَانُوا خاطِئِينَ ﴾ إن هؤلاء كانوا آثمين ﴿ وَقَالَتِ امْرأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ هذا الغلام قُرةُ عينٍ[٢] لي ولك يا فرعون ﴿ لا تَقْتُلُوه عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ لا تقتلوه لعله ينفعنا إذا كبر ، أو نجعله ولداً لنا ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ بما هو كائن من هلاكهم على يديه .

﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فارِغاً ﴾ فرغ فؤادها من كل شيء إلا من همِّ موسى وذكره ﴿ إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِها ﴾ إن قربت أن تظهر أن موسى ابنها ، لولا أن عصمناها من ذلك ، بتثبيتنا لها بالسكوت عنه ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ بوعد الله ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ قالت أم موسى لأخته إتَّبعي أثره ، فاتَّبعته فبصرت بموسى عن بُعْدٍ لم تدن منه ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وقوم فرعون لا يشعرون بها أنها أخته ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ومنعنا موسى أن يرتضع من المراضع من قبل أمه ﴿فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَه لَكُم﴾ فقالت أخت موسى هل أدلكم على أهل بيت يضمنونه لكم ؟ ﴿وَهُم لَهُ ناصِحُونَ﴾ وهم لمنزلته مراعون ، ولمسرَّة الملك محافظون ، قالوا

(١) هذه اللام تسمى لام العاقبة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكانت عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً ومصدر حزن وألم ، وهذا كقول الشاعر ودورنا لخراب الدهر نبنيها .

(٢) أي فرحة ومسرة لي ولك ، روي أنها لما قالت ذلك قال لها فرعون : أمَّا لكِ فنعم ، وأما لي فليس بقرة عين ، ولو قال نعم لهداه الله به إلى الإيمان .

فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ
عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ
نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾
فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

***

هاتي ﴿فرددناهُ إلى أُمِّه كَيْ تقرَّ عَيْنُها ولاَ تَحْزَنَ﴾ فأعدنا موسى إلى أمه كي تقر عينها بابنها ، ولاتحزن على فراقه إياها ﴿وَلِتَعْلَمَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ﴾ ولتعلم أن وعد الله بإعادة ولدها حقٌّ ﴿وَلَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يصدقون بأن وعد الله حق ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكماً وَعِلْماً﴾ ولما تناهى شبابُه وتمَّ خَلْقُه ، آتيناه فهمًا ومعرفة بالدين ﴿ وَكَذَلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ كذلك نجزي كل من أحسن من عبادنا ، فصبر على أمرنا وأطاعنا ﴿ وَدَخَلَ المدينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ودخل موسى المدينة عند القائلة[1] نصف النهار وأهلها في غفلة ﴿فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْن يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾فوجد رجلين يقتتلان ، هذا من أهل دين موسى من بني إسرائيل ، وهذا من القبط من قوم فرعون ﴿فاسْتَغَاثَهُ الَّذي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَه مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فاستغاث الإسرائيلي موسى على القبطي ، فلكزه موسى في صدره بِجُمْعِ كفه فقتله ﴿قَالَ هٰذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال موسى : هذا القتل من تسبّب الشيطان ، فقد هَيَّج غضبي حتى ضربت الرجل ﴿إنَّه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ عدوٌّ لابن آدم ظاهر العداوة ، مضلٌّ له عن سبيل الرشاد ﴿قَالَ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغْفِرْ لي﴾ قال موسى : رب إني ظلمت نفسي بقتل النفس ، التي لم تأمرني بقتلها ، فاعفُ عن ذنبي واستره علي ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ فعفا الله لموسى عن ذنبه ﴿إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمِ﴾ الساتر على المنيبين ذنوبهم ، الرحيم بالناس أن يعاقبهم ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ قال موسى : رب بإنعامك عليَّ بالعفو عن قتل النفس ، فلن أكون معيناً للمشركين .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرقَّبُ ﴾ فأصبح موسى خائفاً من جنايته ، ينتظر ما الذي يصنعه به الناسُ ؟ ﴿ فإذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ فإذا الإسرائيلي الذي استنصر موسى بالأمس ، يقاتله قبطيٌّ آخر ، فاستغاث بموسى على الفرعوني ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ فقال موسى له :

(١) القائلة أي وقت القيلولة بعد الظهيرة لأنها وقت النوم والراحة ،قال تعالى ﴿فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾ .

فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ
قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ
قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾
وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ
قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾

***

إنك لذو غواية وضلال ، بقتالك كل يوم رجلاً ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ فلما أراد موسى أن يقتل الفرعوني ، الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيلي ﴿ قَالَ يا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ قال الإسرائيلي ـ وظن أنه إياه يريد قتله ـ أتريد أن تقتلني كما قتلت رجلاً بالأمس ؟ ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ ﴾ ما تريد بفعلك إلا أن تكون من الجبابرة ، الذين يقتلون النفوس بغير حق ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ وما تريد أن تكون ممن يعمل في الأرض بما فيه صلاح أهلها من طاعة الله !! سمع القبطي ذلك ، وأشاع الخبر في المدينة ، فبعث فرعون يطلب موسى ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ وجاء رجل من أبعد أطراف المدينة يُسرع في مشيه ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ قال الرجل : يا موسى إن أشراف قوم فرعون ، يتآمرون ويتشاورون على قتلك ﴿ فاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ فاخرج من هذه المدينة ، فأنا لك ناصح ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ فخرج موسى من مدينة فرعون ، ينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بك .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ولما توجّه بوجهه نحو أرض مدين[1] ماضياً إليها ، قال : عسى ربي أن يبين لي الطريق المستقيم إلى مدين ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ ولما وصل إلى مدين ووردَ ماءها ، وجد جماعة من الناس عليها يسقون مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ ووجد امرأتين تحبسان غنمهماعن غنم الناس ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ قال ما شأنكما ؟ هلاّ تسقون ماشيتكما مع مواشي الناس ! ؟ ﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾[2] قالتا :لا نسقي أغنامنا حتى ينصرف الرعاة ويفرغوا من سقي مواشيهم ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ

(١) مدين : هي بلدة شعيب عليه السلام ، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام .
(٢) الرعاء : جمع راع مثل صاحب وصِحاب وهو الذي يرعى الغنم .

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى
ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ
نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ
أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ

***

كَبِيرٌ ﴾ لا يستطيع أن يسقي ماشيته من الكبر والضعف ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ فسقى موسى للمرأتين ماشيتهما ، ثم ذهب إلى ظل شجرة يستريح من عناء السفر ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فقال موسى ـ وهو مُجْهَدٌ ـ يا ربِّ إني محتاج لما أنزلت إليَّ من خير(١) ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ فجاءت إحدى المرأتين تمشي ، ويعلوها الحياء وقد سترت وجهها بثوبها ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ قالت له : إن أبي يطلبك ليثيبك على سقيك لغنمنا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ فمضى موسى معها ، فلما جاء أباها وأخبره بقصصه مع فرعون وقومه ﴿ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال : لا تخف فقد نجوت من فرعون وقومه ، لأنه لا سلطان لهم بأرضنا

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ استأجر هذا الرجل ليرعى ماشيتك ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ إن خير من تستأجره للرعي ، القويُّ على حفظ الماشية وإصلاحها ، الأمينُ الذي لا تخاف خيانته(٢) ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ قال الأب لموسى : إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتيَّ اللتين أمامك ، على أن ترعى غنمي ثماني سنين ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ فإن أتممتها فجعلتها عشراً فإحسانٌ من عندك ، وليس مما اشترطته عليك ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وما أريد أن أوذيك بجعلها عشراً ، ستجدني بإذن الله من الصالحين في الوفاء بما قلت لك ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ قال موسى : هذا الذي قلت من الزواج والمؤاجرة ، واجبٌ بيني وبينك ، على كل واحد منا الوفاء لصاحبه به ﴿ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ

(١) يريد أنه محتاج إلى الطعام ، قال الضحاك : مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاما إلاّ بقل الأرض .

(٢) نقل عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنها عرفت ذلك فراسةً ، ونقل عن غيره أنها عرفت ذلك مما رأته منه ، فعرفت قوته من رفعه الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وعرفت أمانته لأنه أمرها أن تسير خلفه لا أمامه لتدله على الطريق .

قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن
جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ
فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾

***

﴿ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوانَ عَلَيَّ ﴾ أي المُدَّتين وفَّيتك إياها ، فليس لك أن تطالبني بأكثر منها ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وكِيلٌ ﴾ والله على هذا القول شهيدٌ وحفيظ ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾ فلما وفى موسى لصاحبه الأجل الذي كان بينهما ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ مسافراً بهم إلى مصر ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ أبصر من جانب الجبل ناراً تتَّقد ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ انتظروا إني أبصرت ناراً ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ لعلي آتيكم من النار بخبر عن الطريق الذي أضللناه ، أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها النار ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون بها من البرد ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ ﴾ فلما وصل موسى النار ، ناداه الله تعالى من جانب الوادي الذي هو عن يمين موسى ﴿ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ في ذلك المكان المبارك عند الشجرة ﴿ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ ربُّ العَالَمِينَ ﴾ نودي بأنني أنا الله رب العالمين ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ اطرح عصاك التي تحملها ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ فلما رآها تتحرك كأنها جان من الحيات ، ولّى موسى هارباً منها ولم يرجع على عقبه ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ ونودي أقبل ولا تخف من الذي تهرب منه فإنك في أمانٍ من أن يضرك ﴿ أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أدخل يدك في جيب قميصك ، تخرج بيضاء تلمع من غير برص ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ واجمع إليك يدك ، من الخوف الذي نالك من مشاهدة الحية ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ ﴾ فهذان اللذان أريتك إياهما ، حجتان إلى فرعون وأشراف قومه ، على حقيقة نبوتك ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ إن فرعون وملأه كانوا قوماً كافرين

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُم نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ قال موسى رب إني قتلت من قوم فرعون

وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ
عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ
أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى
لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

***

نفساً ، فأخاف إن أتيتهم أن يقتلون ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾ وأخي هارون أحسن مني بياناً عما يريد ، فأرسله معي عوناً يبيّن لهم عني ما أخاطبهم به ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ إني أخاف أن لا يصدقوني أني رسول إليهم . ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ قال الله لموسى : سنعينك ونقويك بأخيك ﴿ وَنَجْعَلُ لكُمَا سُلْطَاناً فلا يَصِلُونَ إليكُمَا ﴾ ونجعل لكما حجة فلا يصل إليكما فرعون وقومه بسوء ﴿ بآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ ﴾ أنتما ومن آمن معكما ، الغالبون فرعون وملأه بحجتنا[1] وسلطاننا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ فلما جاء موسى فرعون بأدلتنا وحججنا ، شاهدةً بحقيقة ما جاء به من عند ربه ﴿ قَالُوا مَا هَٰذَا إلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرَى ﴾ ما هذا الذي جئتنا به ، إلاّ سحرٌ افتريته من قبلك كذباً وباطلاً ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ وما سمعنا بالذي تدعونا إليه ، في أسلافنا الذين مضوا قبلنا

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ﴾ قال موسى لهم : ربي أعلم بالمحق منا من المبطل ، وبمن جاء بالرشاد والبيان من عند الله ! ﴿ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ ومن الذي تكون له العقبى المحمودة في الدار الآخرة ؟ ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ إنه لا ينجح الكافرون ولا يصلون إلى مرادهم ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ وقال فرعون لأشراف قومه : لا أعلم لكم من إلَهٍ غيري فتعبدوه . ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إِلَٰهِ مُوسَى ﴾ فاعملْ لي يا هامانُ آجراً ، وابن لي بناء شامخاً ، لأنظر إلى معبود موسى الذي يعبده[2] ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ وإني لأظنه فيما يقول كاذباً ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾

---

(١) هكذا فسّر الإمام ابن جرير الآية ، وقطع ما بين قوله (إليكما) وقوله (بآياتنا) وهو جائز من حيث المعنى ، بينما قال ابن كثير : ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، وهذا هو الأظهر .

(٢) يقول فرعون ذلك على سبيل التهكم ، و « هامان » هو وزير فرعون الذي أعان الطاغية على فجوره وضلاله .

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾
وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ
إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

***

واستكبر فرعون وجنوده في أرض مصر ، عن تصديق موسى ، والإقرار بالعبودية لله ، تعدياً وعتواً على ربهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون ، وأنه لا ثواب ولا عقاب ، فركبوا أهواءهم ، ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ فجمعنا فرعون وجنوده من القبط ، فألقيناهم في البحر وأغرقناهم جميعاً ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ فانظر يا محمد بعين قلبك ، كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ؟ ألم نهلكهم فنورث ديارهم المؤمنين بعد أن كانوا مستضعفين ؟ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ وجعلنا فرعون وقومه ، أئمة يأتم بهم أهل الكفر ؟ ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ ويوم القيامة لا ينصرهم من الله ناصر

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ وألزمناهم في هذه الدنيا خزياً وغضباً منا عليهم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ من الذين قبَّحهم الله ، فأهلكهم وجعلهم عبرةً للمعتبرين ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِمَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ ولقد أعطينا موسى التوراة ، بعدما أهلكناالأمم التي كانت قبله ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ ضياء لبني إسرائيل وبياناً لهم ، ورحمة لمن عمل بما فيه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليتذكروا نعم الله عليهم فيشكروه ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ وما كنت يا محمد بجانب غربي الجبل ، إذ ألزمنا موسى وقومه أمر الوحي ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وما كنت حاضراً لذلك شاهداً له ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ ولكنا خلقنا أمماً من بعد ذلك وقد تطاول عهدها فحرَّفوا وبدَّلوا الشرائع ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ وما كنت مقيماً في أهل مدين تقرأ عليهم كتابنا لتعرف خبرهم ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ولكن كنا نحن نرسل الرسل ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ وما كنت يا محمد بجانب الجبل إذ نادينا موسى ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ولكن عرفناك ، وابتعثناك رسولاً إلى الخلق ، رحمة منا بهم ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ لتنذر قوماً لم يأتهم قبلك رسولٌ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليتذكروا فينيبوا إلى

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ
مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

***

الله ، ويتركوا كل ما سواه من الآلهة ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ولئلا يكون لقومك حجةٌ لوحلَّ بهم عذابنا ، قبل أن نرسلك إليهم ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ فيقولوا ربنا هلاَّ أرسلت إلينا رسولاً من قبل أن ينزل بنا عذابك ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فنتبع آيات كتابك ، ونكون من المصدّقين بألوهيتك ورسولك . . ولولا ذلك لعاجلناهم العقوبة(١)

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ فلما جاءهم محمد بالرسالة من عند الله ، قالوا : هلاَّ أوتي محمد مثل ما أوتي موسى من الكتاب ؟ ﴿ أَو لَمْ يَكْفُروا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أولم يكفر اليهود بما أوتي موسى من قبلك ؟ ﴿ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ قالوا عن التوراة والقرآن سحران(٢) تعاونا ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ وقالت اليهود(٣) : إنا بكل كتاب في الأرض كافرون ﴿ قُلْ فَأْتُوابِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ قل يا محمد لهؤلاء : ائتوني بكتاب من عند الله ، هو أهدى من القرآن والتوراة لطريق الحق ﴿ أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في زعمكم أن الكتابين سحران ، وأن الحق في غيرهما ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فإن لم يأتك هؤلاء بكتاب من عند الله ، فاعلم أنهم يتركون الحق اتباعاً لأهوائهم ، وأن الذي ينطقون كذبٌ وباطلٌ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ ومن أضل عن طريق الرشاد ممن اتبع هوى نفسه ، بغير بيانٍ من عند الله ؟ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يوفق لإصابة الحق ، القوم الذين كذبوا رسوله ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ ولقد فصَّلنا لقومك ولليهود القول بأخبار الماضين ، وما أحللنا بهم حين كذبوا رسلنا

---

(١) أشار إلى أن جواب « لولا » التي في أول الآية محذوف قدره الطبري لعاجلناهم العقوبة ، وقال القرطبي : وجواب « لولا » محذوف تقديره لما بعثنا الرسل ١٣ /٢٩٣

(٢) وقرىء ساحران تظاهرا وعلى هذه القراءة يكون المعنى : قالوا عن موسى ومحمد ساحران تعاونا .

(٣) هذا ما رجحه الطبري ، واستظهر أبو حيان في البحر أن الضمير يعود على كفار قريش حتى تتناسق الضمائر ، ولعل هذا القول أرجح .

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ
ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا

***

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليتذكروا فيعتبروا ويتعظوا ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ الذين أعطيناهم الكتاب من قبل هذا القرآن ، يقرُّون أن القرآن حق من عند الله . نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾ وإذا يتلى عليهم القرآن يقولون : صدَّقنا به ، إنه الحق نزل من عند ربنا ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ إنا كنا بكتب الله مصدّقين قبل نزول القرآن ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ هؤلاء يؤتيهم الله ثواب عملهم مرتين ، بصبرهم على اتباع كتاب ربهم ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ويدفعون بحسنات أفعالهم السيئات ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وينفقون مما رزقناهم من الأموال في طاعة الله ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ وإذا سمع هؤلاء الباطل لم يصغوا إليه ولم يستمعوه ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾(١) وقالوا لأهل الباطل لنا أعمالنا التي رضينا بها لأنفسنا ، ولكم أعمالكم التي رضيتم بها لأنفسكم ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ ﴾ سلام عليكم منا(٢) ، لا نريد محاربة أهل الجهل ، ومسابتهم ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ إنك يا محمد لا تهدي من أردت هدايته ، ولكن الله يهدي من يشاء من خلقه ، بتوفيقه للإيمان(٣) ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ والله أعلم بمن سبق له الهدى ، فيسدّده ويوفّقه .

﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ قالت قريش : إن نتبع الحق الذي جئتنا به يا محمد ، يتخطفنا الناس من أرضنا ، باجتماعهم على حربنا ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً ﴾ قل لهم يا محمد : أو لم نجعل لهم بلداً آمناً ، حرمنا فيه سفك الدماء ، وأمَّنا أهله من الغارة والقتل والسبي ؟ ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ﴾ يحمل إليه ثمرات كل بلد ، رزقاً من عندنا ﴿ وَلَكِنَّ

---

(١) وقيل المعنى : لنا طريقتنا ولكم طريقتكم في هذه الحياة .

(٢) السلام هنا سلام مباعدة ومتاركة ، لاسلام تحية ومحبة .

(٣) جاء في الصحيحين أن هذه الآية نزلت في عم رسول الله ـ ﷺ ـ « أبي طالب » حيث مات كافرا

مِن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن
بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا
عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾
قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾

***

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لا يعلمون أنا فعلنا هذا ، فلجهلهم يكفرون ولا يشكرون ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا** ﴾ وكم أهلكنا من قرية أبطرتها معيشتُها ، فطغت وكفرت بربها ﴿ **فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً** ﴾ فتلك دورهم ومنازلهم ، خربت فلم يُعمر إلاَّ أقلها ﴿ **وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ** ﴾ وعادت لا مالك لها إلا نحن ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** ﴾ وما كان ربك مهلك القرى التي حول مكة ، حتى يبعث في مكة رسولاً يتلو عليهم كتابنا ﴿ **وَمَا كُنَّا مُهْلكِي القُرَى إلاَّ وأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** ﴾ولم نكن لنهلك قريةً وهي مؤمنة ، إنما نهلكها بظلمها وكفرها ﴿ **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا** ﴾ وما أعطيتم أيها الناس من شيء من الأموال والأولاد ، فإنما هو متاع لكم في الدنيا ، لا يغني عنكم شيئاً عند الله ﴿ **وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ وما عند الله من نعيم خيرٌ مما أوتيتم في الدنيا ، وأبقى لأهله لأنه لا نفاد له ﴿ **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ أفليس لكم عقول تتدبرون بها ، فتؤثرون الدائم على الفاني ؟ ﴿ **أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ** ﴾ أفمن وعدناه الجنة ، فاستحق بطاعته ذلك الوعد ، فهو صائر إليه ﴿ **كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ كمن تمتع بالحياة الدنيا ، وآثر لذة عاجلة على آجلة ﴿ **ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحْضَرِينَ** ﴾ ثم هو من المشهدين عذاب الله .

﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ ويوم ينادي رب العزة الذين أشركوا به فيقول لهم : أين الذين كنتم تزعمون أنهم لي في الدنيا شركاء ؟ ﴿ **قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ** ﴾ قال الشياطين الذين كانوا يغوون بني آدم ﴿ **رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُم كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إليكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ** ﴾ تبرأنا إليك من ولايتهم ونصرتهم ، لم يكونوا يعبدوننا وإنما دعوناهم فاستجابوا ﴿ **وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ** ﴾ وقيل للمشركين : نادوا شركاءكم لينصروكم ، فدعوهم

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا
مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

***

فلم يجيبوهم ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ وعاينوا العذاب ، فودُّوا لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ويوم ينادي الله المشركين فيقول لهم : ماذا أجبتم رسلنا فيما أرسلناهم به ؟ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ فخفيت عليهم الحجة ، فلم يدروا ما يحتجون به ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ فلا يسأل بعضهم بعضاً بالأنساب والقرابة ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ فأما من رجع إلى الحق ، وأخلص لله وصدَّق بنبيه ، وعمل بما أمره الله ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ فهو عند الله تعالى من الناجحين ، الخالدين في جناته ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ، ويختار للهداية والإيمان من شاء من خلقه ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ لم يكن لهم اختيارُ ما شاءوا من الأمر ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهاً لله ، وتبرئةً له ، عن شرك المشركين ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وربك يعلم ما تخفي صدور خلقه ، وما يبدونه بألسنتهم وجوارحهم ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وربك المعبود ، الذي لا تصلح العبادة إلَّا له ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ له الحمد في الدنيا والآخرة ، وله القضاء بين خلقه ، وإليه تردون بعد مماتكم .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قل يا محمد : أرأيتم أيها القوم إن جعل الله عليكم الليل دائماً إلى يوم القيامة ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ مَنْ معبودٌ غير الله يأتيكم بضياء النهار تستضيئون به ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ أفلا تفكرون به فتتعظون ؟ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار دائماً أبداً إلى يوم القيامة ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ مَنْ معبودٌ غير الله يأتيكم بليل تهدأون فيه ؟ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار ، رحمة من الله لكم ، ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ

وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ * إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ

***

﴿ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ومن رحمة الله بكم أن جعل الليل ظلاماً ، لتستقروا فيه لراحة أبدانكم من تعب التصرف نهاراً ، وجعل النهار ضياءً ، تتصرفون فيه لمعايشكم وابتغاء رزقه الذي قسمه بينكم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لتشكروه على إنعامه عليكم .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ويوم ينادي الله المشركين فيقول لهم : أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي ؟ ! ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ وأحضرنا من كل جماعةٍ نبيَّها ، الذي يشهد عليها ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ هاتوا حجتكم على إشراككم ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ لِلَّهِ ﴾ فعلموا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ واضمحل الذي كانوا يشركون بالله في الدنيا ، فلم ينفعهم هنالك بل ضرهم ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ إن قارون كان من عشيرة[1] موسى ، فتجاوز حده في التجبر عليهم ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ ﴾ وأعطيناه من الكنوز والأموال ، ما تثقل مفاتح خزائنه على الجماعة أولي الشدة ، عند حملها لكثرتها ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ﴾ لا تبطر فرحاً بمالك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ ﴾ لا يحب الأشرين البطرين ﴿ وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ والتمسْ فيما أعطاك الله من الأموال ، خيراتِ الآخرة بالعمل فيها بطاعة الله ﴿ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ولا تترك حظك من الدنيا فتعمل بما ينجيك غداً من عقاب الله ﴿ وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ وأحسن بإنفاق مالك في وجوهه ، كما أحسن الله إليك فوسع عليك ﴿ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾ ولا تلتمس البغي على قومك ، إن الله لا يحب المفسدين في الأرض بالمعاصي ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ قال قارون : إنما أُعطيت هذه الكنوز ، على فضل علم عندي ، فضلني الله به عليكم ﴿ أَوَ لَمْ

(١) قيل : إنه كان ابن عم موسى وهو قول قتادة .

جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ
ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

***

يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ أولم يعلم قارون ، أن الله قد أهلك من قبله من الأمم ، من هو أشد منه بطشاً ، وأكثر جمعاً للأموال ؟ ﴿ **وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ** ﴾ لا يُسألون عن جرائمهم بل يدخلون النار بغير حساب ﴿ **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ** ﴾ فخرج قارون على قومه في ثياب زينته ﴿ **قال الذين يريدون الحياة الدنيا** ﴾ قال الذين يريدون زينة الحياة الدنيا ﴿ **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ** ﴾ يا ليتنا أُعطينا مثل ما أعطي قارون، من الزينة والمال ﴿ **إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ إنه لذو نصيبٍ من الدنيا عظيم

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** ﴾وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله ، وجزاؤه لمن آمن به وعمل بما جاءت به الرسل ، خيرٌ مما أوتي قارون من زينة ومال ﴿ **وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ** ﴾ ولا يوفق إلى ذلك إلاالذين آثرواماعندالله على لذات الدنيا وشهواتها ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ** ﴾ فخسفنا بقارون وأهلِ داره الأرضَ ﴿ **فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ** ﴾ فلم يكن له جندٌ ينصرونه ممَّا نزل به من سخط الله ﴿ **وَمَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ** ﴾ ولا كان ممن يمتنع من نقمة الله لقوته ﴿ **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ** ﴾ وأصبح الذين طلبوا مكان قارون من الدنيا وغناه . ﴿**يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِزقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ**﴾ يقولون : ألم تر يا هذا[١] أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لا لكرامته عليه ، ويضيق على من يشاء من عباده لا لهوانه عليه ؟ ﴿ **لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا** ﴾ لولا أن تفضَّل الله علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه ، لخسف بنا الأرض ﴿ **وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ** ﴾ ألم تعلم أنه لا يفوز الكافرون بطلباتهم !! ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَاداً** ﴾ نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبراً عن الحق في الأرض ، ولا

(١) ويكأنَّ كلمة تفيد التعجب مكونة من « وَيْ » بمعنى أعجب و « كأنَّ » التي هي للتشبيه ومعناها اعجب يا هذا

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾
وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ
عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا
ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

***

يعملون بمعاصي الله فيها ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والجنة للذين اتقوا الله ، وأدوا فرائضه .

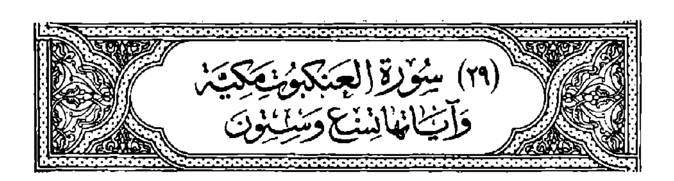
﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ من جاء يوم القيامة بإخلاص التوحيد ، فله النعيم الدائم في الجنة[١] ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ومن جاء بالشرك فلا يثاب الذين أشركوا ، الإ جزاء ما كانوا يعملون في الدنيا ﴿ إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد ، لرادك إلى مكانك حيث ولدت في مكة المكرمة[٢] ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ قل يا محمد للمشركين : ربي أعلم بمن سلك طريق الهدى فنجا ، ومن هو في جور عن قصد السبيل ظاهر !! ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ وما كنت يا محمد تأمل أن يُنزل عليك ربك هذا القرآن فتعلم ما فيه ، لكنَّ ربك رحمك فأنزله عليك ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ﴾ فاحمد ربك ، ولا تكن عوناً لمن كفر بالله ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ ولا يصرفنك هؤلاء المشركون عن تبليغ آيات الله ، بعد أن أنزلها إليك ربك ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ ولا تتركن تبليغ رسالته ، فتكون ممن فعل فعل المشركين ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ ولا تعبد يا محمد معبوداً آخر سواه ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود تصلح العبادة له إلا لربك ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ كل شيء هالك لا محالة ، إلَّا هو سبحانه ﴿ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ له الحكم بين خلقه ، وإليه تردون بعد مماتكم ، فيجازي كلًّا بعمله بالعدل .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص »

---

(١) أوَّل الإمام ابن جرير الحسنة بالإيمان ، والسيئة بالشرك ، لأنها أساس قبول العمل ، فلا تقبل الحسنات ولو كثرت إذا كان صاحبها مشركاً ، والأولى أن تحمل الآية على عمومها أي ثواب الله خير من حسنة العبد مهما كانت هذه الحسنة فإن الله يضاعف الحسنات ، ويجازي على السيئات بالمثل دون زيادة .

(٢) في هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله برده إلى مكة التي هاجر منها ، وقيل : المراد بالمعاد الرد إلى الآخرة بعد الموت



بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ

* * *

﴿الٓمٓ﴾[1] ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ أظنَّ أصحابك أن نتركهم بلا ابتلاء وامتحان ، بأن قالوا آمنا بك وصدقناك ؟ ! كلا سنختبرهم ليتبين الصادق منهم من الكاذب ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . ولقد اختبرنا من قبلهم من الأمم ، ممن أرسلنا إليهم رسلنا ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ فليُظهِرنَّ اللهُ صدق الصادق منهم ، من كذب الكاذب بابتلائه ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أم ظن الذين يعبدون غير الله ، أن يُعجزونا فلا نقدر عليهم ، فننتقم منهم ! ؟ ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُون ﴾ بئس حكمهم ذلك ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ ﴾ من كان يرجو الله يوم لقائه ، ويطمع في ثوابه ، فإن أجل الله للجزاء والعقاب لقريب ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ السميعُ لقول القائل ، العليمُ بصدق قوله ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ ومن جاهد عدوه فإنما يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله ، والهرب من عقابه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ مستغنٍ عن جميع خلقه ، لا حاجة له إلى فعل عبد ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُو الصَّالِحَاتِ ﴾ والذين صدقوا بالله وبرسوله وعملوا الصالحات ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ التي سلفت منهم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ

(١) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ
عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن
جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ
مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾

* * *

الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولنثيبنهم على صالحات أعمالهم ، أحسن ما كانوا يعملونه .

﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً** ﴾ ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه حسناً ﴿ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ وإن جاهدك والداك لتشرك بربك ، وتجعل له شريكاً ما ليس بشيء ﴿ **فَلَا تُطِعْهُمَا** ﴾ في ذلك ابتغاء مرضاتهما ولكن خالفهما﴿ **إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[1] إلي مصيركم يوم القيامة ، فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا ، ثم أجازيكم المحسن بالإحسان ، والمسيء بما هو أهله ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** ﴾ والذين أدوا فرائض الله واجتنبوا محارمه ، لندخلنهم الجنة مدخل الصالحين ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ** ﴾ ومن الناس من يقول أقررنا بالله فوحدناه ﴿ **فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ** ﴾ فإذا آذاه المشركون في إقراره ، جعل أذى الناس له في الدنيا كعذاب الله في الآخرة ، فارتد عن إيمانه راجعاً إلى الكفر ﴿ **وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ** ﴾ ولئن نصر الله أهل الإيمان، ليقولن المرتدون كذباً وإفكاً : إنا كنا معكم ننصركم على أعدائكم ﴿ **أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** ﴾ أوليس الله بأعلم بما في صدور جميع خلقه ، فكيف يخادَع من لا يخفى عليه خافية ؟ ﴿ **وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ﴾ وليُعلِمن اللّهُ أولياءه أهلَ الإيمان[2] وأهل النفاق ، بالمحن والابتلاء ، حتى يميزوا كل فريق عن الآخر ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنحمل خطاياكم** ﴾ وقال الكفار للمؤمنين كونوا على مثل ما نحن عليه من التكذيب بالآخرة ، فإنكم إن اتبعتم سبيلنا ، فبعثتم بعد الممات ، فإنا نتحمل آثام خطاياكم حينئذ ﴿ **وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ ما هم بحاملين من آثام خطاياهم

---

(١) نزلت في قصة إسلام « سعد بن أبي وقاص » مع أمه المشركة

(٢) نبه الطبري إلى أن معنى يعلم الله المؤمن والمنافق ، إنما هو إعلام المؤمنين وإطلاعهم على ذلك، لا أنه يعلمهم بعد الابتلاء

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ
قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ
وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا
فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا
عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾

* * *

من شيء ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما قالوا لهم ، ووعدوهم به من حمل خطاياهم ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وليحملنَّ هؤلاء المشركون آثام أنفسهم ، وأوزار من أضلوهم مع أوزارهم ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ عما كانوا يكذبونهم من الأباطيل .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسينَ عَاماً ﴾ يدعوهم إلى التوحيد وفراق الأوثان ، فلم يقبلوا منه ، ولم تزدهم دعوته إلا فراراً[(١)] ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمونَ ﴾ فأهلكهم الله بالغرق بالماء الكثير ، وهم ظالمون أنفسهم بكفرهم ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ فأنجينا نوحاً وأصحاب سفينته ، وجعلنا السفينة ومن فيها عبرة للعالمين ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اَعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ واذكر يا محمد ايضاً إبراهيم حين قال لقومه : اعبدوا الله ، واتقوا سخطه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ ذَلِكُمْ خَيرٌ لَكُم ﴾ إن فعلتم ذلك حصل لكم الخير ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما هو خير لكم مما هو شر لكم ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثَاناً ﴾ إنما تعبدون أيها القوم من دون الله أصناماً لا آلهة ﴿ وتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ وتصنعون كذباً وباطلاً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ﴾ إن أوثانكم التي تعبدونها لا تقدر أن ترزقكم شيئاً ﴿ فابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ ﴾ فالتمسوا الرزق عند الله ، تُدركوا ما تبتغون ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ وذلوا للّهِ، واشكروه على رزقه ونعمه ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى الله تردون بعد مماتكم ، فيسألكم عن أعمالكم ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ وإن تكذبوا رسولنا محمداً ﷺ فقد كذبت جماعاتٌ من قبلكم رسلها ، فنزلت بهم عقوبة الله ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ وما على محمد إلاَّ أن يبلغكم رسالة الله ، بلاغاً يُبين لمن سمعه

(١) قال الإمام ابن جرير : وهذا وعيد من الله تعالى ذكره للمشركين يقول لنبيه محمد ﷺ «لا يحزننك يا محمد ما تلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى ، فإني وإن أمليتُ لهم فإن مصير أمرهم إلى البوار ، ومصير أمرك وأمر أصحابك إلى العلو والظفر بهم ، والنجاة مما يحل بهم من العقاب كفعلنا ذلك في نوح وقومه »

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ
تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن
قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ
اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ

* * *

ما يراد به ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أو لم يروا كيف يستأنف الله خلق الأشياء ، طفلاً صغيراً ، ثم غلاماً ، ثم رجلاً ، ثم كهلاً ، ثم يُعيده من بعد فنائه ، كما بدأه أول مرة خلقاً جديداً !! ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إنه ذلك على الله سهل ، لا يتعذّر عليه إعادة الخلق ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ﴾ قل يا محمد للمنكرين للبعث : سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الله خلق الأشياء ، وكيف أنشأها ابتداء !! ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ﴾ البدأة الآخرة بعد الفناء ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادرٌ لا يعجزه شيء أراده ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يعذب من يشاء من خلقه ، على ما أسلف من جرمه ، ويرحم من يشاء منهم ، ممن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ وإلى الله ترجعون وتردون ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ وما أنتم أيها الناس بمعجزين الله في الأرض ، ولا مَنْ في السماء معجزين الله إن هم عصوه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ وليس لكم أيها الناس ، من دون الله وليٌّ يلي أموركم ، ولا نصيرٌ ينصركم من الله إن أحلّ بكم عقوبته ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ﴾ والذين كفروا بحجج الله ، وأنكروا أدلته ،وجحدوا لقاءه ، ﴿ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ يئسوا من رحمة الله في الآخرة ، حين عاينوا العذاب ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولهم عذاب موجع .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ فلم يكن جواب قوم إبراهيم له ، إلاَّ أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه أو حرقوه بالنار ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ فأضرموا له النار ، فأنجاه الله منها ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إن في إنجاء الله لإبراهيم ،لحججاً لقوم يصدقون بالأدلة إذا رأوها ﴿ وقال إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ وقال إبراهيم لقومه : يا قوم إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً ، تتحابون على عبادتها ، وتتوادون على خدمتها ، ثم هي بعد الحياة منقطعةٌ

ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ
ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

* * *

﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ثم يوم القيامة يتبرأ بعضكم من بعض ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ ويسبُّ بعضكم بعضاً ، لأن كل خلة تصير يوم القيامة عداوة على أهلها ، إلَّا خلةَ المتقين ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ومصير جميعكم النارُ ، وليس لكم من أنصار ، ينصرونكم من الله ، فينقذونكم من عذابه ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ فصدَّق إبراهيمَ لوطٌ ، وقال إبراهيم[1] : إني مهاجر من دار قومي إلى الشام من أجل ربي ﴿ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ العزيزُ الذي لا يذل من نصره ، الحكيمُ في تدبير خلقه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ ﴾ ورزقناه من لدنا « إسحٰق » ولداً ، و « يعقوب » من بعده ولد ولد ، وجعلنا في ذريته النبوة ، والكتب المنزَّلة . ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وأعطيناه ثواب بلائه فينا في الدنيا ، وله في الآخرة أيضاً جزاء الصالحين .

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحدٍ مِنَ العَالَمِينَ ﴾ واذكر لوطاً حين قال لقومه : إنكم لتأتون الذكران ، ما سبقكم بهذه الفاحشة أحدٌ من العالمين قبلكم ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ أئنكم لتأتون الرجال في أدبارهم ؟ ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ وتقطعون طريق المسافرين عليكم بفعلكم الخبيث ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المُنْكَرَ ﴾ وتحذفون في مجالسكم المارة وتسخرون منهم[2] ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فلم يكن جواب قوم لوط إلا قولهم : ائتنا بعذاب الله الذي تعدنا به ، إن كنت صادقاً فيما تقول ، ومنجزاً لما تعد ﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي

---

(١) الضمير يحتمل العود إلى لوط لأنه أقرب مذكور وهو قولٌ لبعض المفسرين ، ولكن سياق الآيات يتحدث عن إبراهيم عليه السلام ، فلذلك اختار الإمام ابن جرير عود الضمير إليه ، والمعروف كما ورد في السنة أن الشام مهاجر إبراهيم عليه السلام .

(٢) الآية عامة في كل منكر ، ولكن الإمام ابن جرير ذهب إلى هذا لأنه مروي عن رسول الله ﷺ، قالت ام هانيء :سألت رسول الله ـ ﷺ عن قوله تعالى﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال « يحذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » والحديث رواه الإمام ابن جرير والإمام أحمد والترمذي وابن أبي حاتم .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ
رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾
إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾

* * *

﴿ عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فدعا لوط ربه أن ينصره على قومه ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى ﴾ ولما جاءت الملائكة إبراهيم ، بالبشارة من الله بإسحٰق ، ومن ورائه يعقوب ﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ قالت رسل الله لإبراهيم إنا مهلكوا أهل قرية قوم لوط ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ لأنفسهم بمعصيتهم اللّهِ ، وتكذيبهم لرسوله ﴿ قَالَ إِنَّ فيهَا لُوطاً ﴾ قال إبراهيم إن فيها لوطاً ، وليس من الظالمين ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بمنْ فِيهَا ﴾ فقالت الرسل : نحن أعلم بمن فيها من الكافرين ، وإن لوطاً ليس منهم بل هو من أولياءِ الله ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ ﴾ لننجينَّ لوطاً وأهله من الهلاك ، إلاَّ امرأته كانت ممن أبقتهم الدهور والأيام ، وإنها هالكة مع قومها ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لوطاًسِيءَ بهمْ وَضَاقَ بهمْ ذَرْعاً ﴾ ولما جاءت الملائكة لوطاً ساءه مجيء الملائكة ضيوفاً عليه ، وضاق ذرعه بضيافتهم [1] ، لما علم من خبث فعل قومه ﴿ وَقَالُوا لاَ تَخَفْ ولاَ تَحْزَنْ ﴾ قالت الرسل : لا تخف علينا أن يصل إلينا قومك ، ولا تحزن مما أخبرناك من هلاكهم ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأتَكَ كَانَتْ مِنَ الغَابِرينَ ﴾ إنا منجوك من العذاب الذي هو نازل بقومك ، ومنجوا أهلك معك ، إلا امرأتك فإنها هالكة فيمن هلك ﴿ إِنَّا مُنْزِلونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ رِجْزاً مَنْ السَّمَاءِ ﴾ إنا منزلون على أهل هذه القرية عذاباً من السماء ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بما كانوا يأتون من معصية الله ، ويركبون الفاحشة ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾ ولقد أبقينا من فعلتنا عبرة بينة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ عن الله حججه ، ويتفكرون في مواعظه

﴿ وَإِلَى مَدْينَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً ، فقال لهم : يا قوم اعبدوا الله وحده ، واخضعوا له ﴿ وارْجُوا اليَوْمَ الآخِرَ ﴾ وارجوا بعبادتكم إياه ، جزاء اليوم الآخر ﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ولا تكثروا في الأرض بمعصية الله ، ولكن توبوا إلى الله منها

(١) معنى ﴿ضاق بهم ذرعاً﴾ أي ضاق صدره من مجيئهم خوفاً عليهم من الأخباث ، فقد جاءوه بصورة شباب مرد ، فظنهم من البشر

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ
ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

* * *

﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ فكذبوا شعيباً فأخذتهم رجفةُ العذاب ، فأصبحوا موتى بعضهم على بعض ﴿ **وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ** ﴾ واذكروا أيها القوم عاداً وثمود ، وقد تبيَّن لكم خراب مساكنهم ، وخلاؤها منهم ، بحلول سطوتنا بهم ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ وحسَّن لهم الشيطان كفرهم ، فردَّهم عن الإيمان بالله ﴿ **وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** ﴾ يحسبون أنهم على هدى وصواب ، وهم على ضلال(١) ﴿ **وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ** ﴾ واذكر يا محمد « قارون وفرعون وهامان » ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بالبيِّنَاتِ** ﴾ ولقد جاءهم موسى بالواضحات من الآيات ﴿ **فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ فاستكبروا في الأرض عن التصديق بآيات الله﴿ **وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ** ﴾ وما كانوا ليفوتونا ، بل كنا مقتدرين عليهم ﴿ **فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ** ﴾ فأخذنا جميع هؤلاء المذكورين بعذابنا ﴿ **فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيهِ حاصِباً** ﴾ كقوم لوط أرسلنا عليهم حجارة من سجيل منضود ﴿ **ومنهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ** ﴾ وهم ثمود ومدين ﴿ **ومنهُم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ** ﴾ وهو قارون ﴿ **وِمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا** ﴾ وهم قوم نوح ، وفرعون وقومه ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمهُمْ** ﴾ لم يكن الله ليهلك هذه الأمم بذنوب غيرهم فيظلمهم بذلك ، ﴿ **وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ وإنما أهلكهم بكفرهم وجحودهم ، فظلموا أنفسهم بمعصيتهم ربهم ، وعبادتهم غيره ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ** ﴾ مثل الكفار الذين اتخذوا الآلهة والأوثان أولياء ، يرجون نصرها ونفعها ، في سوء اختيارهم ، وضعف احتيالهم ﴿ **كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً** ﴾ كمثل العنكبوت في ضعفها وقلة احتيالها ، اتخذت لنفسها بيتاً فلم يغن عنها شيئاً ﴿ **وإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ** ﴾ إن أضعف البيوت لبيتُ العنكبوت ﴿ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾

---

(١) هكذا فسَّرها الطبري، وقال غيره من المفسرين « وكانوا مستبصرين يملكون التبصر لأن لهم عقولاً ومدارك يميزون بها بين الخير والشر، والهدى والضلال ، وهذا المعنى أدق

(٢) هذا مثل ضربة الله للكفار في عبادتهم للأوثان والأحجار ، بمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً تحتمي به من الأهوال والأخطار ، ولكنه =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

* * *

ولكنهم يجهلون ذلك فيحسبون أنهم ينفعونهم ، ويقربونهم إلى الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ يعلم حال ما تعبدون من الأوثان ، وأن ذلك لا ينفعكم ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾العزيزُفي انتقامه ممن كفربه ، الحكيم في تدبيره خلقه

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ وهذه الأمثال نمثّلها ونحتج بها للناس ﴿ وَمَا يَعْقِلُها إِلاَّ العَالِمونَ ﴾ وما يعقل أنه أريد بهذه الأمثال الحق ، إلا العالمون بالله وآياته . ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ خلقهما منفرداً لا يشركه في خلقهما شريكٌ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إن في ذلك لحجة ، لمن صدَّق بالحجج والآيات إذا رآها﴿ آتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾إقرأ يا محمد ما أنزل إليك من هذا القرآن ، وأدِّ الصلاةَ التي فرضها الله عليك بحدودها ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ﴾ إن الصلاة تحول بين المصلي وبين إتيان الفواحش ، ففي إقامة المرء الصلاة ، مزدجرٌ عن الفحشاء والمنكر ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ولذكر الله إياكم ، أفضلُ من ذكركم إيّاه[١] ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ لا تخفى عليه أحوالكم وأموركم ، وهو مجازيكم على ذلك . ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ولا تجادلوا أيها المؤمنون اليهود والنصارى ، إلا بالجميل من القول ، بالدعاء لهم إلى الله ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ ﴾ إلا الذين امتنعوا عن أداء الجزية ، ونصبوا الحرب فجالدوهم بالسيف ، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِليْكُمْ ﴾ وإذا حدثكم أهل الكتاب فقولوا لهم : آمنا بالذي أنزل إلينا من القرآن ، وبالذي أنزل إليكم في التوراة والإنجيل ﴿ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ومعبودنا ومعبودكم واحد ، ونحن خاضعون للّهِ ،

= ضعيف واهٍ في غاية الوهن والضعف .

(١) هكذا فسره الطبري وهو منقول عن ابن عباس فقد سأله رجل عن معنى الآية فقال : ذكرُ الله العبادَ أكبر من ذكر العباد له ، وقال بعض المفسرين المعنى : ذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا ، وهو أن تتذكر عظمته وجلاله ، فتذكره في صلاتك ، وفي بيعك وشرائك ، وفي جميع شئون حياتك ، ولا تغفل عنه في ليل ولا نهار ، وهو تفسير بديع .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا
يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾
بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ
مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

*** *

متذللون له بالطاعة

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيكَ الكِتَابَ ﴾ وكما أنزلنا الكتب على الرسل ، أنزلنا إليك هذا القرآن ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ فالذي آتيناهم الكتاب من بني إسرائيل يؤمنون بالقرآن ، ومن هؤلاء الذين هم بين ظهرانيك من يؤمن به ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إلَّا الكَافِرُونَ ﴾[1] وما ينكر أدلتنا إلَّا الذي يجحد ربوبيتنا عناداً منه ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ وما كنت يا محمد تقرأ قبل هذا القرآن من كتاب ، ولا تكتب بيمينك شيئاً لأنك أميٌّ ﴿ إِذاً لَارْتَابَ المُبْطِلُونَ ﴾ إذاً لشك في أمرك المبطلون ، القائلون إنه كهانةٌ وأساطير الأولين ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾ بل العلم بأنك ما كنت قارئاً ولا كاتباً، آياتٌ واضحات في صدور الذين أوتوا لعلم من أهل الكتاب[2] ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ وما يجحد نبوة محمد ﷺ ، إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وقال المشركون : هلاَّ أنزل على محمد آية من ربه ، تكون حجة لله علينا ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قل لهم يا محمد إن الآيات عند الله ، لا يقدر على الإتيان بها غيره ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أنذركم بأس الله وعقابه ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيهِمْ ﴾ أو لم يكف هؤلاء المشركين ، أنَّا أنزلنا هذا القرآن يقرأ عليهم[3] ؟ ! ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إن في هذا الكتاب لرحمة للمؤمنين به، وعظةً وعبرة يتذكرون بما فيه

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ قل يا محمد : كفى الله شاهداً بيني وبينكم ، يعلم المحقَّ

---

(١) قال العلماء : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وعند ابن جرير أنه لا تعارض بينها وبين آية السيف ، فالجدال لمن دفع الجزية وبقي في أرض الإسلام ، والسيف لمن أبى حكم الإسلام .

(٢) يريد أن أهل الكتاب يعلمون صفة النبي ﷺ وأنه أمي مما قرأوه في كتبهم ، لأنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ومن المفسرين من جعل الضمير للقرآن ، قال ابن كثير : أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق يحفظه العلماء

(١) وفي الحديث « ما من الأنبياء من نبيّ إلا قد أعطي من الآيات ، ما مثلُه آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فارجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » رواه الشيخان .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى
لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾
يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

* * *

منا من المبطل ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لا يخفى عليه شيء فيهما ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ والذين صدَّقوا بالشرك ، وجحدوا بالله ، أولئك هم المغبونون في صفقتهم ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ويستعجلك يا محمد المشركون بالعذاب[1] ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ ﴾ ولولا وقتٌ سميته لهم ، فلا أهلكهم حتى يبلغوه ، لجاءهم العذاب عاجلاً ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وليأتينهم العذاب فجأة ، وهم لا يشعرون بوقته ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ ﴾ يستعجلك المشركون يا محمد بمجيء العذاب ، والنار محيطة بهم لم يبق لهم إلا أن يدخلوها ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يوم يغشى[2] الكافرين العذاب من فوقهم في جهنم ، ومن تحت أرجلهم ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ويقول الله لهم : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ يا عبادي الذين آمنوا بي وبرسولي ، إن أرضي واسعة ، فاهربوا ممن منعكم من العمل بطاعتي ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ فأخلصوا لي عبادتكم وطاعتكم ، ولا تطيعوا في معصيتي أحداً من خلقي ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ كل نفسٍ حيةٍ ذائقة الموت ، ثم إلينا بعد الموت تُردُّون .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الجَنَّةِ غُرَفاً ﴾ والذين صدَّقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم الله ، لننزلنَّهم من الجنة علالي[3] ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ تجري من تحت أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾ نعم هذا الجزاء ، جزاءُ العاملين بطاعة الله ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الذين صبروا على أذى المشركين ، وعلى ربهم

---

(١) استعجالهم بالعذاب هو قولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

(٢) أي يجلّلهم ويغطيهم ويحيط بهم العذاب من جميع الجهات

(٣) المراد يسكنهم أعالي الجنة .

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

* * *

يعتمدون في جهاد أعدائهم ، فلا ينكلون ثقةً منهم بنصر الله ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ وكم من دابة ، ذات حاجة إلى غذاء ومطعم ومشرب ، لا تحمل غذاءها فترفعه في يومها لغدها ، لعجزها عن ذلك(١) ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ الله يرزقها ويرزقكم يوماً بيوم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ السميعُ لأقوالكم ، العليم بما في أنفسكم ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ولئن سألت المشركين مَنْ خلق السموات والأرض فسوَّاهن ﴿وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ﴾ يجريان دائبين لمصالح خلق الله ؟! ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ليقولن ـ مقرين ـ الله خلق ذلك وفعله ﴿ فأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فأنى يصرفون فيعدلون عن إخلاص العبادة له ؟

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ الله يوسع رزقه لمن يشاء من خلقه ، ويضيِّق فيقتِّر لمن يشاء منهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عليم بمصالحكم ، وما يصلح لكم من البسط والتقتير ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ ولئن سألتهم من نزَّل من السماء المطر ، فأحيا النبات فيها ، بعد جدوبها وقحوطها ؟ ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ليقولن : الذي فعل ذلك هو الله تعالى ﴿ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ إذا قالوا ذلك ، فقل الحمد لله ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعقلون ما فيه النفع وما فيه الضر ، فيحسبون لجهلهم أنَّ عبادتهم للأوثان تقرِّبهم إلى الله

﴿ وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ وما هذه الحياة الدنيا إلا تعليل النفوس بما تلتذ به ، ثم ينقضي عن قريب لا بقاء له ولا دوام ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ وإن الدار الآخرة لفيها الحياة الدائمة ، التي لا زوال لها ولا موت معها ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لو كان المشركون يعلمون ذلك ، لقصَّروا

---

(١) أشار تعالى إلى أنه قد تكفل برزق جميع الخلق ، فالدابة الضعيفة التي لا تقدر على الكسب يرزقها مع ضعفها ، والغرضُ تقوية قلوب المؤمنين ألا يخافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم ، فكما يرزق الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقهم إذا هاجروا

(٢) إنما أمر بحمد الله على ظهور الحجة ، واستبانة المحجة في بطلان عبادة غير الله تعالى

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ
وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ
اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

***

عن تكذيبهم وإشراكهم[1] ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فإذا ركب المشركون السفينة في البحر ، وخافوا الهلاك فيه ، أخلصوا الدعاء لله عند الشدة ، واستغاثوا به ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فلما سلَّمهم الله وصاروا إلى البر ، إذا هم يدعون الآلهة والأوثان معه أرباباً ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ ليجحدوا نعمة الله التي أنعمها عليهم ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ وكي يتمتعوا آتيناهم ذلك فليكفروا ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ماذا يلقون من عذاب الله بكفرهم ؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ﴾ أولم ير هؤلاء المشركون ، أنَّا جعلنا بلدهم حرماً آمناً ، يأمن فيه من سكنه ؟ ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ وتُسلب الناس من حولهم قتلاً وسباءً ؟ ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أفبالشرك بالله يؤمنون بالأوثان ، وبنعمة الله يجحدون ؟ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذباً ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أو كذَّب بما بعث به رسوله محمداً ﷺ ، من توحيده والبراءة من الآلهة ، لمَّا جاءه الحق من عند الله ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أليس في النار مسكن ومنزلٌ ، لمن كفر بالله وكذَّب رسوله ؟ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ والذين قاتلوا هؤلاء المفترين، مبتغين بقتالهم نصرة ديننا ، لنوفقنَّهم لإصابة الطرق المستقيمة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ مع من أحسن فجاهد وصدق ، بالعون له والنصرة على أعداء الله .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت »

(١) وقيل : المعنى لو كان عندهم فهمٌ وعلمٌ ، لم يؤثروا دار الفناء على دار البقاء .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ
لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ
غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى

***

﴿الٓمٓ﴾[1] ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ غلبت فارسُ الرومَ في أدنى الأرض من أرض الشام إلى أرض فارس ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ والروم من بعد ذلك سيغلبون فارس في بضع سنين ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ لله الأمر من قبل غلبتهم فارس وَمن بعد ذلك يقضي في خلقه ما يشاء ﴿وَيَومَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ ويوم تغلب الروم فارس ، يفرح المؤمنون بنصر الله لهم على المشركين ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ﴾ ينصر الله من يشاء من خلقه على من يشاء ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الشديد في انتقامه من أعدائه ، الرحيم بمن تاب من خلقه ﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعد الله المؤمنين بغلبة الروم فارس ، لأنه ليس في مواعيده خلف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر المشركين لا يعلمون الحقيقة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعلمون ظاهراً من حياتهم الدنيا ، وتدبير معايشهم وما يصلحهم فيها[2] ﴿وَهُمْ عَنِ الأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ وهم عن أمر آخرتهم غافلون لا يفكرون فيه ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أو لم يتفكر المكذبون بالبعث ، خلق الله إياهم من عدم ، ثم صرفهم أحوالاً ،

(١) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) قال ابن عباس : يعلمون أمر معايشهم متى يزرعون ، ومتى يحصدون ، وكيف يغرسون ؟ وهم عن الآخرة ساهون غافلون .

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ
بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾
وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾

* * *

فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر على إعادتهم بعد الفناء ؟ ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ما خلقهما الله إلا بالعدل ، وإقامة الحق ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وأجل مؤقت ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ وإن كثيراً من الناس جاحدون منكرون ، جهلاً منهم بأن معادهم إلى الله

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أو لم يسر هؤلاء المكذبون في البلاد التي يسلكونها للتجارة فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة ، كيف كان عاقبة أمرها في التكذيب ؟ ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ كانوا أشد منهم قوة ، واستخرجوا الأرض وحرثوها ، وعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء ، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم ، فما أغنت عنهم قوتهم وعمارتهم ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاءتهم رسل الله بالواضحات من الآيات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فما كان ليظلمهم بعقابه ، على تكذيبهم رسله وجحودهم آياته ، ولكنهم أنفسهم يظلمون بمعصيتهم ربهم ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى[(١)]﴾ ثم كان آخر أمر من كفر من هؤلاء ، الخَلَّة التي هي أسوأ من فعلهم ، الهلاك في الدنيا والنار في الآخرة ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لأنهم كذبوا بآيات الله ، وكانوا بحجج الله يسخرون ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الله تعالى يبدأ إنشاء جميع الخلق ، ثم يعيده خلقاً آخر بعد إعدامه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثم إلى الله يُردّون ، لفصل القضاء بينهم

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ويوم تجيء الساعة ييأس[(٢)] الذين أشركوا بالله ، ويكتئبون ويتندّمون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شفَعَاءُ﴾ ولم يكن لهؤلاء المجرمين شُفعاء يشفعون لهم عند الله ،

---

(١) السُّوأى : أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم كما قال ابن عباس وقتادة.

(٢) هكذا فسره الطبري وهو منقول عن ابن عباس ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون ، قال القرطبي : والمعروف في اللغة : أبلس الرجلُ إذا سكت وانقطعت حجته .

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ
وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ
ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن
تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ

***

فيستنقذونهم من عذابه ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وكانوا بشركائهم في الضلالة ، يجحدون ولايتهم ويتبرأون منهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ويوم تجيء ساعة الحساب ، يتفرق أهل الإيمان وأهل الكفر ، فيؤخذ بأهل الإيمان إلى الجنان ، وبأهل الكفر إلى النار ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ فأما أهل الإيمان فهم في الرياحين وبين أنواع الزهر في الجنان ، يُسرُّون ويُلذَّذون ، بالسماع وطيب العيش الهني ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وأما الذين جحدوا توحيد الله ، وكذبوا رسله وأنكروا البعث والنشور ، فأولئك قد أحضرهم الله النار ، فجمعهم فيها ليذوقوا العذاب ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حَينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ فسبّحوا الله أيها الناس أي صلُّوا له حين تمسون بصلاة المغرب ، وحين تصبحون بصلاة الفجر ﴿وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ويحمده وحده جميع خلقه ، من سكان السموات من الملائكة ، وأهل الأرض من أصناف الخلق فيها ﴿وَعَشِياً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وسبِّحوه أيضاً في صلاة العصر[1] ، وحين تدخلون وقت الظهر ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾ يخرج بقدرته الإنسان الحيَّ من الماء الميت ، ويخرج الماء الميت من الإنسان الحي ﴿وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وينبت الأرض فيخرج زرعها ، بعد خرابها وجدوبها ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وكما يحيي الله الأرض كذلك يحييكم بعد مما تكم ، فيخرجكم أحياء إلى موقف الحساب .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ومن حججه على قدرته على الإنشاء والإفناء ، خلقه لأبيكم آدم من تراب ، ثم أنتم يا معشر ذريته بشرٌ تتصرفون ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

---

(١) ذهب ابن جرير الى أن العَشِي من زوال الشمس إلى الغروب ، والعشاء من صلاة المغرب إلى العتمة كما قاله الراغب في المفردات ، وقال ابن كثير : العشاء هو شدة الظلام ، وقد أشارت الآية الكريمة إلى الصلوات الخمس كما قال ابن عباس : ﴿حين تمسون﴾ المغرب والعشاء ، ﴿وحين تصبحون﴾ صلاة الصبح ﴿وعشياً﴾ صلاة العصر ﴿وحين تظهرون﴾ صلاة الظهر

بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم
مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾

* * *

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ ومن حججه وأدلته على قدرته أيضاً خلقه لأبيكم آدم من نفسه زوجة ليسكن إليها[١] **﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾** وجعل بينكم بالمصاهرة مودة تتوادون بها ، ورحمكم بها فعطف بذلك بعضكم على بعض **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** إن في ذلك لعبراً لقوم يتفكرون في أدلة الله ، فيعلمون أنه الإلّه الذي لا يعجزه شيء **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** ومن حججه على قدرته ، خلقهُ السموات والأرض من غير شيء **﴿وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾** واختلاف لغاتكم وألوان أجسامكم **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾** لعبراً وأدلة لخلقه ، الذين يعقلون أنه لا يعييه شيء **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** ومن حججه عليكم مخالفتُه بين الليل والنهار ، فجعل الليل تنامون فيه ، وجعل النهار مضيئاً ، لتصرفكم في معاشكم ، والتماسكم فيه من رزق ربكم **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَسْمَعُونَ﴾** إن في فعل الله ذلك لذكرى ، لقوم يسمعون مواعظ الله فيتعظون بها **﴿وَمِنْ آيَاتِه يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوفاً وَطَمَعاً﴾** ومن حججه يريكم البرق ، خوفاً لكم إذا كنتم سفراً أن تمطر فتتأذوا به ، وطمعاً لكم إذا كنتم في إقامة **﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا﴾** وينزل من السماء مطراً ، فيحيي به الأرض الميتة ، فتنبت بعد دروسها **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾** إن في ذلك لعبراً وأدلة ، لقوم يعقلون عن الله حججه .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ ومن حججه على قدرته قيام السماء والأرض ، خضوعاً له بالطاعة **﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾** تخرجون من الأرض مستجيبين لدعوته[٢] **﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾** ولله جميع ما في السموات والأرض ، من مَلَك ، وجن ،

---

(١) قال ابن كثير : «أي خلق لكم من جنسكم إناثاً تكون لكم أزواجاً ، وذلك من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، ولو أنه تعالى ،جعل الإناث من جنس آخر ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم ، وهذا القول أظهر والله أعلم .

(٢) المراد إذا دعيتم إلى الخروج من القبور للحساب والجزاء ، وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ، يقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة إلا قامت تنظر .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾
ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ
كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى
مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

* * *

وإنس مِلْكٌ وعبيدٌ ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ كل له مطيعون في الحياة والبقاء ،والموت والفناء ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يبدأ الخلق من غير أصل ، فينشئه بعد أن لم يكن ثم يفنيه ، ثم يعيده كما بدأه ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وهو أيسرُ عليه[1] ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولله المثل الأعلى ، وهو أنه ليس كمثله شيء ، في السموات والأرض ﴿وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبير خلقه ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مارَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ مثَّل الله لكم مثلاً من أنفسكم ، هل لكم أيها الناس من عبيدكم ومماليككم ، من شركاء فيما رزقناكم من المال ، فأنتم وهم فيه سواء ؟ ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ تخافون أن يقاسموكم ذلك المال ، كخوف بعضكم بعضاً أن يقاسمه شريكه المال ، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم ، فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركاء لي في ملكي ، وأنتم وهم عبيدي ومماليكي ؟ ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كما بينا لكم حججنا على قدرتنا ، كذلك نبين حججنا لقوم يعقلون فيتعظون بها ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولكنَّ الكافرين اتبعوا أهواءهم ، جهلاً منهم بحقِّ الله ، فأشركوا في عبادته الأوثان ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ فمن يوفق للإسلام ، من أضله الله عن الاستقامة والرشاد ؟ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وليس لمن أضله الله ، ناصرٌ ينصره فينقذه من الضلال ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ فسدِّدْ وجهك نحو الإسلام الذي وَجَّهَكَ إليه ربك ﴿حَنِيفاً﴾ مستقيماً لطاعته ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ صنعة[2] الله التي خلق الناس عليها ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لا تغيير لدين الله ، ولا ينبغي أن يفعل ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ ذلك هو الدين المستقيم ، الذي لا عوج فيه عن الاستقامة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ لا يعلمون أن الإسلام هو الدين الحق ، دون سائر الأديان ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين

(١) هذا بالنسبة إلى الخلق كما قال الطبري ، وإلاَّ فالكل على الله هيِّنٌ ، وإنما خاطب تعالى العباد ، بما يعقلون .

(٢) فسر الطبري «الفطرة» بمعنى الصنعة ، وقال غيره من المفسرين أي خلقة الله التي خلق الناس عليها ، وهي فطرة التوحيد التي خلقهم الله عليها ، كما في الحديث الصحيح «كلُّ مولود يولد على الفطرة..»

وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ
أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

* * *

إلى الله مقبلين إليه[٢] ﴿**واتَّقُوهُ وأَقِيمُوا الصَّلاَةَ**﴾ وخافوا الله ، وراقبوه أن تركبوا معصيته ﴿**وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ ولا تكونوا من أهل الشرك بالله بتضيعكم فرائضه وارتكابكم معاصيه

﴿**مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً**﴾ من الذين بدَّلوا دينهم وخالفوه ، وكانوا فرقاً وأحزاباً كاليهود والنصارى ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ كل طائفة من هؤلاء متمسكون بما أحدثوه ، مسرورون بما هم عليه من الدين ، يحسبون الصواب معهم ﴿**وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ**﴾ وإذا أصاب هؤلاء المشركين شدةٌ وَقحطٌ ، أخلصوا لربهم التوحيد ، وأفردوه بالدعاء والتضرع ، واستغاثوا به ، تائبين إليه من شركهم وكفرهم ﴿**ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**﴾ ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلك الضر ، وفرَّجه عنهم ، إذا جماعة منهم يعبدون معه الأوثان ﴿**لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ**﴾ كي يجحدوا النعمة التي أنعمتها عليهم ﴿**فَتَمَتَّعُوا فَسَوفَ تَعْلَمُونَ**﴾ فتمتعوا[٢] بما آتيناكم في هذه الدنيا ، فسوف تعلمون عظيم عقابه ﴿**أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ**﴾ أم أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً بتصديق ما يقولون ، فذلك الكتاب ينطق بصِحة شركهم ؟! ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا**﴾ وإذا أصاب الناس منا خصبٌ ، ورخاءٌ ، وعافيةٌ فرحوا بذلك ﴿**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾ وإن تصبهم شدةٌ وبلاء ، بما أسلفوا من سيء الأعمال وركبوا من المعاصي ، إذا هم ييأسون من الفرج ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**﴾ أو لم ير هؤلاء المشركون بعيون قلوبهم ، أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيّق على من أراد ؟ ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ إن في البسط والتضييق ، والغنى والفقر لدلالة واضحة ، لمن صدَّق بحجج الله وأقرَّ بها

---

(١) الخطاب للنبي ﷺ ولأمته والمعنى أقم وجهك يا محمد للدين الحنيف أنت وأمتك
(٢) هذا على وجه الوعيد والتهديد لا على سبيل الإباحة والأمر

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ
ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ
سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى
عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

* * *

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فأعط يا محمد قريبك حقه من الصلة والبر، وأعط المسكين والغريب المنقطع في سفره، ما فرض الله لهما من الإحسان ﴿ذَلِكَ خَيرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ إيتاء هؤلاء حقوقهم، خيرٌ للذين يريدون ثواب الله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بما ابتغوا

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباًلِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُواعِنْدَ اللَّهِ﴾ . وما أعطيتم من عطيَّة، لتزداد في أموال الناس فلا يزداد عند الله، لأن صاحبه لم يبتغ في عطائه وجه الله ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُضْعِفُونَ﴾ وما أعطيتم من صدقة، ملتمسين بذلك وجه الله، فأولئك هم الذين لهم الضعف، من الأجر والثواب[1] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ الله الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً، ثم رزقكم ولم تكونوا تملكون شيئاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ثم هو يميتكم، ثم يحييكم بعد مماتكم ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل من آلهتكم التي تجعلونهم لله شركاء، من يقوم بالخلق والرزق، والإماتة والإحياء؟! فكيف تعبدون من لا يفعل شيئاً من ذلك؟! ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً وعلواً لله، عن شرك هؤلاء المشركين ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ظهرت المعاصي في كل مكان، من برِّ الأرض وبحرها، وانتشر الظلم فيها، بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ ليصيبهم الله بعقوبة بعض أعمالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ كي ينيبوا إلى الحق، ويتركوا المعصية ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ قل للمشركين: سيروا في البلاد، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا من قبلكم كيف كان عاقبة كفرهم وتكذيبهم؟ ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لمن بعدهم؟ ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أهلكناهم لأن

(١) نبَّه تعالى إلى أن الصدقة يتضاعف أجرها، وأن الربا يمحقه الله كما قال تعالى ﴿يمحق الله الربا ويُربي الصدقات﴾

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ
وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

* * *

أكثرهم كانوا مشركين بالله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ﴾ فوجِّهْ وجهك يا محمد نحو الملة[1] المستقيمة ، التي لا اعوجاج فيها عن الحق ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَامَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ من قبل مجيء يوم عصيب ، لا محالة من مجيئه ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ في ذلك اليوم يتفرق الناس فرقتين فريق في الجنة ، وفريق في السعير ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ من كفر بالله ، فعليه أوزار كفره ، وآثام جحوده ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ ومن أطاع الله ، فعمل بما أمره وانتهى عما نهاه عنه ، فلأنفسهم يسوُّون المضجع ، ليسلموا من عقاب ربهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ليجزي الله الذين آمنوا وعملوا بما أمرهم الله ، من فضله الذي وعد به من أطاعه ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ لا يحب أهل الكفر به ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ ومن أدلته على وحدانيته وحججه عليكم ، أن يرسل الرياح مبشراتٍ بالغيث والرحمة ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ولينزل عليكم الغيث ، الذي يُحيي به البلاد ﴿وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ ولتجري السفن في البحار بأمره تعالى ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ولتلتمسوا من أرزاقه التي قسمها بينكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا ربكم على ذلك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً إلى قومهم الكفرة فجاءوهم بالواضحات من الحجج الدالة على صدقهم، فكذبوهم كما كذبك قومك ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ فانتقمنا من الذين أجرموا واكتسبوا السيئاتِ ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين على الكافرين ، ونحن ناصروك ومن آمن بك ، على من كفر بك[2] ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ الله يرسل الرياح فتنشىء[3] سحاباً ، فينشره الله ويجمعه في السماء كيف يشاء ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾ ويجعل

---

(١) المراد بها ملة الإسلام التي وجهه إليها ربه بقوله ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾.

(٢) الآية تسلية للنبي ﷺ ووعدٌ له بالنصر والظفر على الأعداء.

(٣) فسر ابن جرير «فتثير» بمعنى تنشىء، وقال غيره تحرك السحاب وتسوقه أمامها وهو أظهر.

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ
يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن
ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

* * *

السحاب قطعاً متفرقة ﴿فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾ فترى المطر يخرج من بين السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرونَ﴾ فإذا صرف ذلك المطر ، إلى أرض من أراد من خلقه ، رأيتهم يفرحون به ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ وكان هؤلاء قبل أن ينزل عليهم المطر ، مكتئبين حزنين باحتباسه عنهم ﴿فَانْظُرْ إِلى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا﴾ فانظر يا محمد إلى آثار الغيث الذي أنزله الله ، كيف يحيي الأرض الميتة فينبتها ويعشبها ؟ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ان الذي يحيي الأرض بعد موتها بهذا الغيث ، لمحيي الموتى من بعد موتهم ، وهو قادر على كل شيء ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَراً﴾ ولئن أرسلنا ريحاً مفسدة فرأوا ما أنبته الغيث مصفراً ، قد فسد بتلك الريح ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ لظلوا من بعد فرحتهم ، يكفرون بربهم ﴿فَإِنَّكَ لاَتُسْمِعُ المَوتَى﴾ فإنك يا محمد لا تقدر أن تفهم هؤلاء المشركين ، الذين قد ختم الله على أسماعهم ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوا مُدْبِرِينَ﴾ كما لا تقدر أن تسمع الصمَّ ، الذين سُلبوا السمع الدعاء ، إذا هم ولوا عنك مدبرين فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء، لسماع آيات الكتاب ، وفهمه ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ العُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ﴾ وما أنت يا محمد بمرشد من أعماه الله عن الاستقامة ، فصارفُه عن ضلالته التي هو عليها[1] ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا﴾ ماتسمع ـ سماع انتفاع ـ إلاّ من يصدّق بآياتنا ﴿فهم مُسْلِمُونَ﴾ فهم خاضعون لله ، متذللون لمواعظ كتابه .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ الله الذي خلقكم من نطفة وماء مهين ، ثم جعل لكم قوة من بعد ضعفكم بالطفولة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ ثم جعل لكم الضعف بالهرم والكبر ، بعد أن كنتم أقوياء في شبابكم ، وأحدث لكم الشيب ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يخلق ما يشاء من ضعف ، وقوة ، وشباب ، وشيب ﴿وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ﴾ وهو العليمُ بتدبير خلقه ، والقديرُ على ما

(١) هذا مثل ضربه الله للكفار في عدم انتفاعهم بالمواعظ ، فشبههم بالموتى وبالصمّ والعمي .

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ
لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

***

يشاء ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ويوم تجيء ساعة البعث ، يحلف الكفار بأنهم لم يلبثوا في قبورهم ، غير ساعةٍ واحدة ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ كذلك كانوا في الدنيا ، يصرفون عن الصدق إلى الكذب ، كما كذبوا في قولهم : ما لبثنا غير ساعة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ وقال أهل العلم والإيمان : لقد مكثتم فيما كتب الله لكم في سابق علمه ، إلى يوم البعث الموعود ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ فهذا يوم البعث من القبور ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كنتم في الدنيا لا تعلمون أنكم مبعوثون ولذلك كنتم تكذّبون ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فيوم البعث لا ينفع المكذبين اعتذارهم وقولهم : ما علمنا أنا نبعث ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترجعون عما كانوا يكذبون به في الدنيا[1] ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد مثَّلنا للناس في هذا القرآن من كل الأمثال احتجاجاً عليهم ، وتنبيهاً لهم على وحدانية الله ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ ولئن جئتهم بدلالة على صدقك ﴿ليقولَنَّ الذين كفروا﴾ ليقولن الذين جحدوا رسالتك ﴿إن أنتم إلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ما أنتم أيها المصدقون لمحمد ، إلَّا مبطلون في هذه الأمور ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كذلك يختم الله على قلوب الكفرة ، الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به يا محمد ، فلا يفقهون ولا يفهمون ما يتلى عليهم ، فهم في طغيانهم يترددون ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فاصبر يا محمد لما ينالك من أذاهم ، فإن وعد الله الذي وعدك من النصر عليهم ، وتمكين أصحابك حقٌّ ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ولا يستخفن حلمك ورأيك ، هؤلاء المشركون الذين لا يوقنون بالمعاد ، فيثبطوك عن أمر الله ، وتبليغ رسالته .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم »

***

(١) هكذا فسره الطبري ، وقال غيره : لا يطلب منهم الرضا ، فلا يقال لهم : أرضوا ربكم بطاعة أو توبة ، لأنه قد فات أوان التوبة ، وهو الأرجح



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

* * *

﴿الٓم . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ هذه آيات القرآن الحكيم[١] **﴿هُدَىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾** بياناً وتفصيلاً من الله ، ورحمة للذين أحسنوا عملهم بما في هذا الكتاب **﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** الذين يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها ، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم **﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾** وهم بجزاء الله ، وثوابه لمن فعل ذلك في الآخرة يوقنون **﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾** هؤلاء على نورٍ من ربهم ، وهم المدركون ما رَجَوا وأمّلوا من الثواب يوم القيامة **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** يشتري ما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله ، ممَّا نهى الله عن استماعه أو رسوله ، ليصدَّ عن دين الله وطاعته **﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** جهلاً منه بما له عند الله ، من الوزر والإثم **﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾** ويستهزىء بطاعة الله ودينه **﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** هؤلاء لهم عذابٌ مذلٌ مخزٍ في نار

---

(١) إنما ناسب وصف الكتاب هنا بوصف « الحكيم » لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة الكريمة الحكمة التي منحها الله لعبده « لقمان » والحِكَم التي نطق بها في وصاياه ، وهي دُرر ثمينة .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا
فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

* * *

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ وإذا قرئت عليه آيات كتاب الله ، أدبر عنها واستكبر ، كأنه لم يسمعها ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ كأنَّ في أذنيه ثقلاً ، فلا يطيق من أجله سماع الحق ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فبشِّر هذا المعرض ، بعذاب موجع له يوم القيامة[١] ﴿ إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إن الذين آمنوا بالله فوحَّدوه ، وصدَّقوا رسوله واتَّبعوه ، وأطاعوا أمر الله ، وانتهوا عمَّا نهاهم عنه ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ لهؤلاء بساتين يُنعَّمون فيها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿ وَعْدَ اللَّهِ حقاً ﴾ وعدهم الله بذلك وعداً لا شك فيه ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ الشديدُ في انتقامه من الصادِّين عن سبيله ، الحكيمُ في تدبير خلقه .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ومن حكمته أنه خلق السموات السبع ، بغير أعمدة ترونها[٢] ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ وجعل على ظهر الأرض ثوابت الجبال ، لئلا تضطرب بكم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ وفرَّق في الأرض من كل أنواع الدواب ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ وأنزلنا من السماء مطراً ، فأنبتنا بذلك المطر من كل نوع من النبات الحسن ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ هذا الذي خلقته ، هو خلق الله الذي له ألوهية كل شيء ، فأروني ـ أيها المشركون ـ أيَّ شيء خلقته آلهتكم حتى استحقت العبادة ؟ ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ولكنَّ المشركين في عبادتهم للأوثان في جورٍ عن الحق ، وذهابٍ عن الاستقامة ، ظاهر لمن تأمله .

---

(١) نزلت هذه الآيات في « النضر بن الحارث » كان يشتري المغنيات ، فلا يسمع بأحدٍ يريد الإسلام إلاَّ انطلق به إلى قينته المغنّية . فيقول لها : اسقيه خمراً وغنّيه . ويقول له : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصوم والصلاة والقتال بين يديه .

(٢) هذه الجملة الفعلية في موضع نصب على الحال ، أي حال كونكم تشاهدونها بغير أعمدة ، وليست صفة للأعمدة حتى يتوهم وجودها.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

* * *

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾ ولقد أعطينا لقمان[١] الفقه في الدين، والعقل، والإصابة في القول ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أن احمد الله، على ما آتاك من فضله ﴿وَمَنْ يشكر فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ ومن يشكر الله على نعمه، فإنما يشكر لنفسه، لأن الله يجزل له الثواب ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ومن كفر نعمة الله عليه أساء إلى نفسه، لأن الله معاقبه على كفره، واللهُ غنيٌّ عن شكره لا حاجة له إليه، وهو محمودٌ على كل حال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ واذكر يا محمد قول لقمان لابنه وهو ينصحه ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ لا تشرك بالله أحداً من خلقه ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إن الشرك لخطأ من القول عظيم.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ وأمرنا الإنسان ببر والديه، حملته أمه ضعفاً على ضعف، وشدةً على شدة[٢] ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وفطامه في انقضاء عامين ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وعهدنا إليه أن أشكر لله على نعمه، ولوالديك على تربيتهما إياك، حتى استحكمت قواك ﴿إِلَيَّ المَصِيرُ﴾ إلى الله مرجعك أيها الإنسان، وهو سائلك عن ذلك ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وإن جاهدك والداك، على أن تشرك في عبادتك إياي غيري، مما لا تعلم أنه لي شريك ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فيما أراداك عليه من الشرك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ وصاحب والديك في الدنيا بالطاعة لهما، فيما لا تبعةَ عليك فيه ولا إثم[٣] ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ واسلك طريق من تاب ورجع إلى الإسلام، واتبع محمداً ﷺ ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

---

(١) الصحيح الراجح من أقوال المفسرين أنَّ «لقمان» لم يكن نبياً وإنما كان حكيماً، منَّ الله عليه بالحكمة، فكان ينطق بها ويعلّمها الناس، وقد ذكر الله تعالى لنا بعض هذه الحِكَم في هذه السورة الكريمة.

(٢) أوصى تعالى بالوالدين ثم خصَّ الأم بالذكر لبيان ما تقاسيه وما تكابده في سبيل الولد، ولذلك كان حقها أعظم وأكبر من حق الأب.

(٣) لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ
عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾
وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم

* * *

فإن مصيركم ومعادكم بعد مماتكم إليَّ ، فأخبركم بجميع ما كنتم تعملونه من خير وشر ، ثم أجازيكم عليه ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ** ﴾ يا بنيَّ إن الأمر إن تك وزن حبة من خردل ، من خيرٍ أو شرٍ ، فتكن في صخرة ، أو في السموات أو في الأرض ، يأت بها الله يوم القيامة ، حتى يوفيك جزاءه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾ لطيف باستخراج الحبة من موضعها ، خبير بمخبئها[١] ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ** ﴾ يا بني أقم الصلاة بحدودها ﴿ **وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ وأمر الناس بطاعة الله ، واتباع أمره ﴿ **وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ﴾ وانْه الناس عن معاصي الله ومحارمه ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ** ﴾ واصبر على ما يصيبك في ذات الله من الأذى[٢] ، ولا يصدّنك عن ذلك ما ينالك منهم ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ ممَّا أمر الله به من الأمور عزماً منه ﴿ **وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ** ﴾ ولا تعرض بوجهك عمن كلَّمته ، تكبراً واستخفافاً له ﴿ **وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً** ﴾ ولا تسِرْ في الأرض مختالاً ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ إن ربك لا يحب كل متكبر ذي فخر ، لا يشكر ربه ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ** ﴾ وتواضعْ واتَّئد في مشيك إذا مشيتَ ﴿ **وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ** ﴾ واخفض من صوتك ، فاجعله قصداً إذا تكلمت ﴿ **إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ إن أقبح الأصوات لصوت الحمير .

﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ ألم تروا ـ أيها الناس ـ أن الله سخر لكم ما في السموات من شمسٍ ، وقمرٍ ، وسحابٍ ، وما في الأرض من دابةٍ ، وشجرٍ ، وماءٍ ،

(١) الأولى في تفسير الآية أن يقال: إن الله لطيفٌ بعباده ، خبيرٌ ببواطن الأمور .

(٢) قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره .

(٣) قال قتادة : أقبح الأصوات صوتُ الحمير، أوله زفيرٌ وآخره شهيق .

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١) * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

* * *

وبحرٍ، وفلك يجري ذلك كله لمنافعكم وملاذكم ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ وأسبغ عليكم نعمه ، ظاهرةً على الأبدان والجوارح ، وباطنةً في القلوب، اعتقاداً ومعرفة[1] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى﴾ ومن الناس من يخاصم في توحيد الله ، بغير علمٍ عنده بما يخاصم ، ولا بيانٍ بصحة ما يقول ﴿وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ولا تنزيلٍ من الله ، ببيان حقيقةِ دعواه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وإذا قيل لهؤلاء : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله ، وصدِّقوا به ، فإنه يفرق بين المحقِّ والمبطل ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من الأديان ، فإنهم كانوا أهل حق ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب النار الملتهبة ، بتزيينه لهم سوء أعمالهم وكفرهم بالله ؟ ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ومن يتذلل للهِ بالعبودية ، مقراً له بالألوهية ، وهو مطيع لله في أمره ونهيه﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ فقد تمسَّك بالطرف الأوثق، الذي لا يخاف انقطاعه ﴿وَإِلى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ وإلى الله مرجع كل أمر فيسأل أهله عنه ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ فلا يحزنك يا محمد كفر من كفر، ولا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ[2] ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُم فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ فإن مصيرهم يوم القيامة إلينا، ونحن نخبرهم بأعمالهم الخبيثة ثم نجازيهم عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالمٌ بما تكنُّه صدورهم من الكفر ؛ وإيثار طاعة الشيطان ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾نمهلهم في

---

(١) المراد بالنعم الظاهرة النعم الحسِّية كنعمة السمع ، والبصر ، والصحة ، والإسلام ، والمراد بالباطنة النعم المعقولة الخفية كنعمة العقل، والفهم، والمعرفة وما أشبه ذلك .

(٢) في الآية تسلية للنبي ﷺ لكفر من كفر ، وضلال من ضل ، ببيان أن الله سينتقم منهم عاجلاً أو آجلاً

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ
مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

* * *

هذه الدنيا قليلاً ثم نوردهم على كُرهٍ منهم عذاب النار الشديد ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق هذه السموات والأرض ؟ ! ليقولنَّ خلقهنَّ الله ﴿قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فإن قالوا ذلك، فقل : الحمد لله الخالق ، بل أكثر المشركين لا يعلمون مَنْ الذي له الحمد ؟وأين موضع الشكر ؟ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ للَّهِ كل ما في السموات والأرض من شيء ، ملكاً لا يشركه فيه أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ إن الله هو الغني عن عبادة هؤلاء المشركين ، وعن جميع خلقه ، وهو المحمود على نِعَمه ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾ ولو أن شجر الأرض كلها بُرِيت أقلاماً ﴿وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحر مدادٌ لها ، ومن بعده سبعةُ أبحر ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ وكُتب كلامُ الله بتلك الأقلام وذلك المداد ، لتكسرت الأقلام ، ولنفد ذلك المداد ، ولم تنفد كلماتُ الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إن الله ذو عزٍ في انتقامه ممن أشرك به ، حكيمٌ في تدبير خلقه ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ما خلقكم ـ أيها الناس ـ ولا بعثكم على الله ، إلا كخلق نفس واحدةٍ وبعثها ، لأنه يقول للشيء كن فيكون ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سميعٌ لما يقوله المشركون، بصيرٌ بما يعملونه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ألم تر يا محمد بعينك، أن الله يزيد من نقصان ساعات الليل في ساعات النهار ، ويزيد من ساعات النهار في ساعات الليل[1] ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وسخَّر «الشمس والقمر» لمصالح خلقه ، كلٌّ ذلك يجري بأمره إلى وقتٍ معلوم ، وأجلٍ محدود ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وأن الله بأعمالكم ذو

(١) في هذه الآيات أشار تعالى إلى دلائل قدرته في الآفاق ، بعد ذكر دلائل قدرته في الأنفس

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى
فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ
دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا
تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

* * *

خبرةٍ وعلم ، لا يخفى عليه منها شيء ، وهو مجازيكـم على جميع ذلك **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ﴾** ما أخبرتك من فعل الله تعالى حقاً ، دون ما يدعوه به هؤلاء المشركون، وأنه لا يقدر على فعل ذلك سواه **﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ البَاطِلُ﴾** وبأن الذي يعبد المشركون من دون الله ، هو الباطل الذي يضمحل فيفنى **﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾** وبأن الله ذو العلو على كل شيء، وكلُّ شيء لـه متذلِّلٌ منقاد ، الكبيرُ الذي كلُّ شيءٍ دونه **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾** ألم تر أن السفن تجري في البحر، نعمةً من الله على خلقه **﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾** ليريكم من عِبَره وحججه عليكم **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍشَكُورٍ﴾**إن في جري الفلك في البحر، لدلالةعلى قدرةالله، لكل من صبر نفسه عن محارم الله ، وشكره على نعمه **﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** وإذا غشي المشركين موج كثير كالظلل ، وخافوا الغرق ، فزعوا إلى الله بالدعاء مخلصين له الطاعة ، لا يدعـون معه أحداً سواه، ولا يستغيثون بغيره **﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البرِفَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾** فلما نجاهم من الغرق، إلى البر الآمن ، فمنهم مقتصد في قوله وإقراره بربه ، وهو مع ذلك مضمر الكفر به[١] **﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾** وما يكفر بأدلتنا إلا كل غدّار بعهده، جحودٍ للنعم **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾**اتقوا ربكم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه **﴿وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾** وخافوا أن يحل بكم سخط الله ، يوم لا تنفع الوسائل إلا وسيلة من صالح الأعمال **﴿إِنَّ وَعـدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾** إن مجيء هذا اليوم حق ، لأن الله قد وعده عباده ، ولا خُلْف لوعده **﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾** فلا تخدعنكم زينة الحياة الدنيا ولذّاتها ، فتميلوا إليها وتَدَعوا الاستعداد لما فيه خلاصكـم من عقاب الله **﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾** ولا يخدعنكـم بالله خـــادع

(١) هكذا فسَّره الطبري وقال غيره المعنى : فمنهم مقتصد في العمل، ومنهم جاحد ، ففي الآية حذفٌ دل عليه قوله (وما يجحد بآياتنا) والمقتصد: هو المتوسط في العمل وهو غير الكافر.

(١) المراد «الغرور» الشيطان لأنه يغرُّ الإنسان ويخدعه، حتى يصرفه عن طاعة الله

إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

* * *

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إن الله وحده الذي يعلم الساعة، التي تقوم فيها القيامة، لا يعلم ذلك أحد غيره[1] ﴿ويُنَزِّلُ الغَيْثَ﴾ وينزل المطر من السماء، لا يقدر على ذلك غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ والله يعلم ما في أرحام الإناث ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾ وما تعلم نفسُ حيٍ ماذا تعمل في غد ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وما تعلم نفس حيٍّ بأيِّ أرضٍ تكون منيَّتُهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ إن الذي يعلم ذلك كله هو الله ، دون كل أحد سواه لأنه عالمٌ بكل شيء ، خبير بما هو كائن وما قد كان

« تم بعونه تعالى تفسير سورة لقمان »

* * *

(١) هذه هي المغيّبات الخمس التي استأثر الله عز وجل بعلمها ففي الحديث الصحيح «مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله .. وتلا الآية ، أخرجه البخاري» .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

* * *

﴿ الٓمٓ ﴾ أسلفنا الكلام على الحروف المقطعة بما أغنى عن إعادته ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ هذا الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ ، لا شك فيه أنه منزَّل من رب « الثَّقَلَين » الإنس والجن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ أم يقول المشركون : اختلق محمد هذا الكتاب من قِبَل نفسه ﴿ بَلْ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ليس كما يزعمون ، بل هو الحق والصدق من عند ربك ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أنزله إليك لتنذر قوماً بأس الله وسطوته ، أن يحل بهم على كفرهم ، ولم يأتهم نذير قبلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ليتبيَّنوا سبيل الحق فيتَّبعوه ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ المعبود الذي لا تصلح العبادة إلَّا له ، هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من خلق ، في مقدار ستة أيام ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ ثم علا ـ بعد خلقه السموات والأرض ـ على العرش[1] ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ ما لكم ـ أيها الناس ـ دون الله وليٌّ يلي أمركم ، وينصركم ممَّا أراده بكم ، ولا شفيعٌ يشفع لكم عنده إن عاقبكم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تعتبرون ، فتفردوا له الألوهية ، وتخلصوا له العبادة ؟ ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ﴾ هو الذي يدبر أمر خلقه ، من السماء إلى

(١) علواً يليق بجلاله من غير تجسيم ، ولا تكييفٍ ، ولا تشبيهٍ ، ولا تعطيل كما هو مذهب السلف الصالح .

إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ
مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾
وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ * قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ
ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

* * *

الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره في عروج ذلك الأمر إليه ، ونزوله إلى الأرض[١] ، ألف سنة من أيامكم ﴿ ذَلِكَ عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾هذا الفاعل لما ذُكِرهو عالمِما يغيب عن أبصاركم ، وما شاهدته الأبصار ، الشديدُ في انتقامه ممن كفر به ، الرحيمُ بمن تاب من ضلالته ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ الذي أحكم كل مخلوقٍ له ، وأتقن صنعته[٢] ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ وبدأ خلق « آدم » من طين ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ ثم سوَّى الإنسان خَلْقاً معتدلاً ، ثم نفخ فيه من روحه ، فصار حيّاً ناطقاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ وأنعم عليكم بأن أعطاكم ما تسمعون به الأصوات ، وما تُبصرون به الأشخاص ، وما تعقلون به الخير والسوء ، لتشكروه على ما وهبه لكم ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ وأنتم تشكرون ربكم قليلاً على نعمه ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقال المكذبون : إذا هلكت أجسادنا في الأرض ، أئنّا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ ! ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ بل هم كافرون بالله ، يجحدون لقاء ربهم حذر عقابه ، وخوف مجازاته ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ قل يا محمد : يستوفي ملك الموت عددكم ، بقبض أرواحكم الذي وُكِّل بقبضها ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ ثم إلى ربكم تردون أحياء يوم القيامة ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ولو ترى يا محمد هؤلاء المشركين ، إذْ هم مطرقو رؤوسهم عند ربهم حياءً منه ، للذي سلف منهم من معاصيه في الدنيا ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

---

(١) قال ابن عباس : ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ، وينزل ما دبَّره وقضاه ، ثم يصعد إليه ذلك الأمر كله يوم القيامة ليفصل فيه ، ومعنى العروج : الصعود .

(٢) المعنى أنه تعالى أتقن وأحكم كل شيء خلقه وأوجده، قال ابن عباس : ليست القردة بحسنة، ولكنها متقنةٌ محكمة .

فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ
جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن
قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾

* * *

فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ يقولون : يا ربنا أبصرنا ما كنا نكذّب به من عقابك ، وسمعنا منك تصديق رسلك ، فارددنا إلى الدنيا نعمل فيها بطاعتك ﴿ **إنَّامُوقِنُونَ** ﴾ إنا قد أيقنا الآن بوحدانيتك ، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** ﴾ ولو شئنا لأعطينا هؤلاء المشركين رشدهم ، ووفقناهم للإيمان ﴿ **وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي** ﴾ ولكن وجب مني العذاب لهم ﴿ **لأمْـلأنَّ جَهنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ لأملأن جهنم من أهل المعاصي ، والكفر بالله من الجنّ والإنس جميعاً ﴿ **فَذوقُوا بِمَانَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ** ﴾ يقول الله لهم إذا دخلوا النار : ذوقوا عذاب الله ، بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنَّا تركناكم اليوم في النار ﴿ **وَذُوقُواعَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ ويقال لهم أيضاً : ذوقوا عذاباً دائماً إلى غير نهاية ، بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصي الله

﴿ **إنَّما يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً** ﴾ ما يصدِّق بحججنا وأدلتنا ، إلا القوم الذين إذا وعظوا بها ، خرُّوا لله سجداً لوجوههم ، تذللاً لعظمته ، وإقراراً له بالعبودية ﴿ **وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ وسَبَّحُوا الله في سجودهم ، متبرئين مما يصفه أهل الكفر ﴿ **وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُون** ﴾ وهم لا يستنكفون عن التذلل له ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ** ﴾ تتنحى جنوب هؤلاء عن مضاجعهم في الليل ، لا ينامون[1] ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطَمَعاً** ﴾ يدعون ربهم خوفاً من عقابه ، وطمعاً في عفوه ورحمته ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾ وينفقون مما رزقهم الله في سبيله ، ويؤدون منه الحقوق الواجبة عليهم ﴿ **فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيِنٍ** ﴾ فلا تعلم نفسٌ ما أخفى الله لهؤلاء يوم القيامة ، ممَّا تقرُّ بهأعينهم في جناته ﴿ **جَزَاء بِمَا كَانُوايَعْمَلُونَ** ﴾ ثواباً لهم على أعمالهم في الدنيا ﴿ **أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً** ﴾ أفهذا الكافر المكذب بوعد الله ووعيده ، المخالف أمر اللهونهيه ، كهذا المؤمن المطيع لله ، المصدِّق

(١) الغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم لعبادة الله كقوله تعالى ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾.

أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ
كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم
مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ
عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

* * *

بوعده ووعيده ؟ ! ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ كلا ، لا يعتدل الكفار بالله والمؤمنون به يوم القيامة[١] ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ أما الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمروا به ، فلهم بساتين المساكن التي يأوون إليها في الآخرة ، ﴿ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أنزلهم الله إياها نزلاً ، جزاء لهم بما كانوا في الدنيا يعملون بطاعته ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ وأما الذين كفروا بالله ، وفارقوا طاعته ، فمساكنهم التي يأوون إليها في الآخرة النار ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ لا يخرجون من النار أبداً ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ويقال لهم : ذوقوا لهب النار ، الذي كنتم كذبتم في الدنيا أن الله أعدها للمشركين ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ ﴾ ولنعذبنَّهم في الدنيا بالبلاء ، والشدائد ، والمصائب ﴿ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قبل عذاب يوم القيامة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ كي يرجعوا ويتوبوا ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وأيُّ الناس أظلم لنفسه ، ممن وعظه الله بحججه ، وآي كتابه ، ثم أعرض عن ذلك كله فلم يتعظ ؟ ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ إنا منتقمون من الذين اكتسبوا الآثام ، واجترحوا السيئات ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ ولقد أعطينا موسى التوراة ، فلا تكن في شك من لقائه ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وجعلنا موسى[٢] رشاداً لبني إسرائيل ، يرشدون باتباعه ، ويصيبون الحق بالاقتداء به ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ وجعلنا من « بني إسرائيل » قادةً في الخير ، يُؤتَمُّ بهم ، ويُهتدى بهديهم ، بإذننا لهم بذلك ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ لصبرهم عن الدنيا وشهواتها ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ وكانوا أهل يقين ، بما

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : يخبر تعالى عن عدله وكرمه ، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة ، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة ربه ، مكذباً رسله . المختصر ٣/ ٧٦

(٢) أعاد الإمام ابن جرير الضمير إلى موسى ، والظاهر أن الضمير يعود إلى التوراة أي وجعلنا التوراة هداية ورشاداً لبني إسرائيل من الضلالة ، وهذا هو الذي رجحه البيضاوي وأبو السعود .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم
مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ
ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ
إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

* * *

دلّهم عليه من حججنا ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ إن ربك يا محمد هو يُبين[1] يوم القيامة لجميع خلقه ، ما كانوا فيه في الدنيا يختلفون من أمور الدين ، والبعث ، والثواب ، والعقاب، فيفرق بين أهل الحق، وأهل الباطل ﴿ **أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** ﴾ أو لم يظهر لهم كثرة إهلاكنا القرون الخالية من قبلهم ، يمشون في بلادهم وأرضهم ؟ ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ** ﴾ إن في إهلاكنا سكانها ، لما كذبوا رسلنا ، لآيات لمشركي قومك يتعظون بها ﴿ **أَفَلَا يَسْمَعُونَ** ﴾ عظاتِ الله ، وتعريفهم مواضع حججه ؟

﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ** ﴾ أو لم ير هؤلاء المكذبون بالبعث أنا بقدرتنا نسوق الماء ، إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها ؟ ﴿ **فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ** ﴾ فنخرج بذلك الماء زرعاً خضراً ، تأكل منه مواشيهم ، وتتغذّى به أبدانهم وأجسامهم ، فيعيشون به ؟ ! ﴿ **أَفَلَا يُبْصِرُونَ** ﴾ أفلا يرون ذلك بأبصارهم ، فيعلموا قدرة الله على إحيائهم بعد الموت ؟ ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** ﴾ ويقولون : متى يجيء العذاب ، إن كنتم صادقين أنا معاقبون على عبادتنا الأوثان ، وتكذيب محمدٍ عليه الصلاة والسلام ؟ ﴿ **قُلْ يَوْمَ الفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ** ﴾ قل يا محمد لهم : يوم مجيء العذاب، لا ينفع من كفر بالله وبآياته إيمانهم في ذلك الوقت ﴿ **وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ** ﴾ وهم لا يؤخرون للتوبة والمراجعة ﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ** ﴾ فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين ، وانتظر ما الله صانع بهم ، إن المشركين منتظرون ما تعدهم من العذاب ، ومجيء الساعة .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة »

---

(١) الأظهر أن معنى « يفصل » يقضي ويحكم ، وقول الطبري : يُبين بعيد .

(٢) فسّر الطبري « يوم الفتح » بيوم مجيء العذاب ، وقال غيره من المفسرين : يوم الفتح هو يوم النصر والغلبة ، فقد كان المشركون يقولون للمسلمين سخرية واستهزاء : متى ستنصرون علينا ، ويكون لكم الغلبة والفتح علينا ؟ فأخبرهم تعالى أن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي ، لأن الله يفصل فيه بين المؤمنين والمشركين ، وهذا المعنى أظهر والله أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ
فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم

***

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ يا أيها النبي اتق الله بطاعته، وأداء فرائضه، والانتهاء عن محارمه، ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ولا تطع الكافرين الذين يطلبون طرد أتباعك من الضعفاء، ولا تطع الذين يظهرون لك الإيمان بالله، والنصيحة لك، وهم لا يألونك، وأصحابك، ودينك خبالاً، فلا تقبل منهم رأياً، ولا تستشرهم فإنهم لك أعداء ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ إن الله عالمٌ بما تضمره نفوسهم، وما يقصدون بنصيحتهم لك، حكيمٌ في تدبير أمرك، وأمر جميع خلقه ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ واعمل بما ينزل الله عليك من وحيه، وآي كتابه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ إن الله بما تعمل به أنت وأصحابك، ذو خبرة، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم عليه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفوِّضْ إلى الله أمرك، وثقْ به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ وحسبك الله حفيظاً لك يا محمد ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ ليس لأحد من خلق الله قلبان، يعقل بهما في جوفه(1) ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ولم يجعل الله نساءكم اللائي تقولون لهن: «أنتنَّ علينا كظهور أمهاتنا» أمهاتكم حقيقة ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ولم يجعل الله من

---

(1) في الآية ردٌّ على كفار قريش حيث كانوا يعتقدون بأن الشخص اللبيب الأديب له في صدره قلبان، حتى اشتهر عندهم «جميل بن معْمر» بأنه ذو القلبين لشدة دهائه، وكان يقول: إن لي في جوفي قلبين، أعقل بكل واحدٍ منهما أفضل من عقل محمد!! فنزلت الآية.

بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

* * *

ادَّعيتَ أنه ابنك[١] وهو ابن غيرك ـ ابنك بدعواك ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ هذا الادعاء كلام لا حقيقة له ، لا يثبت به نسب ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ﴾ والله هو الصادق الذي يقول الحق ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ والله يبين لعباده سبيل الحق، ويرشدهم إليه ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم لآبائهم ، هو أعدل عند الله وأصدق، وأصوب من ادعائهم أبناء ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ فإن لم تعلموا آباء أدعيائكم لتنسبوهم إليهم ، فهم إخوانكم في الدين ، إن كانوا من أهل ملتكم، ومواليكم إن كانوا محرريكم ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ ولا حرج عليكم ولا وزر ، في خطإ يكون منكم ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الإثم والحرج فيما تعمدت قلوبكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وكان الله ساتراً على ذنوب عباده إذا تابوا، رحيماً بهم أن يعاقبهم بعد التوبة ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ محمدٌ ﷺ أحقُّ بالمؤمنين من أنفسهم، أن يحكم فيهم بمايشاء﴿وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وحرمة أزواجه كحرمة أمهاتهم عليهم ، فيحرم نكاحهن من بعد وفاته ﷺ[٢] ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُهَاجِرِينَ﴾ وأولوا الأرحام أحق بميراث بعض ، من المؤمنين والمهاجرين أن يرث بعضهم بعضاً بالهجرة والإيمان دون الرحم[٣] ﴿إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ إلا أن تقدِّموا إلى أوليائكم ـ الذين كان رسول الله ﷺ قد آخى بينهم وبينكم ـ معروفاً، من الوصية لهم ،والنصرة،والعقل عنهم، وما أشبه ذلك ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ كان ذلك الحكم في اللوح المحفوظ مكتوباً

---

(١) الأدعياء : جمع «دَعِيٍّ» وهو الولد المتبنَّى المنسوب إلى غير أبيه ، كذا في لسان العرب .

(٢) هذا في تحريم النكاح ، فقط،فلا تجوز الخلوة بهن ، أو رؤيتهن من غير حجاب كالأمهات، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن ، وأخواتهن بالإجماع .

(٣) وهذه الآية ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

* * *

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ واذكر حين أخذنا من النبيين عهدهم ، ومنك يا محمد وسائر الأنبياء المذكورين[١] ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ وأخذنا من جميعهم عهداً مؤكداً ، أن يصدِّق بعضهم بعضاً ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ كيما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم ، فيما أبلغوهم عن ربهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وأعدَّ الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ يا معشر المؤمنين اذكروا نعمة الله التي أنعمها على جماعتكم ، حين حوصر المسلمون مع رسول الله ﷺ أيام الخندق[٢] ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ حين جاءتكم جنود الأحزاب «قريش ، وغطفان، ويهود بني النضير» ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ فأرسلنا عليهم ريح «الصَبا» حتى كفأت قدورهم ، ونزعت خيامهم ، وأرسلنا عليهم الملائكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ وكان الله بأعمالكم يومئذ بصيراً ، لا يخفى عليه شيء ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ حين جاءتكم جنود الأحزاب «قريظة» من فوقكم ، و «قريش وغطفان» من أسفل منكم ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ وإذ عَدَلت الأبصارُ عن مقرها وشَخَصت طامحة ، ونَبَتْ القلوبُ عن أماكنها من الرعب، فبلغت إلى الحناجر ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ وتظنون بالله الظنون الكاذبة ، وأيقن المؤمنون بوعد الله لهم بالنصر ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ عند ذلك اختُبر إيمانُ المؤمنين ، ومُحِّص القومُ ، فعُرف المؤمن

(١) هؤلاء هم أولو العزم ومشاهير الرسل الكرام ، وهم خمسة «نوح، إبراهيم ، موسىٰ ، عيسىٰ ، محمد» صلوات الله عليهم أجمعين، وخصّهم بالذكر لأنهم قادة الرسل، وقدّم نبينا عليه السلام تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً على أنه سيّد الرسل .

(٢) هذه الآيات تتحدث عن «غزوة الأحزاب» التي تجمعت فيها القبائل على المسلمين، وتعاونوا على حربهم مع يهود «بني قريظة» ويهود «بني النضير» وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم، ولهذا سميت غزوة الأحزاب، كما تسمى «غزوة الخندق» لأن الرسول ﷺ أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة المنورة.

وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾

***

والمنافق، وحُرِّكوا بالفتنة تحريكاً شديداً[١] ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وإذ يقول الذين نافقوا والذين في قلوبهم شك في الإيمان ، وضعف في اعتقادهم بالله ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ ما وعدنا الله ورسوله بالنصر إلا غروراً[٢] ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وإذ قال بعضهم: يا أهل المدينة لا مكان لكم تقومون فيه ، فارجعوا إلى منازلكم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ ويطلب بعضهم من رسول الله ﷺ الإذن بالإنصراف إلى منزله ، لأنها خالية ليس هناك ما يحجبها من العدو ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ وليست بيوتهم خالية ضائعة ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّافِرَاراً﴾ ولكنهم يريدون الفرار والهرب، من عسكر رسول الله ﷺ، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا﴾ ولو دخلت المدينةُ على هؤلاء من جوانبها، ثم سئل هؤلاء الرجوع من الإيمان إلى الشرك لفعلوا[٣] ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴾ وما احتبسوا عن إجابتهم إلى الشرك إلا قليلاً ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ ولقد كان المستأذنون بالانصراف، عاهدوا الله من قبل ذلك ، أن لا يولوا عدوهم الأدبار فينهزموا ، إن لقوهم في مشهدٍ لرسول الله ﷺ ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ وسيسألهم الله عزَّ وجل عن ذلك العهد

---

(١) انظر إلى تصوير المعركة حيث يصوّرها القرآن بأدقّ صورة وأوضح بيان ، حيث تألبت قوى الشر والعدوان على المؤمنين «قريظة، وقريش، وغطفان، وبنو النضير» فأحكموا الخناق حول المدينة المنورة ، وجاءوهم من كل الجهات ، حتى زاغت أبصار المسلمين من كثرة الأعداء ، وحتى كادت القلوب تصل إلى الحناجر من شدة الهول والفزع ، وهناك كان الابتلاء الشديد بالخوف والجوع ، والقتال والنزال ، ونجم قرن النفاق حتى قال المنافقون﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾في ذلك الوقت العصيب من الزلزلة والاضطراب، والكرب يأخذ بالأنفاس والخناق، جاء النصر والمدد للمؤمنين،فأرسل الله الريح الشديدة على الأعداء ، وأنزل الملائكة الأشداء لعون المؤمنين ، ولهذا ذكرهم تعالى بنعمته العظيمة عليهم في هذه الغزوة .

(٢) هذا قول المنافق «معتب بن قشير» الذي قال: يعدنا محمد كنوز «كسرى» و «قيصر» وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ليتبرز ، ما هذا إلا وعد غرور يعدنا به محمد !!

(٣) معنى الآية أنه لو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها ، ثم طلبوا منهم أن يكفروا وأن يقاتلوا معهم المسلمين ، لفعلوا ذلك مسرعين ، وذلك لنفاقهم وضعف إيمانهم.

﴿قُلْ لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى
يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾
۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا
جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾

***

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَو القَتْلِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ؛ لأن ما كتب الله واصلٌ إليكم بكل حال ﴿ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ ولن يزيد الفرار في أعماركم إذا فررتم ، إنما تمتعون في هذه الدنيا ، إلى الوقت الذي كُتِب لكم ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إنْ أَرَادَ بِكُمْ سوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ وقل لهم : من الذي يمنعكم من الله ، إن هو أراد بكم سوءاً في أنفسكم ، من قتلٍ أو بلاء ، أو أراد بكم رحمةً من عافيةٍ وسلامة ؟! ﴿وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً﴾ ولا يجد هؤلاء المنافقون من دون الله ، ولياً يليهم بالكفاية ، ولا نصيراً ينصرهم ، فيدفع عنهم ما أراده الله بهم من سوء .

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ المُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ قد يعلم الله الذين يعوِّقون الناس[1] منكم عن رسول الله ﷺ فيصدونهم عن شهود الحرب معه ، نفاقاً منهم، وتخذيلاً عن الإسلام وأهله ﴿وَالقَائِلِينَ لإخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ والقائلين لإخوانهم تعالوا إلينا ودَعُوا محمداً، فلا تشهدوا معه مشهده ، فإنا نخاف عليكم الهلاك ﴿وَلاَ يَأْتُونَ البَأْسَ إلاَّ قَلِيلاً﴾ ولايشهدون الحرب والقتال ـ إن شهدوا ـ إلاَّ تعذيراً[2]، ودفعاً عن أنفسهم من المؤمنين ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء على المؤمنين في الخير ، والغنيمة ، والنفقة في سبيل الله ،لِما في أنفسهم من العداوة والضغن ﴿فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فإذا حضر الناس، وجاء القتال، خافوا الهلاك والقتل ، رأيتهم يا محمد ينظرون إليك لواذاً بك ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ﴾ تدور أعينهم ، خوفاً من القتل وفراراً منه، كدوران عين الذي يغشاه الموت النازل به ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ فإذا انقطعت الحرب واطمأنوا ،رمَوْكم بألسنة

---

(١) المعوِّق : المثبِّط للهمم والعزائم، الذي يعوِّق الناس عن الجهاد وفعل الخير .
(٢) التعذير: أن يفعل ما يُعذر به وأن يُقدم معذرته أمام خصمه .

سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾
يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ
وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ
وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

* * *

ذرية مؤذية ﴿أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ﴾ بخلاء على الغنيمة ، إذا ظفر المؤمنون ﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أولئك لم يصدِّقوا الله ورسوله ، فأذهب الله أجور أعمالهم وأبطلها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ وكان إحباط أعمالهم يسيراً على الله ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يحسب المنافقون «قريشاً وغطفان» لم ينصرفوا من جبنهم وهَلَعهم منهم ، وإن كانوا قد انصرفوا ﴿وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾ وإن يأت الأعداء لحرب المؤمنين ، يتمنوا ـ من الخوف والجبن ـ أنهم غائبون عنكم في البادية مع الأعراب خوفاً من القتل ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ يستخبرون عن أخباركم الناس بالبادية : «هل هلك محمد وأصحابه؟» ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ولو كانوا أيضاً فيكم ما نفعوكم ، وما قاتلوا المشركين إلا تعذيراً ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لقد كان لكم في رسول الله ﷺ قدوة حسنة ، أن تتأسوا به ، وتكونوا معه حيث كان، ولا تتخلفوا عنه ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ فإنَّ من يرجو ثواب الله ورحمته في الآخرة ، لا يرغب بنفسه عن رسول الله ﷺ ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ وأكثر ذكر الله في الخوف ، والأمن ، والشدة والرخاء ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ولما عاين المؤمنون جماعات الكفار، قالوا ـ تسليماً منهم لأمر الله ـ هذا ما وعدنا الله به ورسوله من الابتلاء والمحنة ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ ورسوله﴾ وصدق الله في وعده، ورسولُه فيما بشَّرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم ، إلا إيماناً بالله ، وتسليماً لقضائه وأمره ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من المؤمنين رجالٌ أوفوا بما عاهدوا الله عليه ، من الصبر على البأساء والضراء ، وحين البأس ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ فمنهم من فرغ من نذره فاستشهد ، ومنهم من ينتظر قضاءه على الوفاء بالعهد،

لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾
وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ
ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾
وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ
إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

***

والظفر على عدوه[1] ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ وما غيروا العهد كما فعل المعوِّقون ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ ليثبِّت الله أهل الصدق ، بصدقهم الله ما عاهدوه عليه ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويعذِّب الله المنافقين بكفرهم ونفاقهم ، بأن لا يوفقهم للتوبة حتى يموتوا على كفرهم ، فيستوجبوا بذلك العذاب ، أو يتوب عليهم فيهديهم للإيمان فلا يعذبهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ساتراً لذنوب التائبين ، رحيماً بهم أن يعاقبهم بعد التوبة .

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾ وردَّ الله الكافرين من قريش وغطفان ، بغمِّهم وخيبتهم لم يصيبوا من المسلمين مالاً ولا إساراً ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ وكفى الله المؤمنين الحرب ، بجنودٍ من الملائكة والريح ، بعثها على الأحزاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِياً عَزِيزاً﴾ والله قويٌّ على فعل ما يشاء ، شديدٌ في انتقامه من أعدائه ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ وأنزل الله « بني قريظة» الذين أعانوا الأحزاب على رسول الله ﷺ من اليهود من حصونهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وألقى في قلوبهم الخوف ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ تقتلون رجالهم ، وتأسرون نساءهم وذراريّهم ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ وملّككم ـ بعد مهلكهم ـ مزارعهم ، ومساكنهم ، وأموالهم ، ويورثكم أرضاً لم تطئوها ، ممَّا يفتح الله عليكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ وكان الله ذا قدرة على نصره إياهم ، لا يتعذر عليه شيء أراده ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ قل يامحمد لأزواجك : إن كنتنَّ تردن الدنيا وزينتها ، فإني أمتعكن بما أوجب الله من المتعة عند الفراق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ وأطلقكنَّ على ما أذن الله به ، وأدَّب به عباده ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ﴾ وإن كنتن

---

(١) الظاهر في معنى الآية ـ والله أعلم ـ أن منهم من نال مراده فاستشهد في سبيل الله ، ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله .

وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ
يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ
صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا
تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ
الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

* * *

تردن رضا الله ورضا رسوله وطاعتهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عظيماً﴾ فإن الله أعد للعاملات منكن بأمر الله ، وأمر رسوله ، أجراً عظيماً[1] ﴿يَانِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنْ﴾ يا نساء النبي من يقترف منكن إثماً ، يُضاعف لها العذاب في الآخرة ضعفين[2] ، على أزواج غيره من الناس ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ وكانت مضاعفة العذاب سهلة على الله ، على من فعل ذلك منهن ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً﴾ ومن يطع الله ورسوله منكن ، وتعمل بما أمر الله به ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ يعطها الله ثواب عملها ، مثلي ثواب عمل غيرها من سائر نساء الناس ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ وهيأنا لها في الآخرة ، عيشاً هنيئاً في الجنة ﴿يَانِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ لستن كأحد من نساء هذه الأمة ، إن اتقيتن الله ، فأطعتنَّه فيما أمركنَّ ونهاكنَّ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ فلا تلنَّ بالقول للرجال، فيطمع الذي في قلبه ضعف إيمان ، إما لنفاقٍ فيستخفُّ بحدود الله، أو لتهاونٍ بإتيان الفواحش ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ وقلن قولاً قد أذن الله لكم به وأباحه ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ واقررن في بيوتكن ، ولا تُبْرزن محاسنكنَّ للرجال، كما كان يفعل أهل الجاهلية الأولى قبل الإسلام ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وأقمن الصلاة المفروضة ، وآتين الزكاة الواجبة عليكن في أموالكن ، وأطعن الله ورسوله فيما أمرا ونهيا ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ﴾ إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت محمد

---

(١) نزلت الآيات في تخيير رسول الله ﷺ لنسائه عندما طلبن منه التوسعة في النفقة ، وبدأ بالسيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ ثم بقية نسائه فاخترن جميعاً الله ورسوله والدار الآخرة ، رضي الله عنهن وأرضاهن ، وانظر قصتهن في تفسير ابن كثير ٩٢/٣

(٢) لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة، قال ابن عباس يعني النشوز وسوء الخُلق .

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ
وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى
اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

* * *

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ويطهركم من الدنس الذي يكون في أهل المعاصي تطهيراً ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالحِكْمَةِ﴾ واذكرن نعمة الله عليكن ، بأن جعلكنَّ في بيوت تُقرأ فيها آيات كتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ ،فاشكرن الله على ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ إن الله كان ذا لطف بكنَّ،حين جعلكن في تلك البيوت ، خبيراً بكنَّ حين اختاركنَّ أزواجاً لرسوله ﷺ .

﴿إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ﴾ إن المتذللين لله بالطاعة والمتذللات ﴿وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ﴾ والمصدِّقين رسول الله فيما أتاهم به من عند الله والمصدقات ﴿وَالْقَانِتِينَ والقَانِتَاتِ﴾ والمطيعين الله فيما أمر ونهى والمطيعات ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ والصادقين الله فيما عاهدوه عليه والصادقات ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ والصابرين لله في البأساء والضراء ، على الثبات على دينه والصابرات ﴿وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ﴾ والخاشعة قلوبهم وَجَلاً من الله ومن عقابه ، والخاشعات ﴿وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ﴾ والمؤدِّين حقوق الله من أموالهم ، والمؤديات ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ والصائمين شهر رمضان الذي فرض الله صومه ، والصائمات ﴿وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ﴾ والحافظين فروجهم عن المحارم إلا على أزواجهم،أوما ملكت أيمانهم ، والحافظات ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ والذاكرين الله بقلوبهم ، وألسنتهم،وجوارحهم، والذكرات كذلك ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ أعد الله لهم مغفرة لذنوبهم ، وثواباً عظيماً في الآخرة هو الجنة ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ لم يكن لمؤمنٍ بالله ورسوله ، ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله في أنفسهم بحكم ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا الأمر والقضاء[١] ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾ ومن يعص الله ورسوله

(١) نزلت الآية حين خطب رسول الله ﷺ السيدة «زينب بنت جحش» لمولاه ومتبنَّاه «زيد بن حارثة» فكرهت ذلك وكره أخوها لنسبها من قريش ، واستنكفت وأبت وقالت : أنا خير منه حسباً، فلما نزلت الآية رضيت وأذعنت،قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحدٍ مخالفته ، ولا رأي ولا اختيار لأحد .

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ

* * *

فيما أمرا أو نهيا فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدى والرشاد ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وأَنْعَمتَ عَلَيْهِ﴾ واذكر يا محمد حين تقول للذي أنعم الله عليه بالهداية، وأنعمت عليه بالعتق، وهو «زيد بن حارثة» عندما أراد فراق زوجه «زينب بنت جحش» ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أمسك عليك زوجك، وخف الله في الواجب له عليك في زوجتك ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وتخفي في نفسك محبة فراقه إياها لتتزوجها، إن هو فارقها، والله مظهرٌ ما تخفي في نفسك من ذلك[1] ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وتخشى مقالة الناس في تزوجك مطلقة متبنَّاك، واللهُ أحقُّ أن تخشاه ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فلما قضى «زيد بن حارثة» من زينب حاجته، زوجناك «زينب» بعد ما طلقها «زيدٌ» وبانت منه ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ لكي لا يكون حرج على المؤمنين في نكاح نساء من تبنوا وليسوا ببنيهم ولا أولادهم ـ إذا هم طلقوهنَّ وفارقوهنَّ، وقضوا منهن حاجاتهم ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ وكان ما قضى الله من قضاء كائناً لا محالة ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ ما كان على النبي من إثم، فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه، بعد فراقه إياها ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مثل فعله تعالى بمن قبله من الرسل، في أنه لم يؤثِّمهم بما أحلَّ لهم[2] ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ وكان أمر الله قضاء مقضياً ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ﴾ سنته تعالى في الرسل الذين يبلّغون رسالات الله، إلى من أرسلوا إليه، ويخافون الله في تركهم تبليغ

---

(١) هكذا قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى ـ وقد أورد رواية عن علي بن الحسين أنه قال: إن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ـ رضي الله عنه. ليشكوها إليه قال: اتق الله، وأمسك، عليك زوجك. فقال الله له: قد اخبرتك اني مزوجها لك وتخفي في نفسك ما الله مبديه؟ وقد ذكر هذه الرواية الإمام ابن كثير عن ابن أبي حاتم، وهذه الرواية تتمشى مع ظاهر الآيات، لأن الله تعالى لم يبد محبة الرسول لزينب، وإنما أظهر أنه سيزوّجه إياها ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ والله أعلم. وانظر الردَّ على المستشرقين بالحجج الدامغة التي تقصم ظهر الباطل في كتابنا «صفوة التفاسير» ج٢ ص ٥٢٧.

(٢) أي هذه سنته تعالى في جميع الأنبياء السابقين، حيث وسَّع عليهم فيما أباحه لهم، وقد سنَّ لمحمد ﷺ في التوسعة عليه في النكاح، سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان عليهما السلام.

وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ
وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾
تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾

* * *

ذلك، ولا يخافون أحداً سواه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ وكفاك يا محمد بالله حافظاً لأعمال خلقه، ومحاسباً لهم عليها.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ ما كان محمد أبا «زيد بن حارثة» ولا أبا أحد من رجالكم، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ولكنه رسول الله، وخاتم النبيين الذي ختم الله به النبوة، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ وكان الله عالماً بكل شيء من أعمالكم، لا يخفى عليه شيء ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، اذكروا الله بقلوبكم، وألسنتكم، وجوارحكم، فلا تخلو أبدانكم عن ذكره، في حالٍ من الأحوال ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وصلُّوا له «غدوةً» صلاة الصبح، و«عَشِياً» صلاة العصر(١) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ ربكم الذي تذكرونه، يرحمكم إذا أنتم فعلتم ذلك، ويثني عليكم هو، وتدعو لكم ملائكته ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ليخرجكم من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإسلام ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ يرحمهم فيقبل القليل من أعمالهم، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ تحية هؤلاء المؤمنين في الجنة أن يقول بعضهم لبعض: أمنةٌ لنا ولكم من الله ـ بدخولنا هذا المدخل ـ أن يعذبنا بالنار أبداً ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ وأعدَّ لهم ثواباً على طاعتهم إياه، وهو الجنة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على أمتك، بإبلاغك لهم الرسالة ﴿وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ومبشرهم بالجنة إن صدَّقوك، وعملوا بما جئتهم به، ونذيراً من النار إن هم كذبوك، وخالفوا ما جئتهم به ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ وداعياً إلى توحيد الله، وإخلاص الطاعة لوجهه، بأمره تعالى ﴿وَسِرَاجاً

(١) هكذا قال الإمام الطبري، وقال غيره من المفسرين: سبحوا ربكم في الصباح والمساء، بالتهليل، والتحميد، والتمجيد، والتقديس، فالمراد به التسبيح حقيقة وهو الأظهر.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا
لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ
اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ
خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ
مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ

* * *

﴿مُنِيراً﴾ وضياء لخلقه ، يستضيء عباده بالنور الذي أتيتهم به من عند الله **﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾** وبشر يا محمد أهل الإيمان، بأن لهم من ثواب الله على طاعتهم إياه ، تضعيفاً كثيراً **﴿وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾** ولا تطع قول كافر ولا منافق، فتقصِّر في تبليغ الرسالة، وأعرض عن أذاهم ، واصبر عليه **﴿وَتَوكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾** وفوِّض إلى الله أمورك ، وثق به فإنه كافيك، وحسبك بالله قيّماً بأمورك، وحافظاً لك **﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ المُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾** يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ، من قبل أن تُجامعوهن **﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾** فما لكم عليهن من إحصاء أقراء[1] ولا أشهر ، تحصونها عليهن **﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾** فأعطوهن ما يستمتعن به ، وخلوا سبيلهن بالمعروف **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾** يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللأتي تزوجتهن بصداق مسمًّى، وأحللنا لك إماءك اللواتي ملكتهن بالسِّباء والفيء **﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾** وقريباتك المهاجرات أحللناهن لك ، دون من لم يهاجر منهن معك **﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾** وامرأة تؤمن بالله إن وهبت نفسها للنبي ﷺ بغير صَدَاق ، إن أراد النبي أن ينكحها فحلال له **﴿خَالِصَةًلَكَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ﴾** ولا يحل لأحد من أمتك أن يقرب امرأة بدون صَدَاق **﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ**

---

(١) الغرض من العدة هو معرفة براءة الرحم ، لئلا تختلط الأنسابُ ، فإذا طلّق الرجل زوجته قبل الجماع ، فليس هناك احتمالٌ للحمل ،ولهذا لم يكن له حق في احتباسها من أجل استيفاء العدة ، التي تكون بالحيض أو بالأشهر .

ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ

* * *

﴿أَيْمَانُهُمْ﴾ قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم، إذا أرادوا نكاحهن مما لم نفرضه عليك، وأحللنا لهم ما ملكت أيمانهم ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أحللنا لك يا محمد ما ذكرناه لكيلا يكون عليك إثمٌ وضيق، في نكاح من نكحتَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾غفوراً لأهل الإيمان، رحيماً بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ تؤخر من تشاء ممن هنَّ في عصمتك فتجامعها أو تتركها بغير قسم، أو تضم إليك من تشاء من النساء، اللاتي أحللتُ لك[1] ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ ومن ابتغيت إصابته من نسائك، ممن عزلت عن ذلك منهن فلا حرج عليك ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ هذا الذي جعلت لك أقرب لنسائك، أن تقر أعينهن به، ولا يحزن ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ويرضين كلهن بما آتيتهن[2]، من تفضيل من فضَّلت من قَسَم أو نفقة، و إيثار من آثرتَ منهن على غيرها من نسائك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ والله يعلم ما في قلوب الرجال، من ميلها إلى بعض النساء، بالهوى والمحبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ وكان الله عالماً بأعمال عباده، حليماً فلا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ لا يحل لك أن تتزوج النساء، من بعد المذكورات اللواتي أحللتُهنَّ لك ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ ولا أن تطلق أزواجك، اللواتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فتستبدل بهن غيرهن أزواجاً، لإعجابك بحسن من أردت ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ إلا ما ملكتَ من الإماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ وكان الله على كل شيء حفيظاً، لا يغرب عنه علم شيء من ذلك. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله، لا تدخلوا بيوت نبيّ الله، إلا أن تدعوا

(١) روى الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كنت أغارُ من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما نزلت ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء..﴾ الآية. قلت يا رسول الله: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»

(٢) لأنهن إذا علمن أن ذلك بأمرٍ من الله كان أطيب لأنفسهن، فترضى كل واحدة منهن بما قسم الله لها.

يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ

* * *

إلى طعام تطعمونه ، غير منتظرين إدراكه[1] ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ ولكن إذا دعاكم رسول الله ﷺ فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إليه ، فتفرقوا واخرجوا من منزله ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ولا متحدثين بعد فراغكم من الطعام، إيناساً من بعضكم لبعض ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ إن دخولكم بيوت النبي ﷺ من غير إذنٍ، وجلوسكم للحديث بعد فراغكم من الطعام ، كان يؤذي النبي فيستحيي من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ﴾ والله لا يستحيي أن يبيّن لكم الحق ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وإذا سألتم أزواج رسول الله ﷺ ونساء المؤمنين متاعاً، فاسألوهن من وراء سترٍ بينكم وبينهن، ولا تدخلـوا عليهن بيوتهنّ ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ السؤال من وراء حجاب، أطهرُ لقلوب الرجال، وقلوب النساء ، من عوارض العين التي تعرض في صدور الرجال والنساء ، وأحرى أن لا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله ، وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، لأنهن أمهاتكم ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ إن أذاكم للرسول ، ونكاحكم أزواجه من بعده ، إثمٌ عظيم عند الله تعالى ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إن تظهروا أيها الناس شيئاً بألسنتكم ، أو تخفوا ذلك في أنفسكم ﴿فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾ فإن الله بكل ذلك عليم ، لا يخفى عليه شيء وسيجازيكم عليه ﴿لَاجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ لا حرج على أزواج رسول الله ﷺ ولا إثم ، في هؤلاء المسمَّيْنَ أن لا يحتجبن منهم ، ويأذنَّ لهم في الدخول عليهنَّ[2]، ولا جناح عليهن أيضاً أن لا يحتجبن من نساء المؤمنين ﴿ولا ما ملكت

---

(١) نزلت الآية الكريمة عندما تزوج ﷺ بالسيدة زينب رضي الله عنها ، ودعا الناس إلى طعام الوليمة ، فلما طعموا جلس منهم طوائف يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وأثقلوا عليه فنزلت الآية ترشد المسلمين إلى بعض الآداب الإجتماعية.

(٢) استثنى تعالى من أمر الحجاب « المحارم » فالأب ، والإبن ، والأخ ، وابن الأخ ، وابن الأخت ، كلُّ هؤلاء من المحارم الذين لا يجب على المرأة أن تحتجب منهم لضرورة المخالطة ، وأما قوله تعالى ﴿أو نسائهن﴾ فيراد منه نساء المؤمنين، قال ابن عباس :

وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

* * *

أيمانهن﴾ ولا يحتجبن من المماليك ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ وخفن الله أن تتعدين ما حدَّ لكنَّ، فتبدين زينتكنَّ، والزمن طاعة ربكنَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ إن الله شاهد على ما تفعلنه، فلا تلقين الله وهو شاهد عليكن بمعصيته، فتهلكن.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ إن الله وملائكته يُبرِّكون على النبي ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ يا أيها الذين آمنوا ادعوا لنبي الله[1] محمد ﷺ، وحيُّوه بتحية الإسلام﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يؤذون ربهم بمعصيتهم له وركوبهم ما حرَّم عليهم، ويطعنون على رسوله ﷺ فيما يفعل، ومن ذلك زواجه بصفية رضي الله عنها ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أبعدهم الله من رحمته في الدارين ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ وأعد لهم في الآخرة، عذاباً يهينهم بالخلود فيه ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ والذين يعيبون المؤمنين والمؤمنات طلباً لشينهم، بغير ما عملوا ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ فقد احتملوا زوراً وكذباً، وفرية شنيعة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ﴾ يا أيها النبي قل لأزواجك، وبناتك ونساء المؤمنين: لا تتشبَّهن بالإماء في لباسهنَّ، إذا هنَّ خرجن من بيوتهن، ولكنْ ليدنين عليهن من جلابيبهن[2]، لئلا يعرض لهن فاسق بأذى من القول ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ إدناؤهن جلابيبهن أقرب أن يعلم الرجال أنهن لسن بإماء، فيتنكبوا عن أذاهن، بقول مكروه أو تعرض بريبة[3] ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ غفورٌ لما سلف منهن، رحيمٌ بهنَّ أن

=لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات، فلا يحل للمسلمة أن تبدي شيئاً منها أمام الكافرة. وانظر تفصيل البحث في كتابنا تفسير آيات الأحكام.

(١) الصلاة من الله على نبيه رحمتُه المقرونة بالتعظيم قال القرطبي: والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره. اهـ القرطبي ٢٣٢/١٤.

(٢) الجلابيب: جمع جلباب وهو الثوب الذي يستر جميع بدن المرأة، كالملاءة ـ الملحفة ـ في زماننا.

(٣) قال الإمام أبو حيان في البحر المحيط عند قوله تعالى ﴿ أدنى أن يُعْرفنَ ﴾ أي يعرفن لتسترهن بالعفة، فلا يتعرض لهن ولا يلقين بما يكرهن، لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر، والانضمام لم يقدم عليها، بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها.

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ
ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ
تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا

* * *

يعاقبهن بعد توبتهن ﴿ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ لئن لم ينته أهل النفاق ، الذين يبطنون الكفر ، ويظهرون الإيمان ، والذين في قلوبهم ريبةٌ من شهوة الزنا ، وحب الفجور ، ﴿ **وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ وأهل الإرجاف في المدينة بالكذب والباطل[1] ﴿ **لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِم ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ لنسلطنَّك عليهم ، ثم لَنَنْفينَّهم عن المدينة فلا يسكنون معك فيها إلا قليلاً من الزمن ﴿ **مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً** ﴾ مطرودين منفيين من رحمة ربهم ، حيثما لقوا من الأرض ، أُخذوا وقُتِّلوا لكفرهم بالله تقتيلاً ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ** ﴾ سنة الله في الذين مضوا قبل هؤلاء المنافقين ، من أمثالهم أن يقتلهم ويلعنهم ﴿ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ ولن تجد يا محمد لسنة الله ، التي سنَّها في خلقه تغييراً ﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ** ﴾ يسألك يا محمد الناس عن الساعة : متى هي قائمة ؟! قل : لا يعلم وقت قيامها إلا الله ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونَ قَرِيباً** ﴾ وما أشعرك يا محمد ، لعله قد اقترب وقت قيام الساعة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً** ﴾ إن الله أبعد الكافرين من كل خير ، وأقصاهم عنه ، وأعد لهم في الآخرة ناراً تتقد ليصليهم إياها ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً** ﴾ ماكثين في السعير أبداً ، إلى غير نهاية ﴿ **لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً** ﴾ لا يجدون ولياً يتولاهم فيستنقذهم من السعير ، ولا نصيراً ينصرهم فينجيهم من عقاب الله ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ** ﴾ يوم تتقلب وجوههم في النار حالاً بعد حال[2] ﴿ **يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ** ﴾ يقولون وهم في النار : يا ليتنا أطعنا الله في الدنيا ، وأطعنا رسوله ، فكنا مع أهل الجنة في الجنة ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَراءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ** ﴾ وقال الكافرون أيضاً :

= وهذا القول أوضح في حكمة « مشروعية الحجاب » بأنه لمعرفة عفة المرأة ، لا ما ذهب إليه الإمام ابن جرير وغيره ، بأنه لمجرد الفرق بين الحرة والأمة ، والله أعلم .

(١) المرجفون : جمع مرجف وهو الذي يشيع الكذب والباطل ، وينشر الرعب والفزع في قلوب الناس .

(٢) يريد أن وجوههم تتقلب في النار من جهة إلى جهة كاللحم الذي يشوى بالنار .

سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

* * *

ربنا إنا أطعنا أئمتنا في الضلالة ، وكبراءنا في الشرك ، فصرفونا عن طريق الهدى ﴿ **رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ** ﴾ يا ربنا عذِّبهم مثلي عذابنا الذي تعذبنا به ﴿ **وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً** ﴾ واخزهم خزياً كبيراً ﴿ **يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى** ﴾ يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله ، لا تؤذوا رسول الله ﷺ بقولٍ يكرهه ، ولا تكونوا أمثال بني إسرائيل ، الذين آذوا نبيَّ الله « موسى » ، فرموه بعيب كذباً وباطلاً[١] ﴿ **فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** ﴾ بما أظهر من البرهان على كذبهم ﴿ **وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً** ﴾ وكان موسى مشفعاً ، ذا وجه ومنزلة عند ربه ، بطاعته للّهِ ﴿ **يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله خافوا الله أن تعصوه ، فتستحقوا بذلك عقوبته ، وقولوا قولاً قاصداً غير جائرٍ ولا باطل ﴿ **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ يوفقكم لصالح الأعمال ، ويعف عن ذنوبكم ، فلا يعاقبكم عليها ﴿ **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً** ﴾ ومن يعمل بما أمره الله به ، وينتهي عما نهاه عنه ، فقد ظفر بالكرامة العظمى من الله ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** ﴾ إن الله عرض طاعته وفرائضه ، على السموات والأرض والجبال[٢] ، على أنها إن أحسنت أثيبت وجوزيت ، وإن ضيَّعتْ عوقبت ، فأبت حملها خوفاً أن لا تقوم بالواجب عليها ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ وحملها ابن آدم ،

(١) روى الإمام البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : (إن موسى كان رجلاً حيياً ستِّيراً ، لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برصٌ ، وإما أُدرةٌ ـ انتفاخ الخصيتين ـ وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجرُ ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيل ، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله عزَّ وجل ، وبرأه الله ممَّا قالوا ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فواللهِ إن بالحجر لندباً ـ أثراً ـ من أثر ضربه ثلاثاً ، أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله تعالى ﴿ لا تكونوا كالذين آذوا موسى . . ﴾ الآية .

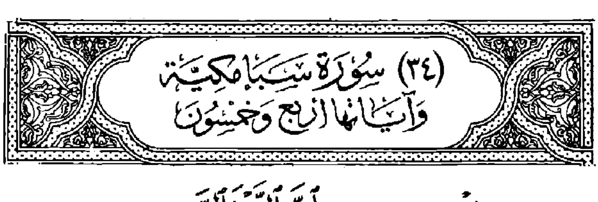
(٢) الصحيح أن المراد بالأمانة « التكاليف الشرعية » التي كلَّف الله بها عباده ، من صلاة ، وصيام ، وحج ، وزكاة ، وأمثال ذلك ، ومن قصرها على الودائع فقد خالف القول الأشهر .

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾

* * *

إنه كان ظلوماً لنفسه ، جهولاً بالذي فيه الحظُّ له ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ حمَّل بني آدم الأمانة كيما يعذب الله المنافقين ، الذين يظهرون أنهم يؤدون فرائض الله مؤمنين بها ، وهم مستسِرُّون بالكفر ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ ويعذب المشركين بالله ، في عبادتهم الآلهة والأوثان ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ويرجع الله بالمؤمنين والمؤمنات إلى طاعته ، وأداء الأمانات التي ألزمهم إياها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ غفوراً لذنوب المؤمنين بستره عليهم ، رحيماً بهم أن يعذبهم عليها بعد توبتهم منها .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

* * *

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الشكر[1] الكامل ، والحمد التام كله للمعبود ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ الذي هو مالك جميع ما في السموات وما في الأرضين ، لا مالك لشيءٍ من ذلك غيره ﴿ وَلَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ﴾ وله الشكر الكامل في الآخرة ﴿ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ ﴾ الحكيم في تدبير خلقه ، الخبير بما يصلحهم ، ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ يعلم ما يدخل الأرض ، وما يغيب فيها من شيء ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ وما

(١) الإمام ابن جرير فسر الحمد بالشكر في جميع السور التي ورد فيها ذكر الحمد ، والصحيح الذي عليه المفسرون أن الحمد غير الشكر ، فالشكر ما كان مقابل النعمة تقول : شكرته لإحسانه ، وشكرتُه لجميله ، ولا تقول : شكرتُه لشجاعته ، وإنما تقول : حمدتُه لشجاعته ، فالشكر يكون مقابل النعمة ، وأما الحمد فهو الثناء بالجميل مع التعظيم والتبجيل .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن
رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

* * *

ينزل من السماء ، وما يصعد في السماء ، فهو العالم الذي لا يخفى عليه شيء ، ممّا ظهر وما بطن ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ ﴾ وهو الرحيم بعباده أن يعذبهم بعد توبتهم ، الغفور لذنوبهم إذا تابوا منها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ وقال الكفار الذين جحدوا قدرة الله على إعادة الخلق بعد فنائهم استهزاء وتكذيباً : لا تأتينا الساعة ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ قل لهم : قسماً بربي لتأتينكم الساعة ﴿ عَالِمِ الغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ ﴾ عالم ما يغيب عن أبصار الخلق ، لا يغيب عنه شيء من زنة ذرة فما دونها في السموات ولا في الأرض ﴿ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ولا يغيب عنه أصغر من وزن الذرة ، ولا أكبرمنه إلا وهو مثبت في كتاب مبين، قد أثبته الله وأحصاه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ كي يثيب الذين آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم الله به ، على طاعتهم ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ لهؤلاء مغفرة من ربهم لذنوبهم ، وعيشٌ هنيءٌ في الجنة ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ وليجزي الذين عملوا في إبطال حججنا ، جاهدين في إبطالها، ظنّاً أنّا لا نقدر عليهم ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾هؤلاء لهم عذابٌ شديد من العذاب الأليم ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوْتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ وليرى الذين أوتوا العلم بالتوراة ، أن الكتاب الذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق ﴿ وَيَهْدِي إِلى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ ويرشد من اتبعه إلى سبيل الله ، العزيز في انتقامه ، الحميد عند خلقه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ وقال الكافرون بعضهم لبعض ـ متعجبين من البعث بعد الممات ـ هل ندلكم على رجل يخبركم ، أنكم بعد تقطعكم في الأرض ، وبعد مصيركم في التراب رفاتاً ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ إنكم عائدون

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ
ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ
غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ

* * *

كهيئتكم قبل الممات خلقاً جديداً ؟! ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ هل اختلق على الله باطلاً من القول ؟ أم هو مجنونٌ يتكلم بما لا معنى له ؟ ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ ليس الأمر كما ظنوا ، لكن الذين لا يصدّقون بالآخرة ﴿ في العَذَابِ وَالضَّلَالِ البَعِيدِ ﴾ في عذاب الله يوم القيامة ، وفي ذهاب عن الحق بعيد ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أفلم ير الجاحدون إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، من السماء والأرض ، فيعلموا أنهم حيث كانوا ، فإن أرضي وسمائي محيطة بهم ، فينزجروا عن تكذيبهم بآياتنا ؟ ﴿ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ ﴾ فإن نشأ أن نامر الأرض فتخسف بهم ﴿ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أو نامر السماء فتسقط عليهم قطعاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب ﴾ إن في ذلك لدلالة ، لكل عبد أناب إلى ربه بالتوبة ، ورجع إلى الإقرار بربوبيته ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ ولقد أعطينا داود منا فضلاً ، وقلنا للجبال سبِّحي معه إذا سبَّح ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ وسخرنا له الطير ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ ﴾ وسخرنا له الحديد ليناً بين يديه ، يُصَرِّفه كيف يشاء ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ وعهدنا إليه أن اعمل الكوامل[1] من الدروع ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ وقدِّر المسامير في حلق الدروع بمقدار دقيق ، لا ينقص ولا يزيد ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ واعمل أنت وآلك بطاعة الله ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ذو بصر لا يخفى علي شيء .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ وسخرنا لسليمان الريح ، تغدو في الصباح إلى انتصاف النهار مسيرة شهر ، وترجع من انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ﴾ وأذبنا له عين النحاس ، وأجريناها له ﴿ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ ومن الجن من يطيعه ويأتمر بأمره ، فيعمل بين يديه ما يأمره به ، بتسخير الله ذلك له

---

(١) سابغاتٍ : صفة لموصوف محذوف تقديره دروعاً سابغات أي كوامل تغطي جسم لابسها .

عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ
رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ
مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ
ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ
طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ

***

﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ ومن يعدل من الجن ، عن أمرنا الذي أمرناه به من طاعة سليمان ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ نذقه نار جهنم الموقدة ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وتَمَاثِيلَ ﴾ يعمل الجن لسليمان ما يشاء من الأبنية[1] ، ويعملون له تماثيل[2] من نحاس وزجاج ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَات ﴾ وينحتون له ما يشاء من أحواض الماء ، وقدور ثابتات لا يحركن لعظمهنَّ ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً ﴾ وقلنا لهم : اعملوا بطاعة الله يا آل داود ، شكراً لِلَّهِ على ما أنعم عليكم ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ وقليل من عبادي الذين يخلصون في توحيدي وطاعتي ، وشكري على نعمتي ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ فلما حكمنا على سليمان بالموت فمات ، لم يدلَّ الجنَّ على موته إلاَّ الأرَضة ، تأكل عصاه التي كان متكئاً عليها ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ ﴾ فلما سقط سليمان على الأرض ، بانكسار العصا ، تبيَّنت الجن أنهم لا يعلمون الغيب ، إذْ لو كانوا يعلمون الغيب ﴿ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ ﴾ ما مكثوا في العذاب المذل ، حولاً كاملاً بعد موته ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَـةٌ ﴾ لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامة بينة ، وحجة واضحة دالة على الله ﴿ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ بستانان بين جبلين عن أيمانهم وشمائلهم ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ كلوا مما رزقكم ربكم من هاتين الجنتين ، من زروعهما وأثمارهما ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ هذه بلدة طيبة،ليس فيها شيء مؤذٍ ، وربكم ربٌّ غفور لذنوبكم .

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ ﴾ فأعرضت سبأ عن طاعة ربها ، وصدَّت عن اتباع وامر رسلها ، فثقبنا سدهم الذي كان يحبس عنهم السيول ، فخرَّب ما أمامه ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ

(١) المراد بالمحاريب هنا القصور الشامخة والأبنية الرفيعة .
(٢) قال الحسن البصري : لم تكن التماثيل يومئذٍ محرمة ، وقد حرمت في شريعتنا سدّاً للذريعة .

وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾
وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

* * *

جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار، بساتين من ثمر الأراك[1] ﴿ وَأَثْلٍ وشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ومن شجر الطرفاء، وقليلٍ من السدر ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾ فعلنا بهؤلاء القوم ما فعلنا مكافأة لهم على كفرهم ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكَفُورَ ﴾ وهل يجازي الله إلا الكافر لنعمته، الجاحد لفضله ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ وجعلنا بين بلد قوم سبأ، وبين قرى الشام، قرى متصلة ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾ وجعلنا بين قراهم سيراً مقدراً، لا ينزلون إلا في قرية، ولا يغدون إلا من قرية، وقلنا لهم: سيروا في هذه القرى ليالي وأياماً آمنين، لا تخافون جوعاً ولا عطشاً ولا ظلماً من أحد ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ اجعل بيننا وبين الشام فلواتٍ ومفاوزَ، لنركب فيها الرواحل ولنتزود ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بما عملوا من معاصي الله، مما يوجب عقابه ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ فصيرناهم أحاديث يضرب بهم المثل فيقال «تفرقوا أيديَ سبأ» ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ وقطعناهم في البلاد كل مقطع ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ إن فيما فعلنا بهؤلاء لعظةً ودلالة، على حق الله على عبده من الشكر والصبر، لكل صبار شكور ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ ﴾ ولقد ظن إبليس بأهل سبأ أنهم يتبعونه، ويطيعونه في معصية الله، فصَدَق ظنُّه عليهم بإغوائه إياهم، حتى أطاعوه وعصوا ربهم ﴿ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم ثبتوا على طاعة الله ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ إلا ليعلم أولياؤنا من يصدق بالبعث ممن لا يوقن بالمعاد، ولا يصدّق بثواب ولا عقاب

---

(١) الخَمْط: كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة، وقد فسره الطبري بالأراك وهو مرويٌّ عن مجاهد والحسن، والراجح أن معنى الخمط المرُّ البشع كما قال أهل اللغة.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن
شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟
مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ
أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

* * *

﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ وربك يا محمد حفيظٌ لا يغيب عنه علم شيء، وهو مجازيهم يوم القيامة بما كسبوا .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : ادعوا الذين زعمتم أنهم شركاء لله ، فسلوهم أن يفعلوا بعض أفعالنا ، فإن لم يقدروا على ذلك فاعلموا أنهم مبطلون ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ لا يملكون وزن ذرة في السموات ولا في الأرض ، من خير ولا شر ، ولا نفع ولا ضر ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ﴾ وليس لهم في السموات والأرض ملك شيء ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ وليس لله معين من الآلهة ، على خلق شيء ولا على حفظه .

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ولا تنفع شفاعة شافع كائناً من كان ، إلا إذا أذن الله له بالشفاعة ، فكيف تعبدون من تزعمون أنه يقربكم إلى الله ، ويشفع لكم عند ربكم ؟ ! ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ حتى إذا كشف عن قلوب الملائكة الخوف والفزع ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ قالت الملائكة بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ ﴿ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قالوا قال الله الحق ، وهو العلي على كل شيء ، الكبير الذي لا شيء دونه ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قل يا محمد للمشركين : من يرزقكم من السموات بإنزاله الغيث عليكم ، وتسخيره الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم ، وتسخيره الأرض بإخراجه منها أقواتكم ، وأقوات أنعامكم ؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ فإن قالوا : لا ندري ، فقل : الله هو الذي يرزقكم ذلك ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وإنا لعلى هدى أو في ضلال ، أو إنكم على هدى أو في ضلال ظاهر[1] ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : لا تسألون أنتم عما ركبنا من إثم وجرم ،

(١) هذا نهاية الإنصاف مع الخصم كأنه يقول أحد الفريقين منا أو منكم في ضلال بيّن ، وفيه تعريض بضلال المشركين بوجه أبلغ من التصريح ، كما يقول العرب : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، يريد أن صاحبه هو الكاذب .

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا
بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾

* * *

ولا نسأل نحن عما تعملون من عمل ﴿ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ** ﴾ قل لهم : يجمع بيننا ربنا عنده يوم القيامة ، ثم يقضي بيننا بالعدل ، فيتبين عند ذلك المهتدي من الضال ﴿ **وَهُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ** ﴾ وهو القاضي الذي لا يحتاج إلى شهود ، العليم بالقضاء بين خلقه ﴿ **قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ**) قل يا محمد أروني الذين صيرتموهم لله شركاء ، ماذا خلقوا من الأرض ؟ ﴿ **كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ** ﴾ كذبوا ليس الأمر كما وصفوا ، بل الله هو المعبود الذي لا شريك له في ملكه ﴿ **العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ العزيز في انتقامه ممن أشرك به ، الحكيم في تدبيره خلقه .

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ** ﴾ وما أرسلناك يا محمد إلى قومك خاصة ، ولكنا أرسلناك للناس أجمعين ، العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود ﴿ **بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ بشيراً لمن أطاعك ، ونذيراً لمن كذبك ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ أن الله أرسلك إلى جميع البشر ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ** ﴾ ويقول المشركون : متى هذا الوعد؟ وفي أي وقت هو كائن ؟ ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ فيما تعدوننا من ذلك ؟ ﴿ **قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً** ﴾ قل لهم يا محمد : لكم ميعاد يوم هو آتيكم ، لا تستأخرون عنه إذا جاءكم ساعة فتنظروا للتوبة ﴿ **وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ قبله بالعذاب لأن الله جعل لذلك أجلاً ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا القُرْآنِ** ﴾ وقال الكافرون : لن نصدق بهذا الكتاب الذي جاءنا به محمد ﷺ ﴿ **وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ ولا بالكتاب الذي جاء به غيره من الأنبياء ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ القَوْلَ** ﴾ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يتلاومون يحاور بعضهم بعضاً ﴿ **يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** ﴾ يقول المستضعفون في الدنيا لولا أنتم أيها الكبراء ، لكنا مؤمنين بالله وآياته ﴿ **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ** ﴾ قال الرؤساء الذين استكبروا في الدنيا للأتباع الذين

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ

* * *

استضعفوا فيها : أنحن منعناكم عن اتباع الحق ، بعد إذ جاءكم من عند الله ؟ ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ بإيثاركم الكفر على الإيمان ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ قالوا : بل مكركم لنا بالليل والنهار ، صدَّنا عن الهدى ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أمثالاً وأشباهاً ، في العبادة والألوهية ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وندموا على ما فرَّطوا من طاعة الله ، حين عاينوا عذاب الله الذي أعده لهم ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وغُلَّت أيدي الكافرين إلى أعناقهم في نار جهنم ﴿ هَلْ يُجْزَوْن إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ما يفعل الله ذلك بهم ، إلا جزاءً لأعمالهم الخبيثة ، التي كانوا يعملونها في الدنيا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ وما بعثنا في أهل قرية ، رسولاً ينذرهم بأسنا أن ينزل بهم على معصيتهم ﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ إلا قال كبراؤها في الضلالة : إنا بما أرسلتم به من توحيد الله كافرون ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً ﴾ وقال الكبراء : نحن أكثر أموالاً ، وأولاداً من هؤلاء الفقراء ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ولن يعذبنا الله في الآخرة ، لأنه لو لم يكن راضياً عنا ، لم يبسط لنا في الرزق[1]

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ قل لهم يا محمد : إن ربي يوسّع الرزق في الدنيا من المعاش والرياش ، لمن يشاء من خلقه ، ويضيّق على من يشاء ، لا لمحبة لمن بسط له ، ولا لبغض لمن قدر عليه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله يفعل ذلك اختباراً لعباده وابتلاءً ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ وما أموالكم التي تفتخرون بها على الناس ، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم ، بالتي تقربكم منا قربة ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

---

(١) قاس المشركون أمر الآخرة على الدنيا ، فظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا ، سيعطيهم ذلك في الآخرة وهو قياس باطل ، لأن الله قد يوسع الرزق على الكافر ، ويقتره على المؤمن ابتلاءً وامتحاناً ، وهذا ما بينته الآية التالية ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق . . . ﴾

لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ
فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ
شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾
قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

* * *

صَالِحاً ﴾ إلا المؤمنين الصادقين فتقربهم أموالهم وأولادهم إلى الله ، بطاعتهم لله ، وأدائهم حقه ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فهؤلاء لهم من الله على أعمالهم الصالحة ، الضعفُ من الثواب بالواحد عشرة ﴿ وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ وهم في غرفات الجنات ، آمنون من عذاب الله ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ يبتغون إطفاء نورنا ، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ويعجزوننا ﴿ أُولَئِكَ فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أولئك محضرون في عذاب جهنم يوم القيامة .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ قل : إن ربي يوسع الرزق على من يشاء من خلقه ، ويضيق على من يشاء منهم ، محنةً واختباراً ، لا تكرمةً وإهانة ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ وما أنفقتم من نفقة في طاعة الله ، فإنَّ الله يخلفها عليكم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ وهو خير من يرزق ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ويوم نحشر الكفار جميعاً ، ثم نقول للملائكة : أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا ؟ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ تتبرأ منهم الملائكة وتقول : تنزيهاً لك يا رب ، ممَّا أضاف إليك هؤلاء من الأنداد ، لا نتخذ ولياً دونك ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ بل كانوا يعبدون الشياطين ، أكثرهم يصدقون بأن الجن بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ﴾ فاليوم لا تملك الملائكة للذين كانوا يعبدونهم في الدنيا نفعاً ينفعونهم به، ولا ضراً ينالونكم به ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ونقول للذين عبدوا غير الله : ذوقوا عذاب جهنم ،

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟
مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم
مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ
وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

* * *

التي كنتم بها في الدنيا تكذبون ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ وإذا تتلى على المشركين آيات كتابنا ، واضحات أنهن حق من عند الله ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ قالوا عند ذلك : لا تتبعوا محمداً ، فما هو إلا رجل يريد أن يمنعكم عما كان يعبد آباؤكم من الأوثان ، ويغيِّر دينكم ودين آبائكم ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرى ﴾ وقالوا : ما هذا الذي تتلوه علينا من القرآن ، إلا كذبٌ مختلقٌ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وقال المشركون لمحمد لمَّا بعثه الله نبياً[١] : ما هذا إلا سحر واضح لمن رآه تأمله ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ وما أنزلنا على أهل مكة ، كتاباً قبل القرآن يقرءون فيه ويتدارسونه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ وما أرسلنا إلى هؤلاء المشركين قبلك ، من نبي ينذرهم بأسنا﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾وكذب أممٌ رسلنا وتنزيلنا من قبل قومك ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ ولم يبلغ قومك يا محمد ، عشر ما أعطينا الذين من قبلهم من الأمم، من القوة ،والبطش، وغير ذلك من النعم ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ﴾ فكذبوا رسلي فعاقبناهم ، بتغييرنا ما كنا آتيناهم من النعم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ فانظر يا محمد كيف كانت عقوبتي بهم ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنما أعظكم بطاعة الله وذلك ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ بأن تقوموا[٢] لله اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، وتتفكروا في أن محمداً ﷺ ليس بمجنون ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ما محمد إلا نذير لكم ، ينذركم عقاب الله ، أمام عذاب

(١) فسر ابن جرير « الحقّ » بأنه محمد ﷺ ، والراجح أن المراد بالحق القرآن ، بدليل وصفهم له بأنه سحر ولم يقولوا ساحر ، والآية التي قبلها كذلك تتحدث عن القرآن فهو الأنسب للسِّياق والسِّباق .

(٢) قال القرطبي : هذا القيام هو القيام إلى طلب الحق ، لا القيام الذي هو ضد القعود ! ومعنى الآية إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلة واحدة وهي أن تتحروا الحقَّ لوجه الله مجتمعين ومنفردين لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون مجنوناً كما تزعمون .

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ

* * *

جهنم ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ إني لم أسألكم على ذلك جُعْلاً أي « عطاءً » فتتهموني ، وتظنوا أني إنما دعوتكم لمالٍ آخذه منكم ﴿ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ ما ثوابي على دعوتي لكم إلا على الله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ والله على حقيقة ما أقول لكم شهيد .

﴿ قُلْ إنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ قل : إن الله ينزل الوحي من السماء ، فيقذفه إلى نبيه محمد ﷺ ﴿ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ﴾ عالم ما يغيب عن الأبصار ، مما لم يكن وهو كائن ﴿ قل جاء الحَقُّ ﴾ جاء القرآن ووحي الله ﴿ وَمَا يُبْدِىءُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ وما ينشىء إبليس[1] خلقاً ، وما يعيد حياً بعد فنائه ﴿ قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ قل لهم : إن ضللت عن الهدى فسلكت غير طريق الحق ، فإن ضرره على نفسي ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ وإن استقمت على الحق ، فبهداية الله وتوفيقه ﴿ إنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ سميعٌ لما أقول لكم ، قريب من كل متكلم ، يسمع كل ما ينطق به ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا ﴾ ولو ترى يا محمد هؤلاء المشركين ، حين فزعهم من معاينتهم عذاب[2] الله ﴿ فَلاَ فَوْتَ ﴾ فلا سبيل حينئذٍ أن يفوتونا بأنفسهم ، أو يعجزونا هرباً وينجوا من عذابنا ﴿ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ وأخذهم الله بعذاب من موضع قريب ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ وقالوا حين رأوا العذاب : آمنا بالله وبكتابه وبرسوله ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ومن أي وجه لهم التوبة والرجعة ، وقد ذهبت الدنيا فصارت بعيداً من الآخرة ؟[3] ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقد كفروا بالله وبرسوله ، وبما جاءهم من عند الله ﴿ وَيَقْذِفُونَ

---

(١) هكذا فسره الطبري ، وقال غيره المعنى : ذهب الباطل بالمرَّة فليس له بدءٌ ولا عود ، وهو مثل يضرب للهلاك كقوله : ﴿جاء الحق وزهق الباطل﴾ وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

(٢) جواب « لو » محذوف للتهويل والتفظيع أي لرأيت أمراً عظيماً هائلاً ترتعد له فرائص الإنسان .

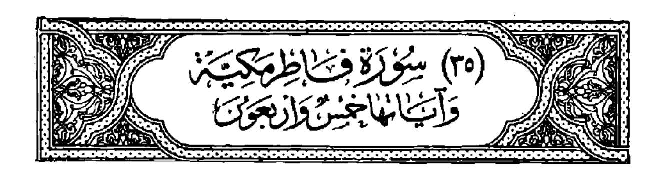
(٣) التناوش : التناول لشيء سهلٍ قريب ، ومنه المناوشة في القتال ومعنى الآية : من أين لهم تناول الإيمان والتوبة ، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد ؟

بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾

* * *

بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وهم اليوم في الدنيا يرجمون بالظنون والأوهام ، فيقولون : لا بعث ولا جنة ولا نار(١) **﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾** وحيل بين المشركين ، وبين الإيمان الذي يشتهونه ، فلا سبيل لهم إلى ما يتمنونه **﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴾** كما فعلنا بأمثالهم الكفار ، فلم نقبل منهم إيمانهم **﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾** إنهم كانوا في الدنيا في شك من نزول العذاب ، موجب لصاحبه ما يريبه من مكروه .





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١﴾

* * *

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الشكر الكامل للمعبود الذي لا تصلح العبادة إلاّ له ، خالق السموات السبع والأرض **﴿جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً﴾** جاعل الملائكة رسلاً إلى من يشاء من عباده ، في أمره ونهيه **﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾** ملائكة أصحاب أجنحة ، منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة أجنحة **﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾** يزيد في خلق الملك من الأجنحة ما يشاء(٢) ،وكذلك في جميع خلقه، له الخلق والأمر **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ**

(١) قال القرطبي : العرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف : هو يقذف ويرجم بالغيب على جهة التمثيل .

(٢) في الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ،بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب « رواه مسلم » .

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ
تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا
يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

* * *

شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يمتنع عليه فعل شيء أراده **﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾** ما يفتح الله للناس من خير، فلا مغلق له، فإن مفاتيح الخير كلها بيده **﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾** وما يغلق من خير عنهم، فلا فاتح له سواه **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** العزيز في نقمته، الحكيم في تدبير خلقه **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾** اذكروا ما أنعم الله به عليكم من خيراته وبسط لكم من العيش **﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾** وفكروا فانظروا، هل من خالق سوى فاطر السموات والأرض؟ **﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** الذي بيده مفاتيح أرزاقكم ومغالقها، يرزقكم من السماء والأرض، فتعبدوه دونه؟! **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾** لا معبود تنبغي له العبادة إلَّا له فأخلصوا له العبادة، وأفردوه بالألوهية **﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾** فكيف تصرفون عن خالقكم ورازقكم؟ **﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾** وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون، فلا يحزننك ذلك، ولا يعظم عليك، فإن ذلك سنة أمثالهم من كفرة الأمم **﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** وإلى الله مرجع أمرك، وأمرهم فمعاقبهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إن ما وعدكم الله به من إنزال عقوبته بكم، على إصراركم على الكفر به حقٌّ، فبادروا بالتوبة والإنابة إلى طاعة الله **﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾** فلا يخدعنكم ما أنتم فيه من العيش في هذه الدنيا، عن اتباع محمد والإيمان به **﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾** ولا يخدعنكم بالله الشيطانُ فيمنيكم الأماني الكاذبة، ويحملكم على الكفر بالله **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾** إن الشيطان لكم عدو، فاحذروه حذركم من عدوكم، فلا تطيعوه **﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** إنما يدعو الشيطان أتباعه ومن أطاعه، ليكونوا من المخلدين في نار جهنم **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾** الذين كفروا بالله ورسوله، لهم عذاب النار **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** والذين صدَّقوا الله ورسوله،

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ
فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ
إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ
يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ

* * *

وعملوا بما أمرهم الله ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لهم مغفرة من الله لذنوبهم ، ولهم الجنة ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ أفمن حسَّن له الشيطان أعماله السيئة ، من معاصي الله والكفر به ، فظنَّ القبيح حسناً ، تذهب نفسك عليهم حسراتٍ[1] ؟ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ فإنَّ الله يخذل من يشاء عن الإيمان ، فيضله عن الرشاد والهدى ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ويوفق من يشاء للإيمان به ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ فلا تُهْلك نفسك حزناً على ضلالتهم ، وتكذيبهم لك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ عالم بما يصنع هؤلاء ومجازيهم به.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ الله هو الذي يرسل الرياح ، فتثير السحاب للمطر والغيثِ ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فسقناه إلى بلدٍ مجدبٍ ، لا نبت فيه ولا زرع ، فأخصبنا تلك الأرض بعد المحل ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ هكذا يحيي الله الموتى بعد فنائهم ، كما أحيينا هذه الأرض بعد مماتها .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ من كان يريد العزة بعبادة الأوثان ، فليتعزز بالله ، فلله العزة جميعاً ، دون الآلهة والأوثان ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ إلى الله يصعد الذكر والثناء ، ويرفعه العمل الصالح[2] ، وهو العمل بطاعة الله وأداء فرائضه ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ والذين يكسبون السيئات ، لهم عذاب جهنم ﴿ وَمَكْرُ أُولَئِكَ

---

(١) أشار ابن جرير إلى أن جواب الشرط محذوف اكتفاءً بدلالة ما بعده﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ ﴾ وقدَّره غيره : أفمن زُيِّن له سوء عمله ، كمن اهتدى واستقام على شريعة الله ؟

(٢) قال ابن عباس : الكلامُ الطيبُ : ذكرُ الله ، والعملُ الصالح : أداء فرائضه ، فمن ذكر الله وأدى فرائضه صعد به إلى الله ، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رُدَّ كلامه على عمله ، هذا ما رجحه الطبري وقال غيره معنى الآية : العمل الصالح يتقبَّله الله تعالى ويثيب صاحبه عليه ، فمن قال وأحسن العمل قَبِل الله منه عمله .

هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ
وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ
هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ
مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

***

﴿هُوَ يَبُورُ﴾ وعمل هؤلاء المشركين يبور فيبطل ، لأنه لم يكن لله ، فلم ينفع عامله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ والله خلق أباكم آدم من تراب ، ثم خلقكم من نطفة الرجل والمرأة ، ثم زوَّج منكم الأنثى من الذكر ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وما تحمل من أنثى إلاَّ وهو عالم بحملها ووضعها ، وما هو ذكر أو أنثى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ وما يطول عمر معمَّر ، ولا ينقص من عمر آخر غيره ، إلا في كتاب مكتوب عنده ، لا يزاد فيما كتب له ولا ينقص ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إن إحصاء أعمار خلقه عليه ، سهلٌ لا يتعذر ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وما يعتدل البحران فيستويان ، أحدهما حلوٌ كثير العذوبة ، والآخر ملحٌ مرٌ شديد الملوحة ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً﴾ ومن كل البحار تأكلون السمك ، من المالح والعذب ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ وتستخرجون الدر والمرجان ، من الملح الأجاج ﴿وَتَرَى الْفُلْك فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ وترى السفن في تلك البحار تشق الماء بصدورها ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتطلبوا من معايشكم ، ولتتصرفوا في تجاراتكم ﴿ولعلكم تشكرونَ﴾ ولتشكروا الله على تسخيره ذلك لكم ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل الليل في النهار ، وذلك ما نقص من الليل أدخله في النهار ، وما نقص من أجزاء النهار زاد في أجزاء الليل فأدخله فيه ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وأجرى لكم الشمس والقمر ، نعمةً منه عليكم ، ورحمةً بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ كل ذلك يجري لوقت معلوم ، وحدٍّ لا يتعداه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ هذا معبودكم وهو الله ربكم ، له الملك التام ، الذي لا شيء إلا وهو في ملكه وسلطانه ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ والذين تعبدون من دون ربكم ، ما يملكون قشر النواة .

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ
خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ
شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ
وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

* * *

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إن تدعوا الآلهة التي تعبدونها، لا يسمعوا دعاءكم، لأنها جماد لا تفهم ما تقولون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ولو سمعوا دعاءكم وفهموا قولكم، بأن جُعل لهم سمع يسمعون به، ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ويوم القيامة تتبرأ الآلهة التي تعبدنها، من أن تكون في الدنيا شريكاً لله ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا يخبرك يا محمد عن الحقيقة، مثل الله[1] ذي الخبرة، الذي لا يخفى عليه شيء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ يا أيها الناس أنتم أُولو الحاجة والفقر إلى ربكم، فإياه فاعبدوا وفي رضاه فسارعوا ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ والله هو الغني عن عبادتكم، وهو المحمود على نعمه بكل حال ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إن يشأ ربكم يهلككم أيها الناس، ويأت بخلق سواكم يطيعونه ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وما إذهابكم والإتيان بخلقٍ سواكم، على الله بشديد، بل ذلك عليه سهلٌ يسير ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ولا تحمل نفسٌ آثمةٌ إثم أخرى غيرها ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ وإن تسأل ذات ثقل من الذنوب[2]، من يحمل عنها ذنوبها، لم تجد من يحمل عنها شيئاً ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ولو كان الذي سألته ذا قربة من أخ أو أب ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ إنما تنذر يا محمد الذين يخافون عقاب الله، من غير معاينة منهم لذلك، فهؤلاء ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب، فإنما يتطهر لنفسه، فيثيبها رضا الله، والفوز بجنانه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وإلى الله مرجع كل عاملٍ منكم، وهو مجازٍ جميعكم بما قدّم من خيرٍ أو

---

(١) قال قتادة: اللهُ هو الخبير بما سيكون منهم يوم القيامة، فهو يخبر بما يكون من أمرها وأمر عبدتها.
(٢) قال ابن عباس: من كان عليه وزرٌ لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي
الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾
إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ

***

شرٍ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ وما يستوي الأعمى عن دين الله ، والبصيرُ الذي أبصر رشده ، فاتَّبع محمداً وصدَّقه ﴿وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ﴾ وما تستوي ظلمات الكفر ، ونورُ الإيمان ﴿وَلاَ الظِّلُّ ولاَ الحَرُورُ﴾ وما تستوي الجنة ولا النار[1] ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾ وما يستوي أحياء القلوب بالإيمان ، وأموات القلوب بالكفر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يسمع من يشاء هدايته آيات كتابه وحججه فيهديه إلى سبيل الرشاد ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ﴾ وأنت يا محمد لا تقدر أن تنفع بمواعظ الله ، وبيان حججه ، من كان ميت القلب من أحياء عباده ﴿إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ ما أنت يا محمد إلا نذير ، تنذر هؤلاء المشركين عذاب الله ، والهداية بيد الله لا بيدك .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ إنا أرسلناك يا محمد بالإيمان وشرائع الدين ، مبشراً بالجنة من صدَّقك ، ونذيراً تنذر بالنار من كذبك ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وما من أمة من الأمم ، إلاَّ مضى فيها من قبلك نذير ، ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وإن يكذبك يا محمد مشركو قومك،فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّنَاتِ﴾ جاءوهم بحجج واضحة من الله ﴿وَبِالزُّبُرِ وَبِالكِتَابِ المُنِيرِ﴾ وجاءتهم بالكتب من عند الله ، وجاءهم من الله الكتابُ المنير ، لمن تأمله وتدبره ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ثم أهلكنا الذين جحدوا رسالة رسلنا ، فانظر يا محمد كيف كان حلول عقوبتي بهم ؟ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ألم تر يا محمد أن الله أنزل من السماء مطراً فسقيناه أشجاراً في الأرض ؟ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُها﴾ فأخرجنا بالمطر

---

(١) الحرور : الرياح الحارة التي تكون بالنهار من حرّ الشمس ، وقد نبه الطبري في تفسيره للظل والحرور بالجنة والنار ، على أنه قولٌ لبعض المفسرين بقوله : قيل : الجنة والنار وهناك قول آخر وهو أن المراد بهما الظل الذي يستظل به الإنسان وحرارة الشمس التي تُحرق بشدتها الأبدان .

أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)
وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ
أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

* * *

من تلك الأشجار ، ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ، منها الأحمر والأسود والأصفر **﴿وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرابِيبُ سُودٌ﴾** ومن الجبال طرائق مختلفة الألوان ، بيض وحمر وسود شديدةُ السواد **﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾** كما اختلفت ألوان الثمرات والجبال ، اختلفت ألوان الناس والدواب والأنعام كذلك **﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾** إنما يخاف الله(١) ، فيتقي عقابه ، العلماء العاملون بطاعتهم لله **﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾** عزيز في انتقامه غفور لمن آمن به ، وأطاعه

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يقرأون كتاب الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، ويؤدون الصلاة المفروضة بحدودها **﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾** ويتطوعون بما أعطيناهم بالصدقة من الأموال ، بعد أداء الواجب **﴿سِرّاً وعَلَانِيَةً﴾** في خفاءٍ وجهر **﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾** يرجون بفعلهم ذلك ، تجارةً لن تكسد ولن تهلك **﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾** كي يوفيهم الله ثواب أعمالهم ، التي عملوها في الدنيا **﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** وكي يزيدهم من فضله ، ما هو أهلٌ له **﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾** غفور لذنوب هؤلاء شكور لحسناتهم **﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ﴾** وهذا القرآن المنزل عليك يا محمد ، هو الحق الذي لا شك فيه ، عليك أن تعمل به وتتبع ما فيه **﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** يصدق الكتب السابقة ، التي أنزلت على من قبلك من الرسل **﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾** إن الله بعباده لذو علم وخبرة ، بصيرٌ بما يصلحهم من التدبير **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾** ثم أورثنا الإيمان بالكتب التي أنزلناها ،

---

(١) المراد بالخشية هنا خشية الهيبة والتعظيم لأمر الله ، لأن العلماء هم الذين عرفوا الله حق المعرفة فعظموه حقَّ التعظيم ، ولهذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . . » الحديث .

بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا
دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا
يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ

* * *

الذين اخترناهم لطاعتنا واجتبيناهم[1] فهم مؤمنون بكل كتاب أنزله الله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فمن هؤلاء الذين اصطفيناهم من ظلم نفسه، بركوبه المآثم، واقترافه الفواحش[2] ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ ومنهم المقتصد في طاعة ربه، وغير المجتهد فيما كُلف فيه ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ ومنهم المبرِّز الذي سبق المجتهدين بصالح الأعمال ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بتوفيق الله ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ سبْقُ هذا السابق هو الفضل الكبير، الذي فضل به غيره ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ بساتين إقامة يدخلها هؤلاء، الذين اصطفيناهم من عبادنا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ يلبسون في الجنة أسورةً من ذهبٍ ولؤلؤاً ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولباسهم في الجنة حرير ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وقالوا حين دخلوا الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا جميع أنواع الشدة، فلا حزن علينا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إن ربنا لساترٌ لذنوب عباده بعفوه عنها، شكورٌ لهم على طاعتهم إياه، ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ الذي أنزلنا الجنة دار الإقامة، التي لا تحوُّل عنها ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ فضلاً منه وإكراماً ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا يصيبنا فيها تعبٌ ولا وجع ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ولا يصيبنا فيها عناءٌ ولا إعياء.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ والذين جحدوا بالله ورسوله، لهم نار جهنم مخلدين فيها ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ لا يكتب عليهم الموت، فيستريحوا من العذاب[3] ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ ولا يخفف عنهم من عذاب جهنم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ هكذا يكافىء الله كل جحود لنعم ربه ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ وهؤلاء الكفار يستغيثون ويضجّون في النار

(١) الراجح أن هذه الأصناف الثلاثة من الأمة المحمدية «الظالم، والمقتصد، والسابق» والظاهر أن الظالم هو الذي غلبت سيئاته على حسناته، والمقتصد هو الذي تساوت حسناته وسيئاته، والسابق هو الذي زادت حسناته على سيئاته، وهناك أقوال أخرى والله أعلم بالصواب.

(٢) دخول هؤلاء الجنة لا يمنع أن ينالوا من العذاب على ما اقترفوا قبل ذلك ما شاء الله تعالى، كما هو مقرر في علم التوحيد، وهو مقتضى ما ورد من آيات الوعيد على ارتكاب المعاصي، كما أن من العدل عدم تساوي هذه الأصناف الثلاثة في الإكرام.

(٣) قال أبو السوداء: مساكين أهل النار لا يموتون، لو ماتوا لاستراحوا.

أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي
جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا
يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ
مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم
بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

* * *

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ يقولون: يا ربنا أخرجنا نعمل بطاعتك، غير الذي كنا نعمل قبل من معاصيك ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أولم نعمركم يا معشر المشركين من السنين ما يتذكر فيه من تذكر من ذوي الألباب والعقول ؟ ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ وجاءكم من الله منذرٌ ، ينذركم عذاب الله ، فلم تتذكروا ؟ ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ فذوقوا نار جهنم ، فما للكافرين الذين ظلموا أنفسهم ، ناصرٌ ينصرهم من الله ، ليستنقذهم من عقابه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إن الله عالم بما تخفون أيها الناس في أنفسكم ، وما هو غائب عن أبصاركم في السموات والأرض ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالم بما تضمرونه ، فاتقوه أن يطلع عليكم ، وانتم تضمرون الشك في وحدانية الله أو نبوة محمد ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾ خلفاء من بعد من مضى من الأمم ، تخلفونهم في ديارهم ومساكنهم ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فمن كفر منكم ، فضرر كفره على نفسه ﴿وَلَا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً﴾ لا يزيدهم الكفر إلا بعداً من رحمة الله ﴿وَلَا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ ولا يزيدهم كفرهم بالله إلا هلاكاً

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : أخبروني عن شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله ؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أخبروني أيَّ شيءٍ خلقوا من الأرض ؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أم لهم شركة مع الله في خلق السموات ، إن لم يكونوا خلقوا من الأرض شيئاً ؟ ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً﴾ أم أنزلنا عليهم كتاباً من السماء ، بأن يشركوا بالله الأوثان والأصنام ؟ ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ فهم على برهانٍ من الإشراك بالله ؟ ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً﴾ ما يعد بعضهم بعضاً إلا خداعاً وغروراً ، وذلك قولهم

* إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ

* * *

ما نعبد آلهتنا إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ إن الله يمسك السموات والأرض ، لئلا تزولا عن أماكنهما ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ولو زالتا ما أمسكهما أحد سواه ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ حليماً عمن كفر به من خلقه ، في تركه تعجيل العذاب ، غفوراً لذنوب من تاب منهم وأناب ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأقسم المشركون بالله أشد الأيمان ، فبالغوا فيها ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ لئن جاءهم من الله رسول ينذرهم ، ليكونن أشد قبولاً لما يأتيهم به ، من إحدى الأمم[1] التي خلت من قبلهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ فلما جاءهم محمد ﷺ ينذرهم عقاب الله ، ما زادهم مجيء النذير ، إلّا هرباً[2] من الإيمان بالله ، وسلوك هدى الطريق ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ﴾ استكباراً وخدعة سيئة ، وذلك أنهم صدُّوا الضعفاء عن اتباعه مع كفرهم به ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ ولا ينزل المكر السيء إلا بالذين يمكرونه فيحل بهم مكروه مكرهم ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا سنة الله[3] بهم ، بأن أحل بهم نقمتي على تكذيبهم رسولي ، مثل الذي أحللت بمن قبلهم من الأمم ؟ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ فلن تجد لسنة الله في خلقه تغييراً ولا تبديلاً[4] ، فلن يغيِّر الله ذلك ولن يبدِّله ، لأنه لا مردَّ لقضائه .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أولم يسر هؤلاء المشركون في الأرض ، التي أهلكنا أهلها

---

(١) المراد بهم اليهود والنصارى ، فقد قال المشركون : لو جاءنا رسول لكنا أهدى من أهل الكتاب .

(٢) لما جاءهم النذير وهو محمد ﷺ بالمعجزات الباهرات ، ما زادهم مجيئه إلا نفورا عن الحق ، عناداً وكبراً ، كأنه صار سبباً في نفورهم عن الإيمان واتباع هداية الرحمن .

(٣) أشار الطبري إلى أن قوله﴿ سنة الأولين ﴾ على حذف مضاف أي سنة الله وطريقته في الأولين .

(٤) التبديلُ : تغيير الصورة مع بقاء المادة ، والتحويلُ : نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر ، وقد بيّن تعالى أن سنته في خلقه لا تتغير ولا تتحول لأن قضاءه مبرم .

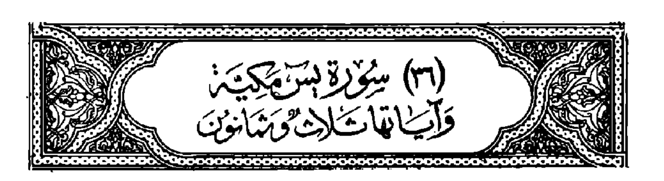
كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

* * *

بكفرهم وتكذيبهم رسلنا ، فإنهم تجار يسلكون طريق الشام ؟ ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم التي كانوا بها ، ألم نهلكهم ونخرِّب مساكنهم ، ونجعلهم مثلاً لمن بعدهم ؟ ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كانوا أشدَّ من قومك قوة وبطشاً ، فلن يتعذر على الله أن يفعل بهؤلاء مثل الذي فعل بأولئك من تعجيل العذاب ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ ولن يعجزنا هؤلاء المشركون ، فيسبقونا هرباً في الأرض إذا أردنا إهلاكهم ، أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ عليماً بخلقه ، قديراً على الإنتقام ممن شاء منهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ ولو يعاقب الله الناس بما عملوا من الذنوب ، والمعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ تَدبُّ عليها ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ولكن يؤخر عقابهم بما كسبوا ، إلى أجل معلوم عنده محدود ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ فإذا جاء أجل عقابهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ من الذي يستحق العقاب ، ومَن الذي يستوجب الكرامة، ومن كان منهم في الدنيا مطيعاً ، ومن كان فيها مشركاً ، لا يخفى عليه أحد من خلقه .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر»

***



بسم الله الرحمن الرحيم

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا

* * *

﴿يسٓ . وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾ يقسم الله بوحيه وتنزيله المحكم ، بما فيه من الأحكام ، والبينات من الحجج ﴿إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ إنك يا محمد لمن المرسلين بوحي الله إلى عباده ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على طريق الإسلام ، الذي لا اعوجاج فيه ﴿تَنْزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ هذا القرآن إرسال الرب ، العزيز في انتقامه من أهل الكفر ، الرحيم بمن تاب إليه وأناب ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ لتنذر قوماً لم ينذر آباؤهم ، لأنهم كانوا في الفترة ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عما الله فاعل بأعدائه المشركين ، من إحلال نقمته ﴿لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ لقد وجب العقاب على أكثرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب ، أنهم لا يؤمنون بالله ولا رسوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ﴾ جعلنا أيمان هؤلاء الكفار مغلولةً إلى أعناقهم بالأغلال[1] ، فلا تُبسط بشيءٍ من الخيرات ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ يرفعون رؤوسهم ، ويغضون أبصارهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً﴾ وجعلنا من بين أيديهم حاجزاً ومن خلفهم حاجزاً، وعنى بالآية أنه

---

(١) هذا على قول الأكثرين من باب التمثيل ، فقد شبه تعالى الكفار في عدم إيمانهم وإقبالهم على فعل الخير ، بمن رُبطت يداه بسلاسل وقيود حديدية مع عنقه ، فأصبح مرفوع الرأس لا يستطيع أن يحرك يديه يمنة ولا يسرة ، وهو تمثيل رائع الصورة والبيان .

وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾
إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ
وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ
جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾

* * *

زين لهم سوء أعمالهم فهم يعمهون[١] ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فجعلنا على أبصارهم غطاءً ، فهم لا يبصرون هدى ، ولا ينتفعون به ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ يستوي يا محمد على هؤلاء الكفار ، الإنذار وترك الإنذار منك إليهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم لا يؤمنون ، لأن الله قد حكم عليهم بذلك ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ إنما ينفع إنذارك يا محمد ، من آمن بالقرآن ، واتَّبع ما فيه من أحكام الله ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ﴾ وخاف الله حين يغيب عن أبصار الناظرين ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ فبشره يا محمد بمغفرة من الله لذنوبه ، وثواب كريم في الآخرة وهو الجنة .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ﴾ نحيي الموتى بعد فنائهم ، ونكتب ما قدموا في الدنيا من خير وشر ، ومن صالح الأعمال وسيئها ، وآثار خطاهم بأرجلهم[٢] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ وكل شيء كان أو هو كائن ، أثبتناه في أم الكتاب[٣] الذي يُبين عن حقيقة جميع ما أثبت فيه[٤] ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ القَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ﴾ ومَثِّلْ يا محمد لمشركي قومك مثلاً ، أصحاب قرية « أنطاكية » إذ جاءها رسل الله ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ حين أرسلنا إليهم اثنين ، يدعوانهم إلى الله فكذبوهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ فقويناهما برسولٍ ثالث ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ فقالوا لأصحاب القرية : إنا إليكم أيها القوم مرسلون ،

---

(١) هذا تمثيل آخر للكافرين ، مثَّل تعالى لهم بمن جعل أمامه حاجز يحجب الرؤية ، ومن ورائه حاجز كذلك وجعل على عينيه غطاءً ، فمن أين يبصر ويرى وقد سدَّت عليه المنافذ ؟ فهو تمثيل لضلالهم .

(٢) نقل عن بعض المفسرين أن المراد بالآثار هي آثار خطاهم إلى المساجد، والتخصيص بالمساجد تخصيصٌ بلا مخصص، لأن المقصود أن الله يكتب أثر سير الإنسان في طاعة الله تعالى ، أو في معصيته .

(٣) اللوح المحفوظ .

(٤) قال ابن كثير عند هذه الآية : أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب قاله مجاهد وقتادة . ا هـ أقول وهو الأنسب في السياق، فالله تعالى كتب ما قدموا وآثارهم في صحائف الأعمال ، ثم بين جل وعلا أن كل شيء محفوظ عنده في أم الكتاب ، سواء من الأعمال التي تكتب على ابن آدم ، أو من غيرها، والله أعلم .

قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ
قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي
فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾

* * *

بأن تخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، وتتبرءوا مما تعبدون من الآلهة والأصنام ﴿**قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا**﴾ قال أصحاب القرية: ما أنتم إلا أناسٌ مثلنا، ولو كنتم رسلاً كما تقولون لكنتم ملائكة ﴿**وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ**﴾ وما أنزل الرحمن إليكم من رسالةٍ ولا كتاب، ولا أمركم فينا بشيء ﴿**إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ**﴾ في قولكم إنكم إلينا مرسلون ﴿**قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ**﴾ قال الرسل: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون فيما دعوناكم إليه، وإنا لصادقون ﴿**وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله، التي أرسلنا بها إليكم، بلاغاً واضحاً أداءً لما علينا ﴿**قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ**﴾ قال أصحاب القرية: إنا تشاءمنا بكم، فإن أصابنا بلاء فمن أجلكم ﴿**لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ**﴾ لئن لم تكفُّوا عن البراءة من آلهتنا، والنهي عن عبادتنا، لنرجمنكم بالحجارة ﴿**وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ ولينالنكم منا عذابٌ موجع ﴿**قالوا طائركم معكم أئن ذُكِّرتُمْ**﴾ قال لهم الرسل: حظكم من الخير والشر معكم، إن أصابكم سوء فبما كُتِب عليكم، وما ذلك من شؤمنا ﴿**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**﴾ بل أنتم قوم أهل معاصي وآثام.

﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى**﴾ وجاء من أبعد المدينة رجل يسعى مسرعاً إليهم - وكان مؤمناً وعلم بعزمهم على قتل الرسل - ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾ فقال لهم: يا قوم اتبعوا المرسلين الذين أرسلهم الله إليكم، واقبلوا منهم ما أتوكم به ﴿**اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا**﴾ اتبعوا من لا يسألكم على نصيحتهم لكم أجراً، ﴿**وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ وهم على استقامة من طريق الحق، فاهتدوا أيها القوم بهداهم ﴿**وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ وأيُّ شيءٍ يمنعني أن أعبد الرب الذي خلقني؟ ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ وإليه تردون جميعاً ﴿**ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً**﴾ أأعبد من دون الله معبوداً سواه؟ ﴿**إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا**﴾ إن مسني الرحمن بضر وشده، لا تقدر على

إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾

* * *

دفع ذلك الضر عني ﴿وَلاَ يُنْقِذُونِ﴾ ولا يخلصوني من ذلك الضر ﴿إِني إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ إني إن اتخذت آلهةً هذه صفتها، لفي ضلال واضح، يبين لمن تأمله ﴿إِنِي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إني آمنت بربكم الذي كفرتم به ﴿فاسْمَعُونِ﴾ فاسمعوا قولي، فقتله قومه ﴿قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ﴾ قال الله تعالى حين قتلوه: ادخل الجنة، فلما دخلها، وعاين ما أكرمه الله به ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ قال يا ليت قومي يعلمون، السبب الذي من أجله غفر لي ربي ذنوبي ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ﴾ وجعلني من الذين أكرمهم الله بإدخاله جنته، فيؤمنوا بالله، ويستوجبوا الجنة[1] ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وما أنزلنا على قوم هذا المؤمن جنوداً من الملائكة نقاتلهم بها ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ وما كنا لننزل الملائكة لإهلاكهم، بل الأمر أيسر علينا من ذلك.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ما كان إهلاكهم إلا صيحة واحدة، أنزلها الله من السماء عليهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ فإذا هم هالكون ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يا حسرة العباد على أنفسها، وتندماً وتلهفاً في استهزائهم برسل الله الذين أرسلهم الله إليهم ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُونِ﴾ ألم ير هؤلاء المشركون كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية، بتكذيبهم رسلنا، وكفرهم بآياتنا؟ ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ ألم يروا أنهم إليهم لا يرجعون؟ ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وإنَّ كل هذه القرون التي أهلكناها وغيرهم، محضرون جميعهم عندنا يوم القيامة ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ ودلالة وعلامة لهؤلاء المشركين، على قدرة الله على إحيائه من مات من خلقه، وإعادته بعد فنائه، إحياؤه الأرض الميتة، التي لا نبت فيها، ولا زرع بالغيث ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وإخراجه منها الحب،

(١) وهذه سنة أولياء الله، والدعاة إلى سبيله، يتمنون الرشاد للناس جميعاً، ويرجون لهم الخير في حياتهم، وحتى بعد موتهم، أما السبب لدخوله الجنة فهو إيمانه بالله، وصبره على الأذى في سبيل الله حتى مات شهيداً.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ
لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ
وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾

* * *

الذي هو قوتٌ لهم وغذاء ، فمنه يأكلون ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وجعلنا في الأرض التي أحييناها ، بساتين من نخيل وأعناب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ وأنبعنا فيها عيون الماء ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ ليأكل عبادي من ثمرات الجنات ، التي أنشأناها لهم ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ومن ثمر ما عملت أيديهم ، مما غرسوا وزرعوا ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أفلا يشكر العباد من أنعم عليهم بهذا الرزق ؟ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ تنزيهاً وتبرئةً ، للذي خلق الألوان المختلفة كلها ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من نبات الأرض ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن الأشياء التي لم يطلعهم عليها ، خلق كذلك أزواجاً[1]

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ ودليل لهم أيضاً على قدرة الله على فعل كل ما يشـاء ، الليل ننزع عنه النهار ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ فإذا هم قد صاروا في ظلام الليل ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ والشمس تجري إلى موضع قرارها ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ذلك الجري تقدير العزيز في انتقامه من أعدائه ، العليم بمصالح خلقه ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ وآيةٌ لهم تقديرنا منازل القمر ، بالنقصان بعد تناهيه وتمامه ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ حتى عاد كالعذق اليابس في انحنائه ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ لا الشمس يصلح لها لحاق القمر ، فتكون الأوقات كلها نهاراً ، لا ليل فيها ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ ولا الليل بفائت النهار ، حتى تذهب ظلمته بضيائه ، فتكون الأوقات كلها ليلاً ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم ، تدور في فَلَك السماء ، بقدرة الواحد الأحد ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ودليل لهم على قدرتنا على ما نشاء ، حملنا من نجا من ولد آدم في سفينة نوح المملوءة .

(١) ولعل من جملة ذلك ما استطاع العلم في هذا العصر أن يكتشفه من أن الذرة في تكوينها الداخلي تتألف من كهارب سالبة ، وكهارب موجبة ، كما أنه عرف منذ زمن أن الزوجية موجودة في النبات ، فضلاً عن سائر الحيوانات صغيرها وكبيرها ، فسبحان العليم القدير .

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا
وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ
مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ

* * *

﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ وخلقنا للناس تفضلاً منا عليهم ، من مثل تلك السفينة ، ما يركبونه من المراكب[١] ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ وإن نشأ نغرق هؤلاء المشركين ، إذا ركبوا السفينة في البحر ، فلا مغيث لهم ينجيهم من الغرق ﴿ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ ولا ينقذهم من الغرق شيءٌ ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ إلا أن ننقذهم نحن ، رحمة منا لهم ، فننجيهم من الغرق ، ونمتعهم إلى أجل هم بالغوه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المشركين : احذروا ما مضى من نقم الله بالأمم قبلكم ، أن يحل مثله بكم ! ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ واتقوا ما أنتم لاقوه بعد هلاككم على كفركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ليرحمكم ربكم بالتوبة والإيمان[٢] .

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وما تجيء هؤلاء المشركين حجة من حجج الله ، دالة على توحيده، وتصديق رسوله ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يتفكرون فيها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أنفقوا من رزق الله الذي رزقكم ، فأدوا منه لأهل الحاجة ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الذين أنكروا وحدانية الله للذين آمنوا بالله ورسوله ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أنطعم أموالنا وطعامنا ، من لو يشاء الله أطعمه ؟! ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ما أنتم إلا في ذهابٍ عن الحق ، وجورٍ عن الرشد، واضح لمن تأمله وتدبره ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ ويقول المشركون ـ يستعجلون ربهم العذاب ـ متى هذا الوعد بقيام الساعة ؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أيها القوم ؟! ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا صيحة واحدة ، وذلك نفخة الفزع[٣] تأتيهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ وهم يختصمون فيما بينهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾

---

(١) هذا هو الراجح ، وقيل المراد خلقنا لهم من سفينة نوح الإبل التي يركبونها لأن الإبل في البر مثل السفن في البحر ، والأرجح ما ذكره الطبري .

(٢) جواب الشرط محذوف تقديره : أعرضوا عن قبول النصيحة والإيمان ، دل عليه ما بعده ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾.

(٣) هذه هي النفخة الأولى في الصور « نفخة الفزع » ثم تأتي نفخة الصعق ، ثم نفخة الإحياء ، فالنفخات كما ذهب ابن جرير ثلاثة وهو الراجح ، وقيل نفختان : نفخة الصعق ، ونفخة الإحياء .

أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن
بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ
لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم
مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ

* * *

فلا يستطيع المشركون عند النفخ في الصور، أن يوصوا في أموالهم أحداً ﴿وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا يستطيع من كان خارجاً عن أهله ، أن يرجع إليهم ، لأنهم يُعجَّلون بالهلاك ولا يُمهلون ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ للبعث ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ فإذا الناس من قبورهم يخرجون سراعاً إلى ربهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ قال المشركون: يا ويلنا من أيقظنا من منامنا ؟ ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فقال المؤمنون : هذا وعد الله ، وصدق المرسلون فيما أخبرونا عنه ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ما إعادتهم أحياء بعد مماتهم إلا بصيحة واحدة ، وهي النفخة الثالثة في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فإذا هم مجتمعون لدينا في موقف العرض والحساب ، لم يتخلف منهم أحد .

﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ فيوم القيامة يوفي الله كل نفس أجر ما عملت ، ولا يعاقبها إلا بما اجترمت ﴿وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا تُكافؤون إلا على أعمالكم ، التي كنتم تعملونها في الدنيا ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ في شغلٍ بنعم الله التي تأتيهم ، عما يلقى أهل النار[1] ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ﴾ أصحاب الجنة وأزواجهم في ظلال الجنة ، لا تصيبهم الشمس كما تصيب أهل الدنيا ﴿عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ متكئون على السرر والفرش الوثيرة ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ لهؤلاء في الجنة فاكهة ، ولهم فيها ما يتمنون ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ تسليمٌ من الله عليهم ، وهو الرحيم بهم إذ لم يعاقبهم بما سلف منهم ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ وتميَّزوا عن المؤمنين اليوم أيها الكافرون ، فإنكم داخلون غير مدخلهم ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ

(١) قال ابن عباس : شغلهم فضّ الأبكار ، وضرب الأوتار ، عن النظر إلى أهل النار .

يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ
أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ
بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾
وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ
فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا

* * *

إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ ألم أوصكم وآمركم في الدنيا ، أن لا تطيعوا الشيطان في معصية الله ؟ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ إن الشيطان لكم عدوٌّ ظاهر العداوة ، فقد غرَّر أباكم حتى أخرجه وزوجته من الجنة ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وألم أوصكم بأن اعبدوني دون ما سواي من الآلهة والأنداد ؟ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إخلاص عبادتي ، وإفراد طاعتي ، هو الدين الصحيح ، والطريق المستقيم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً﴾ ولقد صدَّ الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن طاعتي ، حتى عبدوه ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أنه لا ينبغي لكم أن تطيعوا عدوكم ؟ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ هذه النار التي وُعدتم بها في الدنيا ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ احترقوا بها يوم القيامة ، بما كنتم تكذبون بها في الدنيا .

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ يوم القيامة نطبع على أفواه المشركين ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ بما عملوا من المعاصي ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وتشهد أرجلهم على ما فعلوه من الآثام ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ لو نشاء لصيَّرناهم عُمياً ، لا يبصرون طريقاً ، ولا يهتدون له ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ فابتدروا الطريق ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ فأي وجه يبصرون من الطرق ، وقد طمسنا على أعينهم ؟ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ ولو نشاء لأقعدنا هؤلاء المشركين من أرجلهم في منازلهم[1] ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾ فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ، ولا أن يرجعوا وراءهم ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ ومن نمدّ له في العمر ، نرده إلى الهرم ، والكبر ، فيصير لا يعلم شيئاً ﴿أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ أفلا يعقل هؤلاء قدرة الله على ما يشاء ؟ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وما علمنا محمداً الشعر ، وما ينبغي له أن يكون شاعراً ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ ما محمد

---

(١) وقال ابن عباس في تفسير الآية : ولو نشاء أهلكناهم في مساكنهم فلم يستطيعوا الحراك ، وهو أظهر ، والمعنى : لو نشاء مسخناهم مسخاً يقعدهم في مكانهم فلم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا .

يَنبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا
يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

* * *

إلا مُذَكِّرٌ لكم ، ذكّركم الله بإرساله إليكم ، ونبهكم على خطئكم ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ والذي جاءكم به قرآن ظاهر ، لمن تدبره أنه تنزيل من الله . ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً﴾ لينذر من كان منكم حي القلب[1] . يعقل ويفهم ﴿وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ ويجب العذاب على أهل الكفر، المعرضين عما جاءهم من عند الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً﴾ أولم ير المشركون أنا خلقنا لهم الأنعام من الإبل والبقر والغنم ، فسخرناها لهم ؟ ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ فهم لها مصرفون كيف شاءوا بالقهر والضبط ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ومِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ وذللنا هذه الأنعام[2] لهم ، فمنها ما يركبون ظهورها ، ومنها ما يأكلون لحومها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ ولهم في هذه الأنعام منافع ، في أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ولهم منها الألبان يشربونها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أفلا يشكرون نعمتي وإحساني إليهم ؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ واتخذ المشركون من دون الله آلهة يعبدونها ، طمعاً أن تنصرهم من عذاب الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ لا تستطيع هذه الآلهة نصرهم من الله إن أراد بهم سوءاً ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا[3]، وهي لا تدفع عنهم سوءاً ، لأنها أصنام ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ فلا يحزنك يا محمد قول المشركين: إنك شاعر ، ولا تكذيبهم بآيات الله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ نعلم ما يسرون في صدورهم من معرفتهم الحقيقة ، وما يعلنونه من جحود ذلك بألسنتهم ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أولم ير الإنسان الكافر أنا خلقناه من نطفة ، فسويناه خلقاً سوياً ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ فإذا هو مخاصمٌ

---

(١) المراد بالحيّ هنا من كان حيّ القلب ، حيّ البصر وهو المؤمن ، وأما الكافر فهو ميت القلب فلا يستفيد من هداية القرآن ، وهذا القول الذي اختاره الطبري هو قول قتادة وهو الصحيح .

(٢) أي جعلناها تحت قهرهم وتسلطهم منقادة لهم ، فالإبل على ضخامة جسمها يسيّرها الطفل الصغير كيف شاء، ويقيمها ويقعدها دون ممانعة منها ، وهذا من تذليل الله تعالى هذه الأنعام للإنسان .

(٣) في الآية تشبيه أي إن المشركين كالجند والخدم للأصنام ، يغضبون من أجلهم ، ويفدونهم بالروح والولد ، والأصنام لا تسوق لهم خيراً ، ولا تدفع عنهم ضرّاً ، فهم كالخُدّام للأصنام .

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ
أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

* * *

لربه الذي خلقه ، ظاهر الخصومة[1] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ومثَّل لنا شبهاً بقوله « من يُحيي العظام وهي رميم » ونسي خلقنا إياه كيف خلقناه ، فلم يفكر في ذلك ، فيعلم أن من خلقه من نطفة ، حتى صار بشراً سوياً ناطقاً متصرفاً ، لا يعجز أن يعيد الأموات أحياء ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قل يحييها الذي ابتدع خلقها أول مرة ، ولم تكن شيئاً ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وهو عليم بجميع خلقه ، لا يخفى عليه شيء ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً﴾ الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر ، ناراً تحرق الشجر ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ توقدون النار من الشجر الأخضر ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أوليس الذي خلق السموات السبع ، والأرض التي هي أعظم من خلقكم ، بقادر على أن يخلق مثلكم ؟ ﴿بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ بلى هو قادر على أن يخلق مثلهم ، وهو الخلاق لما يشاء ، العليم بكل خلق ، لا يخفى عليه خافية ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إنما أمر الله إذا أراد إيجاد شيء ، أن يقول له : كن فيكون[2] . ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فتنزَّه الله الذي بيده ملك كل شيء وخزائنه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه تردون وتصيرون بعد مماتكم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة يسٓ »

* * *

(١) نزلت في رجل من صناديد قريش هو « أبيُّ بن خلف » جاء إلى رسول الله ﷺ بعظمٍ بالٍ ففتَّه بين يديه ثم قال يا محمد : أتزعم أن الله يبعثنا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذه ؟ فأنزل الله الآية .

(٢) هذا على سبيل التمثيل لسرعة الخلق والإيجاد ، قال قتادة : هذا مثل ليس من كلام العرب شيء هو أخف من ذلك ولا أهون ، فأمر الله كذلك .



بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَـٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ
مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ
خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

* * *

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ أقسم الله تعالى بالملائكة ، الصافات لربها في السماء صفوفاً ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً ﴾ فالملائكة تزجر السحاب تسوقه ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾ فالملائكة القارئات كتاباً ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ إن معبودكم أيها الناس ـ الذي يستوجب عليكم العبادة ، وإخلاص الطاعة منكم ـ لواحدٌ لا ثاني له ولا شريك ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ هو وحده خالق السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الخلائق ، والقيِّمُ على جميع ذلك ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ وهو مدبر مشارق الشمس ومغاربها ، في الشتاء والصيف ، والقيم على ذلك ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ إنا زينا السماء التي تليكم بالكواكب ﴿ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ حفظاً لها من كل شيطان عاتٍ خبيث [١] ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ﴾ حفظنا السماء الدنيا من كل شيطان ، لئلا يسمع إلى الملأ الأعلى ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ ويرمون من كل جانب من جوانب السماء ﴿ دُحُوراً ﴾ إبعاداً وطرداً لهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ وللشياطين عذاب يوم القيامة ، دائم خالص [٢] ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ إلا من استرق السمع منهم ، فلحقه شهابٌ مضيءٌ متوقد فأحرقه ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ

(١) قال قتادة : خلقت النجوم لثلاثٍ : رجوماً للشياطين ، ونوراً يُهتدى بها ، وزينةً للسماء الدنيا .
(٢) المراد بالواصب : الدائم الذي لاينقطع . « القرطبي ١٥/٦٤ »

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ
يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ * ٱحْشُرُواْ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾

* * *

أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ فاستفت يا محمد هؤلاء المشركين ـ المنكرين للبعثِ والنشور ـ ، فسلْهم : أخلقهم أشدُّ ، أم خلقُ من عددنا من الملائكة ، والشياطين ، والسموات ، والأرض ؟ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ إنا خلقنا الإنسان من طين لاصق (١) ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ بل عجبتَ يا محمد مما أعطاك الله من الفضل (٢) ، وسخر منه أهل الشرك ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ وإذا ذُكِّرَ المشركون بحجج الله ، ليعتبروا ويتفكروا ، لاينتفعون بالتذكير ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ وإذا رأوا حجة ودلالة على نبوة محمد ﷺ يسخرون ويستهزئون ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وقال المشركون : ما هذا الذي جئتنا به يا محمد ، إلا سحرٌ واضحٌ لمن رآه وتأمله .

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾أنبعث أحياء من قبورنا ، بعد مماتنا ومصيرنا تراباً وعظاماً ، قد ذهب عنها اللحوم ؟ ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أو يبعث آباؤنا الذين مضوا قبلنا ، فبادوا وهلكوا ؟ ﴿ قُلْ نَعَمْ ﴾ قل لهم : نعم إنكم مبعوثون أحياء ، كما كنتم قبل مماتكم ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ وأنتم صاغرون ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ فإنما هي نفخة واحدة في الصور ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ فإذا أبصارهم شاخصة ، ينظرون إلى ما كانوا يوعدون ، من قيام الساعة ﴿وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ وقال المشركون عندئذ : يا ويلنا (٣) هذا يوم الجزاء والمحاسبة ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ يقال لهم (٤) : هذا يوم فصل الله بين خلقه بالعدل ، الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ إجمعوا الذين كفروا بالله في الدنيا ، وأشياعهم (٥) على الكفر ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

(١) خُلق ابنُ آدم من العناصر الآتية : «التراب، والماء ، والهواء ، والنار» والتراب إذا خُلط بالماء صار طيناً متلاصقاً متماسكاً ، وفي الآية تنبيهٌ على ضعف الإنسان فإنه خلق من الطين لا من الحديد .

(٢) هكذا فسره الطبري، وقال غيره المعنى:عجبت من إنكارهم للبعث مع رؤ يتهم آثار قدرة الله،ويسخرون من تعجبك وإقرارك بالبعث

(٣) معنى الويل : الهلاك والخسران .

(٤) أي تقول الملائكة لهم ذلك على سبيل التقريع والتوبيخ .

(٥) ليس المراد بالأزواج الزوجات ، وإنما المراد به أشباههم من المجرمين العصاة ، ولهذا فسره الطبري بالأشياع .

مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ
ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل
لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا
لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ
بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ
مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

* * *

اللهِ ﴾ احشروهم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ﴿ **فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِراطِ الْجَحِيمِ** ﴾ فوجهوهم إلى طريق النار الموقدة ﴿ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ** ﴾ واحبسوهم إنهم مسئولون عن أعمالهم ﴿ **مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ** ﴾ما لكم أيها المشركون لاينصر بعضكم بعضاً ؟ ﴿ **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** ﴾ بل هم اليوم لأمر الله وقضائه ، مستسلمون موقنون بعذابه ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ وأقبل الإنس على الجن يتساءلون[1] ﴿ **قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ** ﴾ قالت الإنس للجن :إنكم كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق ، فتخدعوننا بأقوى الوجوه ﴿ **قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ قالت الجن : بل لم تكونوا بتوحيد الله مقرين ، وكنتم للأصنام عابدين ﴿ **وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ** ﴾وما كان لنا عليكم من حجة ، فنصدكم بها عن الإيمان ﴿ **بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ** ﴾ بل كنتم أيها المشركون متعدين إلى ما ليس لكم التعدي إليه ، من معصية الله ومخالفة أمره ﴿ **فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ** ﴾ فوجب علينا عذاب ربنا ، وإنا لذائقوه نحن وأنتم ، بما قدمنا من الذنوب والمعاصي ﴿ **فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ** ﴾ فأضللناكم عن سبيل الله ، إنا كنا ضالين ﴿ **فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴾ فإن الجن الذين أغووا الإنس يوم القيامة ، مشتركون في العذاب جميعاً في النار ، كما اشتركوا في معصية الله .

﴿ **إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ** ﴾ إنا هكذا نفعل بالذين اختاروا المعاصي والكفر بالله على الإيمان به ، فنجمع بينهم وبين قرنائهم في النار ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ إنهم كانوا في الدنيا إذا قيل لهم : قولوا « لا إله إلا الله » يتعظَّمون عن قول ذلك ويتكبرون ﴿ **وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ** ﴾ ويقولون : أنترك عبادة آلهتنا ، لاتِّباع شاعرٍ مجنون ؟ ﴿ **بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ**

---

(١) أعاد الإمام الطبري الضمير على الجن ، والأظهر أن الضمير يعود على البشر والمعنى : أقبل الأتباع على الرؤساء يلوم بعضهم بعضاً ويتخاصمون ويتنازعون، وذلك لأن الخصومة في الآخرة إنما تكون بين الرؤساء والأتباع، الضالين والمضلِّلين.

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ
مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾

* * *

المُرْسَلِينَ ﴾ بل جاءهم محمد بالقرآن الحق ، من عند الله ، وصدَّق المرسلين الذين كانوا قبله ﴿ **إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا العَذَابِ الأَلِيمِ** ﴾ إنكم لذائقوا العذاب الموجع في الآخرة ﴿ **وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ وما تثابون في الآخرة ، إلا جزاء ما كنتم تعملون من معاصي الله ﴿ **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ المُخْلَصِينَ** ﴾ إلا الذين كتب الله لهم السعادة ، فإنهم لايذوقون العذاب [١] ، لأنهم أهل طاعة الله ﴿ **أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ** ﴾ لهم الفواكه التي خلقها الله في الجنة[٢] ﴿ **وَهُمْ مُكْرَمُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** ﴾ وهم مع الرزق المعلوم ، مكرمون بكرامة الله التي أكرمهم الله بها في بساتين النعيم ﴿ **عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** ﴾ يقابل بعضهم بعضاً [٣] ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ** ﴾ يطوف الخدم عليهم بكأس بيضاء ، من خمر جارية ظاهرة لأعينهم ، يلتذُّ بها شاربوها ﴿ **لَا فِيهَا غَوْلٌ** ﴾ لا أذى فيها ولا مكروه على شاربيها ، في جسم ولا عقل ولا غير ذلك [٤] ﴿ **وَلَاهُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ** ﴾ ولا يسكرهم الشرب فيذهب بعقولهم [٥] ﴿ **وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ** ﴾ وعند هؤلاء في الجنة ، النساء اللواتي قصرن أطرافهن على أزواجهن فلا يمددن أبصارهن إلى غيرهم ، يتّصفن بالعيون النجل الواسعة ﴿ **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ** ﴾ كأنهن بياض البيض [٦] داخل القشر في بياضهن ، وأنهن لم يمسهنَّ قبل أزواجهنَّ إنسٌ ولا جان .

﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ فأقبل بعض أهل الجنة على بعض ، يسأل بعضهم بعضاً

---

(١) الاستثناء منقطع أي لكنّ عباد الله المخلصين فإنهم لا يذوقون العذاب .

(٢) لما ذكر تعالى أحوال المشركين وما أعدَّ لهم من العذاب الأليم ، ذكر هنا أحوال المؤمنين وما أكرمهم به من النعيم الدائم الخالد ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب .

(٣) قال مجاهد : لاينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلاً وتحابياً .

(٤) عمَّ الإمام ابن جرير القول في الغول فقال : « الغول ما غال الإنسان فذهب به ، فذهاب العقل ، ووجع البطن والصداع ، والذي ناله مكروه كلهم قد غالته الغول » .

(٥) قال ابن عباس : في الخمر أربع خصال « السكرُ ، والصداعُ ، والقيءُ ، والبولُ » فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

(٦) هكذا فسره الطبري ، وقال ابن عباس : كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه واستشهد بقوله تعالى ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ وهذا أظهر والله أعلم .

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾

* * *

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ ﴾ قال قائل من أهل الجنة : إني كان لي صاحب يقول : أتصدق بأننا نبعث بعد مصيرنا عظاماً، ولحومنا تراباً ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تراباً وعظاماً أءنّا لَمَدِينُونَ ﴾ سنبعث ونجزى بعملنا ، ونحاسب عليه [1] ؟ ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ . فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ قال المؤمن لأصحابه : هل أنتم مطلعون في النار ، لعلي أرى قريني المنكر للبعث ؟ فقالوا : نعم ، فاطَّلع فرآه في وسط جهنم ﴿قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ فلما رآه قال له : إن كدت في الدنيا لتهلكني ، بصدِّك إياي عن الإيمان ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ ولولا أن الله أنعم عليَّ بهدايته ، والتوفيق للإيمان بالبعث بعد الموت ، لكنت من المحضرين معك في عذاب الله ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ يقول المؤمن ـ سروراً بكرامة الله تعالى ـ أفما نحن بميتين ، غير موتتنا الأولى في الدنيا ، وما نحن معذبين بعد دخولنا الجنة [2] ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ إن هذا الذي أعطانا الله إيَّاه ، من الكرامة في الجنة ، لهو النجاء العظيم ، بإيماننا وطاعتنا ربنا ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ لمثل هذا الذي أعطيت المؤمنين من الكرامة ، فليعمل العاملون في الدنيا ، ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم [3] ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أم شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ أهذا الذي أعطيتُ هؤلاء المؤمنين من الفضل خيرٌ ، أو ما أعددت لأهل النار من الزقوم ؟! ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ جعلنا شجرة الزقوم ابتلاءً للمشركين ، الذين قالوا : كيف ينبت الشجر في النار ، والنار

---

(١) يقول ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد ، لأنه مشركٌ منكرٌ للبعث والجزاء .

(٢) هكذا فسَّره الطبري ، والظاهر كما قال غيره أن هذا على سبيل السخرية والاستهزاء يقول له المؤمن : هل لا تزال على اعتقادك أنه لابعث ولا جزاء ؟ وهو أسلوب ساخرٌ لاذع مع التهكم .

(٣) هذا حثٌّ من الله تعالى للمؤمنين ليكون تنافسهم في هذه الدنيا في طاعة الله تعالى ، والتسابق إلى ما فيه مرضاته لايتنافسون في الدنيا ، وجمع حطامها ، فذلك شأن الكافر لضيق نظره ، وبعده عن التوفيق والسداد ، نسأله تعالى أن يجعلنا ممن يتنافس على منازل السعداء .

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا
ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ
ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي
ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾

* * *

تحرق الشجر ؟ ﴿ إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ . طَلْعُها كأَنَّهُ رُءوسُ الشَّياطِينَ ﴾ إنها شجرة نابتةٌ في أصل نار جهنم ، كأن طلعها في قبحه وبشاعته ، رؤوس الشياطين في قبحها ﴿ فإنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْها فَمَالِئُون مَنْها البُطُونَ ﴾ فإن هؤلاء المشركين لآكلون من شجرة الزقوم ، فمالئون من زقومها بطونهم ﴿ ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَميمٍ ﴾ ثم إن لهم لخلطاً من الماء الساخن ، الذي انتهى حرُّه ، يُخلط به طعامهم ﴿ ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُمْ لإلَى الجَحِيمِ ﴾ ثم إن مصيرهم لإلى نار جهنم ﴿ إنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ إن المشركين وجدوا آباءهم ضُلَّالاً ، غير سالكين محجة الحق ﴿ فَهُمْ عَلَى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ فهم يسرعون في طريقهم ، ليقتفوا آثارهم وسننهم.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأوَّلِين ﴾ ولقد ضل عن محجة الحق ، قبل مشركي قومك ، أكثرُ الأمم الخالية ﴿ ولقد أَرْسَلْنا فِيهِم مُنْذِرِينَ ﴾ ولقد أرسلنا في الأمم التي خلت ، رسلاً تنذرهم بأسنا على كفرهم ، فكذبوهم ﴿ فانظُرْ كيف كانَ عاقِبَةُ المُنْذَرِينَ ﴾ فتأملْ وتبيَّنْ كيف كان مصير أمر الذين أنذرتهم أنبياؤ نا ، ألم نهلكهم فنصيِّرهم للعباد عبرة ، ولمن بعدهم عظة ؟ ﴿ إلا عبادَ اللَّهِ المُخْلَصِين ﴾ أهلكنا المنذَرين إلا عباد الله ، الذين أخلصناهم للإيمان بالله وبرسله ﴿ ولقد نادانا نوحٌ فَلَنِعْمَ المُجِيبُونَ ﴾ نادانا نوح لإهلاك قومه ، فلنعم المجيبون [1] كنا له ، أجبنا دعاءه فأهلكنا قومه ﴿ ونَجَّيْناه وأهلَهُ من الكَرْبِ العظيم ﴾ ونجينا نوحاً وأهله الذين ركبوا معه في السفينة ، من الغرق الذي هلك به القوم [2] ﴿ وجعلنا ذُرِّيته هُمُ الباقِينَ ﴾ وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض ، بعد مهلك قومه ﴿ وتركنا عليه في الآخرين . سلامٌ على نوح في العالمين ﴾ وأبقينا على نوح ذكراً جميلاً ، وثناء حسناً ، فيمن تأخر بعده

(١) صيغة الجمع ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ للعظمة والكبرياء كقوله ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

(٢) ذكر تعالى في هذه السورة سبع قصص وهي : قصة نوح ، وقصة إبراهيم ، وقصة إسماعيل ، وقصة موسى ، وقصة إلياس ، وقصة لوط ، وقصة يونس ، وكل هذه القصص تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام ، وتحذيرٌ للمشركين الكفار .

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾

* * *

من الناس ، يذكرونه به ﴿ **إِنَّا كذلك نَجْزِي المحسنين** ﴾ كما فعلنا بنوح مجازاة له على طاعتنا ، وصبره على أذى قومه في رضانا ، كذلك نجزي الذين يحسنون فيطيعوننا ، ويصبرون على الأذى فينا ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ إن نوحاً من عبادنا ، الذين آمنوا بنا ، وأخلصوا العبادة لنا ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ ثم أغرقنا من بقي من قومه .

﴿ **وإن من شِيعَتِهِ لإبراهيم** ﴾ وإن من أشياع نوح ـ على منهاجه وملَّته ـ لإبراهيم [1] ﴿ **إذ جاء ربَّهُ بقلبٍ سَليم** ﴾ حين جاء ربه بقلبٍ سليمٍ من الشرك ، مخلصٍ له بالتوحيد ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ماذا تَعْبُدون** ﴾ حين قال لأبيه وقومه : أيَّ شيءٍ تعبدون ؟ ﴿ **أئِفْكاً آلهةً دون الله تُريدون** ﴾ أكذباً معبوداً غير الله تريدون[2]؟ ﴿ **فما ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين** ﴾ فأيَّ شيءٍ تظنون أن الله يصنع بكم ، إن لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟! ﴿ **فَنَظَر نَظْرَةً في النجوم . فقال إني سقيم . فتولَّوْا عنه مُدْبرين** ﴾ كان قومه أهل تنجيم ، فرأى نجماً قد طلع فعصب رأسه ، وقال : إني مطعون ـ مريض ـ وأراد أن يتركوه في بيت آلهتهم ، ليكسرها ، فتولوا عنه خشية العدوى ، لأنهم كانوا يهربون من الطاعون ﴿ **فَرَاغَ إلى آلهتهم** ﴾ فمال إلى آلهتهم ﴿ **فقال ألا تأكلون** ﴾ فقال لها : ألا تأكلون من هذا الطعام ؟ ﴿ **ما لكم لا تَنْطِقُون** ﴾ فلم يرها ترد على سؤاله ، فقال لها استهزاءً : ما لكم لا تنطقون ؟! ﴿ **فَرَاغَ عليهم ضَرْباً باليمين** ﴾ فمال على آلهة قومه ، ضرباً لها بفأس في يده . يكسرهن بقوة ﴿ **فأقبلوا إليه يَزِفُّون** ﴾ فأقبل القوم إلى « إبراهيم » يجرون مسرعين ﴿ **قال أتعبدون ما تَنْحِتُون. والله خلقكم وما تعملون** ﴾ قال إبراهيم : أتعبدون أيها القوم ما تنحتون بأيديكم من الأصنام ، والله خلقكم وعملكم ﴿ **قالوا ابنوا له بُنْياناً فألقُوهُ في الجحيم** ﴾ قالوا :

(١) هذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة من قصص الأنبياء وهي قصة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام.

(٢) الإفكُ : أسوأ الكذب وأشنعه ، وإنما قدّم المفعول لأجل التقبيح عليهم ، والأصل أتريدون آلهة دون الله إفكاً أي من أجل الإفك والكذب والزور .

فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ
ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ
فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾
وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾

* * *

ابنوا له بنياناً ، فألقوه في جمر النار المتقد (١)

﴿ **فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين** ﴾ فأراد قوم إبراهيم إحراقه ، فجعلناهم الأذلين حجة ، وأنقذناه مما أرادوا به من الكيد ﴿ **وقال إني ذاهبٌ إلى ربي سَيَهْدين** ﴾ فقال إبراهيم بعد نجاته : إني مهاجر من بلد قومي إلى الأرض المقدسة ، ومعتزلهم لعبادة الله تعالى ، ليثبتني على الهدى ويعينني عليه ﴿ **رب هب لي من الصالحين** ﴾ يا رب هب منك ولداً صالحاً ، من الذين يطيعونك ولا يعصونك ﴿ **فبشرناه بغلامٍ حليم** ﴾ فبشرنا إبراهيم بغلامٍ يكون حليماً في كبره (٢) ﴿ **فلما بلغ معه السَّعْيَ قال يا بنيَّ إني أرى في المنام أني أذْبَحُكَ فانظر ماذا تَرَى** ﴾ فلما بلغ الغلام الوقت الذي أطاق معونة أبيه على عمله ، قال إبراهيم لابنه : يا بني أني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ما الذي تراه وما رأيك فيه (٣) ؟﴿ **قال يا أبتِ آفعل ما تُؤمَرُ ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ قال الولد لأبيه : يا أبت افعل ما يأمرك به ربك من ذبحي ، ستجدني إن شاء الله صابراً لأمر الله ﴿ **فلما أَسْلَمَا** ﴾ فلما أسلما أمرهما لله ، واتفقا على التسليم لأمره والرضا بقضائه ﴿ **وتَلَّهُ للجبين** ﴾ وصرعه للجبين ﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم . قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا** ﴾ نادينا إبراهيم أنك قد صدقت الرؤ يا التي أريناكها في منامك ، وأمرناك فيها بذبح ابنك ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ كذلك نجزي الذين أحسنوا ، فأطاعوا أمرنا ، وعملوا في رضانا ﴿ **إنَّ هذا لهو البلاءُ المبين** ﴾ إن الأمر بذبح ابنك هو الاختبار الواضح ، لمن فكر فيه أنه بلاء شديد ، ومحنة

---

(١) هذه سنة الله في الخلق ، الدعاة إلى الله يبيِّنون حجتهم بوضوح وإشراق ، والطغاة يكتمون الأنفاس ، لايطلقون لهم الحرية في بيان آرائهم ، وإظهار دعوتهم ، لأنهم لا حجة لديهم يردون بها أقوال الدعاة ، فيلجأون إلى القوة والقهر ، والسجن والتعذيب ، والبطش والقتل .

(٢) رجح الإمام الطبري أن الذبيح هو « إسحق » بينما رجح جمهور المفسرين أنه « إسماعيل » وظاهر النصوص الكريمة في كتاب الله تعالى أنه إسماعيل عليه السلام ، ولهذا نرى في هذه الآيات الكريمة أنه بعد الإنتهاء من الحديث عن قصة إبراهيم مع إسماعيل ، بين الله تعالى بشراه له بإسحق في قوله ﴿ وبشرناه بإسحق نبياً . . . ﴾ ولعل في طلب إبراهيم الولد من الله تعالى نوع تعلق بقلبه به ، فأراد الله أن يجرد قلبه له فأمره بذبحه ، وأما الذي أعطاه إياه من غير طلب فلم يكن فيه نوع تعلق لأنه غير منتظر . والله أعلم ـ وهناك وجوه أخرى للترجيح ذكرها المفسرون .

(٣) إنما أخبر ابنه بذلك ليختبر صبره على امتثال أمر الله ، ويوطّن نفسه على الصبر على قضاء الله وحكمه .

وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾
إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾

* * *

عظيمة ﴿ **وفديناه بِذِبْحٍ عظيم** ﴾ وجزيناه بأن جعلنا مكان ذبحه ، ذبح كبش عظيم ، وأنقذنا الغلام من الذبح ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين . سَلامٌ على إبراهيم** ﴾ وأبقينا على إبراهيم ـ فيمن بعده إلى يوم القيامة ـ ثناء حسناً ، لايذكر من بعده إلا بالذكر الجميل ﴿ **كذلك نجزي المحسنين** ﴾ كما جزينا إبراهيم على طاعته إيانا ، كذلك نجزي من أحسن في الطاعة .

﴿ **وبشرناه بإسحٰق نبياً من الصالحين** ﴾ وبشرنا إبراهيم بإسحٰق نبياً صالحاً ، شكراً له على إحسانه وطاعته ﴿ **وباركنا عليه وعلى إسحٰق ومن ذريتهما مُحْسن وظالم لنفسه مبين** ﴾ وباركنا على إبراهيم وعلى إسحٰق ، ومن ذريتهما المؤمن المطيع لله ، والكافر بالله الذي قد بان ظلمه لنفسه واتضح ﴿ **ولقد مَنَنَّا على موسى وهارون** ﴾ ولقد تفضلنا على موسى وهارون ابني عمران ، فجعلناهما نبيين ﴿ **ونجيناهما وقَوْمَهُما من الكرب العظيم** ﴾ ونجيناهما وقومهما من الغم والمكروه العظيم فأنقذناهم من الغرق الذي حدث لفرعون وجنوده ﴿ **ونصرناهم فكانوا هم الغالبين** ﴾ ونصرنا موسى وهرون وقومهما ، على فرعون وآله بتغريقهم ، فكانوا هم الغالبين ﴿ **وآتيناهما الكتاب المُسْتَبين** ﴾ وآتينا موسى وهرون « التوراة » المتضح مافيها من الهدى ﴿ **وهديناهما الصراط المستقيم** ﴾ وأرشدناهما إلى الإسلام دين الله ، الذي لا اعوجاج فيه ﴿ **وتركنا عليهما في الآخرين . سَلَامٌ على موسى وهٰرون** ﴾ وتركنا عليهما فيمن بعدهم الثناء الحسن ،فيقال: سلام على موسى وهارون[1] ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ هكذا نجزي أهل طاعتنا ، والعاملين بما يرضينا ﴿ **إنهما من عبادنا المؤمنين** ﴾ إن موسى وهارون من عبادنا المخلصين لنا الإيمان والطاعة ﴿ **وإن إلياسَ لمن المرسلين** ﴾ وإن إلياس [2] بن ياسين لمرسلٌ من المرسلين ﴿ **إذ قال لقومه ألا**

(١) هذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة « موسى » و « هارون » عليهما السلام .
(٢) هذه هي القصة الرابعة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة إلياس عليه السلام .

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾

* * *

تتّقون ﴾ حين قال لقومه بني إسرائيل [١] : ألا تتقون الله فتخافونه وتحذرون عقوبته ، على عبادتكم رباً غيره ؟ ﴿ **أتدعون بَعْلاً وتَذَرُون أحسَنَ الخالقين** ﴾ أتعبدون إلَهاً، وتَدَعون أحسن من قيل له « خالق »

﴿ **الله ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ وهو معبودكم الذي يستحق عليكم العبادة ، ربكم الذي خلقكم ، ورب آبائكم الماضين قبلكم ﴿ **فكذبوه فإنهم لَمُحْضَرُون** ﴾ فكذب القوم « إلياس » فإنهم سيحضرون عذاب الله تعالى ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ إلا عباد الله الذين أخلصهم من العذاب ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على إلْ ياسينَ** ﴾ وأبقينا عليه الثناء الحسن فيمن بعده من الأمم : أمنةٌ من الله لإلياس ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ هكذا نجزي أهل طاعتنا ، والمحسنين في أعمالهم ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ إن إلياس عبد من عبادنا الذين أطاعونا ، ولم يشركوا بنا شيئاً .

﴿ **وإن لوطاً لمن المرسلين** ﴾ وإن لوطاً [٢] لمرسل إلى قومه من عند الله ﴿ **إذْ أنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ** ﴾ حين أنجيناهم من العذاب الذي أحللناه بقومه ، فأهلكناهم به ﴿ **إلا عَجُوزاً في الغابرين** ﴾ إلا امرأة لوط كانت في الهالكين ﴿ **ثم دَمَّرْنا الآخرين** ﴾ قذفناهم بالحجارة من فوقهم ، فأهلكناهم بذلك ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل** ﴾ وإنكم ـ أيها المشركون ـ لتمرُّون على مكان قوم لوط، عند إصباحكم نهاراً وبالليل ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أفليس لكم عقول تتدبرون بها وتتفكرون ، فيزجركم ذلك عن الشرك بالله ، وتكذيب رسوله محمد ﷺ ؟ ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ وإن يونس [٣] لمرسلٌ من عند الله ، أرسلناه إلى قومه ﴿ **إذْ أَبَقَ إلى الفُلك المشحون** ﴾ حين فرَّ إلى السفينة ، الموقرة من الحمولة ﴿ **فساهم فكان من المُدْحَضِين** ﴾ فقارع مع ركابها ، فكان ممن وقع عليهم السهم وغُلب [٤] ﴿ **فالتَقَمَهُ**

(١) نقل ابن كثير عن قتادة ، والضحاك وابن مسعود قولهم : إن إلياس هو إدريس ، ثم نقل عن وهب ابن منبه أنه من بني إسرائيل كما ذكره ابن جرير ، وهو الذي ذكره فضيلة الشيخ الصابوني في كتابه «النبوة والانبياء» وقال :من المقطوع به أنه من أنبياء بني إسرائيل . ص ٣٠٩

(٢) هذه هي القصة الخامسة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة لوط عليه السلام .

(٣) هذه هي القصة السادسة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة يونس عليه السلام .

(٤) وكان سبب المساهمة أن السفينة لعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الهلاك ، فساهموا على أن من تقع عليه القرعة =

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
* فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾
وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

* * *

الحوت وهو مُلِيمٌ ﴾ فابتلعه الحوت ، وهو مكتسب ما يلام عليه من الذنب ﴿ **فلولا أنه كان من المسبِّحِينَ** ﴾ فلولا أن يونس كان من المصلِّين لله ، قبل البلاء الذي ابتلي به في بطن الحوت ﴿ **لَلَبِثَ في بطنه الى يوم يُبعثون** ﴾ لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ولكنه كان من الذاكرين لله ، فأنقذه الله ونجَّاه ﴿ **فَنَبَذْناه بالعَرَاء** ﴾ فقذفناه بالفضاء من الأرض ﴿ **وهو سقيم** ﴾ وهو ضعيف البدن ﴿ **وأنبتنا عليه شجرةً من يَقْطين** ﴾ وأنبتنا على يونس شجرة من الشجر التي لا تقوم على ساق [١] ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ وأرسلنا يونس إلى مائة ألف من الناس ، أو يزيدون على ذلك [٢] ﴿ **فآمنوا فمتعناهم إلى حين** ﴾ فوحَّدوا الله ، وصدَّقوا بحقيقة ما جاءهم به يونس ، فأخرنا عنهم العذاب ، ومتعناهم إلى بلوغ آجالهم من الموت .

﴿ **فاسْتَفْتِهِمْ ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ سل يا محمد مشركي قومك من قريش : ألربي البنات ، ولكم البنون [٣] ﴿ **أم خلقنا الملائكة إناثاً** ﴾ أم شهد هؤلاء المشركون خلقي الملائكة ، وأنا أخلقهم إناثاً ؟ ﴿ **وهم شاهدون** ﴾ فشهدوا بأن الملائكة إناث ؟ ﴿ **ألا إنهم من إفْكِهِم ليقولون . ولد اللَّهُ وإنهم لكاذبون** ﴾ إن هؤلاء المشركين من كذبهم ليقولون : لله ولدٌ ، وإنهم لكاذبون في قولهم ذلك ﴿ **أَصْطَفَى البناتِ على البنين** ﴾ هل اصطفى الله البنات على البنين ؟ ﴿**ما لكم كيف تحكمون** ﴾ بئس هذا الحكم الذي تحكمون به أيها القوم ﴿ **أفلا تَذَكَّرون** ﴾ أفلا تتدبرون ما تقولون لتعرفوا خطأه ، فتنتهوا عن قوله ؟ ﴿ **أم لكم سلطان مبين** ﴾ أم لكم حجة واضحة بحقيقة ما تقولون ؟ ﴿ **فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين** ﴾ فأتوا بحجتكم من كتاب الله ، إن كنتم صادقين أن لكم بذلك حجة ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجِنَّةِ**

= يلقى في البحر لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس ـ عليه السلام ـ ثلاث مرات كما ذكر المفسرون .
(١) هي شجرة القرع ذات الورق العريض .
(٢) « أو » بمعنى بل أي بل يزيدون وليست للشك .
(٣) كان مشركو قريش يقولون « الملائكة بنات الله » وكانوا يعبدونها بزعمهم ، لذلك أمر الله تعالى رسوله ﷺ بذلك

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾
إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾
فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾
وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾

* * *

نَسَباً ﴾ وجعل المشركون بين الله تعالى ، وبين الجنِّ صلة نسب ، حيث قالوا إن أمهات الملائكة بنات الجن ﴿ **ولقد عَلِمَتِ الجنة إنهم لمُحضَرُون** ﴾ ولقد علمت الجنُّ أن المشركين سيحضرون العذاب في النار ﴿ **سبحان الله عما يصفون** ﴾ تنزيهاً لله وتبرئةً له ، مما يُضيف إليه المشركون ويفترون عليه ﴿ **إلاّ عبادَ الله المخلصين** ﴾ إلا عباد الله الذين أخلصهم الله لرحمته ، وخلقهم لجنَّته ﴿ **فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين . إلاَّ من هُوَ صَالِ الجحيم** ﴾ فإنكم أيها المشركون بالله ، وما تعبدون من الآلهة والأوثان ، ما أنتم بالذين تضلون بآلهتكم أحداً ، إلاَّ من سبق في علم الله أنه سيصلى نار جهنم ﴿ **وما منا إلاّ له مَقَامٌ معلوم** ﴾ وليس منا معشر الملائكة ، إلاَّ من له مقامٌ معلوم في السماء ﴿ **وإنا لنحن الصافُّون** ﴾ وإنا لنحن الصافون لعبادة الله صفوفاً ﴿ **وإنا لنحنُ المسبحون** ﴾ وإنا لنحن المصلُّون لله ﴿ **وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين** ﴾ وإن كان المشركون ليقولون قبل أن نبعث إليهم محمداً ﷺ : لو أن عندنا كتاباً أُنزل من السماء ، كالتوراة والإنجيل ، أو أتانا نبيٌّ كما أتى غيرنا ﴿ **لَكُنا عباد الله المخلصين** ﴾ لكنا عباد الله ، الذين أخلصهم لعبادته ، واصطفاهم لجنته ﴿ **فكفروا به** ﴾ فلما جاءهم القرآن من عند الله كفروا به ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ ما لهم من العذاب بكفرهم .

﴿ **ولقد سبقَتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسَلين . إنهم لهم المنصورون** ﴾ ولقد سبق القضاء والحكم في أم الكتاب ، أن لرسلنا النصرة والغلبة ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ وإن حزبنا وأهل ولايتنا ، لهم الظفر والفلاح على أهل الكفر [1] بنا ﴿ **فتولَّ عنهم حتى حين** ﴾ فأعرض يا محمد عنهم إلى حين مجيء عذابنا ، ونزوله بهم ﴿ **وأبصِرهم فسوف يبصرون** ﴾ وأنظرهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابِنا

(١) هذا وعدٌ من الله تعالى محققٌ ، بنصرة رسله وعباده المؤمنين لايُخلف ، فالنصر والغلبة للمؤمنين دائماً ، وإنما يُغلبون في بعض الأحيان بسبب التقصير منهم ، أو ابتلاءً ومحنة ، وصدق الله ﴿ وإنا جندنا لهم الغالبون ﴾ .

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

* * *

﴿ **أفبِعذابِنا يستعجلون** ﴾ أفبنزول عذابنا بهم يستعجلونك يا محمد ؟ ﴿ **فإذا نزل بساحتهم فَسَاءَ صباحُ المنذَرِين** ﴾ فإذا نزل بهؤلاء المشركين العذاب ، فبئس صباح القوم الذين أنذرهم رسولنا نزول العذاب بهم . ﴿ **وتولَّ عنهم حتى حين** ﴾ وأعرض عن هؤلاء المشركين، حتى يأذن الله بهلاكهم ﴿ **وأبْصِرْ فسوف يُبصرون** ﴾ وأنظرهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابنا ، حين لا تنفعهم التوبة ﴿ **سبحان ربك ربِّ العِزة عما يَصفون** ﴾ تنزيهاً لربك وتبرئة له ـ ربِّ القوة والبطش ـ عما يصفه به هؤلاء المفترون من مشركي قريش ﴿ **وسلامٌ على المرسلين** ﴾ وأَمَنَةٌ من الله لمن أرسلهم الله إلى أممهم ، من فزع يوم العذاب الأكبر ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾والحمد لله رب الجن والإنس ، خالصاً دون ما سواه ، لأن كل نعمة لعباده فمنه وحده لاشريك له .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات »

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

* * *

﴿ صٓ[١] . وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أقسم الله تبارك وتعالى بهذا القرآن ذي الشرف الرفيع ، الذي أنزله تذكيراً لعباده ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ بل الذين كفروا في حمية ومشاقة لمحمد ، وعداوة له ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ كثيراً أهلكنا من الأمم ، الذين كانوا قبلهم ، وسلكوا سبيلهم في تكذيب رسلهم ﴿ فنادَوا ولات حين مناصٍ ﴾ فعجُّوا وضجُّوا ، واستغاثوا بربهم حين نزل بهم بأس الله ، وليس ذلك حين هرب من العذاب ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ وعجب هؤلاء المشركون أن جاءهم منذرٌ ، ينذرهم بأس الله تعالى على كفرهم هو محمد ﷺ ، ولم يأتهم ملك من السماء ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ وقال المنكرون لوحدانية الله إن محمداً ساحرٌ مفترٍ ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ﴾ أجعل محمد المعبودات كلها معبوداً واحداً ، يسمع دعاءنا جميعنا ؟ ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ إن هذا لشيءٌ عجيب[٢] ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ وانطلق الأشراف من قريش ، بأن امضوا فاصبروا على دينكم ، وعبادة آلهتكم ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ إن ما يدعونا إليه محمد شيءٌ يريد به الشرف علينا ، وأن نكون له فيه أتباعاً

(١) ﴿ص﴾ من الحروف الهجائية ، وقد بيَّنا أن ابتداء بعض السور بأمثال هذه الحروف ، إنما هو للتنبيه على « إعجاز القرآن » وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فهو معجز للبشر بنظمه البديع

(٢) العُجَابُ أبلغ من العجيب وهو الذي بلغ الغاية في العجب ، يقال شيءٌ عجيبٌ وأمر عُجاب

يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

* * *

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد، في دين الآباء[1] ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ ما هذا القرآن إلا كذبٌ، اختلقه محمد وتخرَّصه ﴿أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أأنزل على محمد القرآن من بيننا، وليس بأشرفنا حسباً؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ ليس بالمشركين الشك في صدق محمد ﷺ، ولكنهم في شك من وحينا إليه، وفي هذا القرآن المنزل من عندنا ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ بل لمَّا ينزل بهم بأسنا، ولو ذاقوا العذاب لأيقنوا حقيقة ما هم به مكذِّبون

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أم عند هؤلاء المشركين مفاتيح رحمة ربك؟ ﴿الْعَزِيزِ الوَهَّابِ﴾ العزيز في سلطانِه، الذي يهب لمن يشاء الملك والنبوة، فيمنعوك يا محمد ما مَنَّ الله به عليك من الكرامة، وفضَّلك به من الرسالة؟ ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أم لهؤلاء المشركين شيء من ملك السموات والأرض؟ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ فليصعدوا في أبواب السماء وطرقها، للإشراف على المُلْك، وتفقده، وتعهده ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ هؤلاء المشركون جندٌ من أحزاب إبليس وأتباعه، مهزومون ببدر ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ كذبت قبل مشركي قريش قومُ نوح، وعادٌ، وفرعونُ ذو الأوتاد[2] التي كان يعذب بها الناس ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ وكذبت ثمود، وقوم لوط، وأصحاب الشجر الكثير الملتف ـ قوم شعيب ـ وهؤلاء الجماعات المتحزبة على الكفر بالله، ومن سلك سبيلهم سينالهم العذاب ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ كلُّ هذه الأمم كذَّبتْ رسل

---

(١) هكذا فسر الطبري الملة الآخرة بأنها دين الآباء، وهو قول مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس يعنون دين النصرانية التي هي آخر الملل، وهذا القول أظهر.

(٢) قيل له «ذو الأوتاد» لتعذيبه الناس بالأوتاد، أو هو إشارة إلى الملك الواسع، والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد، وهذا المعنى أظهر لأنه قد اشتهر في زمانه بناء الإهرامات والمباني العظيمة والله أعلم.

وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾
وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ
ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾

* * *

الله ، فوجب عليهم عقاب الله ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ﴾ وما ينظر مشركو قريش ، إلاَّ النفخة الأولى في الصور ﴿ مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ ما لها من فتور ولا انقطاع ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ دعا المشركون ربهم أن يعجل لهم حظوظهم من الخير والشر ، استهزاءً منهم بوعيد الله تعالى .

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ اصبر يا محمد على ما يقول مشركو قومك لك ، فإنا جاعلو العلوَّ والرفعة ، والظفر لك على من كذَّبك ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ ﴾ واذكر عبدنا داود ذا القوة والبطش الشديد ، في ذات الله ، والصبر على طاعته ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ إنه رجَّاع إلى الله تعالى بما يرضيه ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ إنا سخرنا الجبال يسبحن مع داود ﴿ بِالعَشِيِّ ﴾ من وقت العصر إلى الليل ﴿ وَالإِشْرَاقِ ﴾ ووقت الضحى ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ وسخرنا الطير له يسبحن معه مجموعة ، ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ كلُّ الطير له مطيعٌ ، رجَّاعٌ إلى طاعته وأمره ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ وشددنا ملكه بالرجال ، والجنود ، والهيبة ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ وآتيناه النبوة ، وفصل الخطاب في القضاء ، والمحاورة ، والخطب ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ ﴾ وهل أتاك يا محمد خبر الخصم ، إذْ دخلوا أشرف مكان في دار داود من غير بابه[1] ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ لمَّا دخلوا على داود ، فخاف من دخولهما عليه من غير المدخل ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ قال الداخلون لا تخف يا داود ، نحن خصمان تعدى أحدنا على صاحبه بغير حق ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ فاقض بيننا بالعدل ولا تجر ﴿ ولا تُشْطِطْ ﴾ ولا تسرف في حكمك ، بالميل مع أحدنا على صاحبه ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ وأرشدنا إلى قصد الطريق المستقيم.

(١) قال ابن كثير رحمه الله تعالى : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم ﷺ حديث يجب اتباعه ، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يُردَّ علمها إلى الله عز وجل ، فإن القرآن حق ، وما تضمن حق . المختصر٣ / ٢٠٠، وقد أطال الإمام ابن جرير في إيراد قصص كثيرة في هذا الموضوع ، وانظر تحقيق البحث في كتاب « صفوة التفاسير » ٣ / ٥٤ لفضيلة الشيخ الصابوني

إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ
وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ
ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ

* * *

﴿إِنَّ هٰذاأَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ وهذا مثل ضربه المتسوِّرون، فقال أحدهما: هذا أخي في الدين، له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال لي: انزل لي عنها وضُمَّها لي ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ وغلبني في مخاطبته لأنه أبين مني وأشدُّ مني ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ قال داود ـ عليه السلام ـ للخصم المتظلم من صاحبه: لقد ظلمك صاحبك بسؤاله نعجتك إلى نعاجه ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ وإن كثيراً من الشركاء ليتعدَّى بعضهم على بعض ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلَّا الذين آمنوا بالله وعملوا بطاعته، وانتهوا إلى أمره ونهيه فلم يتجاوزوه ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ وقليل ما تجدهم ﴿ وَظَنَّ دَاوُد أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ وعلم داود أنما ابتليناه ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ فسأل داود ربه غفران ذنبه، وخرَّ ساجداً لله، وتاب من خطيئته ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ فعفونا عنه، وصفحنا له عن خطيئته، وإن له عندنا للقربة يوم القيامة ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وحسن مرجع ومنقلب ينقلب إليه.

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ يا داود إنا استخلفناك في الأرض، حكماً بين أهلها ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ فاحكم بينهم بالعدل والإنصاف ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولا تُؤْثِرْ هواك في قضائك، فتجور عن الحق، ويميل بك الهوى عن العدل، فتكون من الهالكين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ إن الذين يميلون عن طريق الله، الذي شرعه لعباده، لهم في الآخرة عذاب شديد ﴿ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ ﴾ بما تركوا القضاء بالعدل، نسياناً منهم ليوم يحاسبهم الله فيه على أعمالهم(١) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

(١) قال الإمام ابن كثير: هذه وصية من الله ـ عز وجل ـ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده، ولا يعدلوا عنه، فيضلوا عن سبيل الله، ثم توعدهم إن هم فعلوا ذلك، ٣/ ٢٠١، فليتق الله من وسد إليه أمر الناس، فالعذابُ شديد، والموقف بين يدي الرب موقف عظيم تنخلع له القلوب.

ٱلنَّارِ ﴿٣٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ
إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ
رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ
كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

* * *

بَاطِلًا ﴾ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما عبثاً ولعباً ، ما خلقناهما إلا ليعمل بطاعتنا ، وينتهي إلى أمرنا ﴿ **ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾ ذلك الظنُّ الباطل هو ظنُّ الذين لم يوحِّدوا الله ، ولم يعرفوا عظمته ، فويلٌ للذين كفروا من نار جهنم ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ هل نجعل الذين صدَّقوا الله تعالى ورسوله ، وعملوا بما أمرهم تعالى به ، كالذين يشركون بالله ، ويعصونه ، ويخالفون أمره ؟ ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ أم نجعل الذين اتقوا الله وراقبوه فحذروا معاصيه ، كالكفار المنتهكين حرمات الله عزَّ وجلَّ ؟! ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد مبارك ، ليتدبروا حجج الله تعالى التي فيه ، فيتعظوا ويعملوا به ﴿ **وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ وليعتبر أولو العقول بما في هذا الكتاب من الآيات ، فيرتدعوا عن الضلالة ، وينتهوا إلى ما دلهم عليه من الرشاد .

﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ** ﴾ ووهبنا لداود ، ابنه سليمان[١] ، نعم العبد سليمان ﴿ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ إنه رجَّاع إلى طاعة الله ، تواب إليه ﴿ **إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ** ﴾ إذ عرض على سليمان بالعشي الجياد ـ الخيل ـ تمشي على أطراف حوافرها ﴿ **فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي** ﴾فلهى عن الصلاة[٢] حتى فاتته ، فقال إني أحببت الخيل حتى سهوت عن ذكر ربي ﴿ **حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ حتى تغيبت الشمس في مغيبها ﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** ﴾ ردُّوا الخيل عليَّ التي شغلتني عن الصلاة ، فردُّوها عليه فجعل يمسح منها السوق والأعناق حباً لها ، وقيل : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف[٣] ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ** ﴾

---

(١) المراد بالهبة هنا هبة « النبّوة » لا هبة « البنوّة » فقد كان لداود أولاد كثيرون غيره ولكنَّ الله أكرم سليمان بن داود بالنبوة والملك .

(٢) القول بأنه التهى عن الصلاة ضعيف ، إذْ لا يُتصور من نبيّ أن يتشاغل عن الصلاة ، والصحيح أنه انشغل بها عن ورده كما ورد به النصُّ ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ ولم يقل عن الصلاة ، وهو ما رجحه السُّدّي

(٣) رجح الإمام ابن جرير القول الأول معتلاً له بقوله : «ولأن نبي الله ﷺ لم يكن ليعذب حيواناً ، ويهلك مالاً بغير سبب ، سوى أنه

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾

* * *

ولقد ابتلينا سليمان ، وألقينا على كرسيه شيطاناً[1] متمثلاً بإنسان ، ثم رجع إلى ملكه ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي** ﴾ قال سليمان راغباً إلى ربه يا رب استر عليَّ ذنبي فلا تعاقبني به ، وهبْ لي ملكاً لا يسلبنيه أحد ﴿ **إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ** ﴾ فأنت المعطي بيدك خزائن كل شيء ، تهب ما تشاء لمن تشاء ﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ** ﴾ فاستجبنا له دعاءه ، فسخرنا له الريح ، تجري بامره ليّنةً حيث أراد ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** ﴾ وسخرنا له الشياطين منهم البناة ، يصنعون له المحاريب وينحتون له الجفان والقدور ، ومنهم الغواصون يستخرجون له الحلي من البحار ﴿ **وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ في الأَصْفَادِ** ﴾ والمردة من الشياطين موثوقون في الأغلال ﴿ **هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ هذا الذي أعطيناك من الملك ، لا تحاسب على ما أعطيتَ منه لمن تشاء ﴿ **وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى** ﴾ وإن لسليمان عند الله لقربةً ، بإنابته وطاعته لله ﴿ **وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ وحسن مرجع في الآخرة

﴿ **وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّه أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ** ﴾ واذكر أيضاً يا محمد عبدنا أيوب ، حين نادى ربه مستغيثاً به فقال : يا رب إني مسني الشيطان ﴿ **بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** ﴾ ببلاءٍ في جسدي ، وعذابٍ بذهاب مالي وولدي ﴿ **ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** ﴾ فقلنا له حرِّكْ الأرض وادفعها برجلِك ، يخرج منها ماء تغتسل به ، وتشرب منه ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ** ﴾ فاغتسل وشرب ، ففرَّجنا عنه ما كان فيه من البلاء ، ووهبنا له أهله من زوجة وولد ، ومثلهم معهم ﴿ **رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ فعلنا به ذلك ، رحمة منًّا له ورأفة ، وتذكيراً لأولي العقول ، ليعتبروا بها

= اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها . . الخ ورجح الإمام ابن كثير أنه قتلها وقال : ولهذا عوَّضه الله عزَّوجلَّ ماهو خير منها﴿الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ، غدوها شهرٌ ، ورواحها شهرٌ﴾ فهذه أسرع ، وخير من الخيل ، وما ذكره ابن كثير أرجح وأصح لأنه إنما ذبحها لتكون طعاماً للفقراءلا تعذيباً لها . وانظر كتاب « صفوة التفاسير » للشيخ الصابوني ٣/٥٨ .

(١) رويت روايات كثيرة عن فتنة سليمان ، كلها من الإسرائيليات التي لم يثبت منها شيء وانظر صفوة التفاسير ٣/٥٩ حول فتنة سليمان عليه السلام ، ففيه تحقيق نفيس ، وما ذكره الإمام ابن جرير من أنه شيطان مستبعد والله أعلم .

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ
ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾
* وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن

* * *

فيتعظوا ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ وقلنا لأيوب : خذ بيدك حزمة من عيدانٍ ، فاضرب به زوجك ، ولا تحنث في يمينك[1] ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ إنا وجدناه صابراً على البلاء ، فلا يحمله البلاء على الخروج عن طاعة الله ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ نعم العبد أيوب ، إنه مقبل على طاعة الله ، رجّاع إلى رضاه ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسحٰق وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ واذكر عبادنا - إبراهيم وإسحٰق ويعقوب - إنهم أصحاب القوة على عبادة الله ، وأصحاب العقول المبصرة ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ إنا خصصناهم بخاصة ، هي ذكرى الدار الآخرة ، فعملوا لها في الدنيا وأطاعوا الله ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ وإن هؤلاء لمن الذين اصطفيناهم واخترناهم لطاعتنا ، ولرسالتنا إلى خلقنا

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وذا الْكِفْلِ ﴾ واذكر يا محمد « إسماعيل ، واليسع ، وذا الكفل » فتأس بهم ، واسلك منهاجهم في الصبر على ما نالك في الله ﴿ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ ﴾ وكلهم أخيار أبرار ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ هذا القرآن ذكرٌ لك ولقومك ، ذكرناك به ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وإن للذين اتقوا الله ، فخافوه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لحسن مرجع يرجعون إليه في الآخرة ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ لهم بساتين إقامة ، مفتحةً لهم أبوابها ، بغير معاناة من قبلهم ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ متكئين في جنات عدن على السرر ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ يدعون فيها بثمار من ثمار الجنة ، وشراب من شرابها ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ وعند هؤلاء المتقين نساء سنُّهنَّ واحدة ، قد قصرن أطرافهن على أزواجهنَّ ، فلا يريْن غيرهم ﴿هَذَامَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ هذا الذي يعدكم الله به أيها المؤمنون من الكرامة ، لمن أدخله الله الجنة في الآخرة ﴿ إِنَّ هَذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ

(١) كان أيوب ـ عليه السلام ـ غضب على زوجته في أمر فعلته ، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، فلما شفاه الله تعالى وعافاه ، ما كان جزاؤ ها ـ مع خدمتها التامة له ورحمتها ، وشفقتها ـ أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ شمراخاً ـ قضيباً من النخل ـ فيه مائة عودٍ ، فيضربها به ضربة واحدة ، ويبرَّ في يمينه .

نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ
وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ
ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾

* * *

﴿مِنْ نَفَادٍ﴾ إن الذي أعطينا المتقين ، كرامةً منا لهم ، ليس له انقطاع ولا فناء **﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾** هذا وإن للذين تمرَّدوا وعصوا أمر الله ، مع إحسانه إليهم ، لشرُّ مرجع ومصير في الآخرة **﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ﴾** مصيرهم إلى جهنم يذوقون حرَّها بعد وفاتهم ، فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم **﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾** هذا ماء حارٌّ قد أغلي حتى انتهى حرُّه ، وغسَّاقٌ وهو ما يسيل من صديدهم فليذوقوه **﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾** وعذاب آخر من نحو الحميم أنواعٌ وألوانٌ **﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾** هذه جماعة داخلة معكم النار أيها الطاغون **﴿لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾** قال أهل النار للداخلين : لا اتَّسعت بهم المداخل ، إنهم واردوا النار **﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾** قالوا : بل أنتم لا اتَّسعت بكم أماكنكم ، أنتم قدمتم لنا سكن هذا المكان ، بدعائكم لنا إلى الكفر بالله حتى ضللنا باتباعكم **﴿فَبِئْسَ القَرَارُ﴾** فبئس المكان جهنم نستقر فيه .

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعفاً فِي النَّارِ﴾ قال الأتباع: ربَّنا من قدَّم لنا هذا العذاب الذي وردناه ، فأضعفْ له العذاب في النار، على العذاب الذي هو فيه **﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ﴾** قال الطاغون : ما بالنا لا نرى معنا في النار رجالاً كنا نعدهم في الدنيا من أشرارنا ؟ **﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾** أتخذناهم في الدنيا سخرياً نهزأ[1] بهم أم زاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم في النار وهم معنا ؟ ! **﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾** إن هذا الذي أخبرتكم عن تخاصم أهل النار، لحقٌّ يقين، فلا تشكُّوا فيه **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾** قل يا محمد لمشركي قومك : إنما أنا منذرٌ لكم ، أنذركم عذاب الله وسخطه ، أن يحلَّ بكم على كفركم **﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾** وما من معبود تصلح له العبادة إلا الله ، الذي يعبده كل خلق **﴿الْوَاحِدُ﴾** الذي لا ينبغي أن يكون له في

---

(١) يقول الكفار ذلك على سبيل التأنيب لأنفسهم، والمعنى : أجعلنا هؤلاء المؤمنين سخرية وهزءاً نسخر منهم في الدنيا ، أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم ؟ وهذا يزيد في حسرتهم وألمهم ، حيث لاقوا نتيجة عملهم السّيء .

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ
لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا
خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾

* * *

ملكه شريك ﴿القهَّارُ﴾ لكل ما دونه بقدرته ﴿رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزيزُ الغَفَّارُ﴾ مالك السموات والأرض وما بينهما من الخلق ، «العزيز» في نقمته من أهل الكفر «الغفَّارُ »لذنوب من تاب من عباده ﴿قُلْ هُوَ نَبأٌ عَظِيمٌ ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ قل يا محمد للمكذبين : هذا القرآن خبرٌ عظيم ، أنتم عنه منصرفون لا تعملون به ،ولا تصدِّقون بآياته ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ما كان عندي علم بالملائكة حين يختصمون في شأن آدم ، من قبل أن يوحي إليَّ ربي[1]، لأنكم تعلمون أن ذلك لم يكن عندي قبل نزول هذا القرآن ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ما يوحي الله إليَّ ذلك ، إلا لأني نذير لكم ، أبيِّن لكم إنذاري

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ حين قال ربك للملائكة: إني خالق آدم من طين ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فإذا سويتُ خلقه ، وعدَّلتُ صورته ، ونفخت فيه من روحي، فاسجدوا له[2] ﴿فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فلما نفخ الروح في آدم سجد جميع الملائكة، الذين هم في السموات والأرض ﴿إِلاَّ إِبْلِيس اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾غير إبليس[3] استكبر عن السجود لآدم تعظماً وتكبراً ، فكان بذلك ممن كفر في علم الله ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ قال الله سبحانه لإبليس: أيُّ شيء منعك في السجود لمن خلقتهُ بيديَّ ؟ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ﴾ هل تعظَّمت عن السجود لآدم ، فتركته استكباراً عليه ، أم كنتَ ذا علوٍّ وتكبرٍ على ربك؟! ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال إبليس لربه : لم أسجد لآدم لأني أشرف منه ، لأنك خلقتني من نار، وخلقت آدم من طين، والنارُ تحرق الطين

(١) القصد الإحتجاج على نبوته ﷺ ، لأنه أخبر بأمورٍ لا يمكن أن تُعرف إلا بطريق الوحي .

(٢) سجود تحية لا سجود عبادة.

(٣) الصحيح الذي عليه المحققون أن إبليس من الجن لا من الملائكة ، فالاستثناء منقطع ، وانظرالأدلة في أول سورة البقرة من هذا التفسير .

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ
مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

* * *

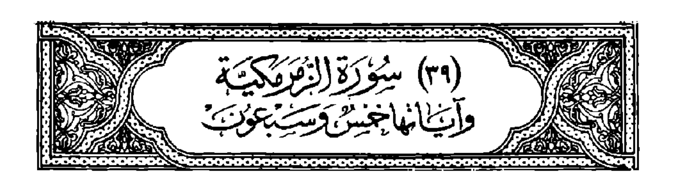
وتعلوه﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ قال الله لإبليس : فاخرج من الجنة فإنك مشتوم ملعون ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِينِ﴾ وإنَّ لك طردي من الجنة ، إلى يوم مجازاة العباد ومحاسبتهم ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال إبليس : يا رب فإذ لعنتني وأخرجتني من الجنة، فأخرني في الأجل إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قال الله : فإنك يا إبليس من المؤخرين ، إلى الوقت الذي جعلته أجلاً لهلاكك[1] ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال إبليس : بقدرتك يا ربِّ وسلطانك ، لأضلنَّ بني آدم أجمعين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلا من أخلصته منهم لعبادتك وعصمتَه مني ، فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال الله تعالى لإبليس : حقاً ـ وأقول الحقَّ ـ لأملأن نار جهنم منك ، وممن تبعك من بني آدم أجمعين ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : ما أسألكم على هذا القرآن ثواباً وجزاء ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ وما أنا ممن يتكلف تخرص القرآن وافتراءه[2] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ما هذا القرآن إلا تذكير من الله للإنس والجن ، ذكَّرهم به ربهم ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ولتعلمن حقيقة ما في هذا القرآن ، من الوعد والوعيد ، بعد وقتٍ قريب.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة صٓ»

* * *

(١) أراد اللعين أن ينجو من الموت بالكلية، فطلب تأخيره إلى يوم البعث ، فأجابه تعالى﴿إنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم﴾ أي إلى وقت هلاكك بعد النفخة الأولى لا إلى يوم البعث .

(٢) الغرض أنه عليه الصلاة والسلام ليس من الذين يتحيَّلون ويتصنَّعون ، حتى ينتحل النبوة ويفتري هذا القرآن ، وإنما هو رسول مبلِّغ عن الله ، يبلِّغ الناس ما يوحيه إليه ربه .



(٣٩) سورة الزمر مكية
وآياتها خمس وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾

* * *

﴿تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ هذا القرآن الذي نزلناه عليك يا محمد، تنزيلٌ من الله العزيز في انتقامه من أعدائه، الحكيم في تدبير خلقه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ﴾ إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن يأمر بالحق والعدل ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ فاخشع لله بالطاعة وأفرده بالعبادة، ولا تجعل له شريكاً كما فعل عَبَدَةُ الأوثان ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ ألا لله وحده العبادةُ والطاعة، خالصة لا شريك لأحدٍ معه فيها ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ والذين عبدوا من دون الله الأوثان، يقولون لهم: ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله منزلة، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُم فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن الله يفصل بين هؤلاء الأحزاب، الذين اتخذوا أولياء من دون الله، فيما يختلفون فيه بأن يصليهم جميعاً نار جهنم، إلا من أخلص الدين لله فوحَّده ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ إن الله لا يرشد إلى الحق من هو مفترٍ على الله، يقول عليه الباطل كافر لِنعمه، جاحد لربوبيته. ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لو شاء الله اتخاذ ولد - ولا ينبغي له ذلك - لاختار من خلقه ما يشاء[1] ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ﴾ تنزيهاً لله عما أضاف إليه المشركون،

(١) هذا على سبيل الفرض والتقدير أي لو أراد اختيار ولدٍ لاختاره من مخلوقاته، لأنه يستحيل أن يكون له ولدٌ بطريق التوالد =

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن

***

هو الله الذي يعبده كل شيء، فأنّى يكون له ولد ؟ ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه ، القهار لخلقه بقدرته، فكل شيء له متذلل ، ومن سطوته خاشع ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ خلق السموات والأرض بالحق ، يغشي الليل على النهار ، ويغشي النهار على الليل ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وذلّلَ الشمس والقمر لعباده، ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب لمصلحة معاشهم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ والشمس والقمر، كُلٌّ يجري إلى قيام الساعة ﴿أَلا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ﴾ ألا إن الله الذي أنعم على خلقه هذه النعم ، هو العزيز في انتقامه ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين، بعفوه لهم عنها

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ خلقكم أيها الناس من آدم ، ثم جعل من آدم حواء ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وجعل لكم الأنعام ثمانية أزواج من الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين[1] ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ الله تعالى يبتدىء خلقكم أيها الناس في بطون أمهاتكم ، حيث يحدث فيها النطفة، ثم يجعلها علقة ، ثم يكوّنها عظاماً ، ثم يكسو العظام لحماً ، ثم ينشئه خلقاً آخر ، فتبارك الخالق المبدع ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ في ظلمة البطن ، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[2] ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ هذا الذي فعل هذه الأفعال هو ربكم، له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا ينبغي أن يكون هناك معبود سواه ، ولا تصلح العبادة إلاّ له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فأنى تذهبون عن عبادة ربكم،إلى عبادة من لا يضرُّ ولا ينفع ؟ ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ﴾ إن تكفروا أيها الناس فإن الله غني عن إيمانكم وعبادتكم ، ولا يرضى لعباده أن يكفروا به ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وإن تؤمنوا بربكم وتطيعوه ،

= والتزاوج، لأنه واحد أحد، فرد صمد، ولكنه تعالى لم يشأ ذلك لقوله﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾.

(١) المراد أنه تعالى خلق لنا من الأنعام المأكولة وهي «الإبل ، والبقر، والغنم، والماعز» ثمانية أزواج من كل نوع ذكراً وأنثى.

(٢) المشيمة : هي الكيس الذي يغلّف الجنين، وهذه الآية إحدى المعجزات العلمية التي اكتشفها علم الطب حديثاً، فقد اتضح للأطباء أن الجنين في بطن أمه تحيط به أغشية ثلاثة ، في ضمنها ينمو ويكبر﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ
إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾
أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

* * *

يرضى شكركم له بذلك ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ولا تُؤاخذ نفسٌ بذنب غيرها ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم إلى ربكم مصيركم من بعد وفاتكم، فيخبركم بما كنتم تعملون، فيجازيكم على ذلك، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بما يستحقه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله لا يخفى عليه شيء، فاتقوا الله في سر أموركم وعلانيتها ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ وإذا مسَّ الإنسان بلاءٌ في جسده، فكان في جهد، وضيق استغاث بربه الذي خلقه ورغب إليه في كشف ما نزل به، تائباً إليه مما كان عليه، راجعاً إلى طاعته ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ ثم إذا كشف عنه ضره، فأبدله بالسقم صحةً، وبالشدة رخاءً، ترك دعاءه الذي كان في حال الضر ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ وجعل للّه تعالى أمثالاً وأشباهاً، وأطاع الشيطان في عبادة الأوثان ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ليزيل من أراد أن يوحِّد الله عن توحيده، والدخول في الإسلام ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ قل لفاعل ذلك: تمتع[١] بكفرك بالله قليلاً، إلى إن تستوفي أجلك، وتأتيك منيتك ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ إنك من أهل النار الماكثين فيها أبداً

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ هل الذي جعل لله أنداداً[٢]، كهذا القائم لله تعالى، مطيعاً له ساعات الليل ﴿سَاجِداً وَقَائِماً﴾ ساجداً أحياناً، وأحياناً قائماً؟ ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ يحذر عذاب الله في الآخرة، ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قل يا محمد للمشركين: هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم من العقاب، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون في عشواء؟ ما هذان بمتساويين ﴿إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا

---

(١) الأمر للتهديد أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذذ بنعيمها الزائل، فمصيرك إلى نار جهنم.

(٢) أشار الإمام ابن جرير إلى أن الجواب محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير: هل من يتعبد ربه في ساعات الليل، ساجداً وقائماً كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً.

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ
أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾
قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن
دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم
مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟

* * *

﴿الأَلْبَابِ﴾ إنما يعتبر بحجج الله ويتدبرها ، أهل العقول والحجى ، لا أهل الجهل ونقص العقول ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ قل يا عبادي الذين صدَّقوا الله ورسوله :اتقوا الله ربكم بطاعته ، واجتناب معاصيه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ للذين أطاعوا الله في الدنيا ، لهم الجنة في الآخرة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وأرض الله فسيحة ، فهاجروا من أرض الشرك إلى دار الإسلام ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إنما يعطي الله أهل الصبر، على ما لاقوا في الدنيا ، ثوابهم في الآخرة بغير حساب ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ قل يا محمد : إن الله أمرني أن أعبده مفرداً له الطاعة ، دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربي ـ جل ثناؤه ـ بذلك، لأكون أول من أسلم وأخلص له العبادة ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أخاف إن عصيت ربي ، فيما أمرني به من عبادته ، عذاب يوم القيامة ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ قل لهم : إني أعبد الله مفرداً له طاعتي وعبادتي، وأبرأ مما سواه من الأنداد والآلهة ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ فاعبدوا أنتم ما شئتم من الأوثان والأصنام،فستعلمون وبال عاقبة عبادتكم ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ قل لهم: إن الهالكين الذين غبنوا أنفسهم ، وهلكت أهلوهم فلم يكن لهم في النار إذا دخلوها أهل ﴿أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ألا إن خسران هؤلاء المشركين أنفسهم وأهليهم ، هو الهلاك الذي يظهر لمن عاينه أنه هو الخسران ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ لهؤلاء الخاسرين يوم القيامة كهيئة الظلل[1] من النار ، ومن تحتهم من النار ظلل أيضاً ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ذلك العذاب تخويف من ربكم أيها الناس ، يخوفكم به لتحذروه فتجتنبوا معاصيه، وتنيبوا إلى الإيمان به ، وتصديق رسوله ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ يا عبادي فاتقوني

(١) المراد بالظلل ما يعلوهم ويحيط بهم من نار جهنم ، فهي أطباق من النار تغشاهم وتحرقهم من فوقهم ومن تحتهم ، وتسميتها ظللاً تهكمٌ بهم لأنها محرقة لا تظلهم من الحر.

ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾
لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ
ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ
يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾

* * *

بأداء فرائضي ، واجتناب محارمي ، لتنجوا من عذابي وسخطي ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ والذين اجتنبوا عبادة كل ما عبد من دون الله من شيء ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وتابوا إلى الله ، ورجعوا إلى الإقرار بتوحيده ، والعمل بطاعته ، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ لهم البشرى في الدنيا بالجنة ﴿فبشر عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ فبشر يا محمد عبادي ، الذي يستمعون القول فيتبعون أرشده وأهداه إلى الحق[١] ، وأدله على توحيد الله ، ويتركون ما سوى ذلك ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ وفقهم الله للرشاد ، وإصابة الصواب ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ وأولئك هم أولوا العقول، لا الذين يعرضون عن سماع الحق، ويعبدون مالا يضر ولا ينفع .

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ﴾ أفمن وجبت عليه كلمة العذاب بكفره ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أفأنت يا محمد تهدي من قد سبق له في علم الله ، أنه من أهل النار فتنقذه من النار بالإيمان ؟ ! ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه، واجتناب محارمه ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ لهم في الجنة غرف عالية ، بعضها فوق بعض ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ المِيعَادَ﴾ وعدالله المتقين هذه الغرف،والله يوفي بوعده ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ألم تر يا محمد، أن الله أنزل من السماء مطراً، فأجراه عيوناً في الأرض ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ ثم أنبت بذلك الماء ، أنواعاً مختلفةً من الزرع ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾ ثم ييبس ذلك الزرع، فتراه من بعد خضرته آصفر[٢] ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾ ثم يجعل ذلك الزرع ، فُتَـاتاً متكسِّراً كفتات التبن والحشيش ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ إن في فعل الله

---

(١) هذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم ، وتمييزهم بين الأحسن من كل شيء ،وإنما وضع الظاهر ﴿فبشر عباد﴾بدل الضمير «فبشرهم» تشريفاً لهم وتكريماً بإضافتهم إلى نفسه .

(٢) هذا مثلٌ ضربه الله عز وجل للناس ، فمثّل لحياة البشر بالزرع ينزل عليه المطر فيصبح مخضراً زاهياً،ثم ييبس ويتحطّم ويتكسر فكذلك الإنسان بعد شبابه يعود هرماً مصفر اللون مُتحطم الأعضاء ، ثم تكون عاقبته الموت والفناء .

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ

* * *

ذلك لموعظة، لأهل العقول، يتذكرون بها فيعلمون قدرة الله ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ على بصيرة من أمره ويقين، بتنوير الحق في قلبه ، كمن أقسى الله قلبه ، حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى[1] ؟ ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فويل للذين جفت قلوبهم ، وأعرضت عن القرآن فلم تؤمن به ، ولم تصدّق بما فيه ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ هؤلاء الذين قست قلوبهم في ضلال واضح، لمن تأمله وتدبره

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ الله نزَّل القرآن، يشبه بعضه بعضاً ويصدّق بعضه بعضاً لا اختلاف فيه ولا تضاد ﴿مَثَانِيَ﴾ تثنى فيه الأنباء ، والأخبار، والحجج والأحكام ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تقشعرُّ[2] من سماعه جلود الذين يخافون ربهم إذا تلي عليهم ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى العمل بما في كتاب الله ، والتصديق به ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ هذا هو توفيقُ الله إياهم وفَّقهم له ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يهدي تبارك وتعالى بالقرآن من يشاء من عباده ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ومن يخذله الله عن الإيمان بالقرآن، والتصديق بما فيه ،فما له من موفق يسدده في اتباعه ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أفمن يُرمى به في جهنم ، مكبوباً على وجهه ، فيتقي به العذاب يوم القيامة خير أم من يُنَعَّم في الجنان[3] ؟ ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَاكُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ويقال يومئذٍ للظالمين: ذوقوا اليوم وبال ما كنتم في الدنيا تكسبون من معاصي الله ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كذب الذين من قبل هؤلاء المشركين من قريش رسلهم ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَايَشْعُرُونَ﴾ فجاءهم عذاب الله ، من الموضع الذي لا يعلمون بمجيئه منه ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فعجَّل الله لهؤلاء الذين كذبوا رسلهم ، الهوان في الدنيا ، لم ينظرهم إذْ عتوا عن أمر

(١) نبه الإمام الطبري إلى أن الجواب متروك بدلالة ما بعده ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾.

(٢) أي تأخذهم قشعريرة وخشية عند تلاوة القرآن هيبة من الرحمن .

(٣) إنما يتقون بوجوههم النار، لأن أيديهم مغلولة يوم القيامة، فأول ما تمسُّ النار وجوههم ، وخبره محذوف قدَّره الطبري بما ذكر، وقدره غيره بقوله : كمن هو آمن من العذاب ؟

لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ
مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾

* * *

ربهم ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ ولعذاب الله لهم في الآخرة ، أكبر من العذاب الذي عذبهم به في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو علم هؤلاء المشركون ذلك ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لعلهم يتذكرون﴾ ولقد مثلنا لهؤلاء المشركين ، من كل مثل من أمثال الأمم الخالية ، تخويفاً لهم وتحذيراً ، ليتذكروا فينزجروا عما هم عليه من الكفر ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ جعلناه قرآناً عربياً غير ذي لبس ، ليفهموا ما فيه من المواعظ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوا ما حذرهم الله فيه من بأسه وسطوته ، فينيبوا إلى عبادته .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ مثَّل الله مثلاً للكافر الذي يعبد آلهةً شتَّى ، ويطيع جماعةً من الشياطين ، برجل بين جماعة مالكين متنازعين ، أخلاقهم سيئةٌ وكلُّ واحدٍ يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ﴾ وضرب مثلاً للمؤمن الموحّد ، الذي أخلص عبادته لله ، لا يدين بالربوبية لشيء سواه ، برجلٍ مملوك لرجل واحد ، خالصاً له لا شريك له فيه ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ هل يستوي مثل هذا الذي يخدم جماعة شركاء متنازعين ، والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه منازع ؟ فأيُّ هذين أحسن حالاً ، وأقل تعباً ونصباً ؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد التام لله وحده ، دون كل معبودٍ سواه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحقَّ ، فهم بجهلهم يعبدون آلهة شتى من دون الله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ إنك يا محمد ستموت عن قليل ، وإنكم أيها الناس ستموتون ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ثم إن جميع الناس يختصمون عند ربهم ، فيؤخذ للمظلوم من الظالم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ فمن أعظم فريةً ممن كذب على الله ، فادَّعى أن له ولداً وصاحبة ؟ ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ وكذَّب بكتاب الله ، حين أنزله على محمد وابتعثه رسولاً ؟ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ أليس في النَّار مأوىً ومسكنٌ ، لمن كفر بالله ؟ ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ وكلُّ

---

(١) هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشرك الذي يعبد آلهة شتّى ، وللمؤمن الذي يعبد إلهاً واحداً ، وهو مثلٌ في غاية الحسن في تقبيح الشرك والضلال .

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

* * *

من دعا إلى توحيد الله ، وصدَّق بالقرآن، وبرسل الله ، من جميع خلق الله[1] ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ هؤلاء هم الذين اتقوا الله بتوحيده ، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم يوم القيامة ما تشتهيه أنفسهم، وتلذُّه أعينهم ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا جزاء من أحسن في الدنيا ، فأطاع الله وانتهى عما نهاه عنه ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ جازاهم ربهم بإحسانهم ، كي يكفر عنهم أسوأ الأعمال، وما اجترحوه من السيئات في الدنيا ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويثيبهم ثواب أحسن ما كانوا يعملونه في الدنيا، ممَّا يرضى الله عنه .

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أليس الله بكافٍ عبده محمداً ﷺ ، والأنبياء من قبله مما خوَّفهم أممهم ؟ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ويخوفك المشركون بالأوثان والآلهة ، أن تصيبك بسوء[2] ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ومن يضلله الله ، ويخذله عن طريق الحق والرشد، فما له من مرشد وموفق ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ ومن يوفقه الله للإيمان، والعمل بكتابه ، فما له من مُزيغ يزيغه ويردُّه إلى الكفر ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أليس الله بعزيزٍ في انتقامه ، من أعدائه الجاحدين لوحدانيته ؟ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين، الذين يعبدون الأوثان والأصنام، من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : الذي خلقهنَّ هو اللهُ ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإذا اعترفوا بالخلق لله ، فقل : أفرأيتم أيها القوم، الذي تعبدون من دون الله ، من الأصنام والآلهة ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ إن أرادني الله بشدة في معيشتي، هل هن كاشفات ما يصيبني من الضر ؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ

---

(١) قال بعض المفسرين : ﴿الذي جاء بالصّدق﴾ هو محمد ﷺ والذي صدَّق به هو «أبو بكر» رضي الله عنه ، والاختيار أن تكون الآية على العموم، لكل داع إلى الخير، وكل متبع له، وهو الذي رجحه الإمام الطبري، ودلَّ عليه صيغة الجمع ﴿أولئك هم المتقون﴾

(٢) هذه تسلية للرسول ﷺ ، فقد خوَّفه المشركون من الأصنام وقالوا له : لتكفنَّ يا محمد عن شتم آلهتنا ، أو لنسلطنها عليك ، فيصيبك منها خبل أو جنون ؟ فنزلت الآية .

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ
عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ
ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

* * *

﴿رَحْمَتِهِ﴾ وإن أراد أن يصيبني بسعة في معيشتي، ورخاءٍ وعافيةٍ في بدني، هل هن ممسكات تلك الرحمة؟ فإنهم سيقولون لا ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فقل حسبي الله فإنه الكافي، وبيده الضر والنفع ﴿عَلَيْهِ يَتوكَّلُ المتوَكِّلُونَ﴾ على الله فليثق، ولْيتوكل من هو متوكل.

﴿قل يا قوم ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إني عامل﴾ قل يا محمد للمشركين: اعملوا على تمكنكم من العمل الذي تعملون[١]، إني على عمل من سلف من أنبياء الله قبلي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا جاءكم بأس الله، مَنْ المحق منا من المبطل، والرشيد من الغوي؟ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ومن يأتيه عذاب يذله ويهينه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وينزل عليه عذاب دائم لا يفارقه.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أنزلنا عليك الكتاب تبياناً للناس بالحق ﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾ فمن عمل بما في الكتاب واتَّبعه، فإنما يبغي الخير لنفسه، لأنه أكسبها رضا الله، والفوز بالجنة ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن ضلَّ عن قصد المحجة، فإنما يجور على نفسه، ويسوق العطب والهلاك إليها، لأنه يكسبها سخط الله، وأليم عقابه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ وما أنت يا محمد برقيب على الناس، ترقب أعمالهم، وتحفظ أفعالهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿الله يَتوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ومن الدلالة على أن الألوهية لله الواحد[٢] القهار، أنه يميت ويحيي، ويفعل ما يشاء فيقبض الأنفس عند فناء أجلها، وانقضاء مدة حياتها، ويقبض في المنام أرواح النفوس النائمة ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فيمسك أرواح الأنفس التي كتب عليها الموت ويحبسها عنده، ويرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها عند اليقظة من نومها، إلى انقضاء مدة حياتها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في قبض الله نفس النائم

---

(١) المكانة: الطريقة والمنهج، قال ابن كثير: المعنى اعملوا على طريقتكم إني عاملٌ على طريقتي ومنهجي وهو أظهر مما فسره به الطبري.

(٢) الوفاة على نوعين: صغرى وكبرى، فالوفاة الصغرى تكون بالنوم لأن النائم كالميت لا يسمع ولا يبصر ولا يُحس بما حوله، ولهذا كان ﷺ إذا استيقظ من النوم يقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» والوفاة الكبرى هي الوفاة الحقيقية بقبض الروح من الجسد بواسطة الملائكة كما قال تعالى ﴿توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ والآية أشارت إلى النوعين.

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ
وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ
أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ
لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ

***

والميت، لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر ﴿أَمِ اتَّخَذُوامِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهتهم التي يعبدونها ، شفعاء تشفع لهم عند الله؟ ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قل لهم يا محمد: أتتخذونها شفعاء ، ولو كانوا لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ولا يعقلون[1] شيئاً؟ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ قل لهم أفردوا الله بالألوهية، فإن الشفاعة لله وحده ، لا يشفع عنده إلا من أذن له ، ورضي قوله ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ للهِ سلطان السموات والأرض وملكها فاعبدوا المالك لا المملوك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثم إلى الله مصيركم ، وهو معاقبكم على إشراككم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ وإذا أفرد الله وحده بالذكر ، وقيل : لا إله إلا الله ، نفرت قلوب المشركين من توحيد الله ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وإذا ذكرت الآلهة والأوثان التي يدعونها من دون الله ، إذا هم يفرحون بذلك[2].

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قل يا محمد يا ألله، يا خالق السموات والأرض، يا عالم الغيب الذي لا تراه الأبصار، والشهادة الذي تراه الأبصار ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَاكَانُوافِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أنت تفصل بين عبادك بالحق ، يوم تجمعهم للقضاء بينهم، فيما اختلفوا فيه في الدنيا ، من القول في الله وعظمته وسلطانه ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ ولو أن للمشركين يوم القيامة جميع ما في الأرض من أموال، وزينة مضاعفاً ﴿لَاَفْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ العَذَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ لفدوا أنفسهم بذلك كله ، لينجوا من سوء عذاب الله يومئذ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وظهر لهم يومئذٍ من أمر الله وعذابه، ما لم يكونوا قبل ذلك يظنونه ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ

---

(١) هذا ذم للمشركين في اتخاذهم الأصنام شفعاء ، وهي جمادات لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ، بل هي أحطُّ شأناً من الحيوانات ، فكيف يتخذونها شركاء وشفعاء عند الله ؟

(٢) هذا نوع من قبائح المشركين ، فإذا ذكر اسم الله أمامهم نفرت وانقبضت نفوسهم ، وإذا ذكرت الأوثان والأصنام فرحوا واستبشروا، وهذا نهاية الجهل والحماقة

مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ
إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا
كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ
يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

* * *

مَاكَسَبُوا﴾ وظهر لهم يوم القيامة سيئات ما كسبوا في الدنيا من الأعمال ، إذا أُعطوا كتبهم بشمائلهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وأحاط بهم عذاب الله ، الذي كانوا يسخرون به ، إنكاراً أن يصيبهم ذلك . ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ فإذا أصاب الإنسان بؤسٌ وشدةٌ،دعانا مستغيثاً بنا من الضر الذي أصابه ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ ثم إذا أعطيناه فرجاًوأبدلناه بالضر رخاء وسعة، وبالسقم صحة وعافية ﴿قـال إنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾قـال : إنمـا اعـطيت ذلـك، عـلى علم من الله تعـالى ، بـأني أهـل لشـرفي ورضاه بعملي(١) ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ بل هي بلاءٌ واختبارٌ ، اختبرناهم به ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنَّ أكثرهم لجهلهم وسوء رأيهم ، لا يعلمون لأي سبب أعطوا ذلك ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قد قال هذه المقالة قبل مشركي قريش،الأمم الخالية تكذيباً لرسلهم واستهزاءً بهم ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلم تنفعهم آلهتهم ولم تشفع لهم عند الله ، ولكنها تبرأت منهم ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَاكَسَبُوا﴾ فأصاب الأمم الخالية، وبال ما كسبوا من الأعمال ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ والذين كفروا بالله من قومك ، سيصيبهم أيضاً وبال ما كسبوا، كما أصاب من قبلهم ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ وما يفوتون ربهم ، ولا يسبقونه هرباً من عذابه

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أو لم يعلم هؤلاء أن الشدة ، والرخاء، والسعة والضيق ، بيد الله جل ثناؤه يوسّع الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء من عباده ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في بسط الرزق وتقتيره، لدلالاتٍ وعلامات لقوم يصدقون بالحق، فيقرون به ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ قل يا محمد : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، فأصابوا شيئاً من الذنوب صغيراً أو كبيراً، لا تيأسوا من رحمة الله تعالى(٢) ﴿إِنَّ

---

(١) هكذا فسره ابن جرير وقال غيره : على علمٍ مني بوجوه التجارة والكسب ، وهو أظهر .

(٢) قال الإمام ابن جرير : « عنى الله بذلك جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك ، لأن الله عمَّ بقوله ﴿ أسرفوا على =

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

* * *

﴿اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ إن الله يستر الذنوب كلها ، بعفوه عن أهلها إذا تابوا منها **﴿إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** الرحيم بهم أن يعاقبهم عليها ، بعد توبتهم منها **﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾** وأقبلوا أيها الناس إلى ربكم بالتوبة، وارجعوا إليه بإخلاص العبادة **﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ﴾** واخضعوا له بالطاعة، والإقرار بالدين الحنيفي من قبل أن يأتيكم العذاب من عنده **﴿ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾** ثم لا ينصركم ناصر، فينقذكم من عذابه **﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** واتبعوا ما أمركم به ربكم في تنزيله، واجتنبوا ما نهاكم عنه **﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾** من قبل أن يأتيكم عذاب الله فجأة ، وأنتم لا تعلمون به حين يغشاكم **﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾** لئلا تقول نفس: يا ندماً على ما ضيَّعتُ من العمل ، وقصَّرت في الدنيا في طاعة الله تعالى وأمره **﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾** وإن كنت لمن المستهزئين بأمر الله ، وكتابه، ورسوله **﴿أَوْ تقول لو أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾** ولئلا تقول نفسٌ يوم القيامة : لو أن الله هداني للحق، فوفقني للرشاد، لكنت ممن اتقى الله، بطاعته واتباع رضاه **﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾** ،ولئلا تقول نفسٌ أخرى ، حين ترى عذاب الله فتعاينه: لو أن لي رجعةً إلى الدنيا ، فأكون من الذين أحسنوا في طاعة ربهم ، والعمل بأمر رسله

﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ ليس القول كما تقولون ، بل قد جاءتك أيها المتمني حججي وكتابي ، وما فيه من الوعد والوعيد **﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾** فكذبتَ بآياتي ، واستكبرت

= أنفسهم ﴾ جميع المسرفين ، فلم يخصص مسرفاً دون مسرف ، ويغفر الله الشرك إذا تاب منه المشرك ، وأما ما عدا الشرك فإن صاحبه في مشيئة ربه ، إن شاء تفضل عليه فعفا عنه ، وإن شاء عدل فجازاه به . اهـ

(١) قال الإمام ابن جرير : فإن قال قائل : ومن القرآن شيء هو أحسن من شيء ؟ قيل له : القرآن كله حسن ، وليس معنى ذلك ما توهمتَ ، وإنما معناه : واتبعوا مما أنزل إليكم ربكم من الأمر والنهي ، والخبر والقصص ، والوعد ، والوعيد أحسنه ، وأحسنه أن تأتمروا لأمره ، وتنتهوا عما نهى عنه ، فلو عملوا بما نهوا عنه كانوا عاملين بأقبحه ، فذلك وجهه . اهـ .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

***

عن قبولها واتباعها ، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ، ويتبع منهاجهم ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ** ﴾ ويوم القيامة ترى يا محمد ، هؤلاء الذين زعموا أن للّهِ ولداً وشريكاً ، وجوههم مسودة ﴿ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ أليس في جهنم مأوى ومسكن ، لمن تكبر على الله ، فامتنع عن طاعته وتوحيده ؟ ﴿ **وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾ وينجي الله من جهنم وعذابها ، الذين اتقوه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ **بِمَفَازَتِهِمْ** ﴾ بفوزهم وفضائلهم ﴿ **لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ** ﴾ لا يمسُّ المتقين من أذى جهنم شيء ﴿ **وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ على ما فاتهم من الدنيا ، إذ صاروا إلى كرامة الله ، ونعيم الجنان ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ الله الذي لا تصلح العبادة إلا له ، هوخالق كل شيء ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ وهو على كل شيء قيم ، بالحفظ والكلاءة ﴿ **لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ له مفاتيح خزائن السموات والأرض ، يفتح منها على من يشاء ، ويمسكها عمن احب من خلقه ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ والذين كفروا بحجج الله ، فكذبوا بها وأنكروها ، أولئك هم المغبونون حظوظهم من خيرات السموات ، لأنهم حرموها في الآخرة بخلودهم في النار ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : أفغير الله أيها الجاهلون بالله ، تأمرونني أن أعبد ، ولا تصلح العبادة لشيء سواه ؟ ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ ولقد أوحى إليك ربك يا محمد ، وإلى الرسل من قبلك ، لئن أشركت بالله شيئاً ليبطلن عملك ، فاحذر أن تشرك بالله شيئاً ﴿ **وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ ولتكونن من الهالكين بإشراكك ﴿ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ** ﴾ لا تعبد ما أمرك به المشركون ، بل الله فاعبده ، دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان ﴿ **وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ وكن من الشاكرين لله على نعمته عليك ، بالهداية لعبادته ، والبراءة من عبادة الأصنام والأوثان ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ وما عظَّم المشركون الله حق عظمته ﴿ **وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ والأرض كلها قبضته في يوم القيامة ﴿ **وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ والسموات كلها مطويات بيمينه ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ تنزيهاً وتبرئةً لله ، عما يشرك به هؤلاء المشركون .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ
لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾

***

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ونفخ إسرافيل في القرن النفخة الأولى[1] ، فمات من في السموات ، ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ثم نفخ في الصور نفخة أخرى ، فإذا جميع خلق الله الذين كانوا أمواتاً قيامٌ من قبورهم ، أحياء كهيئتهم قبل مماتهم ، ينظرون أمر الله فيهم ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ وأضاءت الأرض بنور ربها ، حين برز لفصل القضاء بين خلقه ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ ووضع كتاب أعمال الناس لمحاسبتهم ومجازاتهم ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ وجيء بالأنبياء ليسألهم ربهم عما أجابتهم به أممهم ، وجيء بالشهداء وهم أمة محمد ﷺ يستشهدهم ربهم على الرسل ، من تبليغهم رسالة الله ، إذ جحدت أممهم أن يكونوا أبلغوهم الرسالة ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وقضى الله بين النبيين ، وأممهم بالحق ، فلا يحمل أحد ذنب غيره ، ولا يعاقب إلا بما كسب ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ ووفَّى الله كل نفس جزاء عملها ، من خير وشر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من طاعةٍ ومعصية ، لا يغرب عنه علم شيء من ذلك ، وهو مجازيهم عليه يوم القيامة ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ وحشر الكفار إلى نار الله التي أعدها لهم يوم القيامة ، جماعات جماعات ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ حتى إذا وصلوا إليها ، فتحت لهم الأبواب السبعة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ وقال لهم قُوَّام الجنة ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ ألم يأتكم رسل ربكم ، يتلون عليكم كتب الله المنزلة على رسله ، وحججه التي بعثوا بها إلى أممهم ؟ ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ ويحذرونكم مصيركم في هذا اليوم ، وما تلقونه من العذاب ﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

---

(١) وهذه هي نفخة الصَّعق « الموت » وقبلها نفخة الفزع ، وبعدهما نفخة الإحياء ، فالنفخات ثلاث إذاً « الفزع ، والصعق ، والإحياء » والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله تعالى ، والاستثناء ﴿إلا من شاء الله﴾ يراد به حملة العرش والحور العين والولدان ، كما قال تعالى ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾ .

(٢) النار لها سبعة أبواب كما قال تعالى ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ والجنة أبوابها ثمانية لقوله عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخلها من أي باب شاء» .

قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ
مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

* * *

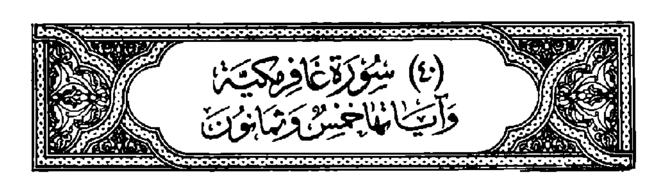
قال الكفار : بلى قد أتتنا الرسل منا وأنذرتنا ، ولكن وجبت كلمة الله بعذابنا لكفرنا به ﴿ **قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ تقول خزنة جهنم للكافرين : أدخلوا أبواب جهنم السبعة ، على قدر منازلكم فيها ، ماكثين فيها أبداً ، لا ينتقلون عنها إلى غيرها ﴿ **فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ فبئس مسكن المتكبرين عن الإيمان بالله ، جهنم يوم القيامة .

﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً** ﴾ وحشر الذين اتقوا ربهم ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، إلى الجنة راكبين على نجائب ، جماعات ، جماعات ، جماعات ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ** ﴾ حتى إذا جاءوا الجنة ، وفتحت أبوابها الثمانية ، وقال لهم خزنتها أمنة من الله لكم أن ينالكم بعد مكروهٌ أو أذى ﴿ **طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾ طابت أعمالكم في الدنيا ، فطاب اليوم مثواكم ، فادخلوا الجنة ماكثين فيها أبداً ﴿ **وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ** ﴾ فدخلوها ، وقالوا : الشكر لله وحده ، الذي كان وعدنا في الدنيا على طاعته الجنة ، فحققه لنا اليوم ﴿ **وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ** ﴾ وجعل أرض الجنة التي كانت لأهل النار ، لو أطاعوا الله في الدنيا ميراثاً لنا عنهم ، نتخذ من الجنة بيتاً ، ونسكنَ منها حيث نحبُّ ونشتهي ﴿ **فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ** ﴾ فنعم ثواب المطيعين لله ، العاملين له في الدنيا ، الجنة ﴿ **وَتَرَى المَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ** ﴾ وترى يا محمد الملائكة ، محدقين حول عرش الرحمن ﴿ **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ يصلُّون حول عرش الله ، شكراً له ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ** ﴾ وقضى الله بين النبيين والشهداء والأمم ، بالعدل ، فأسكن الجنة أهل الإيمان بالله ، وأدخل النار أهل الكفر به ﴿ **وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ وختمت خاتمة القضاء بينهم ، بالشكر لله الذي ابتدأ خلقهم ، وخلق جميع ما في السموات والأرض ، من مَلَك ، وجنٍ ، وإنسٍ ، وغير ذلك[1]

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر »

---

(١) قال قتادة : افتتح تعالى أول الخلق بالحمد لله فقال ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ واختتم بالحمد فقال ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟

* * *

﴿ حمٓ﴾ حروفٌ مقطعة من اسم الله « الرحمن الرحيم »(١) ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ هذا الكتاب تنزيلٌ من الله ، العزيزِ في انتقامه ، العليمِ بما يعملون من الأعمال ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ يغفر ذنوب العباد ، ويقبل توبة من تاب منهم ﴿شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ عقابه شديدٌ لمن عاقبه من أهل العصيان ، فكونوا على حَذَرٍ منه بأداء فرائضه ، واجتِنَاب معاصيه ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ ذي الفضل والنعم ، المبسوطة على من شاء من خلقه ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود تصلح له العبادة إلَّا الله جلَّ وعلا ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ إلى الله مرجعكم أيها الناس فاعبدوه ، فإنه لاينفعكم شيءسواه ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ما يخاصم في حجج الله وأدلته ، بالإنكار لها ، إلا الذين جحدوا توحيده ﴿ فلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلَادِ ﴾ فلا يخدعك يا محمد تصرفهم في البلاد مع كفرهم بربهم ، فإنما أُمهلوا لتحقَّ عليهم كلمة العذاب﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾كذَّبَ قبل قومك قوم نوح ، والأمم الذين تحزَّبوا وتجمعوا على رسلهم بالتكذيب ، كعادٍ وثمودَ وأشباههم ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ وهمت كل أمة من هؤلاء الأمم ، المتحزبة على أنبيائها ، برسولهم الذي أرسل إليهم ، ليأخذوه فيقتلوه(٢) ﴿ وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ ﴾ وخاصموا رسولهم بالباطل ، ليبطلوا

---

(١) ذكرنا فيما مضى أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وهو قول المحققين من أئمة علماء التفسير .

(٢) انظر إلى التعبير الرائع الذي عبَّر به القرآن﴿ وهمَّت كل أمةٍ برسولهم ليأخذوه ﴾وهذا في عصرنا ما يسمى بالخطف ، خطف =

بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

***

بجدالهم الحق الذي جاءهم من عند الله ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ فأخذت الكفار بالعذاب،فكيف كان عقابي إياهم ؟ ألم أهلكهم ، فأجعلهم للخلق عبرة ، ولمن بعدهم عظة ؟ ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وكما حق على الأمم عذابي ، كذلك وجب على الكفار من قومك عذاب النار ، الذي وعد الله به أهل الكفر .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ الملائكة الذين يحملون عرش الله ، ومن حول عرشه ممن يحفُّ به ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ يصلون لربهم ، بحمده وشكره ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ويقرُّون بالله أنه لا إلَه لهم سواه ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ويسألون ربهم أن يغفر للذين أقروا بتوحيد الله ذنوبهم ، فيعفوها عنهم ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾ يقولون : يا ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك ، فلم يخف عليك شيء﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ فاصفح عن جرم من تاب من الشرك بك من عبادك ، فرجع إلى توحيدك ﴿ وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ واصرف عنهم عذاب النار يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ يا ربنا وأدخلهم بساتين إقامة ، التي وعدت أهل الإنابة أن تدخلهم إياها ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ وأدخــلْ مع هؤلاء من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، فعمل بما يرضيك عنه من الأعمال الصالحة في الدنيا [1] ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إنك أنت يا ربنا العزيزُ في انتقامه من أعدائه ، الحكيمُ في تدبيره خلقه ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾واصرف عنهم سوء عاقبة سيئاتهم ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ ومن تصرف عنه سوء عاقبة سيئاته يوم القيامة ، فقد رحمته ونجيته من عذابك ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وذلك لا شك هو الفوز العظيم لأن من نجا من النار فقد فاز .

= الشخصيات و بخاصة الدعاة إلى الله للتنكيل بهم والقضاء عليهم .

(١) إن الله تعالى يجمع بين الآباء والأبناء والأزواج في مساكن متجاورة في الجنة لتقرَّ أعينهم فضلاً منه ورحمة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ
أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ
وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا
وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ
ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾

***

﴿ إِنَّ الذينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ إن الذين جحدوا بالله ، يُنادون في النار يوم القيامة إذا دخلوها ، فمقتوا أنفسهم حين رأوا ما أعد الله لهم فيها من أنواع العذاب ، فيقال لهم : لبغضُ الله إياكم في الدنيا أكبر من بغضكم اليوم أنفسكم ، لما حلَّ بكم من سخط الله عليكم ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرونَ ﴾ حين كنتم تدعون إلى الإيمان بالله فتكفرون ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ ﴾ قالوا يا ربنا أمتّنا مرتين : حين كنا أمواتاً في أصلاب الآباء ، ثم بقبض أرواحنا بعد الحياة ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ وأحييتنا مرتين : بإنشائنا بشراً سوياً في الدنيا ، ثم بإعادتنا أحياء بعد الموت [1] ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ فأقررنا بما عملنا من الذنوب في الدنيا ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ فهل لنا طريق للخروج من النار ، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل فيها ؟ ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ ذلكم الذي نالكم من العذاب ، بسبب أنه إذا دُعي الله وحده كفرتم ، فأنكرتم أن تكون له الألوهية خالصة ﴿ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ وإن يُجعل لله شريك ، تصدّقوا بذلك ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ ﴾فالقضاء اليوم لله العليّ على كل شيء ، الكبيرِ الذي كل شيء متصاغر له ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً ﴾ الله الذي يريكم حججه وأدلته على ربوبيته ،هو الذي ينزّل لكم أرزاقكم[2]من السماء ، بإدرار المطر الذي يخرج به أقواتكم وغذاء أنعامكم ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ ﴾ وما يتذكر حجج الله فيعتبر بها ويتعظ ، إلاّ من يرجع إلى توحيده وطاعته ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فاعبدوا الله أيها المؤمنون ، مخلصين له الطاعة ، غير مشركين به شيئاً ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ ولو كره عبادتكم له المشركون بالله .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ ﴾ هو رفيع الدرجات ، ذو السرير المحيط بما دونه ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ

(١) هذه الآية كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون﴾ فهما موتتان وحياتان .

(٢) سمّي الله المطر رزقاً لأنه سبب الرزق ، فبالمطر تخرج الزروع والثمار ، وتكثر الأعشاب التي تتناولها الماشية والأبقار ، فهكذا يسوق الله الرزق .

يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا
كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ
مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ
وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

* * *

مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ينزل الكتاب والنبوة على من يشاء من عباده ﴿ **لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** ﴾ لينذر عذاب يوم القيامة ، يوم يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ﴿ **يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ** ﴾ يوم يكون الناس ظاهرين للناظرين،لايحول بينهم جبلٌ ولا شجر ، ولايستر بعضهم عن بعض ساتر ﴿ **لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** ﴾ لايخفى على الله من أعمالهم التي عملوها في الدنياشيء﴿ **لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ** ﴾ يقول الرب سبحانه : لمن السلطان اليوم ؟ فلا يجيبه أحد يوم القيامة ، ويجيب نفسه فيقول : ﴿ **لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ لله الواحد الذي لا شبيه له ولا مثيل ، القهَّار لكل شيء بقدرته وعزَّته ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ اليوم يثاب كل عامل بعمله ، فيوفَّى أجر عمله ﴿ **لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ** ﴾ لا بخس على أحدٍ فينقص من أجر عمله إن كان محسناً ، ولا يحمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ ذو سرعةٍ في محاسبة عباده (١)

﴿ **وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ** ﴾(٢) وخوِّف يا محمد مشركي قومك ، أن يوافوا الله يوم القيامة بأعمالهم الخبيثة ، فيستحقوا من الله عقابه الأليم ﴿ **إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ** ﴾ إذ قلوب العباد من مخافة العقاب لدى حناجرهم ، قد شخصتْ من صدورهم فتعلقت بحلوقهم ﴿ **كَاظِمِينَ** ﴾ كاظمين لها يرومون ردَّها إلى مواضعها من صدورهم فلا ترجع ، ولا هي تخرج من أبدانهم فيموتوا ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ ما للكافرين يومئذ صديقٌ ، يدفع عنهم عظيم ما نزل بهم من عذاب الله ، ولا شفيعٌ يشفع لهم عند ربهم ، فيطاع وتقبل شفاعته ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ يعلم ربكم ما خانت أعين(٣) عباده ، وما أضمرته قلوبهم ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم ، حتى ما يحدِّث به نفسه ﴿ **وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ** ﴾ والله تعالى يحكم بالعدل ، فيجزي الذين أغمضوا أبصارهم عن محارمه ، بالحسنى ، والذين رددوا النظر ، وعزموا على مواقعة الفواحش بالإساءة ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ** ﴾

---

(١) قال القرطبي يحاسب الخلائق جميعاً في ساعة واحدة ، كما يرزقهم في ساعة واحدة .
(٢) الآزفة : اسم من أسماء القيامة سميت بذلك لقرب وقوعها كما قال تعالى ﴿أزفت الآزفة﴾.
(٣) قال ابن عباس : هو الرجل يكون جالساً مع الناس ، فتمرُّ المرأة فيسارقهم النظر إليها

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾

* * *

والآلهة التي يعبدها المشركون لا يقضون بشيء ، لأنها لا تعلم شيئاً ، ولا تقدر على شيء[١] ، فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ السميعُ لما تنطق به ألسنة الناس ، البصيرُ بما تفعلون ، ليجازيكم عليه يوم الجزاء

﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أو لم يسر هؤلاء المكذبون في البلاد[٢] ، فيروا ما الذي كان خاتمة الأمم الذين كانوا قبلهم ، وسلكوا سبيلهم في الكفر والتكذيب ؟! ﴿ **كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثاراً فِي الْأَرْضِ** ﴾ كانت تلك الأمم أشد منهم بطشاً ، وأبقى في الأرض آثاراً ، فلم تنفعهم شدة قواهم ، وعظم أجسامهم ، حين جاءهم أمر الله ﴿ **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ** ﴾ فأخذهم الله بما أجرموا من معاصيه ، فأباد جمعهم ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ** ﴾ وما كان لهم من دافع ، يدفع عنهم عذاب الله ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ هذا الذي فعلت بهؤلاء الأمم ، بسبب أنهم كانت تأتيهم رسل الله ، بالآيات الدالات على توحيد الله ، والإنتهاء إلى طاعته ﴿ **فَكَفَرُوا** ﴾ فجحدوا توحيد الله ، وأبوا أن يطيعوا الله ﴿ **فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ** ﴾ فأهلكهم الله بعذابه ﴿ **إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ إن الله ذو قوة لا يغلبه ، ولا يعجزه شيء أراده ، شديدٌ عقابُه لمن عاقب من خلقه ، فاحذروا أيها القوم أن ينزل بكم ما نزل بالقوم قبلكم ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ** ﴾ ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا[٣] ، وحجحنا المبينة لمن يراها أنها حجة ، محققة ما يدعو إليه موسى ﴿ **إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ** ﴾ فقال هؤلاء إن موسى ساحر يسحر العصا ، فيري الناظر إليها أنها حية ﴿ **كَذَّابٌ** ﴾ يكذب على الله فيزعم أنه أرسله إلى الناس رسولاً ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا** ﴾ فلما جاء موسى هؤلاء بتوحيد الله[٤] ، والعمل بطاعته ، مع إقامة الحجة عليهم ﴿ **قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ**

---

(١) في الأسلوب القرآني تهكم بالمشركين ، فإن الذي لايقدر على شيء كيف يكون آلهاً؟

(٢) المراد من السير في الأرض السياحةُ والسفرُ ، بقصد الاتعاظ والاعتبار ، لابقصد التسلية والنزهة ، كما يفعل السياح في زماننا

(٣) لما ذكر تعالى ما حلَّ بالكفار ، أردفه بقصة « موسى مع فرعون » بياناً لسنة الله في إهلاك الظالمين ، وتسلية لسيد المرسلين ﷺ لما يلقاه من قومه من الأذى والتكذيب ، فهذا هو وجه المناسبة .

(٤) المراد بالحق المعجزات الظاهرة ، وقد فسره الطبري بتوحيد الله .

وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ
وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ

***

آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ قالوا : اقتلوا أبناء المؤمنين من بني إسرائيل ، واستبقوا نساءهم للخدمة ﴿ وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ وما احتيال أهل الكفر إلا في جورٍ عن سبيل الحق ، وأخذٍ على غير هدى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ وقال فرعون لأشراف قومه : دعوني أقتل موسى ، وليدع ربه حتى يمنعه منا ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ إني أخاف أن يغير موسى دينكم ، الذي أنتم عليه بسحره ، أو أن يظهر في أرض مصر عبادة ربه ، الذي يدعوكم إلى عبادته ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ وقال موسى : إني استجرت بربي وربكم أيها القوم ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ من كل من تكبر عن توحيد الله ، والإقرار بألوهيته وطاعته ، ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ لايصدّق بيومٍ يحاسب الله فيه خلقه ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بما أساء [1]

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ وقال رجل من قوم فرعون [2] ، كان يسرُّ إيمانه خوفاً على نفسه من فرعون وقومه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أتقتلون ـ أيها القوم ـ موسى لأنه يقول : «ربي الله» ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وقد جاءكم بالمعجزات الواضحات على حقيقة ما يقول ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ وإن يك موسى كاذباً في قوله : إن الله أرسله إليكم ، فإنما إثم كذبه عليه دونكم ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ وإن كان صادقاً في قوله ذلك ، أصابكم

---

(١) قال ابن جرير « وإنما خص موسى ﷺ الاستعاذة بالله ممن لايؤمن بيوم الحساب ، لأن من لم يكن بيوم الحساب مصدقاً ، لم يكن للثواب على الإحسان راجياً ، ولا للعقاب على الإساءة خائفاً ، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة . اهـ

(٢) الصحيح أن الرجل كان من آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون كما قال السدي ولم يكن إسرائيلياً ، ولذلك استمع فرعون له وأصغى لحديثه .

(٣) هذا هو الأسلوب الحكيم في معالجة الموقف ، فقد استدرجهم الرجل المؤمن بطريق النصح والملاطفة ، فلم يقل لهم أتقتلون نبيَّ الله ؟ أو أتقتلون رجلاً مؤمناً ؟ وإنما نكّره « رجلاً » ليوهمهم أنه لايعرفه ، ثم قدّم الكذب في خطابه وجاء بصيغة تدل على الشك ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾وذلك مراعاة لشعورهم ، لئلا يعتقدوا أنه متعصب له ، وقال﴿ بعض الذي يعدكم﴾ ولم يقل : كل ما يعدكم به ، وختم حديثه بما يفهم منه أنه ليس بمصدق له﴿ إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب﴾ وفيه تعريض بفرعون دقيق ، بكذبه وطغيانه ، وهذا من أسرار إعجاز القرآن .

ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ
ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ

* * *

الذي وعدكم من العقوبة ، فلا حاجة بكم إلى قتله ، فتزيدوا ربكم بذلك سخطاً عليكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ إن الله لايوفق للحق ، من هو متعدٍ يكذب على الله ، ويقول عليه الباطل ، مسرفٍ في إشراكه ، وسفكه للدماء ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يا قوم لكم السلطان اليوم والملك ، ظاهرين على بني إسرائيل ، في أرض مصر ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ فمن يدفع عنا بأس الله وسطوته وعقوبته إن حلَّت بنا ؟ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ قال فرعون : ما أُريكم أيها الناس من الرأي والنصيحة ، إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحاً وصواباً ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب ، في أمر موسى وقتله ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ وقال المؤمن : يا قوم : إني أخاف عليكم ـ بقتلكم موسى ـ أن يهلككم الله هلاكاً مثل يوم الأحزاب ، الذين تحزَّبوا على رسل الله ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يهلككم مثل سنَّته في قوم نوح ، وعاد ، وثمود وقوم لوط ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ﴾ وما أهلك الله هذه الأحزاب بغير جرم ، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم بربهم ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ ويا قوم إني أخاف عليكم إن قتلتم موسى عقاب الله ، يوم ينادي الناس بعضهم بعضاً من هول ما قد عاينوا ، وفظاعة ما غشيهم من كرب ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ يوم يولون هاربين في الأرض ، حذر عذاب الله عند معاينتهم جهنم ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ليس لكم ناصر ، يمنعكم وينصركم من عذاب الله ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ومن يخذله الله تعالى فلم يوفقه لرشده ، فما له من موفق يوفقه له

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولقد جاءكم «يوسف بن يعقوب» من قبل موسى، بالواضحات [1] من حجج الله ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ فلم تزالوا مرتابين فيما أتاكم به

(١) المراد بها المعجزات الظاهرات التي أيد الله بها رسوله موسى عليه السلام

إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ
وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾
وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ

* * *

يوسف ، غير موقنين بحقيقته ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ حتى إذا مات يوسف ، قلتم أيها القوم : لن يبعث الله من بعد يوسف رسولاً يدعوكم إلى الحق(١) ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ هكذا يصدُّ الله عن إصابة الحق من هو كافر به ، شاكٌّ في أخبار رسله ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يضل الله أهل الإسراف والغلو ، الذين يخاصمون في حجج الله التي أتتهم ليدحضوها بالباطل ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ بغير حجة أتتهم من عند ربهم ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كبر ذلك الجدال في آيات الله ، بغضاً عند الله وعند المؤمنين ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ كما يطبع الله على قلوب المسرفين المجادلين ، كذلك يختم على قلب كل متكبر على الله ، متعظم على اتباع الحق ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً ﴾ وقال فرعون لوزيره : يا هامان ابن لي بناء عالياً(٢) ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ لعلي أبلغ من السموات أبواباً وطُرُقاً ، أتسبب بها إلى رؤية إلّه موسى ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ وإني لأظن موسى كاذباً فيما يدَّعي ، من أن له في السماء رباً أرسله إلينا ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ وهكذا زُين لفرعون ـ حين عتا على ربه وتمرد ـ قبيحُ عمله،حتى سوَّلت له نفسه بلوغ السموات ليطلع إلى إلّه موسى ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ومُنع عن طريق الهدى ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ وما احتيال فرعون إلا في ضَلَال وخسران ، فقد ذهبت نفقته على الصرح باطلاً ، ولم ينل شيئاً مما أراده ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وقال مؤمن آل فرعون : يا قوم إن قبلتم ما أقول ، بينت لكم طريق الصواب .

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ يا قوم ما هذه الحياة التي عُجلت لكم في هذه الدار ، إلا متاعٌ تستمتعون بها إلى أجل ، ثم تزول عنكم بالموت ﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ ﴾ وإن الآخرة هي

(١) إنما قالوا ذلك على سبيل الزعم والتمني من غير حجة ولا برهان ، ومرادهم لا رسول من عند الله يبعثه إلى الخلق .

(٢) لما خاف فرعون أن يتمكن كلام المؤمن في قلوب القوم، أراد أن يوهمهم أنه سيمتحن ما جاء به موسى من التوحيد والإيمان بالله ، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح وهو البناء الشامخ ، والقصر العالي المرتفع .

ٱلْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) * وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِى
لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ
لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ
لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ

* * *

الدار التي تستقرون فيها ، فلا تموتون ولا تزول عنكم ، فاعملوا لها واطلبوها ﴿ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا** ﴾ من عمل بمعصية الله ، فلا يجزيه الله في الآخرة ، إلا أن يعاقبه بمثلها ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى** ﴾ ومن عمل بطاعة الله في الدنيا ، فائتمر بأمره ، وانتهى عما نهاه عنه ، من رجل أو امرأة ﴿ **وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ وهو مصدِّقٌ بالله تعالى ﴿ **فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا** ﴾ فالذين يعملون ذلك من عباد الله ، يدخلون في الآخرة الجنة ، يرزقهم الله فيها من ثمارها وما فيها من نعيم ﴿ **بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ بغير مكيالٍ ولا ميزان ﴿ **وَيَاقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إلى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إلى النَّارِ** ﴾ يا قوم : ما لي أدعوكم إلى النجاة من عــذاب الله ، بالإيمان بالله واتباع رسوله ، وتدعونني إلى عمل أهل النار باتباع دينكم ﴿ **تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** ﴾ تدعونني لأشرك بالله أوثاناً لاتصلح عبادتها ، لأن الله لم يأذن لي في ذلك ، بخبرٍ ولا عقل ﴿ **وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ** ﴾ وأنا أدعوكم إلى عبادة العزيز في انتقامه ممن كفر به ، الغفار لمن تاب إليه بعد معصيته ﴿ **لاَ جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ** ﴾ حقاً إن الذي تدعونني إليه من الأوثان ، ليس له دعاء [1] في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنه جماد لاينطق ، ولا يفهم شيئاً ﴿ **وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ** ﴾ وأن مرجعنا بعد مماتنا إلى الله ﴿ **وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ وأن المشركين بالله المتعدين حدوده السفاكين للدماء بغير حق ، هم أصحاب جهنم ﴿ **فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ** ﴾ فستذكرون ـ أيها القوم ـ إذا عاينتم عقاب الله ، صدق ما أقول ، وحقيقة ما أخبركم به عن أهل النار ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ وأسلِّم أمري إلى الله ، وأتوكل عليه ، فإنه الكافي من توكل عليه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ** ﴾ إن الله عالم بأمور عباده ، المطيع منهم والعاصي ، والمستحق للثواب ، والمستوجب للعقاب ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا** ﴾ فدفع الله عن هذا

---

(١) المراد بالآية أنه لايصلح أن يعبد ، لأنه لايستجيب للنداء ، ولايقدر على تفريج الكربة ، قال قتادة : لاينفع الوثن ولا يضر في الدنيا ولا في الآخرة ، وكذلك قال السُّدي .

ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾
وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟
رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا
دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

* * *

المؤمن بإيمانه ، مكروه ما كان فرعون يريده من العذاب فنجاه منه [١] ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ وحلَّ بأتباع فرعون الأشقياء ، ما ساءهم من عذاب الله ، وهو نار جهنم ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ تعرض أرواحهم على النار [٢] بعد غرقهم كل يوم مرتين، صباحاً ومساءً، إلى أن تقوم الساعة.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ويوم تقوم الساعة يقول الله لملائكته : أدخلوا قوم فرعون أشد العذاب ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ وإذ يتخاصم المشركون في النار ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ فيقول الأتباع لرؤسائهم الذين اتبعوهم على الضلالة : إنا كنا في الدنيا لكم تبعاً على الكفر ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ ﴾ فهل تخففون عنا حظاً من النار ؟ فقد كنا نسارع في محبتكم في الدنيا ، ولولا أنتم لكنا مؤمنين ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ قال الرؤساء المتبوعون على الضلالة : إنَّا وأنتم في هذه النار ، مخلدون لاخلاص لنا منها ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾ فصل بين العباد بقضائه ، فأسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ وقال أهل جهنم لحراسها ، استغاثة بهم من عظيم ماهم فيه من البلاء ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أدعوا ربكم حتى يخفف عنا من العذاب ، قدر يوم واحد من أيام الدنيا ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ ﴾ قالت خزنة جهنم لهم : ألم تأتكم رسلكم بالحجج على توحيد الله ، فتوحدوه ، وتؤمنوا به ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ قد أتتنا الرسل بذلك ﴿ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ قال الخزنة لهم : فادعوا إذاً أنتم ربكم [٣] ، وما دعاؤهم إلا في ضلال ، لأنه لاينفعهم ولا يستجاب لهم .

---

(١) لما تمَّم نصحه لهم وأظهر إيمانه ، قصدوا قتله فهرب منهم ونجاه الله ، وهذا قول مقاتل .

(٢) في الآية دليل على أن المراد بالنار نار القبر لا نار جهنم ، لأن الله تعالى قال بعدها ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ فدل هذا على أن المراد به عذاب القبر .

(٣) إنما يقولون لهم ذلك لا لرجاء المنفعة من الدعاء ، ولكن للدلالة على الخيبة ، ولهذا صرحوا بعد ذلك لهم بقولهم ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي لاينفع ولا يجدي .

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

* * *

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إنا لننصر رسلنا والمؤمنين في الحياة الدنيا بقهرهم للكافرين ، أو بانتقامنا ممن حادهم ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ وننصرهم يوم القيامة ، يوم تشهد الملائكة والأنبياء والمؤمنون ، على الأمم المكذبة لرسلها ، بأن الرسل قد بلغوا أممهم رسالات ربهم ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ يوم لاينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم يعتذرون بالباطل ، ولا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وللظالمين البعد من رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ ولهم العذاب الأليم في الدار الآخرة ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهُدَى ﴾ ولقد أعطينا موسى البيان للحق ، فكذّب به فرعون ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ . هُدًىوَذِكْرَى لِأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ وأورثنا بني إسرائيل التوراة، وأنزلناها إليهم، بياناً لأمر دينهم، وتذكيراً منا لأهل العقول منهم ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فاصبر يا محمد لأمر ربك ، وبلّغ قومك ما أنزل إليك ، وأيقن بحقيقة وعد الله بنصرتك ، ونصرة من صدقك ﴿ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ وسل ربك غفران ذنبك ، وعفوه لك عنه [(١)] ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ وصلِّ لربك [(٢)] من زوال الشمس إلى الليل ، ومن الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ إن الذين يخاصمونك يا محمد ، فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ بغير حجة جاءتهم من عند الله ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ ما في صدورهم إلا كبرٌ يتكبرون من أجله عن اتباعك ، حسداً منهم على الفضل والكرامة التي أكرمك الله بها من النبوة ﴿ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ وهو أمرٌ ليسوا بمدركيه ، لأن ذلك فضل يؤتيه الله من يشاء [(٣)] ﴿ فَاسْتَعِذْ

---

(١) المقصود من هذا الأمر تعليم الأمة الاستغفار من الذنوب ، ولهذا قال ابن كثير : وهذا تهييجٌ للأمة على الاستغفار . ا هـ ٢٤٨/٣ .

(٢) هكذا فسر ابن جرير الآية ووضح أن المراد من التسبيح الصلاة ، وقال غيره من المفسرين : المراد المواظبة على ذكر الله ، وألا يفتر اللسان عنه في صباح أو مساء .

(٣) وقيل المعنى : ما هم بواصلين إلى مرادهم من عداوتك وإطفاء نور الله ، فإن الله معك ، وهو الأظهر .

ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ
فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

* * *

بِاللَّهِ ﴾ فاستجر بالله يا محمد من شر هؤلاء، ومن الكبر أن يعرض في قلبك منه شيء ﴿ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ إن الله هو السميع البصير بما تعمله الجوارح ، لايخفى عليه شيء ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** ﴾ لابتِداعُ السموات والأرض(١)، وإنشاؤ هامن غير شيء أعظم من خلق الناس،إن كنتم مستعظمي خلق الناس ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ أن خلق جميع ذلك هيِّنٌ على الله ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ** ﴾ كما لايستوي الذي لايبصر شيئاً، والبصير الذي يرى بعينيه ما شخص لهما ، كذلك لا يستوي الكافر الذي لا يتأمل حجج الله ، فيتدبرها ، والمؤمن الذي يرى حجج الله ، فيتفكر فيها ويتعظ بها ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا المُسِيءُ**﴾ ولا يستوي كذلك المؤمنون بالله ورسوله ، المطيعون لربهم ، والكافرون بربهم ، العاصون له(٢) ﴿**قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**﴾ ما تتذكرون حجج الله ، فتعتبرون وتتعظون بها إلا قليلاً

﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا** ﴾ إن الساعة(٣) التي يحيي الله فيها الموتى ، لا شك في مجيئها ، فأيقنوا بذلك وتوبوا إلى ربكم ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ ولكن أكثر قريش لا يصدقون بمجيئها ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ ويقول لكم ربكم : أعبدوني وأخلصوا لي العبادة ، أُجب دعاءكم ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ يتعظمون عن إفرادي بالعبادة والألوهية، سيدخلون جهنم صاغرين ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ الله الذي لا تنبغي العبادة لغيره ، هو الذي جعل لكم الليل لتهدأوا فيه من التصرف ، والاضطراب للمعاش ﴿ **وَالنَّهَارَ مُبْصِراً** ﴾ وجعل النهار لطلب المعاش والحاجات ، نعمةً منه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ** ﴾ إن الله لمتفضل عليكم

---

(١) في هذه الآيات الكريمة ذكر تعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته ، وهذا من أعظم الأهداف في القرآن .

(٢) هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ،فالأعمى هو الكافر الذي لا يتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، والبصير هو المؤمن الذي يتفكر ويتعظ بما حوله من الحجج والآيات ، وهو قول ابن كثير وابن جرير

(٣) المراد بالساعة القيامة كما تقدم مراراً .

ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾
كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ * قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ

* * *

أيها الناس ، بما لا مثيل له من الفضل ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لا يشكرونه بالطاعة له ، وإخلاص الألوهية والعبادة ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الذي فعل هذه الأفعال هو الله ، خالقكم وخالق كل شيء ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود تصلح له العبادة غيره ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فأين تذهبون عنه وتعبدون سواه ؟ ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ كذهابكم عن الحق إلى الباطل ، والرشد إلى الضلال ، ذهب الذين كذبوا بحجج الله وآياته ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً﴾ تستقرون عليها ، وتسكنون فوقها[1] ﴿ والسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ ورفع السماء فوقكم لمصالحكم ، وقوام دنياكم ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ وخلقكم فأحسن خلقكم ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ورزقكم من حلال الرزق ، ولذيذات المطاعم والمشارب ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ الذي فعل هذه الأفعال هو الله ربكم ، الذي لا تصلح الربوبية لغيره ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ فتبارك الله مالك جميع الخلق ﴿ هُوَ الحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هو الحي الذي لا يموت ، لا معبود بحقٍّ إلا الله ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ فادعوه مخلصين له الطاعة ، ولا تشركوا في عبادته شيئاً سواه ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ الشكر [2] لله مالك كل شيء .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الآلهة والأوثان ﴿ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ لما جاءني من آيات كتاب الله الواضحات الذي أنزله الله إلي ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ وأمرني ربي أن أذلَّ وأخضع له بالطاعة دون غيره ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

---

(١) هذا هو معنى القرار كما فسره الطبري وغيره من أئمة علماء التفسير ، وليس معناه عدم الحركة كما فهم البعض ، فإن الله تعالى بيّن لنا أنه جعل الأرض مستقراً لنا وسكناً وهذه نعمة جليلة ينبغي أن نشكر الله عليها ، ويؤيد هذا قول ابن عباس : جعلها منزلاً لكم في حياتكم وبعد موتكم ، فتنبه

(٢) معنى الحمد : الثناء التام الكامل ، فالله وحده هو الذي يستحق الحمد والثناء ، وتفسير الطبري له بالشكر قاصر عن المطلوب ، فإن الشكر أخص من الحمد ، لأنه يقابل النعمة

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ
أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ
تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ

* * *

﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ خلق أباكم آدم من تراب ،ثم خلقكم من نطفة، ثم من علقة، بعد أن كنتم نطفاً﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم صغاراً ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ﴾ ثم تتكامل قواكم، ويتناهى شبابكم ، فتهرموا وتصبحوا شيوخاً ﴿ وَمِنكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ ومنكم من يموت قبل أن يبلغ الشيخوخة ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى ﴾ ولتبلغوا ميقاتاً مؤقتاً لحياتكم لا تجاوزونه ، ولا تتقدمون قبله ﴿ وَلَعلكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ولكي تعقلوا حجج الله ، وتتدبروا آياته ، فتعرفوا أنه لا إلّه غيره ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ومن صفته ـ جل ثناؤه ـ أنه هو الذي يحيي من يشاء بعد مماته ، ويميت من يشاء من الأحياء بعد حياته ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وإذا قضى أمراً من الأمور ، يقول له : كن فيكون موجوداً بغير معاناةٍ ولا كلفة[1] ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ ألم تر[2] يا محمد هؤلاء المشركين ، الذين يخاصمونك في حجج الله وآياته ﴿ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ أي وجه يصرفون عن الحق ، ويعدلون عن الرشد ؟ ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالكِتَابِ ﴾ وهم الذين كذبوا بهذا القرآن ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ وكذبوا أيضاً بالذي أرسلنا به رسلنا ، من إخلاص العبادة لله ، والبراءة من الآلهة والأنداد ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ فسوف يعلم هؤلاء المكذبون حقيقة ما تخبرهم به ، حين تجعل الأغلال والسلاسل في أعناقهم في جهنم ﴿ يُسْحَبُونَ فِي الحَمِيمِ ﴾ يسحبهم زبانية العذاب يوم القيامة في الحميم الذي انتهى حره، وبلغ غايته ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُون ﴾ ثم يحرقون في نار جهنم فتوقد بهم ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ثم قيل لهم : أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم من آلهتكم وأوثانكم ، حتى يغيثوكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب ؟ ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ فأجاب المساكين لقد عدلوا عنا ، وتركونا في هذا البلاء ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً ﴾

---

(١) في الآية تمثيل لعظمته تعالى ، وكمال قدرته ، فلا يحتاج ربنا في إيجاد شيء إلى زمن ولا يناله تعب ولا عناء ، وإنما يقول له كن فيكون .

(٢) الاستفهام هنا للتعجيب أي ألم تعجب يا محمد من حال هؤلاء المكابرين من قومك !!

يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟
أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾

* * *

بل لم نكن نعبد في الدنيا شيئاً ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الكَافِرِينَ ﴾ كما أضل الله هؤلاء ، يضل أهل الكفر عن عبادته ، فلايرحمهم ولا يغيثهم فيخفف عنهم البلاء ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ ﴾ هذا العذاب الذي أنتم فيه ، بفرحكم في الدنيا بغير ما أذن الله لكم به ، من الباطل والمعاصي ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ وبأشركم وبطركم[1] فيها ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ يقول الله لهم : أدخلوا أبواب جهنم السبعة ، ماكثين فيها أبداً ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ ﴾ فبئس منزل المتكبرين اليوم جهنم ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فاصبر يا محمد على هؤلاء المشركين ، فإن الله منجزٌلك ما وعدك من الظفر عليهم ، وإحلال العقاب بهم ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ فإما نرينك في حياتك[2] ، بعض الذي نعد هؤلاء المشركين ، من العذاب والنقمة تحل بهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أو نتوفينك قبل ذلك ، فإلينا مصيرك ومصيرهم ، فنحكم بينك وبينهم بالحق .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك ، رسلاً إلى أممهم ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَم نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ منهم من ذكرنا لك نبأهم وخبرهم ، ومنهم من لم نخبرك عنهم[3] ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾وما جعلنا لرسول ممن أرسلناه من قبلك ، أن يأتي قومه بآية فاصلة ، إلا بإذن الله له بذلك[4] ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالحَقِّ ﴾ فإذا جاء أمر الله قضي بالعدل ، فنجّى الله رسله والذين آمنوا معهم ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ المُبْطِلُونَ ﴾ وهلك هنالك الذين أبطلوا أعمالهم ،بافترائهمعلى الله ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ الله هو الذي جعل

(١) المرح : البطر والأشر والفخر ، وقال ابن عباس : هو الخيلاء والعمل في الأرض بالخطيئة .

(٢) جواب « إنْ » محذوف تقديره : إن أريناك يا محمد بعض هذا العذاب لتقر به عينك فهو المطلوب أونتوفينك قبل إنزاله فننتقم منهم أشد الانتقام .

(٣) الآية فيها تسلية للنبي ﷺ ، ليقتدي بالأنبياء في الصبر على تحمل البلاء .

(٤) المراد بالآية المعجزة ، وفي هذا رد على كفار قريش حيث اقترحوا على النبي ﷺ أن يأتيهم ببعض الخوارق والمعجزات .

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ
وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ
بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا
بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾

* * *

لكم الأنعام من الإبل والبقر والغنم والخيل، وغير ذلك من البهائم، لتركبوا بعضاً منها كالخيل والحمير، وبعضاً تأكلون كالإبل والبقر والغنم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ وجعل لكم من جلودها بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم، ويوم إقامتكم «ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين» ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ ولتبلغوا بالحمولة على بعضها كالإبل حاجة في صدوركم، لم تكونوا بالغيها لولاها إلا بشق أنفسكم ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وعلى الإبل نحملكم في البر، وعلى السفن نحملكم في البحر ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ ويريكم حججه، فأيها تنكرون فتكذبون بوحدانية الله[1] ؟

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أفلم يسر هؤلاء المشركون في البلاد، فينظروا في أسفارهم إلى وقائعنا وما أحللناه بالأمم قبلهم من بأسنا، بتكذيبهم وجحودهم ؟ ! ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ﴾كان أولئك أكثر عدداً من قريش، وأقوى قوة وبطشاً، وأبقى في الأرض آثاراً[2] ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلما جاءهم بأسنا لم يغن عنهم ذلك شيئاً، ولكنهم بادوا جميعاً، فليعتبروا بذلك، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ ﴾ فلما جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحات، فرحوا - جهلاً منهم - بما عندهم من العلم، وقالوا لن نُبعث ولن يعذبنا الله ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وأحاط بهم من عذاب الله ما كانوا يستعجلون به رسلهم، استهزاء وسخرية ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ فلما حلَّ بهم عقاب الله، قالوا: أقررنا بتوحيد الله، وصدَّقنا أنه لا إله غيره ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ وجحدنا بالآلهة التي كنا نعبدها مع الله، ونتخذها آلهة فتبرأنا منها.

(١) في الآية توبيخ للمشركين على إنكارهم لوحدانية الله تعالى مع ظهور الدلائل الساطعة الكثيرة.

(٢) المراد أن آثارهم لا تزال باقية بعدهم، من الأبنية والقصور والجبال التي نحتوها، وكان العرب في أسفارهم يرون ذلك.

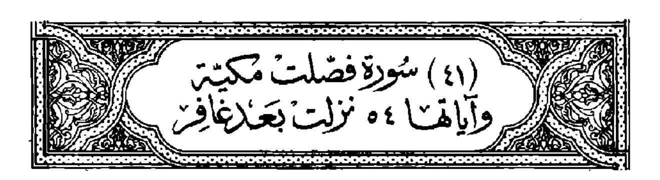
فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

* * *

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ فلم يك ينفعهم تصديقهم، عند معاينة عذاب الله وعقابه قد حل بهم، لأنهم صدَّقوا حين لا ينفع التصديق ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ تلك هي سنَّة الله التي مضت في خلقه ، أنه من تاب بعد نزول العذاب لم تنفعه توبته ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾ وهلك الجاحدون بتوحيد الله ، المتّخذون من دونه آلهة يعبدونهم عند مجيء بأس الله

« تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر »





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾

* * *

﴿حمٓ﴾ تقدَّم القول عليه فيما مضى[١] ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ هذا القرآن تنزيلٌ من عند الرحمن الرحيم ، نزَّله على نبيه محمد ﷺ ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ ﴾ كتابٌ بُيِّنت آياته ﴿ قرآناً عربياً ﴾ جعلناه قرآناً عربياً ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يعلمون اللسان العربي ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ يبشّر المؤمنين العاملين بما فيه بالجنة ، وينذر المكذبين به بالخلود في نار جهنم ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ فاستكبر أكثر هؤلاء القوم ، عن تدبر ما فيه من حجج الله ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ فهم لا يصغون له استكباراً وإعراضاً[٢]

---

(١) ذكر الإمام الطبري أن « حمٓ » حروف مقطّعة من اسم الله « الرحمن الرحيم » ففيه الحاء والميم ، والصحيح ما أوضحناه سابقاً أن هذه الحروف المقطّعة للتنبيه على إعجاز القرآن .

(٢) المراد بالسماع سماع التفكر والتدبر ، فقد جعل الله لهم آذاناً يسمعون بها الكلام ولكنهم لا ينتفعون بما يسمعونه .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾
قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾

* * *

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ وقال المشركون من قريش : قلوبنا في أغطية مما تدعونا إليه يا محمد من توحيد الله ، لا نفقه ما تقول ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ وفي آذاننا ثقل وصمم ، لا نسمع ما تدعونا إليه ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ وبيننا وبينك ساتر ، لا نجتمع نحن ولا أنت من أجله ، وهو اختلاف ديننا ودينك[١] ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ فاعمل بدينك إننا عاملون بديننا ، ودع ما تدعونا إليه ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ما أنا إلا مثلكم ، بشر من بني آدم في الجنس والصورة ، ولست بملَك ﴿ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أوحى الله إليَّ ألا معبود لكم تصلح عبادته ، إلا معبودٌ واحد ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ فاستقيموا إليه بالطاعة ، ووجهوا وجوهكم إليه بالعبادة ، دون الآلهة والأوثان ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ وسلوه العفو عن ذنوبكم يغفر لكم ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ وصديد[٢] أهل النار للمشركين العابدين للأوثان ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ الذين لا يؤدون زكاة أموالهم[٣] ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهم منكرون للبعث بعد الفناء ، وخروج الخلق من قبورهم أحياء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إن الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم به الله ورسوله ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لهم أجرٌ غير منقوص .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أئنكم لتكفرون بالله ، الذي خلق الأرض في يومي الأحد والإثنين ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ وتجعلون لله الأكفاء والأشباه من الرجال ، تطيعونهم في معاصي الله ؟ ﴿ ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ ذلك الفاعل هو الله ، مالك

(١) أرادوا بالحجاب اختلاف الدين بينهم وبين محمد ، فهم يعبدون الأوثان ، ومحمد يعبد الرحمن فكيف يمكن الاتفاق !!

(٢) لقد سار ابن جرير في تفسيره على أن الويل هو : صديد أهل النار وما يسيل منهم ، وحيثما ذكر « الويل » في كتاب الله فسره بذلك ، وهذا بعض العذاب الذي يصيب أهل النار ، وأما الويل في اللغة فمعناه الدَّمار والهلاك وشدة العذاب ، وقد قال الراغب في مفرداته : ومن قال « ويل » واد في جهنم فإنه لم يرد أنه في اللغة موضوع لهذا وإنما أراد أنه يستحق مقراً في جهنم . اهـ.

(٣) وقيل : المراد تزكية أنفسهم من الشرك ، والصحيح ما قاله الطبري أن المراد به زكاة المال ، فإنه المتبادر ولو كانت السورة مكية ، فإن أصل الزكاة مشروعٌ كأصل الصلاة .

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾

* * *

جميع الإنس والجن وسائر الخلق ، فكيف يجوز أن يكون له شبيه ونظير ؟ ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا** ﴾ وجعل في الأرض جبالاً ثوابت على ظهرها ﴿ **وَبَارَكَ فِيهَا** ﴾ وبارك في الأرض فجعلها دائمة الخير لأهلها ﴿ **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** ﴾ وقدَّر فيها أرزاق أهلها ومعايشهم ، وخصَّ كل بلدة منها ما لم يجعله في الآخر ، ليتصرفوا في البلاد بالتجارة ، فعل ذلك كله في أربعة أيام ، قال ابن عباس : فرغ الله من خلق الأرض وجميع أسبابها ومنافعها ، من الأشجار ، والماء ، والمدائن ، والعمران في أربعة أيام ، أولهن يوم الأحد ، وآخرهن يوم الأربعاء[١] ﴿ **سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ** ﴾ قسَّم فيها الأقوات ، للسائلين عما يصلحهم ، وما لهم به إليه الحاجة[٢] ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾ ثم ارتفع إلى السماء وهي بهيئة الدخان[٣] ﴿ **فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً** ﴾ فقال الله للسماء والأرض : جيئا بما خلقتُ فيكما طائعتين أو مكرهتين ، أمَّا أنت يا سماء فأطلعي الشمس والقمر والنجوم ، وأما أنت يا أرض فأخرجي الأشجار والنبات والثمار ، وتشققي عن الأنهار ﴿ **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ قالتا : جئنا مستجيبين لأمرك ، لا نعصيك ﴿ **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ** ﴾ ففرغ من خلقهن سبع سموات في يومي : الخميس والجمعة ﴿ **وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** ﴾ وألقى في كل سماء ما أراد من الخلق ﴿ **وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** ﴾ وزينا السماء الدنيا بالكواكب ﴿ **وَحِفْظاً** ﴾ وحفظاً من الشياطين ﴿ **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ هذا الذي ذكرتُ من الخلق والتزيين ، هو صنع الله ، العزيز في انتقامه من أعدائه ، العليم بسرائر عباده ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا** ﴾ فإن أعرض هؤلاء المشركون فلم يؤمنوا ﴿ **فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾ فقل لهم يا محمد : أنذرتكم عذاباً يهلككم ، مثل عذاب عاد

---

(١) فإن قيل : كيف ذكر أنه خلق الأرض في يومين ، ثم قال هنا : في أربعة أيام ؟ فالجواب أن خلق الأرض وتقدير أرزاقها كان في أربعة أيام ، فخلقُ الأرض في يومين ، وتقدير الأقوات والأرزاق وسائر المنافع كان في يومين ، فالمجموع أربعة أيام ، ابتدأت بالأحد وانتهت بالأربعاء .

(٢) وقيل : المراد للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ، واختار الطبري ما ذكرناه .

(٣) قال ابن كثير : المراد بالدخان بخار الماء المتصاعد من الأرض .

إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ
أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ
لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ
فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾

* * *

وثمود ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ حين جاءتهم الرسل الذين كانوا قبل « هود »، والرسل الذين كانوا بعده ، فكذبوهم فأهلكوا ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ بأن لا تعبدوا إلا الله وحده ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ فقالوا لرسلهم : لو شاء الله أن نوحّده ولا نعبد غيره ، لأنزل إلينا ملائكة رسلاً ، ولم يرسلهم بشراً ﴿ فَإِنَّا بما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فإنا جاحدون برسالتكم ، غير مصدقين لكم ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فأما قوم هود فاستكبروا على ربهم ، وتجبّروا في الأرض تكبراً وعتواً ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وقالوا : من أقوى منا بطشاً ؟[1] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أولم يعلموا أن الله الذي أعطاهم عظم الخلق ، وشدة البطش ، هو أقوى منهم فيحذروا عقابه ، ويتقوا سطوته ؟ ﴿ وَكَانُوا بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ وكانوا بحججنا وأدلتنا يكذّبون ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ريحاً صَرْصَراً ﴾ فأرسلنا على عادٍ ريحاً شديدة[2] ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ في أيام مشئومات ، ليس فيها شيءٌ من الخير ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا ﴾ لكي نخزيهم بهذا العذاب في الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ ولعذابنا لهم في الآخرة ، أشد إهانة وإذلالاً لهم ﴿ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ ولا ينصرهم يوم القيامة ناصر ، فينقذهم من عذاب الله

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ وأما ثمود فبيّنا لهم سبيل الحق وطريق الرشد ﴿ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى ﴾ فاختاروا طريق الضلال على طريق الهدى ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العَذَابِ الهُونِ ﴾ فأهلكتهم بالعذاب المذلّ المهين[3] ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بما كانوا يكسبون من الآثام ، بكفرهم بالله وتكذيبهم

---

(١) الاستفهام هنا يراد به النفي أي لا أحد أقوى منا ، فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عنا بقوتنا ، قال المفسرون : كانوا ذوي أجسام طوال ، وخلق عظيم ، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل منهم كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده ، ولم يكن أحد أقوى منهم في البنية والجسم ، ولذلك اغتروا بقوّتهم فقالوا : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ؟

(٢) الصرصر : صوت الريح العاصفة إذا هبت بشدة ، وهذا الذي رجحه الطبري وقيل : هي الباردة .

(٣) الهُوْن : الهوان وهو العذاب الذي معه ذل وإهانة .

وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا
جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا
قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ
عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ
ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ
فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

* * *

رسله ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ونجينا من العذاب الذين صدَّقوا رسله ، وكانوا يخافون وعيد الله وعقابه ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴾ ويوم يُجمع المشركون أعداء الله إلى نار جهنم ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يُحبس أولهم على آخرهم[1] ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ حتى إذا جاءوا النار ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ شهدت عليهم جوارحهم : سمعهم وأبصارهم وجلودهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الآثام ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ وقال أعداء الله لجلودهم حين شهدت عليهم : لم شهدتم علينا بما كنا نعمله في الدنيا ؟ ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فأجابتهم جلودهم لقد أنطقنا الله فنطقنا ، وهو الذي أنطق كل شيء ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والله خلقكم ولم تكونوا شيئاً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه مصيركم من بعد مماتكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ وما كنتم تستخفون[2] ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حذر أن يشهدعليكم[3]سمعكم وأبصاركم وجلودكم ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولكن حسبتم ـ حين ركبتم معاصي الله ـ أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالكم الخبيثة ، فلذلك لم تستتروا ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ وهذا الظن السيىء الذي ظننتم بربكم أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ فأصبحتم اليوم من الهالكين ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ فإن يصبر هؤلاء على النار ، فالنار مسكنٌ لهم ومنزل ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ ﴾ وإن يسألوا الرجعة إلى من يحبونهم ، فليسوا بالذين يُرجع بهم إلى الجنة ، فيخفف عنهم

(١) يوزعون : يحبس أولهم على آخرهم ليجتمعوا ، قال في لسان العرب :وزعتُ الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم ، وقيل : يكفون لئلا يتفرقوا .

(٢) وفي الحديث « فيختم على فيه ـ فمه ـ ثم يقال لجوارحه : انطقي ، فتنطق بأعماله . . » الحديث أخرجه مسلم .

(٣) وقيل : المراد وما كنتم تظنون أن تشهد عليكم أعضاؤكم ، وقد رجح الطبري أن المراد تستخفون منها لأن معنى الاستهتار هو الاستخفاء ، وهو الصحيح .

* وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

* * *

العذاب[1] ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ وبعثنا لهم قرناء من الشياطين ، يزينون لهم قبائح أعمالهم ﴿ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فحسَّنوا لهم أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة ، وحسَّنوا لهم ما بعد مماتهم ، حتى صدَّقوا أن لا معاد ، ولا ثواب ولا عقاب ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ ووجب لهم العذاب ﴿ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ مع أمم قد مضت قبلهم ، بعضُهم من الجنّ وبعضُهم من الإنس ، حقَّ عليهم العذاب ، مثل الذي حقَّ على هؤلاء ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ إنهم كانوا مغبونين ، ببيعهم رضا الله بسخطه وعذابه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ ﴾ وقال مشركو قريش لأوليائهم : لا تسمعوا ولا تُصغوا لقارىء هذا القرآن ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ والغطوا بالباطل عند قراءته كيلا تسمعوه ، قال مجاهد : إذا قرأ محمد القرآن فارفعوا أصواتكم بالتخليط والتصفير ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ لعلكم تصدُّون من أراد استماعه ، فتغلبون بذلك محمداً[2] ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً ﴾ فلنذيقنَّ هؤلاء الكفار في الآخرة عذاباً شديداً ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولنثيبنَّهم على أفعالهم ، بأقبح جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ هذا الجزاء للمشركين هو نار جهنم ، جزاء أعداء الله ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ﴾ لهم في جهنم دار المكث إلى غير نهاية ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ جزاءً لهم ، بجحودهم بآياتنا في الدنيا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ وقال الكفار بعدما أدخلوا جهنم : يا ربنا أرنا من أضلَّنا من خلقك ، من جنهم وإنسهم ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ نجعلهما أسفل[3] منا ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾ ليكونا في أشد العذاب ، في الدرك الأسفل من النار

---

(١) هكذا فسره الإمام الطبري ، وفسره غيره بأن المعنى : وإن يطلبوا إرضاء الله فما هم من المرضي عليهم ، وهو الأظهر .

(٢) هكذا أوصى المجرمون بعضهم بعضاً بأن يرفعوا أصواتهم عند قراءة الرسول حتى لا يسمعه أحد ، قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول .

(٣) قال الطبري : أبواب جهنم بعضها أسفلُ من بعض ، وكلُّ ما سفل منها فعذاب أهله أشد وأغلظ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا
مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾
وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ
حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِين قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ آمنوا بوحدانية الله ، وبرئوا من الآلهة والأنداد ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على توحيد الله وطاعته[1] ، ولم يخلطوا توحيدهم بشرك ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ تهبط عليهم الملائكة عند نزول الموت ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ بألا تخافوا بعد مماتكم ، ولا تحزنوا على ما تخلّفونه وراءكم من أهلٍ وولد ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ وسُرُّوا بالجنة التي وُعدتم بها في الدنيا ، على إيمانكم واستقامتكم ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ نحن أنصاركم في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة أيضاً ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ ولكم عند الله ما تشتهيه أنفسكم ، من الملذات والشهوات ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ولكم فيها ما تطلبون وتشتهون ﴿ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ ضيافةً من ربٍ غفور لذنوبكم ، رحيمٍ عن معاقبتكم .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ دعا الناس إلى الإسلام بقوله وعمله ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وخضع لله بالطاعة والعبودية ، والإيمان بالوحدانية[2] ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ ولا يستوي الإيمان بالله وطاعته ، والشرك بالله ومعصيته ﴿ آدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ آدفع بالحلم جهل الجاهل ، وبالعفو إساءة المسيء[3] ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ فإذا فعلت ذلك يصير المسيء ، الذي بينك وبينه عداوة ، كأنه ـ من ملاطفته وبره ـ صديق قريب[4] ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ وما يُعطى هذه المنزلة ، إلاّ الذين صبروا على المكاره والمشاقّ ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ وما يُعطاها إلاّ ذو نصيب عظيم في المبرّات ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ وإمَّا يُلقينَّ

---

(١) هذه الآية عامة في كل من جمع الخصال الثلاث : الدعوة إلى الله ، وعمل الخير ، والاستقامة بعلمه وعمله .
(٢) قال ابن كثير : هذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتدٍ ، فنفعهُ لنفسه ولغيره . اهـ .
(٣) قال ابن عباس : إدفع بحلمك جهل من يجهل عليك .
(٤) قال ابن كثير : إذا أحسنت إلى من أساء إليك ، قادته الحسنة إليه إلى مصافاتك وصحبتك ، حتى يصير كأنه قريب إليك .

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ ۩ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا
عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ
فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا

***

الشيطان في نفسك وسوسة ، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ فاستجرْ بالله واعتصم من خطراته ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ إن الله هو السميع لاستجارتك من نزغاته ، العليمُ بأمور خلقه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ ﴾ ومن حجج الله ودلائله على وحدانيته ، اختلاف الليل والنهار ، وخلق الشمس والقمر يجريان لمنافعكم ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ لا تسجدوا أيها الناس للشمس والقمر ، فإنهما لا يستطيعان لكم نفعاً أو ضراً ، وإنما الله مسخرهما لمنافعكم ومصالحكم ، فاسجدوا له وإيَّاه فاعبدوا ، فإنه لو شاء لطمس ضوءهما ، فترككم حيارى لا تبصرون شيئاً ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إن كنتم تعبدون الله ، فأخلصوا له العبادة ، فإنها لا تصلح لغيره ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ﴾ فإن استكبر المشركون عن السجود لله ، وتعظَّموا أن يسجدوا للَّهِ الذي خلقهم ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ فالملائكة الذين هم عند ربك ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ لا يستكبرون عن عبادته ، ويصلّون له ليلاً ونهاراً ﴿ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ وهم لا يفترون عن عبادتهم ولا يملُّون .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَىٰ الْأَرْضَ خَاشِعَةً ﴾ ومن حججه تعالى وأدلته على البعث والنشور ، أنك ترى الأرض دارسةً غبراء ، لا نبات بها ولا زرع ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ فإذا أنزلنا عليها المطر ، تحركت بالنبات وانتفخت[1] ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ إن الله الذي أحيا هذه الأرض الدارسة ، فأخرج منها النبات بالمطر الذي أنزله عليها ، لقادرٌ على أن يحيي الأموات بعد مماتهم ﴿ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء أراده ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ إن الذين يميلون عن آياتنا تكذيباً واستهزاءً ، ويعاندون فيها ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ نحن عالمون بهم ، وسيعلمون إذا وردوا علينا ،

(١) ما أروعها من صورة في منتهى الروعة والبيان ، فقد شبه الأرض القاحلة الجرداء ، بالرجل الخاشع الذليل الذي يكاد يهلك من شدة الجوع والعطش ، فإذا سُقي الماء دبَّت فيه الحياة وعادت إليه الروح ، فكذلك الأرض اليابسة تحيا بوابل المطر ، وجعل الله ذلك تمثيلاً لإحياء الموتى .

تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ
وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾

* * *

ماذا يلقون من أليم عذابنا ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ أفهذا الكافر الذي يُلقى في النار خيرٌ ، أم المؤمن الذي يأتي يوم القيامة ، آمناً من عذاب الله لإِيمانه بالله ؟ ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ اعملوا ما تريدون[١] أيها الناس ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عالمٌ بأعمالكم لا يخفى عليه منها شيء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إن الذين جحدوا هذا القرآن ، وكذَّبوا به لما جاءهم من عند الله ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ وإن هذا القرآن معزَّزٌ بإِعزاز الله إياه ، وحفظه من كل تحريف وتبديل ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يستطيع مبطل تغييره وتبديله ، بزيادةٍ أو نقصان[٢] قال السدي : لا يستطيع الشيطان أن يزيد فيه حرفاً ، ولا ينقص منه حرفاً ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ تنزيل من إِله حكيم بتدبير عباده ، محمودٍ على نعمه وأياديه ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ما يقول لك هؤلاء المشركون المكذبون ، إلا ما قد قاله الأمم لرسلهم من قبلك[٣] ، فاصبر كما صبر أولو العزم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إن ربك يا محمد لذو مغفرة لذنوب التائبين ، وذو عقاب مؤلم للمصرين على كفرهم وذنوبهم ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً﴾ ولو جعلنا هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد بلغة العجم ﴿لَقَالُوالَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ لقال المشركون : هلاَّ بُيِّنت أدلته لنفقهه ونعلم ما فيه ؟ ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أقرآن أعجميٌّ ومحمدٌ عربيٌّ ؟ ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ﴾ قل يا محمد لهم : هذا القرآن للمؤمنين الذين صدَّقوا ما جاءهم من عند الله ، بيانٌ ونور وشفاء من الجهل ﴿وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ والذين لم يصدّقوا بما جاءهم من عند الله ، في آذانهم ثقلٌ عن استماع القرآن ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً﴾ فلا يبصرون حججه ومواعظه ﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أولئك الكافرون كمن يُنادَىٰ من مكان بعيدٍ[٤] ، لا يسمع ولا يفهم ما يُنادى به

---

(١) هذا تهديد من الله تعالى ملفَّع بظل الرعيد ، فالأمر خرج عن غرضه الأصلي إلى صفة الوعيد والتهديد
(٢) هذا وعدٌ من الله تعالى بحفظ كتابه من التحريف والتبديل كما قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾
(٣) فيه تعزية وتسلية للنبي ﷺ على ما يلقاه من أذى المشركين ، قال قتادة : يُعزّي نبيه ﷺ كما تسمعون .
(٤) هذا على سبيل التشبيه والتمثيل كمن يُنادى من مكان بعيد فلا يفهم المراد ، قال ابن عباس : يريد أنه مثل البهيمة التي لا تفهم إلاّ دعاء ونداء .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ
مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ
ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى
قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ
ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

* * *

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ولقد آتينا موسى التوراة ، كما آتيناك الفرقان ، فاختلف اليهود في العمل بما فيه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولولا قضاء الله بتأخير عذابهم ، لعُجّل الفصل بينهم بإهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ وإن المبطلين لفي شك يريبهم ما قالوا في التوراة ، ظناً من غير تثبت ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ من عمل بطاعة الله في الدنيا فلنفسه أحسن ، لأنه يستوجب بعمله الجنة ، ومن عمل بمعصية الله في الدنيا فعلى نفسه جنى ، لأنه أكسبها العقاب الأليم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وربك يا محمد لا يعاقب أحداً بغير جرمه.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى الله يُرد علم القيامة ، فإنه لا يعلمها غيره ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ وما تظهر ثمرة فتخرج بارزة من طلعها(١) ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ وما تحمل أنثى حملاً ، ولا تضع ولدها إلا بعلمٍ من الله ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ ويوم ينادي الله المشركين : أين شركائي الذين كنتم تشركونهم معي في عبادتكم(٢) ؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ قال المشركون : أعلمناك يا ربنا ما منا شهيد يشهد أن لك شريكاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ وغابت عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا ، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ وأيقنوا حينئذٍ أنه ليس لهم ملجأ من عذاب الله يلجأون إليه ﴿لَا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الخَيْرِ﴾ لا يملُّ الكافر(٣) من دعاء ربه بالخير ، كطلب المال وصحة الجسم ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ وإن ناله ضُرٌّ من سُقمٍ ، أو جُهدٍ ، أو احتباسٍ في رزقه ، فإنه يائس من فرج الله ، قانط من رحمته ﴿وَلَئِنْ أذقناه رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ ولئن كشفنا عن هذا الكافر ، ما أصابه من سُقم وضُرّ وشدة ، ووسعنا عليه في معيشته ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ ليقولن هذا بعملي ،

(١) الأكمام : جمع كُمّ وهو وعاء الثمرة وغلافها الذي تخرج فيه ، وفسره السُّدي بالطَّلع .
(٢) فيه تقريع وتهكم بهم حيث أشركوا مع الله من لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام .
(٣) المراد بالإنسان هنا « الكافر » كما قال الإمام ابن جرير ، بدليل إنكاره للبعث ﴿وما أظنُّ الساعة قائمةً﴾ وليس للعموم .

بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ
ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ
بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

* * *

وأنا مستحق لهذا لأن الله راضٍ عني ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وما أحسب القيامة تقوم ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ ولئن رددت إلى الله حياً بعد[1] مماتي ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ إن لي عنده غنى ومالاً ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ فلنخبرنَّ هؤلاء الكفار، المتمنِّين على الله الأباطيل، بما عملوا في الدنيا من المعاصي، واجترحوا من السَّيئات ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ولنخلِّدنهم في نار جهنم.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ﴾ وإذا أنعمنا على الكافر، فكشفنا ما به من ضُرٍّ، ووهبنا له الرزق والصحة والعافية ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أعرض عن طاعة الله، وتباعد عن إجابتنا إلى ما دعوناه إليه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ وإذا مسَّته الشدَّة، فهو ذو دعاءٍ كثير[2] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قل يا محمد للمكذبين: أخبروني أيها القوم، إن كان هذا القرآن من عند الله ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ ثم جحدتم وكذبتم به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ من أضل ممن سلك غير طريق الصواب؟ ألستم في فراقٍ لأمر الله بعيد عن الرشاد؟ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ سنري هؤلاء المكذبين وقائعنا، بما نفتح لك يا محمد من الآفاق - آفاق البلاد - وبفتح مكة[3] ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ حتى يظهر للمشركين حقيقة وعدنا لمحمد ﷺ، بإظهار دينه على كل الأديان ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أولم يكف يا محمد أن ربك شاهد على كل شيء من أفعال خلقه؟ وهو مجازيهم على أعمالهم؟ ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِم﴾ ألا إن هؤلاء المشركين في شكٍّ من البعث والمعاد ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ ألا إن الله قد أحاط علمه بكل شيء، لا يفوته شيء أراده.

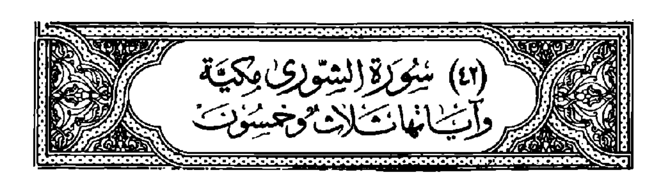
«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصِّلت»

---

(١) هذا على الفرض والتقدير، كأنه يقول: ليس هناك قيامة، وعلى فرض أن القيامة حاصلة فسيحسن إليَّ ربي كما أحسن إليَّ في الدنيا، وهذا من تلبيس ابليس اللعين، يزيِّن للكافر الضلال، ويمنِّيه بالأماني الباطلة.

(٢) استعار العرض هنا للكثرة، وهكذا طبيعة الإنسان الكافر، يعرف ربه في البلاء وينساه في الرخاء.

(٣) ما رجحه الإمام الطبري من أن المراد رؤيتهم للوقائع بظهور دين محمد وفتح مكة قولٌ فيه نظر، فإن الله تعالى أخبرنا بأنه سيطلع الكفار على آياته، الدالة على بديع صنعه وعظيم قدرته في أقطار السموات والأرض، وفي آفاق النفس الإنسانية، بما يكتشفه الإنسان من أسرار الكون وأسرار الخليقة، وما فيهما من العجائب مما يحير العقول والأفكار، حتى يستدلوا على صدق القرآن، فإن هذا المعنى أظهر في الدلالة على عظمة الواحد القهار، ففي الكون وفي النفس البشرية من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ما اكتشفه العصر الحديث مما يبرهن على معجزة القرآن.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ
وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ
عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾

* * *

﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾[1] ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هكذا يوحي إليك يا محمد ، وإلى أنبيائه الذين مضوا قبلك ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الله العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبير خلقه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لله ملك ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلها ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وهو ذو علو وارتفاع على كل شيء ،والأشياء كلها دونه ، لأنهم في سلطانه، جاريةً عليهم قدرته ، ماضيةً فيهم مشيئته ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ تكاد السموات يشققن من فوق الأرضين، من عظمة الرحمن وجلاله ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ والملائكة يصلون بطاعة ربهم ، وشكرهم له من هيبة جلاله وعظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ويسألون ربهم المغفرة لذنوب من في الأرض ، من أهل الإيمان به ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ألا إن الله هو الغفور لذنوب المؤمنين ، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ والذين اتخذوا من دون الله آلهة يتولونها ويعبدونها ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ الله يحصي عليهم أفعالهم ، ويحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ولست أنت يا محمد بالوكيل عليهم وإنما أنت منذر، فبلغهم ما أرسلت به إليهم، فإنما

(١) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى
ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم
مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾
وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

* * *

عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً﴾ وهكذا أوحينا إليك يا محمد قرآناً بلسان العرب، ليفهموا ما فيه من حجج الله ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لتنذر أهل مكة، ومن حولها من سائر الناس ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وتنذرهم عقاب الله ، يوم يجمع عباده لموقف الحساب ﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به رسوله ﷺ ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وفريق من الناس في نار الله الموقدة المسعورة، وهم الذين كفروا بالله ، وخالفوا ما جاءهم به رسوله .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولو أراد الله أن يجمع خلقه على هدى ، ويجعلهم على ملة واحدة لفعل ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ولكن الله يوفق من يشاء للدخول في دينه ، الذي ابتعث به نبيه محمداً ﷺ برحمته ﴿وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ والكافرون بالله ما لهم ولي يتولاهم يوم القيامة ، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله ، فينقذهم من عذابه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾أم اتخذ هؤلاء المشركون، أولياء من دون الله يتولونهم ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الوَلِيُّ﴾ فالله هو ولي أوليائه ، لا الآلهة والأوثان ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والله يحيي الموتى من بعد مماتهم، فيحشرهم يوم القيامة ، وهو القادر على كل شيء ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وما تنازعتم أيها الناس فيما بينكم من شيء، فإن الله يقضي فيه بينكم، ويفصل فيه الحكم ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ هذا هو ربي ، لا الآلهة التي لا تقدر على شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه اعتمدت في أموري كلها ، وبه وثقت ﴿وَإليهِ أُنِيبُ﴾ وإليه أرجع في أموري، وأتوب من ذنوبي ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خالق السموات السبع والأرض ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ زوّجكم ربكم أزواجاً من أنفسكم ﴿وَمِنْ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ وجعل لكم من الأنعام أزواجاً ، ذكوراً

ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾
* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟
ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

* * *

وإناثاً[1] ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يخلقكم[2] فيما جعل لكم من أزواجكم ، ويعيِّشكم فيما جعل لكم من الأنعام ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ليس هو تعالى كشيء من الأشياء[3] ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وهو السميع لما ينطق به خلقه ، البصيرُ بأعمالهم ، لا يخفى عليه شيء ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له مفاتيح[4] خزائن السموات والأرض ، وبيده مغاليق الخير والشر ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يوسع رزقه على من يشاء من خلقه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويقتِّر على من يشاء منهم فيفقره ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إن الله بكل ما يفعل من التوسعة والتقتير ، وغير ذلك من الأمور ذو علم ، لا يخفى عليه صلاح تدبير خلقه ، فإليه فارغبوا وإياه فاعبدوا .

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ شرع لكم[5] ربكم من الدين ، ما وصَّى به نوحاً ان يعمله ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ وشرع لكم من الدين ، الذي أوحينا اليك يا محمد فأمرناك به ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ وشرع لكم من الدين ما وصَّى به الأنبياء وصية واحدة، وهي إقامة الدين الحق ، وعدم التفرق والاختلاف ، كما اختلف الأحزاب من قبلكم ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ عظُم على المشركين ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله ، وإفراده بالألوهية ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه وولايته من أحبَّ ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ ويرشد التائب إليه إلى سبيل الحق ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ وما تفرق المشركون فصاروا أحزاباً ، إلا من بعدما جاءهم العلم، بأن ما أمرهم الله به ، هو إقامة الدين الحق ، ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ عدواناً من بعضهم على

---

(١) أي وخلق لكم الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً ، من كل نوع ذكراً وأنثى .

(٢) أي يخلقكم نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام ، وهو قول مجاهد .

(٣) وجَّه الإمام الطبري الآية على وجهين : أحدهما : ليس هو كشيء ، والثاني : ليس مثله شيء، فالكاف هنا «كمثله» لتأكيد النفي ، قال ابن قتيبة : العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول : مثلي لا يقال له ذلك .

(٤) مقاليد بمعنى مفاتيح جمع إقليد على غير قياس .

(٥) معنى شرع أي سنَّ لكم وبيَّن الحكم القاطع .

مُسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ
كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

* * *

بعض ، وحسداً وعداوة على طلب الدنيا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ولولا قولٌ سبق يا محمد من ربك ، أن لا يعاجلهم بالعذاب، ويؤخر ذلك إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لفرغ ربك من الحكم بين هؤلاء المختلفين ، بإهلاكه أهل الباطل، وإظهاره أهل الحق ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وإن الذين آتاهم الله من بعد هؤلاء المختلفين ، كتابه «التوراة والإنجيل» ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ لفي شكٍ من الدين الذي وصَّى به أنبياءه ، وأمرهم بإقامته ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ فإلى ذلك الدّين الذي شرع الله لكم ، فادع عباد الله ،واستقم على العمل به ، واثبت عليه كما أمرك ربك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولا تتبع يا محمد أهواء الذين شكوا في الحق ، فتشك كالذي شكوا فيه ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ وقل لهم : إني صدقت بما أنزل الله من كتاب ، توراةً كان أو إنجيلاً أو زبوراً ، لا أكذّب بشيءٍ من ذلك ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ وأمرني ربي أن أعدل بينكم بالحق ، الذي بعثني به ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ الله مالكنا ومالككم ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ لنا ثواب ما اكتسبنا من الأعمال ، ولكم ثواب ما اكتسبتم منها ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا خصومة بيننا وبينكم ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ الله تعالى يجمع بيننا يوم القيامة، فيقضى بيننا بالحق ﴿وَإِلَيْهِ المَصِيرُ﴾ وإليه المعاد والمرجع بعد الممات

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِمَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾والذين يخاصمون في دين الله، من بعدما استجاب له الناس، فدخلوا في دينه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ خصومتهم باطلة عند ربهم ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وعليهم من الله غضب ، ولهم في الآخرة عذاب النار الشديد ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ وَالمِيزَانَ﴾ الله الذي أنزل هذا القرآن بالحق ، وأنزل العدل ليقضي بين الناس بالإنصاف ، ويحكم فيهم بحكم الله في كتابه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وأي شيء يعلمك، لعل الساعة التي تقوم فيها القيامة قريبة ؟ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ يستعجلك

بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي
حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم
مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ

* * *

بمجيئها الذين لا يوقنون بها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ والذين صدقوا بمجيئها خائفون من قيامها ، لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم فيها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحَقُّ﴾ ويوقنون أن مجيئها الحق اليقين ، لا يمترون في ذلك ﴿أَلَا إِنَّ الذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ألا إن الذين يخاصمون في قيام الساعة، لفي جورٍ عن طريق الهدى ، وزيغٍ عن سبيل الحق والرشاد ، بعيدٍ من الصواب ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ الله ذو لطف بعباده، يوسع على من يشاء الرزق ، ويقتر على من يشاء منهم ﴿وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ﴾ وهو القوي الذي لا يغلبه أحدٌ ، العزيز في انتقامه من أهل معاصيه .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ من كان يريد بعمله الآخرة ، نزدْ له في عمله الحسن، فنجعل له بالواحدة عشراً ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ومن كان يريد بعمله الدنيا، نؤته ما قسمناه له[١] منها ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ وليس له حظٌ في ثواب الله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أم لهؤلاء المشركين بالله ، شركاء في شركهم وضلالتهم ، ابتدعوا لهم من الدين ، ما لم يبح الله لهم إبتداعه[٢] ؟ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولولا الحكم السابق من الله ، في أنهم مؤخرون بالعقوبة إلى قيام الساعة ، لفُرغ من الحكم بتعجيل العذاب لهم في الدنيا ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإن الكافرين لهم يوم القيامة عذاب موجع ﴿تَرَىٰ الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ ترى الكافرين بالله يوم القيامة ، خائفين من عقاب الله، على أعمالهم الخبيثة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعذاب الله نازلٌ بهم ، وهم ذائقوه لا محالة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ﴾ والذين صدَّقوا بالله وأطاعوه ، هم في

(١) أصل الحرث : إلقاء البذور في الأرض ، ثم أطلق على الزرع الحاصل منه ، ثم استعير لثمرات الأعمال ونتائجها كما في الآية .

(٢) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والمعنى : ألهؤلاء المشركين آلهة من الأوثان شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله ؟ وفيه تهكم لاذع بهم حيث إن هذه الأصنام جمادات لا تسمع ولا تنفع فكيف يجعلونها شركاء مع الله ؟

عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل
لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ
ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ

* * *

الآخرة في روضات البساتين ونعيمها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لهم ما تشتهيه أنفسهم ، وتلذُّه أعينهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾ هذا الذي أعطاهم الله من النعيم والكرامة ، هو الفضل الكبير من الله عليهم ، الذي يفضل كل نعيمٍ وكرامةٍ في الدنيا ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا الذي أخبرتكم من النعيم والكرامة للمؤمنين ، هو البشرى التي يبشر الله عباده، الذين صدَّقوا الله في الدنيا، وعملوا بطاعته فيها ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾ قل لهم يا محمد: لا أسألكم أيها القوم ، على دعايتكم إلى الحق والنصيحة التي أنصحكم ، ثواباً وجزاء ، إلاَّ أن تودُّوني لقرابتي منكم ، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ ومن يعمل عملاً يطيع الله فيه ، نضاعف له عمله الحسن ، إلى ما شئنا من الجزاء والثواب ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إن الله غفور لذنوب عباده، شكور لحسناتهم وطاعتهم .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أم يقول هؤلاء المشركون : افترى محمد على الله كذباً ، فجاء بهذا القرآن اختلاقاً من قبل نفسه ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ فإن يشإ الله يا محمد يطبع على قلبك ، فتنس هذا القرآن ، الذي أنزل إليك[1] ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ويذهب الله الباطـل فيمحقه، ويحق الحق فيثبته ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله عالم بما في صدور خلقه ، وما تنطوي عليه ضمائرهم ، لا يخفى عليه شيء ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ والله الذي يقبل توبة العبد ، إذا رجع إلى الله وطاعته ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ ويعفو عن معاصيه التي تاب منها ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ويعلم ربكم ما تفعلون من خير وشر، وهو مجازيكم عليه ، فاحذروا أن تركبوا ما تستحقون به العقوبة ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ويجيب الله

---

(١) يقول الله لنبيه ﷺ: لو حدثت نفسك بالكذب على الله ـ كما يزعم المشركون ـ لختمت على قلبك فأنسيتك هذا القرآن ، وسلبته من صدرك، ولكنك لم تكذب ولهذا أيدتك .

عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ
أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

* * *

دعاء المؤمنين بعضهم لبعض[1]، العاملين بما أمرهم الله، المنتهين عما نهاهم عنه ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويزيدهم الله مع إجابته دعاءهم، بأن يعطيهم ما لم يسألوه ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ والكافرون لهم يوم القيامة عذاب شديد ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ ولو وسَّع الله الرزق لعباده، لتجاوزوا الحد بركوبهم المعاصي ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ ولكنه ينزِّل رزقهم، بقدرِ الذي يشاء لكفايتهم ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ إن الله عالمٌ بما يصلح عباده من غنى وفقر، وسعةٍ وإقتار، بصيرٌ بتدبير شئونهم ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ والله الذي ينزل المطر من السماء، فيغيثكم به أيها الناس ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ من بعد ما يئسوا من نزوله ومجيئه ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ وينزل المطر من السماء فينشره على عباده ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وهو الوليُّ بإحسانه وفضله، الحميدُ بأياديه ونعمه عليكم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن حججه أنه القادر على إحيائكم بعد فنائكم، وبعثكم من قبوركم من بعد بلائكم، خلقُه السموات والأرض ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وما فرَّق في السموات والأرض من مخلوقات كثيرة ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ وهو على جمع خلقه بعد تفرق أوصالهم قادر، فكما لم يتعذر عليه خلقهم، فكذلك لا يتعذر عليه حشرهم يوم القيامة. ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في أنفسكم، وأهليكم، وأموالكم، فإنَّما يصيبكم ذلك بما اجترحتم من الآثام ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ ويعفو ربكم عن كثيرٍ من إجرامكم، فلا يعاقبكم به[2] ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ وما أنتم بمعجزين ربكم، إذا أراد عقوبتكم فتفوتونه هرباً في الأرض، ولكنكم حيث كنتم في سلطانه وقبضته ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وليس لكم وليٌّ يليكم بالدفاع عنكم،

---

(١) الأصل: ويستجيب الله للمؤمنين، وحذفت اللام كما حذفت من قوله ﴿وإذا كالوهم﴾ أي كالوا لهم.
(٢) قال ابن عباس: يعجل الله للمؤمنين عقوبتهم في الدنيا بذنوبهم، ولا يؤاخذون بها في الآخرة.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا
مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟

* * *

إذا أراد عقوبتكم، وليس لكم من ينصركم، فاحذروا أيها الناس معاصيه ، واتقوه أن تخالفوه فيما أمركم أو نهاكم

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ﴾ ومن حجج الله على قدرته على كل ما يشاء السفن الجارية في البحر كالجبال ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ إن يشأ الله ألا تجري هذه السفن ، أسكن الريح ووقفن على ظهر الماء ، لا تتقدم ولا تتأخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في جري السفن في البحر، لعظةً وعبرة على قدرة الله على ما يشاء، لكل ذي صبرٍ على الطاعة، شكورٍ لنعم الله[1] ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أو يهلك هذه السفن بالغرق، بما كسب ركابها من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ويصفح عن كثير من ذنوبكم ، فلا يعاقب عليها ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ويعلم الذين يخاصمون رسوله من المشركين ، في آياته وأدلته على توحيده ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ ما لهم من محيد من عقاب الله وليس لهم منه ملجأ ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فما أعطيتم أيها الناس من شيء من رياش الدنيا من المال والبنين ﴿فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو متاعٌ لكم في الحياة الدنيا ، وليس مما ينفعكم في معادكم ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ والذي عند الله لأهل طاعته، الذين يثقون به ، وعليه يتوكلون، خيرٌ مما أوتيتموه في الدنيا من متاعها، وأبقى لأنه باقٍ غير نافد .

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ والذين يجتنبون كبائر الذنوب والسيئات كالشرك بالله ، وعقوق الوالدين، وقول الزور، والفرار من الزحف[2] ﴿وَالفَوَاحِشَ﴾ ويجتنبون الزنى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وإذا أغضبهم أحد ، هم يغفرون له ذنبه ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ والذين

---

(١) قوله﴿صبَّار شكور﴾للمبالغة، لأن صيغة فعَّال وفعول من صيغ المبالغة ، أي كثير الصبر على البلايا ، عظيم الشكر على العطايا .

(٢) وقد فصَّل الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى الكبائر في تفسير سورة النساء ج ٥ ص ٢٨

لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ
يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ
ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن
سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

* * *

أجابوا ربهم حين دعاهم الى توحيده ، والإقرار بوحدانيته ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدوا الصلاة المفروضة بحدودها ، في أوقاتها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ وإذا حَزَبهم أمرٌ تشاوروا بينهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ومن الأموال التي رزقناهم ينفقون في سبيل الله ، من زكاةٍ ، ونفقة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ والذين إذا بغى عليهم معتدٍ، ينتصرون ممن بغى عليهم، من غير أن يعتدوا ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وجزاء المسيء عقوبته بما أوجبه الله عليه ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فمن عفا عمن أساء إليه، فلم يعاقبه ابتغاء وجه الله ، فأجر عفوه على الله ، واللهُ يثيبه عليه ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ إن الله لا يحب أهل الظلم، الذين يتعدون على الناس فيسيئون إليهم ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ولمن انتصر ممن ظَلَمه فلا سبيل عليه بعقوبة ،لأنه انتصر منه بحق ، ومن أخذ حقه ولم يتعدَّ لم يظلم ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ إنما الطريق لكم أيها الناس، على الذين يتعدون على الناس ظلماً وعدواناً ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ ويتجاوزون في أرض الله ، الحدَّ الذي أباح لهم ربهم ، فيفسدون فيها بغير الحق ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهؤلاء الناس ، لهم عذاب موجع في جهنم ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ ولمن صبر على الإساءة ، وغفر للمسيء فلم ينتصر منه ، ابتغاء وجه الله ، وجزيل ثوابه ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ فإن ذلك من عزم الأمور التي ندب الله إليها عباده ، وعزم عليهم العمل به[1] ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ومن خذله الله عن الرشاد ، فليس له ولي يسدّده ويهديه ، من بعد إضلال الله إياه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ ، يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ وترى الكافرين لما عاينوا عذاب الله ، يقولون لربهم : هل لنا يا رب من رجوع إلى الدنيا ،

(١) فصَّل تعالى في هذه الآيات مكارم الأخلاق، من الحلم، والصبر، والعفو، وتحمل الأذى في سبيل الله ، وكلُّ هذه من الفضائل التي رغب فيها الإسلام .

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

* * *

لنعمل غير الذي كنا نعمل ؟ ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ وترى الظالمين يُعرضون على النار، خاضعين متذللين ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ينظرون إلى النار من طرف ذليل، حتى كادت أعينهم تغور[1] ﴿وَقَالَ الذِينَ آمَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ وقال المؤمنون: إن المغبونين الذين غُبنوا أنفسهم، وأهليهم يوم القيامة في الجنة ﴿أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ ألا إن الكافرين يوم القيامة ، في عذاب ثابت ، لا يزول ولا يخف ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يكن لهؤلاء الكافرين أولياء يمنعونهم من عذاب الله ، ولا ينتصرون لهم على ما نالهم من العذاب ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ومن يخذله الله عن طريق الحق، فما له من طريق إلى الوصول إليه ، لأن الهداية والإضلال بيده تعالى ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أجيبوا أيها الناس داعي الله واتبعوه ، على ما جاءكم به من عند ربكم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يرد مجيئه شيء ، إذا جاء به الله تعالى ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ﴾ ما لكم أيها الناس من معقل تلتجئون إليه ، فتعتصمون به من عذاب الله ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ ولا أنتم تقدرون على تغيير ما يحل بكم من عقابه[2] ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أتيتهم به من الحق والرشد، فلم يستجيبوا لك فدعهم ، فإنا لن نرسلك رقيباً عليهم ، تحفظ أعمالهم وتحصيها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاَغُ﴾ ما عليك إلا أن تبلغهم الرسالة

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ إذا أغنينا ابن آدم سُرَّ بما أعطيناه من الغنى، وكثرة المال ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وإن أصابتهم فاقة وفقر، وضيق عيش ، بما

(١) قال ابن عباس : ينظرون بطرف ذابل ذليل، وقال قتادة: يسارقون النظر خوفاً وفزعاً ، أقول: هذا كمن قُدِّم ليقتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر بملء عينيه وإنما يسارق النظر من شدة الخوف .

(٢) هكذا فسره الطبري وقال غيره : المعنى ليس لكم منكر ينكر ما ينزل بكم من العذاب

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ
يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا
وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ
عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾

* * *

سلفت أيديهم من معصية الله ﴿فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ فإن الإنسان جحود لنعم ربه ، يعدد المصائب ويجحد النعم ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لله سلطان السموات السبع والأرضين ، يفعل في سلطانه ما يشاء، ويخلق ما يحب خلقه ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً﴾ يعطي الله من فضله ، لمن يشاء من خلقه ، الإناث دون الذكور، فلا تحمل زوجته إلا أنثى ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ويهب لمن يشاء منهم الذكور فقط دون الإناث ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾ أو يجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾ ويجعل من يشاء لا يُولد له ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ إن الله عالم بما يخلق ، وقادرٌ على خلق ما يشاء، لا يعجزه شيء أراد خلقه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً﴾ وما ينبغي لبشرٍ من بني آدم أن يكلمه ربه ، إلا وحياً يوحي الله إليه كيف شاء،إلقاءً أو إلهاماً أو غيره ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أو يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه[1] ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أو يرسل الله من ملائكته رسولاً، فيوحي إلى المرسل إليه بإذن الله ، ما يشاء ربه أن يوحيه إليه [2] ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ إن الله ذو علو واقتدار ، وذو حكمة في تدبيره خلقه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ وكذلك أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن ، رحمة[3] من أمرنا ووحياً ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ ما كنت تعرف يا محمد، أيَّ شيء هو القرآن ولا الإيمان ؟ ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً﴾ ولكن جعلنا هذا القرآن،ضياءً للناس يستضيئون بضيائه للنجاة من النار ﴿ نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ نهدي بهذا القرآن من نشاء من عبادنا ، إلى سبيل الصواب وإلى الطريق المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وإنك يا محمد لتهدي[4] عبادنا

---

(١) كما كلَّم موسى عليه السلام

(٢) كما أرسل جبريل بالوحي على رسول الله وهو الغالب .

(٣) سمى القرآن «روحاً» لأن فيه حياة النفوس كما يحيا الجسد بالروح .

(٤) المراد بالهداية هنا هي هداية الدلالة والإرشاد، أما هداية التوحيد والإيمان فهي لله وحده كما قال تعالى لنبيه ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكنَّ الله يهدي من يشاء﴾ فتنبه للفارق بين الهدايتين فإنه دقيق .

صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

* * *

بالدعاء إلى الله ، والبيان لهم إلى طريق مستقيم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ طريق الله تعالى الذي دعا إليه عباده ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الله الذي له ملك جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض ، لا شريك له في ذلك ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ألا إلى الله ترجع أموركم في الآخرة، فيقضي بينكم بالعدل لأنه لا حاكم ولا سلطان غيره .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الشورى »

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾

* * *

﴿حم[1] * وَالكِتَابِ المُبِينِ﴾ أقسم بهذا القرآن، الواضح لمن تدبره ، وفكر في عبَره وعظاته، على أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إنا أنزلناه قرآناً بلسان العرب ، لتعقلوا معانيه ، وما فيه من مواعظ ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ وإن هذا القرآن أصل الكتاب الذي نسخ منه ، هو عندنا ذو علوٍ ورفعة وفضل وشرف ، قد أحكمت آياته ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً﴾ أفنترككم ـ أيها المشركون ـ فلا نذكِّركم بعقابنا ﴿أَنْ كُنْتُم قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ من أجل أنكم قوم مشركون[2] ؟ ! ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ وكثيراً من الأنبياء أرسلناهم في القرون الذي مضوا

(١) تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) هذا ما رجحه الطبري وهو قول مجاهد والسدي ، وهناك قول آخر معناه : أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن ، لأجل أنكم مسرفون في العصيان ؟ وهو قول قتادة واختاره ابن كثير .

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ
لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ
تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ
ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾

* * *

قبل قرنك يا محمد ، كما أرسلناك في قومك من قريش ﴿ **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ وما يأتيهم من نبي يدعوهم إلى الهدى ، إلا كانوا يسخرون به ويستهزئون ، كاستهزاء قومك بك يا محمد ، فلا يعظمنَّ عليك ذلك ﴿ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً** ﴾ فأهلكنا أشد من هؤلاء المستهزئين بطشاً فلم يعجزونا[1] ولم يقدروا على الامتناع من بأسنا ﴿ **وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ ومضى لهؤلاء المشركين ، مثلنا الذي مثلناه لهم ، بإهلاك المكذبين الذين أهلكناهم ، فليتوقع هؤلاء عقوبة مثل أولئك.

﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من قومك من خلق السموات السبع والأرضين ، فأحدثهن وأنشأهن ؟ ! ﴿ **لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴾ ليقولنَّ خلقهن الله العزيز في انتقامه من أعدائه ، العليم الذي لا يخفى عليه شيء ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً** ﴾ الذي مهَّد لكم الأرض ، فجعلها لكم وطاءً ، تمشون عليها بأرجلكم ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً** ﴾ وسهَّل لكم فيها طرقاً ، لمعايشكم ، ومتاجركم ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ لكي تهتدوا بتلك الطرق ، إلى حيث أردتم من البلدان ، والقرى ، والأمصار ﴿ **وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ** ﴾ والذي نزَّل من السماء الأمطار ، بمقدار حاجتكم إليه ، فلم يجعله كالطوفان فيكون عذاباً ، ولا قليلاً لا ينبت به النبات والزرع ، ﴿ **فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً** ﴾ فأحيينا به بلدة مجدبة ، لا نبات بها ولا زرع ، قد درست من القحوط ﴿ **كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** ﴾ كما أخرجنا النبات من الأرض المجدبة ، كذلك تخرجون أيها الناس من بعد فنائكم ﴿ **وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا** ﴾ والذي خلق كل شيء ، فجعل الذكور من الإناث ، والإناث من الذكور أزواجاً ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ** ﴾ وجعل لكم من السفن ما تركبونه في البحار ، ومن الأنعام ما تركبونه في البر ، إلى حيث أردتم من البلدان ﴿ **لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ** ﴾ كي تستوا على ظهور ما تركبون ﴿ **ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ** ﴾ ثم تتذكروا نعمة الله التي أنعمها عليكم ، بتسخيره ذلك لكم ، إذا استويتم عليه فتعظموه وتمجدوه ﴿ **وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ**

---

(١) المراد أن الله أهلك قوماً كانوا أشد قوة من كفار مكة ، وأعتى منهم وأطغى ، فلا يغتر هؤلاء الجاهلون بقوتهم .

وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ
وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾
أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟
خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

* * *

﴿ لَنَا هَذَا ﴾ وتقولوا : تنزيهاً للّهِ الذي سخر لنا ما نركبه من الفلك والأنعام ، عما يصفه به المشركون ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ وما كنا مطيقين لركوبه[1] ﴿ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ وإنا إلى ربنا لصائرون .

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً ﴾وجعل المشركون لله من خلقه نصيباً ، وذلك قولهم : الملائكة بنات الله ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ إن الإنسان لجاحدٌ لنعم ربه ، ظاهر كفره لمن تأمله بفكر قلبه ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ هل اتخذ ربكم أيها الجاهلون مما يخلق بنات؟ ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ وأخلصكم بالبنين فجعلهم لكم ؟ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ﴾ وإذا بُشر أحد المشركين ، بمامثَّل لله شبيهاً من البنات ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ ظلَّ وجهه مسوداً من سوء ما بُشر به ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ وهو حزين[2] ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُ فِي الحِلْيَةِ﴾ أو جعلتم البنات اللواتي يزينّ في الحلية جزءاً لله من خلقه؟[3] ﴿وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ وهي عند الخصام لا تظهر حجتها لعجزها وضعفها[4] ؟ ﴿ وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً ﴾ وجعل المشركون ملائكته ، الذين هم خلقه وعباده ، بناتٍ لله فأنثوهم ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أشهد المشركون خلق ملائكة الله إناثاً ، فوصفوهم بذلك لرؤ يتهم إياهم ؟ ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ ستكتب شهادة هؤ لاء القائلين ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾ ويسألون عن شهادتهم في الآخرة﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ وقال المشركون : لو شاء الرحمن ما عبدنا أوثاننا ، فالله راضٍ عنا لعبادتنا إياها ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ما لهم بحقيقة ما يقولون من علم ، وإنمايقولونه تخرصاً وكذباً ﴿ إِن هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ ما هم إلا متخرصون[5] هذا القول الذي قالوه .

---

(١) قال ابن زيد : لولا الله ما قوينا عليها ولا أطقنا ركوبها .

(٢) هكذا فسره الطبري ، وقال غيره : ﴿ وهو كظيم ﴾ أي ممتلىء غيظاً وغمّاً ، وهذا أظهر .

(٣) المقصود من الآية التنبيه على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم ، فإن من بلغ حاله في النقص إلى هذا الحدّ كيف يصح للعاقل إثباته لله ؟

(٤) قال قتادة : قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها .

(٥) التخرص : الكذب الذي لايستند على دليل ، والخرّاص : الكذاب ومنه قوله تعالى ﴿ قتل الخراصون ﴾ أي الكذابون .

أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ
قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ

* * *

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ﴾ أم آتينا هؤلاء المتخرصين، كتاباً بحقيقة ما يقولون، من قبْل هذا القرآن ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ فهم بذلك الكتاب مستمسكون يعملون به ، ويحتجون به عليك ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ ما آتيناهم كتاباً، ولكنهم قالوا وجدنا آباءنا الذين كانوا قبلنا ، على دين وملة[1] عبادة الأوثان، فنحن نعبدها مثلهم ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ ونحن متبعون لهم على منهاجهم

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوهَا ﴾وهكذا لم نرسل قبلك يا محمد ، إلى أهل قريةٍ رسلاً ، تنذرهم عقابنا على كفرهم ، فأنذروهم وحذَّروهم ، إلا قالرؤساؤهم وكبراؤ هم ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ إنا وجدنا آباءنا على ملةٍ ودين ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون بفعلهم ، نعبد ما كانوا يعبدون ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيهِ آبَاءكُمْ﴾ قل يا محمد للمشركين : أولو جئتكم بطريق أهدى وأدل لكم على سبيل الرشاد ، مما وجدتم عليه آباءكم من الدين والملة ؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فأجابوه قائلين إنا بما أرسلتم به جاحدون منكرون ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ فانتقمنا من الأمم الكافرة بربها ، بإحلال العقوبة بهم ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ فانظر يا محمد كيف كان آخر أمرهم ، ألم نهلكهم فنجعلهم عبرةً لغيرهم ؟ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ واذكر يا محمد حين قال إبراهيم لأبيه وقومه، الذين كانوا يعبدون الأوثان : إنني بريءٌ مما تعبدون من دون الله ، فكذبوه فانتقمنا منهم ﴿ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ إلاّ من الله الذي خلقني ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ فإنه سيقوِّمني للدين الحق ، ويوفقني لاتِّباع سبيل الرشد ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ وجعل كلمة « لا إله إلا الله » كلمة باقية في ذريته ، فلم يزل فيهم من يقول ذلك من

---

(١) الأمة : الدين والملة والطريقة ، سميت أمة لأنها تؤم وتُقصد

(٢) جعل الشيخ الطبري الأمر موجهاً إلى الرسول ﷺ وهذا يصح على قراءة « قل » أما على القراءة المشهورة « قال » فالراجح كما قال المفسرون أن كل نبيٍ قال ذلك لقومه حين أنذرهم عذاب الله .

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ
قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ
لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا

* * *

بعده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ليرجعوا إلى طاعة ربهم ، ويتوبوا من كفرهم وذنوبهم .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بل متعتُ يا محمد هؤلاء المشركين من قومك ، وآباءهم من قبلهم بالحياة ، فلم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ حتى جاءهم القرآن ، وبعثت فيهم محمداً ﷺ يبيّن لهم بالحجج أنه رسول ، محقٌّ فيما يقول ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ ﴾ ولما جاءهم القرآن من عند الله ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ ﴾ قالوا : هذا الذي جاءنا به محمد سحرٌ يسحرنا به، وليس بوحي من الله ﴿ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ وإنا به جاحدون ، ننكر أن يكون من عند الله ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ وقال المشركون : إن كان هذا القرآن حقاً ، فهلاّ نزل على رجل عظيم ، من مكة أو الطائف[1] ؟ ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ أهؤلاء يقسمون رحمة ربك بين خلقه، فيجعلون كرامته وفضله لمن أرادوا ؟ أم الله يقسم ذلك ؟ ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بل نحن نقسم رحمتنا وكرامتنا بين من شئنا ، كما قسمنا بينهم معيشتهم في حياتهم الدنيا،من الأرزاق والأقوات فجعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً ؟ ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ وجعلنا بعضهم في الدنيا أرفع من بعض درجة[2] ﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخرِيّاً ﴾ ليكون كل منهم مسخراً للآخر ، يقوم بخدمته ويستعمله في أمور المعاش في الدنيا ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وإدخالهم الجنة خير مما يجمعون من الأموال في الدنيا ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ولولا أن يصير الناس جماعة واحدة

---

(١) تختلف أهواء الناس في العظمة وميزانها ، ونصب أعينهم الميزان المادي ، يجعلونه لها مقياساً فصاحب الشرف ، والمكانة والجاه والمال ، هو العظيم في نظرهم ، ولو كان حقيراً في نفسه ، والميزان الحق للعظمة هو الذي جعله الحق ـ سبحانه ـ فيختار لشرف الرسالة ، والدعوة إلى الله تعالى أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأطهرهم أصلاً وخلقاً ، فالأهلية للنبوة لا تأتي بالاكتساب ، وإنما هي عطاء رباني ، ومنحةٌ إلٰهيةٌ.

(٢) وهذا من حكمة الباري ـ جلَّ وعلا ـ إذ لا تقوم الحياة إلا على التفاوت بين الناس ، إذ لايمكن أن يكون الناس في هذه الدنيا في درجة واحدة ، يأكلون معاً ، ويشربون ، وينامون ، وفي نفس الوقت يؤدون أعمالاً مختلفة ، فالاختلاف في الأعمال هو نتيجة الاختلاف في المواهب والاستعدادات . ومن الظلم جعل المختلفين متساوين في كل شيء، ولهذا خابت وخسرت المجتمعات التي أرادت ـ بزعمها ـ إزالة الفروق الاجتماعية ، وعادت إلى الفطرة السليمة التي خلق الله الناس عليها ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ !!

لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا
يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن
ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ
أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

* * *

ويصبحوا كفاراً ﴿ **لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ** ﴾ لجعلنا أعالي بيوت الكافرين من فضة[1] ﴿ **وَمَعَارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ** ﴾ وجعلنا لها مراقي ،ودرجاً عليها يصعدون إلى الغرف ﴿ **وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً** ﴾ وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة ﴿ **وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ** ﴾ وجعلنا لهم سرراً من فضة يتكئون عليها ﴿ **وَزُخْرُفاً** ﴾ وجعلنالهم مع ذلك كله ذهباً[2]، يكون لهم غنى يستغنون به ﴿ **وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ وما كل هذه الأشياء ،إلاَّ متاعٌ يستمتع به أهل الدنيا في الدنيا ﴿ **وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ وزينة الدار الآخرة وبهاؤ ها خاصة بالمتقين، الذين اتقوا الله ، فخافوا عقابه وجدُّوا في طاعته

﴿ **وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً** ﴾ ومن يعرض عن ذكر الله ، ولا ينظر في حججه إلا نظراً ضعيفاً ، كنظر من عشي بصره ، نجعل له شيطاناً ﴿ **فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾ فيصير للشيطان ملازماً ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ وإن الشياطين ليصدون هؤلاء عن سبيل الحق ، فيزينون لهم الضلالة ، ويكرّهون إليهم الإيمان ﴿ **وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ** ﴾ ويظن المشركون أنهم على الحق والصواب ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَنا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ** ﴾ حتى إذا جاء هذا الكافر قال لصاحبه : وددت أن بيني وبينك ، بعد ما بين المشرق والمغرب[3] ﴿ **فَبِئْسَ القَرِينُ** ﴾ فبئس الصاحب أنت ﴿ **وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴾ ولن يخفّف عنكم اليوم ، من عذاب الله اشتراككم فيه ، لأن لكل واحد منكم نصيبه من العذاب ﴿ **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** ﴾ أفأنت يا محمد تسمع من قد سلبه الله استماع حججه، فأصمّه عن السماع!! ﴿ **أَوْ تَهْدِي العُمْيَ** ﴾ أو تهدي إلى طريق الهدى من أعمى الله

---

(١) أخبر تعالى أنه لولا أن يختار الناس الدنيا على الآخرة ، ويرغبوا في الكفر ويصيروا جميعاً كفاراً ، لخصَّ هذه الدنيا بالكفار ، فجعل لهم القصور الشاهقة ، سقفها وأبوابها من فضة ، وذهب ، وجعل لهم المصاعد التي يرتقون عليها ، والسرر التي ينامون عليها من الذهب والفضة ولكنه تعالى يعلم أن في ذلك فتنة للناس بما فيهم المؤمنون ، ولذلك لم يفعل هذا رأفة بعباده .

(٢) الزخرف : الذهب وهو قول ابن عباس ، ومعنى الآية : لجعلنا لهم سقفاً وأبواباً وسرراً من فضة وذهب ، وقال ابن زيد معنى الآية : لجعلنا لهم زينة من ستور ونمارق ونقوش .

(٣) قوله « المشرقين » أراد به المشرق والمغرب ، فهو من باب التغليب ، غلَّب ههنا المشرق على المغرب .

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ

* * *

قلبه عن إبصاره ، واستحوذ عليه الشيطان !! ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أو تهدي من كان في جور عن قصد السبيل ، سالك غير سبيل الحق!! ليس ذلك إليك، إنما ذلك إلى الله ﴿**فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ**﴾ فإن نخرجك يا محمد من بين أظهر هؤلاء المشركين ، فإنا منهم منتقمون ، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذبة رسلها . ﴿**أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ**﴾ أو نظفرك بهم ، بإعلائك عليهم كما وعدناهم ﴿ **فَإِنَّا عليهِمْ مُقْتَدِرُونَ** ﴾ فإنا مقتدرون أن نخزيهم بيدك ، وأيدي المؤمنين ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ** ﴾ فتمسَّكْ يا محمد بما يأمرك به هذا القرآن ، الذي أوحاه إليك ربك ﴿ **إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ إنك على السبيل القويم وهو الإسلام ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ** ﴾ وإن هذا القرآن ، لشرفٌ لك ولقومك من قريش ﴿ **وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾ وسوف يسألك ربك ويسألهم عما عملتم بما أمركم به ربكم ، ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا** ﴾ واسأل يا محمد مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل ﴿ **أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ** ﴾ هل أمرناهم بعبادة الآلهة من دون الله ؟ !

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ** ﴾ ولقد أرسلنا موسى بحججنا ، إلى فرعون ، وأشراف قومه ﴿ **فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ فقال لهم موسى : إنِّي رسول رب العالمين إليكم ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ** ﴾ فلما جاء موسى فرعون وقومه ، بحججنا وأدلتنا على صدق قوله فيما يدعوهم إليه ، إذا هم يضحكون من الآيات والعبر ، كما أن قومك مما جئتهم يسخرون[1]﴿**وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا**﴾ومانريهم من حجة لنا ،إلا هي أعظم وأوكد من التي مضت قبلها من الآيات ﴿ **وَأَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ وأنزلنا بهم العذاب ليرجعوا عن كفرهم ، من معاصيهم ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ** ﴾ وقال فرعون وقومه : يا أيها الساحر[2]

---

(١) هذه تسلية من الله عز وجل لنبيه ﷺ عما كان يلقى من أذى المشركين .

(٢) قولهم ﴿يا أيها الساحر﴾ لم يكن على سبيل الذم والانتقاص ، وإنما هو تعظيم في زعمهم لأن السحر كان علم زمانهم فنادوه بذلك على سبيل التعظيم ، ولهذا قال ابن عباس معناه : يا أيها العالم .

بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ
فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا
الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾
فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ * وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا
أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

* * *

ادع ربك ، بعهده الذي عهد إليك أنا إن آمنا بك واتبعناك كشف عنا الرجز ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ إنا لمتبعوك فمصدقوك فيما جئتنا به ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ فلما رفعنا عنهم العذاب، إذا هم يغدرون ويتمادون في غيهم ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ ونادى فرعون في القبط فقال : ألست ملكاً على مصر أملك ما عليها ؟! ﴿ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ وهذه الأنهار تجري من بين يديَّ في الجنان ؟ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أفلا ترون أيها القوم ما أنا فيه من النعيم والخير ، وما فيه موسى من الفقر وعي اللسان ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ولا يكاد يبين ﴾ هل أنا خير أم هذا الضعيف ، الذي لا شيء له من الملك والأموال ، مع العلة في لسانه ، حتى لا يكاد يُبين الكلام ؟

﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ فهلاَّ أُلقي على موسى أسورة ذهبية يضعها في يده ، إن كان صادقاً أنه رسول رب العالمين ؟ ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أو هلاَّ جاء معه الملائكة متتابعين ، يشهدون بأنه رسولُ الله ؟ ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ فاستخف فرعون بقوله عقول القبط ، فأطاعوه وكذَّبوا موسى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ لأنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله ، بطبعه على قلوبهم ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فلما أغضبونا انتقمنا منهم بعاجل العذاب ، فأغرقناهم جميعاً في البحر ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ﴾ فجعلناالمغرقين يتقدمون كفار قريش إلى النار ، وهؤلاء لهم بالأثر ﴿وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ وجعلناهم عبرةً وعظةً ، يتعظ بهم من بعدهم من الأمم ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ ولما شَبَّه الله عيسى ـ في إحداثه وإنشائه من غير فحل[1] ـ بآدم الذي خلقه من غير أم ولا أب ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ إذا قومك يضجون من ذلك ويجزعون ، ويقولون : ما يريد محمد منا إلا أن نتخذه إلَهاً نعبده، كما عبدت النصارى المسيح[2]!! ﴿ وقالواءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ وقال المشركون : آآلهتنا

(١) أشار إلى قوله تعالى ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

(٢) هذا مافسره به الطبري وهو قول مجاهد وقتادة ، وقال غيره من المفسرين : المراد بالآية قوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله =

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾
وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾

* * *

التي نعبدها خير أم محمد ؟ فنعبد محمداً ونترك آلهتنا ؟ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ﴾ ما مثَّلوا لك هذا المثل يا محمد ، إلا خصومةً يخاصمونك به ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ لا يريدون الحق ، بل هم قوم يلتمسون الخصومة بالباطل ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ ليس عيسى إلاّ عبد من عبادنا ، أنعمنا عليه بالتوفيق والإيمان ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وجعلناه آية وعبرة لبني إسرائيل ، وليس هو كما تقول النصارى « ابن الله » ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ ولو نشاء أهلكناكم جميعاً ، وجعلنا بدلاً منكم ملائكة يخلفونكم في الأرض بعبادتي ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ وإن ظهور عيسى عليه السلام ، علامة يُعلم بها مجيء الساعة ، لأن ظهوره من أشراطها ، ونزوله إلى الأرض دليل على فناء الدنيا وإقبال الآخرة[1] ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكنَّ في مجيء الآخرة ﴿ واتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ وأطيعون فاعملوا بما أمرتكم به ، فاتباعكم لي طريق قويم لا اعوجاج فيه ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ ولا يعدلنَّكم[2] الشيطان عن طاعتي فتجوروا عن الصراط المستقيم فتضلوا ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة ، يدعوكم إلى ما فيه هلاككم

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولما جاء عيسى بني إسرائيل ، بالواضحات من الأدلة ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ قال لهم : قد جئتكم بالنبوة من الله ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ولأبين لكم معشر بني إسرائيل بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب معاصيه ، وأطيعون فيما أمركم به من قبول نصيحتي ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ إن الله ربي وربكم جميعاً ، فاعبدوه وحده ، ولا تشركوا معه في عبادته شيئاً ، فإنه لا يصلح ولا ينبغي أن يعبد سواه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الذي أمرتكم به هو الطريق المستقيم ، وهو دين الله ، الذي لا يقبل من أحد

= حصب جهنم ﴾ فلما نزلت قال المشركون قد رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة في النار ، وهو قول ابن عباس .

(١) قال الإمام ابن كثير : وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ـ عليه السلام ـ قبل يوم القيامة ، إماماً عادلاً ، وحكماً مقسطاً . اهـ المختصر ٣/٢٩٤/

(٢) معناه ولا يصرفنكم ويصدنكم عن اتباع الحق .

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾
يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

***

غيره ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فاختلفت الفرق من اليهود والنصارى ، المختلفون في شأن عيسى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فالوادي السائل من القيح والصديد[١] في جهنم ، للذين كفروا فقالوا في عيسى بخلاف ما وصف به نفسه ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ من عذابٍ مؤلمٍ لهم يوم القيامة ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ هل ينظر هؤلاء الأحزاب ، إلا الساعة أن تقوم فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ وهم لا يعلمون بمجيئها ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الأصدقاء[٢] المتحابون على معاصي الله في الدنيا ، يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة ﴿إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ إلا الذين كانوا تحابوا فيها على تقوى الله ﴿يا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يقال للمتقين : يا عبادي لا خوف عليكم اليوم من عقابي ، ولا أنتم تحزنون على فراق الدنيا ، فإن الذي قَدِمْتُم عليه خيرٌ لكم مما فارقتموه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ هم الذين صدقوا بكتاب الله ورسله ، وكانوا أهل خضوع لله بقلوبهم ، على دين إبراهيم ، لا يهود ، ولا نصارى ، ولا أهل أوثان ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ادخلوا الجنة أيها المؤمنون أنتم وأزواجكم ، مسرورين اليوم بكرامة الله ، وبما أعطاكم ربكم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يطاف على المؤمنين في الجنة بالطعام في صحاف ـ قصاع ـ من ذهب ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ ويطاف بالشراب عليهم في أكواب من ذهب ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ﴾ ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم أيها المؤمنون ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ ولكم فيها ما تلذ أعينكم ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأنتم ماكثون في الجنة ، لا تخرجون منها أبداً .

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقال لهم : وهذه الجنة التي أورثكم الله إياها ،

---

(١) قد سبق أن ذكرت أن معنى « الويل » الهلاك والدمار ، وأن الإمام ابن جرير يفسره بوادٍ في جهنم يسيل على أهل النار بالقيح والصديد ، وهو بعض ما يكون لأهل النار من العذاب والدمار .

(٢) قال ابن عباس : كل خُلَّة في الدنيا هي عداوة إلا خلَّة المتقين .

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾
لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ
رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

* * *

بما كنتم تعملون في الدنيا من الخيرات ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ لكم في الجنة فاكهة كثيرة من كل نوع ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من الفاكهة تأكلون ما اشتهيتم ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[1] إن الذين اجترموا الكفر ، ماكثون في عذاب جهنم أبداً ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يُخفف عنهم العذاب ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وهم في عذاب جهنم ، آيسون من النجاة ، مستسلمون للعذاب ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بتعذيبهم في نار جهنم ، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم ، بكفرهم بالله وجحودهم توحيده ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ونادى المجرمون وهم في جهنم مالكاً خازن جهنم : ليمِتْنا ربك يا مالك لنستريح من العذاب ﴿قال إِنَّكُمْ ماكثون﴾ فأجابهم إنكم ماكثون في جهنم[2] ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ لقد أرسلنا إليكم يا معشر قريش[3] ، رسولنا محمداً بالحق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ولكن أكثركم لما جاءكم به محمد ﷺ من الحق كارهون ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أم أحكم هؤلاء المشركون أمراً يكيدون به الحق ، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم من النكال ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أم يظن هؤلاء المشركون أنا لا نسمع ما أخفوا عن الناس من منطقهم ، وتشاوروا بينهم ، فلا نعاقبهم عليه لخفائه علينا ؟ ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ بل نحن نعلم ما تناجوا به بينهم ، وأخفوه عن الناس من سر كلامهم ، وحفظتنا عندهم يكتبون ما نطقوا به ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ قل يا محمد للمشركين الزاعمين أن الملائكة بنات الله : إن كان للرحمن ولد ، فأنا أول من يعبده منكم ، ولكنه لا ولد له ، فأنا أعبده بأنه لا ولد له ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهاً لمالك السموات والأرض ، ومالك العرش

(١) لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أحوال المتقين الأبرار ، ذكر هنا أحوال الكفرة الفجار ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب .

(٢) روي عن ابن عباس أن بين استغاثتهم وبين إجابتهم ألف سنة ، يتركهم ألف سنة ثم يجيبهم بقوله « إنكم ماكثون » أي مقيمون أبداً في جهنم .

(٣) جعل الإمام ابن جرير الخطاب لكفار قريش ، والظاهر أن الخطاب للكفار وهم في غمرات العذاب ، وهو كالتعليل لاستحقاقهم ذلك العذاب الأليم .

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ
إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ
عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

* * *

المحيط بذلك كله ، مما يصفه به هؤلاء المشركون من الكذب ، ويضيفون إليه من الولد مما لا ينبغي أن يضاف إليه .

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ اترك هؤلاء المفترين على الله ، يخوضوا في باطلهم ، ويلعبوا في دنياهم ، حتى يلاقوا يوم القيامة ، يوم يصليهم الله نار جهنم ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ والله معبودٌ في السماء ، ومعبودٌ في الأرض ، لا شيء سواه تصلح عبادته ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ وهو الحكيمُ في تدبير خلقه ، العليمُ بمصالحهم ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وتمجد الله الذي له سلطان السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الأشياء كلها ، فكيف يكون له شريكاً من كان في سلطانه ؟ ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وعنده علم القيامة التي يحشر فيها الخلق من قبورهم لموقف الحساب ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه تردون بعد مماتكم ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ ولا يملك الذين يعبدهم المشركون من الملائكة وعيسى وعزير الشفاعة عند الله لأحد ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ إلا من أقرَّ بالتوحيد لله ، وأخلص له الوحدانية ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على علم منهم ويقين بذلك ، أنهم يملكون الشفاعة بإذن الله لهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ولئن سألت المشركين من خلقهم ، ليقولن خلقنا الله ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ فأي وجه يصرفون عن عبادة الذي خلقهم إلى عبادة غيره ؟ ﴿ وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال محمد شاكياً إلى ربه قومه الذين كذبوه : يا ربِّ إن هؤلاء الذين أمرتني بإنذارهم ، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك ، قومٌ لايؤمنون ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ فأعرض عن أذاهم يا محمد ، وقل لهم : سلام عليكم [1] ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فسيعلمون في الآخرة ، ما يلقون من البلاء والعذاب على كفرهم

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف »

---

(١) قال ابن جرير : ثم نسخ الله جل ثناؤه هذه الآية ، وأمر نبيه ﷺ بقتالهم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

* * *

﴿ حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أقسم جل ثناؤه بهذا الكتاب ، أنه أنزله في ليلة مباركة ، هي ليلة القدر ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ بهذا الكتاب خلقنا ، أن تحل بهم عقوبتنا إن لم يؤمنوا ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ في هذه الليلة المباركة ، يُقضى ويُفَصَّل كل أمرٍ محكم ، أحكمه الله تعالى في تلك السنة[١] ﴿ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ جميع ذلك بأمرٍ من الله تعالى ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ رسولنا محمداً ﷺ إلى عبادنا ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ السميع لما يقوله المشركون ، العليمُ بما تنطوي عليه ضمائرهم ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ مالك السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الأشياء كلها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ إن كنتم توقنون بحقيقة ما أخبرتكم به ، أن القرآن تنزيله ، ومحمداً ﷺ رسوله ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود لكم أيها الناس غير الله ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يحيي ما يشاء ، ويميت ما يشاء ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ هو مالككم ومالك من مضى قبلكم من آبائكم الأولين ، فاعبدوه ، دون آلهتكم التي لا تضر ولا تنفع

---

(١) قال الحسن : في ليلة القدر يقضي الله كل أجلٍ ، وخَلْقٍ ، ورزقٍ إلى مثلها من العام المقبل .

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟
عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا
مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

* * *

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ ما هم بمؤمنين بحقيقة ما تخبرهم ، ولكنهم في شك منه ، يلهون بشكهم ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ فانتظر يا محمد بهؤلاء المشركين ، يوم تأتيهم السماء من البلاء ، بمثل الدخان[1] المبين لمن تأمله أنه دخان ﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يغطّي أبصارهم من الجهد الذي يصيبهم ، ويقولون من الكرب والجهد : هذا عذاب موجع ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ يا ربنا إن كشفت عنا العذاب آمنا بك ، وعبدناك من دون كل معبودٍ سواك ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾ من أي وجه لهؤلاء المشركين التذكر ، من بعد نزول البلاء ؟ ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ وقد أتاهم رسولٌ بيِّن الرسالة وهو محمد ﷺ ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ وقد تولوا عن رسولنا مدبرين ، لا يتذكرون بما يُتلى عليهم من كتابنا ، ولا يتعظون بما يعظهم به من حججنا ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ ويقولون : إنما هو مجنون عُلِّم هذا الكلام ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا العَذَابِ قَلِيلاً ﴾ إنَّا سنكشف الضر النازل بكم ، بالخِصْب الذي نحدثه ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ إنكم أيها المشركون عائدون في ضلالتكم وغيكم ، وما كنتم عليه قبل أن يكشف عنكم ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ إنكم إن نقضتم عهدكم ، انتقمت منكم يوم أبطش بكم بطشتي الكبرى ، فأهلككم في بدر[2] ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ ولقد اختبرنا وابتلينا قبل مشركي قومك ، قوم فرعون من القبط ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ وجاءهم رسول من عندنا كريمٌ علينا ، وهو « موسى بن عمران » ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾ بأن ادفعوا إلي بني إسرائيل فأرسلوهم[3] معي ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

---

(١) روي عن ابن مسعود أن قريشاً لما عصت رسول الله ﷺ دعا عليهم ، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف ، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخاناً من الجوع ، وقد مضت آية الدخان ، وهذا هو الأظهر الذي اختاره الطبري وكثير من المفسرين ، وروي عن ابن عباس أن الدخان من الآيات المنتظرة وهو من أمارات الساعة ورجحة ابن كثير والأول أظهر .

(٢) هكذا رجح الإمام الطبري أن البطشة الكبرى هي قتلهم بالسيف يوم بدر ، ورجح غيره أن المراد بها يوم القيامة ، لأنه لما وصفها بأنها « كبرى » وجب أن تكون أعظم أنواع البطش ، وذلك إنما يتحقق يوم القيامة وهو الأظهر .

(٣) هذه الآية كقوله تعالى ﴿ فأرسلْ معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ الآية .

أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾
وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾
وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾
وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

* * *

أَمِينٌ ﴾ إني رسول من الله أرسلني إليكم ، أمينٌ على وحيه ورسالته ﴿ **وَأَنْ لاَ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ** ﴾ وبأن لا تطغوا وتبغوا على ربكم ، فتكفروا به وتعصوا أمره ﴿ **إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** ﴾ إني آتيكم بحجة واضحة ، على صحة ما أقول لكم ﴿ **وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ** ﴾ وإني اعتصمتُ واستجرتُ بربي وربكم ، أن ترجموني بالحجارة أو بالقذف والشتم[1] ﴿ **وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ** ﴾ وإن لم تصدّقوني على ما جئتكم به ، فخلُّوا سبيلي ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ** ﴾ فدعا موسى ربه حين كذبه قومه وهمُّوا بقتله : إن فرعون وقومه قوم كافرون ﴿ **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً** ﴾ فأجابه ربه : سِرْ بعبادي الذين صدّقوك واتبعوك ـ وهم بنو إسرائيل ـ بليلٍ قبل الصباح ﴿ **إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ** ﴾ إن فرعون وقومه متبعوكم في آثاركم ﴿ **وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً** ﴾ وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك فاتركه ساكناً ، على حاله وهيئته التي كان عليها حين دخلته ﴿ **إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ** ﴾ إن فرعون وقومه جندٌ سيغرقهم الله في البحر ﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴾ كم ترك فرعون وقومه بعد غرقهم ، من بساتين ، وأشجار ، ومنابع مياه ؟ ﴿ **وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ** ﴾ وزروع قائمة في مزارعهم ، وموضع شريف كانوا يقومونه[2] ﴿ **وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ** ﴾ وأخرجوا من نعمة كانوا فيها ناعمين[3] متفكهين .

﴿ **كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ** ﴾ هكذا فعلنا بهؤلاء المكذبين ، وأورثنا جناتهم وعيونهم وزروعهم بعد هلاكهم بني إسرائيل ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ** ﴾ فما بكت على هؤلاء المغرقين السماء ، لأنه لم يكن لهم عمل صالح يصعد إلى الله ، ولا مسجدٌ في الأرض فتبكي عليهم

---

(١) قال القرطبي : كأنهم توعّدوه بالقتل فاستجار بالله من شرهم . إهـ القرطبي ١٦/١٣٥

(٢) هو مقام الملوك والأمراء قال قتادة : هي المواضع الحسان من المجالس والمساكن . . أقول : يعني القصور الشامخة التي كانوا فيها .

(٣) قال قتادة : إي والله ، أخرجه الله من جناته وعيونه وزروعه حتى غرَّقه في البحر . الطبري ٢٥/١٢٣

وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

* * *

الأرض[1] ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ وما كانوا مؤخرين بالعقوبة ولكنهم عوجلوا بها ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ ﴾ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المذلّ لهم ، الذي كان فرعون وقومه يعذبونهم به ، وهو قتل الأبناء واستحياء النساء ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ ﴾ نجَّيناهم من فرعون ، إنه كان جباراً مستعلياً مستكبراً على ربه ، من المتجاوزين الحدَّ في الكفر والطغيان ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ ولقد اخترنا بني إسرائيل على علمٍ منّا بهم ، على عالمي أهل زمانهم ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ وأعطيناهم من العبر والعظات ، ما فيه اختبار ظاهر لمن تأمله أنه اختبار لهم بالرخاء والشدة ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ. إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَى ﴾ إن هؤلاء المشركين من قريش ليقولون : ما هي إلا الموتة الأولى التي نموتها[2] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ وما نحن بمبعوثين بعد موتتنا ، تكذيباً منهم بالبعث والثواب والعقاب ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا قبلنا ، إن كنتم صادقين أن الله محيينا بعد مماتنا ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أهؤلاء المشركون يا محمد خير ، أم قوم تبَّع الحميري ، والذين من قبلهم من الأمم الكافرة ؟ ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أهلكناهم لإجرامهم ، وكفرهم بربهم، فليس هؤلاء بخير من أولئك فنصفح عنهم ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ وما خلقنا السموات السبع والأرضين ، وما بينهما من الخلق ، لعباً وعبثاً بدون امتحانٍ بالأمر والنهي ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ ﴾ ما خلقناهما إلاّ بالحق الذي لا يصلح التدبير إلاّ به ، لنبتلي من أردنا امتحانه من خلقنا بما شئنا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

(١) سئل ابن عباس : هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال : نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء ينزل منه رزقه ويصعد فيه عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله ، بكى عليه ، وإذا فقده مصلاه من الأرض بكت عليه ، وقوم فرعون لم يكن لهم آثار صالحة فلم تبك عليهم السماء والأرض .

(٢) يقصدون أنهم لن يموتوا إلا موتة واحدة ، وهي الموتة الأولى في الدنيا ، ولا بعث ولا نشور ولا حياة بعد تلك الموتة .

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّـٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾

* * *

يَعْلَمُونَ ﴾ ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك ، فهم لا يخافون عقوبة ، ولا يرجون ثواباً ، لتكذيبهم بالمعاد .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إن يوم فصل الله القضاء بين خلقه ، هو موعد اجتماعهم أجمعين **﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئاً ﴾** يوم لا يدفع قريب عن قريب ، ولا صاحبٌ عن صاحبه شيئاً من عقوبة الله **﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾** ولا ينصر بعضهم بعضاً ، كما كانوا يفعلون في الدنيا **﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾** إلا من رحم الله منهم ، فإنه يشفع له عند ربه **﴿ إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾** العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيمُ بأوليائه وأهل طاعته **﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾** إن شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم ، طعام الكافر الفاجر **﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ . كَغَلْيِ الحَمِيمِ ﴾** كالرصاص المذاب في النار ، الذي تناهت حرارته ، يغلي ذلك في بطون هؤلاء الأشقياء ، كغلي الماء المسخن المحموم من شدة حره **﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الجَحِيمِ ﴾** خذوا هذا الآثم ، فادفعوه دفعاً وسوقوه إلى وسط النار **﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحَمِيمِ ﴾** ثم صبوا على رأس هذا الأثيم الماء المسخن ، الذي « يُصهر به ما في بطونهم والجلود » **﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾** ويقال لهذا الشقي[1] : ذق هذا العذاب الذي تعذب به اليوم ، إنك أنت العزيز في قومك ، الكريمُ عليهم **﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾** إن هذا العذاب الذي تعذبون به هو العذاب الذي كنتم تشكون فيه في الدنيا ، فقد لقيتموه فذوقوه .

﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ إن الذين اتقوا الله ، بأداء طاعته واجتناب معاصيه ، في موضع إقامة آمنين فيه من الأوصاب والأحزان **﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾** في البساتين وعيون الماء في

---

(١) نزلت في « أبي جهل » الذي كان يقول : إن محمداً يتوعدني ، ووالله إني لأعزُّ من مشى بين جبليها ، وإنما يقال له في الآخرة ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ على سبيل السخرية والاستهزاء ، فالأسلوب إذاً أسلوب سخرية وتهكم

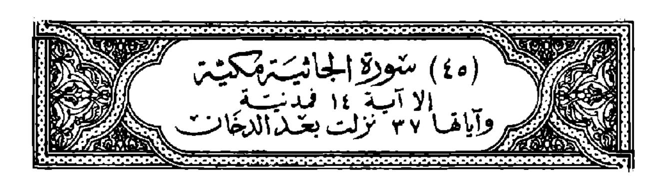
يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

* * *

أصول الأشجار ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾يلبسون في هذه الجنات ، لباساً مما رقَّ من الديباج ، وما غلظ منه ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ يقابل بعضهم بعضاً﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾وكذلك أكرمناهم بأن زوجناهم أيضاً الحور النقيات البياض ، الواسعات العيون ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ يدعو المتقون في الجنة بكل نوعٍ اشتهوه من فواكه الجنة ، آمنين فيها من انقطاع ذلك عنهم ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ لا يذوقون في الجنة الموت ، بعد الموت الذي ذاقوه في الدنيا ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ونجاهم الله من عذاب النار ﴿ فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ﴾ تفضلاً عليهم من ربك يا محمد ، وإحساناً منه إليهم بذلك ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ هذا الذي أعطينا المتقين من الكرامة ، هو الظفر العظيم باتقائهم ربهم فيما امتحنهم من الطاعات ، والفرائض ، واجتناب المحارم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فإنما سهلنا قراءة هذا القرآن بلسانك يا محمد ، ليتذكر المشركون بعبره وحججه ، فيتعظوا بعظاته ، وينيبوا إلى طاعة ربهم ، ويذعنوا للحق ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ فانتظر يا محمد النصر على هؤلاء المشركين ، إنهم منتظرون قهرك وغلبتك ، بصدهم عن الحق من أراده .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ

* * *

﴿ حمٓ ﴾ (١) ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ هذا تنزيل القرآن من عند الله ، العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبيره أمر خلقه ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ إنَّ في السموات السبع التي منها نزول الغيث ، والأرض التي منها خروج الخلق ﴿ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأدلة وحججاً ، للمصدقين بحجج الله ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وفي خلق الله إياكم أيها الناس ، وخلقه ما تفرَّق من دابة ، تدبُّ عليها من غير جنسكم ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ حججٌ وأدلةٌ ، لقومٍ يوقنون بحقائق الأشياء ، ويعلمون صحتها ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وفي اختلاف الليل والنهار ، وتعاقبهما عليكم ، هذا بظلمته ، وهذا بنوره ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ وما أنزل الله من السماء من المطر ، فأنبت به ميِّت الأرض ، حتى اهتزت بالنبات والزرع ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بعد جدوبها وقحوطها ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ وفي تصريفه الرياح لكم ، شمالاً مرة ، وجنوباً أخرى (٢) ، لمنافعكم ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ في ذلك أدلةٌ وحجج ، لقوم يعقلون عن الله حججه ، ويفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبر ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ ﴾ هذه الآيات والحجج من ربك ، نخبرك عنها يا

(١) تقدم الكلام على تفسير الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .
(٢) وقيل : بتصريف الرياح أن يرسلها بالرحمة مرةً ، وبالعذاب أخرى .

بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى
عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
* اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

* * *

محمد بالحق لا بالباطل ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ فبأي حديث بعد حديث الله هذا ، وبعد حججه عليكم ، وأدلته على وحدانيته ، يصدِّق هؤلاء المشركون ؟ ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الوادي السائل من صديد أهل جهنم [١] لكل كذابٍ مفترٍ على الله ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ﴾ يسمع آيات كتاب الله تقرأ عليه، ثم يقيم على كفره وإثمه غير تائب منه ، مستكبراً عن الإذعان لأمر الله ونهيه ﴿ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ كأنه لم يسمع ما تلي عليه من آيات الله ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فبشر هذا الكذَّاب بعذاب موجع يوم القيامة ، في نار جهنم ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً ﴾ وإذا علم هذا الأثيم شيئاً من آيات الله ، سخر منها [٢] ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ هؤلاء الذين يسخرون من آيات الله ، لهم يوم القيامة عذابٌ يهينهم ويذلّهم ، في نار جهنم ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ من بين أيدي هؤلاء المستهزئين ، نار جهنم هم واردوها ﴿ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً ﴾ ولا يغني عنهم من عذاب جهنم ، ما كسبوه في الدنيا من مالٍ وولد شيئاً ﴿ وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ولا تغني عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله ، ورؤساهم في الكفر الذين اتخذوهم نصراء ، شيئاً من عذاب جهنم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ولهم يومئذ عذاب عظيم .

﴿ هَذَا هُدىً ﴾ هذا القرآنُ بيانٌ ودليلٌ على الحق ، يهدي من اتبعه إلى صراط مستقيم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ والذين جحدوا ما في القرآن من الآيات ، ولم يصدِّقوا بها ، لهم عذابٌ[٣] موجع يوم القيامة﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ الله وحده هو الذي أنعم عليكم هذه النعم ، فسخر لكم البحر ، لتجري فيه السفن بأمره ، لمعايشكم ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ

(١) معنى الويل في اللغة : الهلاك والدمار ، وقد جرى الإمام ابن جرير على تفسيره بالوادي السائل من صديد أهل النار في كل موطن من القرآن جرى ذكره ، وهو كما ذكرنا سابقاً تفسير ببعض الآثار .

(٢) كأبي جَهلٍ اللعين الذي كان يسخر من شجرة الزقوم التي أخبر عنها القرآن ويقول : هو الزبد مع التمر فتزقموا .

(٣) ذكر تعالى في هذه الآيات العذاب الأليم ، والعذاب المهين ، والعذاب العظيم ، الذي أعده لهؤلاء الطغاة المجرمين ، المكذبين بآيات الله ، لينبه إلى أنواع العذاب الذي يقاسونه يوم القيامة

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ
فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ

* * *

﴿ فَضْلِهِ ﴾ ولطلب فضله في البلاد ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولتشكروا ربكم ، على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وسخر لكم ما في السموات من شمسٍ ، وقمرٍ ، ونجوم ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ وسخر لكم ما في الأرض من دابةٍ ، وشجر ، وجبل ، وجماد ، وسفن ، كل ذلك لمنافعكم ومصالحكم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إن في تسخير الله لكم ذلك ، لعلامات على أنه لا إِلَه لكم غيره ، لقوم يتفكرون في آيات الله وحججه ، فيعتبرون ويتعظون ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ قل يا محمد للذين صدَّقوا الله واتبعوك ، يغفروا للذين لايخافون بأس الله ونقمه ، إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ليجزي الله هؤلاء المشركين فيصيبهم عذابه ، بأذاهم أهلِ الإيمان بالله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾ من عمل بطاعة الله ، فقد عمل لنفسه ذلك الصالح ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ومن أساء بمعصيته ربه ، فعلى نفسه جنى،لأنه أكسبها سخطه ، ولم يضر أحداً سوى نفسه ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ ثم إلى ربكم تصيرون من بعد مماتكم ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ ولقد أعطينا بني إسرائيل التوراة والإنجيل ﴿ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ والفهم بالكتاب والعلم بالسنن التي لم تنزل في الكتاب ، وجعلنا منهم أنبياء ورسلاً إلى الخلق ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وأطعمناهم من طيبات أرزاقنا من المنِّ والسلوى ، وفضلناهم على عالمي أهل زمانهم .

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ وأعطينا بني إسرائيل واضحات من أمرنا ، بتنزيلنا إليهم التوراة فيها تفصيل كل شيء ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ فمااختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين ، طلباً للرياسات ، وتركاً منهم لبيان الله تبارك وتعالى في تنزيله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إن ربك يا محمد يفصل بين المختلفين من بني إسرائيل ، فيما كانوا يختلفون فيه بعد العلم والبيان الذي جاءهم ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ

ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ
ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾
وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ
إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا

* * *

﴿ فَاتَّبِعْهَا ﴾ ثم جعلناك يا محمد على طريقةٍ ومنهاجٍ من أمرنا ، فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون ، الذين لايعرفون الحق فتهلك إن عملت به ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ إن الجاهلين الذين يدعونك ، إلى اتباع أهوائهم ، لن يدفعوا عنك - إن أنت خالفت شريعة ربك - شيئاً من عقاب الله فينقذوك منه ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وإن الظالمين بعضهم أنصار وأعوان بعض ، على أهل الإيمان ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ والله وليُّ من اتقاه ، ينصره ويدفع عنه من أراده بسوء ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ هذا القرآن بصائر للناس ، يبصرون به الحق من الباطل ، ويعرفون به سبيل الرشاد ﴿ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وهو رشاد ورحمة لمن صدَّق وأيقن بحقيقة صحة هذا القرآن ، وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أم ظن الذين اكتسبوا السيئات في الدنيا ، فكذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر ربهم ، وعبدوا غيره ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أن نجعلهم في الآخرة كالذين آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ، وأطاعوا الله ، وأخلصوا له العبادة ؟! كلا ما كان الله ليفعل ذلك ﴿ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أحسبوا أن نجعلهم والذين آمنوا سواءً[1] في المحيا والممات ؟ ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ بئس الحكم الذي حسبوا أنا فاعلوه ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ﴾ خلقهما للعدل والحق ، لا للظلم والجور ﴿ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وليثيب كل عامل بما عمل ، المحسنَ بالإحسان ، والمسيءبما هو أهله ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ جزاء أعمالهم ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أفرأيت يا محمد من اتَّخذ معبوده هواه ، فيعبد الشيءالذي يهواه ، دونإلهه الحق؟ ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ وخذله الله عن سبيل الرشاد في سابق علمه[2] ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ وطبع على

(١) سواء أي متساوين في المحيا والممات ، فلا يمكن للعدالة الإلۤهية أن تساوي بين الأبرار والفجار كقوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستون ﴾

(٢) هكذا فسره الإمام ابن جرير وقال غيره المعنى : وأضله الله حال كون ذلك الشقي عالماً بالحق غير جاهلٍ به ، فهو أشد قبحاً وشناعة ممن يضل عن جهل ، وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾
قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

* * *

سمعه فلا يعتبر بآيات القرآن ، ويعقل ما فيها من النور والبيان ، وطبع أيضاً على قلبه ، فلا يعقل به شيئاً ، ولا يعي به حقاً ﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ وجعل على بصره غطاءً أن يبصر به حجج الله ، فيستدل بها على وحدانيته ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ فمن يوفقه لإصابة الحق ، وإبصار الرشد ، بعد إضلال الله إياه(١)؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تذكرون فتعلموا أن من فعل الله به ذلك فلن يهتدي أبداً ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ وقال المشركون : لا حياة إلا حياتنا الدنيا ، لا حياة سواها ، تكذيباً بالبعث بعد الممات ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ نموت نحن ويحيا أبناؤنا بعدنا ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ وما يغنينا إلا مَرُّ الليالي والأيام ، وطول العمر (٢) ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ وليس لهم يقين علم ، وإنما يقولونه تخرصاً بغير خبر ولا برهان ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ما هم إلا في ظنٍ وشك ، وفي حيرة من اعتقادهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ وإذا تتلى على المشركين آياتنا واضحاتٍ جليّات ، على البعث بعد الممات ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ لم يكن لهم حجة على رسولنا إلا قولهم له : ائتنا بآبائنا الذين قد هلكوا أحياء ، وأنشرهم لنا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إن كنت صادقاً فيما تتلو علينا ، وتخبرنا به ، حتى نصدِّق بقولك .

﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : الله يحييكم ما شاء في الدنيا ، ثم يميتكم فيها إذا شاء ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ثم يجمعكم جميعاً صغيركم وكبيركم أحياء ليوم القيامة ، الذي لاشك فيه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولكن أكثر الناس ـ الذين هم أهل تكذيب بالبعث ـ لايعلمون حقيقة ذلك ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولله سلطان السموات السبع والأرض ، دون ما تدعونه شريكاً له ، وتعبدونه من دونه من الآلهة والأنداد ، فكيف تعبدونه ، وتتركون عبادة مالككم ؟ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ويوم تجي القيامة التي

---

(١) وصف الله الكفار بأربعة أوصاف : الأول عبادة الهوى ، والثاني الضلال على علم ، والثالث الطبع على الأسماع والقلوب ، الرابع جعل الغطاء على الأبصار ، فمن أين يهتدي هؤلاء الفجار ؟

(٢) إنه رأي الملاحدة في كل عصرٍ وأوان ، ينكرون فعل الله ـ عزوجل ـ وينسبون الخلق ، والإماتة إلى الدهر ، وإلى الطبيعة ، وما إلى هنالك ، وإنما يريدون بذلك الهرب من التكاليف الشرعية ، والأوامر الربانية ، وهم في حقيقة ذواتهم في حيرة وشكٍ واضطراب ، من هذه الفلسفة الفسفطائية .

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ
إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ
إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ

* * *

ينشر الله فيها الموتى من قبورهم ، يخسر المبطلون الذين أبطلوا في أقوالهم في الدنيا فدعوا لله شريكاً ، وعبدوا آلهة دونه ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ وترى أهل كل ملةٍ ودينٍ ، مجتمعةً مستوفزة على ركبها ، من هول ذلك اليوم (١) ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ كل أهل ملة تدعى إلى كتابها (٢) ، الذي أملت على حفظتها ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يقال لهم : اليوم تُثابون وتعطون ، أجور ما كنتم في الدنيا تعملون ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ ﴾ هذا الكتاب الذي سجلته الحفظة ، ينطق عليكم بالحق إن أنكرتموه ، فاقرؤ وه ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إنا كنا نستكتب حفظتنا أعمالكم ، فتثبتها في الكتب عليكم .

﴿ فَأَمَّا الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فأما الذين وحَّدوا الله ، ولم يشركوا به شيئاً ، وعملوا بما أمرهم الله به ، وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ فيدخلهم ربهم في جنته برحمته ﴿ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ المُبِينُ ﴾ دخولهم الجنة هو الظفر بما كانوا يطلبونه ، وإدراك ما كانوا يسعون له في الدنيا ﴿ وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ وأما الذين جحدوا وحدانية الله ، وأبوا إفراده بالألوهية ، فيقال لهم : ألم تكن آياتي في الدنيا تتلى عليكم ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فاستكبرتم عن استماعها والإيمان بها ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ وكنتم قوماً تكسبون الآثام ، ولا تصدقون بمعاد ، ولا بثوابٍ وعقاب ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ وإذا قيل لكم : إن وعد الله الذي وعد عباده ، أنه محييهم من بعد مماتهم حقٌ ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ والساعة التي يقيمها لحشركم وجمعكم للحساب ، آتيةٌ لا شك في قيامها ، فاتقوا الله واعملوا لما ينجيكم من عقابه ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ كذبتم وقلتم : ما نعلم ما هي الساعة ؟ تكذيباً منكم ، وإنكاراً لقدرته تعالى على إحيائكم ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ ما نظن أن الساعة آتية إلا ظناً ، وما نحن بمستيقنين أنها كائنة ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا

---

(١) قال ابن كثير : وهذا إذاجيء بجهنم ، فإنها تزفر زفرة ـ أي تصيح صيحة ـ لايبقى أحدٌ إلا جثا على ركبتيه .
(٢) المراد به صحائف الأعمال التي سجلتها الملائكة على بني آدم .

مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ
ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ
مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

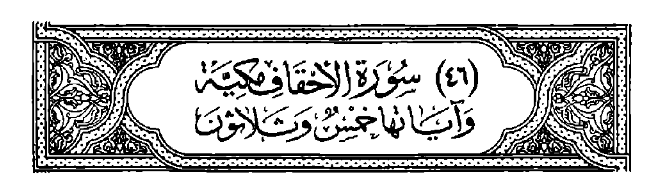
* * *

عَمِلُوا ﴾ وظهر لهم هنالك قبائح أعمالهم ، لمَّا قرأوا كتب أعمالهم التي نسختها الحفظة ﴿ **وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ وأحاط بهم من عذاب الله ،ما كانوا به يستهزئون في الدنيا .

﴿ **وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ وقيل لهؤلاء الكفرة : اليوم نترككم في عذاب جهنم ، كما تركتم العمل للقاء ربكم يومكم هذا ﴿ **وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ** ﴾ ومأواكم التي تأوون إليها نار جهنم ﴿ **وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴾ومالكم من مستنقذٍ ، ينقذكم اليوم من عذاب الله ﴿ **ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً** ﴾ هذا الذي حل بكم من العذاب ، بسبب أنكم في الدنيا اتخذتم آيات الله سُخريةً تسخرون منها ﴿ **وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾ فآثرتموها على العمل لما ينجيكم اليوم ﴿ **فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا** ﴾ فاليوم لايخرجون من النار ﴿**وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** ﴾ولا هم يردون إلى الدنيا ليتوبوا ﴿ **فَلِلَّهِ الحَمْدُ** ﴾ فلله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه ﴿ **رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ مالك السموات السبع ، ومالك الأرضين السبع ، ومالك جميع ما فيهن من أصناف الخلق ﴿ **وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ وله العظمة والسلطان في السموات والأرض ، دون ما سواه من الآلهة والأنداد ﴿ **وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ وهو العزيز في نقمته من أعدائه ، الحكيم في تدبير خلقه كيف شاء .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية »

***



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

* * *

﴿ حمٓ ﴾(١) ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ هذا تنزيل القرآن من عند الله ، العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبير خلقه ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ ﴾ ما أحدثنا وأوجدنا السموات والأرض ، وما بينهما من أصناف العالم ، إلا لإقامة الحق والعدل في الخلق ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وإلا بأجل معلوم عند الله(٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ والذين جحدوا وحدانية الله معرضون عن إنذار الله لهم ، لا يتعظون فيعتبرون ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قل يا محمد للمشركين : أرأيتم أيها القوم الآلهة والأوثان التي تعبدونها من دون الله ؟ ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴾ أروني أي شيءٍ خلقوا من الأرض لتكون آلهة ؟! فإن ربي خلق الأرض كلها ، فابتدعها من غير أصل ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أم لآلهتكم شركة مع الله في خلق السموات السبع ، فيكون لكم حجة في عبادتكم إياها ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ ائتوني أيها القوم بكتابٍ جاء من عند الله ، من قبل هذا القرآن ، بتحقيق ما تدعون لآلهتكم(٣) ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أو ائتوني ببقيةٍ من علم ، يُوصَل بها إلى صحة ما تقولون ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم لها ما تدَّعون

(١) تقدم الكلام على معنى الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .
(٢) هو زمن فنائهما يوم القيامة .
(٣) هذا أمر تعجيز لأنه ليس هناك كتاب سماوي من الكتب المنزلة يدل على الإشراك بالله .

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى

* * *

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ وأيُّ عبدٍ أضل ممَّن عَبَد حجراً أو خشباً وجعلها آلهة ، وهي لا تجيب دعاءه أبداً إلى يوم القيامة ؟[1] ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ وآلهتهم في غفلةٍ عن دعائهم واستغاثتهم عند المصائب ، لأنها لا تسمع ، ولا تنطق ، ولا تعقل ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ وإذا جمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب ، كانت هذه الآلهة أعداء لهم ، لأنهم يتبرؤ ون منهم ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ وكانوا جاحدين بعبادتهم لأنهم يقولون : يا ربنا ما أمرناهم بعبادتنا ، تبرأنا إليك منهم[2] ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ وإذا تقرأ على المشركين حججنا ، التي احتججنا عليهم في كتابنا ، واضحاتٍ نيِّرات ﴿ قَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ قال الذين جحدوا وحدانية الله ، وكذبوا رسوله ، للقرآن لما جاءهم من عند الله ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ هذا القرآن خداعٌ ، يفعل بالقلوب فعل السحر ، ظاهر لمن تأمله أنه سحر .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أم يقول هؤلاء : اختلق محمد هذا القرآن ، وتخرصه كذباً ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ قل لهم يا محمد : إن تخرصته كذباً على الله ، فلا تغنون عني إن عاقبني الله شيئاً ، ولا تقدرون أن تدفعوا عني سوءاً ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ ربي أعلم من كل شيء ، بما تقولون بينكم في هذا القرآن ﴿ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ كفى بالله شاهداً عليَّ وعليكم ، بما تقولون فيما جئتكم به من عند الله ﴿ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الغفور لذنوب عباده ، الرحيمُ الذي لا يعذب أحداً بعد توبته ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾ قل يا محمد لمشركي قومك : ما كنت أول رسل الله إلى خلقه ، فقد كان قبلي رسل كثيرون ﴿ وَمَا أَدْرِي

---

(١) وهذا توبيخ من الله للمشركين في سوء رأيهم وقبح اختيارهم ، في عبادتهم من لا يعقل ولا يفهم ، وتركهم عبادة الإلّه القادر ، السميع البصير .

(٢) يتبرءون من عبادتهم ويقولون ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ .

مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ
وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾
وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ

* * *

﴿ مَا يُفْعَلِ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ ولا أدري ما يُصنع بي ولا بكم في الدنيا[1] ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ما أتبع فيما آمركم به ، إلا وحي الله الذي يوحيه إلي ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وما أنا لكم إلا نذير ، أنذركم عقاب الله على كفركم به ، قد أبنتُ وأظهرت لكم دعائي إلى ما فيه نصيحتكم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أرأيتم أيها القوم ، إن كان هذا القرآن من عند الله ، أنزله عليَّ ، وكذبتم أنتم به ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ وشهد « عبد الله بن سلام » من بني إسرائيل على مثل القرآن ـ وهو التوراة ـ بأن محمداً مكتوبٌ في التوراة كما هو مكتوب في القرآن أنه نبيٌ ﴿ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فآمن وصدَّق بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله ، واستكبرتم أنتم معشر اليهود عن الإيمان ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يوفق لإصابة الحق ، وهدى الطريق المستقيم ، القوم الكافرين ، الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله ﴿ وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وقال الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ للمؤمنين: لو كان تصديقكم محمداً خيراً ، ما سبقتمونا إلى التصديق به ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ﴾ وإذ لم يُبَصَّروا ويُرشدوا بما جاءهم من عند الله من الهدى ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ فسيقولون : هذا القرآن أكاذيب قديمة ، من أخبار الأولين ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ ومن قبل هذا الكتاب أنزلنا التوراة ، إماماً لبني إسرائيل يأتمون به ، ورحمةً لهم

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً ﴾ وهذا القرآن كتاب أنزلناه ، يصدق كتاب موسى بأن محمداً نبيٌ مرسل ، وهو بلسانٍ عربي ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ لينذر هذا القرآن الذين ظلموا

---

(١) هذا ما رجحه الطبري من الأقوال وهو قول الحسن ، وأما في الآخرة فقد أعلمه الله بأنه هو والمؤمنين في جنان النعيم ، وأن المشركين في دركات الجحيم ، ومعنى الآية على هذا القول : لا أعلم هل سأخرج من بلدي كما أخرج الأنبياء ، أم سأقتل كما قتل الأنبياء ؟

(٢) الراجح كما قال الطبري أن الشاهد هو « عبد الله بن سلام » رضي الله عنه ، وكان حبراً من أحبار اليهود ومن أعظم علمائهم ، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة جاء إليه ابن سلام وسأله عن أمور ثلاثة لا يعلمهن إلا نبي ، فلما أجابه ﷺ قال : أشهد أنك رسول الله حقاً ، وفيه نزلت الآية الكريمة .

لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي
مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

* * *

أنفسهم بكفرهم بالله ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهو بشرى للذين أطاعوا الله ، فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم ، فحسن جزاؤهم في الآخرة ﴿ إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ قالوا : ربنا الله الذي لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم ، فلم يخلطوه بشرك ، ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ هؤلاء هم أهل الجنة وسكانها ، ماكثين فيها أبداً ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ثواباً منّا لهم على أعمالهم الصالحة ، التي كانوا يعملونها في الدنيا ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ﴾ ووصينا ابن آدم بـوالديـه ، أن يحسن صحبتهما ، وأن يبرَّ بهما في حياتهما ، وبعد مماتهما ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ حملته أمه في بطنها مشقة ، وولدته بمشقة[1] ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً ﴾ وحمل أمه له جنيناً في بطنها ، وفطمها له من الرضاع ثلاثون شهراً ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ حتى إذا بلغ السن التي تناهى فيها قوته[2] ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ حين تكاملت حجة الله عليه ، وعرف الواجب لله في بر والديه ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ قال : رب ادفعني وألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي بتوحيدك ، وهدايتك لي للعمل بطاعتك ، وعلى والديَّ من قبلي ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ ووفقني أن أعمل بطاعتك ، وطاعة رسولك ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ وأصلح لي أموري في ذريتي الذين وهبتهم لي ، بأن تجعلهم هداة للإيمان بك ، واتباع مرضاتك ، والعمل بطاعتك ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ إني تبت من ذنوبي التي سلفت مني ، وإني من الخاضعين المستسلمين لأمرك ونهيك .

---

(١) نبه تعالى على السبب الذي من أجله أمره ببرّ والديه ، وبخاصة الأم وذلك لما لاقت في حال حمله من التعب والمشقة ، وقاست من الألم والشدة وقت الوضع ، ثم لم تزل تعاني المتاعب والآلام في تربيته والسهر عليه حتى يصبح وليداً وناشئاً .

(٢) وهي كما قال مجاهد وقتادة : سن الثالثة والثلاثون من العمر ، وفي الأربعين يكون نهاية اكتمال العقل والرشد ، ولذلك لم يُبعث نبيٌ قبل الأربعين .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ
يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ
وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ

* * *

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ هؤلاء هم الذين يتقبل الله منهم أحسن ما عملوا في الدنيا ، من صالحات الأعمال ، فيجازيهم به ويثيبهم عليه ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ ﴾ ويصفح لهم عن سيئات أعمالهم فلا يعاقبهم عليها ، مثل فعلنا بأهل الجنة ﴿ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ وعدهم اللَّهُ هذا الوعد الحق ، الذي لا شك فيه ، وهو الوعد الذي كان يعدهم به في الدنيا ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ وذلك الكافر العاق لوالديه ، الذي قال لهما ـ وهما مجتهدان في نصيحته ودعائه إلى الله ـ قَذَراً لكما ونتناً[1] ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أتعدانني أن أُبعث من قبري حياً من بعد فنائي وبلائي !! ﴿ وَقَدْ خَلَتِ القُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ وقد مضت قرون من الأمم قبلي ، فلم يُبعث منهم أحد ، ولو كنت مبعوثاً لبُعث من هلك قبلي من القرون[2] ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ ووالداه يستصرخان الله ويستغيثانه عليه ، أن يؤمن بالله ، ويقرّ بالبعث ويقولان له : ﴿ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ويلك صدِّقْ بوعد الله ، وأقر بأنك مبعوث من بعد وفاتك ، فإن وعد الله ليوم الحساب لا شك فيه ﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ فيقول عدو الله : ما هذا الذي تدعواني إليه ، إلّا ما سطَّره الأولون من الأباطيل ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ ﴾ هؤلاء الذين وجب عليهم العذاب ، وحلَّت بهم عقوبته وسخطه ، فيمن حلَّ به عذاب الله من الأمم ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ قد مضوا قبلهم من الجن والإنس ، الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمر ربهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ إنهم كانوا مغبونين ، ببيعهم الهدى بالضلال ، والنعيم بالعقاب ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ ولكل هؤلاء الفريقين ـ فريق الإيمان وفريق الكفر ـ منازل ومراتب عند الله يوم القيامة ، من عملهم الذي عملوه في الدنيا ، من صالحٍ وسيىء ، يجازيهم الله به

(١) هكذا فسره الإمام الطبري وقال غيره معنى ﴿ أفٍ لكما ﴾ أي قبحاً لكما على هذه الدعوة ، وهذا المعنى أظهر .

(٢) قال بعض المفسرين : نزلت في ابنٍ لأبي بكر قبل إسلامه ، والصحيح أنها عامة في كل من اتصف بمثل هذا الوصف القبيح .

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا
فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ * وَٱذْكُرْ
أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ

* * *

﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وليعطي جميعهم أجور أعمالهم التي عملوها ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ولا يظلمهم الله فيجازي المسيء منهم ويحمل عليه ذنب غيره ، ولا يبخس المحسن منهم ثواب إحسانه ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ ويوم يعرض الذين كفروا بالله على نار جهنم ، يقال لهم : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بالطيبات فيها !؟[1] ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ فاليوم أيها الكافرون تثابون عذاب الهوان الذي يهينكم في جهنم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بما كنتم تتكبرون على ربكم ، فتأبون أن تذعنوا لأمره ونهيه ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بغير ما أباح لكم ربكم ، وأذن لكم به ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ وبما كنتم تعصون أمر الله وتخالفون طاعته .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ واذكر يا محمد لقومك « هوداً » الذي بعثه الله إلى عادٍ ، فخوَّفهم أن يحل بهم نقمة الله على كفرهم ، وكانت منازلهم الرمال العالية المستطيلة ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ وقد مضت الرسل بإنذار أممها ، من قبل هودٍ ومن بعده ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ ألا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم ، بل أخلصوا له العبادة وأفردوه بالألوهية ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إني أخاف عليكم أيها القوم ، عذاب الله في يوم عظيم يعظم هولُه ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ قالوا : أجئتنا يا هود ، لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ، إلى عبادة ما تدعونا إليه !؟ ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ فأتنا بالعذاب الذي تعدنا به ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ إن كنت من أهل الصدق في القول والوعد ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قال هود : إنما العلم بوقت مجيء عذاب الله عند الله ، لا أعلم من ذلك إلا ما علمني ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ وإنما أنا رسول إليكم من الله ، مبلِّغ ما أرسلني به ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ تجهلون حظوظ نفوسكم ، فلا تعرفون المضرَّة بعبادتكم غير الله ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ فلما جاءهم

(١) يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً ، فالأسلوب أسلوب توبيخ وتأنيب .

هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟
لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا
وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

* * *

عذاب الله الذي استعجلوه، فرأوه سحاباً عارضاً في ناحية السماء، متجهاً نحو أوديتهم، ﴿ **قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا** ﴾ قالوا: هذا هو الغيث الذي كان يعدنا به هود ﴿ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ قال لهم هود: ما هو غيثٌ، ولكنه العذاب الذي استعجلتم به، هو ريحٌ فيها عذابٌ موجع ﴿ **تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾ تُخرِّب كل شيء أُرسلت بهلاكه، وترمي بعضه على بعض فتهلكه ﴿ **فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ** ﴾ فأصبح قوم هود وقد هلكوا، فلا يرى إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها ﴿ **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ كما جزينا عاداً بكفرهم فأهلكناهم، كذلك نجزي القوم الكافرين إذا تمادوا في غيهم، وطغوا على ربهم.

﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ** ﴾ ولقد مكنا «عاداً» فيما لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من الدنيا، وأعطيناهم الذي لم نعطكم منها، من كثرة الأموال، وبسطة الأجسام، وشدة الأبدان ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً** ﴾ وجعلنا لهم سمعاً يسمعون به المواعظ، وأبصاراً يُبصرون بها حجج الله، وأفئدةً يعقلون بها ما يضرُّهم وينفعهم ﴿ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ فلم ينفعهم ما أعطاهم الله من السمع، والبصر، والفؤاد، إذْ لم يستعملوها فيما ينجيهم من عقاب الله[1] ﴿ **إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ حين كانوا يكذِّبون برسل الله، وينكرون نبوتهم ﴿ **وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ ونزل وأحاط بهم العذابُ الذي كانوا يستعجلون به بطريق الاستهزاء ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى** ﴾ ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حول قريتكم من القرى، كسدوم، ومأرب، والحِجْر، فخربنا ديارهم، وجعلناها خاوية على عروشها ﴿ **وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ ووعظناهم بأنواع العِظات، وذكرناهم بضروبٍ من الذكر، ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمين من الكفر ﴿ **فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً** ﴾ فأبوا إلا الإقامة على كفرهم فأهلكناهم، فلم ينصرهم منا ناصر، فهلاَّ نصرتهم أوثانُهم وآلهتهم حين جاءهم

(١) وهذا وعيدٌ من الله جل ثناؤه لقريش؛ يقول لهم: احذروا أن يحل بكم العذاب على تكذيبكم رسولي كما حلَّ بعاد قوم هود، فتوبوا من ذنوبكم وأنيبوا.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ
طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾
وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

* * *

بأسنا ؟![1] ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ بل تركتهم آلهتهم ، فلم تُجبْهم ولم تُغثْهم ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ وهذا كذبهم حيث كانو يقولون : هؤلاء آلهتنا وهم شفعاؤ نا عند الله ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ ﴾ واذكر حين صرفنا إليك يا محمد طائفة من الجن ، يستمعون تلاوتك للقرآن[2] ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ فلما حضر هؤلاء النفر من الجن القرآن ، ورسول الله ﷺ يقرأ ، قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنستمع القرآن ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ فلما فرغ رسول الله ﷺ من تلاوة القرآن ، انصرفوا إلى قومهم ينذرونهم عذاب الله ﴿ قَالُوا يا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ سمعنا كتاباً مجيداً منزّلاً على رسولٍ من بعد موسى ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يصدّق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله ﴿ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يرشد إلى الصواب ورضا الله وإلى طريق لا اعوجاج فيه ـ وهو الإسلام ـ دينُ الله المستقيم .

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ يا قومنا أجيبوا محمداً ﷺ ، إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ﴿ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ وصدقوه فيما جاءكم به من عند الله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ يستر الله ذنوبكم ، ولا يفضحكم بها في الآخرة ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وينقذكم من عذاب موجع ، إذا أنتم تبتم وأنبتم من كفركم ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ ﴾ ومن لا يجب محمداً رسول الله ﷺ ، فليس بمعجزٍ ربه بهربه من عقوبته ، لأنه في سلطانه حيث كان[3] ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ وليس له من دون ربه ، نصراء ينصرونه من الله ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ هؤلاء

(١) في الآية محذوف دل عليه السياق كما نبَّه عليه الطبري تقديره : فأبوا إلا الإقامة على الكفر فأهلكناهم ، فهلاّ نصرتهم آلهتهم كما يزعمون !!

(٢) هؤلاء من جنّ « نصيبين » وافوا رسول الله ﷺ ببطن نخلة عند رجوعه من الطائف ، فاستمعوا لقراءته ، وفي الآية توبيخ للمشركين حيث إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا ، وهؤلاء عنه معرضون .

(٣) هذا من باب الترهيب بعد الترغيب ، كما هو شأن القرآن في قرن الوعد بالوعيد ، والترغيب بالترهيب .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

* * *

الذين لم يجيبوا داعي الله ، في جورٍ عن قصد الطريق ، ظاهر لمن تأمله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أولم ينظر هؤلاءالمنكرون بأبصار قلوبهم ، فيعلموا أن الله الذي ابتدع السموات السبع ، والأرض ، من غير شيء ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ ولم يعجز عن إحداثهن ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾ بقادرٍ على أن يخرجهم من قبورهم أحياء ، كهيئتهم قبل وفاتهم ؟ ﴿ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بلى إن الذي خلق ذلك ، ذو قدرةٍ ، لا يعجزه شيء أراده ، وإلا كان ضعيفاً فلا ينبغي أن يكون إلهاً !!

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ويوم يعرض المكذبون بالبعث ، على نار جهنم ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ يقال لهم توبيخاً : أليس هذا العذاب الذي تُعذبونه اليوم بالحق ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ فيجيب هؤلاء الكفرة : بلى هو الحقُّ والله ﴿ قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فيقال لهم : ذوقوا عذاب النار الآن ، بما كنتم تجحدونه وتنكرونه في الدنيا إذا دعيتم إلى التصديق به ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ فاصبر يا محمد على ما أصابك من أذى قومك، كما صبر أولوالعزم[1]من رسله ، على عظيم ما لاقوا من المكاره ، وما نالهم من الشدائد ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ ولا تستعجل على المشركين بالعذاب ، فإن ذلك نازلٌ بهم لا محالة ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ كأنهم يوم يرون عذاب الله ، الذي وعدهم به ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ، لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذاب الله مَبْلغ ما مكثوا في الدنيا، من السنين والشهور ﴿ بَلَاغٌ ﴾ هذا القرآن والتذكير بلاغٌ لهم ، لو اعتبروا فتذكّروا ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القَوْمُ الفَاسِقُونَ ﴾ فهل يهلك الله بعذابه ، إلا القوم الذين خالفوا أمره ، وكفروا به ، وخرجوا عن طاعته !؟

---

(١) في الآية تسلية للرسول ﷺ ، وأمرٌ له بالاقتداء بمشاهير وقادة الرسل ، الذين سمّاهم الله أولي العزم ، وهم « نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى » وهم الذين امتحنوا بالمحن الشديدة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ
مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ
ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ

* * *

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الذين جحدوا توحيد الله ، وعبدوا غيره ، وصدوا من أراد عبادته ، وتصديق نبيه محمد ﷺ عن الإسلام ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ جعل الله أعمالهم على غير هدى وغير رشاد ، لأنها عُملت في سبيل الشيطان ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ والذين صدَّقوا الله ، وعملوا بطاعته ، واتَّبعوا أمره ونهيه ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وصدَّقوا بالكتاب الذي أنزله الله على محمد ، وهو الحق من عند ربهم ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ محا الله عنهم سيِّىء ما عملوا من الأعمال ، فلم يؤاخذهم به ، ولم يعاقبهم عليه ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ وأصلح شأنهم وحالهم ، في الدنيا وفي الآخرة ، بأن أورثهم نعيم الأبد ، والخلود الدائم في جنانه ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ أضللنا أعمال الكافرين وجعلناها على غيْر استقامة وهدى ، بسبب أنهم اتبعوا الباطل ، وهو الشيطان فأطاعوه ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وكفَّرنا عن المؤمنين سيئاتهم ، بسبب أنهم اتَّبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم ، وهو محمد ﷺ وماجاءهم به من النور والبرهان ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ كما بينت لكم فعلي بفريقي الكفر والإيمان ، كذلك نمثِّل للناس الأمثال ، ونشبِّه لهم الأشباه ، فنلحق بكل قوم أمثالهم ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ فإذا لقيتم ـ أيها المؤمنون ـ الذين كفروا من أهل الحرب ، فاضربوا رقابهم ﴿ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ حتى إذا غلبتموهم وقهرتموهم ،

يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

* * *

فصاروا أسرى في أيديكم ، فشدُّوهم في الوثاق[1] ، كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ﴾ فإذا أسرتموهم ، فإمّا أن تمنّوا عليهم بإطلاقهم من الأسر ، بغير عوض ولا فدية ﴿ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ وإما أن يفادوكم ، بأن يعطوكم عوضاً حتى تطلقوهم وتخلُّوا سبيلهم ﴿ حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ حتى تضع الحرب آثامها ، وأثقال أهلها المشركين ، بأن يتوبوا إلى الله من شركهم ، فيؤمنوا به وبرسوله ، ويأمنوا من القتل أو المنّ ، أو الفداء ، ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ هذا الذي أمرتكم به هو الحق الذي ألزمكم به ربكم ، ولو أراد الله لانتصر من هؤلاء المشركين ، بعقوبةٍ عاجلة ، وكفاكم ذلك كله ، ولكنّه تعالى كره عقوبتهم ، إلاّ بأيديكم أيها المؤمنون ﴿ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ولكن ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ويبلوهم بكم فيعاقب من شاء منهم بأيديكم ، ويتعظ من شاء منهم ، حتى ينيب إلى الحق ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ والذين قاتلوا أعداء الله الكفار وجاهدوهم في دين الله ، فلن يجعل الله أعمالهم ضلالاً عليهم ، كما أضلَّ أعمال الكافرين[2] ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ سيوفّق الله الذين قاتلوا في سبيله للعمل بما يرضى ويحب ، ويصلح أمرهم وحالهم في الدنيا والآخرة ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لهم ﴾ ويدخلهم الله جنّته وقد عرَّفها وبيَّنها لهم ، حتى إن الرجل ليأتي منزله في الجنة ، كما كان يأتي منزله في الدنيا ، لا يُشكل عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ ينصُرْكُمْ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إن تنصروا الله - بنصركم رسوله محمداً ﷺ على أعدائه أهل الكفر - ينصركم عليهم ، فإنه ناصرٌ دينه وأولياءه ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ويثبتكم أمام أعدائكم ، ويجرِّئكم حتى لا تَولّوا عنهم وإن كثر عددهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ ﴾ والذين جحدوا توحيد الله ، فخزياً لهم ، وشقاءً وبلاءً ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وجعل أعمالهم على غير هدى ولا استقامة ، لأنها عُملت في طاعة الشيطان لا في طاعة الرحمن ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ فعلنا بهم ذلك ، من أجل أنهم كرهوا كتابنا ، الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ ، فكذبوا به ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فأبطل

---

(١) الوثاق : الحبل الذي يُربط ويُشد به الأسير ، وهو القيد المعروف .

(٢) فسَّر الإمام ابن جرير الآية حسب القراءة التي اختارها وهي ﴿والذين قاتلوا في سبيل الله﴾ وقراءة حفص ﴿ قُتِلُوا ﴾ فيكون المعنى والشهداء الذين قُتِلوا في سبيل الله ، لن يجعل الله أعمالهم التي عملوها ضلالاً عليهم ، ولن يبطلها بل يكثّرها وينمّيها .

* أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ
أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ
مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن
كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ

* * *

أعمالهم التي عملوها فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أفلم يسافر المكذبون في الأرض ، فيروا نقمة الله التي أحلَّها بمن قبلهم من الأمم ، المكذبة لرسلها ﴿ **دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ﴾ ألم ندمِّر عليهم منازلهم ونخربها ، فيتَّعظوا وينيبوا إلى طاعة الله ؟ ! ﴿ **وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾ وللكافرين المكذبين لرسول الله ﷺ من العذاب ، أمثال عاقبة الأمم السابقةِ المكذبة لرسلهم ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الذِينَ آمَنُوا** ﴾ ما فعلنا بالفريقين ، من أجل أن الله ولي من آمن به وأطاع رسوله ﴿ **وَأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ** ﴾ وبأن الكافرين لا ولي لهم ولا ناصر .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ إن الله يُدخل المؤمنين بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، تكرمةً لهم على إيمانهم به وبرسوله ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ** ﴾ والذين جحدوا توحيد الله وكذَّبوا رسوله ، يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ، وزينتها الفانية ، ويأكلون فيها مثل البهائم المسخَّرة ، التي لا همة لها إلَّا في الاعتلاف دون غيره[1] ﴿ **وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** ﴾ ونار جهنم مسكن ومأوى لهم ، يصيرون إليها من بعد مماتهم ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ** ﴾ وكثيرٌ يا محمد من أهل قرية ، هم أشد بأساً ، وأكثر جمعاً من أهل مكة الذين أخرجوك ﴿ **أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ** ﴾ أهلكناهم بالعذاب ، فلا ناصر ينصرهم من عذاب الله ﴿ **أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ** ﴾ أفمن كان على برهانٍ وحجة من أمر ربه ، فهو يعبده على بصيرة منه بأن له رباً ، يجازيه على طاعته وعلى إساءته ﴿ **كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ** ﴾ كمن حسَّن له الشيطان قبيح عمله ، فرآه جميلاً ، فهو مقيم على العمل به ؟ ! ﴿ **وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسُهم ، من معصية الله ، وعبادة الأوثان ، من غير حجة ولا برهان ﴿ **مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ** ﴾ صفة الجنة التي وعدها الله المتقين ، الذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه

(١) هكذا شأن الكافر يأكل كما تأكل البهيمة ، لا همَّ له إلا بطنه وفرجه ، غير مفكِّر في العاقبة ، كالبهيمة التي تسرح في المرعى غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح، ويـا له من تصوير رائع يصوره القرآن للكفرة الفجرة !!

أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

* * *

﴿ فِيها أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ في الجنة أنهار من ماء ، غير متغيِّر الرائحة ولا منتنٍ ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ وفيها أنهار من لبنٍ ـ حليب ـ لم يتغير طعمه ، لأنه لم يُحلب من حيوان بل خلقه الله في الأنهار ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ وفيها أنهار من خمرٍ ، يلتذ الشاربون بشربها[1] ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ وفيها أنهار من عسل قد صُفِّي من الأذى ، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية[2] ﴿ وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ولهؤلاء المتقين في هذه الجنة ، من جميع الثمرات التي تكون على الأشجار ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وعفوٌ من الله لهم عن ذنوبهم ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أمَّن هو في هذه الجنة ، كمن هو خالد في نار جهنم ؟ ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ وسقي هؤلاء ماءً قد انتهى حرُّه ، فقطَّع أمعاءهم من شدة حره ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ ومن هؤلاء الكفار من يستمع إليك يا محمد ، فلا يعي ما تتلو ولا يفهمه ، تهاوناً منه بكتاب ربك ﴿ حَتَى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ماذا قال آنفاً ﴾ حتى إذا خرجوا من عندك ، قالوا لمن حضر معهم مجلسك من أهل العلم : ماذا قال لنا محمد آنفاً[3] ؟ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ هؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فهم لا يهتدون للحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ رفضوا أمر الله ، واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم[4] ، من غير حقيقة ولا برهان ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ وأما الذين شرح الله صدورهم للإيمان ، فإنَّ ما تلوتَه عليهم يا محمد ، زادهم الله به إيماناً إلى إيمانهم ، وأعطاهم الله تقواهم بطاعتهم إياه ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ فهل ينتظر هؤلاء

---

(١) إنما قيَّدها تعالى بقوله ﴿ للذةٍ للشاربين ﴾ لأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا ، لا يلتذ بها إلا سقيمُ الذَّوقِ ، فاسد المزاج .

(٢) المراد أن في الجنة أنهاراً جاريات من عسل ، في غاية الصفاء وحسن اللون والريح ، لم يخرج من بطون النحل ، ولم يخالطه الشمع وفضلات النحل .

(٣) يعني الآن ، قال ابن زيد ، هؤلاء المنافقون ، و﴿الذين أُوتوا العلم﴾ هم الصحابة رضي الله عنهم .

(٤) جمع الله بين الكافرين والمنافقين وسوَّى بينهم ، في أن جميعهم قد اتبعوا أهواءهم فقال عن الكافرين ﴿كمن زُيِّن له سوءُ عمله واتَّبعوا أهواءهم﴾ وقال عن المنافقين ﴿طبع الله على قلوبهم واتَّبعوا أهواءهم﴾ وكفى باتباع الهوى ضلالاً للإنسان !!

فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ
نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ
خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ

* * *

المكذبون إلَّا الساعة ، التي وعد الله خلقه ببعثهم فيها ، أن تجيئهم فجأة وهم لا يشعرون بمجيئها ؟﴿ **فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا** ﴾ فقد جاءهم آياتها ومقدماتها ﴿**فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ**﴾ فمن أيِّ وجهٍ لهؤلاء المكذبين ، ذكرى ما قد ضيَّعوا وفرَّطوا من طاعة الله، إذا جاءتهم الساعة ؟ وليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ؟! ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ فاعلم يا محمد أنه لا معبود للخلق تنبغي عبادته ،إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيءٍ ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ وسَلْ ربك غفران ذنوبك وذنوب أهل الإيمان بك ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**﴾ فإن الله يعلم متصرفكم في يقظتكم للأعمال ، ومثواكم إذا ثويتم في مضاجعكم ليلاً للنوم .

﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ** ﴾ ويقول المؤمنون: هلَّا نزلت سورة من الله، تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار ﴿ **فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ** ﴾ فإذا نزلت سورة محكمة بالبيان والفرائض ، وذكر فيها الأمر بقتال المشركين ﴿ **رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ رأيت الذين في قلوبهم شكٌّ في دين الله وضعف ﴿ **يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوتِ** ﴾ ينظرون إليك يا محمد ، نظر الذي قد صُرع من خوف الموت ، خشية أن تأمرهم بالجهاد ﴿ **فَأَوْلَى لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ** ﴾ فأولى لهؤلاء أن يطيعوا الأمر(١). وهو وعيدٌ للمنافقين الذين شقَّ عليهم الجهاد وكرهوه ﴿ **فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ** ﴾ فإذا وجب القتال وفُرض عليهم ﴿ **فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ** ﴾ فلو صدقوا الله ما وعدوه فوفوا بذلك ، لكان خيراً لهم في عاجل دنياهم ، وآجل معادهم ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ فلعلكم أيها القوم ، إن أدبرتم عن محمد ﷺ وعمَّا جاءكم به ﴿ **أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ أن تعصوا الله في الأرض ، فتكفروا به وتسفكوا الدماء ﴿ **وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴾ وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم ، من التشتُّت ، والتفرُّق ، بعدما قد جمعكم الله بالإسلام، وألَّف بين قلوبكم !! ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ**﴾ هؤلاء المفسدون

---

(١) هكذا فسَّرها ابن جرير ، والأرجح ما قاله في التسهيل أن معنى « فَأَوْلَى لَهُمْ » فويلٌ لهم ، فهي كلمة تستعمل للدعاء والتهديد ، كقوله تعالى « أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » وجملة « طاعةٌ وقولٌ معروفٌ » جملة مستأنفة حُذف منها الخبر ، والتقدير : طاعةٌ منهم لك يا محمد ، وقول جميلٌ طيِّب ، خيرٌ لهم عند الله وأفضل وأحسن ، وهو اختيار الإمام الرازي ، وانظر صفوة التفاسير ٣ / ٢١١

ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ
سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾

* * *

الذين طردهم الله من رحمته ﴿ **فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ** ﴾ فسلبهم فهم ما يسمعون بآذانهم من مواعظ الله ، وسلبهم عقولهم فلا يتبيَّنون حجج الله ، ولا يتذكرون عِبَره وأدلته ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ أفلا يتدبر المنافقون مواعظ الله في آي القرآن ، ويتفكرون في حججه ، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون ؟ ! ﴿ **أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ أم أقفل الله على قلوبهم، فلا يعقلون المواعظ والعبر؟! ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ** ﴾ إن الذين رجعوا على أعقابهم ، كفاراً بالله ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى** ﴾ من بعد ما عرفوا واضح الحجة ، ثم آثروا الضلال على الهدى ، عناداً لأمر الله تعالى ، وهم المنافقون ﴿ **الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ** ﴾ الشيطان زيَّن لهم الارتداد على أدرباهم ﴿ **وَأَمْلَى لَهُمْ** ﴾ ومدَّ الله لهم في آجالهم مدة من الدهر[1] ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ** ﴾ لم يُوفقوا للهدى ، من أجل أنهم قالوا للمنافقين للذين كرهوا ما نزَّل الله من الأمر بقتال أهل الشرك ﴿ **سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ** ﴾ سنطيعكم في بعض الأمر الذي هو خلاف أمرِ الله تبارك وتعالى ، وأمرِ رسوله ﷺ ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** ﴾ والله يعلم إسرار هذين الحزبين من أهل النفاق ، إذ يتسارُّون فيما بينهم ، بالكفر بالله ومعصية الرسول ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** ﴾ فكيف لا يعلم حالهم إذا توفتهم الملائكة ، وهم يضربون وجوههم وأعجازهم!! ، فحالُهم أيضاً لا يخفى عليه في ذلك الوقت[2] ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ** ﴾ ذلك العذاب للمنافقين ، من أجل أنهم اتَّبعوا ما أغضب الله عليهم ، من طاعة الشيطان ﴿ **وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ** ﴾ وكرهوا ما يرضيه عنهم ، من قتال الكفار ﴿ **فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ فأبطل الله ثواب أعمالهم ، لأنها عُملت في غير رضاه ، فلم تنفع عاملها .

﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ أحسب المنافقون الذين في قلوبهم شكٌّ في دينهم ،

---

(١) هكذا اختار الإمام ابن جرير أن فاعل « سوَّل » هو الشيطان ، وفاعل « أملى » هو الله تعالى ، بينما اختار الإمام ابن كثير أن الشيطان هو الفاعل في الفعلين ، فقال : (أملى لهم) أي غرهم وخدعهم ، وهو الأظهر والله أعلم .

(٢) قال الإمام ابن كثير :أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصت الأرواح في أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف ، والقهر ، والضرب! هـ المختصر ٣ /٣٣٦ .

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ
حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟
ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ
مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾

* * *

وضعفٌ في يقينهم ، فهم حيارى في معرفة الحق ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ أن لن يخرج الله ما في قلوبهم من الأضغان ـ الأحقاد ـ على المؤمنين ، فيظهره لهم حتى يعرفوا نفاقهم !! ، ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ ولو نشاء يا محمد لعرَّفناك هؤلاء المنافقين ، حتى تعرفهم ، وستعرفهم بعلامات النفاق الظاهرة منهم ، في فحوى كلامهم ، وظاهر أفعالهم[1] ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ ولتعرفنَّ المنافقين في فحوى قولهم ﴿ واللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ لا يخفى عليه العامل منكم بطاعته ، والمخالف ذلك ، وهو مجازيكم عليها ﴿ولنبلونكم﴾ ولنختبرنكم أيها المؤمنون ، بالقتل ،وجهادِ أعداء الله ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ حتى يعلم حزبي وأوليائي[2] ، أهل الجهاد منكم وأهل الصبر على القتال ، فيظهر ذلك لهم ، ويعرفوا أهل الإيمان من أهل النفاق ﴿ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ ونختبر أعمالكم فنعرف الصادق منكم من الكاذب ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدُّوا الناس عن دينه ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾ وخالفوا رسوله محمداً ﷺ فحاربوه وآذوه ، من بعدما علموا أنه رسولٌ مرسل ، وعرفوا الطريق الواضح ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً ﴾ لن يضروا الله بكفرهم لأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وسيذهب أعمالهم التي عملوها في الدنيا ويبطلها ، فلا تنفعهم شيئاً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، في أمرهما ونهيهما ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ولا تبطلوا بكفركم بربكم ثواب أعمالكم ، فإن الكفر بالله يحبط العمل الصالح ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن الذين أنكروا توحيد الله ، وصدوا من أراد الإيمان بالله وبرسوله عن ذلك ، ففتنوهم عنه ﴿ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ثم ماتوا وهم على ذلك من كفرهم ﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ فلن يعفو الله عما صنعوا ، بل يعاقبهم

---

(١) قال المفسرون : لم يتكلم بعد نزول هذه الآيات منافقٌ إلاّ عرفه ﷺ .

(٢) إنما فسَّره الإمام الطبري بذلك لأن الله تعالى عالمٌ بالسرائر والضمائر ، يعلم ما سيفعله العباد قبل أن يحصل منهم ، ولهذا قال المفسرون : المراد بعلمه تعالى « علم ظهور » للعباد لا علم بداء ، لأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها .

فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟
وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا
يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

* * *

ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ فلا تضعفوا أيها المؤمنون عن جهاد المشركين ، وتجبنوا عن قتالهم ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة[1] ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ وأنتم القاهرون لهم ، والعالون عليهم ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ بالنصر لكم عليهم ﴿ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ولن يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها ﴿ إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ قاتلوا المشركين ولا تَدْعُكم الرغبة في الحياة إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، يضمحل فيذهب ويندرس ، أو إثمٌ يبقى على صاحبه عارُه وخزيُه ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا ﴾ وإن تؤمنوا بالله ، وتتقوه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ يعوضكم ربكم ما هو خيرٌ لكم منه ، يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ولا يسألكم ربكم إنفاق جميع أموالكم ، ولكنه يكلفكم توحيده وطاعته ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾ إن يسألكم ربكم أموالكم ، فيُجهدكم بالمسألة ، تبخلوا بها وتمنعوها ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ ويخرج ما في نفوسكم من الأضغان[2] ـ الكراهية ـ ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ها أنتم أيها الناس تُدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ، ونصرة دينه ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فمنكم من يبخل بالنفقة ، ومن يبخل بالنفقة في سبيل الله ، فإنما يبخل عن بخل نفسه[3] ، لأن نفسه كانت تجود بها ﴿ وَاللَّهُ الغَنِيُّ ﴾ ولا حاجة لله إلى أموالكم ، لأنه الغني عن خلقه ﴿ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ ﴾ والخلق هم الفقراء إليه ، وإنما حضَّكم على النفقة ، ليكسبكم الجزيل من ثوابه ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ وإن تتولوا عن هذا الدين يهلككم ، ثم يجيء بقوم آخرين بدلاً منكم ، يعملون بشرائعه ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ يكونون خيراً منكم ، فلا يُضيِّعون شيئاً من حدود دينهم ، بل يقومون بكل ما يُؤمرون .

---

(١) وما يدعوا به بعضُ الحكام من الصُّلح مع اليهود الغاصبين لأرض الله ـ بيت المقدس ـ فلأنهم لم يقرأوا كتاب الله ، ولم يكن الله معهم فيوفقهم ويسددهم ، بل كان الشيطان يزين لهم أعمالهم ، ويحسِّنها في قلوبهم ، فالمؤمن له العزة وله السيادة في الأرض ، وهو الأعلى والله عونه بنص القرآن ﴿وأنتم الأعلون والله معكم﴾ فكيف يقبل لنفسه الذل والهوان ، ويلقي بنفسه في أحضان اليهود ؟ ! اللهم ألطف بالمسلمين وردهم إلى دينهم رداً جميلاً (٢) المراد بالأضغان هنا : البخل وكراهية الإنفاق .

(٣) وقيل المعنى: ومن بخل عن الإنفاق في سبيل الله ، فإنما يعود ضرر بخله على نفسه ، لأنه يمنعها الأجر والثواب ، وهذا المعنى أظهر مما فسره به الطبري .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

* * *

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ إنا حكمنا لك يا محمد ، وقضينا لك بالنصر والظفر على كفار قومك ، فتحاً ظاهراً بيِّناً ، والمراد به « صلح الحديبية »[1] ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ لتسبِّح ربك وتستغفره ، وتشكره ، فيغفر لك ما تقدم من ذنبك قبل الفتح ، وما تأخر بعد الفتح ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ ويتم عليك نعمته بإظهارك على عدوك ، ورفعه ذكرك في الدنيا ، وغفرانه ذنوبك في الآخرة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ ويرشدك طريقاً من الدين لا اعوجاج فيه ، يستقيم بك إلى رضا ربك ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ وينصرك على سائر أعدائك ، نصراً لا يغلبه غالب ، بالظفر الذي يمدُّك به ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الله أنزل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين ، إلى الحق الذي بعثك الله به يا محمد ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ ليزدادوا بتصديقهم ـ بما جدَّد الله من الفرائض ـ إيماناً مع إيمانهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولله جنود السموات والأرض أنصارٌ ، ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً

(١) هكذا رجح الإمام الطبري أن المراد بالفتح « صلح الحديبية » وهو ما اختاره أيضاً ابن كثير ، لما ترتب عليه من الآثار العظيمة ، من بيعة الرضوان ، ومن الهدنة بينه وبين المشركين ، ومن دخول كثير من الناس في الإسلام ، وذهب بعض المفسرين إلى أنه « فتح مكة » لأنه هو الفتح الأكبر ، وأن المعنى سنفتح لك يا محمد فتحاً مبيناً ، بانتصارك على الكفار بـ « فتح مكة » فهو وعدٌ له ﷺ بالفتح ، جيء به بلفظ الماضي لتحقق وقوعه ، على عادة الرب جل وعلا في الإخبار عن الأمور المستقبلة المتحقق وقوعها ، بالخبر الماضي المقطوع به كقوله تعالى عن الساعة ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ وهذا اختيار جمهور المفسرين والله أعلم .

لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ
ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ

* * *

﴿حَكِيماً﴾ ولم يزل الله عالماً بخلقه ، حكيماً في تدبيره ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ليشكر المؤمنون ربهم على إنعامه عليهم ، فيدخلهم بذلك بساتين تجري من تحت غرفها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها إلى غير نهاية ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وليكفر عنهم سَيِّىءأعمالهم ، بالحسنات التي يعملونها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ وكان ما وعدهم الله به ـ بإدخالهم الجنة ـ ظفراً عظيماً بما كانوا يأملون ، ونجاة مما كانوا يحذرون ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وليعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين كذلك والمشركات ، بفتح الله لك يا محمد ما فتح ، ونصرك على مشركي قريش ، فيكبتهم ويخيّب رجاءهم ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الظانين بالله الظنَّ السيىء ، بأن الله لن ينصر رسوله ، ولن يُظهر كلمته ، فيجعلها العليا على كلمة الكافرين ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ على المنافقين والمشركين تدور دائرة العذاب ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ونالهم الله بغضب منه ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ وأعدَّ الله لهم نار جهنم ، يصلونها يوم القيامة ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ وساءت جهنم منزلاً ، يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولله جميع جنود السموات والأرض أنصارٌ على أعدائه ، إن أمرهم بإهلاكهم أهلكوهم ، طاعة منهم لربهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ ولم يزل الله ذا عزة ، لعظم سلطانه وقدرته ، وهو حكيم في تدبيره خلقه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على أمتك[1] ، بما أجابوك ممَّا أرسلتك به ﴿وَمُبَشِّراً﴾ تبشرهم بالجنة ، إن هم أطاعوك إلى الدين القيم ﴿وَنَذِيراً﴾ وتنذرهم عذاب الله ، إن هم تولوا عما جئتهم به ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لتصدقوا ـ أيها الناس ـ بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ

(١) الإمام ابن جرير خصَّ الشهادة بأمة محمد ﷺ ، والأولى جعلها على العموم فيكون المعنى : إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على الخلق يوم القيامة ، ومبشراً للمؤمنين بالجنة ، ومنذراً للكافرين من عذاب النار .

وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾

* * *

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتُعظِّموه ، وتُجلُّوه[1] ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ وتسبحوا ربكم صباحاً ومساءً ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ إن الذين يبايعونك يا محمد بالحديبية من أصحابك ، إنما يبايعون الله ببيعتهم لك ، لأن الله ضمن لهم الجنة بوفائهم ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ عند البيعة[2] ، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيّه ﷺ ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فمن نقض بيعته ، وخالف ما وعد ربه ، فلم يضرَّ بنقضِه البيعة غير نفسه ، لأنه بفعله يخرج من وعد الله له بالجنة ، فأما رسول الله ﷺ فإن الله تعالى ناصرُه على أعدائه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ ومن أوفى بما عاهد الله عليه ، من الصبر عند لقاء العدو ، ونصره نبيه ﷺ على أعدائه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ فسيعطيه الله ثواباً عظيماً وهو الجنة ، جزاءَ وفائه بعهده .

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ سيقول لك يا محمد ، الذين تخلفوا عن صحبتك والخروج معك إلى مكة ، إذا عاتبتهم على التخلف عنك ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ شغلتنا على الخروج معك ، إصلاح أموالنا ومعايشنا ، وشُغلنا بالأولاد فاستغفر لنا ربنا ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يقول هؤلاء المتخلفون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، بغير توبة منهم ولا ندم ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ قل يا محمد لهؤلاء الأعراب : من ذا الذي يقدر على دفع ما أراد الله بكم من خير أو شر ، إن أراد الله هلاككم ، أو هلاك أموالكم وأهليكم ، أو أراد إصلاحها لكم ؟ ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ يعلم ما تعملون من خير وشر ، لا يخفى عليه

(١) الضمير على القول الراجح يعود على الرسول والمعنى لتعظموا وتفخّموا رسولكم محمداً ﷺ ، وتحترموا وتُجلُّوا أمره غاية الإجلال والإعظام ، وأما قوله تعالى ﴿وتسبحوه﴾ فالضمير يعود على الله عز وجل باتفاق أي ولتسبحوا الله بكرةً وأصيلاً ، فتنبَّه له.

(٢) في هذا تشريف عظيم للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله ، لأن الرسول سفير معبِّر عن الله والمراد بالبيعة « بيعة الرضوان » بالحديبية ، حين بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت كما روى البخاري ومسلم عن مسلمة بن الأكوع قال : «بايعنا رسول الله ﷺ على الموت» ، قال الطبري وفي قوله تعالى : ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ وجهان من التأويل : أحدهما : يد الله فوق أيديهم عند البيعة ، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ والآخر : قوةُ الله فوق قوتهم في نصرة رسوله ﷺ لأنهم بايعوا رسول الله على نصرته . ا هـ. وقال ابن كثير معنى الآية أنه تعالى حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ . ا هـ المختصر ٣٤٢/٣ .

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ
قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ
بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ

* * *

شيء من أعمال خلقه ، سرُّها وعلانيتها ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾ ما تخلفتم من أجل الأهل والأموال ، بل تخلفتم ظناً منكم أن رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه ، سيهلكونَ فلا يرجعون إليكم أبداً ، باستئصال العدو لهم ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وحسَّن الشيطان ذلك في قلوبكم ، حتى قعدتم عن صحبته ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوءِ﴾ وظننتم أن الله لن ينصر محمداً وأصحابه ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ وكنتم قوماً هلكى ، لا يصلحون لشيء من الخير ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ومن لم يصدِّق بالله ورسوله ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً﴾ فإنا أعددنا للجاحدين بربهم سعيراً ، توقد عليهم في جهنم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ولله سلطانُ السموات والأرض ، وهو القادر على تعذيب من شاء ، وعفوه عمن شاء ، لا أحد يقدر على دفع ما أراد ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ عفواً عن عقوبة التائبين، رحيماً بعباده أن يعاقبهم بعد توبتهم ، فبادروا إلى التوبة من تخلفكم ﴿سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ سيقول المخلفون عن صحبتك ، إذا انطلقت أنت وأصحابك إلى ما أفاء الله عليك من غنائم خيبر لتأخذوها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر فنشهد معكم قتال أهلها ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يريدون أن يغيِّروا وعد الله ، الذي وعد به أهل الحديبية ، بأن جعل غنائم خيبر لهم ، عوضاً من غنائم مكة . ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ قل لهم يا محمد : لن تتبعونا إلى خيبر ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ هكذا قال الله لنا ، من قبل مرجعنا إليكم ، أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ فسيقول المخلفون لكم : بل تحسدوننا أن نصيب معكم مغنماً ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ بل كانوا لا يفقهون من أمر الدين إلا يسيراً ، ولو عقلوا لما قالوا ذلك ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ قل يا محمد للمتخلِّفين من الأعراب عن المسير معك ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ

شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ * لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ
يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

* * *

﴿شَدِيدٍ﴾ سَتُدعون إلى قتال قوم ، أولي شدةٍ في القتال ، ونجدةٍ في الحروب[1] ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ تُقاتلونهم أو يُسلمون من غير حربٍ ولا قتال ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً﴾ فإن تطيعوا الله ، يعطكم على إجابتكم أجراً حسناً ، هو الجنة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ وإن تعصوا ربكم فتتركوا قتال من دُعيتم إلى قتالهم ، كما عصيتموه في أمره لكم بالمسير إلى مكة قبل ذلك ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعذبكم الله عذاباً وجيعاً ، على ترككم الجهاد مع المؤمنين .

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ليس على الأعمى ضيقٌ ، ولا على الأعرج ضيقٌ ، ولا على المريض ضيقٌ ، أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين ، للعلل التي بهم ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ومن يطع الله ورسوله ، فيجيب إلى القتال مع المؤمنين ، ابتغاء وجه الله تعالى ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يدخله الله يوم القيامة ، جناتٍ تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ ومن يعص الله ورسوله ، فيتخلف عن قتال أهل الشرك ، يعذبه الله عذاباً موجعاً في جهنم ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ لقد رضي الله عن أصحابك المؤمنين ، حين بايعوك يا محمد بالحديبية تحت الشجرة[2] ، على مناجزة قريشٍ الحربَ ، وعلى أن لا يفرُّوا ، ولا يولُّوهم الأدبار ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فعلم ربك ما في قلوب أصحابك ، من صدق النية ، والوفاء بالبيعة ، والصبر معك ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ فأنزل الطمأنينة والثبات على قلوبهم ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾

---

(١) هم بنو حنيفة ـ قومُ مسيلمة الكذاب ـ أصحاب الردة الذين ارتدوا عن الإسلام، وقيل : هم هوازن وثقيف، وقيل : هم فارس والروم ، واختار الطبري العموم ، لأن الله تعالى لم يذكر قوماً معيَّنِينَ ، فيحتمل ان يراد بهم الجميع والله أعلم .

(٢) كان سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ لما وصل الحديبية ، أرسل « عثمان بن عفان » إلى أهل مكة يخبرهم ان الرسول إنما جاء معتمراً ، وأنه لا يريد حرباً ، فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم ، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن عثمان قد قُتل ، فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة ، فبايعه المسلمون على الموت في سبيل الله ، وعلى أن يحاربوا قريشاً ويدخلوا مكة عنوة ، فكانت هذه البيعة في الحديبية تحت شجرة سمرة ، وسميت « بيعة الرضوان » فلما بلغ المشركين ذلك أخذهم الرعب فأطلقوا عثمان وطلبوا الصلح .

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ
أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾
سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

* * *

وعوَّضهم ـ عن غنائم أهل مكة ـ فتح « خيبر »[1] ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وجازاهم مع ما أكرمهم به من رضاه ، مغانم كثيرة يأخذونها ، من أموال يهود خيبر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ عزيزاً في انتقامه من أعدائه ، حكيماً في تدبيره خلقه ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وعدكم الله ـ أيها المؤمنون ـ الغنائم الكثيرة التي ستأتيكم من المشركين ـ هوازن ، وغطفان ، وفارس ، والروم ـ وغيرهم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ فعجَّل لكم مغانم « خيبر » ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ وكفَّ الله أيدي المشركين عن المدينة المنورة ، حين سار المسلمون إلى الحديبية وإلى خيبر ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليكون كفُّه أيديهم عن عيالكم ، آيةً وعبرةً للمؤمنين ، فيعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم ، بالحفظ وحسن الولاية ، ما كانوا مقيمين على طاعته تعالى ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ ويُسدِّدكم ـ أيها المؤمنون ـ طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ ووعدكم ربكم « فتح مكة » التي لم تقدروا على فتحها ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قد أحاط الله بها وبأهلها ، حتى يفتحها لكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ لا يتعذر عليه شيءٌ أراده ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ﴾ ولو قاتلكم أيها المؤمنون الكفار بمكة ، لانهزموا عنكم فولوكم الأدبار ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ ثم لا يجد هؤلاء الكفار من ينصرهم عليكم ، لأن الله تعالى معكم ، ولن يُغلب حزبُ اللهُ ناصرُه ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ سننتُ فيهم الهزيمة والخذلان ، سنة أمثالهم من أهل الكفر ، الذين قاتلوا أولياء الله ، من الأمم الذين مضوْا قبلهم ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ ولن تجد يا محمد ، لسنة الله التي سنَّها في خلقه تغييراً ، بل ذلك دائم لا يتبدَّل ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ الله الذي كفَّ أيدي هؤلاء المشركين ، الذين خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا منهم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وكفَّ أيديكم عنهم بالحديبية ، فلم تقتلوهم ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ من بعد أن أخذتموهم أسارى وتمكنتم منهم ، فمَنَّ الرسول ﷺ

(١) الصحيح كما قال الطبري هي غنائم خيبر ، لأنها هي التي كانت بعد صلح الحديبية ، والله تعالى يقول ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ وأما فتح مكة فقد كان بعد مدة طويلة والله أعلم .

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ
لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

* * *

عليهم ولم يقتلهم[١] ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ هؤلاء المشركون من قريش هم الذين جحدوا توحيد الله ، وصدُّوكم ـ أيها المؤمنون ـ عن دخول المسجد الحرام ، وصدُّوا الهدي[٢] محبوساً من دخول الحرم ، الذي يحل فيه نحره . ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ ولولا رجال من أهل الإيمان ، ونساء منهم ، ـ لم تعلموهم بمكة ـ وقد حبسهم المشركون بها ، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ فتصيبكم منهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أن تطؤوهم بخيلكم ورجلكم وتقتلوهم ، فيلزمكم بذلك كفارة « قتل الخطأ » بغير علم منكم ، لأذن لكم أيها المؤمنون في دخول مكة[٣] ، ولكنه حال بينكم وبين ذلك ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ لو تميز المؤمنون عن مشركي مكة ، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم ، لقتلنا من بقي فيها بالسيف ، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ﴾ حين جعلوا الذين كفروا في قلوبهم الحمية ، فامتنعوا أن يكتبوا في كتاب الصلح « بسم الله الرحمن الرحيم » ورفضوا أن يكتبوا فيه « محمد رسول الله » ومنعوا الرسول من دخول مكة ذلك العام ﴿حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ﴾ وفعلهم هذا من أخلاق أهل الكفر ، وهو من العصبية الجاهلية ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزل الله الصبر والطمأنينة والوقار ، على رسوله وعلى المؤمنين ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى﴾ وألزمهم قول « لا إله إلا الله » التي يتقون بها النار ، وأليم العذاب ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا

---

(١) روي أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين بالحديبية ليصيبوا منهم ، فأُخذوا وأُتي بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلى سبيلهم ، فكان ذلك سبب الصلح ، وفيهم نزلت الآية الكريمة .

(٢) كان ﷺ قد ساق معه حين خرج إلى مكة معتمراً في سفرته تلك سبعين بدنة .

(٣) أشار الإمام ابن جرير إلى أن جواب « لو » محذوف ، حُذف لدلالة الكلام عليه وتقديره : لأذن لكم بدخول مكة ومعنى الآية : لولا أولئك المؤمنون المستضعفون الذين يخفون إيمانهم خوفاً من المشركين أن تقتلوهم فيصيبكم بسبب قتلهم إثم وذنب ، دون علم منكم بإيمانهم ، لأذن لكم في دخول مكة ، ولسلطكم على المشركين .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى

* * *

﴿وَأَهْلَهَا﴾ وكان رسول الله ﷺ والمؤمنون ، أهل كلمة التقوى، وأحقَّ بها من المشركين ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ ذا علم لا يخفى عليه شيء ممَّا هو كائن ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ لقد صدق الله رسوله محمداً ﷺ رؤ ياه التي أراها إياه[1] ، أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام ، لا يخافون أهل الشرك ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ مقصِّراً بعضكم رأسه ، ومحلِّقاً بعضكم رأسه ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ لا تخافون المشركين ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ فعلم الله ـ جل ثناؤه ـ بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين ، الذين لم يعلمهم المؤمنون ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ فجعل من دون تصديقه رؤ يا رسول الله ﷺ « صلح الحديبية » و« فتح خيبر » ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ﴾ الله الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالبيان الواضح ، ودين الإسلام وهو الدين الحق الذي أرسله داعياً إليه ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليبطل به الملل كلها ، حتى لا يكون دينٌ سواه ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها[2] ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ وحسبك بالله شاهداً ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ محمدٌ رسول الله ، وأصحابه الذين هم معه على دينه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ﴾ غليظة قلوبهم على الكفار ، قليلة بهم رحمتهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ رقيقة قلوب بعضهم لبعض ، هينة عليهم ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ تراهم في صلاتهم لله ركعاً أحياناً ، وسجداً أحياناً ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ﴾ يلتمسون بركوعهم وسجودهم فضل الله ورحمته ، بأن يتفضل عليهم فيدخلهم جنته ﴿وَرِضْوَاناً﴾ وأن يرضى عنهم ربهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ علامتهم في وجوههم من أثر السجود في الصلاة ،

---

(١) كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه ـ وهو بالمدينة المنورة ـ أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت آمنين مطمئنين ، ثم حلقوا وقصَّروا ، فحدَّث بذلك أصحابه ففرحوا واستبشروا فلما خرج معتمراً يريد مكة ، وصدَّه المشركون ووقع صلح الحديبية ، ارتاب المنافقون فقالوا : والله ما رأينا البيت ولا حلقنا ولا قصَّرنا ، فنزلت الآية .

(٢) ويبقى هذا الوعدِ من الله تعالى ، أملَ المسلمين في كل عصرٍ ومصر ، ومسؤوليتهم حتى يبلّغوا دعوة الله تعالى إلى جميع الناس ، ويلتزموا في أنفسهم تقواه ، حتى ينصرهم ويعزهم، ويثبت أقدامهم في الأرض ، ويكونوا جند الله يحقق بهم وعده ، نسأله تعالى أن يجعلنا من جنده ، وينصرنا ويعزنا على عدونا وعدوه .

ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِى ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾

* * *

وذلك في الدنيا الخشوعُ والزهدُ ، وهديُ الإسلام وسمْتُه ، وفي الآخرة التحجيلُ وبياضُ الوجوه من أثر السجود ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ هذه الصفة صفتهم في التوراة ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ وصفتهم في إنجيل « عيسى » كصفة زرعٍ أخرج أفراخه، فنما وكثر وازداد ﴿فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ﴾ فقوّى الزرعَ أفراخُه وشدَّه وأعانه ، فغلظ الزرع ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فقام الزرع واستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يعجب الزراع من كثرته ، وحسن نباته ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ليغيظ الله بهم الكفار ، فكذلك مثل محمد ﷺ وأصحابه ، اجتمعوا حتى كثروا ، ونموا ، وغلظ أمرهم كهذا الزرع[1] ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم ربهم به، من الداخلين في الإسلام إلى يوم القيامة ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ عفواً عما مضى من ذنوبهم ، وثواباً جزيلاً ، هو الجنة .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح »

* * *

(١) هذا مثلٌ في غاية الروعة والبيان ، ضربه الله عز وجل لمحمد ﷺ وأصحابه ، فالزرع محمد ﷺ ، والشطأ أصحابه ، كانوا قليلين فكثروا ، وضعفاء فقووا ، وحين بدأ صلوات الله عليه بالدعوة كان وحيداً ، فأجابه الواحد بعد الواحد ، حتى قوي أمره واشتدَّ كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً ، فيقوى شيئاً بعد شيء ، حتى يغلظ نباته وأفراخه ، فيصبح قد ازدهر واشتد واستقام ويا له من مثل رائع ؟!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ
لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم
مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يا أيها الذين أقروا بوحدانية الله ، وبنبوّة محمد ﷺ ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لا تعجلوا بقضاء أمرٍ في حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا الله في قولكم ـ أيها المؤمنون ـ وراقبوه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميعٌ لما تقولون ، عليمٌ بما تريدون ، لا يخفى عليه شيء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله ، ولا تُغلظوا له في الخطاب ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً[1] يا محمد، يا محمد ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ مخافة أن تحبط أعمالكم ، فتذهب باطلة برفعكم أصواتكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وأنتم لا تدرون ولا تعلمون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إن الذين يكفُّون رفع أصواتهم عند رسول الله أي يخفضونها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ هؤلاء هم الذين اختبر الله قلوبهم، فأخلصها للتقوى، بأداء طاعته، واجتناب معاصيه ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لهم من الله عفوٌ عن ذنوبهم، وصفحٌ عنها ،

(١) روي أن بعض الأعراب الجفاة جاءوا إلى حجرات أزواج النبي ﷺ ، فجعلوا ينادونه يا محمد، يا محمد أخرجْ إلينا . . فنزلت الآية .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾

* * *

وثوابٌ جزيل هو الجنة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إن الذين ينادونك يامحمد من وراء حجراتك ،أكثرهم جهَّالٌ بدين الله ، واللازم لهم من حقِّك وتعظيمك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ ولو أن هؤلاء الأعراب الجفاة صبروا ، فلم ينادوك حتى خرجت إليهم، لكان خيراً لهم عند الله ، لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفورٌ لمن تاب ورجع إلى أمر الله، رحيمٌ به أن يعاقبه بعد توبته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، إن جاءكم فاسقٌ بخبرٍ فتثبَّتوا[1] ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾ لئلا تصيبوا قوماً برآء قُذفوا بجناية ، بجهالةٍ منكم ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ فتندموا على إصابتكم لهم بالجناية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ واعلموا ـ أيها المؤمنون ـ أن فيكم رسولالله ،يُعرِّفه الله أنباءكم فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّم﴾ لو كان الرسول يعمل بآرائكم، ويقبل منكم ما تقولون لَنالكم بذلك الشدَّة والمشقةُ، في كثير من الأمور ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ ولكنَّ الله حبَّب إليكم الإيمان بالله ورسوله، فأنتم تطيعون رسوله ، وتأتَمُّون به ، فيقيكم الله بذلك من المشقة ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وحسَّن الإيمان في قلوبكم، فآمنتم ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ﴾ وبغَّض إليكم الكفر بالله ، والكذبَ ، وركوب ما نهى الله عنه ، وتضييعَ ما أمر الله به ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ هؤلاء هم السالكون طريق الحق ﴿فَضْلاً مِنَ اللَّهِ ونعمةً﴾ فضلاً ، وإحساناً، ونعمةً من الله أنعمها عليكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عالمٌ بالمحسن منكم والمسيء ، ومن هو لنعم الله وفضله أهلٌ ، حكيمٌ في تدبير خلقه

(١) ذكر المفسرون أن النبي ﷺ بعث «الوليد بن عقبة» إلى الحارث بن ضرار ليقبض ما كان عنده من الزكاة التي جمعها من قومه ، فلما سار الوليد واقترب منهم خاف وفزع، فرجع إلى رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله إنهم منعوا الزكاة وهمُّوا بقتلي ، فأشار بعض الصحابة إلى الخروج لقتالهم فنزلت الآية

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى
حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ

* * *

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وإن جماعتان من أهل الإيمان اقتتلوا[١] ، فأصلحوا ـ أيها المؤمنون ـ بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ فإن أبت إحدى الطائفتين ، الإجابة إلى حكم الله، وتعدت ما جعل الله عدلاً بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ فقاتلوا التي تعتدي ، وتأبى الإجابة إلى حكم الله ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ حتى ترجع إلى حكم الله ، الذي حكم به في كتابه بين خلقه ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ فإن رجعت الطائفة الباغية، إلى الرضا بحكم الله، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى، بالإنصاف بينهما والعدل ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ واعدلوا في حكمكم بين من حكمتم بينهم ، إن الله يحب العادلين[٢] في أحكامهم ، القاضين بين خلقه بالعدل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إنما المؤمنون إخوةٌ في الدين ، فأصلحوا بين أخويكم إذا اقتتلا ، بأن تحملوهما على حكم الله ، وحكم رسوله ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ليرحمكم ربكم ، فيصفح عن سالف إجرامكم، إذا أنتم أطعتموه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين ، عسى أن يكون المهزوء منهم خيراً من الهازئين ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ ولا يهزأ نساءٌ مؤمنات من نساءٍ مؤمنات ، عسى أن يكون المهزوء منهنَّ خيراً من الهازئات ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ولا يغتب

(١) روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قيل للنبي ﷺ لو أتيتَ «عبدالله بن أبي بن سلول»ـ وهو رأس المنافقين ـ فانطلق إليه وركب حماراً ، وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما آتاه النبي ﷺ قال له : إليك عنيّ ـ أي تنحَّ وابتعدْ عني ـ فواللّهِ لقد آذاني نتنُ حمارك ، فقال رجلٌ من الأنصار : واللّهِ لحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحاً منك !! فغضب لعبد الله بن سلول رجلٌ من قومه ، وغضب للأنصاري آخرون من قومه ، فكان بينهم ضربٌ بالأيدي والجريد والنعال ، فأنزل الله ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما..﴾ الآية.

(٢) الله تبارك وتعالى قال «وأقسطُوا إن الله يحب المُقْسطين» ولم يقل : يحب القاسطين لأن «المقسط» اسم فاعل بمعنى العادل، وماضيه أقسط أي عدل، وأما «القاسط» فهو الظالم الجائر﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ وماضيه قسط بمعنى ظلم .

بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ
أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ

* * *

بعضكم بعضاً[١]، ولا يطعن على بعض ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ولا تدعوا إخوانكم بالألقاب البذيئة ، بما يكرهون مِنْ اسم أو صفة[٢] ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ ومن سخر من المؤمنين ، أو لمز أخاه المؤمن ، فهو فاسقٌ ، فلا تفعلوا ما تستحقوا أن تُسموا به فُسَّاقاً[٣] ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ومن لم يتب من معصيته وسخريته، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم ، فأكسبوها عقاب الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، لا تقربوا كثيراً من الظن السيء بالمؤمنين ، فتظنُّوا بهم سوءاً ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إن ظنكم بالمؤمن الشرَّ إثمٌ، لأن الله قد نهاكم عنه ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ ولا تقل في أخيك بظهر الغيب ما يكرهه[٤] ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتاً؟ فإذا لم تحبوا ذلك وكرهتموه، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه، فاكرهوا غيبته حياً ، كما كرهتم لحمه ميتاً[٥] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا عقوبة الله ، بانتهائكم عما نهاكم عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ إن الله راجع على عبده بما يحبه ، رحيمٌ به أن يعاقبه بعد توبته ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) إنما قال﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ فجعل الطاعن على أخيه طاعناً نفسه، لينبهنا إلى أن المسلمين كرجل واحد، فيما يلزم بعضهم لبعض ، من إصلاح أمره ، وطلب نفعه ، ومحبته الخير له، كما قال ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد.. » الحديث .

(٢) قال قتادة : لا تقل لأخيك المسلم: يا فاسقُ ، يا منافق، وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عصى ثم تاب، فتعيرّه بما سلف من عمله ، واختار الطبري أن اللفظ على العموم وهو أن يدعو الإنسان صاحبه بما يكرهه من اسم وصفةأقول: هذا كقولك لشخص يا قصير ، يا بليد، أو هذا فاسق منافق أو انظر إلى هذا الأشيمط أو إلى هذا القرد . . الخ

(٣) معنى الآية : بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن كان مؤمناً صالحاً ، فدل على أن التنابز بالألقاب ، يخرج الإنسان من دائرة الإيمان ، إلى دائرة الفسق والعصيان .

(٤)في الحديث الصحيح «إذا ذكرت أخاك بما يكره ، فإن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه» أي كذبت عليه وقذفته بما هو بريء منه وهو البهتان.

(٥) انظر إلى هذا التمثيل المفزع، الذي فاق في أسلوبه وبيانه كل تصوير وبيان، فقد مثّل لقبح الغيبة وشناعتها بمن جلس أمام جثة أخيه الميت ينهش منها ، فقد صوّره بما ينفر منه الطبع ، أولاً أنه لحم إنسان لا لحم حيوان، وثانياً : أن هذا الإنسان الذي ينهشه هو أخ له، وثالثاً : أن هذا اللحم لحم ميت ، ويا له من تمثيل فظيع يقطع أعناق المغتابين !!

شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ
وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾

* * *

إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى أنشأنا خلقكم من ماء ذكرٍ وماء أنثى **﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ﴾** وجعلناكم من بطونٍ بعيدة وهي الشعوب، ومن أفخاذٍ قريبة وهي القبائل، كما يُقال: هو من مضر، أو ربيعة ، وهو من قبيلة كذا **﴿لِتَعَارَفُوا﴾** ليعرف بعضكم بعضاً في النسب ، والقرابة **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** إن أكرمكم عند الله ، أشدكم اتقاءً لله بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لا أعظمكم بيتاً ، ولا أكثركم عشيرة **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** عليمٌ بأتقاكم وبأكرمكم عنده ، خبيرٌ بكم وبمصالحكم ، لا تخفى عليه خافية .

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قالت الأعراب صدَّقنا بالله ورسوله ، فنحنُ مؤمنون **﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾** قل لهم يا محمد : لستم بمؤمنين حقيقة ، فلا تقولوا : آمنا ، ولكنْ قولوا : أسلمنا ، لأن الإسلام قولٌ ، والإيمان قولٌ وعملٌ[1] **﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** ولمَّا يدخل العلم بشرائع الإيمان ، وحقائق معانيه في قلوبكم **﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** وإن تطيعوا الله ورسوله ـ أيها الأعرابُ ـ فتأتمروا بأمره ، وتنتهوا عما نهاكم عنه **﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾** لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً ، ولا يُنقصكم من ثوابها شيئاً **﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** غفور لمن تاب من سالف ذنبه وأطاع الله ، رحيم بخلقه أن يعاقبهم بعد توبتهم **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** إنما المؤمنون ـ الكُمَّل ـ الذين صدَّقوا الله ورسوله **﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾** ثم لم يشكُّوا في وحدانية الله ، ولا في نبوة محمد ﷺ، ولا في فرائض الله **﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** وجاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم ، وبذل مهجهم ، في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا **﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾** هؤلاء هم الصادقون في قولهم : إنا مؤمنون ، لا من دخل في الملَّة

(١) هؤلاء قوم من الأعراب، قدموا المدينة في سنة مجدبـة، وامتنوا على الرسول ﷺ بإسلامهم فقالوا: يا رسول الله جئناك مؤمنين ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، وأخذوا يمتنون عليه بالإيمان وعدم القتال فنزلت الآية، وقد دلت الآية الكريمة على أن الإيمان أعلى مرتبة من الإسلام . . لأن الإيمان اعتقادٌ ، وقولٌ ، وعملٌ ، والإسلام هو الاستسلام والانقياد بالظاهر ، فأدبهم الله عز وجل ونبَّههم إلى أن المؤمن الحقيقي هو من صدَّق إيمانه بعمله ، لا من انتحل الإيمان بالكلام ، وامتن بإيمانه على الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا وردت بعدها الآية ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ .

﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ
أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

* * *

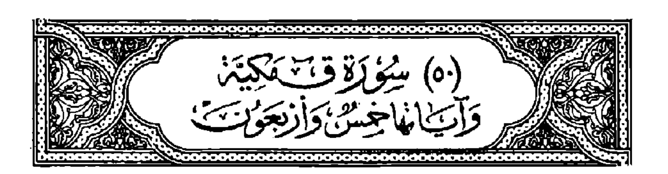
خوف السيف ، ليحقن دمَه ومالَه ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الأعراب: أتعلمون الله أيها القوم بدينكم،وبطاعتكم لربكم[1]؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ والله علاَّمُ الغيوب ، يعلم جميع ما في السموات والأرضين، لا يخفي عليه شيء ، فكيف تُعلِّمونه بدينكم ؟ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عالمٌ بكل ما كان ، وما هو كائن، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما في ضمائركم، فينالكم عقوبته ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَتَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ﴾ يمن عليك هؤلاء الأعراب يا محمد بأن أسلموا، فقل لهم : لا تمنُّوا عليَّ إسلامكم ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ بل الله يمنُّ عليكم ـ أيها القومُ ـ أن وفَّقكم للإيمان به وبرسوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم آمنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إن الله يعلم ما غاب عنكم في خبايا السموات والأرض ، لا يخفى عليه الصادق من الكاذب، يعلم ما تكنُّه صدوركم، وتحدِّثون به أنفسكم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بصيرٌ بأعمالكم التي تعملونها جهراً أم سراً ، وهو مجازيكم على جميع ذلك .

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»

* * *

---

(١) الاستفهام في الآية ﴿أتُعلِّمونَ اللَّهَ بدينِكُمْ﴾؟ للإنكار والتوبيخ ، ومعنى الآية : أتخبرون اللَّهَ بما في ضمائركم وقلوبكم من الإيمان والطاعة ، والله هو العالم بكل ما في الكون ، لا تخفى عليه خافية !!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن

* * *

﴿قٓ﴾ قال بعضهم هو اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ، وقال آخرون : هو اسمٌ من أسماء القرآن[1]﴿والقرآنِ المجيدِ﴾ والقرآن الكريم ﴿ بل عَجِبُوا أن جاءَهُم مُنْذِرٌ منهم﴾ كذبوك تعجباً من أن جاءهم منذرٌ، ينذرهم عقاب الله ، وهو بشرٌ من بني آدم ، ولم يأتهم مَلَكٌ برسالة من عند الله ﴿فقال الكافِرُونَ هذا شيء عجيب﴾ فقال المكذبون من قريش : مجيءُ رجلٍ من بني آدم برسالةٍ من الله شيءٌ يدعو للعجب، فهلاَّ أُنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيراً !؟ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُراباً﴾ قالوا أئذا متنا وكنا تراباً نرى ما تعدنا على تكذيبك ؟! **قال الضحاك** : قالوا : كيف يحيينا اللَّهُ وقد صرنا عظاماً ورفاتاً ؟ ﴿ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ذلك غير كائن، ولسنا راجعين أحياء بعد مماتنا ﴿قد عَلِمْنَا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسامهم بعد مماتهم[2] ﴿وَعِنْدَنا كتاب حَفِيظٌ﴾ وعندنا كتابٌ مكتوب فيه ما تُفني الأرضُ من أجسادهم ، حافظٌ لذلك كلِّه ، لا يتغيَّر ولا يتبدَّل ﴿بَل كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بل كذبوا بالقرآن لما جاءهم من الله ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ فهم في أمر مختلط ملتبس ، لا يعرفون حقَّه من باطله ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ

---

(١) تقدم معنا القول الراجح في أوائل السور أنها لبيان إعجاز القرآن، فهذا الكتاب العجيب المعجز، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وهو قول المحققين من أئمة التفسير .

(٢) قال ابن عباس : قد علمنا ما تأكل الأرض من لحومهم، وأبشارهم، وعظامهم ، وأشعارهم.

فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا
طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ
ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ

* * *

بَنَيْنَاهَا﴾ أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث إلى السماء فوقهم ، كيف بنيناها فسويناها سقفاً محفوظاً!! ﴿وزيَّنّاها وما لها من فُرُوجٍ﴾ وزيناها بالنجوم ، ومالها من صدوع ﴿والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ والأرض بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وجعلنا فيها جبالاً ثوابت ، رست في الأرض ﴿وأَنْبَتْنا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وأنبتنا في الأرض من كل نوع من نباتٍ حسن ﴿تَبصرة وذكرى﴾ فعلنا ذلك تبصرةً لكم أيها الناس، نبصّركم بها قدرة ربكم، وتذكيراً بعظمته وسلطانه ، وتنبيهاً على وحدانيته ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ لكل عبد رجع إلى الإيمان والعمل بطاعة الله ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ﴾ ونزلنا من السماء مطراً مباركاً ، فأنبتنا به أشجاراً وبساتين، وحب الزرع المحصود من البرِّ وسائر الحبوب ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ وأنبتنا بالماء النخل الطِّوال، لها طلع منضود بعضه على بعض ﴿رِزْقاً لِلْعِبَادِ﴾ أنبتنا هذه الجنات، والحب قوتاً للعباد بعضها غذاءً ، وبعضها فاكهة ﴿وأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ وأحيينا بهذا الماء بلدة قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبت ﴿كَذَلِكَ الخُرُوجُ﴾ كذلك نخرجكم يوم القيامة[1]، أحياء من قبوركم من بعد بلائكم ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأَصْحَابُ الرَّسِّ وثَمودُ. وعَادٌ وفِرْعَوْنُ وإِخْوانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ كذبت قبل هؤلاء المشركين الذين كذبوا محمداً ـ ﷺ هذه الأقوام المذكورة ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ كل هؤلاء كذَّبوا رسل الله، فوجب لهم الوعيد وحلَّ بهم العذاب والنقمة ﴿أَفَعَيِينَا بالخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أفعجزنا بابتداع الخلق الأول الذي خلقناه؟! فنعيا بإعادتهم خلقاً جديداً بعد بلائهم وفنائهم ؟! ﴿ بل هم في لَبْسٍ من خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بل هم في شك من قدرتنا على أن نخلقهم ، بعد فنائهم وبلائهم في قبورهم ﴿ ولقد خَلَقْنَا الإنسان ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ولقد

---

(١) هذا تمثيل للبعث بعد الموت والمعنى كما أحيا الله الأرض القاحلة الجرداء، التي لا نبات فيها ولا زرع ، بالماء ينزل من السماء، كذلك يحيي الله الموتى فيخرجهم أحياء من قبورهم بعد أن أصبحوا رُفاتاً ورمماً بالية .

بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾
مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾
وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ
هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾

* * *

خلقنا الإنسان ، ونعلم ما تحدث به نفسه ، فلا يخفى علينا سرائره ، وضمائر قلبه **﴿ونحن أقربُ إليه من حَبْلِ الوَرِيدِ﴾** ونحن أقرب للإنسان من عرق العنق[1]

﴿إذ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عن اليمين وعن الشِّمال قَعِيدٌ﴾ حين يتلقى الملكان ـ وهما المتلقيان ـ عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد[2] **﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾** ما يتكلم الإنسان من قول، إلا حافظٌ يحفظه عليه **﴿عَتِيدٌ﴾** معدٌّ مهيأً لكتابة ما أُمر به، **قال مجاهد** : مع كل إنسانٍ ملكان : ملك عن يمينه يكتب الخير ، وملك عن يساره يكتب الشر **﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوتِ بِالْحَقِّ﴾** وجاءت شدَّةُ الموت وغَلَبتُه ، بالحق من أمر الآخرة ، حتى تَتَبَّته الإنسان وعَرَفه **﴿ذلك ما كُنْتَ منه تَحِيدُ﴾** هذا هو الشيء الذي كنت تهرب منه ، وعنه تروغ . **﴿ونُفِخَ في الصُّورِ ذلك يَوْمُ الوَعِيدُ﴾** ونفخ في الصور ـ نفخة البعث ـ وهي النفخة الثانية ، ذلك اليوم هو يوم الوعيد ، الذي وعد الله به الكفار **﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سائِقٌ وشَهِيدٌ﴾** وجاءت في ذلك اليوم كلُّ نفس ربَّها ، معها سائقٌ يسوقها إلى الله ، وشهيدٌ يشهد عليها بما عملت من خيرٍ أو شر **﴿لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هذا﴾** لقد كنت أيها الإنسان في غفلة ، من هذا الذي عاينت اليوم من الأهوال والشدائد **﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾** فجلَّيناوأظهرنا ذلك لعينيك حتى رأيته، **قال ابن عباس** كُشف الغطاءُ عن البر والفاجر، فرأى كلٌّ ما يصير إليه **﴿فَبَصرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾** فأنت اليوم نافذ البصر، عالمٌ بما كنت عنه في الدنيا في غفلة **﴿وقال قَرِينُهُ هذا ما لديَّ عَتِيدٌ﴾** وقال قرين هذا الإنسان هذا الذي هو عندي معدٌّ محفوظ **﴿أَلْقِيَا فى جهنَّم كلَّ كفَّارٍ**

---

(١) هذا قول ابن عباس ، وقال مجاهد : حبل الوريد هو الذي يكون في الحلق . . والمراد بالقرب قرب العلم أي نحن أعلم به وأعرف بأحواله، لا يخفى علينا شيء من خفياته، ففيه تصوير لفرط القرب لقول العرب: هو مني معقد الإزار قال ابن كثير: المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، والحلول والاتحاد منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس . اهـ المختصر ٣٧٣/٣ .

(٢) هذا من باب الاكتفاء ، اكتفى بذكر الثاني عن الأول ، أي عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، ومعناه أن الله جل ثناؤه وكَّل بكل إنسانٍ ملكين مَلَك عن يمينه يكتب الحسنات وملك عن شماله يكتب السيئات .

مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا
مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا
يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾
وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ
وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾

* * *

عَنيدٍ﴾ يقال: ألقيا في جهنم كل جاحد وحدانية الله ، معاندٍ للحقِّ، وسبيل الهدى ﴿مَنَّاعٍ لِلخير﴾ يمنع كل حقٍّ لله أو لآدمي عليه ﴿مُعْتَدٍ﴾ معتدٍ على الناس ظلماً ، بلسانه وبيده ، بالفحش ، والسطوة والبطش﴿مُرِيبٍ﴾ شاكٍّ في وحدانية الله ﴿الذي جعل مع اللهِ إلَهاً آخر﴾ الذي أشرك بالله معبوداً آخر من خلقه ﴿فألْقِيَاه في العذابِ الشَّديدِ﴾ فألقياه في عذاب جهنم الشديد ﴿قال قَرِينُهُ ربَّنا ما أَطْغَيْتُهُ﴾ قال شيطانه الذي كان موكلاً به في الدنيا ما أنا جعلته طاغياً متعدياً ﴿ولكن كان في ضلالٍ بعيدٍ﴾ ولكنْ كان في طريق جائر عن سبيل الهدى ، جوراً بعيداً ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالوَعِيدِ﴾ قال الله للمشركين لا تختصموا لديَّ اليوم ، وقد قدمت إليكم في الدنيا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني ﴿ما يبدل القول لدي﴾ ما يُغيِّر القولُ الذي قلته : « لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ولا قضائي الذي قضيته ﴿وما أنا بِظَلَّامٍ للعَبيد﴾ ولا أنا بمعاقب أحداً بجرم غيره ، ولا حامل على أحد منهم ذنب غيره ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ وتقول هل من مَزِيدٍ﴾ ويوم القيامة نقول لجهنم : هل امتلأت ؟فتقول :زدني يا رب ؟ هل من شيءٍ أزداده[1]

﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وأُدنيت الجنةُ وقُرِّبت للذين اتقوا ربهم، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ غير بعيدةٍ منهم﴿هذا ما تُوعَدُونَ﴾ يقال لهم : هذا الذي وعدكم الله أن تدخلوها وتسكنوها ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ لكل راجعٍ من معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه حافظٍ لكل الفرائض والطاعات ، التي تقرِّبه من ربه، قال قتادة: حفيظٍ على فرائض الله ، وما استودعه من حقه ونعمته . ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ من خاف الله في الدنيا ـ من قبل أن يلقاه فأطاعه واتَّبع أمره ﴿ وجاء بقلب مُنِيبٍ﴾ وجاء اللّهَ بقلبٍ تائب من ذنوبه ، راجعٍ إلى ما يرضيه

---

(١) وفي الحديث الصحيح «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد ؟ حتى يضع ربُّ العزَّة فيها قدمه فتقول: قَطْ، قطْ وعزتك وكرمك ـ أي كفى كفى ـ وينزوي بعضها إلى بعض..» أخرجه الشيخان .

ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ
هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشًا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ
وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

* * *

﴿ٱدْخُلُوها بسلام﴾ ادخلوا هذه الجنة بأمانٍ من الهمِّ ، والعذاب ، وما كنتم تلقونه في الدنيا من المكاره ﴿ذٰلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ﴾ هذا هو يوم دخول الناس الجنة ، ماكثينَ فيها إلى غير نهاية ﴿لهم ما يَشَاءُونَ فيها﴾ لهؤلاء المتقين في الجنة، من كل ما تشتهيه نفوسهم ، وتلذُّه عيونهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وعندنا لهم[1] على ما أعطيناهم من الكرامة،مزيدٌ نزيدهم بها وهو النظر إلى وجه الله جلَّ ثناؤُه ﴿وكم أَهْلَكْنَا قبلهم من قَرْنٍ هم أشدُّ منهم بَطْشاً﴾ وكثيراً أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قريش من القرون، هم أشدُّ بطشاً من قريش الذين كذَّبوا محمداً ﷺ ﴿فَنَقَّبُوا فِي البِلَادِ﴾ فخرقوا البلادَ فساروا فيها ، فطافوا وتوغَّلوا إلى الأقاصي منها ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ فهل لهم من معدلٍ عن الموت ، ومنجىً من الهلاك، إذْ جاءهم أمرنا ؟ ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ﴾ إن في إهلاكنا القرون الماضية ، لذكرى يتذكر بها من كان له عقلٌ[2]، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه، من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحلَّ بهم مثل الذي حلَّ بهم من العذاب ﴿أو أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أو أصغى بسمعه لإخبارنا إياه عن هذه القرون التي أهلكناها ، فسمع الخبر عنهم ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وهو متفهمٌ لما يُخبر به عنهم، شاهدٌ له بقلبه، غير غافلٍ عنه ولا ساهٍ ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في سِتة أيام﴾ ولقد خلقنا السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الخلائق في ستة أيام ﴿وَمَا مَسَّنا مِن لُغوب﴾ وما مسنا من نصبٍ وإعياء ﴿فاصْبِرْ على مَا يَقُولُونَ﴾ فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء اليهود ، وما يفترون على الله ويكذبون عليه ، فإن الله لهم بالمرصاد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾ وصلِّ لربك «صلاة الصبح» قبل طلوع الشمس ، و «صلاة العصر» قبل الغروب[3] ﴿وَمِن الليل فَسَبِّحْهُ وأَدْبَارَ السجُودِ﴾ وصل المغرب والعشاء في الليل، وسبح بحمد

---

(١) هذا القول أن المزيد هو «النظر إلى وجه الله الكريم» هو قول إنسٍ وجابرٍ فقد قالا : المزيد هو أن يتجلى الله تعالى على عباده في الجنة حتى يرونه ، وذلك في كل جمعة» انظر روح المعاني ٢٦/١٩٠

(٢) المراد بالقلب العقل، قال ابن زيد: قلبٌ حيٌّ يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم ، كيف علَّبهم الله وصنع بهم حين عصوا رسله .

(٣) خصهما بالذكر لزيادة فضلهما وشرفهما .

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

* * *

ربك أدبار السجود من صلاتك[١] ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ واستمع يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب[٢] ﴿يَوْم يَسْمَعُونَ الصَّيْحة بِالْحَقِّ﴾ يوم يسمع الخلائق صيحة البعث من القبور لموقف الحساب، بأمر الله عز وجل ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ﴾ ذلك هو يوم خروج أهل القبور من قبورهم ﴿إنَّا نحن نُحْيِي وَنُمِيتُ وإلينَا المَصِيرُ﴾ إنا نحن نحيي الموتى ،ونميت الأحياء، وإلينا مرجع جميعهم يوم القيامة ﴿يَوْم تَشَقَّقُ الأَرْض عَنهُمْ سِرَاعاً﴾ يوم تتصدع الأرض عنهم، فيخرجون منها سراعاً ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ علينا يسير﴾ ذلك جمع في موقف الحساب علينا سهل ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ نحن أعلم بما يقول هؤلاء المشركون، من فريتهم على الله ، وتكذيبهم بآياته ، وإنكارهم قدرة الله على البعث بعد الموت ﴿وَمَا أَنْتَ عَليهم بِجَبَّار﴾ وما أنت عليهم بمسلط[٣] ﴿فذكِّرْ بالقرآن من يخاف وَعِيدِ﴾ فذكر يا محمد بهذا القرآن، الذي أنزلته إليك ، من يخاف الوعيد الذي أوعدته من عصاني ، وخالف أمري

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قٓ»

* * *

---

(١) المنقول عن السلف، انهما الركعتان بعد صلاة المغرب، وهذا ما رجحه الطبري ، وهناك رأيٌ لابن زيد وهو أن المراد به النوافل مطلقاً في أعقاب الصلوات المفروضة ، ولعل هذا الرأي أرجح لأن الآية عمَّمت ﴿وأدبار السجود﴾ أي في أعقاب الصلوات فتكون الآية قد حضت على الصلوات المفروضة وعلى النوافل والله أعلم .

(٢) المراد بها صيحة البعث ، وهي النفخة الثانية في الصور ، والمنادي: هو إسرافيل عليه السلام حين يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ويوم الحساب، ثم ينفخ النفخة الثانية في الصور ﴿ فإذا هم من الأَجْدَاثِ إلى ربهم ينسلون﴾.

(٣) أي لست يا محمد مسلطاً عليهم تجبرهم على الإسلام وإنما أنت رسول مذكّر .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾

* * *

﴿ والذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾ والرياح التي تذرو التراب ذرواً ﴿ فالحامِلَاتِ وِقْراً ﴾ فالسحاب التي تحمل وقرها من الماء ﴿ فالجارِيَاتِ يُسْراً ﴾ فالسفن التي تجري في البحار سهلاً يسيراً ﴿ فالمقسِّمات أمْراً ﴾ فالملائكة التي تقسم أمر الله في خلقه[1] ﴿ إنما تُوعَدون لَصَادِق ﴾ إن الذي توعدون أيها الناس ـ من قيام الساعة ، وبعث الموتى من قبورهم أحياء ـ لكائن حق يقين ﴿ وإن الدِّين لَوَاقِعٌ ﴾ وإن الحساب ، والثواب ، والعقاب ، لواجبٌ ، واللَّهُ مجازٍ عباده بأعمالهم ﴿ والسماء ذات الحُبُكِ ﴾ والسماء ذات الطرائق والخَلْق الحسن ﴿ إنكم لفي قول مختلِفٍ ﴾ إنكم ـ أيها الناس ـ في هذا القرآن لفي قول مختلف ، فمن مصدقٍ به ومكذب ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أفِكَ ﴾ يُصرف عن الإيمان بهذا القرآن من صُرف ، ويُدفع عنه من يُدفع ﴿ قُتِلَ الخَرَّاصُونَ ﴾ لُعن المتكهِّنون ـ أهل الظنون ـ الذين يتخرصون الكذب والباطل ﴿ الذين هم في غَمْرَةٍ سَاهُون ﴾ الذين هم في غمرة الضلالة ، متمادون ، وعن الحق الذي بعثَ اللَّهُ به محمداًﷺ ساهون ﴿ يسألون أيَّانَ يومُ الدين ﴾ يسأل هؤلاء الخراصون : متى يوم المجازاة

(١) هذه أقسام أربعة أقسم الله عز وجل بها ، أقسم بالرياح التي تذرو التراب فتفرقه ، وبالسحب التي تحمل أثقال الأمطار ، وبالسفن التي تجري على سطح الماء جرياً سهلاً يسيراً وهي تحمل ذرية بني آدم ، وبالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار وتدبر شئون الكون ، أقسم بهذه الأمور. على أن ما وعدهم به محمد ﷺ من الثواب والعقاب ، والجزاء والحساب أمرٌ صدقٌ محقق لا كذب فيه . والقسمُ بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على عجيب صنع الله وقدرته جلَّ وعلا .

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

* * *

والحساب ؟ أجاب تعالى لهم بقوله ﴿ **يوم هم على النار يُفْتَنُونَ** ﴾ يوم هم على نار جهنم ، يُعذبون بالإحراق فيها ﴿ **ذوقوا فِتْنَتَكُمْ** ﴾ يقال لهم : ذوقوا عذابكم وحريقكم ﴿ **هذا الذي كنتم به تستعجلون** ﴾ هذا العذاب الذي توفَّونه اليوم ، هو العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا ﴿ **إن المتَّقين في جناتٍ وعيون** ﴾ إن الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه ، في بساتين وعيون الماء في الآخرة ﴿ **آخذين ما آتاهم ربهم** ﴾ عاملين ما أمرهم به ربهم ، مؤدين فرائضه[1] ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك مُحْسنين** ﴾ إنهم كانوا ـ قبل أن تُفرض عليهم الفرائضُ ـ مطيعين ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يَهْجَعُون** ﴾ كان هجوعهم من الليل قليلاً[2] ﴿ **وبالأسْحار هم يَسْتغفِرُون** ﴾ نشطوا في الصلاة ، وأخَّروا الاستغفار إلى السحر ﴿ **وفي أموالهم حَقٌّ للسَّائل والمحروم** ﴾ وفي أموال هؤلاء المحسنين ، حقٌّ للسائل المحتاج الذي يسأل الناس ، وللمحرومِ الذي قد حُرم الرزقَ واحتاج ﴿ **وفي الأرض آيات للمُوقِنِينَ** ﴾ وفي الأرض عِبَرٌ وعظاتٌ لأهل اليقين ، إذا ساروا في أرض الله ﴿ **وفي أَنْفُسِكُم أفلا تُبْصرون** ﴾ وفي أنفسكم أيضاً آياتٌ وعِبَر ، تدلكم على وحدانية صانعكم ، أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه ؟ ﴿ **وفي السماء رزقُكُم وما تُوعَدون** ﴾ وفي السماء « المطرُ » و « الثلج » اللذان بهما تُخرج الأرضُ رزقَكم ، وقوتكم من الطعام والثمار ، وما توعدون من خير أو شر[3] ﴿ **فَوَرَبِّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تَنْطِقُون** ﴾ يقسم الله لخلقه بنفسه فيقول : فورب السماء والأرض إن الذي قلت لكم ـ أيها الناس ـ أن في السماء رزقكم لحقٌّ حقاً يقينياً ، كما حق أنكم تنطقون[4] .

---

(١) قال الإمام ابن كثير : والذي فسر به ابن جرير فيه نظر لأن قوله تبارك وتعالى ﴿آخذين﴾ حال من قوله ﴿في جنات وعيون﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم أي من السرور والنعيم والغبطة ، وقوله عز وجل ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ أي في الدار الدنيا . ا هـ ٣ /٣٨٣ من المختصر .

(٢) معنى الهجوع : النوم أي كانوا لا ينامون من الليل إلا قليلاً لأنهم في طاعة ربهم بقيام الليل قال الحسن : كابدوا قيام الليل .

(٣) وقيل المعنى : وما توعدون به من الثواب والعقاب كذلك مكتوبٌ في السماء .

(٤) الآية وردت على سبيل التمثيل مع التدليل بالحجة والبرهان أي رزقكم مقسومٌ في السماء كنطقكم فكما لا تشكون في نطقكم فكذلك لا تشكوا في رزقكم ، فإن الخلّاق قد قسم الأرزاق وفي الحديث (لو أن أحدكم فرَّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت) .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ
بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾

* * *

﴿ **هل أتاك حديث ضَيْف إبراهيم المكرَمِينَ** ﴾ هل أتاك يا محمد ، حديث ضيف إبراهيم « خليل الرحمن » الذين أكرمهم إبراهيم وزوجته ﴿ **إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً** ﴾ حين دخل ضيف إبراهيم عليه فقالوا له : نسلِّم عليك سلاماً ﴿ **قال سلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرون** ﴾ قال إبراهيم لهم : سلام عليكم ، أنتم قومٌ لا نعرفكم ﴿ **فراغ إلى أهله** ﴾ فرجع إلى أهل بيته ﴿ **فجاء بعجل سمين** ﴾ فجاء ضيفه بعجل سمين[1] ، قد أنضجه شيّاً ،**قال قتادة** :كان عامَّةَ مال نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام البقرُ ، فلذلك جاءهم بعجلٍ مشوي ﴿ **فقربه إليهم قال ألا تأكلون** ﴾ فقربه إليهم ، فأمسكوا عن أكله ، فقال : ألا تأكلون ﴿ **فأوجس منهم خِيفَةً قالوا لا تخف** ﴾ فأضمر إبراهيم في نفسه من ضيفه خيفة قالوا : لا تخف ﴿ **وبشّروه بغلام عليم** ﴾ وبشروه بإسحٰق[2]، يكون عالماً إذا كبر ﴿ **فأقبلت امرأته في صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وجهها** ﴾ فصاحت زوجه « سارة » فضربت بيدها جبهتها تعجباً ﴿ **وقالت عجوز عقيم** ﴾ وقالت : أتلد امرأةٌ عجوز ، وهي عقيمٌ لا تلد ؟ ﴿ **قالوا كذلِكِ قال ربكِ** ﴾ قالوا لها : هكذا قال ربك كما أخبرناك ﴿ **إنه هو الحكيم العليم** ﴾ الحكيم في تدبير خلقه ، العليم بمصالحهم ﴿ **قال فما خَطْبُكم أيها المرسلون** ﴾ قال إبراهيم : فما شأنكم أيها المرسلون ؟ ﴿ **قالوا إنا أُرْسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ قالوا : إن الله أرسلنا لقومٍ قد أجرموا لكفرهم بالله ﴿ **لنُرْسِل عليهم حجارةً من طين** ﴾ لنمطر عليهم من السماء حجارة من طين ﴿ **مَسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾ معلَّمةً عند ربك ، للمتعدِّين حدود الله ، الكافرين به من قوم لوط ﴿ **فأخْرَجْنا من كان فيها من**

---

(١) العجل : ولد البقرة ، واختاره سميناً زيادة في إكرامهم ، ولم يعرف أنهم ملائكة ولذلك أضمر في نفسه الخوف منهم ، وقد انتظمت هذه الآية آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعر الضيف بسرعة وخفاء ، ولم يسألهم أتأكلون ؟ أو هل نأتيكم بطعام ؟ بل جاءهم به بدون استئذان ، وأتى بأفضل ما وجد وهو العجل المشوي السمين ، ووضعه بين أيديهم ولم يضعه بعيداً عنهم ثم يقول لهم اقتربوا ، ودعاهم إليه على سبيل العرض والتلطف ﴿ألا تأكلون﴾؟ فانظر رعاك الله إلى أدب الضيافة من الخليل إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم !!

(٢) الجمهور على أن المبشر به « إسحٰق » كما قال الطبري ، لأن الله تعالى قال في سورة هود ﴿فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحٰق يعقوب﴾ .

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ
أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ
فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾
فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا

* * *

المؤمنين ﴾ فأخرجنا من كان في قرية « سدوم » - قرية قوم لوطٍ - من أهل الإيمان بالله وهم لوط وابنتاه ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ فما وجدنا في تلك القرية غير بيت « لوط » من المسلمين ﴿ وَتَرَكْنا فيها آية للذين يخافون العذابَ الأليم ﴾ وتركنا في هذه القرية عظة وعبرةً ، للذين يخافون عذاب الله الأليم في الآخرة ﴿ وفي موسى إذ أَرْسَلناهُ إلى فرعون بِسُلطانٍ مبين ﴾ وفي « موسى بن عمران » حين أرسلناه إلى فرعون ، مصر ، بحجة واضحة على حقيقة ما يدعو إليه ﴿ فتولى بركنه ﴾ فأدبر فرعون بجنده وأصحابه ﴿ وقال ساحرٌ أو مجنون ﴾ وقال لموسى هو ساحرٌ يسحر عيون الناس ، أو رجل مجنون به جِنَّة ﴿ فأخذناه وجنوده فَنَبَذْناهم في اليَمِّ ﴾ فأخذنا فرعون وجنوده لمَّا أغضبونا ، فألقيناهم فى البحر فغرَّقناهم فيه ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ وفرعون قد أتى ما يُلام عليه من الفعل ﴿ وفي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ ﴾ وفي عاد وما فعلنا بهم ، آيةٌ وعِبرة ، حين أرسلنا عليهم الريح التي ليس فيها بركة ولا تلقِّح الشجر ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ ما تترك من شيءٍ تصيبُه ، إلَّا جعلته كنباتِ الأرض اليابس ﴿ وفي ثمود إذ قِيل لهم تمتَّعوا حتى حِين ﴾ وفي ثمود أيضاً عبرةً ومتعظ ، إذ قال لهم ربهم : تمتعوا بالحياة حتى موعد العذاب[1] ﴿ فَعَتَوْا عن أمرِ ربهم ﴾ فتكبروا عن أمر ربهم ، وعلوا استكباراً عن طاعة الله ﴿ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ فأخذتهم صاعقة العذاب فجأة ، وهم ينتظرون حلوله بهم ﴿ فما استطاعوا من قِيَامٍ ﴾ فما استطاعوا من دفاعٍ لما نزل بهم من عذاب الله ، ولا قدر القومِ نهوضاً لعقوبة الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ وما كانوا قادرين على أن ينتقموا ممن أحلَّ بهم العقوبة .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وأهلكنا قوم نوح من قبل هذه الأمم ، لمَّا كذبوا رسولنا ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوماً فَاسِقِينَ ﴾ لأنهم كانوا مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته ﴿ وَالسَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ والسماء رفعناها

(١) موعدالعذاب هو ثلاثة أيام بعد عقرهم الناقة كما قال تعالى ﴿قال تمتَّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ .

بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾
كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

* * *

سقفاً بقوة ﴿ **وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ وإنا لذو سعة وقدرة بخلقها ، وخلق ما شئنا أن نخلقه ﴿ **وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا** ﴾ والأرض جعلناها فراشاً للخلق[1] ﴿ **فَنِعْمَ المَاهِدُونَ** ﴾ فنعم الباسطون لهم نحن ﴿ **وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ ومن كل شيء خلقنا نوعين مختلفين ، كل واحد منهما زوجٌ للآخر ، مخالفٌ له في معناه ، كالشقاوة والسعادة ، والكفر والإيمان ، والليل والنهار ﴿ **لعلكم تذكَّرون** ﴾ لتتذكروا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا أن ربكم الذي يستوجب عليكم العبادة ، هو الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شيء ، لا ما لا يقدر على ذلك ﴿ **فَفِرُّوا إلى الله** ﴾ فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته ، بالإيمان به واتباع أمره ، والعمل بطاعته ﴿ **إني لكم منه نذيرٌ مبينٌ** ﴾ لكم من الله نذيرٌ ، أنذركم عقابه ، وأخوفكم عذابه ﴿ **ولا تجعلوا مع الله إلَهاً آخر** ﴾ ولا تجعلوا مع معبودكم الذي خلقكم معبوداً آخر سواه ، فإنه لا معبود تصلح العبادة غيره ﴿ **إني لكم منه نذيرٌ مُبينٌ** ﴾ نذيرٌ من عقابه ، قد أبان لكم النذارة ﴿ **كذلك ما أَتى الذين مِنْ قَبْلِهم من رسُولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مَجْنون** ﴾ كما كذبت قريش نبيها محمداً ﷺ وقالت : هو شاعر ، أو ساحر ، أو مجنون ، كذلك فعلت الأمم المكذبة رسلها ، كقوم نوح وعادٍ وثمود ، الذين أحل الله بهم نقمته ، ما جاءهم رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴿ **أَتَوَاصَوْا بِهِ** ﴾ أأوصى هؤلاء المكذبين من قريش أوائلُهم وآباؤُهم الماضون بتكذيب محمد ﷺ ! ؟ ﴿ **بل هم قوم طَاغُونَ** ﴾ ما أوصاهم أحد ، ولكنهم قوم طغاة ، لا يأتمرون لأمر ربِّهم ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ﴿ **فَتَوَلَّ عنهم فما أنت بِمَلُومٍ** ﴾ فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين ، فإن الله لا يلومك فقد أنذرت ، وبلَّغت ما أُرسلتَ به ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِكْرَىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ** ﴾ وعظْهم يا محمد ، فإن العظة تنفع أهل الإيمان ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ ما خلقتهم إلا لعبادتنا ، والتذلل

(١) أي جعلناها ممهَّدة كالفراش لتستقرّوا عليها ، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك مقطوع به ، فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة فسيحة ، فيها السهول الكثيرة ، والبقاع الممتدة الواسعة ، وفيها الوديان العريضة ، والجبال والهضاب ولهذا قال تعالى بعدها ﴿فنعم الماهدون﴾ أي نعم الباسطون الموسعون لها نحن .

مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

* * *

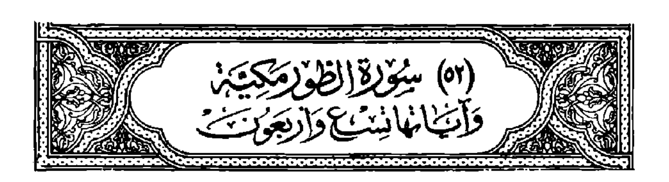
لأمرنا ، قال ابن عباس: إلَّا ليقرُّوا بالعبودية طوعاً أو كرهاً، ﴿ ما أريدُ منهم من رِزْقٍ وما أريد أن يُطْعِمونِ ﴾ ما أريد ممن خلقتُ رزقاً يرزقونه خلقي ، وما أريد منهم طعاماً يطعمونه عبادي ﴿ إن اللّهَ هو الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾ إن الله هو الرزاق لخلقه ، المتكفلُ بأقواتهم، ذو القوة الشديد[1] ﴿ فَإن للذين ظلمواذَنوباً مثلَ ذَنُوبِ أَصحابهم ﴾ فإن للذين أشركوا من كفار قريش حظاً ونصيباً من عذاب الله ، مثل نصيب أصحابهم الذين مضوا قبلهم من الأمم ﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلونِ ﴾ فلا يستعجلون به فإنه واقِعٌ لا محالة ﴿ فَوَيْلٌ للذين كفروا ﴾ فالوادي السائل في جهنم من قيح وصديد [2]، للذين كفروا بالله وجحدوا وحدانيته ﴿ مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ من ذلك الذي وُعدوا فيه نزول عذاب الله ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد ؟ !

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات »

* * *

(١) نبَّه تعالى عباده إلى أن شأنه معهم ليس كشأن السادة مع العبيد ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في أمورهم وتحصيل معاشهم ، والله غنيٌّ عن العالمين ، هو خالقهم وهو رازقهم ، فليشتغلوا بما خُلقوا له من عبادة الله وتوحيده ، فما يريد الله منهم إلَّا ذلك ، جعلنا الله من أهل العلم والفهم !!

(٢) هذا على طريقة الإمام الطبري في تفسيره « الويل » بأنه وادٍ في جهنم ، وقد تقدَّم معنا التحقيق في معنى « الويل » بأنه العذاب والهلاك والدمار ، فهو أشمل ممَّا فسَّره به الطبري والله أعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ
ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ
سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾
هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

* * *

﴿ والطُّورِ ﴾ والجبل الذي يدعى الطور ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ وكتابٍ قد كتب ﴿ في رِقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ في ورق منشور ﴿ والبيتِ المَعْمُورِ ﴾ والبيت الذي في السماء بحيال الكعبة ، الذي يعمر بكثرة الملائكة[١] ﴿والسَّقْفِ المرفُوعِ ﴾ والسماء التي جعلت للأرض كالسقف ﴿ والبحر المَسْجُور ﴾ والبحر المملوء ، المجموعِ ماؤه بعضه في بعض[٢] ﴿ إن عذابَ رَبِّك لَوَاقِعٌ ﴾ إن عذاب ربك يا محمد ، لكائنٌ يوم القيامة ، يحل بالكافرين ﴿ما له من دافع ﴾ ليس لذلك العذاب دافع يدفعه عنهم ، فينقذهم منه ﴿ يوم تَمُورُ السَّماء مَوْراً ﴾ يوم تدور السماء دوراً﴿ وتسير الجبال سَيراً ﴾ وتسير الجبال عن أماكنها سيراً ، فتصير هباء منبثاً﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبينَ ﴾فالوادي[٣] الذي يسيل من قيح وصديد أهل جهنمَ للكافرين يوم القيامة ﴿ الذين هم في خَوْضٍ يَلْعبون ﴾ الذين هم في فتنةٍ في الدنيا يلعبون ، غافلين عما هم صائرون إليه من عذاب الله ﴿ يَوْم يُدَعُّونَ إِلَى نارِ جَهَنَّم دَعًا ﴾ يومئذ يدفعون إلى نار جهنم دفعاً شديداً بإزعاجٍ وإرهاق ﴿ هذه النارُ التي كُنْتُم بِها تُكَذِّبونَ ﴾ يقال لهم : هذه النار التي كنتم تجحدون أن

(١) ورد في الصحيح « أنه يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ثم لا يعودون إليه أبداً » أي من كثرتهم .

(٢) أقسم تعالى بهذه الأشياء الخمسة للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته وجليل نعمته ، ولتذكير الخلق على أن أهوال يوم القيامة شديدة ينخلع لها قلب الإنسان ، والمقسم عليه هو قوله ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ أي نازل بالمشركين لا محالة

(٣) هذا على طريقة الطبري في تفسيره الويل بالوادي في جهنم ، والراجح أن المراد به الهلاك والعذاب .

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ
ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾

* * *

يعاقبكم ربكم بها ﴿ أَفَسِحْر هذا أَمْ أنتم لا تُبْصِرُونَ ﴾ أفسحر هذا الذي وردتموه الآن من عذاب جهنم ؟ أم أنتم لا تعاينونه ولا تبصرونه[١] ؟ ﴿ اَصْلَوْها فاصْبِروا أَو لَا تَصْبِروا ﴾ ذوقوا حـرَّ هذه النار ، التي كنتم تكذبون بها ، فاصبروا على ألمها وشدتها ، أو لا تصبروا ﴿ سَوَاءُ عليكم ﴾ سواء عليكم صبرتم أو لم تصبروا ﴿ إنَّما تُجْـزَوْنَ ما كُنتم تعملون﴾ فما تعاقبون إلا على كفركم ومعصيتكم لربكم ﴿ إنَّ المتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ إن الذين اتقوا الله بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، في بساتين ونعيم في الآخرة ﴿فَاكِهِينَ بِماآتاهُمْ ربهم ﴾ عندهم فاكهة[٢] كثيرة بإعطاء الله إياهم ذلك ﴿ وَوَقاهُمْ ربهم عَذابَ الجحيم ﴾ ورفع عنهم عقابه الذي عذَّب به أهل النار ﴿ كُلُوا وَٱشْربوا هَنِيئاً بما كنتم تَعْمَلُونَ﴾ يقال للمتقين في الجنات : كلوا مما آتاكم ربكم ، واشربوا من شرابها هنيئاً ، لا تخافون فيها أذى ولا غائلة ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بما عملتم في الدنيا لله من الأعمال ﴿ مُتَّكِئينَ على سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ متكئين على نمارقَ على سرر ، قد جُعلت صفـوفاً﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عينٍ ﴾ وزوجنا هؤلاء المتقين أزواجاً من النساء ، شديدات بياضٍ من مقلة العين ، في شدة سواد الحَلقة ، مع عظم العين ، في حسنٍ وسعة ﴿ والذين آمنوا وٱتَّبَعَتْهُم ذُرِّيَتهم بإيمانٍ ﴾ والذين صدَّقوا بالله ورسوله ، واتَّبعتهم ذرياتهم بـإيمانٍ ، فآمنوا بالله ورسوله ﴿ أَلْحقنا بهم ذُرِّيَّتَهُم ﴾ ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم فجعلناهم معهم في درجاتهم ، وإن قصرت أعمالهم عن أعمالهم ، تكرمةً منَّا لآبائهم[٣] ﴿ وما أَلَتْناهم من عَمَلِهِمْ من شيء ﴾ وما نقَّصنا الآباء من أجور أعمالهم شيئاً ، ولكنَّا وفَّيناهم أجور أعمالهم ، وألحقنا أبناءهم بدرجاتهم ، تفضلاً منَّا عليهم ﴿ كلُّ آمرِيءٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ كل نفس مرتهنةٌ بما عملت من خير وشر ، لا يؤاخذ أحد منهم

---

(١) يقال لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتهكم، والمعنى هل هذا العذاب الذي ترونه وتذوقونه من قبيل السحر ، أم أنتم اليوم عميٌ كما كنتم عمياً في الدنيا عن الخير والإيمان ! ؟

(٢) هكذا فسرها الطبري وقال غيره : متنعِّمين ومتلذذين بما أعطاهم ربهم من الأجر والكرامة وأصناف المآكل والمشارب وهو الأرجح .

(٣) قال ابن عباس : إن اللّه عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة ، وإن كان لم يبلغها بعمله ، لتقرَّبهم عينه وتلا الآية .

وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا
مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ
فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ
تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾

* * *

بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه ﴿وأَمْدَدْنَاهُمْ بفاكِهةٍ ولحمٍ مما يَشْتَهُونَ﴾ وأمددنا هؤلاء المتقين بفاكهة ، ولحمٍ مما يشتهون من لحوم الجنة ﴿يَتنازَعُون فيها كَأْساً﴾ يتعاطون فيها كأس الشراب ، ويتداولونها بينهم﴿لاَ لَغْوٌ فيها ولا تأْثِيمٌ﴾ لا باطل في الجنة ، ولا فعل فيها يُؤثم صاحبه(١)

﴿ويَطُوفُ عليهم غِلْمَانٌ لهم كأنهم لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ ويطوف بكؤوس الشراب على هؤلاء القوم ، غلمانٌ لهم ، كأنهم لؤلؤٌ في بياضه وصفائه مصونٌ في الصَّدف﴿وأَقْبل بعضهُم على بَعْض يَتَساءَلونَ﴾ وأقبل بعض هؤلاء المؤمنين على بعض ، يسأل بعضهم بعضاً في الجنة ﴿قالوا إنَّا كُنا قَبْل في أَهْلِنا مُشفِقين﴾ قال بعضهم : إنا كنا في الدنيا ، خائفين من عذاب الله ، وَجِلين أن يعذبنا ربنا اليوم ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ فمنَّ الله علينا بفضله ، فنجانا من عذاب النار ، وأدخلنا الجنة ﴿إنَّا كنا من قَبْل نَدْعوهُ﴾إنا كنا في الدنيا من قبل يومنا هذا ، نعبده مخلصين له الدين ، لا نشرك به شيئاً ﴿إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الرحِيمُ﴾ إنه هو اللطيف بعباده ، الرحيم بخلقه أن يعذبهم بعد توبتهم ﴿فَذَكِّرْ فما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ولا مَجْنُونٍ﴾ فذكر يا محمد من أُرسلت إليه من قومك ، وعظْهم بنعم الله عندهم ،فلستَ بنعمة الله عليك بكاهنٍ تتكهن فتخبر قومك بما يخبرك به قرينك من الشياطين ، ولستَ بمجنون بحمد الله ، ولكنك رسول الله ﴿أم يقولون شاعِرٌ نَتربَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ بل يقول المشركون لك يا محمد : هو شاعر ، ننتظر به حوادث الدهر ، تكفينا إياه بموتٍ أو حادثة(٢) ﴿قل تَرَبَّصُوا فإني معكم من المُتَرَبِّصينَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء للمشركين : انتظروا وتمهَّلوا فإني معكم من المنتظرين ، حتى يأتي أمر الله فيكم ﴿أم تأمرهم أَحْلامُهُم بهذا﴾ أتأمر هؤلاء المشركين عقولُهم ، بأن يقولوا لمحمد ﷺ هو شاعر ، وما جاء به شعرٌ(٣)﴿أم هم قَومٌ طَاغُونَ﴾بل هم قوم قد تجاوزوا ما أذن لهم ربهم، وأمرهم به من

(١) أخبر تعالى أنه لا يقع بينهم بشرب الخمر هذيان في الجنة ، ولا يلحقهم إثم ، لأن خمر الجنة من أجل اللذة فقط كما قال تعالى ﴿بيضاء لذةٍ للشاربين﴾ قال قتادة : نزَّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا ، فنفى عنها صُداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل ، والهذيان والفحش ، ووصفها بحسن المنظر وطيب الطعم

(٢) ريب المنون : حوادث الدهر وصروفه ، وغرض المشركين أنه يهلك ويموت كما هلك من كان قبله من الشعراء .

(٣) هذا من باب السخرية والتهكم ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ فإن من له عقل لا يقول مثل هذا الكذب والبهتان في سيد ولدعدنان.

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ
هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ
ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا

* * *

الإيمان إلى الكفر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أم يقول المشركون : أفترى محمد هذا القرآن ، وتخلَّقه من قِبَل نفسه ؟ ﴿ بل لا يُؤْمِنُونَ ﴾ بل هم لا يصدقون بالحقِّ ، الذي جاءهم من عند ربهم ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ فليأت قائلو ذلك بقرآن مثله ، فإنهم من أهل لسان محمد ﷺ ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في قولهم : إن محمداً تقوَّله واختلقه .

﴿ أَمْ خُلِقوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أَخُلق هؤلاء المشركون من غير آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يفهمون لله حجة ، ولا يتعظون بعظة ؟ ! ﴿ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ أم هم الخالقون هذا الخلق ؟ فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن للخالق الأمر والنهي ؟ ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أخلقوا السموات والأرض ، فيكونوا هم الخالقين(١) ؟ ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بل لا يوقنون بوعيد الله ، وما أعدَّ لأهل الكفر من العذاب في الآخرة ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أعند هؤلاء المكذبين خزائن ربك ، فهم لاستغنائهم بذلك معرضون عن آيات الله ؟ ﴿ أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُونَ ﴾ أم هم الجبارون المتسلطون المستكبرون على الله ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أم لهم سلم يرتقون فيه إلى السماء ، يستمعون الوحي ، فيدَّعون أنهم على حق ، فهم بذلك متمسكون بما هم عليه ؟ ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ فليأت من يزعم ذلك ، بحجة ظاهرة تُبين أنها حق ، كما أتى محمد ﷺ بما يظهر صدقه فيما جاءهم به من عند الله ؟ ﴿ أم له البنات وَلَكُمُ البنونَ ﴾ ألربكم البنات أيها المشركون ، ولكن البنون ؟ ، تلك إذاً قسمة جائرة ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أتسألهم يا محمد من أموالهم ثواباً وعوضاً ، على ما تدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته ؟ ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ فهم من ثقل ما حمَّلتهم من الغُرم ، لا يقدرون على إجابتك ؟ ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أم عندهم علم الغيب ، فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا ؟ ﴿ أم يريدون كيداً ﴾ أم يريد هؤلاء المشركون بك يا محمد ،

---

(١) في هذه الآيات على وجازتها حجة دامغة تقصم ظهر الباطل . .فالحقُّ جل وعلا يخاطب المشركين فيقول : ﴿أم خُلقوا من غير شيء﴾ أي هل خُلقوا بدون خالق أوجدهم وخلقهم ؟ وهذا بالعقل باطل ، لأن الصنعة لا بدَّ لها من صانع ، والخلق لا بدَّ له من خالق ﴿أم هم الخالقون﴾ أم هم الخالقون لأنفسهم ، وذلك في البطلان أشدُّ ﴿أم خلقوا السموات والأرض﴾ أم هم الذين خلقوا هذه السموات المحكمة البديعة وهذه الأرض بما فيها من أنواع المخلوقات الغريبة العجيبة ؟ وهذا لا يستطيع أن يدعيه أحد ، فإذا بطلت هذه الوجوه قامت الحجة عليهم بوجود الخالق المبدع الحكيم ، وهو الله جل وعلا ، فانظر رعاك الله كيف أفحمهم بهذا الأسلوب الحكيم !!

فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

* * *

وبدين الله مكراًيمكرونه؟ ! ﴿ فالذين كفروا هم **الْمَكِيدُونَ** ﴾ فهم الممكور بهم دونك ، فثق بالله ، وآمض لما أمرك به ﴿ **أم لهم إلَهٌ غيرُ اللهِ** ﴾ أم لهم معبودٌ ، يستحق عليهم العبادة غير الله ، فيجوز لهم عبادته ؟ ﴿ **سُبْحانَ الله عما يُشْرِكُونَ** ﴾ تنزيهاً لله عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره ﴿ **وإن يَرَوْا كِسْفاً من السماءِ ساقِطاً** ﴾ وإن ير هؤلاء المشركون قِطْعاً من السماء ، ساقطاً عليهم ﴿ **يقولوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ** ﴾ يقولوا : إنما هذا سحاب متراكِم بعضُه فوق بعض﴿**فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ**﴾فدع يا محمد هؤلاء المشركين ، حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يهلكون ، وذلك عند النفخة الأولى ﴿ **يَوْمَ لا يُغْني عنهم كَيْدُهُمْ شيئاً** ﴾ يوم لا يدفع عنهم مكرهم من عذاب الله شيئاً ﴿ **ولا هم يُنْصَرُونَ** ﴾ ولا ينصرهم ناصر ممن عذبهم وعاقبهم ﴿ **وإنَّ للذين ظَلَمُوا عَذَاباً دونَ ذَلِكَ** ﴾ وإن للذين كفروا عذاباً في الدنيا والقبر ، قبل يوم القيامة ﴿ **وَلَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ لا يعلمون بأنهم ذائقوا ذلك العذاب ﴿ **وآصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** ﴾ واصبر يا محمد لحكم ربك ، الذي حكم به عليك ، وامض لأمره ، وبلِّغْ رسالته ﴿ **فَإِنَّكَ بِأعْيُنِنَا** ﴾ فإنا نراك ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من المشركين سوءٌ ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّك حين تَقُومُ** ﴾ وصلِّ لربك الظهر ، حين تقوم من نوم القائلة[1] ﴿ **ومن الليل فَسَبِّحْهُ** ﴾ ومن الليل فعظمٍّ ربك يا محمد ، بالصلاة والعبادة ، بالمغرب والعشاء ﴿ **وإدْبارَ النجوم** ﴾ وصلِّ الفجر حين تدبر النجوم ، عند إقبال النهار .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور »

* * *

(١) المراد بالقائلة : النوم وقت القيلولة أي « الظهيرة » وقدرجح الطبري بأن المراد بذلك صلاة الظهر ، وقال غيره : حين تقوم من منامك ، وذلك بصلاة الفجر ، وهو مروي عن ابن عباس ، وهو الأظهر والله أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾
عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾

* * *

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ والثريا إذا سقطت مع الفجر ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ما حاد صاحبكم محمد عن الحق ، ولا صار غوياً ، ولكنه على استقامةٍ وسداد ورشد[1] ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ما هذا القرآن إلا وحيٌ من الله ، أوحاه إليه ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ علم جبريل ـ شديدُ القوة ـ محمداً ﷺ هذا القرآن ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ ذو خَلْقٍ ومنظر حسن ، فارتفع واعتدل جبريل عليه السلام ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ وجبريل ومحمد عليهما السلام بمطلع الشمس الأعلى ، الذي يأتي منه النهار ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ ثم دنا جبريل من محمد ﷺ فاقترب منه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فكان جبريل من محمد ﷺ على قدر قوسين أو أقرب منه[2]

---

(١) وكأن الآية الكريمة تقول : إذا غابت الثريا عن الناس ، ولم يبق نجم في السماء ، فإن الناس يضلون عن معرفتهم الطريق في الأرض، ولكن الله تعالى الذي سيَّر النجوم في فلكها، هو المؤيد لرسوله محمد ﷺ ، فلذلك فإنه لا يضل ، ولا يزول عن الصراط المستقيم ، فالله معه دائماً. والله أعلم .

(٢) الآيات الكريمة تشير إلى رؤية الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام في صورته الحقيقية مرتين مرةً في الأرض ، ومرةً في السماء وذلك حين عُرِجَ برسول الله ﷺ إلى السموات العُلى . . فقد رُوي عن ابن مسعود أنه قال : « رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كلُّ جناحٍ منها قد سَدَّ الأفق ، يسقط من جناحه من الدُّرِّ والياقوت ما الله به عليمٌ » أخرجه الإمام أحمد . . وأما المرة التي رآه فيها في الأرض فمن جانب المشرق حين كان رسول الله ﷺ بحراء ، فطلع عليه جبريل وفتح جناحيه فسدَّ ما بين المشرق والمغرب وإليه تشير الآية الكريمة ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ .

فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾
عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ
رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ
وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾

* * *

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ ما كذب قلب محمد الذي رآه ، ولكنه صدقه ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَىٰ ﴾ أفتجادلون أيها المشركون محمداً على ما أراه الله من آياته ؟ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ولقد رأى محمدٌ جبريلَ مرةً أخرى[1] ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ عند الشجرة التي ينتهي إليها علم الخلائق ، وهي شجرة النبق ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ عند سدرة المنتهى جنة منازل الشهداء ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ حين يغشى السدرة ما يغشاها ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ ما مالَ بصر محمد ﷺ يميناً ولا شمالاً عما رأى ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ولا جاوز ما أُمر به ، فارتفع عن الحد الذي حُدَّ له ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ لقد رأى محمد هنالك من أعلام ربه الأدلة الكبرى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ أفرأيتم ـ أيها المشركون ـ الزاعمون أن « اللاتَ والعُزَّىٰ ومناة الثالثة » بناتُ الله ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ أتزعمون أن لكم الذكر الذي ترضونه، ولله الأنثى التي لا ترضونها ؟ ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ قسمتكم هذه قسمةٌ جائرة ، غير مستوية ، حيث آثرتم أنفسكم بما ترضونه ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ ما هذه الأسماء إلَّا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤ كم من قبلكم ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ لم يبح الله ذلك لكم ، ولا أذن لكم به ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ الْأَنْفُسُ﴾ ما يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن ،

---

(١) اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً في الذي رآه محمد ﷺ هل هو جبريل ؟ أو هو ربُّ العزَّة جل وعلا ؟ فذهب ابن عباس وعكرمة إلى أن الرسول رأى ربه ليلة المعراج بعينيْ رأسه ، وكان ابن عباس يقول : « إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمداً بالرؤ ية » ، وأنكرت ذلك عائشة وقالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفِرية على الله لأن الله تعالى يقول : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ وكانت تقول : إنما رأى جبريلَ عليه السلام في صورته مرتين : مرةً في الأرض حين هبط من السماء ، وقد سدَّ عِظَمُ خلقه ما بين السماء والأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى ، له ستمائة جناح .

أقول : الآيات الكريمة في سياقها ودلالتها لا تشير إلى رؤ ية الرسول ﷺ لربه ، لأن الحديث فيها إنما جاء عن جبريل بدليل قوله ﴿علَّمه شديد القوى﴾ وقوله ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾ فالضمائر كلها تدل على أن المراد به جبريل ، وقد ختم الله هذه الآيات بقوله ﴿ لنريه من آياتنا الكبرى ﴾ فهذه هي دلالة الآيات وهذه فحواها . ونحن مع أهل السُّنة والجماعة نقول: إنَّ الرسول ﷺ قد رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج كما هو مذهب الإمام أحمد ، والأدلة تؤخذ من السنة المطهرة ومن أقوال السلف لا من الآيات الكريمة فليس في السورة ما يشير إلى رؤ ية الرسول ﷺ لربه والله أعلم .

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ
ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ
عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن
ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

* * *

وهوى أنفسهم ، لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ ولقد جاء المشركين من ربهم البيان ، أن عبادة هذه الأوثان لا تنبغي ، وأنه لا تصلح العبادة إلا للّهِ الواحد القهار ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أم اشتهى محمد ﷺ النبوة والرسالة ، وتمنّى ذلك فأعطاه ذلك ربه ؟!(١) ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ﴾ فلله ما في الدار الآخرة والدنيا ، يعطي من شاء من خلقه ما شاء ، ويحرم من شاء منهم ما شاء .

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ﴾ وكثير من ملائكة الله ، لا تنفع شفاعتهم عند الله لمن شفعوا له أبداً ﴿ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ إلا من بعد أن يأذن الله لهم بالشفاعة ، ومن بعد أن يرضى شفاعة ملائكته ، فتنفعه حينئذ شفاعتهم(٢) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَىٰ ﴾ إن الذين لا يصدقون بالبعث ليسمّون ملائكة الله تسمية الإناث ، فيقولون : هم بنات الله ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾ وما لهم بما يقولون من حقيقة علم ، ما يتبعون في ذلك إلا الظن بغير علم ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ وإن الظن لا ينفع شيئاً ، فيقوم مقام الحق ﴿ فَأَعْرِضْ عن من تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ فدع يا محمد من أدبر عن ذكر الله ، ولم يؤمن به فيوحّده ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ولم يطلب ما عند الله ، ولكنه طلب زينة الحياة الدنيا ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ ﴾ ليس لهم علم ، إلا هذا الكفر والشرك ، بغير يقين علم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هو أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ إن ربك يا محمد هو أعلم بمن جار عن طريق الإسلام ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾

---

(١) هكذا فسّر الإمام ابن جرير « الإنسان » في هذه الآية بمحمد ﷺ لأن سياق السورة في الحديث عن رسول الله ، ولكن الظاهر أن الآية الكريمة على عمومها أي « ليس كل من تمنى خيراً حصل له ، وليس له كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة المقربين» ، وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

(٢) في الآية توبيخ للمشركين في اعتقادهم بشفاعة الأصنام والأوثان ، فإذا كانت شفاعة الملائكة الأبرار الأطهار لا تنفع أحداً إلا بإذن الله ورضاه ، فكيف تنفعهم شفاعة الأصنام مع حقارتها ؟

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾

* * *

وهو أعلم بمن أصاب طريق الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ولله ملك ما في السموات وما في الأرض ، يفعل ما يشاء ، وهو أعلم بعباده ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ ليجزي الذين عصوه من خلقه ، فيثيبهم النار ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنى ﴾ وليجزي الذين أطاعوه في الدنيا فيثيبهم الجنة ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ ﴾ الذين يبتعدون عن كبائر الإثم ، التي نهى الله عنها وحرمها ، كالشرك وغيره ﴿ والفَوَاحِشَ ﴾ ويبتعدون عن الزنا وما أشبهه ﴿ إلا اللَّمَمِ ﴾ إلا أن يرتكبوا ذنباً دون الفواحش ، ودون كبائر الإثم الموجبة للحدود في الدنيا، **قال عكرمة**: كل ذنبٍ ليس فيه حدٌّ في الدنيا ، ولا عذابٌ في الآخرة ، فهو اللَّمم[١] ﴿ إن ربَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ ﴾ واسعٌ عفوه للمذنبين ﴿ هو أعلمُ بكم إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ ربكم أعلم بالمؤمن والكافر ، والمحسن والمسيء ، حين ابتدعكم من الأرض ، فأحدثكم منها بخلق آدم ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ وحين أنتم حمل لم تولدوا ﴿ فلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فلا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكيَّة ، بريئة من الذنوب والمعاصي ﴿ هُوَ أعلم بِمَنِ اتَّقَى ﴾ هو أعلم بمن خاف عقوبة الله ، فاجتنب معاصيه .

﴿ أَفَرأَيتَ الذي تَوَلَّى ﴾ أفرأيت يا محمد الذي أدبر عن الإيمان بالله ، وعن دينه ، بعد أن دخل فيه ﴿ وأَعْطَى قَلِيلاً ﴾ وأعطى صاحبه قليلاً من ماله ، على أن يتحمل عنه عذاب الآخرة ﴿ وأَكْدَى ﴾ ثم بخل عليه فلم يعطه ما كان وعده[٢] ﴿ أعنده علم الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أعند هذا علم الغيب ، فهو يرى حقيقة قوله ووفائه بما وعده ﴿ أَمْ لم يُنَبَّأْ بما في صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ أم لم يخبر هذا المضمون له بالذي في صحف موسى بن عمران ؟ ﴿ وإبراهيمَ الذي وَفَّى ﴾ وإبراهيم الذي وفَّى جميع شرائع الإسلام ، وجميع ما أُمر به من الطاعة ؟ ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ﴾ أن لا يُؤاخذ أحدٌ بذنب غيره .

---

(١) قال القرطبي اللَّمم : هي الصغائر من الذنوب التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله ، كالقُبلة ، والغمزة ، والنظرة .

(٢) نزلت في « الوليد بن المغيرة » عاتبه بعض المشركين ـ وكان قد اتَّبع رسول الله ﷺ على دينه ـ فضمن له الذي عاتبه ـ إن هو أعطاه شيئاً من ماله ، ورجع إلى شركه ـ أن يتحمل عنه عذاب الآخرة ففعل ، فأعطاه بعض ما كان ضمن له ثم بخل عليه ، ومنعه الباقي .

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾
مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾

* * *

﴿ وأَنْ لَيْسَ للإنسان إلَّا ما سَعَى ﴾ وألا يُجازى عامل إلا بعمله، خيراً كان ذلك أو شراً ؟ ﴿ وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ وأن كل عامل سوف يرى عمله يوم القيامة، ويُجازى عليه، لأن كل عامل مأخوذ بعمله ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزاءَ الأَوْفَىٰ ﴾ ثم يُجزى بسعيه ذلك الثواب الأوفى[1] ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ وأن إلى ربك يا محمد انتهاء ومرجع جميع خلقه ، وهو المجازي لهم بأعمالهم ، محسنهم ومسيئهم ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَىٰ ﴾ وأن ربك هو أضحك أهل الجنة في الجنة ، وأبكى أهل النار في النار ، وأضحك من شاء من أهل الدنيا ، وأبكى من أراد أن يُبكيه منهم ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أمات من أمات من خلقه ، وأحيا من أحيا منهم ، بنفخ الروح في النطفة ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ ﴾ وأنه ابتدع إنشاء الزوجين « الذكر والأنثى » ، فجعلهما زوجين ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ خلقهما من نطفة الرجل والمرأة ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ وأن على الله أن يخلق هذين الزوجين بعد موتهم ، وأن يعيدهم خلقاً جديداً ، كما كانوا من قبل مماتهم ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ أغنى من أغناه من خلقه بالمال ، وجعل له المال قُنية[2] ـ أي غنى ـ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ وأن الله هو رب النجم « الشِّعرى » الذي يعبده بعضهم ، **قال ابن زيد** : الشِّعرى النجم الوقّاد الذي يتبع الجوزاء ، وكان يعبد في الجاهلية ، فقال الله : تعبدون هذه وتتركون ربها ؟ ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَىٰ ﴾ وأنه أهلك عاداً من الأمم الأولى بالريح الصرصر العاتية ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ ولم يبق الله ثمود فيتركها على طغيانها وتمردها على ربها ، ولكنه عاقبها فأهلكها ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وأنه أهلك قوم نوح قبل عاد وثمود ﴿ إنهم كانوا هم أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ إنهم كانوا هم أشد ظلماً لأنفسهم ، وأعظم كفراً بربهم ، وأشد طغياناً وتمرداً على الله ، من غيرهم من الأمم ﴿ والمُؤْتَفِكَةَ

---

(١) أي يُجزى على عمله الجزاء الأتم الأكمل ، وفي الآية وعدٌ للمؤمن ، ووعيدٌ للكافر .

(٢) هكذا فسّره الإمام الطبري وهو قول السُّدي ، قال الجوهري : قنِيَ الرجل يَقْنى مثل غَنِيَ يَغْنَى أي أعطاه الله ما يُقتنى من المال والنشب ، وأقناه الله رضّاه ، وقال بعض المفسرين المعنى : أغنى من شاء من عباده وأفقر من شاء ، وهو مروي عن ابن زيد ، ولعل هذا القول أظهر للمقابلة فيكون المعنى أغنى وأفقر ، كما قابل بين « أضحك وأبكى » و « أمات وأحيا » والله أعلم .

فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ
لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ
سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ۩

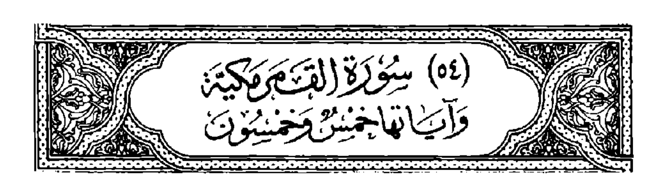
* * *

أَهْوَى﴾ وقرية « سدوم » المقلوب أعلاها أسفلها هوت مقلوبة بقوم لوط ﴿ **فَغَشَّاها ما غَشَّى** ﴾ فغشَّاها الله من الحجارة المنضودة ما غشَّاها ، وأمطرها بحجارة من سجيل ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارَى** ﴾ فبأي نعم ربك يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب ، وتشك ، وتجادل ﴿**هَذَا نَذِيرٌ من النُّذُرِ الأُولى**﴾ هذا الذي أنذرتكم به أيها الناس من الوقائع ، من النُّذُر الأولى التي جاءت الأمم قبلكم[1] ﴿ **أَزِفَتِ الآزِفَةُ** ﴾ دنت القيامة القريبة منكم أيها الناس ﴿ **ليس لها من دون اللهِ كاشِفَةٌ** ﴾ ليس للساعة التي قد دنت من دون الله كاشف لها ، فلا تقوم إلا بإقامة الله إياها ﴿ **أَفَمِنْ هذا الحديثِ تَعْجَبُونَ** ﴾ أفمن هذا القرآن أيها الناس تعجبون؟ أن نزل على محمد ﷺ ﴿**وتضحكون ولا تَبْكُونَ**﴾وتضحكون منه استهزاء به،ولا تبكون ممافيه من الوعيد لأهل المعاصي ﴿ **وأنتم سَامِدُون** ﴾ وأنتم لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته ﴿ **فاسْجُدوا لله** ﴾ فاسجدوا لله في صلاتكم دون من سواه من الآلهة والأنداد ﴿ **وآعْبُدوا** ﴾ وإياه فاعبدوا دون غيره فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلاّ له .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم »

* * *

(١) هذا التفسير الذي ذكره ابن جرير هو قول أبي مالك أن المراد بالنذير ما أنذرهم الله به من العذاب الذي حلّ بالأمم المكذبين وروي عن قتادة أن المراد بالنذير محمد ﷺ والمعنى هذا محمد رسول منذر كسائر الرسل المنذرين قبله .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾

* * *

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة [١] ﴿ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ وانفلق القمر عندما سأل كفار مكة رسول الله ﷺ وهو بمكة آية ، فأراهم إنشقاق القمر ، حجةً على نبوته وصدقه ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ وإن ير المشركون علامة ، تدلهم على حقيقة نبوة محمد ﷺ ، يعرضوا عنها ، فيولُّوا مكذبين منكرين أن تكون حقاً ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ ويقولوا : هذا سحرٌ سَحَرنا به محمد ، حتى خَيَّل إلينا أنا نرى القمر منفلقاً فلقتين بسحره ، وهو سحرٌ ذاهب [٢] ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وكذَّب المشركون بآيات الله ، بعد ما عاينوا الدلالة على صحتها ، برؤيتهم القمر منفلقاً فلقتين ، وآثروا اتِّباع ما دعتهم إليه أهواؤهم ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ وكل أمرٍ من خير أو شرٍّ ، متناهٍ نهايته ، مستقرٌّ قراره ، فالخير مستقرٌّ بأهله في الجنة ، والشر مستقرٌّ بأهله في النار ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ ولقد جاء هؤلاء المشركين من الأخبار، عن الأمم السالفة التي أهلكها الله ، ما يردعهم ويزجرهم عما هم مقيمون عليه من التكذيب بآيات الله ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ ﴾ هذا القرآن حكمة بالغة ، فليست تغني عنهم النذر

---

(١) قال الطبري : وهذا إنذار من الله تعالى لعباده بدنوِّ القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرٌ لهم بالاستعداد لأهوال القيامة ، قبل هجومها عليهم وهم عنها ساهون .

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال : « إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، حتى رأوا حراء بينهما ، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا » .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ
وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ
عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾

* * *

ولاينتفعون بها ، لإعراضهم عنها وتكذيبهم بها [1] ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين من قومك ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شيءٍ نُكُرٍ ﴾ فإنهم يوم يدعو داعي الله إلى موقف القيامة [2]﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ تكون أبصارهم ذليلة خاشعة ، لا ضرر بها ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ ﴾ يخرجون من القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ كأنهم في انتشارهم وسعيهم إلى موقف الحساب ، جراد منتشر [3] ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ مسرعين بنظرهم قِبَل داعيهم إلى ذلك الموقف ﴿ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يقول الكفار : هذا يوم صعب عسير ، لشدة أهواله وبَلْباله ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ كذَّب قبل هؤلاء الذين كذبوك يا محمد ، قوم نوح ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ فكذبوا عبدنا نوحاً إذ أرسلناه إليهم ، كما كذبتك قريش ، وقالوا : هو مجنون وزجروه وتوعَّدوه [4] ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ فدعا نوح ربه : إنَّ قومي قد غلبوني ، تمرداً وعتواً ، ولا طاقة لي بهم ، فانتصر لي منهم بعقاب من عندك ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ ففتحنا أبواب السماء بماءٍ متدفق ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً ﴾ وأسلنا في الأرض عيون الماء ﴿ فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾فالتقى ماء السماء وماء الأرض ، على أمرٍ قضاه الله في اللوح المحفوظ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح ومسامير ﴿ تجري بأَعْيُننا ﴾ تجري هذه السفينة ، بمرأى منا ومنظر ﴿ جزاءً لمن كان كُفِرَ ﴾ فعلنا ذلك جزاءً وثواباً للذي جُحد وكُفر به،وهو نوح عليه السلام ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ ولقد تركنا سفينة نوح ، عبرةً وعظة للأمم ، ليعتبروا ويتعظوا ، فينتهوا عن أن يسلكوا مسلكهم في الكفر وتكذيب رسل الله ﴿ فهل

---

(١) هذا أحد وجهين ذكرهما الإمام الطبري أن « ما » للنفي ، والآخر أنها للإستفهام والمعنى : فماذا تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه وسمعه ؟ وماذا تنفعه المواعيد والإنذارات ؟

(٢) إنما وصف موقف القيامة بأنه﴿شيء نُكُر﴾ لأنه يوم فظيع ، شديد الهول ، تنكره النفوس لشدته وهوله ، لما ترى فيه من البلاء والأهوال ، وهو يوم صعبٌ على الكفار فقط ، كما قال تعالى ﴿على الكافرين غير يسير﴾ وقال هنا ﴿يقول الكافرون هذا يومٌ عسر﴾ .

(٣) شبههم بالجراد المنتشر لكثرتهم وموج بعضهم في بعض ، فإن الجراد لا جهة له يقصدها ، وكذلك الناس يخرجون من قبورهم فزعين ليس لأحدٍ جهة يقصدها ، بل هم في فزع ، وهلع ، واضطراب ، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والفزع .

(٤) توعَّدوه بقولهم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نوحُ لتكونَنَّ من المَرْجُومِينَ﴾ .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ

* * *

من مُدَّكِرٍ ﴾ فهل من متذكر ، يعتبر بما فعلنا بقوم نوح ، فينيب إلى التوبة ؟! **﴿ فكيف كان عذابي وَنُذُرِ ﴾** فكيف كان عذابي لهؤلاء حين تمادوا في غيِّهم وضلالهم ؟ وكيف كان إنذاري بما فعلت بهم من العقوبة التي أحللت بهم ؟ ! **﴿ ولقد يَسَّرْنا القرآن لِلذِّكْرِ ﴾** ولقد سهلنا القرآن ، وبيناه ، وفصَّلناه ، لمن أراد أن يتذكر ويتعظ **﴿ فهل من مُدَّكِرٍ ﴾** فهل من معتبر متعظ بما فيه من العبر والذكر ؟ **﴿ كَذَّبَتْ عادٌ ﴾** كذبت أيضاً عاد [1] نبيهم « هوداً » فيما أتاهم به عن الله كما كذبت قريش محمداً ﷺ **﴿ فكيف كان عذابي وَنُذُرِ ﴾** فانظروا كيف كان عذابي إياهم وعقابي لهم ، على كفرهم وتكذيبهم ؟!

﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صَرْصَراً ﴾ إنا بعثنا على « عادٍ » ريحاً باردة شديدة العصوف ، لصوتها صريرٌ **﴿ في يومِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾** في يوم شرٍّ وشؤمٍ لهم ، استمرَّ بهم العذاب إلى أن وافَى بهم نار جهنم **﴿ تَنْزِعُ الناسَ كأنهم أعجاز نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾** تقتلع الناس ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتندق رقابهم ، فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر [2] **﴿ فكيف كان عذابي وَنُذُرِ ﴾** فانظروا معشر كفار قريش كيف كان عذابي لقوم عاد ، حين كفروا بربهم ، وكذبوا رسوله ؟ وكيف كان إنذاري بهم من أنذرتُ ؟ **﴿ ولقد يَسَّرْنا القرآنَ لِلذِّكْرِ فهل من مُدَّكِرٍ ﴾** ولقد سهلنا القرآن وهوَّناه، لمن أراد التذكر به والاتعاظ ، فهل من متَّعظٍ ، ومنزجرٍ بآياته ؟

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنُّذُرِ ﴾ كذبت ثمود قوم « صالح » بنذر الله التي أتتهم من عنده **﴿ فقالوا أَبَشَراً منا واحداً نَتَّبِعُهُ ﴾** فقالوا تكذيباً منهم لصالح : أبشراً من جنسنا نتبعه نحن الجماعة الكثيرة وهو واحد ؟! **﴿إنا إذاً لفي ضَلالٍ وسُعُرٍ﴾** قالوا : إنا إذا اتبعنا صالحاً ، لفي ذهاب عن الصواب ، وعناءوعذاب [3] **﴿ أَءُلْقِيَ الذكْر عليه من بَيْنِنا ﴾** أأنزل عليه الوحي ، وخُصَّ بالنبوة من بيننا ، وهو واحدٌ منا ؟ **﴿ بَلْ هُوَ**

---

(١) في هذه السورة الكريمة ذكر الله تعالى بإيجاز قصص بعض الأنبياء ، تسلية لرسوله محمد ﷺ لما يلقاه من أذى المشركين ، وهذه هي القصة الثانية ، قصة « عادٍ » مع نبيهم « هود » بعد ذكر قصة نوح مع قومه .

(٢) أي تتركهم كأنهم أصول نخل انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض ، شبهوا بالنخل لضخامة أجسامهم وطولهم المفرط .

(٣) فسَّر ابن جرير « السُّعُر » بأنه جمع سعير بمعنى العذاب وهو قول قتادة ، والأظهر أن المراد به الجنون كما قال ابن عباس ، مأخوذ من قولهم : ناقة مسعورة أي كأنها مجنونة من شدة نشاطها ومعنى الآية : إنا إذا اتبعنا صالحاً وهو واحد منا نكون في خطأ واضح ، وجنون دائم ، والله أعلم .

كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً
مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾

* * *

﴿ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ بل هو كاذب ، متكبر متجبر ﴿ سيعلمونَ غداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ سيعلمون غداً في القيامة من هو الكذاب الأشر ، ثمود أم رسولنا صالح ؟ ﴿ إنا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فتنةً لهم ﴾ إنا باعثو الناقة التي سألتها ثمود ، حجة لصالح على صدق قوله ، وابتلاءً لهم واختباراً ، هل يؤمنون بالله ، ويتبعون صالحاً ؟ ﴿فارْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم يا صالح ، وتبصَّرْ ما هم صانعون بها ﴿ واصْطَبِرْ ﴾ ولا تعجل وانتظر ما يصنعون بناقة الله ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أن الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ وأخبرهم أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة ، يومٌ لهم ويومٌ لها ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ يحضرون يوم لا ترد لشرب الماء ، ويوم ورودها لشرب اللبن يحضرون اللبن [1] ﴿ فنادوا صَاحبهم ﴾ فنادت ثمود صاحبهم « قُدار بن سالف » عاقر الناقة ليعقرها ، وحضوه على ذلك ﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ فتناول الناقة بيده فعقرها ﴿ فكيف كان عذابي ونُذُرِ ﴾ فكيف كان عذابي إياهم ؟ ألم أهلكهم بالرجفة ؟ وكيف كان إنذاري من أنذرتُ من الأمم بعدهم ؟ ﴿ إنا أرسلنا عليهم صَيْحَةً واحدة ﴾ إنا أهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل فيهم ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ ﴾ فكانوا كيابس الشجر ، الذي جعلت منه الحظيرة ﴿ ولقد يسَّرْنا القرآنَ للذكرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد هوَّنا القرآن وبيَّناه ، لمن أراد أن يتذكر به فيتعظ ، فهل من متعظ به ومعتبر ؟! ﴿ كَذَبتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنُّذُرِ ﴾ كذبت قوم لوط بآيات الله ، التي أنذرهم وذكَّرهم بها لوطٌ عليه السلام ﴿ إنا أرسلنا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ إنا أرسلنا عليهم حجارة ﴿ إلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ غير آل لوط الذين اتبعوه على دينه ، فإنا أنجيناهم من العذاب وقت السَّحر ﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ نعمةً أنعمناها على « لوطٍ » وآله ، وكرامةً أكرمناهم بها من عندنا ﴿ كذلكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ كذلك نثيب من شكرنا على نعمتنافأطاعنا،من جميع خلقنا ﴿ ولقد أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بالنُّذُرِ ﴾ ولقد أنذر « لوطٌ » قومه بطشتنا قبل ذلك ، فكذبوا بإنذاره ولم يصدِّقوه ، شكاً منهم فيه .

---

(١) هكذا فسره الطبري وقال غيره : المعنى كل حصة ونصيب من الماء يحضرها من كانت نوبته ، فإذا كان يوم القوم حضروا شربهم ، وإذا كان يوم الناقة حضرت شربها ، قال ابن عباس : إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً ، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئا . ا هـ القرطبي ١٧/١٤٠

وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ
مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى

* * *

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عن ضيفه ﴾ ولقد راود لوطاً قومه ، عن ضيفه الذين نزلوا به ، حين أراد الله إهلاكهم ﴿ فَطَمَسْنَا أعْيِنهم ﴾ فطمسنا [1] على أعينهم ، حتى لا يُرى لها شقٌ ، فلم يبصروا ضيفه ﴿ فَذُوقوا عذابِي ونُذُرِ ﴾ فذوقوا عذابي الذي حل بكم ، وإنذاري الذي أنذرت به غيركم من الأمم ﴿ ولقد صَبَّحَهُمْ بُكْرَةٌ عذابٌ مُسْتَقِرٌ ﴾ ولقد صبح قومَ لوط عند طلوع الفجر ، حجارةٌ رُموا بها من السماء ، استقرَّ ذلك العذاب فيهم إلى يوم القيامة ، حتى يوافوا عذاب الله الأكبر في جهنم ﴿ فذوقوا عذابِي ونُذُرِ ﴾ فذوقوا معشر قوم لوط عذابي الذي أحللته بكم ، وإنذاري بكم الأمم بما أنزلته بكم من العقاب ﴿ ولقد يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِرٍ ﴾ ولقد سهلنا القرآن لمن أراد التذكر به ، فهل من متعظ ومعتبر به ؟ ﴿ ولقد جاء آلَ فرعونَ النُّذُرُ ﴾ ولقد جاء أتباعَ فرعون وقومه ، إنذارُنا بالعقوبة بكفرهم بنا ، وبرسولنا موسى ﷺ ﴿ كذَّبوا بآياتنا كلِّها ﴾ كذب قوم فرعون بأدلتنا وحججنا التي جاءتهم من عندنا ﴿ فأخذناهم أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ فعاقبناهم بكفرهم عقوبة ربٍّ شديدٍ عزيز في نقمته ، غير عاجزٍ ولا ضعيف ﴿ أكُفَّارُكُمْ خيرٌ من أُولئكم ﴾ أكفاركم يا معشر قريش خير من الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح،وعادٍ، وثمود ؟! حتى تنجوا من عذابي ؟ ﴿ أمْ لَكُمْ براءَةٌ في الزُّبُرِ ﴾ أم لكم براءة من عقاب الله في الكتب ؟! ﴿ أم يقولون نحن جميعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أيقول كفار قريش : نحن جميعٌ منتصر ممن قصدنا بسوءٍ ومكروه ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ سيهزم جمع كفار قريش ، ويولون أدبارهم للمؤمنين ، وقد هُزموا يوم بدر[2] ﴿ بل الساعةُ موعِدُهُمْ ﴾ بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب ﴿ والساعة أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ والساعة أشدُّ عليهم من الهزيمة التي يهزمونها أمام المؤمنين ﴿ إن المجرمينَ في ضَلالٍ ﴾ إن المجرمين

---

(١) أي أعمينا أعينهم حتى لم يبصروا ، روي أن الملائكة لما دخلوا على لوط كانوا في صورة شبابٍ حسانٍ مُرْدٍ ، فجاء قومه يسرعون نحوهم لقصد الفاحشة بهم ، فأغلق لوط دونهم الباب فجعلوا يحاولون كسره ، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم وعموا فلم يبصروا ما حولهم فذلك قوله تعالى ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾.

(١) قال عمر لما نزلت ﴿سيُهزم الجمع﴾ جعلتُ أقول : أيَّ جمع سيهزم ؟ فلما كان يوم بدر ، رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول ﴿سيُهْزَمُ الجمع ويولون الدبر ﴾ فعلمت أنه يوم بدر .

﴿ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ وَمَآ
أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾﴾

***

في ذهاب عن الحق ، وأخذ على غير هدى ﴿ وسُعُرٍ ﴾ وهم في احتراق من شدة العناء ، والنصب في الباطل [1] ﴿ يوم يُسْحَبُونَ في النارِ عَلَى وُجُوهِهِم ﴾ يوم يسحب هؤلاء المجرمون على وجوههم في النار ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ يُقـال لهم : ذوقوا مس جهنم ﴿ إنَّا كل شيء خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ إنا خلقنا كل شيء ، بمقدارٍ قدَّرناه وقضيناه ﴿ وما أَمْرُنَا إلاَّ واحدةٌ ﴾ وما أمرنا للشيء إذا أردنا أن نكوِّنه إلا قولةٌ واحدةٌ « كُنْ » فيكون ، لا مراجعة فيها ولا مرادَّة ﴿ كَلَمْحٍ بالبَصَرِ ﴾ كسرعة اللمح بالبصر ، لايبطىء ولا يتأخر ﴿ ولقد أهلكنا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ ولقد أهلكنا أمثالكم من الأمم السالفة والقرون الخالية ، الذين كانوا على مثل الذي أنتم عليه ، من الكفر بالله وتكذيب رسله ﴿ فهل من مُدَّكِرٍ ﴾ فهل من متعظ بذلك منزجرٍ ينزجر به ؟ ﴿ وكل شيء فَعَلوه في الزُّبُرِ ﴾ وكل شيء فعله الذين مضوا قبلكم ، في كتب الحفظة التي كتبتها عليهم ﴿ وكل صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ وكلُّ صغير وكبير من الأشياء ، مثبتٌ في الكتاب مكتوب ﴿ إنَّ المتَّقِينَ في جناتٍ ونَهَرٍ ﴾ إن الذين اتقوا عقاب الله ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، في بساتين وأنهار يوم القيامة ﴿ في مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مجلس حقٍّ ، لا لغو فيه ولا تأثيم ﴿ عند مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ عند إلهٍ مقتدر على ما يشاء ، وهو الله ذو القوة المتين ، تبارك وتعالى .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر »

* * *

(١) وقال ابن عباس : في خسرانٍ وجنون ، وهذا كما تقدم أن السُّعُر عند ابن عباس معناه الجنون .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥
وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ
بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١

***

﴿ الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ الرحمن - أيها الناس - علمكم القرآن برحمته ، فأنعم بذلك عليكم ، إذ بصَّركم به ما فيه رضا ربكم ، وعرَّفكم ما فيه سخطه ، لتُطيعوه فتستوجبوا جزيل ثوابه ، وتنجوا من أليم عقابه ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ خلق آدم والناس ، وعلَّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه ، من الحلال والحرام ، والمعايش والمنطق ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ الشمس والقمر يجريان بحساب ومنازل ﴿ وَالنَّجْمُ ﴾ وما نجم من الأرض من نبات مما ينبسط عليها كالبقل ، ولم يكن له ساق[1] ﴿ وَالشَّجَرُ ﴾ وما قام على ساق من النبات ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ يسجدان لله ، فكل الأشياء المختلفة الهيئات تسجد لله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ والسماء رفعها فوق الأرض ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ووضع العدل بين خلقه في الأرض ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ ألَّا تظلموا وتبخسوا في الوزن[2] ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ وأقيموا لسان الميزان بالعدل ﴿ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ ولا تُنقصوا الوزن إذا وزنتم للناس وتظلموهم ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ والأرض وطَّأها - مهَّدها - للخلق ليعيشوا فوقها ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ في الأرض

---

(١) اختلف المفسرون في معنى « النجم » في هذه الآية ، فذهب ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي للذي اختاره ابن جرير ، بينما ذهب مجاهد والحسن وقتادة إلى أنه « النجم » الذي في السماء ، قال ابن كثير : وهذا القول هو الأظهر ، والله أعلم .

(٢) عن أبي المغيرة قال : سمعت ابن عباس يقول في سوق المدينة : يا معشر الموالي إنكم قد بُليتم بأمرين هلك بهما من كان قبلكم : المكيال ، والميزان .

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾
وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ

* * *

فاكهة كثيرة ﴿ **وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ** ﴾ والنخل ذات ليفٍ متكمِّمة به ، وذات طلعٍ ﴿ **وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ** ﴾ وفي الأرض حب البرُّ والشعير ، ذو الورق والتبن ﴿ **وَالرَّيْحَانُ** ﴾ وفيها الرزق المطعوم[١] الذي يُؤكل منه ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعمها عليكم تكذبان ؟! ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** ﴾ خلق الله « آدم » من الطين اليابس ، يسمع له صلصلة ـ صوت ـ كالفخار إذا يبس ﴿ **وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ** ﴾ وخلق الله الجانّ من لهب النار ، المختلط بعضُه ببعض ، من بين أحمر ، وأصفر ، وأخضر ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين تكذبان ؟! ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ** ﴾ ذلكم رب مشرق الشمس ، ورب مغربها ، في الصيف والشتاء ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس تكذبان ؟ من تسخيره الشمس لكم تجري دائبة بمرافقكما ومصالحكما ؟ ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ** ﴾ ترك الله وأرسل بحر السماء ، وبحر الأرض يلتقيان[٢] ﴿ **بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ** ﴾ بينهما حاجزٌ وبُعْدٌ ، لا يفسد أحدهما صاحبه ، فيبغي بذلك عليه ، ولا يتجاوزان حدَّ الله الذي حدَّه لهما ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس تكذبان ؟ ﴿ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ يخرج من هذين البحرين ، اللؤلؤ الذي يخرج من أصداف البحر وهو الكبار ، وصغار اللؤلؤ وهو المرجان[٣] ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ **وَلَهُ الْجَوَارِ**

(١) فسَّر ابن جرير « الريحان » بأنه الرزق المطعوم ، وفسره غيره بأنه كل مشموم طيب الريح من النبات ، كالورد ، والفُلّ ، والياسمين ، وهو قول ابن عباس والضحاك ، وهو الأظهر والله أعلم .

(٢) قال ابن جرير رحمه الله تعالى : عنى به بحر السماء ، وبحر الأرض ، وذلك أن الله قال ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطر السماء ، فمعلوم أن ذلك بحر الأرض ، وبحر السماء . اهـ . وقال ابن كثير : وهذا لا يساعده اللفظ فإنه تعالى قد قال ﴿ بينهما برزخٌ لا يبغيان ﴾ أي وجعل برزخاً وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ، وما بين السماء والأرض لا يسمى « برزخاً » وحجراً محجوراً ، فالمقصود هنا بالبحرين « الحلو ، والمالح » وهو الأوضح ، لما ورد في سورة الفرقان ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذبٌ فرات ، وهذا ملحٌ أُجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ .

(٣) رجح الإمام الطبري أن اللؤلؤ هو كبار الدُّر الذي يخرج من صدف البحر ، والمرجان هو صغار الدُّر ، وهذا قول قتادة ، ونقل الألوسي عن ابن عباس العكس أن اللؤلؤ صغار الدر ، وأن المرجان كباره والله أعلم .

فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ
وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى
شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾

***

الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ ولله تعالى السفن الجارية في البحار ،المرفوعات القلاع، يقبلن ويدبرن كالجبال ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعمها عليكم تكذبان ؟ ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** ﴾ كل من على ظهر الأرض ، من جنٍّ وإنسٍ فإنه هالك(١) ﴿ **وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ ويبقى وجه ربك يا محمد ذو الجلال والإكرام(٢) ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين تكذبان ؟

﴿ **يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ إليه يفزع بمسألة الحاجات، كلُّ من في السموات والأرض من مَلَك ، وإنس ، وجنّ وغيرهم ، لا غنى لأحد منهم عنه ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ هو كل يوم في شأن خلقه فيفرج كرب ذي كرب ، ويرفع قوماً ، ويخفض آخرين وغير ذلك من شئون خلقه ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ** ﴾ سنحاسبكم(٣) ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجن ، فنعاقب أهل المعاصي ، ونثيب أهل الطاعة ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعمها عليكم تكذبان ؟ ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا** ﴾ يا معشر الثقلين إن استطعتم أن تهربوا من أطراف السموات والأرض ، فتخرجوا من سلطاني فاخرجوا ﴿ **لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** ﴾ لا تخرجون إلا بحجة وبيِّنة ، وليس لكم ذلك ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ فبأي نعم ربكما تكذبان معشر الثقلين ؟ ﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ** ﴾ يرسل عليكما يوم القيامة لهب من نار

---

(١) وجه النعمة في فناء الخلق ، أن الله عز وجل سوَّى فيه بين الغني والفقير ، والعظيم والحقير ، وبين الملوك وأفراد الناس ، فلا يموت الضعفاء ويبقى الأقوياء بل الكل فيه على سواء .

(٢) أي ذو العظمة والكبرياء ، والإفضال والإنعام .

(٣) هذا وعيدٌ من الله وتهديدٌ لعباده ، كما يقول القائل لمن يتوعده : سأتفرغ لك ، قال ابن عباس : هذا وعيد من الله للعباد ، وليس بالله شغل وهو فارغ .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ
فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾

***

ودخان ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ منه إذا هو عاقبكما هذه العقوبة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي آلاء ربكما من النعم تنكرانها ؟ ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ فإذا تفطرت السماء يوم القيامة ، فكان لونها لون الورد الأحمر ، مشرقة صافية الحمرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس تكذبان ؟!﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ فيومئذ لا تسأل الملائكة المجرمين عن ذنوبهم ، لأن الله قد حفظها عليهم ، ولا يسأل بعضهم عن ذنوب بعض ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ تعرف الملائكةُ المجرمين بعلاماتهم ـ من اسوداد الوجوه ، وزرقة العيون ـ فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم ، فتسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يقال لهؤلاء المجرمين : هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ يطوف المجرمون بين أطباقها ، وبين ماء قد أسخن وأغلي حتى انتهى حره ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس التي أنعمها عليكم تكذبان ؟ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ولمن اتّقى الله وخاف مقامه بين يديه ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه بستانان يتنعم فيهما ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما أيها الثقلان التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ جنتان ذواتا ألوان[1] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين تكذبان؟ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ في هاتين الجنتين عينا ماءٍ تجريان خلالهما ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الإنس والجن تكذبان ؟ ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ فيهما

---

(١) فسّر الطبري « الأفنان » بأنها الألوان من الفاكهة ، وقال غيره : هي الغصون أي ذواتا أغصان متفرعة وثمارٍ متنوعة ، وخصها بالذكر لأنها هي التي تورق وتثمر ، وهذا قول مجاهد وهو الأظهر والله أعلم .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾
كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

* * *

من كل نوعٍ من الفاكهة ضربان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي آلاء ربكما التي أنعم بها عليكما أيها الثقلان تكذبان ؟ ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ مضطجعين على فرشٍ بطائنُها من غليظ الديباج ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ وثمر الجنتين الذي يُجْتنى ، قريبٌ منهم يقطفونه بغير عناء ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم بها عليكما تكذبان ؟

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ في هذه الفرش نساءٌ قد قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم من الرجال ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ لم يجامعهن إنس قبل أزواجهن ولا جانٌ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس تكذبان ؟ ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ كأن هؤلاء النساء في صفائهن وحسنهنَّ الياقوت والمرجانُ ، أمَّا الياقوتُ فإنك لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت السلك من ورائه[1] ، فكذلك النساء يرى مُخُّ سُوقهنَّ من وراء أجسامهنَّ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم معشر الثقلين تكذبان ؟ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ هل ثواب من أحسن في الدنيا عمله ، وأطاع ربه ، إلا أن يحسن ربه إليه في الآخرة ؟ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما تكذبان ؟ ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ومن دون هاتين الجنتين[2] الموصوفتين جنتان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما معشر الإنس والجن تكذبان ؟ ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ مسوادتان من شدة خضرتهما ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فيهما عينان تفوران بالماء ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

---

(١) قال ابن مسعود : « إن المرأة من أهل الجنة ليُرى بياضُ ساقها من وراء سبعين حلةً من حرير ، حتى يُرى مخُّها » أخرجه الترمذي .

(٢) أي ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان ، قال المفسرون : الجنتان الأوليان للسابقين ، والأخريان لأصحاب اليمين ، فمقام السابقين أعظم وأرفع ، اللهمَّ ادخلنا الجنَّة مع السابقين .

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾

* * *

تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ **﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾** في هاتين الجنتين فاكهةٌ، ونخلٌ[1] ، ورمانٌ **﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾** فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ **﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾** في هذه الجنان الأربع ، نساءٌ خيِّراتُ الأخلاق ، حسانُ الوجوه **﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾** فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم تكذبان ؟ **﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾** هؤلاء الحسان بيض محبوسات في البيوت على أزواجهن ، فلا يردن غيرهم **﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾** فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكما تكذبان ؟ **﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾** لم يمسهنَّ بنكاحٍ فيدميهن إنس قبلهم ولا جانّ **﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾** فبأي نعم ربكما التي أنعم عليكم بها تكذبان ؟ **﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾** مستندين على مرافق خضرٍ[2] **﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾** وطنافس ثخان **﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾** فبأي نعم ربكما التي أنعم بها عليكم معشر الإنس والجن تكذبان ؟ **﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾** تبارك ذكر ربك يا محمد ، ذي العظمة والكبرياء ، الذي له الإكرام من جميع خلقه .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن »

* * *

---

(١) إنما ذكر النخل والرمان ترغيباً لأهل الدنيا ، ثم إنَّ نخل الجنة ورمانها وراء ما نعرفه ، فقد روي عن سعيد بن جبير أنه قال : نخل الجنة جذوعها من ذهب ، وعروقها من ذهب ، وعراجينها من زمرد ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، ورطبها أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ا هـ . رزقنا الله الجنة ونعيمها .

(٢) المراد بها الوسائد الخضر من وسائد الجنة وقيل : هي رياض الجنة وأما العبقري فهو جمع عبقرية وهي الطنفسة ـ السجادة ـ فأهل الجنة يجلسون على طنافس ثخينة مزخرفة ، محلاَّة بأنواع الصور والزينة ، بلغت النهاية في الحسن .



بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ
بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾

***

﴿ إذا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ إذا نزلت صيحة القيامة، وذلك حين يُنفخ في الصور لقيام الساعة ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كاذبة ﴾ ليس لوقعتها تكذيب، ولا ارتداد، ولا تثنية لصيحتها ﴿ خافِضَةٌ رافِعَةٌ ﴾ تخفض أقواماً كانوا في الدنيا أعزاء إلى نار الله، وترفع أقواماً كانوا في الدنيا وضعاء إلى رحمة الله وجنته ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجّاً ﴾ إذا زلزلت الأرض فحُركت تحريكاً، حتى اهتزت واضطربت ﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً ﴾ وفتتت الجبال فصارت كالدقيق المبلول ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ فكانت هباء متفرقاً ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثةً ﴾ وكنتم أيها الناس أنواعاً ثلاثة: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقون ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ فأصحاب اليمين الذين يُؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، أي شيء أصحاب اليمين؟ يُعجِّبُ نبيه محمداً ﷺ منهم ﴿ وأصحابُ المشْأَمِةِ ما أصْحابُ المشْأمَةِ ﴾ وأصحاب الشمال الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، ماذا لهم وماذا أعدَّ الله لهم؟ ﴿والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ والذين سبقوا إلى الإيمان بالله ورسوله، وهم المهاجرون الأولون [1]. ﴿ أُولَئِكَ المُقَرَّبُونَ ﴾ أولئك الذين يقربهم الله منه يوم القيامة، إذا أدخلهم الجنة ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ في بساتين النعيم الدائم ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾

(١) هكذا فسره الإمام الطبري، والظاهر أن المقصود بهم: المبادرون إلى فعل الخيرات من كل أمة، الذين يسبقون غيرهم فيها، كما قال ابن كثير: فمن سَابَق في هذه الدنيا، وسَبَق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل.

عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾
وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾

* * *

جماعة من الأمم الماضية ، وقليل من أمة محمد ﷺ الذين هم آخر الأمم [1] ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ فوق سرر منسوجة بالذهب والجوهر ، قد أُدخل بعضها في بعض كحلق الدرع ، **قال عكرمة** : مشبَّكة بالدُّرِّ والياقوت ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ متكئين على السرر ،متقابلين بوجوههم ،لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ يطوف على هؤلاء السابقين ولدانٌ على سنٍّ واحدة ، لايتغيَّرون ولا يموتون ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ يطوفون عليهم بأكواب [2] ـ أقداح ـ لا عُرى لها ، وأباريق يُصَبُّ لهم منها ، أكبر من الأقداح ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ وكأس خمر من شراب جارٍ ظاهر للعيون ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ لا تصدع رؤوسهم عن شربها فيسكرون ، ولا ينفد شرابهم [3] ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ ويطوف الولدان عليهم بفاكهة من الفواكه التي يتخيرونها من الجنة لأنفسهم ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وبلحم طيرٍ مما تشتهيه نفوسهم من الطير [4] ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ولهم نساء يتصفن بنقاء بياض العين ، مع سعة العين في حُسْن ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ وهنَّ في صفاء بياضهنَّ وحسنهنَّ ، كاللؤلؤ الذي قد صين في الصَّدف ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ثواباً لهم من الله بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً ﴾ لا يسمعون فيها باطلاً من القول ، وليس فيها ما يؤثِّمهم ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾ لا يسمعون فيها من القول إلا قول « سَلاماً سَلاماً » أي اسلمْ مما تكره ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ وأصحاب اليمين الذين أُعطوا كتبهم بأيمانهم أيُّ شيءٍ هم ؟ وماذا أُعدَّ لهم من الخير ؟ ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ هم في ثمر سدرٍ موقر حملاً ، قد ذَهَب شوكه [5]

---

(١) قال الإمام ابن كثير : ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها . ثم أورد أحاديث تؤيد ذلك ثم قال: وهذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة لشرف دينها ، وعظم نبيها . اهـ .

(٢) قال ابن عباس : الأكواب : الجرار من الفضة ، وقال مجاهد : الأكواب ما ليس لها آذان ، والأباريق ما كان لها آذان . اهـ الطبري ١٧٤/٢٧

(٣) قال الضحاك وقتادة ﴿ولا يُنزفون﴾ لا تذهب عقولهم ، وفسَّره الطبري بأنه لا ينفد شرابهم .

(٤) روي في الحديث « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه ، فيخرُّ بين يديك مشوياً » أخرجه ابن أبي حاتم .

(٥) رُوي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال : وما هي ؟ قال : السِّدر فإن له شوكاً !! فقال له رسول الله ﷺ : أليس الله يقول ﴿ في سدرٍ مخضود ﴾ ؟ خضد الله شوكه ـ أي قطعه ـ فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، وإن الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ، ما فيها لونٌ يشبه الآخر » أخرجه الحاكم والبيهقي .

وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ
مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ
مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ

* * *

﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ وموزٍ قد نُضِد بعضُه على بعضٍ وجُمع ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ وهم في ظلٍّ دائم ، لا تنسخه الشمس فتذهب به ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ وفيه أيضاً ماء مصبوب ، يجري في غير أخدود ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لاَ مَقْطُوعَةٍ ﴾ وفيها فاكهة كثيرة، لاينقطع عنهم شي منها في وقتٍ من الأوقات ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ ولا يمنعهم منها شوكٌ أوشيء كبعدها عنهم ، ولكنْ إذا اشتهاها أحدهم ، وقعت في فيه ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ ولهم فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض وفي الحديث « ارتفاعها كما بين السماء والأرض » .

﴿ إنَّا أنشأناهنَّ إنشاء ﴾ إنا خلقنا نساء الجنة خلقاً فأوجدناهن ﴿ فجعلناهُنَّ أبْكاراً ﴾ فجعلناهن أبكاراً بعد أن كن عذارى ﴿ عُرُباً ﴾ متوددات متحبّبات إلى أزواجهن ﴿ أتراباً ﴾ مستويات على سن واحدة [١] ﴿ ثُلَّةٌ من الأوَّلينَ ﴾ الذين لهم هذه الكرامة جماعة من الذين مضوا قبل أمة محمد ﷺ ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ وجماعة من أمة محمد ﷺ ﴿ وأصحاب الشِّمالِ ما أصحابُ الشِّمالِ ﴾ وأصحاب الشمال الذين يؤخذ بهم من موقف الحساب إلى النار ، ماذا لهم ؟ وماذا أُعدَّ لهم ؟ ﴿ في سَمُومٍ وَحَميمٍ ﴾ هم في هواء جهنم الحار وسمومها ، وفي حميمها ـ مائها الساخن ـ ﴿ وظِلٍّ من يَحْمُومٍ ﴾ وظلٌّ من دخانٍ شديد السواد ﴿ لاَ بَارِدٍ ﴾ ليس ذلك الظل ببارِدٍ ، كَبَرْد ظلال سائر الأشياء ، لأنه دخانٌ من سعير جهنم حارّ ﴿ ولا كَريمٍ ﴾ وليس بكريم ، لأنه مؤلمٌ لمن استظل به ﴿ إنهم كانوا قبلَ ذلك مُتْرَفِينَ ﴾ إن هؤلاء كانوا منعَّمين في الدنيا ﴿ وكانوا يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العَظيم ﴾ وكانوا يقيمون على الذنب العظيم ، وهو الشرك بالله ﴿ وكانوا يقولون أئِذا مِتْنا وكنَّا تُراباً ﴾ وكانوا يقولون كفراً منهم بالبعث : أئذا كنا تراباً في قبورنا بعد مماتنا ﴿ وعظاماً أءِنَّا لمبعُوثونَ ﴾ وكنا عظاماً نخرة ، أئنا لمبعوثون أحياء كما كنا قبل الممات ؟ ﴿ أو أباؤنا الأولون ﴾ وكذلك آباؤ نا الذين كانوا قبلنا سيُبعثون ؟ ﴿ قل إن

---

(١) سألت السيدة أم سلمة الرسول ﷺ عن هذه الآية فقال : « هنَّ اللواتي قُبضن في الدنيا عجائز رُمْصاً شُمطاً ، خلقهن بعد الكبر فجعلهن عَذارى » ومعنى « عُرُباً » أي عاشقات لأزواجهن جمع عَرُوب وهي المحبة العاشقة لزوجها .

ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾
ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾
ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾

* * *

الأولين والآخرينَ. لمجمُوعُون إلى ميقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ قل يا محمد لهم: إن الأولين من آبائكم، والآخرين منكم ومن غيركم. لمجموعون إلى يوم القيامة ﴿ **ثم إنكم أيها الضَّالُّونَ المكَذِّبُونَ** ﴾ ثم إنكم أيها الضالون عن طريق الهدى، المكذبون بوعيد الله ووعده ﴿ **لآكِلُونَ من شَجَرٍ من زَقُّومٍ** ﴾ ستأكلون في جهنم من شجرٍ من زقوم ﴿ **فمالِئُونَ منها البُطُونَ** ﴾ فمالئون بطونهم من شجر الزقوم ﴿ **فَشَارِبُونَ عَلَيْه من الحميم** ﴾ فشاربون على الشجر، ماءً حميماً قد انتهى غليه وحرُّه ﴿ **فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ** ﴾ فشاربون شرب الإبل العِطاش، المصابة بداءٍ لا تَرْوى من الماء ﴿ **هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدينِ** ﴾ هذا هو نزلهم (١) الذي يُنزلهم ربهم، يوم يُدين الله عباده ﴿ **نَحْنُ خلقناكم** ﴾ نحن خلقناكم ـ أيها الناس ـ ولم تكونوا شيئاً، فأوجدناكم بشراً ﴿ **فلولا تُصدِّقُونَ** ﴾ فهلا تصدِّقون من فعل ذلك بكم، في قوله لكم: إنه سيبعثكم بعد مماتكم؟ ﴿ **أَفَرَأَيتم ما تُمْنُونَ. أأنتم تخلُقُونه أم نحن الخالِقُونَ** ﴾ أفرأيتم أيها المنكرون قدرة الله: النُّطَف التي تُمنون ـ تصبُّون ـ في أرحام نسائكم؟ أأنتم تخلقون تلك النطف، أم نحن الخالقون؟ ﴿ **نحن قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الموْتَ** ﴾ نحن قدَّرنا بينكم الموت، فعجلناه لبعضٍ وأخرناه عن بعض ﴿ **وما نحن بِمَسْبُوقِينَ** ﴾ وما نحن مُفتاتٌ علينا في الأمر الذي قدرناه لها من حياة وموت، بل لا يتقدم شيءٌ منها ولا يتأخر، ولسنا بعاجزين ﴿ **أن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ** ﴾ على أن نبدل أمثالكم بعد مهلككم، فنجيء بآخرين من جنسكم ﴿ **ونُنْشِئَكُمْ فيما لا تَعْلَمون** ﴾ ونبدِّلكم فيما لا تعلمون منها من الصور ﴿ **ولقد عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأولى** ﴾ولقد علمتم أيها الناس الإحداثة الأولى التي أحدثناكم إياها(٢)﴿ **فلولا تَذَكَّرُونَ** ﴾ فهلا تتذكرون أن الذي أنشأكم، لايتعذر عليه أن يعيدكم أحياء!؟ ﴿ **أفرأيتم ما تَحْرُثُونَ** ﴾ أفرأيتم أيها الناس الحرث ـ البذر ـ الذي تحرثونه ﴿ **أأنتم تزرعونه أم نحن الزَّارِعُونَ** ﴾ أأنتم تُصيِّرونه زرعاً، أم نحن

---

(١) النُّزُل: الضيافة التي تقدم للضيف أول قدومه، وتسمية «الزقوم» نُزُلاً إنما هو للتهكم والسخرية، لأن النُّزل للكرامة، وهذا العذاب للإهانة.

(٢) يريد خلقهم الأول في الدنيا كما قال تعالى ﴿ألم نخلقكم من ماءٍ مهين﴾؟

لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى
تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ
ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ
بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾
فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم

* * *

نجعله كذلك ؟! ﴿ لو نشاءُ لجعلناه حُطَاماً ﴾ لو نشاء جعلنا ذلك الزرع هشيماً، لا يُنْتَفع به في مطعم وغذاء ﴿ فَظَلْتُمْ تَفكَّهُونَ ﴾ فأقمتم تتعجَّبون ممَّا نزل بزرعكم وتقولون : ﴿ إنا لَمُغْرَمُونَ ﴾ إنا لمعذبون (١) ﴿ بل نحن مَحْرُومُونَ ﴾ ولكننا قوم ليس لهم جَدٌّ ـ أي حظٌ ـ.

﴿ أفرأيتمُ الماءَ الذي تَشْرَبُونَ ﴾ أفرأيتم أيها الناس الماء الذي تشربونه ؟ ﴿ أأنتم أنْزَلْتُمُوهُ من المُـزْنِ أَمْ نحن المُنْزِلُـونَ ﴾ أأنتم أنـزلتمـوه من السحـاب إلى قـرار الأرض،أم نحن منزلوه لـكـم ؟ ﴿ لو نَشَاءُ جعلناه أُجاجاً ﴾ لو نشاء جعلنا ذلك الماء ملحاً شديد الملوحة ، فلم تنتفعوا به في شربٍ ، ولا غرسٍ ، ولا زرع ﴿ فلولا تَشْكُرُونَ ﴾ فهلا تشكرون ربكم على إعطائه الماء العذب لشربكم ، ومنافعكم ؟! ﴿ أفرأيتم النارَ التي تُورُونَ ﴾ أفرأيتم النار التي تستخرجون من زندكم ؟ ﴿ ءأنتم أنشأتم شَجَرَتَهَا أم نحن المُنْشِئُونَ ﴾ أأنتم أحدثتم شجرتها واخترعتم أصلها ، أم نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه ؟ ﴿ نحن جعلناها تَذْكِرَةً ﴾ نحن جعلنا النار تذكرةً لكم ، تتذكرون بها نار جهنم ، فتعتبرون بها وتتعظون ﴿ وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ وجعلناها متاعاً للمسافرين ،الذين لا زاد معهم ولا شيء ﴿ فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظيم ﴾ فسبح يا محمد بذكر ربك العظيم ﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ فأقسم بمساقط النجوم ومغايبها في السماء ﴿ وإنه لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمون عظيم ﴾ وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته وقدره ؟ ﴿ إنه لَقُرآنٌ كريم ﴾ إن هذا القرآن لقرآن كريم ﴿ في كتاب مَكْنُونٍ ﴾ في كتاب مصون عند الله ، لايمسه شيء من أذى ولا غيره ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُون ﴾ لا يمسُّ ذلك الكتابَ المصون ، إلا الذين قد طهرهم الله من الذنوب ، كالملائكة الأطهار ، والمؤمنين الأبرار ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمين ﴾ هذا القرآن تنزيل من رب العالمين ، نزَّله من الكتاب المكنون ﴿ أَفَبِهذا

(١) هكذا اختار الطبري أن معنى « مغرمون » معذَّبون من الغرام بمعنى العذاب ، وهو منقول عن ابن عباس ، وقال غيره : هو من الغُرم بمعنى الغرامة ، والمُغْرَم : الذي ذهب ماله بغير عوض ، وهو منقول عن الضحاك ، والمعنى : إنا لحاملون الخسارة ومحرومون الرزق ، وهذا المعنى أظهر ، والله أعلم .

مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

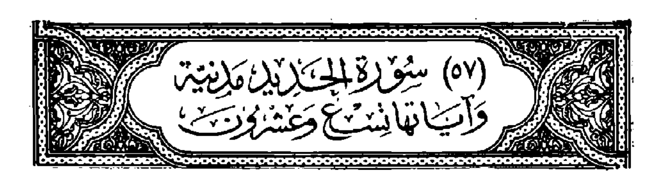
* * *

الحديثِ أنتم مُدْهِنُونَ ﴾ أفبهذا القرآن تُلينون القول للمكذبين ، ممالأةً منكم لهم على التكذيب به والكفر(١) ﴿ وتجعلون رِزْقَكُمْ أنكم تُكَذِّبون ﴾ وتجعلون شكر الله على رزقه لكم التكذيب بالرازق(٢) ﴿ فلولا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ﴾ فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجسادكم حلاقيمكم ﴿ وأنتم حينَئِذٍ تَنْظُرونَ ﴾ ومن حضرهم من أهليهم ينظر حينئذٍ إليهم ﴿ ونحن أَقْرَبُ إليْه منكم ولكن لا تُبْصِرُونَ ﴾ ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم ، ولكنكم لا تبصرونهم ﴿ فلولا إن كنتم غيرَ مَدِينِينَ ﴾ فهلاَّ إن كنتم أيها الناس غير محاسبين ومجزيين بأعمالكم ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ تردُّون تلك النفوس إلى مستقرها من الأجساد ، بعد مصيرها إلى الحلاقيم !؟ ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إن كنتم صادقين بأنكم تمتنعون من الموت والحساب ﴿ فأما إن كان من المُقَرَّبينَ ﴾ فأما إن كان الميت ، من الذين قربهم الله من جواره في جناته ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ ﴾ فله الرحمةُ ، والمغفرةُ ، والرزقُ الطيب الهنيء ، وله ريحانٌ يُتلقى به عند الموت ﴿ وجنةُ نَعيم ﴾ وله بستانٌ يتنعم فيه ﴿ وأما إن كان من أصحابِ اليَمين ﴾ وأما إن كان الميت من الذين يؤخذ بهم إلى الجنة ﴿ فَسَلامٌ لَكَ من أصحابِ اليَمِينِ ﴾ فسلمتَ من عذاب الله ، ومما تكره لأنك من أصحاب اليمين ﴿ وأما إن كان من المكذِّبين الضَّالِّينَ ﴾ وأما إن كان الميت من المكذبين بآيات الله ، الجائرين عن سبيله ﴿ فَنُزُلٌ من حَمِيمٍ . وتَصْلِيَةُ جَحيمٍ ﴾ فله ضيافةٌ من شرابٍ قد أُغلي حتى انتهى حرُّه ، وحريقُ النار التي يُحرق بها ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليَقين ﴾ إن هذا الذي أخبرتكم به ، عما هو صائر إليه أصناف الناس ، لهو الحقُّ من الخبر اليقين الذي لا شك فيه ﴿ فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العظيم ﴾ فسبح ربك العظيم بأسمائه الحسنى .

---

(١) هكذا فسره الطبري وهو رأي مجاهد ، وقال غيره المعنى : أفبهذا القرآن يا معشر الكفار تكذّبون وتكفرون ؟ وهو قول ابن عباس ، وكلا القولين سديد ووجيه .

(٢) قال الحسن : خسر عبدٌ لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا

* * *

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ﴾ نزه الله من خلقه كل ما دونه تعظيماً له ، وإقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لطاعته ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ العزيزُ في انتقامه ممن عصاه ، الحكيم في تدبيره أمور الخلق ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ له سلطان السموات والأرض ، لا يمتنع عليه شيء فيهن ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يوجد من شاء من الخلق فيحييه ، ويميت من شاء من الأحياء فيفنيه ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لا يتعذّر عليه شيء أراده ﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ ﴾ هو الأول قبل كل شيء بغير بداية ، وهو الآخر بعد كل شيء بغير نهاية ﴿ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ ﴾ وهو العالي فوق كل شيء ، فلا شيء أعلى منه ، وهو الباطن فلا شيء أقرب إلى شيء منه[1] ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وهو تعالى لا يخفى عليه شيءٌ ، في الأرض ولا في السماء ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ هو الذي أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبَّرهن وما فيهن في ستة أيام ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ ﴾ ثم ارتفع على عرشه وعلا عليه ﴿ يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَـا ﴾ يعلم ما يدخل في الأرض ، وما يخرج منها ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ

---

(١) هكذا فسرها الطبري ، وقال غيره من المفسرين (هو الظاهر والباطن) أي الظاهر للعقول بالأدلة والبراهين ، الباطن الذي لا تدركه الأبصار ،وفي الحديث الذي رواه مسلم « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » ومعنى الظاهر هنا : العالي الذي لا شيء أعلى منه ولا أكبر .

يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾
ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ
لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ
عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾

* * *

السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيها ﴾ ويعلم ما ينزل من السماء إلى الأرض ، وما يصعد من الأرض إلى السماء ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** ﴾ وهو شاهد عليكم أينما كنتم ، يعلمكم ويعلم أعمالكم ، ومتقلبكم ومثواكم ﴿ **وَاللَّهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ والله بصيرٌ بأعمالكم محصٍ لها ، ليجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ** ﴾ له سلطان السموات والأرض ، نافذٌ أمره في جميعهن ﴿ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ** ﴾ وإلى الله مصير أمور جميع خلقه ، فيقضي بينهم بحكمه ﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ** ﴾ يدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار فيجعله زيادة في ساعاته[1]﴿ **وَيُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ** ﴾ ويدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل ، فيجعله زيادة في ساعات الليل ﴿ **وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ وهو ذو علم بضمائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم ، لا يخفى عليه من ذلك خافية ﴿ **آمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ آمنوا أيها الناس بالله ، فأقروا بوحدانيته ، وبرسوله محمد ﷺ فصدّقوه فيما جاءكم من عند الله واتّبعوه ﴿ **وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ وأنفقوا في سبيل الله مما خوّلكم الله من المال الذي أورثكم عمن كان قبلكم ، فجعلكم خلفاءهم فيه ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ فالذين صدقوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما رزقهم الله من المال في سبيله ، لهم ثواب عظيم ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ باللَّهِ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ** ﴾ وما شأنكم أيها الناس لا تقرون بوحدانية الله ؟ ! ورسولُه محمد ﷺ يدعوكم إلى الإقرار بوحدانيته ، وقد أتاكم من الحجج على حقيقة ذلك ما قطع عذركم ، وأزال الشك من قلوبكم ﴿ **وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ**﴾ وقد أخذ منكم ربكم ميثاقكم في صلب آدم ، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين** ﴾ إن كنتم تريدون أن تؤمنوا بالله يوماً من الأيام ، فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا ، لتتابع الحجج عليكم ﴿ **هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ** ﴾ الله الذي ينزل على عبده محمد آيات مفصلات ﴿ **لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ليخرجكم أيها الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ الله الذي أنزل الآيات لهدايتكم ،

---

(١) إيلاج الليل في النّهار ،من مظاهر قدرة الله الواحد القهار ،فإن الله تعالى هو المتصرف في الكون ، وهذا من أدلة قدرته ووحدانيته .

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ
أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾
مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

* * *

لذو شفقة بكم ورحمة

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وما لكم أيها الناس أن لا تنفقوا مما رزقكم الله في سبيل الله؟﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وإلى الله ستصير أموالكم، إن لم تنفقوها في حياتكم في سبيل الله ، لأن له ميراث السموات والأرض ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ لا يستوي منكم من أنفق من قبل فتح الحديبية[1] ، وقاتل المشركين ، بمن أنفق بعد ذلك وقاتل ﴿ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِين أَنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ هؤلاء الذين أنفقوا قبل الحديبية وقاتلوا ، أعظم درجة وأرفع مكانة عند الله في الجنة ، من الذين أنفقوا من بعد ذلك وقاتلوا ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى﴾ وكل هؤلاء المنفقين والمقاتلين، وعدهم الله الجنة ، بإنفاقهم في سبيله ، وقتالهم أعداءه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والله عالمٌ بماتعملون ،وهو مجازيكم على جميع ذلك يوم القيامة﴿مَن ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ من هذا الذي ينفق في سبيل الله في الدنيا محتسباً في نفقته ، مبتغياً ما عند الله تعالى ؟ ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ فيضاعف له ربه قرضه ذلك ، فيجعل له بالواحد سبعمئة ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وله جزاء كريم وهو الجنة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِم وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يمضي ثواب إيمانهم ، وعملهم الصالح بين أيديهم ، ويأخذون في أيمانهم كتب أعمالهم[2] ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ ﴾ يقال لهم : بشارتكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فأبشروابها﴿ خالدين فيها ﴾ ماكثين في الجنات أبداً ، لا يتحولون عنها ولا ينتقلون ﴿ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ذلك هو النُجح العظيم

(١) جمهور المفسرين على أن المقصود بالفتح هنا هو « فتح مكة » ، وما رجحه الطبري منقولٌ عن قتادة ، ويستدل له بقول أنس « كان بين « خالد بن الوليد » وبين « عبد الرحمن بن عوف » كلامٌ ، فقال خالد له : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها !! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال : دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم » رواه الإمام أحمد ، ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد كان بين الحديبية وفتح مكة .

(٢) ذهب ابن جرير إلى تأويل النور هنا بالإيمان والهدى ، بينما ذهب غيره من المفسرين إلى أن المراد أن نور المؤمن يتقدمه على الصراط ، كما روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقدُ مرةً ، ويُطفأ مرة ، وهذا هو الأظهر والله أعلم .

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟
بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾
فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ

* * *

الذي كانوا يطلبونه ، بعد النجاة من عقاب الله ﴿ يَوْمَ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ انتظرونا نستصبح من نوركم [1] ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ فيجابون : ارجعوا من حيث جئتم ، واطلبوا لأنفسكم هنالك نوراً ، فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ فضرب الله بين المؤمنين والمنافقين بحاجز [2] ، لذلك الحاجز بابٌ ، باطنُه الجنة ، وظاهرُه النار ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ ينادي المنافقون المؤمنين ، وقد صاروا في الجنة : ألم نكن معكم في الدنيا نصلي ، ونصوم ، ونناكحكم ، ونوارثكم ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وارْتَبْتُمْ ﴾ قال المؤمنون : بلى كنتم كذلك ، ولكنكم نافقتم ، وانتظرتم بأهل الإيمانِ الدوائر ، وشككتم في توحيد الله ، وفي نبوة محمد ﷺ ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ وخدعتكم أمانيُّ نفوسكم ، فصدَّتكم عن سبيل الله وأضلَّتكم ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ حتى جاء قضاء الله بموتكم ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ وخدعكم بالله الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة من عقوبة الله ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ فاليوم ـ أيها المنافقون ـ لا يُؤخذ منكم عوض من عقابكم وعذابكم ﴿ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ولا تؤخذ الفدية أيضاً من الذين كفروا ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ ﴾ مسكنكم الذي تسكنونه يوم القيامة النَّارُ ، هي أولى بكم من كل منزل ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وبئس مصيركم نار جهنم ، وبئس مصيرُ من صار إلى النار .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ألم يَحِنْ للذين صدقوا الله ورسوله ، أن تلين قلوبهم لذكر الله فتخضع له ، وللقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ؟ ﴿ ولا يَكُونُوا

---

(١) أي نستضيء بنوركم لنرى الطريق ، وذلك حين يطفأ نور المنافقين .

(٢) هو حاجز يحجز بين أهل الجنة وأهل النار ، في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين ، الرحمةُ وهي الجنة ، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذابُ وهو النار .

فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ
وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ

* * *

كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وألاَّ يكونوا كالذين أوتوا التوراة والإنجيل من بني إسرائيل ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فطال عليهم الزمان ما بينهم وبين موسى ، فقست قلوبهم عن الخيرات ، وسكنت إلى معاصي الله ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ اعلموا أيها الناس أن الله يحيي الأرض الميتة ـ المجدبة ـ التي لا تُنْبِتُ شيئاً ، بعد دثورها ويبسها ، فكما نحيي هذه الأرض كذلك نهدي الإنسان الضال عن الحق ، فنوفّقه ونسدِّده للإيمان ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ قد بينا لكم الأدلة والحجج لتعقلوا ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ إن المتصدقين من أموالهم ، والمتصدقات ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ بالنفقة في سبيله ، وفيما أمر بالنفقة فيه ، أو فيما ندب إليه ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ يضاعف الله لهم قروضهم،فيوفيهم ثوابها يوم القيامة ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ ولهم ثوابٌ من الله على صدقهم وإنفاقهم وهو الجنة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ والذين أقروا بوحدانية الله فصدَّقوا الرسل ، وآمنوا بما جاؤوهم به من عند ربهم ،أولئك هم الصِّدِّيقون[١] ،لأنهم آمنوا بالله وصدَّقوا رسله ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، أو هلكوا في سبيله ، لهم عند ربهم ثوابٌ ونورٌ عظيم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ والذين جحدوا بالله ، وكذَّبوا بأدلته وحججه ، أولئك أهل جهنم ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ اعلموا أيها الناس أن متاع الحياة الدنيا المعجلة لكم ، ما هي إلا لعب ولهوٌ ، تتفكهون به ، وزينة تتزينون بها ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ يفخر بعضكم على بعض بما أُعطي من رياشها ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ ويباهي بعضكم بعضاً بكثرة الأموال والأولاد ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ كمثل غيث أعجب

(١) ذهب الإمام ابن جرير إلى أن الجملة تتم عند قوله تعالى ﴿ أولئك هم الصدِّيقون﴾ وأن قوله تعالى ﴿ والشهداء عند ربهم لهم اجرهم ونورهم ﴾ جملة مستأنفة جديدة ، وهذا القول مروي عن ابن عباس والضحاك واختاره ابن كثير ، وذهب غيره من المفسرين إلى أن الجملة معطوفة على ما قبلها ﴿ أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم ﴾ فيكونون قد جمعوا بين مرتبة الصدِّيقية والشهادة في سبيل الله ، وهذا القول منقول عن ابن مسعود والبراء بن عازب ومجاهد ، وهو الذي اخترناه في صفوة التفاسير والله أعلم .

حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ
إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ
ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا
فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ

* * *

الزُّرَّاعَ نباتُه ، ثم ييبس فتراه مصفراً ، بعد أن كان أخضر نَضِراً ﴿ **ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً** ﴾ ثم يكون تبناً يابساً متهشماً ﴿ **وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ** ﴾ وفي الآخرة عذاب شديد للكفار ، ومغفرة من الله ورضوان لأهل الإيمان ، فالآخرة إمَّاعذابٌ ،وإمَّا جنة ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ وما زينة الحياة الدنيا المعجلة لكم أيها الناس إلا متاع الغرور[1] وفي الحديث « **موضع سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها** » [2] ﴿ **سَابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ وَالأَرْضِ** ﴾ سابقوا أيها الناس إلى عمل يوجب لكم مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴿ **أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ هيئت هذه الجنة ، للذين وحَّدوا الله ، وصدَّقوا رسله ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ هذه الجنة التي أعدها الله للمؤمنين ، فضل الله تفضَّل به على أهل طاعته ، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه ﴿ **واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ على المؤمنين بما بسط لهم من الرزق في الدنيا ، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعة ، بما وصف أنه أعدَّه لهم ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أن نَبْرَأَهَا** ﴾ ما أصابكم أيها الناس من مصيبة ، في الأرض بجدوبها ، وذهاب زرعها ، وفسادها ، ولا في أنفسكم بالأوصاب ، والأوجاع ، والأسقام ، إلا في « **أم الكتاب** » ـ اللوح المحفوظ ـ قبل أن نخْلقَ الأنفس ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ إن خلق النفوس ، وإحصاء المصائب ، سهلٌ يسيرٌ على الله ﴿ **لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ** ﴾ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا ، فلم تُدركوه منها ﴿ **وَلاَتفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ ولا تفخروا على الناس بما أعطاكم الله منها ﴿ **وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ والله لايحب كل متكبر بما أوتي من الدنيا ، فخورٍ به على الناس.

﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ** ﴾ هم الذين يبخلون بإخراج حق الله ، الذي أوجبه

---

(١) قال ابن كثير : أي هي متاع فانٍ ، يغتر بها من يعتقد أنه لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الأخرة . المختصر ٣/٤٥٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ، والإمام أحمد في المسند .

ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا
ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

* * *

عليهم فيه ، ويشحُّون به ، وهم مع بخلهم يأمرون الناس أيضاً بالْبُخْلِ ﴿ **وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ ومن يعرض عن موعظة الله ، تاركاً العمل بما دعاه إليه ، فإن الله هو الغني عن نفقته ، الحميدُ إلى خلقه ، بما أنعم به عليهم من نِعمه ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رسلنا بالْبَيِّنَاتِ** ﴾ لقد أرسلنا رسلنا بالمفصَّلات [1] من البيان والدلائل ﴿ **وأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالْقِسْطِ** ﴾ وأنزلنا معهم الكتاب بالأحكام والشرائع ، وأنزلنا الميزان بالعدل ، ليعمل الناس فيما بينهم بالعدل في المعاملات ﴿ **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ وأنزلنا لهم الحديد ، فيه قوة شديدة ، ومنافع لهم في السلاح عند لقاء العدو ، وفي حفر الأرض والجبال وغير ذلك ﴿ **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالْغَيْبِ** ﴾ أرسلنا رسلنا ليعدلوا ، وليعلم حزب الله [2] من ينصر دين الله ورسله ،بالغيب عنهم [3] ﴿ **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ قويٌّ على الانتصار ممن عاداه ، وخالف أمره ونهيه ، عزيزٌ في انتقامه منهم ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ والْكِتَابَ** ﴾ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم رسولَيْن إلى خلقنا ، وجعلنا النبوة في ذريتهما ، وعليهم أنزلت الكتب التوراة ، والإنجيل ، والزبور من الله تعالى ﴿ **فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ** ﴾ فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ﴿ **وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ وكثير من ذريتهما ضالُّون ، خارجون عن طاعة الله ﴿ **ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا** ﴾ ثم أتبعنا على آثار نوحٍ وإبراهيم ، برسلنا الذين أرسلناهم بالبينات ﴿ **وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ** ﴾ وأتبعنا بعيسى ابن مريم ، وأعطيناه الإنجيل ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً** ﴾ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوا « عيسى » على منهاجه وشريعته ، شفقةً ورحمة شديدة ﴿ **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا** ﴾ ورهبانيةً أحدثوها من عند أنفسهم ﴿ **مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ** ﴾ ما افترضنا تلك الرهبانية عليهم ﴿ **إلا ابْتِغَاءَ رِضْوانِ اللَّهِ** ﴾ لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله

---

(١) يريد المعجزات والحجج والبراهين التي أيدهم بها الله جل وعلا .

(٢) إنما فسر الطبري ﴿ وليعلم الله . . . ﴾ وليعلم حزب الله ، لأن الله تعالى عالمٌ بكل ما في السموات والأرض ، وعلمه أزليٌّ ، ولا حاجة إلى هذا التأويل لأن المراد إظهار ذلك العلم للخلق والله أعلم .

(٣) قال ابن عباس : « بالغيب » أي دون أن يروا ربهم ، ينصرونه ولا يبصرونه .

مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

* * *

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِها ﴾ فما قاموا بما التزموا به حق القيام[١]، ولكنهم بدَّلوا وخالفوا دين الله، ومنهم من قد رعاها ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ فأعطينا الذين آمنوا بالله ورسله منهم ثوابهم، على ابتغائهم رضوان الله، وإيمانهم به وبرسوله في الآخرة ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وكثير منهم أهل معاصٍ، وخروجٍ عن طاعة الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، من أهل التوراة والإنجيل، خافوا الله بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، وآمنوا برسوله محمد ﷺ ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعطكم الله ضعفين من الأجر، لإيمانكم بمحمد ﷺ وإيمانكم بالأنبياء قبله ﴿ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ ويجعل لكم القرآن نوراً، يهتدي به من صدَّق به وآمن ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ويصفح لكم عن ذنوبكم فيسترها عليكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ والله ذو مغفرةٍ ورحمة ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ لكي يعلم[٢] أهل الكتاب ﴿ أَلَّا يَقدرون على شيءٍ من فضل الله ﴾ أنهم لايقدرون على شيءمن فضل الله الذي آتاكم، وخصكم به دونهم[٣] ﴿ وأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ وليعلموا أن الفضل بيد الله دونهم، ودون غيرهم من الخلق ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يعطي فضله من يشاء من خلقه، ليس ذلك إلى أحدٍ سواه ﴿ واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ والله ذو الفضل العظيم على خلقه، عظيم الفضل والإحسان

* * *

(١) هكذا يبيّن لنا تعالى بوضوحٍ أن « الرهبانية » لم يشرعها اللهُ عزَّ وجلَّ، ولكنَّ النَّصارى اخترعوها من تلقاء أنفسهم، تَعبُّداً وزهداً على زعمهم، ومع ذلك لم يلتزموا بها ولم يتقيدوا بموجبها كما ينبغي، بل تظاهروا بالتُّقى والصلاح، وأكلوا الحرام، واستباحوا الأعراض، ودنَّسُوا حرمة الدين ﴿فما رعوها حقَّ رعايتها﴾ فلعنة الله على القوم المجرمين. !

(٢) أشار الطبري رحمه الله أن « لا » في قوله ﴿ لئلا يعلم ... ﴾ زائدة، زيدت لتأكيد الكلام وتقويته ولهذا فسرها بقوله « لكي يعلم » وهذا مشهور في اللغة ومستفيض.

(٣) كان أهل الكتاب يقولون: الوحيُ والرسالةُ فينا، والكتاب والشرع ليس إلاَّ لنا، والله خصَّنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع الخلق، فردَّ الله عليهم ذلك، وبيَّن تعالى أن فضله واسع لا يحجزه شيء، فقد أعطى أمة محمد ﷺ أفضل مما أعطاهم.



بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾
ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا
مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

* * *

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ في زَوْجِها ﴾ قد سمع الله قول المرأة من الأنصار[1] ، التي كانت تراجعك يا محمد في أمر زوجها في قوله لها : « أنتِ عليَّ كظهر أمي » ﴿ وَتَشْتَكِي إلى اللَّهِ ﴾ وتشتكي إلى الله ما لديها من الهمِّ ، وتسأل الله الفرج ﴿ واللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما ﴾ والله يسمع تحاور[2] رسوله والمجادِلة خولة ﴿ إنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ سميعٌ لكلام خلقه ، بصير بما يعملون ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِم ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ الذين يحرّمون نساءهم على أنفسهم ، بقولهم لهنَّ : أنتُنَّ علينا كظهور أمهاتنا ، ما نساؤهم اللائي يظاهرون منهنَّ بأمهاتهم ، بل هنَّ لهم حلال ﴿ إنْ أُمَّهاتُهُمْ إلَّا اللائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ ما أمهاتهم في الحقيقة إلا والداتهم ، لا اللائي قالوا لهن ذلك ﴿ وَإنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ ﴾ وإن المظاهرين ليقولون منكراً من القول الذي لا تُعرف صحته ﴿ وَزُوراً ﴾ وكذباً ﴿ وَإنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ ذو صفحٍ عن ذنوب عباده ، غفورٌ لهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة ﴿ والَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن

---

(١) هي « خولة بنت ثعلبة » امرأة « أوس بن الصامت » في أصح الأقوال ، وقيل : خويلة ، وهذا أول ظهارٍ في الإسلام كما ذكر الطبري ، فقد روي أن « خولة » جاءت إلى رسول الله ﷺ ، تشكو إليه ظلم زوجها ، فقالت يا رسول الله : أكلَ مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرتُ له بطْني ، حتى إذا كبِرَتْ سِنّي ، ظاهر منّي !! فجعل رسولُ اللّه ﷺ يقول لها : ما أراكِ إلّا قد حرمتِ عليه ، فتقول يا رسول الله : ما طلقني واللّهِ ، وإنّ لي منه صبيةً صغاراً ، إن تركتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتُهم إلي جاعوا ، فماذا ترى ؟! وأخذت تجادله وتراجعه فنزلت الآية ﴿قد سمِع اللّهُ قول التي تجادلك في زوجها . . ﴾

(٢) التحاور : المراجعة في الكلام.قال عنترة : « لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى »

مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ

* * *

قالوا ، وفي نقض ما قالوا ، بعزمهم على غشيانهنَّ ووطئهنَّ ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ فعلى المظاهِر عتقُ رقبة ـ عبدٍ أو أمة ـ من قبل أن يجامع أو يمسَّ[١] امرأته التي ظاهر منها ﴿ ذَلِكُم تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ ذلك عظة لكم ، لتتعظوا وتنتهوا عن الظهار ﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وهو مجازيكم عليها ، فانتهوا عن قول المنكر ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ فمن لم يجد منكم رقبةً يعتقها ، فعليه صيام شهرين متتابعين ، لا يفصل بينهما بإفطار إلا من عذر[٢] ، من قبل أن يعاشرها ﴿ فَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ فمن لم يستطع منهم الصيام ، فعليه إطعام ستين مسكيناً ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ هذا الذي فرضته عليكم ، كي تُقِرُّوا بتوحيد الله ، ورسالة محمد ﷺ وتنتهوا عن قول الكذب والزور ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ وهذه الفروض التي بيَّنتُها لكم ، حدود الله فلا تتعدوها أيها الناس ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وللجاحدين لهذه الحدود عذابٌ مؤلم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ إن الذين يخالفون الله في فرائضه ، فيجعلون حدوداً غير حدوده[٣] ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أُخزوا كما غيظ وأخزي الذين من قبلهم من الأمم المكذبين ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آياتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ وقد أنزلنا دلالات وعلامات محكماتٍ ، على حقائق حدود الله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ ﴾ وللجاحدين لتلك الآيات البينات ، عذابٌ مذلٌ في جهنم ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ يوم يخرجهم الله جميعاً من قبورهم لموقف القيامة ، فينبئهم الله بما عملوا في الدنيا من المعاصي ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أحصى الله ما عملوا ، فأثبته وحفظه ، ونسيه عاملوه

(١) المسُّ هنا ﴿من قبل أن يتماسَّا ﴾ كناية عن الجماع ، فلا يحل للمظاهِر وطءُ امرأته قبل أن يكفِّر عن يمينه .

(٢) شرطت الآية التتابع ﴿ شهرين متتابعين ﴾ فلو أفطر يوماً منها انقطع التتابع ، ووجب عليه أن يستأنفها من جديد ، وهذا متفق عليه بين الفقهاء ، وأما إذا كان بعذر كمرضٍ وغيره فقد رجح الطبري أنه يتابع بعد شفائه ولا يجب عليه أن يبدأها من جديد .

(٣) إنما ذكر هنا المحادَّة ﴿ يحادُّون الله ورسوله ﴾ لمناسبة ذكر « حدود الله » فبينهما من حسن الموقع وجمال الاشتقاق ما يعرفه فرسان الفصاحة والبيان ، ومعنى محادَّة الله معاداته ومخالفة أمره ، لأن كلًّا من المتعاديين يكون في حَدٍّ وجهةٍ غير حدِّ الآخر وجهته ، ومثل المحادَّة المشاقَّة معناهما سواء .

وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾

* * *

المجرمون ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ لا يغيب عنه شيءٌ من أمر خلقه ، لأنه محيطٌ بهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ ألم تنظر يا محمد بعين قلبك فترى أن الله يعلم جميع ما في السموات وما في الأرض ،لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة، فكيف تخفى عنه أعمال هؤلاء الكافرين !؟ ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ما يكون من نجوى ـ حديثٍ وسرٍّ ـ بين ثلاثةٍ من خلقه ، إلا هو مشاهدهم يسمع سرهم ونجواهم ، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ، ولا يكون من حديثٍ بين خمسةٍ إلا هو سادسهم ﴿ ولا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ولا أقل من ثلاثة ، ولا أكثر من خمسة ، إلا هو معهم إذا تناجوا ، في أيّ موضعٍ ومكانٍ كانوا ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم يخبر هؤلاء المتناجين ، بما عملوا مما يحبه أو يُسخطه يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ إن الله عليمٌ بنجواهم ، وسرائر أعمالهم ، وسائر أمور عباده .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ألم تر إلى اليهود ، الذين نهاهم الله عن النجوى فيما بينهم، ثم يرجعون إلى ما نهاهم الله عنه ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ ويتحدثون بينهم بما حرَّم الله عليهم من الفواحش ، والعدوان ، ومعصية محمد ﷺ ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ وإذا جاءك يا محمد هؤلاء اليهود ، حيّوك بغير التحية التي جعلها الله لك تحية[1] ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِم لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ويقولون هلّا يعاقبنا الله بما نقول لمحمد ، فيعجل عقوبته لنا على ذلك !؟ ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ كفاهم جهنم

(١) كان اليهود يقولون « السام عليك يا محمد » والسام معناه الموتُ ، وكان رسول الله ﷺ يجيبهم بقوله « وعليكم » لا يزيد عليها ، وقد استأذنوا على رسول الله ﷺ ذات يوم فقالوا ذلك ، وسمعتهم السيدة عائشة فقالت : بل عليكم السّامُ واللعنة ، فلما انصرفوا قال لها رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة إن الله يكره الفحش والتفحش ، فقالت يا رسول الله : أما سمعتَ ما قالوا ؟ فقال لها : أما سمعتِ ما قلت لهم ؟ قلت : وعليكم ، فيستجيب الله لي فيهم ، ولا يستجيب لهم فِيَّ. أخرجه ابن أبي‌حاتم. وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٤٦٢ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ
ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ
ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن

* * *

يصلونها يوم القيامة ، فبئس المستقر جهنم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا تحدثتم سراً بينكم فلا تتحدثوا بالإثم ، والعدوان ، ومعصية الرسول ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ ولكن تناجوا بطاعة الله ، وما يقربكم منه ﴿ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ وباتقائه بأداء ما كلفكم من فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وخافوا الله الذي إليه مصيركم ، أن يعاقبكم على تضييع فرائضه ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إنما مناجاة المنافقين بينهم سرّاً ، بالإثم والعدوان من الشيطان ، ليُدخل الحزن على المؤمنين[1] ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وليس التناجي[2] بضار المؤمنين شيئاً ، إلا بقضاء الله وقَدَره ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وعلى الله وحده فليعتمدْ أهل الإيمان في أمورهم ، فتناجي المنافقين غير ضارهم ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا قيل لكم توسَّعوا في المجالس ، فوسِّعوا لإخوانكم ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يوسِّع الله منازلكم في الجنة ﴿ وإِذَا قِيلَ انشُزُوا فانْشُزُوا ﴾ وإذا قيل لكم قوموا إلى خير ، أو تفرقوا من مجلسكم ، فقوموا ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ يرفع الله المؤمنين بطاعتهم لربهم ، ويرفع العلماء من أهل الإيمان ، على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم درجاتٍ يوم القيامة ﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لا يخفى عليه المطيع من العاصي ، وهو مجاز كلاً بعمله ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بالذي هو أهله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا ناجيتم رسول الله ، فقدِّموا أمام نجواكم صدقة ، تتصدقون بها على أهل المسكنة والحاجة ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ تقديمكم الصدقة خير لكم عند

(١) عن قتادة قال : كان المنافقون يتناجون بينهم ، وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويشق عليهم فنزلت الآية .
(٢) التناجي : التحدث بين اثنين فأكثر سرّاً ، يقال : تناجى القوم إذا تكلموا فيما بينهم سراً .

لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

* * *

الله ، وأطهر لقلوبكم من المآثم ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فإن لم تجدوا ما تتصدقون به ، فإن الله ذو عفوٍ عن ذنوبكم إذا تبتم ، رحيمٌ بكم أن يعاقبكم بعد التوبة ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أشق عليكم وخشيتم الفاقة بأن تقدموا بين يدي نجواكم صدقة ؟ ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فإذ لم تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ، ورزقكم الله التوبة من ترككم ذلك ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فأدوا فرائض الله التي أوجبها عليكم ، من الصلاة ، والزكاة ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما أمركم به ، وفيما نهاكم عنه ﴿ واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ والله ذو خبرةٍ وعلمٍ بأعمالكم ، وهو مجازيكم بها .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ ألم تنظر بعين قلبك(١) يا محمد ، فترى إلى القوم الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ، وهم المنافقون تولوا اليهود وناصحوهم ﴿ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ ﴾ ما هؤلاء من أهل دينكم وملتكم ، ولا هم من اليهود الذين غضب الله عليهم ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ويحلفون على الكذب، فيقولون للرسول: نشهد إنك لرسول الله ، وهم كاذبون غير مصدقين به ، ولا مؤمنين ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ هيأ الله لهؤلاء المنافقين ، عذاباً شديداً في الآخرة ﴿ إِنَّهُمْ ساءَ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ إنهم بئس ما كانوا يعملون في الدنيا ، بغشهم المسلمين ، ونصحهم لأعدائهم من اليهود ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ جعلوا حلفهم وأيمانهم وقايةً لأنفسهم من القتل ، يدفعون بها عن أنفسهم ، وأموالهم ، وذراريهم ، فصدُّوا بأيمانهم الكاذبة عن سبيل الله فيهم ، وحالوا دون قتل المؤمنين لهم(٢) ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فلهم عذاب مذلٌّ في النار .

---

(١) أشار الإمام الطبري إلى أن الرؤية قلبية وليست بصرية أي ألم تعلم حال هؤلاء المنافقين ، والاستفهام للتعجيب من حالهم فهم مع دعواهم الإيمان يصادقون اليهود أعداء الله .

(٢) جعل الإمام الطبري صدَّهم عن سبيل الله هو أن حكم الله في الكافر القتل ، وهم بأيمانهم الكاذبة الفاجرة حالوا دون قتل المؤمنين لهم ، والأظهر أن المعنى أنهم منعوا الناس عن الدخول في الإسلام ، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء من الناس والله أعلم .

لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ

***

﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُم وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ لن تنفع المنافقين يوم القيامة أموالهم ، فيفتدوا بها من عذاب الله المهين لهم ، ولن تنفعهم أولادهم فينصرونهم ويستنقذونهم من الله إذا عاقبهم ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون ﴾ هؤلاء المنافقون أهل النار ، ماكثون فيها إلى غير نهاية ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ﴾ يوم يبعثهم الله من قبورهم جميعاً للحساب ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ فيحلفون له كما يحلفون لكم ، كاذبين مبطلين ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ ويظنون أنهم في أيمانهم وحلفهم بالله كاذبين على شيءٍ من الحق ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ ألا إن هؤلاء هم الكاذبون فيما يحلفون عليه ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ غلب عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ أولئك هم جندُ الشيطان وأتباعه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ألا إن جند الشيطان وأتباعه ، هم الهالكون المغبُونون في صفقتهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَه ﴾ إن الذين يخالفون الله ورسوله ويعادونه في حدوده ﴿ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ هؤلاء في أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ورسوله ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ قضى الله وحكم في أم الكتاب ، لأغلبنَّ أن ورسلي من حادَّني وشاقَّني ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ إن الله ذو قوةٍ وقدرة ، على إهلاك كل من حادَّه وحادَّ رسوله ، وذو عزة فلا يقدر أحد أن ينتصر منه ، إذا هو أهلكه أو عاقبه ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لا تجد يا محمد قوماً يصدِّقون الله ، ويقرُّون باليوم الآخر ، يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله ، وخالف أمره ونهيه ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُم أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ ولو كان الذين حادُّوا الله ورسوله آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخْوانهم ، أو عشيرتهم[1] ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ هؤلاء الذين لا يوادُّون من عادى الله ، قضى الله لقلوبهم الإيمان ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ وقواهم ببرهان

(١) نبه تعالى إلى أن هؤلاء المنافقين ليسوا من أهل الإيمان ، لأن أهل الإيمان لا يصادقون أعداء الله ولو كانوا أقرب الناس إليهم ، فكيف يوالي هؤلاء المنافقون اليهود ؟ ثم يزعمون أنهم مؤمنون !!

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

* * *

منه ، ونور وهدى ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ويدخلهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها أبداً ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ رضي الله عنهم بطاعتهم إياه في الدنيا ، ورضوا عنه في الآخرة بإدخاله إياهم الجنة ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ هؤلاء جند الله وأولياؤه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ألا إن جند الله وأولياءه ، هم الفائزون الناجحون بإدراكهم ما طلبوا بطاعتهم ربهم ، والتمسوا ببيعتهم في الدنيا ، وطاعتهم ربهم .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ

* * *

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ صلّى لله وسجد له جميع ما في السموات وما في الأرض من خلقه[١] ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز في انتقامه من خلقه ، الحكيم في تدبيره إياهم ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ اللهُ الذي أخرج الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ من يهود بني النضير ، من منازلهم ودورهم ، حين صالحوا رسول الله ﷺ على أن يؤمّنهم على دمائهم ، ونسائهم ، وذراريهم ، وما أقلّت الإبل من أموالهم ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ لأول الجمع في الدنيا ، وذلك حشرهم إلى أرض الشام ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ ما ظننتم أن يخرج هؤلاء من مساكنهم ومنازلهم ، وظنَّ القوم أنَّ حصونهم تمنعهم من أمر الله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ

(١) الإمام ابن جرير ـ في الأحيان ـ يفسّر التسبيح بالصلاة، وينزّل المعنى على قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض .. ﴾ وذهب غيره إلى أن المعنى : نزّه اللهَ تعالى ومجّده وقدّسه جميعُ مخلوقاته لقوله تعالى ﴿ وإنْ من شيءٍ إلّا يسبح بحمده ﴾ . وهو الأظهر لأنه المتبادر من معنى التسبيح، والله أعلم .

حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

* * *

مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ فأتاهم أمر الله من حيث لم يكن في حسابهم ﴿ **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** ﴾ وألقى في قلوبهم الرعب الشديد ، بنزول رسول الله ﷺ بهم في أصحابه ﴿ **يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ يخرب اليهود بيوتهم بأيديهم ، وذلك بأخذ ما يستحسنونه من أعمدةٍ وأبوابٍ من الداخل ، وبأيدي المؤمنين من الخارج[1] ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ** ﴾ فاتعظوا بما أحلَّ الله بهؤلاء اليهود يا معشر ذوي الأفهام ، واعلموا أن الله ناصرُ رسوله على كل من ناوأه ﴿ **وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ** ﴾ ولولا أن الله قضى على هؤلاء اليهود « بني النضير » في أم الكتاب ، الانتقال من أرضهم وديارهم إلى بلدةٍ أخرى ﴿ **لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا** ﴾ لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي ﴿ **وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ** ﴾ ولهم مع ما حلَّ بهم من الخزي ، عذاب النار يوم القيامة ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ هذا الذي فعل الله بهم بسبب مخالفتهم الله ورسوله ، وعصيانهم ربهم ، فيما أمرهم به من اتّباع محمد ﷺ ﴿ **وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ** ﴾ ومن يخالف الله في أمره ونهيه ، فإن الله شديد العقاب ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِن لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةٍ عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ما قطعتم من نخلةٍ[2] ، أو تركتموها قائمة على أصولها ، فبأمر الله قطعتم ، وبأمره تركتم ليغيظ بذلك أعداءه ﴿ **وَلِيُخْزِيَ الفاسِقِينَ** ﴾ وليُذلَّ الخارجين عن طاعة الله عز وجل ، المخالفين أمره ونهيه من بني النضير ﴿ **وَمَا أَفاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ** ﴾ والذي ردَّه الله على رسوله من أموال بني النضير ﴿ **فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ** ﴾ فما أوضعتم[3] فيه من خيل ولا إبل ، إذ لم يلق المسلمون في ذلك حرباً ، ولا كُلِّفوا فيه مُؤْنة

---

(١) قال ابن زيد : هؤلاء بنو النضير ، صالحهم النبي ﷺ على ما حملت الإبل ، فجعلوا يقلعون الأوتاد يخربون بيوتهم ، وكان المسلمون يهدمونها من ظاهرها .

(٢) لما قطع ﷺ نخل بني النضير وحرّقها ، قالت بنو النضير : قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد وتعيبه ، فما بالك تقطع نخلنا وتحرقها ؟ فنزلت الآية .

(٣) أي لم تسيِّروا إليه الخيل والركاب ، ولا تعبتم في تحصيله ، ومعنى « أوجفتم » أي أسرعتم، يقال : وجف البعيرُ إذا أسرع السير ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع .

يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨

* * *

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ ﴾ كما سلَّط الله محمداً ﷺ على بني النضير ، كذلك يسلّط رسله على من يشاء ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ والله على كل شيء أراده ، ذو قدرة لا يعجزه شيء ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الذي رد الله عزَّ وجل على رسوله من أموال مشركي القرى بدون قتال[١] ، فلله وللرسول ينفق منها على نفسه وأهله ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ ولأقرباء رسول الله ﷺ من بني هاشم ، وبني عبد المطلب ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ ولليتامى أهل الحاجة من أطفال المسلمين الذين لا مال لهم ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وللمساكين الذين يجمعون بين الفاقة وذل المسألة ﴿ وابْنِ السَّبِيلِ ﴾ والمنقطع في سفره في غير معصية الله عزَّ وجل ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ كيلا يكون ذلك الفيء متداولاً بين[٢] الأغنياء منكم ، يصرفونه في حاجاتهم ، ويجعلونه حيث شاءوا ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وما أعطاكم رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه فخذوه ، وما نهاكم عنه من الغلول ، وغيره من الأمور فانتهوا[٣] ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وخافوا الله ، واحذروا عقابه ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ شديدٌ عقابُه لأهل المعصية .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ فعلنا ذلك ليكون الفيء ـ الغنيمة ـ للفقراء المهاجرين من قريش[٤] ، الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم من مكة ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ﴾ يريدون من فضل الله ، ويطلبون رضوانه ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وينصرون دين الله ،

---

(١) لا تعارض بين هذه الآية ، وآية الأنفال ، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال فتلك يؤخذ منها الخمس ، ويقسم الباقي على الغانمين ، وأما هذه ففي حكم الفيء وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال ، فلا تعارض بينهما ولا نسخ ا هـ . وانظر التسهيل لعلوم التنزيل ١٠٨/٤ .

(٢) يريد بالتداول الاستئثار به والمعنى لئلا يستأثر بالمال الأغنياء دون الفقراء ، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس منها الربع لنفسه ـ وهو المرباع ـ ثم يفعل بها ما يشاء ، فقسم الله الغنائم بين المسلمين .

(٣) الآية وإن نزلت في الفيء ، وأحكامه ، إلا أنها عامة في كل ما أمر به رسول الله ﷺ وما نهى عنه ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(٤) قال قتادة : هؤلاء المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهلين ، وخرجوا حباً لله ولرسوله ، واختاروا الإسلام على ما فيه من الشدة ، حتى كان الرجل منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، ويتخذ الحفرة في الشتاء ما له دثار .

وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟
وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو
مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟
لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

* * *

الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ هؤلاء هم الصّادقون فيما يقولون ﴿ والَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ والإيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ والذين اتخذوا مدينة الرسول ﷺ سكناً فابتنوها منازل من قبل المهاجرين ، وآمنوا بالله ورسوله وهم الأنصار ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ يحبون المهاجرين الذين انتقلوا إليهم وتركوا منازلهم ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ ولا يجد الأنصار في صدورهم حسداً ، ممَّا أُوتي المهاجرون من الفيء[1] ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ويعطون المهاجرين أموالهم إيثاراً لهم بها على أنفسهم ، ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى أموالهم ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ ومن وقاه الله البخل ، ومنع فضل ماله ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فأولئك هم الفائزون المخلدون في الجنة ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ والذين جاءوا من بعد الأنصار والمهاجرين ، يقولون : ربنا اغفر لنا ، ولإخواننا الذين آمنوا قبلنا ﴿ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ولا تجعل في قلوبنا بغضاً وحسداً لأحدٍ من أهل الإيمان بك ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ذو رأفةٍ بخلقك، وذو رحمة بمن تاب ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ ألم تنظر بعين قلبك يا محمد ، فترى إلى الذين نافقوا من أهل المدينة ؟ وهم « عبد الله بن أُبيّ بن سلول » وأتباعه المنافقون ﴿ يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يقولون لبني النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ لئن أُخرجتم من دياركم وأُجليتم عنها ، لنتركنَّ منازلنا وديارنا ونخرج معكم ﴿ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ﴾ ولا نطيع أحداً سألنا خذلانكم ، وترك نصرتكم ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ وإن قاتلكم محمد ومن معه ، لننصرنّكم معشر بني النضير عليهم ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ والله يشهد أن هؤلاء المنافقين كاذبون في وعدهم ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ لئن

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة منهم فطابت أنفسهم بتلك القسمة .

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ
أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي
بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

* * *

أُخرج بنو النضير من ديارهم فأُجلوا عنها ، لا يخرج معهم المنافقون ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ ولئن قاتلهم محمد ﷺ لا ينصرهم المنافقون ، الذين وعدوهم النصر ﴿ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ ولئن نصر المنافقون بني النضير ، ليولن الأدبار منهزمين هاربين عنهم قد خذلوهم ، ثمَّ لا ينصر الله اليهود على محمد ﷺ وأصحابه بل يخذلهم ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِنَ اللَّهِ ﴾ لأنتم أيها المؤمنون أشد رهبةً في صدور اليهود[1] من الله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك من أجل أنهم قوم لا يفقهون عظمة الله ، فهم لا يرهبون عقابه ، قدر رهبتهم منكم ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ لا يقاتلكم اليهود مجتمعين ، إلا في قرى محاطة بالحصون المنيعة ، لا يبرزون لكم بالبراز ، أو من خلف حيطان ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ عداوة بعضهم بعضاً شديدة ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ تظن المنافقين وأهل الكتاب مؤتلفين ، مجتمعةً كلمتهم ، وقلوبهم مختلفة لمعاداة بعضهم بعضاً ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ذلك من أجل أنهم قوم لا يعقلون ما فيه الحظ والنفع لهم ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ﴾ شَبَه هؤلاء المنافقين واليهود ، كمثل وشَبَه مشركي قريش ، ويهود بني قينقاع ﴿ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ نالهم عقاب الله على كفرهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولهم في الآخرة ـ مع ما نالهم في الدنيا من الخزي ـ عذابٌ موجع ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَان اكْفُرْ ﴾ مَثَل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود بالنصرة ، كمثل الشيطان الذي غرَّ إنساناً ووعده النصرة على كفره بالله ، عند الحاجة إليه ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ ﴾ فكفر بالله واتّبعه ، فلما احتاج إلى نصرته ، أسلمه وتبرأ منه ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ ﴾ وقال له : إني أخاف الله رب العالمين في نصرتك ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيها ﴾ فكان عاقبة أمر الشيطان والإنسان ، الذي أطاعه فكفر بالله ، أنهما ماكثان في النار أبداً ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ وذلك ثواب كل كافرٍ بالله ، ظالمٍ لنفسه .

---

(١) أعاد الإمام الطبري الضمير على اليهود ، وقال غيره : الضمير يعود على المنافقين والمعنى : أنتم معشر المسلمين أشدُّ خوفاً وخشية في قلوب المنافقين من الله ، وهو الأظهر لأن الحديث عن المنافقين ، الذين وعدوا اليهود بالنُّصرة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ

* * *

﴿ **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، اتقوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ ولينظر أحدكم ما قدَّم ليوم القيامة من الأعمال ، أمن الصالحات التي تنجيه ، أم من السيئات التي توبقه ؟ ﴿ **واتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ وخافوا الله بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وهو مجازيكم عليها ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ ولا تكونوا كالذين تركوا أداء حق الله ، الذي أوجبه عليهم ، فأنساهم الله حظوظ أنفسهم من الخيرات ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ** ﴾ هؤلاء هم الخارجون عن طاعة الله إلى معصيته﴿**لَايَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ**﴾ لا يعتدل[1] أهل النار وأهل الجنة ﴿**أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ**﴾أهل الجنة هم الفائزون بما طلبوا ، والناجون مما حذروا﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل وهو حجر ، لرأيته يا محمد متذللاً متصدعاً من خشية الله على قساوته ، بينما ابنُ آدمَ معرضٌ لاهٍ عما فيه من العبر والذكر ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ وهذه الأشياء نشبِّهها للناس ، ليتفكروا فيها ، فينيبوا وينقادوا للحق ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ هو الله المعبود ، الذي لا تنبغي العبادة والألوهية إلَّا له ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** ﴾ عالم غيب السموات والأرض، وشاهد ما فيهما مما يُرى ويُحسُّ ﴿ **هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ هو رحمٰن الدنيا والآخرة ، رحيم بأهل الإيمان به ﴿ **هُوَ اللَّهُ الذي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ** ﴾ هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلَّا له ، الملك الذي لا مُلك فوقه ﴿ **القُدُّوسُ** ﴾ الطاهر من كل ما يضيف إليه المشركون ، ويصفونه به ممَّا ليس من صفاته ﴿ **السَّلَامُ** ﴾ الذي يسلم خلقه من ظلمه ﴿ **الْمُؤْمِنُ** ﴾ الذي يُؤمِّن خلقه من ظلمه[2] ﴿ **المُهَيْمِنُ** ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء ﴿ **الْعَزِيزُ** ﴾ الشديد في انتقامه

---

(١) أي لا يتساوى الأبرار والفجار عند الله ، ولا يكونون بمنزلة واحدة يوم القيامة

(٢) وقال غيره المؤمن المصدِّق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم ، وهو الأظهر .

ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

* * *

ممن انتقم من أعدائه ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ المصلح أمور خلقه ، يُصرِّفهم فيما فيه صلاحهم[1] ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ الذي تكبر عن كل شر ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهاً لله ، وتبرئة له ، عن شرك المشركين ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ ﴾ هو المعبود الخالق الذي لا معبود تصلح له العبادة غيره ، ولا خالق سواه ﴿ الْبَارِئُ ﴾ الذي برأ الخلق فأوجدهم بقدرته ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ الذي صوَّر خلقه كيف شاء ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ لله الأسماء الحسنى ، وهي هذه الأسماء في هاتين الآيتين[2] ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يسبح له جميع ما في السموات والأرض ، ويسجد له طوعاً وكرهاً ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وهو الشديد الانتقام من أعدائه، الحكيمُ في تدبيره خلقه ، وتصريفهم فيما فيه صلاحهم .

* * *



(٦٠) سُورَةُ المُمْتَحِنَةِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالله ، لا تتخذوا عدوي من المشركين وعدوكم أنصاراً ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾

---

(١) وقال غيره : الجبار أي القهار العالي الجناب الذي يذل له من دونه .

(٢) الأسماء الحسنى المذكورة هنا وغيرها توقيفية ، يجب الاقتصار على ما ورد في الكتاب والسنة ، مما سمَّى الله به نفسه في كتابه ، أو سمَّاه بها رسوله ﷺ ، فلا يجوز أن نخترع أسماء كأن نقول : اللهُ مهندسُ الكون ، أو طبيب القلوب ، فتدبره .

يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ

* * *

تودونهم ، وقد كفروا بالله ورسوله ، وكتابه الذي أنزله على رسوله ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ يخرجون رسول الله ﷺ ويخرجونكم أيضاً من دياركم وأرضكم ـ مكة ـ لأنكم آمنتم بالله ﴿ إِن كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ إن كنتم خرجتم من دياركم فهاجرتم ، في طريقي الذي شرعته لكم ، وديني الذي أمرتكم به ، والتماس مرضاتي ، فلا تتخذوهم أولياء [١] ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ تخفون مودتكم إلى المشركين ، وأنا أعلم منكم بما أخفى بعضكم من بعض ، وبما أعلنه بعضكم لبعض [٢] ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ومن أسرَّ إلى المشركين بالمودة ، فقد جار عن قصد السبيل ، التي جعلها الله طريقاً إلى الجنة ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ إن يظفر بكم المشركون يكونوا لكم حرباً ، ويبسطوا إليكم أيديهم بالقتال ، وألسنتهم بالسبِّ والشتم ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ وتمنوا أن تكفروا بربكم فتكونوا مثلهم ﴿ لَن تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلَادُكُمْ ﴾ لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم ، الذين توالون الكفار من أجلهم ، فتدفع عنكم عذاب الله ، إن أنتم عصيتموه في الدنيا ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ يفصل ربكم يوم القيامة بينكم ، بأن يُدخل أهل طاعته الجنة ، وأهل معاصيه النار ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ والله بجميع أعمالكم محيط ، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم بها فاحذروه ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ قد كان لكم ـ أيها المؤمنون ـ قدوةٌ حسنةٌ في إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ تقتدون به ، والذين معه من أنبياء الله ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ حين قالوا لقومهم ـ الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت ـ أيها القوم : إنا برآء منكم ، ومن الذين تعبدون من دون الله ، من الآلهة والأنداد ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أنكرنا ما كنتم عليه من

---

(١) هذا شرط حُذف جوابه كما نبه الإمام الطبري تقديره : إن كنتم خرجتم في سبيلي فلا تتخذوا أعدائي أحباء وأصدقاء ، فإن حب الله يقتضي معاداة أعدائه .

(٢) الآية وردت مورد التوبيخ والعتاب ، وقد نزلت في « حاطب بن أبي بلتعة » عندما كتب كتاباً لأهل مكة يخبرهم فيه أن الرسول يريد أن يغزوهم ، وأرسله مع امرأة مسافرة ، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك .. وانظر القصة في صفوة التفاسير ٣ / ٣٦٠

وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ
رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ
فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ

* * *

الكفر ، وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً ﴾ وظهر بيننا وبينكم العداوة ، والبغضاء أبداً على كفركم بالله ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ لا صلح بيننا ولا هوادة ، حتى تصدقوا بالله وحده ، فتوحِّدوه وتفردوه بالعبادة ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ إلاَّ في قول إبراهيم لأبيه «لأستغفرن لك» فإنه لا أسوة لكم فيه، لأن أباه كان عدواً لله، ولما تبين له ذلك تبرَّأ منه [١] ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ قال إبراهيم لأبيه : وما أدفع عنك من عقوبة الله شيئاً إن عاقبك على كفرك ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ﴾ ربنا عليك توكلنا في أمورنا وإليك رجعنابالتوبة مما تكره، إلى ما تحب وترضى من الأعمال الصالحة﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾وإليك مرجعنا يوم تبعثنا من قبورنا ، وتحشرنا إلى موقف العرض ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يا ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين جحدوا وحدانيتك ، وعبدوا غيرك ، بأن تسلِّطهم علينا فيروا أنهم على حق ، وأنَّا على باطل فيفتتنوا بذلك [٢] ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ واستر علينا ذنوبنا ، بعفوك لنا عنها ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يا ربنا إنك أنت الشديد الانتقام ممن تنتقم منه ، الحكيم في تدبيره خلقه.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ لقد كان لكم ـ أيها المؤمنون ـ قدوة حسنة ، في المذكورين : « إبراهيم » والذين معه من الأنبياء والرسل ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ لمن كان منكم يرجو ثواب الله ، والنجاة في اليوم الآخر ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ومن يعرض عما أمره الله به ، فيوالي أعداء الله ، فإن الله هو الغني عنه وعن جميع خلقه ، الحميدُ عند أهل المعرفة ، بأياديه وآلائه ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾لعل الله[٣] أن يجعل بينكم أيها المؤمنون وبين مشركي قريش محبة ومودة ، وقد فعل الله ذلك ، بأن أسلم كثير منهم ، فصاروا لهم أولياء

---

(١) أي فكذلك أنتم أيها المؤمنون تبرءوا من أعداء الله ، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده .

(٢) هذا القول الذي ذكره الطبري هو قول مجاهد ، وقال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لانطيقه ، وهذا القول هو الأرجح لأنه دعاء لهم بعدم تمكين الكفار من رقابهم ، وهو اختيار ابن عطية .

(٣) قال ابن زيد : هؤلاء المشركون قد أدخلهم الله في الإسلام ، وجعل بينهم وبين المسلمين مودة حين كان فتح مكة ، وقال الرازي : « عسى » من الله وعدٌ ، وقد حقق الله ما وعدهم به ، من اجتماع كفار مكة بالمسلمين ومخالطتهم لهم ، وذلك حين فتح مكة . اهـ التفسير الكبير ٢٨/٣٠٣

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟
إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ
وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ
ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ
لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ

* * *

وأحزاباً . ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ والله ذو قدرة على أن يجعل تلك المودة ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ والله غفورٌ لخطيئة من تاب ، رحيمٌ بهم أن يعذبهم بعد توبتهم ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم من أجل دينكم ، من جميع أصناف الملل والأديان ، ولم يخرجوكم من بلادكم ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أن تَصِلوهم وتعدلوا فيهم ، بإحسانكم إليهم ، وبرِّكم بهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ إن الله يحب المنصفين، الذين ينصفون الناس ، فيبرون من برَّهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ إنما ينهاكم الله ـ أيها المؤمنون ـ أن تكونوا نصراء ، للذين قاتلوكم في الدين ، من كفار مكة ، وأخرجوكم من بلادكم ، وعاونوا من أخرجكم من دياركم على إخراجكم ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ومن يجعلهم أولياء منكم ، أو من غيركم ، فأولئك هم الذين وضعوا ولايتهم في غير موضعها ، فخالفوا أمر الله في ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إذا جاءكم النساء المؤمنات ، مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام ، فاختبروهن بأن يحلفن أنهن لم يخرجن إلا حباً لله ورسوله [١] ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ الله أعلم بإيمان النساء المهاجرات ﴿ فَإِن عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ فإن أقررن عند الاختبار بما يصح به إيمانهن ، فلا تردوهن عند ذلك إلى الكفار[٢]﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ لا المؤمنات حِلٌّ للكفار ، ولا الكفار يحلون للمؤمنات ﴿ وَآتُوهُم ما أَنْفَقُوا ﴾ وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤ هم مؤمنات ،ما أنفقوا من الصداق في نكاحهم

(١) قال ابن زيد : كانت المرأة من المشركين إذا غضبت على زوجها قالت : واللهِ لأهاجرن إلى محمد ﷺ وأصحابه ، فأمر الله تعالى أن تمتحن ، فإن كان غضبها على زوجها أتى بها أن تُردَّ ، وإن كان الإسلام أتى بها فلا ترد . وقال قتادة : يحلفن أنهن ما خرجن إلا رغبة في الإسلام ، وحباً لله ورسوله اهـ الطبري ٢٨ / ٦٨

(٢) إنما أُمر المسلمون بذلك ، لأن العهد الذي كان قد جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش في « صلح الحديبية » أن يرد المسلمون إلى المشركين من جاءهم مسلماً ، فأبطل الله ذلك الشرط في النساء إذا جئن مؤمناتٍ مهاجراتٍ ، وأمر بامتحانهنَّ .

وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ

* * *

لهنَّ ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ولا حرج عليكم أيها المؤمنون أن تنكحوا هؤلاء المهاجرات ، اللاتي لحقن بكم مفارقاتٍ لأزواجهن ، إذا أنتم أعطيتموهن مهورهن ﴿ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ ولا تمسكوا ـ أيها المؤمنون ـ بحبال النساء الكافرات (١) ، وفارقوا من كنَّ عندكم منهنَّ ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ واسألوا ـ أيها المؤمنون ـ صداق أزواجكم اللواتي لحقن بالمشركين ممن تزوجها ، وليسأل المشركون صداق أزواجهم ، اللواتي تزوجن منكم بعد هجرتهن ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ هذا الحكم في النساء المؤمنات والمشركات ، حكم الله يحكم بينكم ، فلا تعتدوه فإنه الحق ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عالمٌ بما يُصلح خلقه ، حكيمٌ في تدبيره إياهم ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ وإن فاتكم أيها المؤمنون شيء من أزواجكم ، فلحق بالكفار فأصبتم منهم شيئاً ، غنيمةً أو غيرها (٢) ﴿ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ فآتوا الذين ذهبت أزواجُهم منكم إلى الكفار ، مثل ما أنفقوا عليهن من الصداق ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ وخافوا الله الذي أنتم به مصدِّقون ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً ﴾ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ، يبايعنك على عدم الإشراك بالله شيئاً ﴿ وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ ﴾ (٣) ﴿ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ولا يأتين بكذبٍ في مولود ، ويلحقن بأزواجهن غير أولادهم (٤) ﴿ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي

---

(١) قال ابن جرير : وهذا نهيٌ من الله للمؤمنين ، عن الإقدام على نكاح المشركات من أهل الأوثان ، وأمرٌ لهم بفراقهنَّ .

(٢) معنى الآية : إن فرَّتْ زوجة أحدٍ من المسلمين ولحقت بالكفار ، فغزوتم الكفار وأصبتم منهم غنيمة ، فأعطوا لمن فرَّت زوجته مثل ما أنفق عليها من المهر ، من الغنيمة التي بأيديكم ، قال ابن عباس : إن لحقت امرأة رجلٍ من المهاجرين بالكفار ، أمَرَ له رسولُ الله ﷺ أن يُعطى مثل ما أنفق من الغنيمة .

(٣) لم يفسر الإمام ابن جرير ذلك لأن السرقة ، والزنا، وقتل الأولاد ظاهرة المعنى لا تحتاج إلى بيان قال ابن كثير في قتل الأولاد : وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار ، ويعم قتله وهو جنين كما يفعله بعض النساء الجاهلات ، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد ، أو ما أشبهه . المختصر ٣/٤٨٩.

(٤) المراد بالآية اللقيط وليس الزنى، لأن ذلك تقدم النهي عنه صريحاً ﴿ ولا يزنين ﴾ قال ابن عباس : لاتُلحق بزوجها ولداً ليس منه، وقد كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك !! .

فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

* * *

مَعْرُوفٍ ﴾ ولا يعصينك يا محمد في معروف من أمر الله عزَّ وجل تأمرهن به ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ فبايعهنَّ على ذلك ﴿ واسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ﴾ وسل لهن الله ، أن يصفح عن ذنوبهنَّ بعفوه عنها ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ساترٌ لذنوب من تاب ، رحيمٌ به أن يعذبه بعد توبته منها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يا أيها الذين آمنوا ، لا تُصادقوا اليهود الذين غضب الله عليهم ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قد يئس هؤلاء اليهود من ثواب الله لهم في الآخرة ، كما يئس الكفار الذين مضوا قبلهم ، فكانوا من أصحاب القبور ، من ثواب الله وكرامته ، لأنهم على مثل الذي عليه هؤلاء من الكفر والتكذيب (١) .

***



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

* * *

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ نزَّه الله وقدَّسه جميع ما في السموات السبع ، وما في الأرض من الخلق ، مذعنين له بالألوهية والربوبية ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وهو العزيز في نقمته ممن عصاه ، الحكيمُ في تدبيره إياهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله

---

(١) هكذا رجح الإمام الطبري ، ورجح البعض أن المعنى هو : « قد يئس الفجار من ثواب الآخرة ونعيمها ، كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور من أمواتهم ، أن يعودوا إلى الحياة ثانية بعد أن يموتوا ، وهو قول ابن عباس ، ولعله الأظهر والله أعلم .

كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

***

ورسوله ، لم تقولون القول الذي لا تصدِّقونه بالعمل ؟ فأعمالكم مخالفة لأقوالكم[١] ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلونَ ﴾ عظم بغضاً[٢] وقولاً عند ربكم ، قولُكم ما لا تفعلون ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً ﴾ إن الله يحب المؤمنين ، الذين يقاتلون في سبيل الله ، ومن أجل دينه الذي دعا إليه ، صفاً مصطفاً ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ كأنهم في اصطفافهم حيطانٌ مبنية، محكمةُ البِناء، قد رُصَّ فأُحكم وأُتقن ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِه يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وآذكر يا محمد حين قال موسى بن عمران لقومه : يا قوم لم تؤذونني ؟ وأنتم تعلمون حقاً أني رسول الله إليكم ؟ ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ فلمَّا عدلوا وجاروا عن الطريق السَّويّ ، أمال الله قلوبهم عنه ﴿ واللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ والله لا يوفق لإصابة الحق ، القوم الذين اختاروا الكفر على الإيمان ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ واذكر أيضاً يا محمد ، حين قال عيسى ابن مريم لقومه من بني إسرائيل : إني رسول الله أرسلني إليكم ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ مصدقاً لما تقدَّمني من التوراة التي أنزلت على موسى ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ وأبشركم برسول يأتي من بعدي آسمه أحمد ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فلما جاءهم أحمد[٣] بالدلالات والحجج على نبوته ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

(١) سبب نزول هذه الآية أن بعض المسلمين قالوا : لو عرفنا أحبَّ الأعمال إلى الله لعملنا به ، ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا !! فلما فرض الله الجهاد عليهم كرهه بعضهم، وضعفت نفوسهم عن مجابهة الأعداء فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ ؟

(٢) (مقتاً) المقتُ : أشدُّ البغض وأفحشه .

(٣) رجح بعض المفسرين من المتأخرين كالألوسي ، والبيضاوي أن الضمير هنا يعود على «عيسى» عليه السلام، بينما يرى ابن جرير أن الضمير يعود على المذكور القريب وهو «أحمد» ، والأظهر ما قاله المفسرون من أن الضمير يعود على «عيسى» لأنه هو المتحدث عنه والسياق يشهد لهذا القول والله أعلم .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ
لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ

***

قالوا : ما أتى به سحرٌ بيّنٌ واضحٌ وهو ساحر ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ ومنْ أشدُّ ظلماً وعدواناً ، ممن اختلق على الله الكذب بقوله عن نبي الله هو ساحر ، وما جاء به سحر ؟ ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ ﴾ إذا دعي إلى الدخول في الإسلام ، قال على الله الكذب ، وافترى عليه الباطل ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ والله لا يوفق لإصابة الحق، القوم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يريد هؤلاء الكافرون ليبطلوا الحق ،الذي بعث الله به محمداً ﷺ بأفواههم ، بقولهم : إنه ساحر ، وما جاء به سحر ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ والله مظهرُ دينه ، وناصرُ رسوله ولو كره الكافرون بالله ذلك .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الله الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ ببيان الحق ، وبدين الحقّ ، وهو الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ليعلي دينه الحق على كل دين سواه ، ولو كره المشركون ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هل أدلكم أيها المؤمنون ، على تجارةٍ تنجيكم من عذاب جهنم الموجع ؟ ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ تؤمنون بالله ورسوله[٢] ، وتجاهدون في دين الله وطريقه الذي شرعه لكم ، بأموالكم وأنفسكم ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إيمانكم وجهادكم خير لكم من تضييع ذلك والتفريط فيه ، إن كنتم تعلمون مضار الأشياء ومنافعها ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ يستر عليكم ربكم ذنوبكم فيصفح عنكم ويعفو ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ويدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ ويدخلكم مساكن طيبة في

---

(١) الأسلوب هنا أسلوب تشويق وترغيب جيء بصيغة الاستفهام ﴿هل أدلكم﴾ للترغيب والتشويق إلى سماع الجواب .

(٢) هذا بيانٌ وتوضيحٌ للتجارة الرابحة التي تنجي من عذاب أليم ، فكأن سائلاً يقول: ما هي التجارة ؟ فجاءت الآية الثانية تبينها وتوضحها، وقد ذكر تعالى شرطين أساسيين وهما : الإيمان بالله ورسوله ،والجهاد في سبيله بالمال والنفس، والمراد بالإيمان هنا مع أن المخاطبين مؤمنون هو الإيمان الثابت الراسخ الذي ليس فيه شك وارتياب .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

* * *

بساتين إقامة ، لا انتقال عنها ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ذلك النجاء العظيم من نكال الآخرة وأهوالها ﴿ وأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ﴾ ولكم خصلةٌ أخرى في الدنيا تحبونها ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ نصر لكم من الله على أعدائكم ، وفتح قريب يعجّله لكم ﴿ وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبشر يا محمد المؤمنين بنصر الله لهم على عدوهم ، وفتح عاجل لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله كونوا أنصار الله[1] ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلى اللَّهِ ﴾ كما سأل عيسى ابن مريم أصحابه : من أنصاري منكم إلى نصرة الله لي[2] ؟﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ فقالوا : نحن أنصار الله ، على ما بعث به أنبياءه من الحق ﴿فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ﴾ فآمنت جماعة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ، وكفرت جماعة أخرى منهم به[3] ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴾ فقوَّينا الذين آمنوا من الطائفتين من بني إسرائيل على الذين كفروا منهم ببعثة محمد ﷺ الذي جاء مصدّقاً بأن عيسى عبد الله ورسوله ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ فأصبحت الطائفة المؤمنة منهم ، غالبين على عدوهم الكافرين

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف »

* * *

---

(١) المراد به نصرة دينه وشريعته كما قال تعالى ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ .

(٢) هكذا فسَّره الإمام ابن جرير ، فيكون «إلى» على تفسيره بمعنى «مع» أي من أنصاري مع الله ، وقال غيره المعنى : من ينصرني ويكون عوني لتبليغ دعوة الله ، ونصرة دينه !! وهذا المعنى أظهر والله اعلم .

(٣) قال ابن كثير: لما بلَّغ عيسى عليه السلام رسالة ربه ، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاء به ، وضلَّت طائفة أخرى فجحدوا نبوَّته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم «اليهود» عليهم لعنة الله ، وغلت فيه طائفة من أتباعه ، فمنهم من زعم أنه ابن الله ، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة ـ الأب ، والابن ، وروح القدس ـ ومنهم من قال: إنه الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى .



بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا
مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾

* * *

﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ** ﴾ ينزه الله ويُعظّمه كل ما في السموات السبع ، وكل ما في الأرضين من خلقه ﴿**الْمَلِكِ** ﴾ الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما ،النافذ أمره في السموات والأرض ، ﴿**القدُّوس**﴾ الطاهر من كل ما يضيف إليه المشركون ويصفونه به مما ليس من صفاته﴿**الْعَزِيزِ** ﴾ الشديد في انتقامه من أعدائه ﴿ **الْحَكِيمِ** ﴾ في تدبيره خلقه ، وتصريفه لهم في مصالحهم ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ** ﴾ الله الذي بعث في العرب ، رسولاً أمياً منهم ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ** ﴾ يقرأ على هؤلاء الأميين العرب ، آيات الله التي أنزلها عليه ﴿ **وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ ويطهّرهم من دنس الكفر ﴿ **وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ ويعلمهم كتاب الله وشرائع دينه ، ويعلمهم السنن[1] ﴿ **وإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ وقد كان هؤلاء الأميون ـ من قبل أن يبعث الله فيهم محمداً ـ في جورٍ عن طريق الرشد ، ظاهرٍ لمن تأمله أنه ضلال ﴿ **وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِم** ﴾ وبعث محمداً لكل لاحقٍ بالأميين من العجم وغيرهم ، لم يجيئوا بعدُ وسيجيئون ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ العزيز في انتقامه ممن كفر به ، الحكيم في تدبيره خلقه ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ هذا فضل الله ! تفضّل به على هؤلاء ، واللَّهُ يؤتي فضله من يشاء من خلقه ، ﴿**واللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ على عباده المحسن منهم

---

(١) أي السنة النبوية المطهرة ، فيجمع لهم ﷺ بين الكتاب المنير والسنة الهادية .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

* * *

والمسيء ، العظيم فضلُه كل ذي فضل ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ مثل الذين أوتوا التوراة من « اليهود والنصارى » وأُمروا بالعمل بها ، ثم لم يعملوا بما فيها، وكذبوا بمحمد ﷺ ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ كمثل الحمار يحمل على ظهره كتباً من العلم ،لا ينتفع بها ولا يعقل ما فيها[1] ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بئس هذا المثل ، مثل القوم الذين كذبوا بأدلة الله وحججه ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ والله لا يوفق للحق ، الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بآيات الله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ قل يا محمد لليهود: إن زعمتم أنكم أولياء لله وأحباؤه من دون الناس ، ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فتمنوا الموت إن كنتم محقين فيما تقولون أنكم أولياء الله ، كي تستريحوا من كرب الدنيا وهمومها فإن الله لا يعذب أولياء ه ، بل يكرمهم وينعمهم ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ولا يتمنى اليهود الموت أبداً ، بما اكتسبوا في هذه الدنيا من الآثام ، واجترحوا من السيئات ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ والله عالمٌ بمن ظلم نفسه ، فأوبقها بكفره بالله .

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ قل يا محمد لليهود : إن الموت الذي تكرهونه وتأبون أن تتمنوه ، فإنه نازل بكم وملاقيكم ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ثم يردكم ربكم بعد مماتكم ، إلى عالم غيب السموات والأرض ، وعالم ما ظهر لرأي العين مما هو مشاهد ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيخبركم بأعمالكم سيئها وحسنها ، ثم يجازيكم على ذلك ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بما هو أهله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، إذا أُذِّن للصلاة من يوم الجمعة ، عند قعود الإمام على المنبر ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ فامضوا إلى

---

(١) أشنعُ وأقبح مثل ضربه القرآن الكريم ، لمن تعلَّم فلم ينتفع بعلمه ، فقد مثَّل له القرآن بالكلب والحمار ، كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهثْ أو تتركهُ يَلْهَثْ . . ﴾ وقال هنا ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ فقد شبَّه تعالى أحبار اليهود ، والتوراة في أيديهم يقرءونها ، بالحمار الذي يحمل على ظهره الكتب الضخمة النافعة ، ولكنه لا ينتفع منها ولا يناله إلا الشقاء والتعب ، وهذا منتهى التقبيح والتشنيع لهم .

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟
تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

* * *

ذكر الله[1] ، ودعوا البيع والشراء عند الخطبة ﴿ ذَلِكُمْ خيْرٌ لَكُمْ ﴾ سعيُكم للصلاة وترككم للبيع ، خيرٌ لكم من التجارة ذلك الوقت ﴿ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ مصالح أنفسكم ومضارها ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ فإذا أديتم صلاة الجمعة ، فانتشروا في الأرض إن شئتم ذلك ﴿ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ والتمسوا من فضل الله ، الذي بيده مفاتيح خزائنه ، لدنياكم وآخرتكم ﴿ واذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ واذكروا الله بالحمد والشكر له ، لتفلحوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم ، وتصلوا إلى الخلد في جنانه ﴿ وإذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إلَيْها ﴾ وإذا رأى المؤمنون تجارة أو لهواً ، أسرعوا إليها وتفرقوا عنك ﴿وَتَركُوكَ قَائِماً﴾ وتركوك يا محمد قائماً على المنبر تخطب[2] ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ قل لهم يا محمد : الذي عند الله من الثواب ، لمن جلس مُسْتمعاً لخطبة رسوله وموعظته يوم الجمعة ، خيرٌ له من اللهو ومن التجارة ، التي يسرعون إليها ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ والله خير رازق لعباده ، فإليه فارغبوا وإياه فاسألوا أن يوسِّع عليكم من فضله .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة »

* * *

(١) قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ : واللَّهِ ما هو بالسعي على الأقدام ، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكنه سعيٌ بالقلوب والنية ، والخشوع . تفسير القرطبي ١٨ / ١٠٣

(٢) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : بينما النبي ﷺ يخطب الجمعة قائماً إذ قدمت عير إلى المدينة ؛ فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً . . ﴾ الحديث رواه البخاري ومسلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا

* * *

﴿ إِذَا جَاءَكَ المنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ إذا جاءك المنافقون يا محمد ، قالوا بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ والله يعلم إنك لرسولهحقاً،قال المنافقون ذلك أو لم يقولوه ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ والله يشهد بكذب المنافقين ، في إخبارهم أنك لرسول الله ، وذلك أنهم لا يعتقدون ذلك ، فهم كاذبون في خبرهم لأنهم أضمروا غير ما أظهوروا ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ اتخذ المنافقون حلفهم سترة(١) يستترون بها ، ليعصموا بها دماءهم وأموالهم ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فأعرضوا عن دين الله الذي بعث به محمداً ﷺ ، وعن شريعته التي شرعها لخلقه ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ساء ما كانوا يعملون ، في اتخاذهم أيمانهم وقاية وسترة لكذبهم ونفاقهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ ذلك الصنيع من أجل أنهم آمنوا بالله ورسوله ، ثم كفروا بشكهم وتكذيبهم بذلك ، فجعل الله على قلوبهم ختماً ، بالكفر عن الإيمان ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ صواباً من خطأ ، ولا حقاً من باطل ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ وإذا رأيت هؤلاء

---

(١) الجُنَّة : بضم الجيم الوقاية والسترة كما يستتر المقاتل في الحرب بالمجَن ـ الترس ـ وفي الحديث « الصوم جُنَّة » أي وقاية وسترة من عذاب الله .

تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ

* * *

المنافقين يا محمد ، تعجبك أجسامهم ، لاستواء خلقها ، وحسن صورها ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ وإن يتكلموا تسمع كلامهم ، لأنه يشبه منطق الناس ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ كأنهم أخشابٌ مسنَّدةٌ إلى حائط ، لا فقه لهم ولا علم ، وإنما هم صورٌ بلا أحلام ، وأشباحٌ بلا عقول ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ يحسب المنافقون من خبثهم وقلة يقينهم ، كل صيحة عليهم ، يخافون أن يُنزل الله فيهم أمراً يفضحهم ، ويبيح للمؤمنين قتلهم وسلبهم ، فكلما نزل من الله وحيٌ على رسوله ، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطَبهم ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ هم العدو يا محمد فاحذرهم ،فإن ألسنتهم معكم ، وقلوبهم عليكم ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ أخزاهم الله ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ إلى أيِّ وجه يصرفون عن الحق ؟ ﴿ وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءوسَهُمْ ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المنافقين تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم ، حرَّكوا رؤوسهم وهزُّوها مِراراً ، استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره ﴿ وَرَأَيْتَهُم يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ ورأيتهم يعرضون عما دعوتهم إليه ، وهم مستكبرون عن الرجوع إليك لتستغفر لهم ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ سواءٌ على هؤلاء المنافقين ،أستغفرت لهم من ذنوبهم أم لم تفعل ﴿ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ لن يصفح الله لهم عن ذنوبهم ، بل يعاقبهم عليها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ لا يوفق للإيمان القوم الخارجين عن طاعته .

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾ هم المنافقون الذين يقولون لأصحابهم : لا تنفقوا على أصحاب رسول الله ، الذين عنده من المهاجرين ، حتى يتفرَّقوا عنه ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولله جميع ما في السموات والأرض ، وبيده مفاتيح خزائن ذلك ، لا يقدر أحدٌ أن يعطي أحداً شيئاً إلا بمشيئته ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ فلذلك يقولون ما يقولون ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْها الْأَذَلَّ ﴾ يقول المنافقون : لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن

وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ
وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ
أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾
وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

* * *

الأشدُّ والأقوى منها ، الأذلَّ فيها[1] ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولله الغَلَبةُ والقوة ، ولرسوله ، وللمؤمنين ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن العزة لله ولأوليائه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله وعن الصلوات الخمس ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ومن يلهه ماله وأولاده عن ذكر الله ، فأولئك هم المغبونون حظوظهم ، من كرامة الله ورحمته تبارك وتعالى ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ وأنفقوا أيها المؤمنون من الأموال التي رزقناكم ، من قبل أن يحل الموت بأحدكم ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ فيقول إذا نزل به الموت : يا رب هلَّا أخرتني إلى أجل قريب ، فأزكي مالي وأحجَّ بيتك الحرام ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وأعمل بطاعتك ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ لن يؤخر الله في أجل أحد ، فيمدَّ له إذا حضر أجله ، ولكن يخترمه ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ والله ذو علمٍ بأعمال عبيده ، لا يخفى عليه شيء ، وهو مجازيهم عليها ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

* * *

(١) هذا من كلام رأس المنافقين « عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول » ويريد بالأعزّ نفسه وأصحابه ، وبالأذل محمداً ﷺ وأصحابه ، وقد روي عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فلسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله ، ﷺ : ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة : فقال عبد الله بن أبي بن سلول : وقد فعلوها . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : « دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » رواه البيهقي ، وللحديث روايات كثيرة عند البخاري ومسلم وأحمد وغيرهما .

(٢) حكَم تعالى بالخيبة والخسران على من شغلته الدنيا عن طاعة الله وعبادته، أما من استعان بالدنيا على طاعة الله ومرضاته ، فنعمت المطية ، ونعم المركب !!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ

* * *

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ يسجد لله ما في السموات السبع وما في الأرض من خلقه ، ويمجّده ويعظّمه ﴿ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ له ملك كل ما فيها ، وحمد جميع ما فيها من خلق ، لأنه ليس لهم رازق سواه ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ﴾ لايتعذر عليه شيء أراده ، لأنه ذو القدرة التامة ، التي لايعجزه معها شيء ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ الله الذي خلقكم أيها الناس ، فمنكم كافرٌ بخالقه ، ومنكم مصدِّقٌ به ، موقنٌ بأن الله خالقه وبارئه ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ عالمٌ بأعمالكم ، وهو مجازيكم بها ، فاتقوه أن تخالفوه في أمره أو نهيه ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ خلق السموات السبع والأرض ، بالعدل والإنصاف ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ومثَّلكم [1] فأحسن مَثَلكم بخلقه أباكم آدم ﴿ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ وإلى الله مرجع جميعكم أيها الناس ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يعلم ربكم جميع ما في السموات السبع ، وما في الأرض من شيء ،لا يخفى عليه من ذلك خافية ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ويعلم ما تُسِرُّون من قولٍ وعمل ، وما تُظهرون من ذلك ﴿ وَاللَّهُ

---

(١) المراد بالآية أنه تعالى خلق البشر في أحسن صورة وأجمل شكل ، فأتقن وأحكم خلقهم وتصويرهم كما قال تعالى ﴿ هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ .

عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٥﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ
حَمِيدٞ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ
ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا

* * *

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ عالمٌ بضمائر عباده ، وما تنطوي عليه نفوسهم ، فاحذروا أن تُسِرُّوا غير الذي تعلنون ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ** ﴾ ألم يأتكم أيها الناس ، خبر الذين كفروا من قبلكم من الأمم ، فمسَّهم عذاب الله على كفرهم ؟! ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ولهم عذاب موجع في نار جهنم ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ هذا الذي نالهم ، من أجل أنه كانت تأتيهم رسلهم ، بالواضحات من الأدلة والحجج ، على حقيقة ما يدعونهم إليه ﴿ **فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا** ﴾ فقالوا لرسلهم : أبشر يهدوننا ؟ استكباراً منهم أن تكون رسل الله بشراً مثلهم(١) ، واستكباراً عن اتباع الحق ﴿ **فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا** ﴾ فكفروا بالله ، وجحدوا رسالة رسله استكباراً ، وأدبروا عن الحق فلم يقبلوه ﴿ **واسْتَغْنَى اللَّه** ﴾ استغنى الله عنهم وعن إيمانهم به وبرسله ﴿ **واللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ والله غنيٌّ عن جميع خلقه ، محمودٌ عند جميعهم ، بجميل أياديه وكريم فعاله ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا** ﴾ زعم الذين كفروا بالله ، أن لن يبعثهم الله من قبورهم بعد مماتهم ﴿ **قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ** ﴾ قل لهم يا محمد : بلى وربي ، لتبعثن من قبوركم ، ثم لتخبرن بأعمالكم ، التي عملتموها في الدنيا ﴿ **وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ وبعثكم بعد مماتكم ، سهلٌ هيِّنٌ على الله ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ فصدِّقوا أيها المكذبون بالبعث بالله ورسوله ، وبإخباره أنكم مبعوثون بعد مماتكم ﴿ **وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا** ﴾ وآمنوا بالقرآن الذي أنزلناه على محمد ﷺ ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ والله عالمٌ بأعمالكم ، لايخفى عليه منها شيء ، وهو مجازيكم عليها ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ** ﴾ يوم يجمع الخلائق للعرض والحساب ، ذلك يوم غبن أهل الجنة أهل النار(٢) ﴿ **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ** ﴾ ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته ،

---

(١) استنكروا أن يكون الرسول بشراً ، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً ، وذلك لقلة عقولهم وسخافة تفكيرهم ، ويا لها من مفارقةٍ عجيبة !!

(٢) أي ذلك اليوم الذي يظهر فيه غبنُ الكافر وخسارته بتركه الإيمان والعمل الصالح ، قال الخازن : وأصله من « الغبن » وهو =

ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ
ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

* * *

يمح عنه ذنوبه ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ويدخله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ لابثين فيها أبداً ، لايموتون ولا يخرجون منها ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ خلودهم في الجنات هو النجاء العظيم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ والذين جحدوا وحدانية الله ، وكذبوا بكتابه المنزل على محمد ﷺ ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أولئك أهل النار ، ماكثين فيها أبداً لايموتون فيها ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وبئس الشيء الذي يصار إليه جهنم ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ لم يصب أحداً من الخلق مصيبة ، إلا بقضاء الله وتقديره ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ ومن يصدِّق بالله ، فيعلم أن المصيبة بإذنه وتقديره تعالى ، يوفق الله قلبه ، بالتسليم لأمره والرضا بقضائه ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عالمٌ بما كان ، ويكون ، وما هو كائن.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ وأطيعوا الله في أمره ونهيه ، وأطيعوا رسوله ﷺ ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُم فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ فإن أدبرتم عن طاعة الله ، وطاعة رسوله ، فليس على رسولنا محمد ﷺ إلا البلاغ الواضح ، وقد أعذركم بالإبلاغ (١) ، والله ينتقم ممن عصاه ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ معبودكم أيها الناس المستحق للعبادة ، معبودٌ واحدٌ لا معبود لكم سواه ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وعلى الله فليعتمدْ المصدِّقون بوحدانيته ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَكُم فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ، يصدُّونكم عن سبيل الله ، ويثبطونكم عن طاعة الله ، فاحذروا أن تقبلوا منهم ذلك ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا ﴾ وإن تعفوا عمَّا سلف منهم ، من صدِّكم عن الإسلام والهجرة ،وتصفحوا عن عقوبتكم لهم ، وتغفروا لهم ذلك ﴿ فَإِنَّ

=أخذ الشيء بدون قيمته ، فيظهر يومئذ غبن كل كافر بتركه الإيمان ، ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان . وقال ابن عباس : يوم التغابن من أسماء يوم القيامة ، عظَّمه تعالى وحذَّره عباده .

(١) المعنى أنه ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة ، وقد أدى الرسالة وبلَّغ الأمانة ، كما أمره الله تعالى ، فلا ضرر عليه ، وإنما الضرر عليكم بتكذيبه ، والله ينتقم ممن عصاه وخالف أمره .

إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

* * *

اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾غفورٌ لذنوبمن تاب من عباده رحيمٌ بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ما أموالكم أيها الناس وأولادكم ، إلَّا بلاءٌ عليكم في الدنيا ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ والله عنده ثوابٌ عظيم لكم هو الجنة ، إذا أنتم خالفتم أولادكم وأزواجكم ، في طاعة ربكم ، وأدَّيتم حق الله في أموالكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فخافوا عقاب الله أيها المؤمنون ، وتجنبوا عذابه ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ بقدر ما أطقتم وبلغه وسعكم [1] ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ واسمعوا لرسول الله ﷺ وأطيعوه ، فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ وأنفقوا مالاً لأنفسكم ، تستنقذوها من عذاب الله ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ ومن يحفظه الله من هوى نفسه ، ويقه شحَّها ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فهؤلاء هم الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ إن تنفقوا في سبيل الله ، فتحسنوا النفقة ، وتحتسبوا بإنفاقكم الأجر والثواب عند ربكم ﴿ يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ يضاعف لكم الأجر ، فيجعل مكان الواحد سبعمائة ضعف ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم ،فيصفح عن عقوبتكم عليها ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ذو شكرٍ لأهل الإنفاق في سبيله ، بإحسانه لهم الجزاء ، حليمٌ عن أهل معاصيه ، بترك معاجلتهم بعقوبته ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ عالم ما يغيب عن أبصار العباد ، وما يشاهدونه فيرونه بأبصارهم ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الشديد في انتقامه ممن عصاه ، الحكيمُ في تدبير أمور خلقه فيما يصلحهم .

* * *

---

(١) قال المفسرون : هذا في المأمورات ، أما في المنهيات فتجتنب كلها لقوله ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » رواه البخاري ومسلم .

(٢) فسَّر الإمام ابن جرير الشح باتباع هوى النفس فيما حرَّم الله ، وقال غيره : الشحُّ هو أشدُّ أنواع البخل ومعنى الآية : من يسلم من البخل والطمع وينفق في سبيل الله فقد فاز برضوان ربه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

* * *

﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ يا أيها النبي إذا طلقتم نساءكم ، فطلقوهنَّ لطهرهنَّ الذي يُحصينه من عدتهنَّ ، طاهراً من غير جماع ، ولا تطلقوهنَّ بحيضهن ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ وأحصوا هذه العدة فاحفظوها ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ وخافوا الله ربكم ، فاحذروا معصيته أن تتعدَّوا حدوده ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ لا تُخرجوا من طلَّقتم من نسائكم من بيوتهن ، التي كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق ، حتى تنقضي عدتهن ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ وليس لها أن تخرج بنفسها ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ إلا أن يأتين بمعصية الله كالزنى ، وبذاءة اللسان ، وخروجها من بيتها الذي تعتد فيه قبل انقضاء العدة ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ وهذه الأمور التي بينتها لكم ، هي حدودُ الله التي حدَّها لكم فلا تعتدوها ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ ومن يتجاوز حدود الله ، فقد أكسب نفسه وزراً ، فصار لها بذلك ظالماً ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ لا تدري ما الذي يحدث ، لعل الله يحدث بعد طلاقكم إياهن رجعة[1] ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ فإذا بلغ المطلقات قرب انقضاء عدتهن ، ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ فأمسكوهنَّ برجعة تراجعوهنَّ بها بالمعروف وذلك بإعطائها الحقوق التي

---

(١) قال ابن زيد : لعل الله يحدث في قلبك مراجعة زوجتك ، ومن طلَّق للعدة جعل الله له في ذلك فسحة ، وجعل له ملكاً عليها بمراجعتها قبل أن تنقضي عدتها .

وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ

* * *

أوجبها الله لها ، من النفقة ، والكسوة ، والمسكن ، وحسن الصحبة ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أو اتركوهنَّ حتى تنقضي عدتهنَّ بعد إيفائها حقها من الصَّداق والمتعة ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وأشهدوا على الرجعة إن أمسكتموهن ، رجلين ترضون دينهما وأمانتهما ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ وأشهدوا على الحق ، إذا أنتم دعيتم للشهادة ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هذا الذي أمرتكم به ، عظةٌ نعظ به من كان يؤمن بالله ، ويصدِّق باليوم الآخر ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ ومن يخف الله فيعمل بأوامره ، ويجتنب نواهيه ، يجعل له مخرجاً وسبيلاً إلى خطبتها ونكاحها ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ويسبِّب له أسباب الرزق ، من حيث لا يشعر ولا يعلم ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ومن يفوِّض أموره إلى الله ، فهو كافيه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ إن الله بالغ أمره بكل حال ، توكَّل عليه العبد أو لم يتوكل(١) ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ قد جعل الله لكل شيء حدّاً وأجلاً ينتهي إليه ﴿واللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ والنساء اللاتي ارتفع طمعهن عن المحيض ، فلا يرجون الحيض لكبر السنِّ أو غيره ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إن ارتبتم فلم تدروا ما الحكم فيهن ؟ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فعدتهن عند الطلاق ثلاثة أشهر ﴿وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وأجل النساء الحوامل في انقضاء عدتهن ، أن يضعن حملهن مطلقةً كانت أو متوفى عنها زوجها ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ ومن يخف الله فيجتنب معاصيه ، فإنه يجعل الله له من طلاقه ما يسهل عليه الرجعة ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ هذا الذي بيَّنته لكم هو أمر الله أنزله إليكم ، لتأتمروا وتعملوا به ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ ومن يخف الله فيتقه باجتناب معاصيه ، يمح عنه ذنوبه ، ويُجزل له الثواب بإدخاله جنَّته .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ أسكنوا المطلقات من الموضع الذي سكنتم فيه ، مما تجدون من السعة ، حتى يقضين عُدَدهنَّ ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ ولا تضيِّقوا عليهن في المسكن

(١) قال ابن مسعود : ليس بمتوكلٍ من قُضيت حاجتُه ، غير أن المتوكل يُكفِّر عنه سيئاته ، ويُعظم له أجراً .

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ
ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ
اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا
نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي

* * *

إضراراً بهن حتى يخرجن ، وأنتم تجدون سعة من المنازل ﴿وَإِنْ كُنَّ أولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وإن كان نساؤكم المطلقات حاملات ، وكنَّ بائنات منكم ، فأنفقوا عليهن في عدتهن حتى يضعن حملهن ﴿فإنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجورَهُنَّ﴾ فإن أرضع لكم نساؤكم الأطفال بأجرة ، فآتوهن أجورهن على رضاعهن إياهم ﴿وَأْتَمِروا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ وليقبل بعضكم من بعض ما أُمر به من معروف[١] ؛ قال السُّدّي : إصنعوا المعروف فيما بينكم ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ وإن تعاسر الرجل والمرأة في رضاع ولدها منه ، فامتنعت من رضاعه ، فليس له إكراهها على إرضاعه ، ولكنه يستأجر للصبي مرضعة غير أمه المطلَّقة[٢] ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ لينفق الذي طلَّق امرأته إذا كان ذا سعة وغنى ، من سعة ماله وغناه ، على امرأته وعلى ولده الصغير ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ﴾ ومن ضُيِّق عليه رزقه ، فلينفق مما أعطاه الله على قدر ماله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ لا يكلف الله أحداً من النفقة ، إلا على قدر طاقته . قال السدي : لا يُكلَّف الفقير مثل ما يُكلَّف الغني ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ سيجعل الله للمضيَّق عليه رزقه ، بعد شدةٍ رخاءً ، وبعد ضيقٍ سعةً ، وبعد فقرٍ غنى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ﴾ وكثير من أهل قرية ، طغوا عن أمر ربهم وعن أمر رسله ، فتمادوا في طغيانهم وعتوهم ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾ فحاسبناها حساباً شديداً ، استقصينا فيه كل شيء ، ولم نتجاوز فيه عنهم ، قال ابن عباس : لم نرحمهم ﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾وعذبناهم عذاب جهنم[٣]، العظيم المنكر ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾فذاقت هذه القرية ، عاقبة ما عملت من معاصي الله ، والكفر به ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً﴾ وكانت عاقبة كفرهم الخسران ، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بِخَسيسٍ من الدنيا قليل ، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ أعد الله لهؤلاء القوم ، عذاب النار الشديد ، الذي أعدَّه لهم في القيامة ﴿فَـاتَّقُوا اللَّهَ يَـا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ فخافوا الله ، واحذروا سخطه ، يا أصحاب العقول

(١) قال القرطبي : والمعروف منها إرضاع الولد من غير أجرة ، والمعروف منه توفير الأجرة عليها للإرضاع ١٨ / ١٦٩

(٢) قال أبو حيان : وفيه عتاب لطيف للأم كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها : « سيقضيها غيرك » تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم » البحر المحيط ٨/ ٢٨٥

(٣) هكذا فسره الإمام الطبري ،وقال غيره: المراد به عذاب الدنيا لا عذاب جهنم ،بدليل قوله بعده ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لهم عذاباً شديداً ﴾ .

ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ
مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾

* * *

﴿الَّذِينَ آمنوا﴾ الذين صدَّقوا الله ورسله ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ قد أنزل الله إليكم ذكراً يذكِّركم به ربكم، وهو محمد ﷺ(١) ﴿رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ رسولاً يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه ، واضحات لمن سمعها وتدبرها ، أنها من عند الله ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كي يخرج الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم الله به ربهم ، من الكفر إلى الإيمان ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ﴾ ومن يصدِّق بالله ويعمل بطاعته ، يدخلْه بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ مقيمين في تلك البساتين التي تجري من تحتها الأنهار ، لا يموتون ولا يُخرجون منها أبداً ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ قد وسَّع الله له في الجنات من المطاعم ،والمشارب، فطيَّبه لهم ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الله الذي خلق سبع سمواتٍ، لا ما يعبدُه المشركون من الآلهة والأوثان ، التي لا تقدر على خلق شيء ، وخلق من الأرض مثل ذلك(٢) ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يتنزل أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كي تعلموا أيها الناسَ كنه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذر عليه أمر أراده ، ولكنه على ما يشاء قدير ﴿وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ كُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ ولتعلموا أن الله بكل شيء من خلقه محيط علماً، فخافوا أيها الناس عقوبته، فإنه لا يمنعه من ذلك مانع ، وهو على ذلك قادر .

---

(١) رجح الطبري أن المراد بالذكر هو الرسول محمد ﷺ بدليل أنه أبدلـه منه في قوله ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً . رسولاً﴾ وإليه ذهب أبو السعود وبعض المفسرين ، وقال غيره : إن المراد بالذكر « القرآن الحكيم » وبالرسول محمد ﷺ وأنه منصوب بفعل محذوف تقديره وأرسل إليكم رسولاً وهو اختيار ابن عطية وأبي حيان ، وهو الأرجح والله أعلم .

(٢) لاخلاف بين العلماء أن السموات سبعٌ ، فذلك أمر مجمع عليه، وأما الأرض فقيل : إنها واحدة ، وقيل : إنها سبع أرضين لظاهر الآية الكريمة ﴿ومن الأرض مثلهنَّ﴾ وللحديث الصحيح « من ظلم قدر شبرٍ من أرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين » وقد اختار الطبري أنها سبع ، وهو الأظهر والأرجح والله أعلم ، وانظر صفوة التفاسير ٣ /٤٠٣



(٦٦) سورة التحريم مدنية وآياتها اثنتا عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ يا أيها النبي المحرِّم على نفسه ما أحلَّ الله له، لم تحرم على نفسك الحلال الذي أحلَّه الله لك؟ ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ تلتمس بتحريمك ذلك مرضاة أزواجك؟! ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ غفور لذنوب التائبين من عباده، رحيمٌ بهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ قد بيَّن الله لكم أيها الناس ما تتحلَّلون به من أيمانكم ﴿ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ والله يتولاكم بنصره وتأييده ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ وهو العليم بمصالحكم، الحكيم في تدبير أموركم ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾ ذكر حين أسرَّ النبي محمد ﷺ إلى زوجه حفصة حديثاً، عن تحريمه «مارية» على نفسه ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ فلما أخبرت بالحديث صاحبتها عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وأظهر الله نبيه محمداً ﷺ على ذلك ﴿ عَرَّفَ بَعْضَه وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ أخبر النبي ﷺ «حفصةَ» بعض ما

---

(١) قد ذكر العلماء سببين لنزول الآيات وهما:

ـ أن رسول الله ﷺ حرَّم أمته «مارية القبطية» على نفسه.

ـ أنه حرم على نفسه ما كان يشربه عند زينب من العسل.

والأظهر ـ والله أعلم ـ هو الأول لأن تحريم بعض النساء هو ممَّا يبتغي به مرضاة بعض الزوجات، لا شرب العسل، ولهذا قال الحافظ ابن كثير: وكون قضية شرب العسل سبباً للنزول فيه نظر. وانظر صفرة التفاسير ٣/٤٠٦

ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

* * *

أظهره الله عليه من حديثها ، وترك أن يخبرها ببعض[١] ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ فلما أخبر حفصة بما أظهره الله عليه ، من إفشائها سرَّ رسول الله ﷺ إلى عائشة ، قالت حفصة : من أخبرك بهذا الخبر ؟ ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ قال لها : أخبرني به العليمُ بسرائر عباده ، الخبيرُ بأمورهم ، الذي لا يخفى عنه شيء ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلى اللَّهِ ﴾ إن تتوبا إلى الله أيتها المرأتان[٢] ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ فقد مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله ﷺ ، من تحريم ما كان حلالاً له ﴿ وإِنْ تَظَاهَرا عَلَيْهِ ﴾ وإن تتعاونا على معصية النبي ﷺ وأذاه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُو مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ ﴾ فإن الله هو وليُّه وناصره وجبريل الأمين ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وخيار المؤمنين[٣] أيضاً مولاه وناصره ﴿ والْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ والملائكة مع جبريل وصالح المؤمنين لرسول الله ﷺ أعوانٌ على من آذاه ، وأراد مساءته ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ ﴾ عسى رب محمد ، إن طلقكن نبيُّه يا معشر أزواج محمد ، أن يبدله أزواجاً خيراً منكنَّ ﴿ مُسْلِمَاتٍ ﴾ خاضعات لله بالطاعة ﴿ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ مصدقات بالله ورسوله ﴿ قَانِتَاتٍ ﴾ مطيعات للَّهِ ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ راجعات إلى ما يحبه الله منهن ﴿ عَابِدَاتٍ ﴾ متذللات لله بطاعته ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ صائمات[٤] ﴿ ثَيِّباتٍ ﴾ وهن اللواتي قد ذهبت عذرتهن بالزواج ﴿ وَأَبْكَاراً ﴾ وهن اللواتي لم يُجَامعن[٥] ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، علموا بعضكم بعضاً ما تتقون به النار ، واعملوا أنتم بطاعة الله ، وعلموا أهليكم العمل بطاعة الله ، ليقوا أنفسهم من النار ﴿ وَقُودُها النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ حطبها الذي يوقد على هذه

---

(١) عادة الفضلاء التغافل عن الزلات ، فلم يخبرها ﷺ ، بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرماً ولهذا قال الحسن : ما استقصى كريم قط .

(٢) هما عائشة وحفصة رضي الله عنهما .

(٣) وقيل إن المراد بصالح المؤمنين هنا أبو بكر وعمر ، والدا عائشة وحفصة .

(٤) رجح الطبري أن معنى « سائحات » صائمات وهو قول ابن عباس ، وقال غيره : مهاجراتٍ إلى الله ورسوله ، وهو قول زيد بن أسلم ، وهذا هو الأرجح لأنه يتفق مع المعنى اللغوي للسياحة وهي : السفر في الأرض .

(٥) قال ابن كثير : قسمهنَّ إلى نوعين « ثيبات ، وأبكار » ليكون ذلك أشهى إلى النفس ، فإن التنويع يبسط النفس ويبهجها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾

* * *

النار ، بنو آدم وحجارة الكبريت ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ على هذه النار ملائكة من ملائكة الله ، شدادٌ على أهل النار ،لا يرحمون أحداً[١]﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ لا يخالفون الله في أمره ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ يا أيها الذين جحدوا وحدانية الله ، لا تطلبوا اليوم المعاذير من أعمالكم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ إنما تثابون وتعطون اليوم جزاء أعمالكم التي كنتم في الدنيا تعملون

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا تُوبُوا إِلى اللَّهِ ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، آرجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله ، وإلى ما يرضيه عنكم ﴿ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾رجوعاً[٢]لا تعودون فيه أبداً ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّر عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ لعل الله أن يمحو سيئات أعمالكم ، التي سلفت منكم ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ﴾ وأن يدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ يوم لا يخزي الله النبي محمداً ﷺ والذين آمنوا معه ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يسعى نورهم أمامهم ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ وبأيمانهم كتبهم[٣] ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ يقولون يا ربنا : أبق لنا نورنا فلا تطفئه ، حتى نجوز الصراط[٤] ﴿واغْفِرْ لَنَا﴾واستر علينا ذنوبنا بفضلك وكرمك، فلا تفضحنا بها﴿إِنَّكَ عَلَى

---

(١) روي أن هؤلاء الملائكة من الزبانية ، سود الوجوه ، كالحة أنيابهم ، قد نزعت من قلوبهم الرحمة على أعداء الله . فليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة . انظر ابن كثير ٣ /٥٢٣

(٢) قال قتادة : التوبة النصوح : هي الصادقة الناصحة، وقال عمر : أن يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه أبداً .

(٣) هكذا فسّره الطبري وقال غيره : هو معطوف على ما قبله ومعنى الآية نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط ، ويسطع أمامهم وخلفهم ، وعن أيمانهم وشمائلهم كنور القمر في سواد الليل .

(٤) قال مجاهد : هذا قول المؤمنين حين يُطفأ نور المنافقين ، وقال الحسن : يُعطى المؤمن والمنافق نوراً ، فيُطفأ نور المنافق ، ويخشى المؤمن أن يطفأ نوره فذلك قوله ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ
شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي
عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾

* * *

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إنك قادر على كل الأشياء **﴿ يَا أَيُّها النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنَافِقِينَ ﴾** يا أيها النبي جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان **﴿ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾** واشدد عليهم في ذات الله **﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾** ومستقر هؤلاء جهنم ، وبئس الموضع الذي يصيرون إليه جهنم **﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ﴾** مثَّل الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط **﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾** كانتا تحت عبدين من عبادنا وهما « نوح » و « لوط » عليهما السلام **﴿ فخانتاهما ﴾** في الدين[1] فلم تؤمنا بالله تعالى وكانتا مشركتين تدلان الناس على أضيافه **﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾** فلم يدفع نوح ولوط عليهما السلام عن امرأتيها من الله شيئاً ، ولم ينفعهما أن أزواجهما أنبياء، **قال قتادة** : لم يغن صلاح النبيِّيْن عن زوجتيهما شيئاً ، ولم يضرّ امرأة فرعون كفر فرعون **﴿ وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾** وقال الله لهما : ادخلا نار جهنم مع الداخلين فيها **﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ﴾** ومثَّل الله مثلاً للذين صدَّقوا الله « امرأة فرعون » التي آمنت بالله وصدَّقت رسوله موسى ، وكانت تحت عدوٍ من أعداء الله كافر وهو « فرعون » ، فلم يضرُّها كفر زوجها ، إذ كانت مؤمنة بالله[2] **﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ ﴾** حين قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، فاستجاب الله لها ، فبنى لها بيتاً في الجنة **﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾** وأنقذني من عذاب فرعون ، ومن أن أعمل عمله فأكفر بالله **﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾** وأنقذني من عمل القوم

---

(١) هذا هو الصحيح أن الخيانة كانت في الدين لا في العرض، وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نسبوا لهما فاحشة الزنى ، وهذا قول باطل مردود نزَّه الله عنه أزواج الأنبياء ، فإنهن شريفاتٍ مصونات لحرمة الأنبياء ، ولا يتصور أن تتعاطى واحدة منهن الفجور ، ولهذا قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبي قطُّ، وقد كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما ، فكانت امرأة نوح تُطلع على سرِّ نوح ، فإذا آمن مع نوح أحدٌ أخبرت به الجبابرة من قوم نوح ، وأما امرأة لوطٍ فكانت إذا ضاف لوطاً أحدٌ من الضيوف خبَّرت به أهل المدينة الذين يعملون السوء . . هذه خيانتهما فتدبر قول العلماء رعاك الله فإنه دقيق ونفيس وانظر صفوة التفاسير ٣ /٤١١

(٢) قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض على الله ، وأبعده من الله ، فواللهِ ما ضرَّ امرأتَهُ كفرُ زوجها حين أطاعت ربها ، لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدلٌ ، لا يؤاخذ عبْدَه إلاّ بذنبه . اهـ الطبري ٢٨ /١٧١

وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

***

الكافرين ومن عذابهم ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ ومثَّل الله مثلاً للذين آمنوا «مريم ابنة عمران» التي منعت جيب[1] درعها جبريل عليه السلام، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ فنفخنا في جيب درعها من روحنا جبريل عليه السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ وآمنت بعيسى كلمة الله، وبالتوراة والإنجيل ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ وكانت من القوم المطيعين لله تعالى

***



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

***

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ تعاظم وتعالى الذي بيده ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، نافذٌ فيهما أمره وقضاؤه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو على ما يشاء قادرٌ، لا يمنعه من فعله مانع ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ الذي أمات من شاء، وأحيا من أراد[1] ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ليختبركم أيها

(١) هكذا فسَّره الطبري بأن المراد بالفرج هنا فتحة الدرع - الثوب - وقال: كل ما كان في الدرع من خرقٍ أو فتق فهو فرج، وكذلك كل صدع وشق في حائط أو سقف فهو فرج، وقال غيره من المفسرين: «أحصنت فرجها» أي حفظت فرجها وصانته عن مقارفة الفواحش والرذائل، فهي عفيفة شريفة طاهرة، لا كما قال اليهود عليهم لعنة الله: إنها زانية فاجرة، وإن ولدها عيسى هو ابن زنى، وهذا القول أظهر.

(٢) قال قتادة: أذلَّ الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياةٍ ودار فناء، وجعل الآخرة دار جزاءٍ وبقاء اهـ الطبري ٢٩/١

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ
تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾

***

الناس أيّكم له أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ وهو القوي في انتقامه ممن عصاه، الغفورُ لذنوب من أناب إليه وتاب ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾ الذي خلق سبع سمواتٍ ، بعضها فوق بعض طبقاً فوق طبق[1] ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ ما ترى في خلق الرحمن من اختلافٍ ، لا في سماءٍ، ولا في أرض ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ فردِّدِ البصر في السموات ، هل ترى فيها من صدوع ؟ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ ثم ردّد البصر يا ابن آدم ، مرةً بعد أخرى ، فانظر هل ترى من شقوقٍ أو تفاوتٍ في خلق الرحمن؟ ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ يرجع إليك بصرك صاغراً مُبْعداً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وهو كالٌّ متعب . لم ير خللاً ولا تفاوتاً ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ ولقد زينا السماء الدنيا بنجوم مضيئة ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ وجعلنا المصابيح رجوماً للشياطين تُرجم بها[2] ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وهيأنا للشياطين عذاب النار، تسعر عليهم فتُسجر في الآخرة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ وللكافرين بربهم من الخلق، عذاب جهنم في الآخرة ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾وبئست جهنم مصيراً لهم ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً﴾ إذا ألقي الكافرون في جهنم ، سمعوا لها صوتاً شديداً كصوت الحمار ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ وهي تغلي بهم كما يغلي القِدْرُ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ تكاد جهنم تتقطّع وتتفرّق من الغيظ على أهلها ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ كلما طُرح في جهنم جماعةٌ من الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ سألهم خزنة جهنم ـ الزبانية ـ : ألم يأتكم في الدنيا رسولٌ يخوِّفكم هذا العذاب الذي أنتم فيه ؟ ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فأجابهم المساكين: بلى قد جاءنا نذير ينذرنا فكذبناه ، وقلنا له : ما نزَّل الله من شيء ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ﴾ وقلنا : ما أنتم أيها الرسل، إلا في ذهابٍ عن الحق بعيد ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا

(١) أي متطابقة كل سماءٍ كالقُبَّة للأخرى، بعضها فوق بعض.

(٢) قال قتادة : خلق الله تعالى النجوم لثلاثٍ : زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها في البر والبحر. القرطبي ٢٠٩/١٨

فَاعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟
قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ
ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا

* * *

كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقالوا: لو كنا في الدنيا نسمع من الرسل ما جاءونا به من النصيحة، أو نعقل عنهم ما كانوا يدعوننا إليه، ما كنَّا اليوم في أهل النار!! ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ فأقروا بذنبهم ﴿فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فبعداً لأهل النار ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ إن الذين يخافون ربهم وهم لم يروه ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لهم عفوٌ من الله عن ذنوبهم، وثوابٌ جزيلٌ على خشيتهم ﴿وأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ وأخفوا كلامكم ـ أيها الناس ـ أو أعلنوه وأظهروه ﴿إِنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إنه تعالى عالمٌ بضمائر الصدور، التي لم يُتكلم بها، فكيف بما نَطق به الإنسان وتكلم؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم الرب مَنْ خلَقَه؟ فكيف يخفى عليه خلقه؟! ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وهو اللطيفُ بعباده، الخبيرُ بهم وبأعمالهم ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً﴾ هو الذي سهَّل الأرض فجعلها لكم سهْلاً ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها﴾ فسيروا في نواحيها وجوانبها ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ وكلوا من رزق الله، الذي أخرجه لكم من الأرض ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ وإلى الله إحياؤكم وبعثكم من قبوركم أيها الناس.

﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ أأمنتم الله[1] أيها الكافرون، أن يخسف بكم هذه الأرض؟ ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ فإذا الأرض تذهب بكم وتجيء وتضطرب ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أم أمنتم الله أن يرسل عليكم التراب الذي فيه الحصباء الصغار؟ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ فستعلمون ـ أيها الكفرة ـ عاقبة نذيري لكم، إذْ كذبتم به، ورددتموه على رسولي؟ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ ولقد كذَّب الذين كانوا قبل هؤلاء المشركين من الأمم الخالية رسلهم، فكيف كان إنكاري عليهم بتكذيبهم رسلي؟ ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ أو لم ير هؤلاء المشركون إلى الطير فوقهم باسطاتٍ أجنحتهن؟ ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويقبضن أجنحتهن أحياناً ﴿مَا

(١) قوله ﴿ءأمنتم مَنْ في السماء﴾ يراد به الله عز وجلَّ كما أشار الطبري، فهو تعالى على عرشه في السماء، له العظمة والكبرياء، والآية وردت على سبيل الوعيد والتهديد، لا لبيان الجهة والمكان.

ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

***

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ ما يمسك الطير فوق الناس إلا الرحمن ، فليعتبروا بذلك ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ذو بصرٍ وخبرة بكل شيء ، لا يدخل تدبيره خلل ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ مَن هذا الذي يستطيع أن ينصركم من الرحمن ، إن أراد بكم سوءاً[(١)] ، فيدفع عنكم عذاب الله ؟ ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ﴾ ما الكافرون إلا في غرور ، من ظنهم أن آلهتهم تنفع أو تضر !! ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أم من هذا الذي يطعمكم ويسقيكم ويأتي بأقواتكم، إن أمسك ربكم عنكم رزقه الذي يرزقكم ؟ ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ بل تمادوا في طغيانٍ، واستكبارٍ عن الحق ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هل من يمشي مكباً[(٢)] على وجهه ، لا يُبصر ما بين يديه ولا ما عن يمينه وشماله ، أهدى على الطريق، أم من يمشي على قدميه مشي بني آدم، على طريق لا اعوجاج فيه ؟ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ قل يا محمد للمشركين المكذبين بالبعث: الله هو الذي خلقكم، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها ، والأفئدة التي تعقلون بها ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ قليلاً ما تشكرون ربكم على هذه النعم ؟! ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ قل يا محمد : الله هو الذي خلقكم في الأرض ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وإلى الله تجمعون من قبوركم لموقف الحساب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ويقول المشركون: متى يكون الحشر ؟ إن كنتم صادقين في وعدكم إيانا به ؟! ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين يستعجلونك بالعذاب إنما علم الساعة والقيامة عند الله ، لا يعلم ذلك غيره ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وما أنا إلا نذير لكم ، أنذركم عذاب الله على كفركم به، قد أبان لكم

---

(١) قال ابن عباس: من ينصركم مني إن أردتُ عذابكم ؟

(٢) هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالكافر كالأعمى الذي يسير على غير هدى، يتعثر في مشيه ولا يزال ينكبُّ على وجهه، لأنه لا يرى الطريق أمامه ، والمؤمن كالبصير الذي يمشي على الطريق المستقيم منتصب القامة فهو آمنٌ من التخبط والعثار، هل يستوي هذا وهذا ؟ قال ابن عباس معنى الآية : من يمشي في الضلالة أهدى أم من يمشي مهتدياً ؟

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ
وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ
هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

* * *

إنذاره ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ فلما رأى المشركون عذاب الله قريباً وعاينوه ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ساء الله بذلك العذاب وجوه الكافرين ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ وقال الله لهم : هذا العذاب الذي كنتم تذكّرون ربكم أن يعجِّله لكم ﴿قُل أَرَأَيْتُم إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ قل يا محمد للمشركين : أرأيتم إن أهلكني الله ، فأماتني ومن معي ؟ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أو رحمنا فأخَّر في آجالنا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمن ينجي الكفار من عذاب الله المؤلم الموجع ؟ فلا حاجة بكم إلى أن تستعجلوا نزول العذاب ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ﴾ قل يا محمد: ربنا الرحمن صدَّقنا به ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وعليه اعتمدنا في أمورنا وبه وثقنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فستعلمون أيها المشركون، من الذي هو في ذهاب عن الحق ، والذي هو على طريق مستقيم ، إذا صرنا إليه وحُشرنا جميعاً نحن أو أنتم ؟ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾ قل يا محمد: أرأيتم أيها القوم إن أصبح ماؤكم غائراً في الأرض،لا تناله الدلاء ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ فمن يجيئكم بماءٍ جارٍ ظاهر تراه العيون[1]؟

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك»

* * *

---

(١) هذا وعيدٌ من الله تعالى للمشركين وتهديد ، نبَّههم تبارك وتعالى إلى واجب الشكر لنعم الخالق ، التي لا تُحصى ، ومن ضمنها نعمةُ حفظِ الماء في الأرض لهم ، ولو شاء تعالى لجعله ذاهباً غائراً فيها ، لا يُنتفع منه بعد نزوله من السماء ، كما قال تعالى ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً بقدرٍ فأسكنّاه في الأرض وإنّا على ذهابٍ به لقادرون ﴾ فسبحان المنعم على العباد بما فيه حياتهم وبقاؤهم ، في الإنزال والإسكان . . اللهم ارزقنا شكر نعمك .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ

***

﴿نٓ والْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال ابن زيد : هذا قسمٌ أقسم الله به ، والمعنى أقسمُ بالنون[1] والقلم الذي خلقه الله ، فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وأقسم بالذي يخطُّون ويكتبون ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ما أنت يا محمد بنعمة ربك بمجنون ، كما زعم المشركون في قولهم : « إنك لمجنون » ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ وإن لك يا محمد لثواباً من الله عظيماً ، على صبرك على أذى المشركين ، غير منقوص ولا مقطوع ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وإنك يا محمد لعلى أدبٍ عظيم ، أدَّبك به ربك ، وذلك أدب القرآن ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ فسترى يا محمد ويرى المشركون، بأيكم الجنون[2]؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ إن ربك يا محمد ، هو أعلم بمن ضل عن طريق الهدى، وعن دين الله ، كما ضلَّ كفَّار قريش ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهو أعلم بمن اهتدى فاتَّبع الحق ، كما اهتديت أنت إليه ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فلا تطع يا محمد المكذبين بآيات الله ورسوله ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ تمنى المشركون لو تلين لهم في دينك ، بالركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك في عبادتهم إلٰهك[3] ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ ولا تطع يا محمد كل مكثرٍ للحلف بالباطل

(١) الراجح أن هذا من الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وقيل : هو اسم للدواة التي يوضع فيها الحبر ، وقيل : هو اسم للسورة وقيل غير ذلك والله أعلم .

(٢) هكذا اتهم المشركون سيِّد الرسل بالجنون ، فقالوا : إنه يهذي ، وإن ما يزعم أنه وحيٌ إنما هو من قبيل الهذيان والجنون ، كما حكى القرآن مقالتهم ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذِّكرُ إنك لمجنون﴾ فردَّ الله عليهم في هذه الآية الكريمة ذلك البهتان .

(١) روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ : لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلٰهك فنزلت الآية .

مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ
ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا
بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ
قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾

* * *

ضعيف[1] ﴿هَمَّازٍ﴾ مغتاب للناس يأكل لحومهم ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ مشاءٍ بنقل حديث الناس ، ينقل حديث بعضهم إلى بعض ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ بخيلٍ بالمال ، ضنين به عن الحقوق ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ معتدٍ على الناس ، ذي إثم بربه ﴿عُتُلٍّ﴾ جاف شديد في فكره ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ وهو مع ذلك دعيٌّ ملصقٌ بالقوم وليس منهم ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ولا تطع كل حلَّاف مهين، من أجل أنه ذو مالٍ وبنين ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إذا تقرأ عليه آيات القرآن ، قال : هذا مما كتبه الأولون ، استهزاء به وإنكاراً أن يكون من عند الله ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ سنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفه الناس ، وسنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقيةً فيه ما عاش، **قال ابن عباس** : وقد خطم يوم بدر بالسيف[2] ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ إنا امتحنَّا مشركي قريش ، كما امتحنَّا أصحاب البستان ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ حين حلفوا ليقطعن ثمرها إذا أصبحوا ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يقولون : إن شاء الله تعالى ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ فطرق بستانَهم ليلاً طارقٌ من أمر الله ، وهم غافلون عنها في نومهم ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فأصبحت جنتهم محترقة سوداء ، كسواد الليل المظلم البهيم ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ فنادى القوم بعضهم بعضاً بعد أن أصبحوا ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ أن اذهبوا مبكِّرين إلى زرعكم ، إن كنتم حاصدين له ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ فمضوا إلى زرعهم، وهم يتسارون بينهم قائلين ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ لا يدخلن جنتكم اليوم عليكم مسكين ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ ومَضَوْا على أمرٍ قد قصدوه واعتمدوه[3] ، وأجمعوا عليه بينهم ، قادرين عليه

(١) هكذا فسَّر الطبري المهين بمعنى الضعيف ، وقال غيره معناه الحقير الفاجر وهو الأظهر .

(٢) نزلت هذه الآيات في « الوليد بن المغيرة » وقيل في الأخنس بن شريق، وقد ألحق به القرآن ذلاًّ وعاراً لا يفارقه أبداً .

(٣) قال ابن عباس : ﴿على حَرْدٍ﴾على قدرةٍ وقصدٍ ، وقال السُّدي : على حَنَق وغضب ، وقول ابن عباس أظهر لأن المراد أنهم مضوا عازمين على قصدٍ وقدرة في أنفسهم ، يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم،وانظر تفصيل القصة في صفوة التفاسير ٣/٤٢٧ .

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾
قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾
عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾
أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ

***

في أنفسهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ فلما رأوها محترقة ، أنكروها وشكُّوا فيها ، هل هي جنتهم أم لا ؟ فقال بعضهم لأصحابه : إنا أيها القوم مخطئون الطريق ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ فقال بعضهم : لم نخطىء الطريق ، بل نحن أيها القوم محرومون ، حُرِمنا منفعة جنتنا بذهاب زرعها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قال أعدلهم رأياً : ألم أقل لكم : هلَّا تستثنون حين قلتم « لنصرمنَّها مصبحين » فتقولوا : إن شاء الله ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ قال أصحاب الجنة : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، في قسمنا وعزمنا على ترك إطعام المساكين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ فأقبل بعضهم يلوم بعضاً ، على تفريطهم وعزمهم على منع المساكين ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ قال أصحاب الجنة : يا ويلنا إنا كنا مخالفين أمر الله ، في تركنا الاستثناء والتسبيح ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا﴾ لعل الله أن يبدلنا خيراً من جنتنا ، بتوبتنا من فِعْلِنا ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ إنا راغبون أن يبدلنا ربنا خيراً منها ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ كما فعلنا بهؤلاء ، نفعل بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا ، وعقوبة الآخرة له أكبر من عقوبة الدنيا وعذابها ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لارتدعوا وأنابوا ، ولكنهم جهال لا يعلمون .

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ إن الذين اتقوا عقوبة الله ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لهم بساتين النعيم الدائم ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أفنجعل الذين خضعوا لله بالطاعة ، وذلوا له بالعبودية ، كالذين اكتسبوا المآثم ، وركبوا المعاصي ، وخالفوا أمر الله ونهيه ؟! ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ما لكم أتجعلون المطيع والعاصي سواء ؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ألكم أيها القوم كتابٌ نزل من عند الله ، فأنتم تدرسون فيه ما تقولون ؟! ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ إن لكم في ذلك الكتاب الذي تخيَّرون من الأمور[1] ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ

(١) هذا تقريع وتوبيخ من الله للمشركين فيما كانوا يقولون من الباطل ، ويتمنونه من الأماني الكاذبة .

لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ
يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ
إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

* * *

﴿الْقِيَامَةِ﴾ هل لكم أيمان علينا تنتهي بكم إلى يوم القيامة ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ بأن لكم حكمكم الذي تحكمون ؟ ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ سل يا محمد المشركين : أيهم كفيل بذلك ؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أم لهؤلاء القوم شركاء فيما يصفون من الأمور التي يزعمون أنها لهم ؟ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين فيما يدعون من الشركاء ؟ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يوم تكشف القيامة عن أمرٍ فظيع شديد، **قال ابن عباس** : هو يوم القيامة يوم كربٍ وشدَّة[١] ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وتدعوهم هذه الشدة إلى السجود لله ، فلا يطيقون ذلك[٢] ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ ذليلة أبصارهم متواضعة ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ تغشاهم ذلة من عذاب الله ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ وقد كانوا في الدنيا يدعونهم إلى السجود لله ، وهم سالمون لا يمنعهم مانع ، ولا يحول بينهم حائل ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ﴾ اترك يا محمد أمر هؤلاء المكذبين بالقرآن إليَّ[٣] ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سنكيدهم من حيث لا يعلمون[٤] ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأنسىء في آجالهم، وأمهلهم برهةً من الدهر ، لتتكامل حجج الله عليهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ إن كيدي بأهل الكفر قويٌّ شديد ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً﴾ أتسأل يا محمد هؤلاء على النصيحة ودعوتهم إلى الحق ثواباً وجزاء !! ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ فهم من غرم ذلك الأجر ، قد أثقلهم القيام بأدائه ، فلذلك تحاموا قبول النصيحة ، والدخول في الدين ؟! ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أم عندهم اللوح المحفوظ فهم

---

(١) قال القرطبي : الأصل فيه أن من وقع في أمر يحتاج فيه إلى الجد شمَّر عن ساقه ، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة ، والمعنى : اذكر يا محمد ذلك اليوم العصيب ، الذي يُكشف فيه عن أمرٍ فظيع ، شديد الهول والشدة .

(٢) في الحديث (يسجد لله كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً) أخرجه مسلم .

(٣) هذا منتهى الوعيد للكفرة المجرمين على عادة العرب فيمن يتوعدونه يقولون : دعني وإياه، وخلني وإياه ، يريدون أنه سينزل به أشد أنواع العقاب .

(٤) قال الرازي : الاستدراج أن يستنزله إليه درجة درجة ، حتى يورِّطه ، فكلما أذنبوا ذنباً جدَّد الله لهم نعمة ، فيحسبونه تفضلاً عليهم وهو سبب لهلاكهم . التفسير الكبير ٣٠/٩٦

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

* * *

يكتبون منه ما يجادلونك فيه ، ويزعمون أنهم أفضل عند الله من أهل الإيمان ؟! ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فاصبر يا محمد لقضاء ربك ، وحكمه فيك وفي هؤلاء المشركين ، وامض لما أمرك به ربك ، ولا يثنيك عن التبليغ تكذيبهم وأذاهم ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ ولا تكن كنبي الله « يونس بن متى » عليه السلام الذي حبسه الحوت في بطنه(١)، فيعاقبك ربك على ترك التبليغ كما عاقبه ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ حين نادى وهو مغموم ، قد أثقله الغمُّ وكَظَمه ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لولا أن تدارك يونس ، نعمةٌ من ربه رحمه بها وتاب عليه ﴿لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لطرح بفضاءٍ من الأرض وهو مذنب ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فاصطفاه الله لنبوته ، فجعله من المرسلين ، العاملين بما أمرهم به ربهم ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ وإن يكاد الذين كفروا يا محمد ليرمونك ويصرعونك بأبصارهم ،من شدة عداوتهم لك غيظاً عليك ، لمَّا سمعوا كتاب الله يتلى ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ ويقول المشركون : إن محمداً لمجنون ، وهذا الذي جاءنا به من الهذيان ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وما محمد(٢) إلا ذكرٌ ، ذكَّر الله به الإنس والجن .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة نٓ »

* * *

(١) صاحب الحوت هو نبيُّ الله « يونس » عليه السلام ، الذي غضب على قومه لمَّا لم يؤمنوا ، فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوتُ ، فنُسب إلى الحوت لأنه صار بطنه كسكنٍ له ، وقد ذكر الله قصَّته في سورة الأنبياء في قوله تعالى ﴿وذا النُّونِ إذْ ذهب مغاضباً . .﴾ الآية وانظر قصته في صفوة التفاسير ٢ / ٢٧٣

(٢) هكذا فسَّره الإمام ابن جرير ، فأعاد الضمير ﴿وما هو﴾ على محمد ﷺ ، والأرجح أن الضمير يعود على القرآن ، أي وما هذا القرآن إلاَّ موعظةٌ وتذكيرٌ للإنس والجنِّ ، ذكَّر تعالى به عباده ، فكيف يُنْسبُ من نزل عليه هذا القرآن للجنون ؟!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ
فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ

***

﴿ **الْحَاقَّةُ** ﴾ الساعة « الحاقة » التي تحقُّ فيها الأمور ، **قال ابن عباس** : الحاقة : من أسماء يوم القيامة ، عظَّمها الله وحذَّرها عباده ﴿ **مَا الْحَاقَّةُ** ﴾ أي شيءٍ هي ؟ تعجيبٌ منها ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ** ﴾ وأيُّ شيءٍ عرَّفك ما هي القيامة ؟[1] ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ** ﴾ كذبت « ثمود » قوم صالح و« عاد » قوم هود بالقيامة ، التي تقرع قلوب العباد بهجومها عليهم ﴿ **فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ** ﴾ فأما ثمود قوم صالح فأهلكهم الله بالصيحة الطاغية ، التي جاوزت حدَّ الصياح[2] ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ** ﴾ وأما عادٌ قوم هود ، فأهلكهم الله بريح شديدةٍ في الهبوب والبرد ﴿ **عَاتِيَةٍ** ﴾ قد عتت فجاوزت الحدَّ في الشدة والعصوف ﴿ **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً** ﴾ سخر تلك الرياح على عاد سبع ليال ، وثمانية أيام متتابعة ﴿ **فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى** ﴾ فترى يا محمد قوم عاد في تلك الليالي والأيام قد هلكوا ﴿ **كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ كأنهم أصول نخل ، متآكلة الجوف قد خوتْ ﴿ **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ** ﴾ فهل ترى يا محمد لقوم هودٍ من بقاء ؟ ﴿ **وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ** ﴾ وجاء فرعون مصر ، ومن سبقه من الأمم ، المكذبة بآيات الله ﴿ **وَالْمُؤْتَفِكَاتُ** ﴾ والقرى التي انقلبت بأهلها ، فصار عاليها سافلها ،

---

(١) هذا الأسلوب يستعمل للتعظيم والتهويل ، فتكرار لفظ « الحاقة » هو من باب الإطناب تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لأمرها .

(٢) قال قتادة : هي الصيحة التي خرجت عن حدِّ كل صيحة ، ولهذا سُمِّيت بالطاغية .

بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ
أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾
فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

* * *

وهم قوم لوط ﴿ **بِالْخَاطِئَةِ** ﴾ بالخطيئة(١) ﴿ **فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً** ﴾ فعصى هؤلاء رسول ربهم الذي أرسله إليهم ، فأخذهم ربهم أخذةً شديدة زائدة في الشدة ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ** ﴾ إنا لما كثر الماء ، فتجاوز حده المعروف زمن الطوفان ﴿ **حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴾ حملناكم في السفينة ، التي تجري في الماء ﴿ **لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً** ﴾ لنجعل السفينة عبرةً وموعظة ، تتعظون بها ﴿ **وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾ وتعقلها أذنٌ حافظة ، عقلت عن الله ما سمعت ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ** ﴾ فإذا نفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى ﴿ **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** ﴾ وحملت الأرض والجبال فزلزلتا زلزلة واحدة حتى صارت غباراً ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** ﴾ فيومئذٍ وقعت الصيحة ، وقامت القيامة ﴿ **وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴾ وانصدعت السماء فهي منشقة ضعيفة ﴿ **وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا** ﴾ والملائكة على أطراف السماء وحافّاتها ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾ ويحمل عرش الرحمن فوقهم يومئذ ثمانية من الملائكة(٢) ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ يومئذ تعرضون على ربكم أيها الناس ، لا يخفى على الله منكم أحدٌ ، لأنه عالمٌ بجميعكم ، محيطٌ بكلكم ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ** ﴾ فأما من أُعطي كتاب أعماله بيمينه ، فيقول : تعالوا اقرءوا كتابي ﴿ **إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ** ﴾ إني علمت أني سألقى حسابي ، إذا وردت يوم القيامة على ربي ﴿ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ** ﴾ فهو في عيشة مرضية ﴿ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** ﴾ في بستان عال رفيع ﴿ **قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ** ﴾ ما يقطف من ثمار الجنة دانٍ قريب من قاطفه ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً** ﴾ كلوا معشر أهل

---

(١) أي بالفعلة الخاطئة المنكرة وهي الكفر والعصيان .

(٢) قيل : إنهم ثمانية من الملائكة يحملون العرش ، وهو قول ابن زيد ، وقيل : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهن إلا الله ، وهو قول ابن عباس ، ولم يذكر الإمام الطبري ترجيحاً لأحد القولين ،والأظهر أنهم ثمانية أملاك لأنه لو كان المراد بها الكثرة لقال ثمانية صفوف .

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

***

الجنة من ثمارها ، واشربوا من طيِّب أشربتها هنيئاً ، لا تتأذون بالطعام والشراب ﴿ **بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾ ذلك جزاء وثواب ما قدمتم لآخرتكم ، من العمل بطاعة الله ، في أيام الدنيا التي خلت ومضت .

﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ** ﴾ وأما من أعطي يومئذ كتاب أعماله بشماله ، فيقول : يا ليتني لم أعطَ كتابي ﴿ **وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ** ﴾ ولم أعرف أي شيء حسابي ﴿ **يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ** ﴾ يا ليت الموتة التي متُّها في الدنيا، لم يكن بعدها بعثٌ ﴿ **مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ** ﴾ لم يدفع عني مالي ، الذي كنت أملكه في الدنيا ، شيئاً من عذاب الله ﴿ **هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** ﴾ ذهبت عني حججي ، فلا حجة لي أحتج بها[1] ﴿ **خُذُوهُ فَغُلُّوهُ** ﴾ يقول تعالى لخزنة جهنم : خذوه أيها الملائكة فشدُّوه بالأغلال ﴿ **ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ** ﴾ ثم في نار جهنم أوردوه ليصلي فيها ﴿ **ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ** ﴾ ثم أدخلوه في سلسلة طولها سبعون ذراعاً بذراع المَلَك ﴿ **إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ** ﴾ جزاءً له على كفره بالله في الدنيا ، فإنه كان لا يصدق بوحدانية الله العظيم ﴿ **وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ وكان لا يحضُّ على إطعام أهل المسكنة والحاجة ﴿ **فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ** ﴾ فليس له يوم القيامة قريبٌ يدفع عنه ، أو يغيثه مما هو فيه من البلاء ﴿ **وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ** ﴾ ولا طعام له إلا الغسلين ، وهو ما يسيل من صديد أهل النار ﴿ **لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ** ﴾ لا يأكل هذا الطعام إلا المذنبون ، الذين كفروا بالله ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ** ﴾ فأقسم بالأشياء التي ترونها ، والتي لا ترونها ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ إن هذا القرآن يتلوه محمد[2] ﷺ عليهم ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ** ﴾ لأن محمداً لا يحسن قول الشعر ، حتى تقولوا هو شعر ﴿ **قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ** ﴾

(١) هكذا فسَّره الطبري وقال غيره المعنى : زال عني ملكي وسلطاني ، فلا معين لي ولا مجير ، ولا صديق ولا نصير ، وهذا القول هو الأظهر لأن معنى السلطان في اللغة المُلْكُ والاستعلاء .

(٢) قال القرطبي : والرسول ههنا هو محمد ﷺ ، ونُسب القولُ إليه ، لأنه تاليه ومبلِّغه عن الله تعالى . القرطبي ١٨/٢٧٤

﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

***

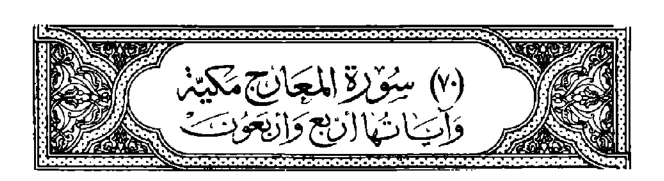
تصدِّقون يا معشر المشركين قليلاً به ﴿ **وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ** ﴾ ولا هو بقول كاهن ، لأن محمداً ليس بكاهن حتى تقولوا هو من سجع الكُهَّان ﴿ **قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ قليلاً ما تعتبرون وتتعظون به ﴿ **تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ولكنه تنزيل من الله رب العالمين ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ** ﴾ ولو اختلق علينا محمد بعض الأقاويل الباطلة ﴿ **لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ** ﴾ لانتقمنا منه بالقوة منا والقدرة ﴿ **ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ** ﴾ ثم لقطعنا منه نياط القلب[1] ﴿ **فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾ فما أحد منكم يحجزنا عن محمد وعقوبته ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ وإن هذا القرآن لعظة للذين يتقون الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ **وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ** ﴾ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين بهذا القرآن ﴿ **وَإِنَّه لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ وإن التكذيب به لحسرةٌ وندامة على الكافرين يوم القيامة ﴿ **وَإِنَّه لَحَقُّ الْيَقِينِ** ﴾ وإنه للحق اليقين الذي لا شك فيه أنه من عند الله ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** ﴾ فسبح بذكر ربك وباسمه العظيم ، الذي كل شيء في عظمته صغير .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة »

***

---

(١) الوتين : عرق يتعلق به القلب إذا انقطع مات صاحبه ، والغرض من الآية أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله



(٧٠) سورة المعارج مكية
وآياتها أربع وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾

***

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ سأل سائل[١] من الكفار عن عذاب الله بمن هو واقع؟ ﴿ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ ليس للعذاب الواقع على الكافرين ، من يدفعه عنهم ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ من الله ذي العلوِّ ،والدرجات، والنعم ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾تصعد الملائكة وجبريل عليه السلام إلى الله عزَّ وجل ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾كان مقدار صعودهم في يوم لغيرهم من الخلق ، خمسين ألف سنة ﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ﴾ فاصبر يا محمد على أذى المشركين ، صبراً لا جزع فيه ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾ إن هؤلاء المشركين ، يرون العذاب الذي سألوا عنه بعيداً وقوعه[٢] ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ ونحن نراه قريباً لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ يوم تكون السماء كالنحاس المذاب ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ وتكون الجبال كالصوف المنفوش ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ

---

(١) السائل هو « النضر بن الحارث » من صناديد قريش وطواغيتها ، لما خوَّفهم رسول الله من عذاب الله سأل نزول العذاب استهزاءً فنزلت الآية ، وقد جعل الإمام الطبري الصيغة للإستفهام بمن هو واقع ؟ والراجح أنها صفة أي بنزول عذابٍ واقعٍ لا محالة .

(٢) إنما أخبر جلَّ ثناؤه أنهم يرون ذلك بعيداً ، لأنهم لا يصدّقون به وينكرون البعث بعد الموت ، فقال إنهم يرونه غير واقع ، ونحن نراه قريباً أي واقعاً لأنه آتٍ لا محالة .

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾

***

حَمِيماً ﴾ ولا يسأل قريب قريبه عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يرونهم ويعرفونهم ، ثم يفرُّ بعضهم من بعض ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴾ يتمنى الكافر أنه يفتدي نفسه من عذاب الله ذلك اليوم ، ببنيه ، وزوجته ، وأخيه[1] ﴿ وفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ وعشيرته التي تضمُّه إلى رحله وتحميه ، لقرابة ما بينها وبينه ﴿ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ ويفتدي بمن في الأرض جميعاً من الخلق ، ثم ينجيه ذلك من عذاب الله ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى . نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ ﴾ كلا ليس ينجيه من عذاب الله شيء ، إنها جهنم تلتهب ، وإنها تنزع جلدة الرأس وأطراف البدن ، **قال الضحاك** : تبري اللحم والجلد عن العظم ، حتى لا تترك منه شيئاً ،**وقال ابن عباس** :تنزع جلدة الرأس ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ تدعو جهنم إلى نفسها[2] ، من أعرض عن طاعة الله ، وتولى عن الإيمان بكتابه ورسله ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ وتدعو من جمع مالاً فجعله في وعاء ، فلم يزكِّ ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ إن الإنسان الكافر ، خُلق شديد الجزع والضجر ، شديد الحرص ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ﴾ إذا قلَّ ماله ، وناله الفقر ، فلا صبر له عليه ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ وإن كثر ماله ، وناله الغنى ، فهو بخيلٌ لا ينفقه في طاعة الله ، ولا يؤدي حق الله منه ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ إلا الذين يطيعون الله ، بأداء ما افترض عليهم من الصلاة ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ وهم على أداء ذلك مقيمون ، لا يضيعون منها شيئاً ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ والذين في أموالهم حق معيَّن ، وهو الزكاة المفروضة[3] ﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ للذي يسألهم من مالهم ، وللذي قد حُرم الغنى ، فهو فقيرٌ متعفِّف ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ والذين يقرون بالبعث يوم

(١) بيَّن تعالى أن الفاجر والكافر يوم القيامة ، يتمنى أن يفدي نفسه من عذاب الله بأحبِّ الناس عنده ، وأقربهم نسباً له ، من ابن ، وزوجة ، وأخ ، ولكنْ هيهات ، فلا مال هناك ولا فداء .

(٢) قال ابن عباس : تدعو المنافقين والكافرين بأسمائهم بلسانٍ فصيح تقول : إليَّ يا كافر ، إليَّ يا منافق ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحبَّ .

(٣) هذا قول قتادة واختاره الطبري ، وقال ابن عباس : في المال حقٌّ سوى الصَّدقة ، يصل بها رحمه ، أو يقري بها ضيفاً ، أو يعين بها محروماً . اهـ الطبري ٢٩ / ٨٠ .

وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾
أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾
أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ

***

الحساب ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ ﴾ والذين هم من عذاب ربهم خائفون ، فهم لذلك لا يضيعون فرضاً ، ولا يتعدون حداً ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ لأن عذاب الله غير مأمونٍ أن ينال من عصاه ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ والذين هم حافظون لفروجهم ، عن كل ما حرم الله عليهم من الزنى والفواحش ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ إلا أنهم غير ملومين ، في ترك حفظها على أزواجهم أو إمائهم .

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ فمن التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ، أو ما ملكت يمينه ، فهم الذين تعدَّوْا ما أحل الله لهم إلى ما حرَّم عليهم ، فهم الملومون ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ والذين هم لأمانات الله ـ التي ائتمنهم عليها من فرائضه ـ وأمانات عباده التي ائتمنوا عليها ، وعهوده وعهود عباده ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيّعونه ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ والذين لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ويؤدون الشهادة غير مغيَّرةٍ ولا مبدَّلة ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ والذين هم على مواقيت صلاتهم وحدودها يحافظون ، فلا يضيِّعون لها ميقاتاً ولا حدّاً ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال ، في بساتين يكرمهم الله بكرامته ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ فما شأن الذين كفروا مسرعين نحوك ، مادين أعناقهم إليك ؟ ﴿ عَنِ الْيَمِين وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ عن يمينك يا محمد وعن شمالك ، متفرقين حلقاً حلقاً ، جماعة جماعة ، معرضين عنك وعن كتاب ربك ؟ ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أيطمع هؤلاء الكفار أن يدخلهم الله بساتين ينعمون فيها ؟ ﴿ كَلاَّ ﴾ ليس الأمر كما يطمع فيه هؤلاء الكفار ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ إنا خلقناهم من منيٍّ قذرٍ ، وإنما يستوجب دخول الجنة مَن يستوجبه منهم بالطاعة ، لا بأنه مخلوق ، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم عصاة كفرة ؟! ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ

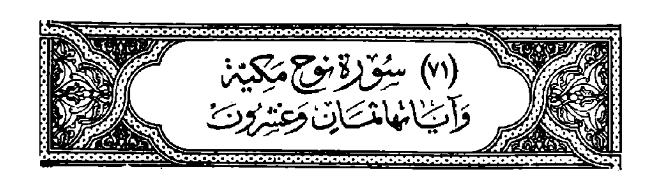
(١) أي كأنهم يسعون إلى أصنامهم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها ويتسابقون نحوها في الدنيا ، وفي هذا التشبيه تهكم بهم وتعريض بسخافة عقولهم ، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة ، وتركوا عبادة الواحد الأحد .

وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

* * *

الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ فأقسم برب مشارق الأرض ومغاربها ﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ ﴾ إنا لقادرون على أن نهلكهم ، ونأتي بخير منهم من الخلق ، يطيعونني ولا يعصونني ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ وما يفوتنا منهم أحد فيعجزنا هرباً ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ فاترك المشركين يخوضوا في باطلهم ، ويلعبوا في هذه الدنيا ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ حتى يلاقوا عذاب يوم القيامة ، الذي يوعدونه ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً ﴾ يوم يخرجون من القبور مسرعين ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ كأنهم إلى عَلَمٍ قد نُصب لهم يستبقون[1] ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾ خاضعة ذليلةً أبصارهم ، للذي هم فيه من الخزي والهوان ﴿ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تغشاهم ذلة ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ هذا اليوم هو يوم القيامة ، الذي كان المشركون في الدنيا يكذّبون به .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

* * *

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، بأن أنذر قومك ، من قبل أن يأتيهم الطوفان ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قال

(١) أي كأنهم يسعون إلى أصنامهم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها ويتسابقون نحوها في الدنيا ، وفي هذا التشبيه تهكم بهم وتعريض بسخافة عقولهم ، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة ، وتركوا عبادة الواحد الأحد .

أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ
لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى
كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى
دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾

* * *

نوح لقومه : إني أنذركم عذاب الله ، فاحذروه أن ينزل بكم وقد أبنت لكم إنذاري ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ آمركم بعبادة الله ، وأن تتقوا عقابه ، بالإيمان به والعمل الصالح ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ واقبلوا نصيحتي لكم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ يصفح لكم ، ويعفو عن ذنوبكم ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ويؤخر في آجالكم فلا يهلككم ، إلى حين كتب أنه يبقيكم إليه ، إن أنتم أطعتموه ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ إن أجل الله الذي كتبه على خلقه ، إذا جاء لا يؤخر عن ميقاته ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو علمتم ذلك لأنبتم إلى طاعة ربكم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَاراً﴾ قال نوح لما بلَّغ قومه فعصوه : رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، إلى توحيدك وعبادتك ، وحذَّرتهم بأسك وسطوتك ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾ فلم يزدهم دعائي إلى ما دعوتهم إليه من الحق ، إلا إدباراً عنه ، وهرباً منه ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ وإني كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانيتك ، والبراءة من عبادة كل ما سواك ، جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعائي ﴿واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطوا بثيابهم ﴿وَأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ وثبتوا على ما هم عليه من الكفر ، وتكبروا عن الإذعان للحق ، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً﴾ دعوتهم ظاهراً في غير خفاء ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ ثم إني صِحْتُ بالذي أمرتني به ، وأسررت لهم ذلك فيما بيني وبينهم[1] ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ فقلت لهم : سلوا ربكم غفران ذنوبكم ، وتوبوا إليه من كفركم ، يغفر لكم ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ لذنوب من أناب وتاب إليه من ذنوبه ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ يسقيكم ربكم الغيث ، فيرسل به السماء عليكم متتابعاً ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ ويعطكم مع ذلك أموالاً وبنين ، فيكثّرها ويزيد فيما عندكم منها ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ

(١) تفنَّن نوح عليه السلام مع قومه بالدعوة لهم إلى الله ، فدعاهم سراً وجهاراً ، ليلاً ونهاراً ، مع الترغيب أحياناً، والترهيب أحياناً أخرى ، فلم ينفع كل ذلك مع أولئك الضالين ، ولذلك دعا عليهم بالهلاك في آخر الأمر لمَّا يئس من إيمانهم .

مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا
وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ
عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ
وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾

* * *

﴿لَكُمْ أنْهَاراً﴾ ويرزقكم بساتين ، ويجعل لكم أنهاراً تسقون منها جناتكم ومزارعكم ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أطْوَاراً﴾ ما لكم لا تخافون لله عظمة ، وقد خلقكم حالاً بعد حال ، طوراً نطفة ، وطوراً علقة ، وطوراً مضغة ؟ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾ ألم تروا أيها القوم فتعتبروا كيف خلق الله سبع سموات بعضها فوق بعض ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾ وجعل القمر[1] في السموات السبع ، منيراً لـلأرض في الظلام ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ وجعل الشمس فيهن مصباحاً مضيئاً ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾ والله أنشأكم من تراب الأرض ، فخلقكم منه إنشاء ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ ثم يعيدكم في الأرض كما كنتم تراباً ، فيصيِّركم كما كنتم قبل أن يخلقكم ، ويخرجكم إذا شاء منها أحياء ، كما كنتم من قبل ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً﴾ تستقرون عليها ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾ لتسلكوا منها طرقاً صعاباً متفرقة ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ قال نوح رب إن قومي عصوني فخالفوا أمري ، وردوا عليَّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً﴾ واتبعوا في معصيتهم ربهم مَنْ دعاهم إلى ذلك ، ممن كثر ماله وولده ، فلم تزده كثرة ماله وولده ، إلا بعداً من الله ، وذهاباً عن محجة الطريق ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ ومكروا مكراً عظيماً ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ وقال قوم نوح : لا تتركن آلهتكم ، ولا تتركن أصنامكم التي تعبدونها « وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا »[2] ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾ وقد ضلَّ بعبادة هذه الاصنام كثيرٌ من الناس ﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ

---

(١) القمر ليس داخل السماء ، وإنما هو زينةٌ للسماء ، كما قال تعالى ﴿ولَقَد زَيَّنا السَّمَاءَ الدُّنْيا بمصَابيحَ﴾ فهو أكبر المصابيح المضيئة للأرض لقربه منَّا ، وإذا كان القمر أقرب الكواكب إلى الأرض ، فلا يُستبعد أن يصل الناس إليه ، لأنه دون السماء الأولى ، ولو كان داخل السماء ، لاستحال وصولُ البشر إليه ، وقد روى الإمام الطبري عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : إن الشمس والقمر وجوهُهُما قِبَل السماوات ، وأقفيتهما قِبَل الأرض ، وإن ضوأهما ونورهما في السماء . ا هـ الطبري ٢٩ /٩٧ .

(٢) هذه أسماء أصنام كان يعبدها قوم نوح « ودّ ، سُواع ، يغوث . . » الخ وهي أسماءُ لأناسٍ صالحين لمَّا ماتوا نحتوا لهم =

مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى
ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي
وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴿٢٨﴾

* * *

إلاَّ ضَلاَلاً﴾ ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم بآياتنا ، إلا طبعاً على قلبه ، حتى لا يهتدي إلى الحق **﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِم أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾** من خطيئاتهم أُغرقوا فأدخلوا نار جهنم **﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾** فلم يجدوا أنصاراً تحول بينهم وبين الغرق بالطوفان **﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾** وقال نوح رب لا تدع من الكافرين أحداً يدور في الأرض ، جيئةً وذهاباً **﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾** يا رب إنك إن تترك الكافرين أحياء ولم تهلكهم ، يصدُّوا عبادك عن سبيلك **﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾** ولا يلدوا إلا فاجراً في دينك ، كفاراً لنعمتك[1] **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾** ربِّ استر عليَّ ذنوبي ، وعلى والديَّ **﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ﴾** ولمن دخل مسجدي ومصلاي ، مصدقاً بواجب فرضك عليه ، وللمصدقين بتوحيدك والمصدقات **﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾** ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم ، إلا خساراً وهلاكا

« تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح »

* * *

=تماثيل ليتذكروا أعمالهم الصالحة ، ثم جاء مَنْ بعدهم فعبدوها من دون الله ، فلذلك كانت التماثيل في الإسلام محرمة .

(١) لبث نوح في قومه تسعمائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، فلم يجد منهم إلاَّ إنكاراً وجحوداً وإعراضاً ، وكان الواحد منهم إذا رأى نوحاً يوصي ابنه فيقول له : يا بنيَّ احذر هذا الكذَّاب لا يفتنك عن دينك ، ويأمره بإيذائه،ولهذا قال نوح ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفَّاراً ﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

* * *

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ قل يا محمد أوحى الله إليَّ، أن جماعةً من الجن ،استمعوالهذا القرآن [1] ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ فقالوا لقومهم لما سمعوه : إن سمعنا قرآناً عجيباً ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ يدل على الحق وسبيل الصواب ، فصدَّقنا به ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ ولن نجعل لربنا شريكاً من خلقه ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً﴾ وأنه تعالت عظمة ربنا ، وقدرتُه وسلطانه، أن يكون له صاحبة ـ زوجة ـ أو يتخذ ولداً ، لأن الصاحبة والولد إنما تكون من الضعيف العاجز ، الذي يحتاج لقضاء الشهوة إلى الوقاع ، وربنا منزَّه عن ذلك ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً﴾ وأنه كان سفيهنا « إبليس » يقول على الله قولاً ظلماً متعدياً فيه ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ وأنا حسبنا أن لن يجترىء أحد من بني آدم ، أو من الجن على الكذب على الله ، في نسبة الصاحبة والولد ، فلما سمعنا هذا القرآن علمنا أنهم كانوا كاذبين في ذلك ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ وأنه كان رجال من الإنس ، يستجيرون برجال من

(١) في الآية توبيخ وتقريعٌ لقريش وللعرب ، في تباطئهم عن الإيمان ، إذ كانت الجنُّ خيراً منهم وأسرع إلى التأثر بالقرآن ، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه ، وتعجبوا من جماله وسحر بيانه ، فلذلك آمنوا به ورجعوا إلى قومهم منذرين ، بخلاف العرب ـ كفار مكة ـ الذين نزل بلسانهم ، فإنهم كذبوا به واستهزءوا ، وشتَّان بين موقف الإنس والجن !!

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا
كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ
أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن
نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا
وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾

* * *

الجن في أسفارهم ، فيقولون « نعوذ بعزيز هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه » ، فزاد الإنسُ الجنَّ بفعلهم ذلك إثماً ، واستحلالاً لمحارم الله[1] ﴿**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً**﴾ وأن الرجال من الجن ، ظنوا كما ظنَّ الرجال من الإنس ، أن لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه ، يدعوهم إلى توحيده[2] ﴿**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً**﴾ وأنا طلبنا السماء وأردناها ، فوجدناها ملئت حفظة ونجوماً، تُرجم بها الشياطين ﴿**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً**﴾ وأنا كنا معشر الجن نقعد من السماء مقاعد لنسمع ما يحدث فيها ، فمن يستمع الآن منا يجد شهاب نارٍ قد رُصد له ﴿**وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ**﴾ وأنَّا لا ندري أعذاباً أراد الله أن ينزله بأهل الأرض ، بمنعه إيانا السمع من السماء ﴿**أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً**﴾ أم أراد بهم ربهم الهدى ، بأن يبعث منهم رسولاً مرشداً، يرشدهم إلى الحق ﴿**وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ**﴾ وأنا منا المسلمون العاملون بطاعة الله ، ومنا غير الصالحين ﴿**كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً**﴾ كنا فِرَقاً ومذاهب شتَّى ، منا المؤمن ، ومنا الكافر ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً**﴾ وأنا علمنا أن لن نعجز الله في الأرض إن أراد بنا سوءاً ، ولن نعجزه هرباً إن طلبنا فنفوته ﴿ **وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ**﴾ وأنا لما سمعنا القرآن، الذي يهدي إلى الطريق المستقيم ، صدَّقنا به وأقررنا أنه حقٌّ من عند الله ﴿**فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً**﴾ فمن يصدق بربه فلا يخاف نقصاً من حسناته، ولا زيادةً في سيئاته ﴿**وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ**﴾ وأنا منا الذين خضعوا لله بالطاعة ، ومنا الجائرون عن الإسلام ﴿**فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحرَّوْا رَشَداً**﴾ فمن خضع لله بالطاعة ، فأولئك يرجون رشداً

(١) الرَّهق في كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم

(٢) هكذا فسّره الطبري ، وقال غيره المعنى: ظنوا أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت ، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم ، وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ
وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ
عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ
لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾

* * *

في دينهم ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ وأما الجائرون عن الإسلام الظالمون، فكانوا حطباً تُوقد بهم جهنم[1] ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ وأن لو استقام هؤلاء الظالمون على طريقة الحق، لوسَّعنا عليهم في الرزق، وبسطنا لهم في الدنيا ﴿لنفتنهم فيه﴾ لنختبرهم فيه ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ ومن يعرض عن استماع القرآن والعمل به، يدخله الله عذاباً شديداً شاقاً ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ وأُوحي إليَّ أن المساجد لله، فلا تشركوا به فيها شيئاً، ولكن أفردوا للّهِ التوحيد، وأخلصوا له العبادة ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ وأنه لما قام محمد رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلا الله» كادت العرب تكون على محمد جميعاً، في إطفاء نور الله[2] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ قل للناس: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك به أحداً ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً﴾ قل للمشركين: إني لا أملك لكم ضراً في دينكم ولا دنياكم، ولا رشداً أرشدكم به، لأن الذي يملك ذلك هو الله، الذي له ملك كل شيء ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ قل: إني لن ينصرني من الله أحد من خلقه، إن أراد بي أمراً ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ ولن أجد غير الله ملجأً ألجأ إليه ﴿إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ إلا أن أبلغكم ما أمرني الله بتبليغه، وإلَّا رسالاته التي أرسلني بها إليكم ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ومن يعص الله ويكذِّب به وبرسوله، فيجحد رسالاته، فإن له نار جهنم يصلاها ﴿خالِدِينَ

---

(١) قال في صفوة التفاسير «وإلى هنا انتهى كلام الجن على قول الجمهور، وأن الكلام بعده من كلام الله تعالى الذي أوحاه لرسوله لا من كلام الجن، وبعضُ المفسرين يجعل قوله تعالى﴿ وألَّوِ استقاموا . .﴾ من تتمة كلام الجنّ، والأول أظهر لأن الله تعالى قال في الآية﴿ لأسقيناهم ماءً غدقاً ﴾ولو كان من كلام الجن لقالوا: لأسقاهم الله

(٢) وقال غيره: أي كاد الجن يركب بعضهم بعضاً من شدة الزحام. وقد حكى الطبري أقوالاً ثلاثة، ورجح ما ذكرت، والأظهر ما قاله المفسرون لما روي عن الضحاك أن الجن لما رأوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن كاد بعضهم يركب بعضاً حرصاً على ما سمعوا من القرآن.

حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ
لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

* * *

فِيها أبداً﴾ ماكثين فيها إلى غير نهاية **﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾** حتى إذا عاينوا ما يعدهم ربهم من العذاب **﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وأَقَلُّ عَدَداً﴾** أجند الله أم هؤلاء المشركون ؟ **﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾** قل للمشركين : ما أدري أقريب ما يعدكم ربكم من العذاب ، أم يجعل له ربي غاية معلومة ، تطول مدتها ؟ **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾** هو عالم ما غاب عن أبصار خلقه ، فلا يُطلِعُ الغيبَ أحداً من خلقه **﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رسُولٍ﴾** إلا من ارتضى من رسول ،فإنه يطلعه على ما شاء من الغيب[1] **﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾** فإنه يرسل من أمام الرسول ومن خلفه ، حرساً وحفظةً من الملائكة يحفظونه **﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾** ليعلم الرسول[2] أن الرسل قبله ، قد أبلغوا رسالات ربهم **﴿وَأَحاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾** وعلم الله بكل ما عندهم ، وعلم عدد الأشياء كلها ، فلم يخف عليه منها شيء .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجن »

* * *

(١) هذه الآيةُ الكريمةُ أصلٌ في اختصاص الله تعالى بعلم الغيب ، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله ، لا مَلَكٌ ، ولا نبيٌّ ، ولا رسولٌ يعلم الغيب ، إلا إذا أطلعه الله على ذلك ، كما قال تعالى هنا ﴿عالمُ الغيب فلا يُظهر على غيبِهِ أحداً إلّا من ارتضى من رسول﴾ وقال في الأنعام ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو﴾ وإنما يطلع الله تعالى على الغيب بعض الرسل ليكون معجزة لهم ، كما أطلع المسيح ابن مريم على بعض المغيبات ، لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات .

(٢) هكذا أعاد الإمام الطبري الضمير على الرسول فقال : ليعلم الرسول ، وقال غيره من المفسرين : الضمير يعود على الله ، أي ليعلم الله أن رسله قد بلّغوا وحيه ، وهذا المعنى أظهر ، والله أعلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

* * *

﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ** ﴾ يا أيها النبي الملتفُّ بثيابه ، متأهباً للصلاة[١] ﴿ **قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ قم الليل يا محمد كلَّه ، إلا قليلاً منه ﴿ **نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْزِدْ عَلَيْهِ** ﴾ قم نصف الليل ، أو انقص من النصف قليلاً ، أو زد عليه ، فقم أي ذلك شئت ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا** ﴾ وبَيِّنْ القرآن إذا قرأته تبييناً ، وترسَّلْ فيه ترسُّلاً[٢] ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** ﴾ إنا يا محمد سنلقي عليك قولاً ثقيل الحمل ، ثقيل العمل بحدوده وفرائضه ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً** ﴾ إن ساعات الليل والعبادة فيها ، أشدُّ ثباتاً من النهار ،وأثبت حفظاً، **قال قتادة** : القيام بالليل أثبت في الخير ﴿ **وَأَقْوَمُ قِيلًا** ﴾ وأصوب قراءةً لفراغ القلب من الدنيا ﴿ **إِن لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا** ﴾ إن لك يا محمد في النهار فراغاً طويلاً ، تتقلب فيه لأعمالك وشئونك ﴿ **واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا** ﴾ واذكر اسم ربك فادعه به ، وانقطع إليه انقطاعاً تاماً ، لحوائجك وعبادتك ،**قال الحسن** : أخلص له المسألة والدعاء ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ رب المشرق والمغرب وما بينهما ، من العالم ، لا ينبغي أن يعبد إِلَهٌ سواه ﴿ **فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا** ﴾ فوِّضْ إليه

---

(١) هذا ما رجحه الإمام أبو جعفر وذلك لدلالة الأمر بقيام الليل، وقال غيره من المفسرين: أنه طلب تزميله بالثياب عندما جاءه الملك بالوحي في غار حراء أول ما جاءه ، كما هي رواية البخاري فرجع إلى خديجة فقال لها : « زمّلوني زمّلوني » فنزلت﴿ يا أيها المزّمل ﴾

(٢) قال الحسن : اقرأه قراءة بيِّنة ، وقال مجاهد : اقرأه على تُؤدة ، وترسَّلْ فيه ترسلاً .

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ
أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا
مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ
فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ
مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ

* * *

أمورك ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ واصبر يا محمد على ما يقول لك المشركون ، واصبر على أذاهم . ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ واهجرهم في ذات الله هجراً جميلاً[1] ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ ودعْني[2] يا محمد والمكذبين بآياتي ﴿ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ أهل التنعم في الدنيا ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ وأخرهم ليتنعموا بما بسطته لهم ، حتى يبلغ الكتاب أجله ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً ﴾ إن عندنا لهؤلاء المكذبين ، قيوداً وناراً تُسعَّر ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ وطعاماً يغصُّ به آكله[3] ، وعذاباً مؤلماً موجعاً ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ يوم تضطرب الأرض والجبال بمن عليها عند القيامة ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً ﴾ وكانت الجبال رملاً سائلاً متناثراً ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ ﴾ إنا أرسلنا إليكم ـ أيها الناس ـ رسولاً شاهداً عليكم يوم القيامة ، بإجابة من أجاب الدعوة ، وامتناع من امتنع ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ مثل ما أرسلنا قبلكم إلى فرعون مصر ، رسولاً يدعوه إلى الحق ﴿ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ فلم يطع فرعون الرسول المرسل إليه ، فأخذناه أخذاً شديداً ، فأهلكناه ومن معه جميعاً ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ فكيف تخافون[4] ـ إن كفرتم بالله ولم تصدِّقوا به ـ يوم القيامة ، الذي تشيب فيه الصغار لشدته وهوله ؟ ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ السماء متصدِّعةٌ متشققة في ذلك اليوم ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ كان ما وعد الله به من أمرٍ واقعاً ، فاحذروا ذلك اليوم أيها الناس ، فإنه كائن لا محالة ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ إن هذه الآيات ، التي ذكر فيها أمر القيامة وأهوالها ، عبرة وعظة لمن اعتبر بها واتَّعظ ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ فمن شاء من الخلق ، اتخذ

---

(١) كان هذا قبل الأمر بالقتال ، لأن المسلمين كانوا في مكة المكرمة قلة مستضعفين ، فلما عزَّ الاسلام وكثر أتباعه أُمر المسلمون بقتالهم .

(٢) هذا أسلوب التهديد والوعيد يقول العرب : دعني وفلان أي اتركني لأنتقم منه ، يريدون بذلك التهديد والوعيد .

(٣) قال ابن عباس : هو شوك يأخذ بالحلق يغصُّ به آكله ، فلا يدخل ولا يخرج .

(٤) المراد كيف تأمنون ذلك اليوم العصيب الرهيب ، الذي يشيب فيه الوليد ، من شدةِ هوله ، وفظاعة أمره ، وأنتم قد كفرتم بالله !! قال قتادة : واللهِ لا يتقي من كفر بالله ذلك اليوم .

وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾

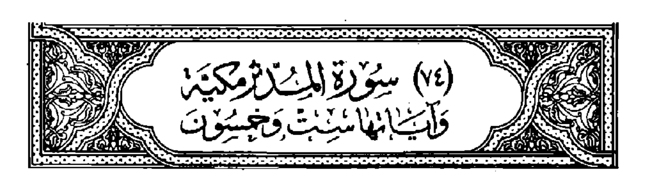
* * *

طريقاً إلى ربه ، بالإيمان به والعمل بطاعته ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ، وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ** ﴾ إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم أقرب من ثلثي الليل مصلياً ، وتقوم نصفَه وثُلثَه ﴿ **وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ** ﴾ وطائفة من أصحابك المؤمنين ، يقومون معك ، حين فُرض عليهم قيام الليل ﴿ **وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ والله يُقدِّر الليل والنهار ، بالساعات والأوقات ﴿ **عَلِمَ أَن لَن تُحْصُوهُ** ﴾ علم ربكم أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله ﴿ **فَتَابَ عَلَيْكُمْ** ﴾ فتاب عليكم إذ عجزتم وضعفتم عنه ، ورجع بكم إلى التخفيف عنكم ﴿ **فَاقرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** ﴾ فاقرأوا من الليل ما تيسر من القرآن في صلاتكم[1] ﴿ **عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى** ﴾ علم ربكم ـ أيها المؤمنون ـ أن سيكون منكم من قد أضعفه المرض عن قيام الليل ﴿ **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ وآخرون قد سافروا في تجارةٍ لطلب المعاش ، فأضعفهم أيضاً عن قيام الليل ﴿ **وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ وآخرون يجاهدون العدو في نصرة دين الله ، فرحمكم فخفَّف عنكم ، ووضع عنكم فرض قيام الليل ﴿ **فَاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ** ﴾ فاقرأوا الآن في صلاتكم من الليل ، ما تيسَّر من القرآن ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ** ﴾ وأقيموا الصلوات الخمس المفروضة ، في اليوم والليلة ﴿ **وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ وأعطوا الزكاة المفروضة في أموالكم ﴿ **وَأَقْرِضُوا اللَّهِ قَرْضاً حَسَناً** ﴾ وأنفقوا من أموالكم في سبيل الله ﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ** ﴾ وما تقدموا ـ أيها المؤمنون ـ لأنفسكم في دار الدنيا ، من صدقةٍ ، أو نفقة ، أو غير ذلك من وجوه الخير ، طلباً لما عند الله ﴿ **تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً** ﴾ تجدوه يوم القيامة في معادكم ، هو خيراً لكم مما قدمتم في الدنيا ، وأعظم منه ثواباً ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ** ﴾ وسلوا الله غفران ذنوبكم ، يصفحْ لكم عنها ﴿ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ غفورٌ لذنوب من تاب من عباده ، رحيمٌ بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المزمل »

* * *

(١) هذا تخفيفٌ من الله تعالى عن عباده ، ما كان قد فرض عليهم من قيام الليل ، فرخص لهم أن يصلُّوا ما تيسَّر لهم من الصلاة مع قراءة القرآن فيها فذلك قوله ﴿ فاقرءوا ما تيسَّر من القرآن ﴾ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن
تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ
يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤)
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦)

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ يا أيها المتدثر بثيابه عند نومه ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ قم من نومك ، فأنذر قومك عذاب الله ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وربك يا محمد فعظِّمْ ، بعبادته والرغبة إليه في حاجاتك ، دون غيره من الآلهة والأنداد ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وثيابك فطهرها من النجاسة[1] ﴿والرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ وما أوجب لك العذاب وسخط الله فاهجرْهُ ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾ ولاتمنن على ربك فتستكثر عملك الصالح ، فإنه بجانب ما أنعم عليك قليل[2] ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ واصبر على ما لقيت في ذات الله من المكروه ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ فإذا نفخ في الصور ، نفخة البعث والنشور ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ فذلك يومئذ يومٌ شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ هو يومٌ عسيرٌ على الكافرين ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ اتركني يا محمد ، ودع لي أمر الذي خلقته في بطن أمه وحيداً ، لا شيءَ له من مالٍ ولا ولد[3] ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾ وجعلت له المال الكثير الوافر ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ وجعلت له بنين يشهدون معه المشاهد ، وبسطتُ له في العيش بسطاً ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ثم يأمل أن أزيده مالاً وولداً على ما أعطيته ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا

(١) هذا ما اختاره الطبري وهو الراجح من الأقوال ، وقيل : المراد بالآية طهِّرْ نفسك من الذنوب، فالثياب كناية عن النفس يقال : فلان نقيُّ الثياب أي نفسه زكية طاهرة ، وهذا القول مروي عن ابن عباس وعطاء وقتادة .

(٢) وقال غيره من المفسرين : « لا تعط الناس عطاءً وتستكثره ، لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً » وهذا أظهر وأرجح والله أعلم .

(٣) نزلت في « الوليد بن المغيرة » الذي كان من صناديد قريش وأغنيائها ، وكان لقَّب رسول الله ﷺ بالساحر ، وأشاع ذلك بمكة =

سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ
سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ
أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ

* * *

عَنِيداً﴾ ليس الأمر كما يرجو ، إنه كان لحججنا معانداً للحق ، مجانباً له ، كالبعير العنود **﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾** سأكلفه مشقةً من العذاب ، لا راحةَ له منها **﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾** إنه فكَّر فيما أنزل الله على محمد ﷺ من القرآن ، وقدَّر ما يقول فيه **﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾** فلُعن كيف قدَّر ؟ ثُمَّ لعن كيف قدَّر ؟ **﴿ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾** ثم روَّى في ذلك ، ثم قبض ما بين عينيه وكلح وجهه **﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾** ثم ولَّى عن الإيمان ، واستكبر عن الإقرار بالحق **﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾** فقال : ما هذا القرآن إلَّا سحرٌ، يأثره أي يرويه عن غيره **﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾** ما هذا الذي يتلوه محمد ، إلَّا كلام الخلق ، وما هو بكلام الله[1] **﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾** سأورده باباً من أبواب جهنم اسمه سقر **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾** وأي شيء أعلمك يا محمد ما هي سقر ؟ **﴿لا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾** هي نارٌ لا تُبقي من فيها حياً ، ولا تذر من فيها ميتاً **﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾** ولكنها تحرقهم كلما جُدِّد خلقُهم ، مغيرةٌ لبَشَرِ أهلها[2] **﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾** على جهنم تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها **﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾** وما جعلنا خزنة النار إلَّا ملائكة لا رجالاً من البشر ، فمن يغلب خزنة النار وهم الملائكة ؟! **﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وما جعلنا عدة هؤلاء الخزنة ، إلا فتنةً للذين كفروا من مشركي قريش ، لتكذيبهم بذلك[3] **﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾** ليستيقن أهل التوراة والإنجيل ، حقيقة ما في كتبهم من الخبر عن عدة

= المكرمة بعد أن سمع القرآن ، وعرف أنه كلام الرحمن .

(١) روي أن « الوليد بن المغيرة » أرسلته قريش إلى النبي ﷺ ليستمع للقرآن ويُبدي لهم رأيه فيه ، فلما جاء إلى رسول الله وقرأ عليه القرآن ، رقَّ له قلبه وكاد أن يُسلم ، فلما رجع إليهم قالوا : ماذا وراءك ؟ قال لهم : والله لقد سمعت قولاً حلواً أخضر ، يأخذ بالقلوب ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وما هو بقول بشر ، فقالت قريش : صبأ الوليد ـ أي ترك دينه ودخل في الإسلام ـ والله لتصبأن قريش كلُّها ، فلما سمع أبو جهل بذلك قال : دعوني أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد : إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لم ؟ قال: يعطونك إياه ، فإنك أتيتَ محمداً لتتعرض لما عنده ، فقال : لقد علمت قريش إني أكثرها مالاً !! فقال له أبو جهل : إنهم لا يرضون عنك حتى تقول في القرآن قولاً يعلمون أنك منكرٌ وكاره له ؟ قال : فدعني حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحر يرويه محمد وينقله عن غيره فنزلت ﴿إنه فكر وقدَّر . . .﴾ الآيات .

(٢) نقل ابن جرير هذا عن مجاهد وابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وفي صفوة التفاسير ﴿لواحة للبشر﴾ أي تلوح وتظهر لأنظار الناس، من مسافاتٍ بعيدة لعظمها وهولها كقوله تعالى ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ قال : والظاهر ما ذكرناه لأن الله تعالى ذكر من وصفها ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ فأي فائدة من وصفها بتسويد البشرة بعد ذلك ؟

(٣) قال أبو جهل لما نزلت هذه الآية : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة ـ يعني محمداً ـ يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر ، =

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ
أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ
لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن
شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾
عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ

* * *

« خزنة جهنم » إذ وافق ذلك ما في القرآن ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ وليزداد الذين آمنوا ، تصديقاً إلى تصديقهم بما أنزل الله ﴿وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنونَ﴾ ولا يشك أهل التوراة والإنجيل والمؤمنون من أمة محمد ﷺ في حقيقة ذلك ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ وليقول الذين في قلوبهم مرض النفاق ، والكافرون بالله من مشركي قريش : ماذا أراد الله بذكر عدد خزنة جهنم ؟! ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ كما أضلَّ الله هؤلاء المنافقين والمشركين ، كذلك يُضلُّ من يشاء من خلقه ، فيخذله عن إصابة الحق ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فيوفقه لإصابة الصواب ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ وما يعلم جنود ربك من كثرتهم ، إلا الله تعالى ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ وما النار ـ التي وصفتُها ـ إلا تذكرة ، ذكَّر اللَّهُ بها بني آدم ﴿كَلاَّ وَالْقَمَرْ﴾ كلاَّ ليس القول كما زعم هؤلاء المشركون ، أقسمُ بالقمر ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ والليل إذا ولّى ذاهباً ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ والصباح إذا أضاء ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الكُبَرِ﴾ إن جهنم من الأمور العظام ﴿نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾ إنذاراً لبني آدم ،قال الحسن : واللَّهِ ما أُنذر الناس ـ أي خوّفوا ـ بداهية هي أدهى من النار ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ لمن شاء منكم أن يتقدم في طاعة الله ، أو يتأخر في معصيةِ اللَّهِ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ كل نفسٍ بما عملت في الدنيا ، رهينةٌ[1] في جهنم ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ إلا أهل اليمين ـ أهل الجنة ـ فإنهم غير مرتهنين ، فكّوا أنفسهم من العذاب بطاعتهم لله ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ إنهم في بساتين ، يتساءلون عن المجرمين ، الذين أُدخلوا جهنم : أيُّ شي سلككم في جهنم؟ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ قال المجرمون لهم : لم نك في الدنيا من المصلّين لله ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسكِينَ﴾ بخلنا بما أعطانا الله ، ومنعنا المسكين حقه ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ وكنا نخوض في

=وأنتم الدُّهم ـ أي العدد الكثير الشجعان ـ أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال : أبو الأشد الجمحي ـ وكان شديد البطش ـ وأنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفوني أنتم اثنين فنزلت الآية ردّاً عليهم . ا هـ صفوة التفاسير .

(١) رهينة : أي محبوسة قد رُهنت بما عملت في الدنيا من الذنوب والآثام .

مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

* * *

الباطل مع من يخوض فيه ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ وكنا نكذب بيوم الجزاء والعذاب ، ولا نصدِّق بعقابٍ ولا حساب ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ حتى جاءنا الموت الموقن به ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ فما يشفع لهم أحدٌ من أهل التوحيد ، فتنفعهم شفاعتهم[1] ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله لهم بهذا القرآن معرضين ، لا يستمعون لها فيتعظوا ويعتبروا ؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ معرضين عن التذكرة ، تولية الحمر المستنفرة ، فرَّت من الأسد ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ما بهؤلاءالمشركين جهلٌ بل يريد كل رجل منهم ،أن يؤتى كتاباً من السماء ينزل عليه[2] ﴿كَلَّا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ كلَّا بل لا يُصدّقون بالبعث، والثواب ، والعقاب ، فلذلك يعرضون عن تذكرة الله ، والاستماع لوحيه وتنزيله ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ كلا إن هذا القرآن ، تذكرة من الله لخلقه ذكَّرهم به، لا كما يقول المشركون من أنه سحرٌ يؤثر ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ فمن شاء من عباد الله ذكره ، فاتَّعظ بما فيه من أمر الله ونهيه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وما يتعظون بهذا القرآن ، إلا أن يشاء الله ذلك ، لأنه لا أحد يقدر على شيء إلَّا بمشيئة الله تعالى ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ الله أهلٌ أن يتقي عبادُه عقابه ، فيجتنبوا معاصيه ، وهو أهلٌ أن يغفر لهم ذنوبهم ، إذا هم تابوا وأنابوا ، **قال قتادة** : الله أهلٌ أن تُتَّقى محارمه ، وهو أهلٌ أن يغفر الذنوب .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المدَّثر »

* * *

(١) قال الطبري : وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى مشفِّعٌ بعض خلقه في بعض . أ هـ الطبري ١٦٦/٢٩

(٢) قال مجاهد : يريدون أن يُعطى كل واحدٍ كتاباً خاصاً من ربِّ العالمين ، حتى يؤمنوا به ، مكتوبٌ فيه من ربِّ العالمين إلى فلان ابن فلان أقول : الغرضُ من الآية بيانُ إمعانهم في الضلالة ، وكأن الله يقول لنبيه ﷺ : دعْ يا محمد عنك ذكر إعراضهم ، ونفورهم من القرآن ومواعظه ، نفور الحمر الوحشية من الأسد المفترس ، واستمع لما هو أعجبُ وأغرب ، وذلك طمعُ كل واحدٍ منهم أن يوحى إليه وأن يكون رسولاً !!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ
عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ
الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾

* * *

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ليس الأمر كما تزعمون أن لا بعث ، أقسمُ بيوم القيامة ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ وأقسم بالنفس التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أيظن ابن آدم أننا لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها ؟ ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ بلى قادرين على أعظم من ذلك ، أن نسوِّي أصابع يديه ورجليه ، فنجعلها كخف البعير ، أو حافر الحمار ، فكان لا يأكل إلاَّ بفيه كسائر البهائم ، ولكنه فرَّق أصابع يديه ، ليأخذ بها ويتناول ، ويبسط ويقبض ، فحسَّن خلقه[1] ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ﴾ بل يريد الإنسان أن يمضي أمامه قُدُماً في معاصي الله ، لا يثنيه عنها شيء ، ولا يتوب منها أبداً ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ يسأل متى يوم القيامة ؟ تسويفاً منه للتوبة ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ فإذا فزع البصر ، وحار من شدة هول القيامة ، وفزِعِ الموت ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ وذهب ضوء القمر ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ والْقَمَرُ﴾ وجمع بين الشمس والقمر في ذهاب الضوء ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أين الْمَفَرُّ﴾ يقول الإنسان يوم يعاين أهوال يوم القيامة : أين المفر من الهول النازل ؟!

(١) قال في « صفوة التفاسير » : أي بلى نجمعها ، ونحن قادرون على أن نعيد أطراف أصابعه التي هي أصغر أعضائه ، وأدقها أجزاء ، وألطفها التئاماً ، فكيف بكبار العظام ؟! وإنما ذكر تعالى « البنان » لما فيها من غرابة الوضع ، ودقة الصنع ، ولذا يعتمدون على بصمات الأصابع في تحقيق شخصية الإنسان في هذا العصر . اهـ .

كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾
وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن
يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾

* * *

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ليس هناك فرار ولا شيء يلجأ اليه من حصن ، ولا ملجأ من أمر الله ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ إلى ربك أيها الإنسان يومئذ الاستقرار ، وعنده مقرُّ جميع خلقه ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ يُخبَّر الإنسان يومئذ بكل ما عمل من خيرأو شر في حياته، وما أخر بعده من سنَّةٍ حسنةٍ أو سيئة ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ بل للإنسان على نفسه رقباء ، يشهدون عليه من جوارحه[1] ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ ولو اعتذر بغير الحق ، وجادل عن نفسه بالباطل ، فشهادة نفسه عليه أحق وأولى من اعتذاره ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ لا تحرك يا محمد لسانك بالقرآن ، لتعجل به قبل جمعه[2] ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ إن علينا جمع هذا القرآن في صدرك ، حتى نثبِّته فيه وحتى تقرأه بعد جمعه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فإذا تُلي عليك فاتبع ما أُمرت به ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ثم إن علينا بيان ما فيه من الحلال ، والحرام ، والأحكام ، مفصلة ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ليس الأمر كما تقولون أنكم لا تبعثون ، ولكن الذي دعاكم إلى ذلك محبتكم الدنيا العاجلة ، وإيثاركم شهواتها على آجل الآخرة ونعيمها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وجوهٌ يوم القيامة من النعيم والسرور والغبطة ، حسنةٌ جميلة ، تنظر إلى خالقها ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ووجوهٌ يومئذٍ متغيرة الألوان ، مسودَّةٌ عابسةٌ كالحة ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾تعلم أنه سينزل بها داهية وشرٌّ ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ كلا إذا بلغت نفس أحدهم عند مماته أعالي الصدر ، وحشرج بها ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ وقال أهله : من يرقيه ويشفيه مما قد نزل فيه ؟ وطلبوا له الأطباء ، فلم يغنوا عنه شيئاً ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ وأيقن أنه فراق الدنيا ،

---

(١) هكذا فسَّره الإمام الطبري وهو مرويٌّ عن ابن عباس حيث قال : يشهد عليه سمعُه ، وبصرُه ، وجوارحه ، وقال بعض المفسرين المعنى : بل الإنسان شاهدٌ على نفسه وحده ، لا يحتاج إلى شاهد آخر ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿كفى بنفسك اليومَ عليكَ حَسِيباً﴾ وهذا أظهر ، وهو مرويٌّ عن قتادة وابن زيد ، والتاء في « بصيرة » للمبالغة كعلاَّمة وبحاثة أي بصير .

(٢) قال ابن عباس : كان ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه ، فأنزل الله ﴿لا تحرِّكْ به لسانك . .﴾ الآيات ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق واستمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله به عز وجل . ا هـ الصفوة ٤٨٦/٣

وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ
سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ
ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

* * *

والأهل ، والمال ، والولد ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ والتصقت شدة كرب الموت ، بشدة هول المطلع[١] ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ إلى ربك يوم القيامة مساقُ الإنسان ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ فلم يصدِّق بكتاب الله ، ولم يصلِّ له صلاة ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ولكنه كذب بكتاب الله ، وأدبر عن طاعته ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ ثم مضى إلى أهله منصرفاً إليهم ، يتبختر في مشيته﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى. ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ هذا وعيدٌ من الله على وعيد لعدوِّ الله أبي جهل[٢] ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً﴾ أيظن هذا الكافر أن يترك هملاً ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يُكلف بعبادة ؟ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ ألم يكن هذا المنكر لقدرة الله ، ماء قليلاً في صلب الرجل من مني ؟ ﴿ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخلَقَ فَسَوَّى﴾ ثم كان من بعد ذلك دماً ثم علقة ، ثم سوَّاه الله بشراً سوياً ، ناطقاً ، سميعاً ، بصيراً ؟ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ فجعل من هذا الإنسان أولاداً ذكوراً وإناثاً ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أليس الذي فعل ذلك ، بقادرٍ على أن يحيي الموتى من بعد مماتهم ؟ بلى إنه على كل شيءٍ قديرٌ ، رُوي أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : « سبحانك اللهم بَلَى » .

* * *

(١) قال ابن جرير : والعرب تقول لكل أمر اشتد : « قد شمَّر عن ساقه » و « كشف عن ساقه »، وهكذا اختار الطبري أنه من باب الكناية ، وأن المراد به التفُت ساق الدنيا بساق الآخرة من شدة كرب الموت ، وقال غيره من المفسرين :التفَّت إحدى ساقي المحتضر على الأخرى من شدة الهول ، وهو قول الحسن البصري ، وهو الأظهر والله أعلم .

(٢) لم يذكر الإمام الطبري تفسير الآية وإنما اقتصر على أنها وعيدٌ لأبي جهل ، وقال غيره المعنى ويلٌ لك أيها الشقيُّ ثم ويلٌ لك . . فقد روي أن النبي ﷺ أخذ بمجامع ثياب أبي جهل فقال له ﴿ أولى لك فاولى ثم أولى لك فاولى ﴾ فقال عدوُّ الله أبو جهل : أتتوعدني يا محمد وتهددني ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً ، والله إني لأعز أهل الوادي ، ثم لم يلبث أن قُتل ببدر شرَّ قتلة . ا هـ من صفوة التفاسير ٣/٤٨٨ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا
وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا

* * *

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكوراً ﴾ قد أتى على الإنسان « آدم » وقتٌ من الزمن ، لم يكن شيئاً له رفعةٌ ولا شرف ، إنما كان طيناً لازباً ، وحمأً مسنوناً ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ﴾ إنا خلقنا ذرية آدم، من ماء الرجل وماء المرأة يختلطان ﴿ **نَبْتَلِيهِ** ﴾ لنختبره في هذه الدنيا ﴿ **فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً** ﴾ فجعلناه ذا سمعٍ يسمع به، وذا بصرٍ يبصر به، إنعاماً منّا عليه، ورأفةً به ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ** ﴾ إنا بينّا له طريق الجنة ، وعرّفناه سبيله ﴿ **إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً** ﴾ إما سعيداً لشكره للنعم ، وإما شقياً لكفره بها ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً** ﴾ إنا أعددنا لمن كفر نعمتنا ، سلاسل يُستوثق بها منهم في الجحيم، وتُشدُّ أيديهم بالأغلال فيها ، وناراً تُسعَّر عليهم فتتوقد ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ** ﴾ إن الذين بروا بطاعتهم ربهم في أداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ **يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ** ﴾ يشربون من آنية فيها شراب ﴿ **كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً** ﴾ كان مزاج ما فيها من الشراب ، كالكافور في طيب الرائحة ﴿ **عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ** ﴾ من عينٍ يشرب بها عبادُ الله، الذين يدخلهم الجنة ﴿ **يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً** ﴾ يصرِّفون هذه العين كيف شاؤوا وحيث شاؤوا ، من منازلهم وقصورهم في الجنة ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ** ﴾ يبرُّون بوفائهم بالنذور ، التي نذورها في طاعة الله في الدنيا ﴿ **وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً** ﴾ ويخافون عقاب الله ، في يوم كان شره ممتداً فاشياً ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً** ﴾ ويطعمون الطعام على حبهم إياه ،

وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا
يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟
جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا
وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن
فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

* * *

وشهوتهم له، ذوي الحاجة الذين قد أذلتهم الحاجة ﴿ وَيَتِيماً ﴾ وللطفل الذي مات أبوه ولا شيء له ﴿ وَأَسِيراً ﴾ وللأسير المشرك أو المسلم المحبوس بحق ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ ويقولون لهم: إنما نطعمكم طلباً لرضا الله ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ لا نريد منكم على إطعامنا إياكم، ثواباً ولا شكوراً[١] ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ ولكننا نطعمكم رجاء أن يؤمننا ربنا من عقوبته في يوم شديد الهول، تعبس فيه الوجوه من شدة مكارهه، ويطول بلاء أهله ويشتد ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ فدفع الله عنهم ما كانوا يحذرون، من شر ذلك اليوم العبوس ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ وأعطاهم نضرةً في وجوههم، وسروراً في قلوبهم ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ وأثابهم الله بصبرهم في الدنيا على طاعته، والعمل بما يرضيه، جنَّةً يدخلونها، وحريراً يلبسونه ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ متكئين في الجنة على السرر، المزينة بفاخر الثياب والستور ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ﴾ لا يرون في الجنة شمساً فيؤذيهم حرها، ولا برداً شديداً فيؤذيهم بردها ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ وقَرُبت منهم ظلالُ أشجارها ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ وذلل لهم اجتناء ثمرها كيف شاؤوا قعوداً، وقياماً، ومتكئين[٢] ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوارِيرَا ﴾ ويطاف على هؤلاء الأبرار، بأوانٍ يشربون فيها شرابهم، هي من فضة في صفاء الزجاج ﴿ قَوارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ هذه الأكواب كانت قوارير فحولها الله فضَّة، فهي في الصفاء كصفاء الزجاج في بياض الفضة[٣] ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ قدروا تلك الآنية على قدر حاجتهم، لا تزيد ولا تنقص ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً ﴾ ويسقى الأبرار في الجنة كأساً من الخمر، مزاجُ الشراب من الزنجبيل ﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ عيناً في الجنة توصف بالسلاسة،

(١) قال سعيد بن جبير: أما واللهِ ما قالوه بألسنتهم، ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم، ليرغب في ذلك راغب.

(٢) قال ابن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها، تدلت له أغصانها حتى يتناول منها ما يريد.

(٣) قال الطبري: دلَّ ثناؤه بوصفه الآنية أنها من فضة، ليُعلم عبادَه أن تربة أرض الجنة من فضة، فان كل آنيةٍ إنما تتخذ من تربة الأرض. ا هـ الطبري ٢٩ / ٢١٦

* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾

* * *

لسهولة مساغها في الحلق ، وانقيادها لأهل الجنة يُصرّفونها حيث شاؤوا ﴿ **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ** ﴾ ويطوف على هؤلاء الأبرار ، غلمانٌ مخلدون لا تتغير حالهم ﴿ **إِذَا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً** ﴾ إذا رأيت الولدان في الجنة ، تحسبهم في حسنهم وكثرتهم ، وبياض وجوههم ، كاللؤلؤ المبدَّد ، المنتثر هنا وهناك[١] ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً** ﴾ وإذ نظرت ببصرك يا محمد ، ورميت بطرفك فيما أعطيتُ هؤلاء الأبرار في الجنة من الكرامة ، رأيت هناك نعيماً ﴿ **وَمُلْكاً كَبِيراً** ﴾ ورأيت مع النعيم ملكاً واسعاً ﴿**عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ**﴾ فوق هؤلاء الأبرار ثياب ديباج - حرير - رقيق حسن ، أخضر اللون ﴿**وَإِسْتَبْرَقٌ**﴾ وعاليهم ثياب مما غلظ من الحرير ﴿**وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ**﴾ وحلاّهم ربهم بأساور من فضة ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً**﴾ وسقى هؤلاء الأبرار شراباً طهوراً ، لا يصير بولاً نجساً ، ولكنه يرشح من أبدانهم كرشح المسك ﴿**إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً**﴾ يقال لهم إن الذي أعطيناكم من الكرامة ، كان لكم ثواباً ، على ما كنتم تعملون في الدنيا من الصالحات ﴿**وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً**﴾ وكان عملكم فيها مشكوراً ، رضيه ربكم لكم ، فأثـابكم عليه من الكرامة ما أثـابكم ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً**﴾ نحن نزلنا عليك يا محمد هذا القرآن . تنزيلاً ، ابتلاءً منا واختباراً ﴿**فَاصْبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾ فاصبر لما امتحنك به ربك ، من تبليغ رسالاته ، والقيام بما ألزمك به من فرائضه ﴿**وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً**﴾ ولا تطع من مشركي قومك آثماً يريد بركوبه معاصيه، ولا جحوداً لِنعَمه ، يكفر بربه ويعبد غيره[٢] ﴿**واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً**﴾ واذكر يا محمد اسم ربك ، فادعه به في صلاة الصبح ﴿**وَأَصِيلاً**﴾ في صلاة الظهر والعصر ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**﴾ ومن الليل فاسجد له في صلاتك وسبِّحْه أكثر الليل ﴿**إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**﴾ إن هؤلاء المشركين يحبون البقاء في الدنيا ، وتعجبهم زينتها ﴿**وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً**﴾ ويَدَعُون خلف ظهورهم العمل للآخرة ، وما لهم فيه النجاة من عذاب الله

---

(١) قال قتادة : ما أحد من أهل الجنة إلا ويسعى عليه ألف غلام ، كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه .

(٢) قال قتادة : نزلت في عدو الله « أبي جهل » قال : لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه . اهـ الطبري ٢٩ /٢٢٤

نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ
رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ
أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

* * *

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ نحن خلقنا هؤلاء المشركين، وشددنا خلقهم [1] ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ وإذا نحن شئنا أهلكناهم ، وجئنا بآخرين سواهم ، خيراً منهم في العمل ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ إن هذه السورة عبرةٌ ، لمن اتعظ واعتبر ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّه سَبِيلاً﴾ فمن شاء من الناس اتخذ طريقاً إلى رضاء ربه ، بالعمل بطاعته ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وما تشاؤ ون أيها الناس اتخاذ السبيل ، إلا أن يشاء الله ذلك لكم ، لأن الأمر إليه لا إليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ عالماً بأحوال خلقه ، حكيماً في تدبيره وصنعه ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ يدخل ربكم من يشاء منكم في جنته [2] ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ والذين ظلموا أنفسهم فماتوا على شركهم ، أعدَّ الله لهم في الآخرة عذاب جهنم ، المؤلم الموجع .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الإنسان »

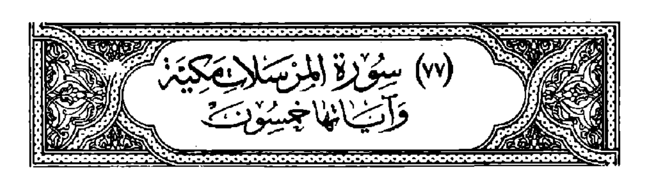
* * *

---

(١) المراد أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، حتى كانوا أقوياء أشدَّاء ، وأصل الأسر في اللغة : الشدُّ والربطُ ، ثم أُطلق على الخَلْق ، يُقال : شدَّ أسْرَه أي أحسن خَلْقه ، وأحكمَ تكوينَه قال الأخطل :

مِنْ كلِّ مجتنبٍ شديدٍ أسْرُه سَلِسِ القِيادِ تخالُه مختالا

(٢) في هذه السورة الكريمة ، بيانٌ للنعيم الذي أكرم الله به أهل الجنة ، ووصفٌ شاملٌ لأحوال أهل الجنة في مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، وخدمهم ، وحليِّهم ، وغير ذلك ممَّا لا عين رأتْ ، ولا أُذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، نسأله تعالى ألاَّ يحرمنا نعيم الجنة بمنه وفضله .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ
ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾

* * *

﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً ﴾ أُقسمُ بالرياح المرسلات يتبع بعضها بعضاً ، وبكل ما يرسله الله من رياح ، وملائكة ، ورسل[١] ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ﴾ فالرياح الشديدات الهبوب ، السريعات الجري ﴿ والنَّاشِرَاتِ نَشْراً ﴾ وأُقسمُ بالرياح التي تنشر السحاب ، وبالمطر الذي ينشر الأرض ، وبالملائكة التي تنشر الكتب ﴿ فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً ﴾ وأُقسمُ بالفاصلات التي تفصل بين الحق والباطل ، مَلَكاً كان ، أو قرآناً ، أو غير ذلك ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ﴾وأُقسمُ بالملائكة المبلِّغاتِ وحي الله لرسله ﴿ عُذْراً أو نُذْراً ﴾ إعذاراً من الله إلى خلقه ، وإنذاراً منه لهم ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ إن الذي توعدون أيها الناس من الأمور ، لكائنٌ لا محالة يوم القيامة ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ فإذا ذهب ضياء النجوم ، فلم يبق لها نور ولا ضوء ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ وإذا السماء شقِّقت وصُدِّعت ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ وإذا الجبال نسفت من أصلها ، فكانت هباء منبثاً ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ وإذا الرسل أُجِّلت للاجتماع يوم القيامة ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ لأي يوم أُجِّلتْ الرسل ؟ ما أعظم ذلك اليوم ، وما أهوله ؟ ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ أُجِّلتْ ليوم يفصل الله فيه بين خلقه ، فيأخذ من الظالم للمظلوم ، ويجزي المحسن بإحسانه،والمسيء بإساءته

(١) اختلف المفسرون في الآيات الخمس فذهب بعضهم إلى أنها « الرياح » وبعضهم إلى أنها « الملائكة » وبعضهم جعل الآيتين الأولى والثانية للرياح ، والبواقي للملائكة ، وهذا ما ذهب اليه ابن كثير ، وهو الأرجح والأظهر ، وأمَّا الإمام الطبري فقد قال : إن القسم يعمُّ الملائكة ، والرياح ، والرسل وكل ما كان له هذه الصفة ، من الإرسال ، والعصف ، والنشر .

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾
كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾
إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ
وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ
مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾

* **

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ وأي شيء أدراك يا محمد ما يوم الفصل ؟ تعظيماً لأمره وشدة هوله[1] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الوادي[2] الذي يسيل في جهنم من صديد أهلها ، للمكذبين بيوم الفصل ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ ألم نهلك الأمم الماضية الذين كذبوا رسلي ، وجحدوا آياتي ؟ ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾ ممن سلك سبيلهم في الكفر بي وبرسلي ، فنهلكهم كما أهلكنا السابقين ؟ ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ كذلك سنّتي في أمثالهم من الأمم الكافرة ، نهلك المجرمين بإجرامهم ، إذا طغوا وبغوا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الويل للجاحدين بقدرة الله ﴿ أَلَمْ نَخْلُقُكُمْ مِن مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ألم نخلقكم أيها الناس من نطفة ضعيفة مهينة[3]؟ ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ فجعلنا الماء في رحمٍ استقر فيها فتمكّن ، إلى وقتٍ معلومٍ عند الله لخروجه من الرحم ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ فملكنا فنعم المالكون[4] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ويلٌ يومئذٍ للمكذبين بأن الله خلقهم من ماءٍ مهين ﴿ أَلَمْ نَجْعلِ الأَرْضَ كِفَاتاً . أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ﴾ ألم نجعل الأرض لكم وعاءً، تضمُّ أحياءكم في المساكن والمنازل ؟ وتجمع أمواتكم في بطونها في القبور ؟ **قال الشعبي** : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ وجعلنا في الأرض جبالاً ثابتات شاهقات ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَاءً فُرَاتاً ﴾ وأسقيناكم ماء عذباً ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذه النعم التي أنعمتها عليكم ﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ انطلقوا أيها المكذبون إلى ما كنتم به في الدنيا تكذبون من عذاب الله ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى

---

(١) هذا الأسلوب أسلوب التعجيب والتهويل ، فهو تعالى بقوله ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾؟ يُعجّب عباده من هول ذلك اليوم وشدته .

(٢) تقدم معنا أن الويل في اللغة معناه الهلاك والخسار والدمار ، وقصرُ الإمام الطبري على أنه الوادي في جهنم كعادته ليس بالقوي ، والله أعلم .

(٣) في الحديث القدسي يقول الله عز وجل « ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه . . » ؟ الحديث رواه أحمد

(٤) قال في صفوة التفاسير : « فقدرنا على خلقه من النطفة ، فنعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الصور ، وأجمل الأشكال ، وهذا هو الأظهر .

لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾
هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ
وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾
وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا
يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

***

ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ انطلقوا إلى ظلٍ دخان جهنم ذي الشعب الثلاث ﴿ **لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ** ﴾ لا هو يظلهم من حرها ، ولا يكنّهم من لهبها ﴿ **إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ** ﴾ إن جهنم ترمي بشررٍ ، كالقصر العظيم من القصور ﴿ **كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ** ﴾ كأن الشرر الذي ترمي به جهنم الإبل السود ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ ويل يوم القيامة للمكذبين بوعيد الله ﴿ **هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ** ﴾ هذا يوم لا ينطق فيه المكذبون بعقاب الله ﴿ **وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ** ﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ممّا اجترموا في الدنيا من الذنوب ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ بوعيد الله ﴿ **هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ** ﴾ هذا يوم يفصل الله فيه بالحق بين عباده ﴿ **جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ** ﴾ جمعناكم فيه لموعدكم مع سائر من كان قبلكم من الأمم ﴿ **فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ** ﴾ فإن كانت لكم حيلة تحتالونها للتخلص من عقابه ، فاحتالوا اليوم ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ بوعيد الله ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ** ﴾ إن الذين اتقوا عقاب الله ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، هم في ظلالٍ ظليلة ، وفي عيون الماء الجارية ، تجري خلال جناتهم ﴿ **وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ** ﴾ وفواكه يأكلون منها كلما اشتهوا ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً** ﴾ يقال لهم : كلوا من هذه الفواكه ، واشربوا من هذه العيون، كلما اشتهيتم ، لا تكدير عليكم ولا تنغيص ﴿ **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ بما كنتم في الدنيا تعملون من طاعة الله ﴿ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ كذلك نجزي ونثيب أهل الإحسان على إحسانهم ، لا نضيع في الآخرة أجرهم ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ ويل للمكذبين بوعد الله ﴿ **كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً** ﴾ كلوا أيها المكذبون وتمتعوا ببقية أعماركم ﴿ **إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ** ﴾ إنكم مجرمون سأنتقم منكم كما انتقمت من مجرمي الأمم الخالية ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ الذين كذبوا خبر الله ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ** ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذبين : صلّوا لا يصلّون ، فهم مخالفون لله في أمره ونهيه ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ ويلٌ للذين كذّبوا رسل الله ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** ﴾ فبأي حديث بعد هذا القرآن يصدقون ؟ مع وضوح برهانه ، وصحة دلائله ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات »



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾

***

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عن أيِّ شيءٍ يتساءل هؤلاء المشركون ؟ وفيم يختصمون ؟ ثم أخبر تعالى فقال: ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم وهو البعث ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ الذي صاروا مختلفين فيه فريقين : فريق مصدِّق ، وفريق مكذب ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المنكرون للبعث ، سيعلم هؤلاء الكفار ما الله فاعل بهم يوم القيامة ، ثم أكّد الوعيد فقال : ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ثم كلاَّ سيعلمون إذا لقوا الله وأفضوا إلى ما قدَّموا من سيِّء أعمالهم أن الأمر ليس كما زعموا ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ﴾ ألم نجعل لكم الأرض مهاداً تمتهدونها وتفترشونها[1] ؟ ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ ونجعل الجبال أوتاداً للأرض ، أن تميد بكم ؟ ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ وخلقناكم ذكراناً وإناثاً ، وطوالاً وقصاراً ؟ ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ وجعلنا النوم راحة لكم ، تهدءون به وتسكنون ؟ ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾ وجعلنا الليل غطاء تغطيكم ظلمتُه ، لتسكنوا فيه عن التصرف ؟ ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ وجعلنا النهار لكم ضياء ، لتنتشروا وتتصرفوا فيه لمصالح دنياكم ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ وسقفنا فوقكم سبع سموات محكمة الخلق ، لا صدوع فيها ولا فطور ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ وجعلنا الشمس وقَّادة

(١) أشار تعالى في هذه الآيات الكريمة ، إلى دلائل قدرته ووحدانيته ، في خلق الأرض ، والجبال ، والليل ، والنهار ، وفي خلق =

وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾
يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ
جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا
وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ

* * *

مضيئة ﴿ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً** ﴾ وأنزلنا من السحب ماء منصباً ، يتبع بعضه بعضاً ﴿ **لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً** ﴾ لنخرج بالماء الحب الذي يُحصد ، والكلأ الذي يرعى من الحشيش والزرع ﴿ **وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً** ﴾ ولنخرج به البساتين الملتفة الأشجار ونخرج به الثمار ﴿ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً** ﴾ إن اليوم الذي يفصل الله فيه بين خلقه ، كان ميقاتاً معلوماً لهؤلاء المكذبين بالبعث ﴿ **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** ﴾ يوم ينفخ في القرن المعد للنفخ ﴿ **فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً** ﴾ فتجيئون زمراً زمراً ، وجماعةً جماعة ﴿ **وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً** ﴾ وشُقِّقت السماء وصُدِّعت ، فكانت طرقاً ، وكانت من قبلُ شداداً ﴿ **وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً** ﴾ ونسفت الجبال من أصولها ، فصيِّرت هباء منبثاً ، كالسراب الذي يظن من يراه أنه ماء ، وهو في الحقيقة هباء ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً** ﴾ إن جهنم ترقب من يجتازها وترصدهم ﴿ **لِلطَّاغِينَ مَآباً** ﴾ هي للذين تجاوزوا حدود الله منزلٌ ومرجعٌ ، يرجعون ويصيرون إليه ﴿ **لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً** ﴾ ماكثين في جهنم دهوراً لا تنقضي[1]، في عذاب متنوع ، **قال قتادة** : هذه الأحقاب لا انقطاع لها ، كلما مضى حِقْبٌ جاء حِقْبٌ بعده ﴿ **لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً** ﴾ لا يطعمون فيها برداً يُبرد حرَّ السعير عنهم إلا الغسَّاق ، ولا شراباً يرويهم من شدة العطش إلا الحميم ﴿ **إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً** ﴾ لا يشربون إلا ماءً حميماً قد أُغلي حتى انتهى حرُّه ، فهو كالمهل يشوي الوجوه ، ولا برداً إلا غساقاً وهو السائل الزمهرير ، الجامع مع شدة برده نتن رائحته ﴿ **جَزَاءً وِفَاقاً** ﴾ هذا العذاب للكفار ثواباً لهم على أفعالهم وأقوالهم الرديئة ، التي كانوا يعملونها في الدنيا ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً** ﴾ إن هؤلاء الكفار كانوا لا يخافون محاسبة الله إياهم في الآخرة على نعمه عليهم ﴿ **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً** ﴾ وكذبوا بحججنا وأدلتنا تكذيباً ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً** ﴾ وكل شيء كتبنا عدده

=السماوات السبع ، وإنزال المطر من السحاب ، وفي الشمس المضيئة التي تنير الكون ؛ وتُخرج الزرع والنبات . . الخ وكلُّ هذه براهين على وحدانية رب العالمين جلَّ وعلا .

(١) ليس المراد بالأحقاب هنا السنون المحدودة ، وإنما يُراد بها الدوام والخلود ، بدليل التنكير في قوله « أحقاباً » أي إلى غير نهاية ، ولهذا فسَّرها الطبري بقوله : دهوراً لا تنقضي ، جمعاً بين النصوص الكريمة الدالة على الخلود الأبدي كما قال تعالى ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ والله أعلم .

كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾
وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ
أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

* * *

ومبلغه ، وقدره كتاباً ، فلا يعزب عنا علم شيء منه ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ فذوقوا أيها القوم من عذاب الله ، الذي كنتم به تكذبون في الدنيا ، فلن نزيدكم إلا عذابًا على العذاب الذي أنتم فيه ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ إن للمتقين منجىً ومخلصاً من النار ، وظفراً بما طلبوا ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً﴾ بساتين من النخل والأشجار ، وكروم الأعناب ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾ ونساء عذارى نواهد ، في سنٍّ واحدة ﴿وَكَأْساً دِهَاقاً﴾ وكأساً ملأى[1] متتابعة على شاربيها ، بكثرةٍ وامتلاء ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً﴾ لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول ، ولا يكذِّب بعضُهم بعضاً ﴿ جَزَاءً مِن رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً ﴾ ثواباً من ربك على طاعتهم في الدنيا ، تفضلاً من الله عليهم ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ رب السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الخلق ﴿ الرَّحْمٰنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ الرحمن لا يقدر أحد من خلقه خطابه يوم القيامة ، إلاَّ من أذن له منهم وقال صواباً ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً ﴾ يوم يقوم الروح[2] « جبريل » والملائكة صفوفاً ﴿ لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ لا يتكلمون شيئاً إلا من أذن له الرب سبحانه ، وقال صواباً من الكلام ﴿ ذٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ يومُ القيامة هو اليوم الحق ، لأنه كائنٌ لا شك فيه ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً ﴾ فمن شاء من عباده ، اتخذ النجاة له من أهواله ، بالتصديق به والاستعداد له ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ إنا حذَّرناكم أيها الناس ، عذاباً قد دنا منكم وقرب ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه من خيرٍ أو شر ، فيرجو ثواب الله على صالح أعماله ، ويخاف عقابه على سيئها ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً ﴾ ويقول الكافر يومئذٍ تمنياً لما يلقى من عذاب الله يا ليتني كنت تراباً كالبهائم التي جعلت تراباً .

---

(١) المراد بالكأس الخمر أي كأساً من الخمر ممتلئةصافية، ومعنى الدِّهاق :الممتلئة قال تعالى : ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم﴾

(٢) ذكر الطبري أقوالاً عديدة في « الروح » ولم يرجّح قولاً منها ، والجمهور على أن المراد بالروح جبريل لقوله تعالى ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وقوله ﴿قل نزَّله روح القدس من ربك بالحقِّ . . ﴾ .



بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَٰتِ
أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ
أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

***

﴿ والنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ أقسمُ بالنازعات من كل نوعٍ إغراقاً ، كما يغرق النازع في القوس ﴿ والنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ﴾ وأقسمُ بالناشطات التي تنشط من موضع إلى موضع فتذهب[١] إليه ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ﴾ وأقسمُ باللواتي تسبح من خلق الله سبحاً ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾ وباللواتي تسبق من خلق الله سبقاً ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ فالملائكة المدبرة ما أُمرت به من أمر الله ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ يوم ترجف الأرض والجبال للنفخة الأولى ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ تتبعها النفخة الثانية ، « نفخة البعث » التي تردف الأولى ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قلوب بعض خلق الله يومئذ خائفة ، من عظيم الهول النازل ﴿ أَبْصَارُها خَاشِعَةٌ ﴾ أبصار أصحابها ذليلة ، ممَّا قد علاها من الكآبة والحزن ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ يقول المكذبون بالبعث : أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى ، فراجعون أحياء كما كنا قبل هلاكنا ؟ ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً ﴾ أئذا كنا عظاماً بالية فانية سنُرَدُّ ؟! ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ قال المكذبون بالبعث : تلك الرجعة بعد الممات رجعة خاسرة غابنة[٢] ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ فإنما هي صيحة ونفخة واحدةٌ ، تُنفخ في الصور ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ فإذا هم بوجه الأرض أحياء ، بعد أن كانوا أمواتا بباطنها ﴿ هَل

---

(١) لم يرجح الطبري بعض الأقوال حول « النازعات والناشطات » في الآيات الكريمة ، والأظهر أنها الملائكة ، فقد قال ابن كثير : أقسم سبحانه بالملائكة حين تنزع أرواح بني آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط. وهذا هو الراجح أنها ملائكة العذاب ، وملائكة الرحمة . كما قال الجمهور .

(٢) قال ابن زيد : وأيُّ كرَّةٍ أخسر منها ؟ أحيوا ثم صاروا إلى النار ، فكانت رجعة سَوْء .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ
هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ
وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ
وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا
فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾

* * *

أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ هل أتاك يا محمد حديث «موسى بن عمران»؟ وهل سمعت خبره ؟ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوَىً ﴾ حين ناجاه ربه بالوادي المطهر المبارك ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّه طغى ﴾ ناداه أن اذهب إلى فرعون مصر ، إنه عتا وتجاوز حده في العدوان ، والتكبر على ربه ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ فقل له : هل لك إلى أن تتطهر من دنس الكفر ، وتؤمن بربك !؟ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ وأرشدك إلى ما يرضي ربك ، إلى « الدين القيِّم» فتخشى عقابه ، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ فأرى موسى فرعون الدلالة الكبرى على أنه رسولٌ أرسله الله إليه ، وهي يده البيضاء ، وعصاه التي تحولت ثعباناً ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ فكذب فرعونُ موسى ، فيما أتاه من الآيات المعجزة ، وعصاه فيما أمره به من طاعة ربه ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ ثم ولَّى فرعون معرضاً عما دعاه إليه موسى ، وسعى يعمل في معصية الله وفيما يُسخطه ﴿ فَحَشَر فَنَادَى ﴾ فجمع قومه وأتباعه ، فنادى فيهم ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ فقال لهم : أنا ربكم الأعلى ، الذي كل رب دوني ﴿ فَأَخَذَه اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ﴾ فعاقبه الله عقوبة الأخيرة من كلمتيه وهي قوله « أنا ربكم الأعلى » وعقوبة الأولى وهي قوله « ما علمت لكم من إلَهٍ غيري » ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ إن في العقوبة التي عاقب الله بها فرعون في عاجل الدنيا ، وفي أخذه إياه عظة ومعتبراً لمن يخاف الله ، ويخشى عقابه ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ أأنتم أيها المكذبون بالبعث : أشدُّ خلقاً ، أم السماء رفعها فجعلها للأرض سقفاً ؟ فإنَّ من بنى السماء هيِّنٌ عليه خلقكم بعد مماتكم ، وليس خلقكم بعد مماتكم بأشد من خلق السماء ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ رفع بناءها فسوى السماء فلا شيء أرفع من شيء ، ولا شيء أخفض من شيء ، ولكن جميعها مستوي الارتفاع والامتداد ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ وأظلم ليل السماء ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ وأبرز نهارها ، فأظهره ، ونوَّر ضحاها ﴿والأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ والأرض بعد أن استوى إلى السماء بسطها ومدها

---

(١) انظر إلى هذا « الأسلوب الحكيم » في الدعوة إلى الله ، ففرعون الطاغية الجبّار ، الذي ادّعى الربوبية ونازع اللّهَ في ملكه ، يُؤمر موسى بأن يدعوه برفقٍ ولينٍ ﴿ فقلْ هلْ لكَ إلى أن تزكّى ﴾ !! وهذا هو أسلوب الدعوة إلى الله ، يجب أن يضعه كل داعيةٍ نصيب عينيه ، لتثمر دعوته وتدخل إلى القلب تلك النصيحة التي يريدها ، هدانا الله إلى ذلك .

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ
الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾
وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ
مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

* * *

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ فجر فيها الأنهار، وأنبت نباتها ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ والجبال أثبتها في الأرض ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ خلق هذه الأشياء منفعةً للناس، ومتاعاً إلى حين ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ فإذا جاءت الداهية، التي تطمُّ على كل هائلة فتغمر ما سواها، لعظيم هوْلها وهي القيامة ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسَانُ مَا سَعَى﴾ يوم يتذكر الإنسان ما عمل في الدنيا من خيرٍ وشرّ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ وأُظهرت نار الله لأبصار الناظرين ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى﴾ فأما من عتا على ربه وعصاه، واستكبر عن عبادته ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وفضَّل متاع الحياة الدنيا على كرامة الآخرة، فعمل للدنيا، وترك العمل للآخرة ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ فإن نار جهنم هي منزله ومأواه، ومصيرُه الذي يصير إليه يوم القيامة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ وأمَّا من خاف سؤال ربه له، عند وقوفه بين يديه يوم القيامة، فاتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ ونهى نفسه عن هواها، فزجرها وخالف هواها، إلى ما أمره به ربُّه ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ فإن الجنة هي منزله ومصيره يوم القيامة[1] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يسألك يا محمد المكذبون بالبعث عن الساعة، التي يُبعث فيها الموتى من قبورهم ﴿أَيَّان مُرْسَاهَا﴾ متى قيامها وظهورها؟ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ في أي شيءٍ أنت من ذكر الساعة، والبحث عن شأنها؟[2] ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ إلى ربك منتهى علمها، لا يعلم وقتَ قيامها غيرُه ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ إنما أنت يا محمد رسولٌ مبعوث بإنذار الساعة، مَنْ يخاف عقاب الله على إجرامه ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ كأن هؤلاء المكذبين بالقيامة، يوم يرونها قد قامت، لم يلبثوا في الدنيا إلا عشية يوم، أوضحى تلك الليلة، وذلك من عظيم هولها.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»

---

(١) ليضع الإنسان نفسه في هذا الميزان، فإنه «الميزان الدقيق» الذي يُعرف به السعداء من الأشقياء، وأهل الجنة من أهل النار، فمن تكبَّر في الدنيا وتجبَّر، وعصى أمر الله، وفضَّل شهوات الحياة على طاعة مولاه، فهو الشقي الخاسر، وأما من أطاع الله، ونهى النفس عما تهواه، وخاف الحساب يوم الدين، فهو التقي السعيد وصدق الله ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى. وأما مَنْ خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى﴾.

(٢) المراد أن علم الساعة ليس إليك، لأنها من الغيوب التي استأثر الله بعلمها، فلماذا تسأل عنها؟



بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ
ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾
فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾

* * *

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ قبض وجهه كراهيةً وأعرض[١] ﴿أن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ لأن الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» جاءه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ وما يدريك يا محمد لعل هذا الأعمى يتطهر من ذنوبه !! ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أو يعتبر فينفعه الاتعاظ ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أما من استغنى بماله ، فأنت تتعرض له رجاء أن يُسلم ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ وأيُّ شيءٍ عليك أن لا يتطهر من كفره فيسلم ؟ ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى﴾ وأما هذا الأعمى الذي جاءك سعياً ، وهو يتقي الله ويخشاه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ فأنت تُعرض وتتشاغل عنه بغيره ؟[٢] ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ليس الأمر كما تفعل يا محمد ، إنَّ هذه الآيات عبرةٌ وعظة ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ فمن شاء من عباد الله ، ذكرَ تنزيل الله ووحيه ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ

---

(١) أنظر إلى روعة القرآن وتدبُّر دقته وحكمته ، فلم يواجه الرسول ﷺ بضمير الخطاب مباشرة فيقول : «عبستَ يا محمد في وجه الأعمى وتولَّيتَ عنه» وإنما أتى بضمير الغائب ﴿عبس وتولى . أن جاءه الأعمى﴾ إجلالاً لمقامه الرفيع عند الله وتلطفاً به ، وتعليماً للأمة أن يخاطبوا الرسول عليه السلام بكل إجلال واحترام ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ..﴾ الآية .

(٢) كان ﷺ يطمع في إسلام رؤساء قريش رجاء أن يُسلم أتباعهم ، وكان ذات يوم مشغولاً معهم يدعوهم إلى الإسلام ، فجاءه «عبد الله بن أم مكتوم» وهو رجل أعمى وقال يا رسول الله : علِّمْني ممَّا علَّمك الله وكرَّر ذلك ، فكره ﷺ أن يقطع عليه كلامه وقال في نفسه : يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسَّفلة والعبيد !! فعبس في وجهه وأعرض عنه ، وأقبل على القوم يكلمهم ، فأنزل الله ﴿عَبَس وتولَّى . أن جاءه الأعمى﴾ الآيات ، فكان ﷺ بعد ذلك إذا جاءه يبسط له رداءه ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، وكان الفقراء في مجلسه أمراء . اهـ . وانظر تفصيل القصة في «صفوة التفاسير» ٥١٩/٣ .

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ
خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ
مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾
مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ
وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾

* * *

مُطَهَّرَةٍ ﴾ إنها في اللوح المحفوظ ، المرفوع المطهر عند الله ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ بأيدي الملائكة الذين هم سفراء بالوحي بين الله ورسله ، وهم كرام بررة ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ لُعن الإنسان الكافر ما أكفره !! ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ من أي شيء خلقه ربُّه ، حتى يتكبر ويتعاظم عن طاعته والإقرار بتوحيده !؟ ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ خلق الله الإنسان من نطفةٍ ، فقدَّره أحوالاً في بطن أمه ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ ثم يَسَّره للخروج من بطن أمه ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ثم قبض روحه فأماته، وصيَّره إلى القبر ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ ثم إذا شاء الله أحياه بعد مماته ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ كلاَّ لم يؤدِّ هذا الكافر ، ما فرض ربه عليه من الفرائض ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ فلينظر هذا المنكر إلى طعامه ، كيف دبَّره له ربُّه ؟ ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ﴾ أنا أنزلنا الغيث من السماء إنزالاً ، وصببناه على الأرض صباً ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً ﴾ ثم فتقنا الأرض ، فصَدَعناها بالنبات ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً . وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ فأنبتنا فيها ما أخرجته الأرض من الحبوب ، وكرم العنب ، والخضرة الرطبة ﴿ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْباً ﴾ والزيتون والنخل ، وأشجاراً في بساتينَ غلاظٍ كثيرة الأشجار ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ وأخرجنا ما يأكله الناس من ثمار الأشجار ، وما تأكله البهائم من العشب والنبات[1] ﴿ مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ الفاكهة متاع لكم ، والعشب لأنعامكم ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ فإذا جاءت نفخة القيامة[2] ، في هذا اليوم يفرُّ المرء فيه عن أخيه ، وأمه ، وأبيه[3]،وزوجته التي كانت في الدنيا ، وعن أبنائه

(١) الأَبُّ : هو ما تأكله البهائم من العشب ، قال ابن عباس : هو ما أنبتته الأرض مما تأكله البهائم والدواب كالحشيش ، وقال مجاهد : هو الكلأ . (٢) سميت صاخَّة لأنها تصخُّ الأذان حتى تكاد تصمُّها لشدتها ، فهي صيحة رهيبة .

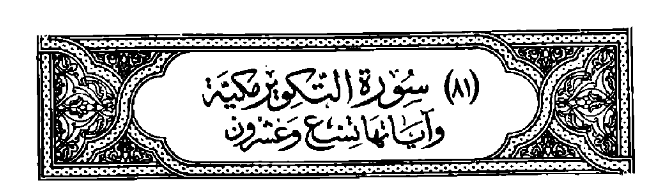
(٣) ما أعظم هوْل ذلك اليوم ، وما أشدَّ كربته !! حتى إن الإنسان ليهرب فيه من أعز الناس إليه ،وأحبِّهم لديه ، من أمه وأبيه ، وزوجه وأخيه ، وأولاده الذين كان يفديهم بالروح والمال ! اللهمَّ نجِّنا من أهوال ذلك اليوم الرهيب .

لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

* * *

حذراً من مطالبتهم إياه بالتبعات والمظالم ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ لكل واحد من هؤلاء يوم القيامة ، أمرٌ يشغله عن شأن غيره ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ وجوه المؤمنين الذين رضي الله عنهم يوم القيامة مشرقةٌ مضيئة ﴿ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ ضاحكة من السرور بما أعطاها الله من النعيم والكرامة ، مستبشرة لما ترجو من الزيادة ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ ووجوه الكفار يومئذ يعلوها الغبار ، يغشاها ويغطّيها ظلمةٌ وسواد ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ هؤلاء هم الكفرة بالله في الدنيا ، الفجرة في دينهم ، لا يبالون ما أتوا به من معاصي الله ، وركبوا من محارمه ، ولذلك جازاهم الله بسوء أعمالهم .

* * *



(٨١) سورة التكوير مكية وآياتها تسع وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾

* * *

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إذا الشمس لُفّت ، ورمي بها فذهب ضوءها[1] ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ وإذا النجوم تناثرت من السماء فتساقطت ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ وإذا سيَّر الله الجبال ، فكانت سراباً وهباءً منبثاً ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ وإذا الحوامل من الإبل التي يتنافس أهلها فيها ، أُهملت فتُركت من

(١) هذه السورة الكريمة إحدى السور الثلاث التي تتحدث بالتفصيل عن أهوال يوم القيامة ، وفي الحديث الذي رواه أحمد عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عينٍ فليقرأ ﴿إذا الشمسُ كُوِّرتْ﴾ و ﴿إذا السَّماءُ انفطرتْ﴾ و ﴿إذا السَّماءُ انشقَّتْ﴾ ».

وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾
بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾
وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾
وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾

* * *

شدة الهول النازل بهم ، فكيف بغيرها ؟ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ وإذا الوحوش جمعت فأميتت ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ وإذا البحار ملئت حتى فاضت ، فانفجرت وسالت[1] ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ وإذا أُلحِقَ كل إنسان بشكله ، وقُرِن بين الأمثال ، في الخير والشر ، فقرن بين الرجل الصالح والرجل الصالح في الجنة ، وبين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وإذا المدفونة حيةً سُئلت: ما هو الذنب الذي اقترفته حتى قتلت[2] ؟ ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ وإذا نشرت صحف أعمال العباد ، على ما فيها من الحسنات والسيئات ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ وإذا السماء نُزِعت من مكانها ، وجُذِبتْ ثم طُوِيت ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ وإذا أُوقد على الجحيم فأُحميت ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ وإذا الجنة قُرِّبت وأُدنيت ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ علمت نفسٌ عند ذلك ما أُحضرت من خيرٍ ، فتصير به إلى الجنة ، أو شرٍّ فتصير به إلى النار ، ويتبيَّن للإنسان عند ذلك ما كان فيه صلاحه من غيره ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ فأُقسمُ بكل ما كانت صفتُه الغيابُ بعد الظهور، ثم الجرْيُ فتأوي إلى مواضعها[3] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ وأُقسمُ بالليل إذا أدبر[4] ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ وأُقسم

---

(١) نقل الإمام ابن جرير أقوال العلماء في هذه الآية كعادته ، ثم رجح ما نقلته عنه معللاً ذلك : بأن العرب تقول للنهر المملوء مسجور ، ولقوله تعالى : ﴿وَإذا البِحارُ فُجِّرَتْ﴾ .

وقال بعض المفسرين بأن المراد :وإذا البحار تأججت ، وصارت نيراناً تضطرم ، وهذا المعنى أكثر استعمالاً في العربية ، وهو الأظهر والله أعلم .

(٢) السؤال للموءودة إنما يراد به التوبيخ لقاتلها ، فتُسأل يوم القيامة حتى يظهر أنها قتلت بدون حق ، وإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذاً ؟ هل يترك من الحساب والعقاب ؟

(٣) عمَّم الإمام الطبري المعنى بأنه قسمٌ بكل ما يغيب ويظهر ، ثم يختفي في مكانه ، ونُقل عن ابن عباس ومجاهد والحسن أن الآية قسمٌ بالنجوم المضيئة التي تظهر بالليل وتختفي بالنهار ، وتجري مع الشمس والقمر ، ثم تستتر وقت غروبها في « كناسها » وهو المكان الذي تأوي إليه الظباء ، ولعل هذا المعنى أولى والله أعلم .

(٤) قال الراغب : ﴿والليل إذا عسعس﴾ أي أقبل وأدبر ، وذلك في مبدأ الليل ومنتهاه فالعسعسة والعساس رقة الظلام ، وذلك في طرفي الليل . المفردات في غريب القرآن (٣٣٤) قال في الصفوة : أي إذا أقبل بظلامه حتى غطى الكون . وقال: وهذا أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه قال : أقسم بالليل حينَ يقبل بظلامه وبالنهار حين يقبل بضيائه وهو اختيار ابن كثير . اهـ .

إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾
فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

* * *

بضوء النهار ، إذا أقبل وتبيَّن ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ إن هذا القرآن لتنزيلُ جبريل ، نزَّله على محمد ابن عبدالله ﷺ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وجبريلُ ذو قوة على ما كُلِّف به من أمر ، ذو مكانةٍ رفيعة عند رب العرش العظيم ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وجبريل تطيعه الملائكة في السماء ، وهو أمينٌ عند الله على وحيه ورسالته ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ وما محمد المرسل إليكم أيها الناس يتكلم عن جنون ، ويهذي هَذَيان المجانين ، بل جاء بالحق وصدَّق المرسلين ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ولقد رأى محمدٌ جبريلَ في صورته الملكيَّة من قبل المشرق ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ وما محمد على ما علَّمه الله من وحيه وتنزيله ، ببخيلٍ بتعليمكم إياه ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وما هذا القرآن بقول شيطانٍ ، ملعونٍ مطرودٍ من رحمة الله ، ولكنه كلام الله ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ فأين تذهبون عن هذا القرآن ، وتعدلون عنه ؟! ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ما هذا القرآن إلا تذكرةٌ وعظةٌ للعالمين ، من الجنِّ والإنس ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ لمن شاء منكم أن يستقيم على طريق الحق ، فيتَّبعه ويؤمن به ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وما تشاءون ـ أيها الناس ـ الاستقامةعلى الحق ، إلا أن يشاء الله لكم ذلك ، فاطلبوا من الله الهداية والتوفيق .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التكوير »

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ
فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾

* * *

﴿ إِذَا السَّماءُ انفَطَرَتْ ﴾ إذا السماء انشقت ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ وإذا النجوم تساقطت ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ وإذا فجَّر الله البحار بعضها في بعض ، فملأ جميعَها ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ وإذا القبور أُثيرت ، فاستُخرج من فيها من الموتى أحياء ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ علمت كل نفس ما قدمت لذلك اليوم من عملٍ صالحٍ ، وما أخَّرت من شيء سَنَّه فعُمِل به بعده ﴿ يا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ يا أيها الإنسان الكافر ، ما خدعك بربك الكريم ، فعصيته بجهلك وحُمقك !! ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ الذي خلقك أيها الإنسان فسوّى خلقك ، فجعلك معدَّل الخلق مقوَّماً[1] ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ في أي صورةٍ قبيحةٍ أو حسنةٍ شاء الله أوجدك ،**قال قتادة:** إن شاء في صورة كلب ، وإن شاء في صورة حمار ، وإن شاء في صورة خنزير[2] ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ ليس الأمر كما يقول الكافرون ، ولكنكم تكذبون بالثواب والعقاب ، والجزاء والحساب ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ وإن عليكم رقباء من الملائكة ،

---

(١) المراد جعلك سوياً سالم الأعضاء ، معتدل القامة ، في أحسن الهيئات والأشكال .

(٢) هذا ما قاله بعض السلف أن الآية وردت مورد التهديد وأنه تعالى قادرٌ على أن يخلقه في أي صورةٍ شاء ، صورة كلب ، أو حمار ، أو قرد ، أو خنزير ، فهو تعالى لو أراد لفعل ، ولكنه بقدرته ، ورحمته وحكمته ، خلقه بشكل حسنٍ مستقيم ، معتدل القامة ، في أحسن صورة ، أفلا يشكر ربه على هذا الخَلْق الحسن الجميل ؟ وقال بعض المفسرين : المعنى في أيِّ صورة شاءها واختارها لك ، من الصور الحسنة العجيبة الجميلة ، خلقك وركَّبك ، ولم يجعلك في الشكل كالدابة والبهيمة ، ويؤيده قوله تعالى﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ وهذا المعنى أظهر والله أعلم .

كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ
ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

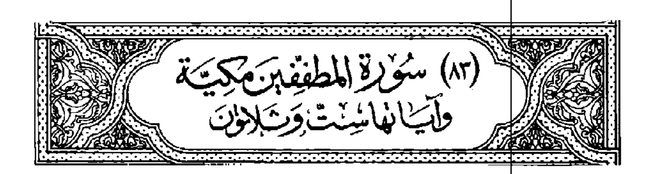
* * *

يحفظون أعمالكم ، ويحصونها عليكم ﴿كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ كراماً على الله يكتبون جميع أعمالكم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعلمون ما تفعلون من خيرٍ أو شرٍ ، يُحصون ذلك عليكم ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إن الذين برُّوا ربهم ، بأداء فرائضه،واجتناب معاصيه ، لفي نعيم الجنان يُنَعَّمون فيها ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وإن الذين كفروا بربهم ، لفي نارٍ مُحرقة ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ يصلون الجحيم يوم يحاسبون بالأعمال ، فَيُجازون بها ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ وما هم بخارجين عنها أبداً ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ وما أشعرك يا محمد أيُّ شيءٍ يومُ الحساب والمجازاة ؟ معظماً من شأنه[1] ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ثم أيُّ شيءٍ يومُ الحساب والمجازاة يا محمد؟ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً﴾ يوم لا تُغْني نفسٌ عن أخرى شيئاً ، فتدفع عنها مصيبة نزلت بها ، ولا تنفعها بنافعة ، وقد كانت في الدنيا تحميها وتدفع عنها ﴿والأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للَّهِ﴾ والأمر كله يوم القيامة لله ، دون سائر خلقه ، فليس لأحد معه يومئذٍ أمرٌ ولا نهي .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار »

* * *

(١) هذا الأسلوب ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ؟ للتهويل والتعظيم من شأنه ، كأنه يقول : هل تدري أيُّ شيءٍ هو في فظاعته وهوله ؟ كما كرره تعظيماً لشأنه وتهويلاً فقال ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ ؟



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾
أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

* * *

﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ**﴾ الوادي الذي يسيل من صديد[1] أهل جهنم ، للذين يُنقِصون النَّاسَ حقوقَهم ، في مكاييلهم أو في موازينهم عن الواجب لهم ﴿**الَّذِين إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ**﴾ الذين إذا اكتالوا من الناس ما لهم من حقٍّ ، يستوفونه لأنفسهم فيكتالونه منهم وافياً ﴿**وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾ وإذا هم كالوا للناس ، أو وزنوا لهم ، يُنقصونهم حقَّهم ﴿**أَلَا يَظُنّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ ألا يظن هؤلاء المطفِّفون ، أنهم مبعوثون بعد مماتهم ، ليوم عظيمٍ شأنُه ، هائلٍ أمرُه ، فظيعٍ هوْلُه ؟ ﴿**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ يوم يقف الناس لرب العالمين ، حتى يُلجمهم العَرَقُ ﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**﴾ ليس الأمر كما يظن الكفار أنهم غير مبعوثين ولا معذبين ، إن كتابهم الذي كتب فيه أعمالهم ، حبيسٌ في الأرض السفلى ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ**﴾ وأيُّ شيءٍ أدراك يا محمد ما هو ذلك الكتاب؟ ﴿**كِتَابٌ مَرْقُومٌ**﴾ هو كتاب مكتوب ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ ويل يومئذ للذين يكذبون بهذه الآيات ﴿**الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ**﴾ الذين يكذبون بيوم الحساب والمجازاة ﴿**وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**﴾ وما يكذب بيوم الدين ، إلا كل من اعتدى على الله ، فخالف أمره ، كثير المعاصي والآثام ﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ**

---

(١) كلمة « ويل » في اللغة تستعمل للعذاب ، والهلاك ، والدمار ، والإمام الطبري رحمه الله يفسرها حيث وردت في القرآن بأنها وادٍ في جهنم يسيل منه صديد أهل النار .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي
ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾

* * *

آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إذا قرئت عليه حججنا وأدلتنا ، التي بيناها في كتابنا ، قال : هذا ما سطّره وكتبه الأولون من الأحاديث والأخبار ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قلوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ كلّا ، ما ذلك كذلك ، ولكنه غلب على قلوبهم وغمرتها وغطّتها الذنوب[1] ، فلا تعرف الحق من الباطل ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ كلّا ما الأمر كما يقول هؤلاء المكذبون إنهم يومئذٍ لا يرون ربهم ، ولا يصل إليهم شيءٌ من كرامته ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ثم إنهم لداخلوا الجحيم ، فمشوون فيها ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ثم يقال لهم : هذا العذاب هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تُنكرونه ، فذوقوه اليوم ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ كلا إن كتاب الذين برُّوا ربهم ، لفي عُلوٍّ وارتفاع ، لا يعلم أحد منتهاه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ وأيُّ شيءٍ أشعرك يا محمد ما عليون ؟ ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ كتابٌ مكتوبٌ بأمانٍ من الله ، للبرِّ من عباده من النار ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ شهد ذلك الكتاب المقربون من ملائكة الله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إن الذين بروا باتقاء الله ، لفي نعيمٍ دائمٍ في الجنان ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ على السرر المزدانةِ باللؤلؤ والياقوت ، ينظرون ما أعطاهم الله من الكرامة والنعيم ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ تعرف في وجوه الأبرار حسن النعيم وبريقه ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ يُسْقون من خمرٍ صِرفٍ ، لا غش فيها ، طيبة الرائحة ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ آخره وعاقبتُه مسكٌ ، يُختم لهم في آخر شرابهم بريح المسك ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ وفي هذا النعيم الموصوف ، فلْيستبقوا في طلبه ، ولْتَحرصْ عليه نفوسُهم ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ ومزاج هذا الرحيق ، من عينِ ماءٍ ، تنحدر عليهم من فوقهم ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ يشرب من هذه العين المقربون من الله صِرْفاً ، وتُمزج لسائر أهل الجنة ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ إن الذين اكتسبوا المآثم

(١) في الحديث الصحيح « إن العبد إذا أخطأ خطيئةً ، نُكتتْ في قلبه نكتةٌ سوداء ، فإذا هو نزع ـ رجع عن ذنبه ـ واستغفر الله وتاب صُقل قلبُه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه ، وهو الرَّانُ الذي ذكر الله في كتابه ﴿ كلَّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ رواه الترمذي

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

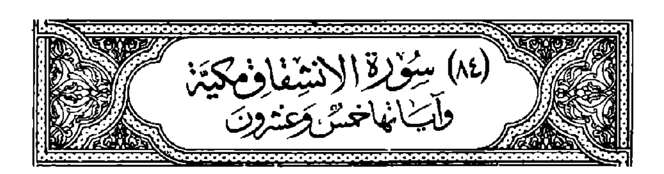
* * *

فكفروا بالله ، كانوا في الدنيا يضحكون من الذين صدَّقوا بوحدانية الله ، استهزاءً بهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ وإذا مرَّ المؤمن بهم ، يغمز بعضهم بعضاً ، سخريةً به ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ وإذا انصرف المجرمون إلى أهلهم من مجلسهم ، انصرفوا ناعمين معجبين بسخريتهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُم قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾ وإذا رأوا المؤمنين قالوا : إن هؤلاء لضالون عن محجة الحقِّ ، وسبيل القصد ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ وما جُعل هؤلاء الكفار ، حافظين رقباء على المؤمنين بأعمالهم ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ فيوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ على سررهم المزدانة وهم في الجنة . ينظرون إليهم ، والكفارُ يعذبون في النار[1] ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هل أثيب الكفارُ وجوزوا ، على ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين من السخرية والضحك ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين »

* * *

(١) روي أن خزنة جهنم تفتح أبواب النار للكفار ويقال لهم : اخرجوا ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا أليها يريدون الخروج منها ـ والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ـ فإذا وصلوا إلى أبوابها أغلقت دونهم ، فيضحك منهم المؤمنون ، فذلك قوله تعالى ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون﴾ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾
وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

* * *

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ إذا السماءُ تصدَّعت وتقطَّعت ، فكانت أبواباً ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ وسمعت السموات أمر ربها في تصدُّعها ، وأطاعت له ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وحُقَّ لها أن تسمع وتستجيب ، فقد أوجب الله عليها الاستماع بالانشقاق ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّت ﴾ وإذا الأرض بُسطت فزيد في سعتها ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ وألقت الأرض ما في بطنها من الموتى ، وتخلَّت عنهم ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ وسمعت الأرض أمر ربها في ذلك وأطاعته ، وحُقَّ لها أن تستمع لأمره جلَّ وعلا وتطيع ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ﴾ يا أيها الإنسان إنك ساعٍ إلى ربك ، وعاملٌ عملاً فملاقيه به ، خيراً كان أم شراً ، فليكن عملك فيما ينجيك من سخطه ، ويوجب لك رضاه ﴿ فَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ فأما من أُعطي كتاب أعماله بيمينه ، فسوف يحاسبه ربه حساباً يسيراً ، بأن ينظر في أعماله فيغفر له سيئها ويجازيه على حسنها[1] ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ وينصرف هذا

---

(١) المراد بالحساب اليسير هو العرضُ ، تُعرض على المؤمن أعماله يوم القيامة ، فيقول الله تعالى له : فعلتَ يوم كذا ، كذا وكذا ، فيقول نعم يا رب ، فيقول الله له : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، وحين سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ يقول « من حُوسب عُذِّب » قالت : أوليس الله يقول ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ فقال لها ﷺ: « إنما ذاكِ العَرْضُ ، ولكنْ من نوقش الحساب عُذِّب » وانظر صفوة التفاسير ٣/٥٨٣

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا
ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾
۩ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

* * *

المحاسب إلى أهله في الجنة مسروراً ، بفضل الله عليه ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً** ﴾ وأما من أعطي كتابه بشماله من وراء ظهره ، فسوف ينادي بالهلاك فيقول : **واثبوراه واويلاه** ﴿ **وَيَصْلَى سعيرًا** ﴾ ويَرِد النار فيحترق فيها ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً** ﴾ إنه كان في الدنيا بين أهله وذويه مسروراً ، في مخالفته أمر الله ، وركوبه معاصيه ﴿ **إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَن يَحُورَ** ﴾ إنه ظنَّ أن لن يرجع إلينا ، ولن يبعث بعد مماته ، فلم يكن يبالي ما ركب من المآثم ﴿ **بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً** ﴾ بل ليرجعنَّ إلى ربه حياً ، كما كان قبل مماته ، وإن ربه كان بصيراً بما كان يعمل في الدنيا من المعاصي ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ** ﴾ فأقسمُ بالحمرة التي تكون في الأفق ، عند غروب الشمس ﴿ **وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ** ﴾ وأقسم بالليل وما جمع فيه من ذي روحٍ . أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلاً ﴿ **وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ** ﴾ والقمر إذا تمَّ واستوى ﴿ **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ** ﴾ لتلاقون ـ أيها الناس ـ من شدائد يوم القيامة وأهواله ، حالاً بعد حال ، وأمراً بعد أمر ﴿ **فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ فما لهؤلاء المشركين لا يصدِّقون بتوحيد الله ، ولا يقرون بالبعث بعد الموت ؟ ﴿ **وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ** ﴾ وإذا قرىء عليهم كتاب ربهم ، لا يخضعون ولا يستكينون ؟ ﴿ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ** ﴾ بل الذين جحدوا وحدانية الله ، يكذِّبون بآياته وتنزيله ﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ** ﴾ والله أعلم بما تكتمه صدور هؤلاء المشركين ، من التكذيب بكتاب الله ورسوله ﴿ **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ فبشِّرْ يا محمد هؤلاء المكذبين ، بعذابٍ موجعٍ لهم عند الله ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ إلَّا الذين تابوا منهم ، وصدَّقوا بنبوة محمد ﷺ وبالبعث بعد الممات ، وأدَّوا فرائض الله ، واجتنبوا ما حرَّم الله عليهم ﴿ **لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ لهؤلاء ثوابٌ غير محسوبٍ ، ولا منقوصٍ ، ولا مقطوعٍ ، بل هو دائمٌ مستمر .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق »

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾
النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ
إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

***

﴿ والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ أُقسمُ بالسماءِ ، ذاتِ منازلِ الشمس والقمر ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ وأُقسمُ بيوم القيامة ، الذي وعدته عبادي ، لفصل القضاء بينهم ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ وأقسمُ بكل شاهدٍ ومشهود[1] ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ لُعن أصحاب الأخدود ، الذين ألقوا المؤمنين والمؤمنات في الأخدود فأحرقوهم[2] ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ النار ذات الحطب واللهب ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ حين الكفار من أصحاب الأخدود ، قعود على شفير الأخدود ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ وهم حضورٌ لإحراق المؤمنين ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ وما وجد هؤلاء الكفار على المؤمنين والمؤمنات ، فأحرقوهم بالنار ، إلاّ من أجل أنهم آمنوا بالله ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ الشديد في انتقامه ممن انتقم منه ، المحمود بإحسانه إلى خلقه ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الذي له سلطان السموات السبع ، والأرضين وما فيهنّ ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ والله شاهدٌ لفعل هؤلاء الكفار ، وهو مجازيهم جزاءهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ إن الذين ابتلوا المؤمنين

(١) قال ابن كثير : الأكثرون على أن الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة .ا هـ ورجح الطبري العموم في كل شاهد ومشهود .

(٢) وتتلخص القصة في أن ملكاً كافراً آمن قومه بالله ، فحفر لهم خندقاً كبيراً وملأه بالنار ، وأجبرهم على النزول إليه إن لم يرجعوا عن دينهم . وتفصيل القصة في صحيح مسلم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

* * *

والمؤمنات ، بتعذيبهم وإحراقهم بالنار ، ثم لم يتوبوا من كفرهم ، وفعلهم هذا ﴿ **فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ فلهم عذاب جهنم في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ إن الذين أقروا بتوحيد الله ، وعملوا بطاعته ، لهم في الآخرة عند الله ، بساتينُ تجري من تحتها الأنهار ، من الماء ، والخمر ، واللَّبن ، والعسل ﴿ **ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** ﴾ هذا هو الظفر الكبير ، بما طلبوا والتمسوا من رضى الله ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴾ إن انتقام ربك يا محمد من خلقه لشديد ﴿ **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ** ﴾ إن الله يُبدئُ العذاب ، لأهلِ الكفر به في الدنيا ، ويُعيده لهم في الآخرة[1] ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ** ﴾ وهو ذو المغفرة لمن تاب من ذنوبه ، وذو المحبة لعباده التائبين ﴿ **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ** ﴾ واللهُ صاحبُ العرش الكريمُ ﴿ **فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** ﴾ هو غفَّارٌ لذنوب من شاء من عباده إذا تاب ، ومعاقبٌ من أصرَّ عليها ، لا يمنعه مانعٌ من فعل شيءٍ أراده ، لأن له ملك السمواتِ والأرض ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ** ﴾ هل جاءك يا محمد خبر الذين تجنَّدوا على الله ورسوله ، بأذاهم ومكرهم ، ماذا فعلتُ بهم ؟ ﴿ **فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ** ﴾ هم فرعون وقومُه ، وقوم ثمود أيضاً ﴿ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ** ﴾ بل هؤلاء الكافرون في تكذيبٍ بوحي الله وتنزيله ، إيثار منهم لأهوائهم ، واتباعاً منهم لسنَنِ آبائهم ﴿ **وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُحِيطٌ** ﴾ والله محيط بأعمالهم ، لا يخفى عليه منها شيء ، وهو مجازيهم على جميعها ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ** ﴾ ما يأتيكم محمدٌ بشعرٍ ، ولا سجع ، بل هو قرآنٌ كريم ﴿ **فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴾ وهو مثبتٌ في لوح محفوظٍ ، من التغيير والتبديل .

* * *

(١) هذا ما رجحه الإمام ابن جرير ، وذلك لأن الله أتبع ذلك قولَه ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ ، فكان للبيان عن معنى شدة بطشه ، بينما رجح غيره تفسير ذلك ، بأن الله يبدأ الخلق من العدم ، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ، وهو اختيار ابن كثير والجمهور وهو الأظهر والله أعلم .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾
فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ
لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾

* * *

﴿ والسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ أُقسِم بالسماء ، وبالنجوم المضيئة فيها ، التي تطرق ليلاً وتختفي نهاراً ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ وما أشعرك يا محمد ما الطارق الذي أقسمت به ؟ ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ هو النجم المتوقد ضياؤه المتوهج ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ما كل نفس إلا عليها حافظ من ربها ، يحفظ عملها ، ويحفظ عليها ما تكسب من خيرٍ أو شرٍ ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ فلينظر الانسان المكذّب بالبعث ، المنكر قدرة الله ، من أيِّ شيءٍ خلقه ربه ؟ ﴿ خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ خلق الإنسان من ماءٍ متدفق ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ ﴾ يخرج من بين صلب الرجلِ ، وترائب المرأة[1] ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ إن الله قادرٌ على ردِّ الإنسان حياً ، كهيئته قبل مماته[2] لا يعجزه شيءٌ ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ يوم تختبر سرائر العباد ـ ضمائرهم ـ فيظهر منها ما كان مستخفياً عن أعين الناس ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ فما للإنسان الكافرِ يومئذٍ قوة يمتنع بها من عذاب الله ، ولا ناصرٌ ينصره فيستنقذه ممن ناله بمكروه

---

(١) الترائب: عظام الصدر جمع تريبة مثل فصيلة وفصائل، قال ابن كثير : ترائب المرأة يعني صدرها وهو قول ابن عباس ومجاهد .

(٢) في الآية قولان :

أحدهما : إن الله على رجع هذا الماء الدافق ، إلى مكانه الذي خرج منه لقادر ، وهو قول مجاهد وعكرمة .

والثاني : إن الله على إعادة هذا الإنسان بعد موته ، وإحيائه بعد فنائه لقادر ، وهو قول الضحاك واختاره ابن جرير وهو الظاهر .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ
كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾



﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ وأقسم بالسماء التي ترجع بالغيوم والأمطار ، وأرزاق العباد كل عام ﴿ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ وبالأرض التي تتشقق بالنبات ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ إن هذا الخبر[1] ، لقولٌ يفصل بين الحق والباطل ببيانه ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ وما هو باللعب ولا الباطل ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ إن هؤلاء المكذبين بالله ورسوله ، يمكرون مكراً ﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ وأمكر بهم مكراً ، بأن أمهلهم على معصيتهم وكفرهم ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ فمهِّلِ الكافرين يا محمد ، ولا تعجلْ عليهم ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ أمهلهم قليلاً ، وأنْظِرهم إلى وقت حلول النقمة بهم ، فسوف ترى ما أصنع بهم .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

* * *

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ عظِّمْ اسم ربك ، ونزِّهْه أن تدعو به الآلهة والأوثان ، كما فعل المشركون ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ الذي خلق الأشياء كلها ، فسوَّى خلقها ، وعدَّلها في أجمل الصور ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ والذي قدَّر خلقه ، فهداهم إلى ما فيه خيرهم وما فيه معاشهم ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴾ والذي أخرج من الأرض مرعى الأنعام ، من صنوف النبات ، وأنواع الحشيش ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً

(١) وقيل المراد : إن هذا القرآن لقولٌ فاصل بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، قد بلغ الغاية في البيان والتشريع والإعجاز ، وهو أظهر مما قاله الطبري .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ
فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

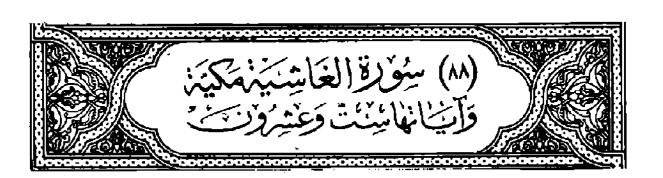
***

أَحْوَىٰ ﴾ فجعله جافاً يابساً ، تطير به الريح ، بعد أن كان أخضر زاهياً ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴾ سنقرئك يا محمد هذا القرآن فلا تنساه ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ إلا ما شاء الله أن ينسيك إيّاه ، بنسخه ورفعه ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ إن الله يعلم جميع أعمالك ، سرَّها وعلانيتها ، فاحذر أن تعمل بغير الذي أذن لك به ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ ونسهِّل لك عمل الخير ، ونيسِّره لك ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ فذكِّرْ يا محمد عبادَ الله عظمته ، وعظْهم وحذِّرْهم عقوبته ، والذين أخبرتك أنهم لا يؤمنون ، فلا تنفعهم الذكرى[1] ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ سيذكر من يخاف عقاب الله ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَىٰ ﴾ ويتجنب الذكرى أشقى الفريقين ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴾ الذي يرد نار جهنّم ، الشديدة الحرِّ والألم ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ ثم لا يموت في النار ولا يحيا ، لأن نفس أحدهم تصير في حَلْقه ، فلا تخرج فيموت ، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا[2] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ قد نجح من تطهَّر من الكفر والمعاصي ، وعمل بما أمره الله به ، فأدّى فرائضه ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّه فَصَلَّىٰ ﴾ وذكر اللّه فوحَّده ودعاه ، وصلَّى الصلوات وذكر الله فيها بالتحميد ، والتمجيد ، والدعاء ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ بل تفضلون ـ أيها الناس ـ زينة الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وزينة الآخرة خيرٌ لكم وأبقى ، لأن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ إن هذه المواعظ المذكورة في السورة ، ممَّا ذُكر في الكتب الأولى ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ كتب إبراهيم خليل الرحمن ، وصحف موسى بن عمران ، عليهما الصلاة والسلام .

---

(١) هكذا فسَّره ابن جرير ، وقال ابن كثير : أي ذكِّرْ حيث تنفع التذكرة ، ومن هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ، فلا يضعه في غير أهله ، كما قال عليٌّ رضي الله عنه : حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُهُ ؟

(٢) معنى قوله تعالى ﴿لا يموت فيها ولا يحيا﴾ أنه لا يموت فيستريح ، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة ، بل هو دائم في العذاب والشقاء ، قال الطبري : العرب إذا وصفت الرجل بوقوعه في شدَّة شديدة قالوا : لا هو حيٌّ ولا هو ميِّتٌ ، فخاطبهم الله بما يعرفون .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ
آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾
لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾

* * *

﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ** ﴾ هل أتاك يا محمد قصة القيامة ، التي تغشى الناس بالبلاء والأهوال ؟ ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ** ﴾ وجوهُ أهل الكفر يوم القيامة ذليلةٌ ﴿ **عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ** ﴾ عاملةٌ في النار ، ناصبةٌ فيها - أي متعبة - بجرِّ الأغلال والسلاسل[١] ﴿ **تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً** ﴾ ترِد هذه الوجوه ناراً ، قد حميت واشتدَّ حرها ﴿ **تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ** ﴾ تُسقى من شرابِ عينٍ ، بَلَغ غايته في شدة الحر ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ** ﴾ ليس لهؤلاء يوم القيامة طعامٌ ، إلا ما يطعمونه من نبات الضريع ، وهو سمٌّ قاتل **قال ابن عباس** : هو شجرٌ من النار ، **وقال قتادة** : هو شرُّ الطعام وأبشعه وأخبثه ﴿ **لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ** ﴾ لا يُسمن هذا الضريع آكليه يوم القيامة ، ولا يُشبعهم من جوعٍ يصيبهم ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ** ﴾ وجوه أهل الإيمان يوم القيامة ، ناعمة بتنعيم اللَّهِ أهلَها في جناته ﴿ **لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ** ﴾ لثواب عملها الذي عملته في الدنيا ، راضيةٌ في الآخرة ﴿ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** ﴾ في بستانٍ فسيحٍ رفيع ﴿ **لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً** ﴾ لا يسمع أهل الجنة في الجنة كلمة باطل ﴿ **فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ** ﴾ في الجنة عينٌ جاريةٌ في غير أخدود ﴿ **فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ** ﴾ في الجنة سُررٌ رُفعت ، ليرى المؤمن ببصره ما خَوَّله ربه من النعيم[٢] ، إذا جلس عليها

---

(١) هذه الآية في الكفار يتعبون ويشقون بجرّ السلاسل والأغلال في النار ، وبالصعود والهبوط في دركاتها كما قال تعالى ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل . يُسحبون في الحميم . ثم في النار يُسجرون﴾ .

(٢) قال ابن كثير : أي عالية ناعمة ، مرتفعة السُّمك عليها الحور العينُ ، فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس عليها تواضعت له .

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾
وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ
إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

* * *

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ وأكواب موضوعةٌ على حافَّة العين الجارية ، كلَّما أرادوا الشرب وجدوها ملأى من الشراب ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ ووسائدُ ومرافقُ ، بعضُها بجنب بعض ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ وفيها طنافسُ ذا خَمَلٍ رقيق ، وبُسطٌ كثيرةٌ مفروشة ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ أفلا ينظر هؤلاء المنكرون إلى الإبل كيف خلقها الله ، وسخَّرها وذلَّلها لهم ، وجعلها تحمل حملها باركةً ، ثم تنهض به ؟ ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ وإلى السماء كيف رفعها الله ، فيعلموا أن قدرته كاملة ، وأنه لا يعجزه فعل شيء أراده ؟ ﴿ وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ وإلى الجبال كيف أقيمت منتصبةً ، جامدة ، لا تبرح مكانها ، ولا تزول عن موضعها ؟ ﴿ وَإِلَىٰ الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ وإلى الأرض كيف بُسطت ؟ أليس الذي خلق هذا بقادر على أن يخلق ما أراد في الجنة ؟ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فذكر يا محمد عبادي ، وبلِّغْهم رسالتي ، فإنما أرسلناك إليهم لتذكرهم وتعظهم ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ لست عليهم بمسلط ، ولا أنت بجبار تحملهم على ما تريد ، فكِلْهم إلي ، ودعهم وحكمي فيهم ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ إلَّا من تولَّى منهم عنك ، وأعرض عن آيات الله فكفر بها ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ فيعذبه الله عذاب جهنم في الآخرة ، على كفره بربه في الدنيا ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ إن إلينا رجوعهم ومعادهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ ثم إن على الله حسابهم ، فيجازيهم بما سلف منهم من معصية ربهم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية »

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟
ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾

* * *

﴿ **وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾ أُقسم بفجر الصبح ، وبليال عشر الأضحى ﴿ **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ﴾ وأُقسم بكل شفعٍ ووتر ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** ﴾ وأُقسم بالليل إذا سار فذهب ﴿ **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ** ﴾ هل فيما أُقسمت به من هذه الأمور قسمٌ مقنِع لذي عقل ؟! إن في هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ ألم تنظر يا محمد بعين قلبك ، فترى كيف فعل ربك بإحدى قبائل عاد ؟ ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ إرم الذين كانوا أهل عمد ، ينتجعون أماكن الغيث ، وينتقلون إلى الكلأ حيث كان ، ثم يرجعون إلى منازلهم ﴿ **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** ﴾ التي لم يخلق الله مثلها في العِظَم، والبطش ، والقوة ﴿ **وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ** ﴾ وما فعل بثمود الذين خرقوا الصخر ، ودخلوه فاتخذوه بيوتاً ؟ ﴿ **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ** ﴾ وما فعل ربك أيضاً بفرعون ، صاحب الأوتاد التي كان يعذِّب الناس بها ؟[1] ﴿ **الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ** ﴾ الذين تجاوزوا الحدَّ في الكفر ، وعتوا على ربهم ، في البلاد التي كانوا فيها ﴿ **فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ** ﴾ فأكثروا في البلاد المعاصي ، وركوب ما حرَّم الله عليهم ﴿ **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾ فأنزل بهم ربك عذابه ، وأحلَّ بهم نقمته ، بما طغوا وأفسدوا في

(١) وقيل : وُصف بذلك لكثرة جنوده ، وخيامهم التي يضربونها في منازلهم ، والمعنى : وفرعون ذي الجنود والجموع والجيوش التي تشدُّ ملكه .

إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ
إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ
طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ
دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ
لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾

* * *

البلاد ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ إن ربك يا محمد لأهل الكفر لبالمرصاد[1] ، يرصدهم بأعمالهم في الدنيا ، وفي الآخرة يرصدهم ليكردسهم في جهنم ﴿ **فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ** ﴾ فأما الإنسان إذا ما امتحنه ربه بالنعم ، فأكرمه بالمال والغنى ، وأوسع عليه من فضله ﴿ **فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ** ﴾ فيفرح بذلك ويُسرُّ ويقول : ربي أكرمني بهذه الكرامة ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ وأما إذا امتحنه ربه بالفقر ، فضيَّق عليه ولم يوسِّع عليه الرزق ﴿ **فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** ﴾ فيقول ذلك الإنسان : ربي أذلني بالفقر . . لم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه ، والعافية في جسمه ﴿ **كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ** ﴾ كلَّا بل إنما أهنتُ من أهنتُ ، من أجل أنه لا يكرم اليتيم ﴿ **وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ ولا تأمرون بعضكم بإطعام المسكين ﴿ **وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً** ﴾ وتأكلون أيها الناس الميراث ، أكلاً شديداً لا تتركون منه شيئاً ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً** ﴾ وتحبون جمع المال ، واقتناءه حباً كثيراً ﴿ **كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً** ﴾ ما هكذا ينبغي أن يكون أمركم ، فإذا رجَّت الأرضُ وزُلزلت ، وحُرِّكت تحريكاً بعد تحريك ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً** ﴾ وإذا جاء ربك يا محمد وأملاكه ، صفوفاً متتابعةً صفاً بعد صف[2] ﴿ **وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ** ﴾ وجاء ربك يومئذٍ بجهنم ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسانُ** ﴾ في ذلك اليوم يتذكر الإنسان تفريطه في الدنيا في طاعة الله ، وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال ﴿ **وَأَنَّى لَهُ الذِكْرَىٰ** ﴾ ومن أي وجه له التذكير[3] ؟ ﴿ **يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾ يقول : يا ليتني قدَّمت من

---

(١) المرصاد : المكان المرتفع الذي يترقب الإنسان فيه عدوَّه ويرصده ، والمراد بالآية أنه تعالى رقيب على كل ظالم ، وأنه لا يفوته أحدٌ من الطغاة والجبابرة .

(٢) هذا يكون لفصل القضاء بين العباد ، يقوم الناس من قبورهم ويُساقون لأرض المحشر ، ويجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً .

(٣) أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها ؟

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

* * *

صالح الأعمال ، لحياتي هذه ، بما ينجيني من غضب الله ، ويوجب لي رضوانه !! ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ**﴾ فعذاب اللّـه يومئـذٍ ، لا يُعذَّبَ به أحدٌ في الدنيا[1] ﴿**وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ**﴾ ولا يُوثق كوثاقه يومئذ أحدٌ في الدنيا ﴿**يَا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾ تقول الملائكة لأولياء الله يوم القيامة : يا أيتها النفس التي اطمأنت إلى وعد الله ، الذي وعد به أهل الإيمان في الدنيا ﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ ارجعي إلى الجسد الذي خرجتِ منه ، راضيةً مرضية[2] ﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ فادخلي في عبادي الصالحين ، وادخلي جنتي دار المتقين .

* * *



(٩٠) سورة البلد مكية وآياتها عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾

* * *

﴿ **لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ أقسمُ بهذا البلد الحرام « مكة » ﴿ **وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ وأنت يا محمد حلالٌ بمكة تصنع فيها ما تشاء ، من قتلٍ وأسرِ من أردتَ ، قد أطلقنا لك ذلك[3] ﴿ **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ** ﴾

---

(١) هكذا فسّره الطبري وقال غيره المعنى : ليس أحدٌ أشدَّ عذاباً ممن يعذبه اللهُ في نار جهنم ، وليس أحدٌ يُقيَّد بالسلاسل والأغلال كتقييد اللهِ لهؤلاء الكفرة الفجرة .

(٢) هذا القول إنما تقوله الملائكة للمؤمن عند احتضاره ، وقت نزع الروح ، وتبشره بالخلود في جنان النعيم ، كما قال تعالى ﴿ يُبَشِّرهمْ ربُّهمْ برحْمةٍ منهُ ورضوانٍ وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ . خالدينَ فيها أبداً إنَّ اللّهَ عنده أجرٌ عظيم ﴾.

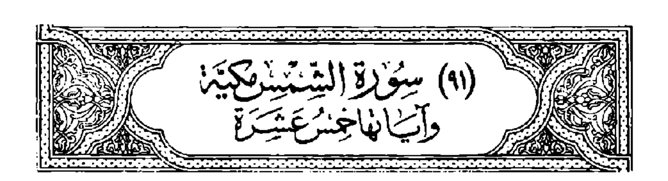
(٣) هكذا رجح الطبري ، ورجح غيره أن المعنى : وأنت حالٌ أي ساكنٌ ومقيم بمكة ، ولعل ابن جرير أخذ المعنى من قوله ﷺ : =

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن
لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا
ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

* * *

وأقسم بكل والدٍ وبولده ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ لقد خلقنا ابن آدم في شدةٍ ، يكابد الأمور ويعالجها ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ أيحسب هذا القوي بجَلَده وقوته ، أن لن يقهره أحد ؟ فالله غالبُه وقاهرُه ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً ﴾ يقول الشقيُّ : أهلكت مالاً كثيراً في عداوة محمد ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أيظنُّ أن لم يره أحدٌ في حال إنفاقه ؟ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ ألم نجعل له عينين يبصر بهما حجج الله ؟ ولساناً يعبِّر به عمَّا في نفسه ؟ وشفتين يطبقهما على فمه ، نعمةً منا بذلك ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ وهديناه طريقَ الخير ، وطريقَ الشرِّ ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ فلم يركب هذا المعاند العقبة ، فيقطعها ويجوزها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ وأيُّ شيءٍ أشعرك يا محمد ما العقبة ؟ ثم بيَّنها بقوله ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أي النجاةُ من العقبة ، ووجه قطعها واقتحامها : إعتاقُ رقبةٍ من الرقِّ ، ومن أسر العبودية ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ أو إطعامٌ في يوم ذي مجاعة ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ طفلاً صغيراً من قرابته ، لا أب له ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أو مسكيناً قد لصق بالتراب من الفقرِ والحاجة ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ثم كان من الذين آمنوا بالله ورسوله ، وممن أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على ما نالهم في ذات الله ، وممَّن تواصوا بالرحمة فيما بينهم ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ هؤلاء الذين فعلوا ذلك ، هم أصحاب اليمين ، الذين يُؤخذ بهم إلى الجنة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ والذين جحدوا بأدلتنا وحججنا من الكتب والرسل ، هم أصحاب الشمال ، الذين يُؤخذ بهم إلى النَّار يوم القيامة ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ نار جهنم يوم القيامة مطبقةٌ على هؤلاء المجرمين .

= « إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحلَّ لأحد قبلي ، ولن تحلَّ لأحد بعدي ، ولم تحلَّ لي إلا ساعة من نهار . . » الحديث رواه البخاري ومسلم . وما ذهب إليه المفسرون أرجح لأن ظاهر اللغة يؤيده ﴿وأنت حِلٌّ﴾ أي مقيمٌ من حلَّ بالمكان إذا قام فيه ، فيكون قد أقسم بالمكان والساكن فيه ، لأن شرف المكان بشرف ساكنه والله أعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ
وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ

* * *

﴿ **والشَّمْسِ وَضُحَاهَا** ﴾ أقسم بالشمس ونهارها ﴿ **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا** ﴾ والقمر إذا تبع الشمس طالعاً بعد غروبها[١] ﴿ **وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا** ﴾ والنهار إذا أضاء الكون ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ﴾ والليل إذا يغشى الشمس ، حتى تغيب فتظلم الآفاق ﴿ **وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا** ﴾ والسماء ومن خلقها وجعلها سقفاً للأرض[٢] ﴿ **وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا** ﴾ والأرض ومن بسطها من كل جانب ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** ﴾ وأُقسم بالنفوسِ وخالقِها ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ فبيَّن لها أن تأتي الخير والطاعة ، وتَذَر الشرَّ والمعصية ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴾ قد أفلح من زكَّى نفسه ، بتطهيرها من الكفر والمعاصي ، وأصلحها بالصالحات من الأعمال ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ وقد خاب وخسر من دسَّس نفسه فأخملها ، بركوب المعاصي ، وترك طاعة الله ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا** ﴾ كذبت ثمود بعذابها الذي وعدهم به نبيُّهم « صالح » عليه السلام ، فكان ذلك العذاب طاغياً طغى عليهم[٣] ﴿ **إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا** ﴾ حين ثار أشقى ثمود[٤] ﴿ **فَقَالَ**

---

(١) وذلك في النصف الأول من الشهر ، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخَلَفها في النور .

(٢) هذا قسمٌ بالخالق جلَّ وعلا أي وأُقسمُ بالقادر العظيم الذي بنى السماء وأحكم بناءها بلا عمد ، وجواب القسم هو قوله تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ .

(٣) وقال بعض المفسرين « كذبت ثمود نبيَّها بسبب طغيانها » وهذا المعنى هو الأظهر .

(٤) هو كما جاء في الحديث الصحيح « قُدار بن سالف » وكان عزيزاً شريفاً في قومه .

رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

* * *

﴿ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ فقال رسول الله « صالح » لثمود : احذروا ناقة الله أن تمسُّوها بسوءٍ ، وراعوا يوم شربها ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ فكذبوا « صالحاً » في خبره بما يَحِلُّ من نقمته تعالى بهم إن عقروها ، فقتلوا الناقة عن رضا جميعهم ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ ﴾ فدمَّر الله عليهم ، بكفرهم وتكذيبهم لرسوله « صالح » وعقرهم للنَّاقة ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ فسوى الدمدمة عليهم ، فلم يُفلت منهم أحد ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ ولا يخاف تبعة دمدمته عليهم[١] .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾

* * *

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ أُقسِمُ بـالليل إذا غشيَ النهار بظلمته ، فأذهب ضوءه ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ وأُقسم بالنهار إذا أضاء وظهر للأبصار ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ وأقسم بخالق الذكر والأنثى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ إن عملكم أيها الناس لمختلف ، لأن منكم المؤمن بالله ، المطيع له في أمره ونهيه ، ومنكم الكافر بالله ، العاصي لأمره ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ فأما من أعطى من ماله في سبيل الله ، واتَّقى اللهَ ، واجتنب محارمه ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ وصدَّق بإخلاف الله له ، على ما أعطى من ماله ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ

(١) أي لا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم ، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون ، لأنه تعالى لا سلطان لأحدٍ عليه .

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾
إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾
ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾
إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾

* * *

لِلْيُسْرَىٰ ﴾ فسنهيئه للخلَّة اليسرى ، وهي العمل بما يرضاه الله منه ، ليوجب له به الجنة في الآخرة **﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴾** وأما من بخل بالنفقة في سبيل الله ، ومنع ما وهب الله له من فضله ، واستغنى عن ربه ، فلم يرغب العمل بطاعته **﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾** وكذَّب بالخُلْف[1] من الله **﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾** فسنهيئه في الدنيا للخَلَّة العُسرى ، وهي العمل بما يكرهه الله ولا يرضاه **﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾** وأيُّ شيءٍ يدفع عن هذا الذي بخل بماله يوم القيامة ، إذا هو تردَّى ـ هوى ـ في جهنم ؟ **﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾** إن علينا بيان الحق من الباطل ، والطاعة من المعصية **﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾** وإن لنا ملك ما في الدنيا والآخرة ، نعطي منهما من أردنا ، ونحرم من شئنا ، ونوفّق لطاعتنا من أحببنا ، ونخذل من نشاء **﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ ﴾** فأنذرتكم ـ أيها الناس ـ نار جهنم التي تتوهج ، فاحذروا معصية ربكم ، فَتَصْلونها في الآخرة **﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ ﴾** لا يدخلها فيصلى بسعيرها ، إلَّا الأشقى **﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾** الذي كذَّب بآيات ربه ، وأعرض عنها ، ولم يصدِّق بها **﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ ﴾** وسيُوقى دخول النار ، التقيُّ الذي يخاف الله **﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾** الذي يعطي ماله في الدنيا ، يتطهَّر بذلك من ذنوبه **﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾** وليس ينفق ويعطي ما يعطي ، يُجازي إنساناً مكافأةً له ، على نعمةٍ سلفت منه إليه[2] **﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾** ولكنْ ينفق ماله ابتغاء وجه الله **﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾** وسيرضى هذا المؤتي بما يثيبه الله في الآخرة ، عوضاً مما آتى في الدنيا ، إذا لقي ربه تبارك وتعالى .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل »

* * *

---

(١) المراد التصديق بوعد الله بالإخلاف على المنفق ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخلِفه﴾. وقيل : المراد بالحسنى هنا الجنة لقوله تعالى ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي لهم الجنة مع الزيادة .

(٢) اتفق المفسرون على أن هذه الآيات قد نزلت في « أبي بكر الصدِّيق » رضي الله عنه وأرضاه ، وذلك أنه اشترى بلالاً من ماله الخاص وأعتقه في سبيل الله ليخلّصه من العذاب ، وكان عمر رضي الله عنه يقول : (أعتق سيدُنا سيِّدَنا) يقصد أعتق أبو بكر بلالاً



بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾

* * *

﴿ وَالضُّحَى ﴾ أقسم بالنهار ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ وبالليل إذا سكن بأهله ، وثبت بظلامه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ما تركك ربك يا محمد وما أبغضك ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴾ وللدار الآخرة وما أعدَّ الله لك فيها ، خيرٌ لك من الدنيا وما فيها ، فلا تحزن فإنَّ الذي لك عند الله خيرٌ لك منها ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ ولسوف يعطيك ربك في الآخرة ، من فواضل نعمه إلى أن ترضى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴾ ألم يجدك يا محمد ربك يتيماً ، فجعل لك منزلاً ومأوى تأوي إليه ؟ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ ووجدك[1] على غير ما أنت عليه من الإسلام فهداك إليه؟ ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ ووجدك فقيراً فأغناك من فضله ؟ ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ فأما اليتيم يا محمد فلا تقهره ، فتذهب بحقه ، استضعافاً منك له[2] ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وأما من سألك من ذي حاجة فلا تزجره ،

(١) لا يقصد بقوله تعالى ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ الضلالة عن الهداية والإيمان ، فالرسول ﷺ منذ الصغر محفوظ بعناية الله ، لم يسجد لصنم ولم يعبد غير الله ، وإنما يراد به هنا عدم المعرفة بشرائع الإسلام ، كما نبه الإمام الطبري وأئمة التفسير حتى قال أبو حيان : لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابل الهدى فإن الأنبياء معصومون من ذلك . ا هـ . فمعنى الآية إذن : ووجدك تائهاً عن معرفة الشريعة والدين فهداك إليها كقوله تعالى ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ .

(٢) ذكَّره ربه بثلاثِ نعَم عليه ، ووصَّاه مقابلها بثلاثة أمور ، وكأنه يقول له : كنت يا محمد يتيماً ، وضالاً ، وعائلاً ، فآواك الله ، وهداك ، وأغناك ، فلا تنس نعمة الله وفضله عليك في هذه النعم الثلاث ، فتعطَّفْ على اليتيم ، وترحَّمْ على السائل ، وآوِ الضعيف ، فقد ذقت طعم اليتم والفقر والحرمان ، ويا له من توجيه سامٍ كريم !؟

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

* * *

ولكن أطعمْه واَقض له حاجته ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ واَذكر ما أنعم به ربك عليك ، وحدِّثْ به الناس .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

* * *

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ألم نشرح صدرك يا محمد للهدى والإيمان ، ومعرفة الحق ونفسح لك قلبك ، فنجعله وعاءً للحكمة ؟ ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك ، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية ؟ ﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الذي أثقل ظهرك فأوهنه ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ورفعنا لك ذكرك ، فجعلنا اسمك مقروناً باسمي ، لا أُذكرُ إلا ذكرتَ معي ، وذلك قول « لا إلّه إلا الله محمدٌ رسول الله »[1] ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ فإن مع الشدة التي أنت فيها ، من جهاد هؤلاء المشركين ، رجاءً وفرجاً بأن يُظفرك الله بهم ، حتى ينقادوا للحق ، طوعاً أو كرهاً ، وكرَّره للتأكيد ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ فافرغ يا محمد من كل ما كنت به مشتغلاً من أمر دنياك ،وأتعبْ نفسك في عبادة الله ، والاشتغال فيما يقرِّبك إليه ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ وإلى ربك فاجعل رغبتك ، دون من سواه من خلقه ، فقد جعل المشركون حاجاتهم ، إلى الآلهة التي لا تغني عنهم شيئاً .

(١) قال قتادة : رفع الله ذكر محمد ﷺ في الدنيا والآخرة ، فليس خطيبٌ ، ولا متشهدٌ ، ولا صاحب صلاة ، إلا ينادي « أشهد أن لا إلّه إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » وفي الحديث الصحيح « أتاني جبريل فقال لي يا محمد : إن ربك يقول : أتدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله أعلم ، قال : إذا ذكرتُ ذكرتَ معي ».



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

* * *

﴿ والتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ أقسم بالتين الذي يؤكل ، وبالزيتون الذي يُعصر[١] ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وأقسم بالجبل كثير النبات المسمى سينين ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ وبمكة البلد الآمن من أعدائه أن يحاربوا أهله أو يغزوهم ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأعدلها ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ثم رددناه إلى أرذل العمر ، إلى عمر الخَرْفى الذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر ، فهو في إدبار العمر وذهاب العقل[٢] ﴿ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال صحتهم وشبابهم ، فلم نردُّهم إلى أرذل العمر ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ فلهم في حال الهرم والكبر ، أجرٌ غير منقوص على أيام الصحة والشباب ، بل نعطيهم الأجر كاملاً كأنهم عملوه وهم أقوياء ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بعد بِالدِّينِ ﴾ فمن يكذبك يا محمد بطاعة الله ؟ ومجازاته العباد على أعمالهم ، بعد الذي جاءك من البيان والحجج ؟ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ أليس الله بأحكم من حكم في أحكامه ، وفصل قضائه بين عباده ؟

(١) هكذا فسرها الإمام الطبري ، وقال بعضهم « أقسم الله تعالى بالبقاع المقدسة التي شرفها الله بالوحي والرسالات السماوية ، وهي منابت التين والزيتون في بلاد الشام ، كما قال بعضهم : المقصود جبل التين ، وجبل الزيتون حول بيت المقدس ، فهي قسم بالأماكن المقدسة وهو اختيار ابن كثير .

(٢) وقال بعض المفسرين : المراد « رددناه في جهنم حيث يكون على أقبح صورة وأبشعها ، بعد أن كان على أحسن صورة وأبدعها » وكذا ما بعدها ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي لهم الجنة ثواباً دائماً غير مقطوع .



بسم الله الرحمن الرحيم

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ
بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ
رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾
أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾

* * *

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ اقرأ يا محمد بذكر ربك الذي خلق ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ خلق الإنسان من علقةٍ من دم ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ اقرأ يا محمد وربك العظيم الأكرم ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ الذي علَّم خلقه الكتاب والخطَّ ﴿ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ علم الإنسان الخط بالقلم ، مع أشياء ممَّا علَّمه مع العلوم والمعارف ﴿ كَلَّا إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ كلّا ما هكذا ينبغي للإنسان ، أن ينعم عليه ربه بالخلق والتعليم والإنعام ثم يكفر ويستكبر على ربه ﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ لأنه رأى نفسه استغنت ، وأصبح ذا ثروةٍ ومال ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ إن إلى ربك مرجعه ، فذائقٌ من أليم عقابه ، ما لا قِبَل له به ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ. عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ ﴾ أرأيت يا محمد « أبا جهل » الذي ينهاك أن تصلي عند المقام ، وهو معرضٌ عن الحقِّ مكذبٌ به[1] ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾ أرأيت إن كان محمدٌ على استقامة وسداد ، أو أَمَرَ بإتقاء الله ، وخوف عقابه ، كيف تزجره وتنهاه ؟ ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أرأيت إن كذب « أبو جهل » بالحق الذي بُعث به محمد ﷺ وأدبر عنه فلم يصدِّق به ؟

---

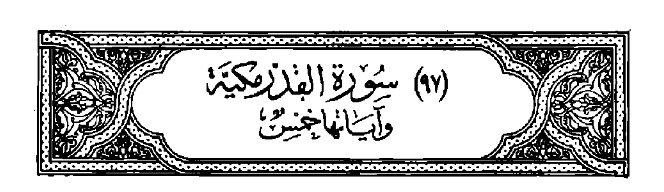
(١) نزلت هذه الآيات في « أبي جهل » اللعين ، كان يطغى بكثرة ماله ، وكان يقول : والله لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه ، ولأعفرنَّ وجهه بالتراب ، ولأرضخنَّ رأسه بصخرة لا أطيق حملها ، فرآه ذات يوم فلما أراد أن يفعل به ذلك واقترب منه ، رمى بالصخرة وولى ينكص على عقبيه ، فقيل له : ما لك ؟ قال : والله لقد رأيت بيني وبين محمد خندقاً من نار ، ورأيت هولاً وأجنحة

أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ
نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ۩

* * *

﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ ألم يعلم أبو جهل بأن الله يراه ، فيخاف سطوته وعقابه ؟ ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ ليس الأمر كما قال أبو جهل ، لئن لم يكفَّ أبو جهل عن محمد ، لنأخذنَّ بمقدّم رأسه فلنذلنَّه ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ ناصيةٍ[1] يتصف صاحبُها بالكذب والخطيئة ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ فليدع أبو جهل أهل مجلسه وأنصاره ، من عشيرته وقومه ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ سننادي زبانية العذاب ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ ليس الأمر كما يقول ، فلا تطع يا محمد أبا جهل ، فيما أمركِ من ترك الصلاة لربك ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ واسجد لربك واقترب منه ، بالتحبب إليه بطاعته .

* * *



(٩٧) سُورَةُ القَدْرِ مَكِّيَّة وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾

* * *

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ إنا أنزلنا هذا القرآن جملة واحدةً ، إلى السماء الدنيا في ليلة الحكم[2] ، التي يقضي الله فيها قضاء السنة ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ وما أشعرك يا محمد أي شيءٍ ليلة القدر ؟ ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ عملٌ صالح في ليلة القدر ، خيرٌ من عمل ألف شهر ،

---

(١) الناصية : هي شعر مقدَّم الرأس ، وقد روي أن أبا جهل مرَّ على النبي ﷺ وهو يصلي عند المقام فقال : ألم أنهك عن هذا يا محمد ؟ فأغلظ له رسول الله ﷺ القول ، فقال أبو جهل : أتهددني وأنا أكثر أهل هذا الوادي ناصراً وأعواناً فنزلت الآية .

(٢) هكذا جعل الإمام الطبري معنى « القدر » الحكم أي من التقدير ، والظاهر أنها من « القَدْر » بمعنى الشرف ، فهي ليلة الشرف ، وسميت كذلك لعظمها وقدرها وشرفها والله أعلم .

تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

* * *

ليس فيها ليلة القدر ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ تتنزّل الملائكة ومعها « جبريل »، بإذن ربهم من كل أمرٍ قضاه الله في تلك السنة ، من رزقٍ وأجلٍ وغير ذلك ﴿ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ ليلة القدر سلامٌ من الشرّ كلّه ، من أولها إلى طلوع الفجر من ليلتها .

* * *

(٩٨) سورة البيّنة مدنيّة وآياتها ثمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ
يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

* * *

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ لم يكن الذين كفروا من أهل « التوراة والإنجيل » والمشركين ، مفترقين في أمر محمد ﷺ ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ حتى تأتيهم البينة ـ الحجة الواضحة ـ بإرساله وبعثته ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ حتى يأتيهم بيان أمر محمد أنه رسول الله ، ببعثة الله له إليهم ، يقرأ صحفاً مطهَّرةً من الباطل ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ في الصحف كتبٌ من الله قيِّمة عادلة ، مستقيمة ليس فيها خطأ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وما تفرّق « اليهود والنصارى » في أمر محمد ﷺ فكذبوا به ، إلا من بعد ما جاءهم بيان حقيقة نبوته وبعثته ، وقد كانوا قبل بعثته غير مفترقين في أنه نبيٌّ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وما أمر الله « اليهود والنصارى » إلا أن يعبدوا الله ، مفردين له الطاعة ولا

وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

* * *

يخلطوها بشرك ﴿حُنَفَاءَ﴾ مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، مستقيمين على الحنيفية السمحة[1] ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وليقيموا الصلاة المفروضة عليهم ، وليدفعوا الزكاة لمستحقيها ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ وهذا الذي أُمروا به ، هو الدين المستقيم العادل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إن الذين جحدوا بالله ورسوله ، من اليهود والنصارى والمشركين ، جميعُهم في نار جهنم ، ماكثين فيها أبداً ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أولئك هم شرٌّ من خلقه الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إن الذين صدَّقوا بالله ورسوله محمد ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأطاعوا الله فيما أمر ونهى ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أولئك هم خير خلق الله ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ ثوابهم يوم القيامة بساتينُ إقامة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ تجري من تحت أشجارها الأنهار ، ماكثين فيها لا يخرجون عنها ، ولا يموتون فيها أبداً ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ رضي الله عنهم بطاعتهم ، وعملهم للخلاص من عقابه ، ورضوا عنه ، بما أعطاهم من الثواب وجزاهم من الكرامة ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ذلك الخير لمن خاف الله في الدنيا في سره وعلنه ، فأدى الفرائض ، واجتنب المعاصي .

* * *

(١) قد فصل الإمام ابن جرير القول في الحنيفية وأنها الاستقامة في سورة البقرة ، ج ١/٤٤٠



بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ
تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

* * *

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ إذا حُرِّكت الأرض تحريكاً شديداً ، ورُجَّت رجاً عنيفاً ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ وأخرجت الأرض ما في بطنها من الموتى أحياء ﴿وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ وقال الناس حينئذ ما للأرض ؟ وما قصتها ؟ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ يومئذٍ تبين الأرض أخبارها[1] بالزلزلة والرجة ، وإخراج الموتى من بطونها إلى ظهورها ، بوحي الله إليها ، وإذنه لها بذلك ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً﴾ يومئذٍ يصدر الناس فِرَقاً ، فآخذٌ ذات اليمين إلى الجنة ، وآخذٌ ذات الشمال إلى النار ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ليرى المحسن في الدنيا جزاء عمله ، وما أُعدَّ له من الكرامة ، ويرى المسيءُ العاصي جزاء عمله ، وما أُعد له من الهوان والخزي في جهنم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير ، يرى ثوابه هنالك ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرةٍ من شر ، يرى جزاءه هنالك .

* * *

(١) في الحديث الصحيح « قرأ رسول الله ﷺ ﴿يومئذٍ تحدّث أخبارها﴾ فقال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا كذا وكذا ، فهذه أخبارها » .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ
بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾
* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

* * *

﴿والْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ أقسم بالخيل التي تعدو وهي تُحمْحم[1] ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ وأقسم بالخيل التي توري النيران قدحاً ، بوقع حوافرها على الحجارة ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ فالتي تغير حين الصبح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ فرفعن بالوادي غباراً ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ فوسطن بركبانهن جمع القوم ﴿إِنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ إن الإنسان لكفورٌ لنعم ربه[2] ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ وإنه على كفره لشاهد ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وإن الإنسان لحب المال لشديد ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أفلا يعلم هذا الإنسان الجاحد ، إذا أُثير ما في القبور ، وأُخرج ما فيها من الموتى ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ وبُيِّن وأُبرز ما في صدور الناس، من خيرٍ وشر ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ إن ربهم بأعمالهم، وما أسرُّوه في صدورهم ، وأعلنوه بجوارحهم ، عليم لا يخفى عليه منها شيءٌ ، وهو مجازيهم على جميع ذلك .

* * *

(١) المراد بها خيل المجاهدين ، التي يُسمع لأنفاسها صوتٌ جهير عند العَدْو وهو الضَّبْح .
(٢) قال الحسن : يذكر المصائب وينسى النعم .



بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ
ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١

* * *

﴿الْقَارِعَةُ﴾ الساعة التي يَقرع هولُها قلوب الناس ، من عظيم ما ينزل بهم من البلاء[١] ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ أيُّ شيءٍ هي القارعة ؟! ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ وما أشعرك يا محمد أيُّ شيء القارعة[٢] ؟! ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ يوم يكون الناس كالفراش المفرَّق ، الذي يتساقط في النار ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ويوم تكون الجبال كالصوف المنفوش ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ فأما من ثقل وزن حسناته ، فهو في عيشةٍ قد رضيها في الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ وأما من خفَّ وزن حسناته ﴿فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾ فمأواه ومسكنه الهاوية ، التي يهوي فيها على رأسه في جهنم ، فهي تضمُّه كأمه ليس له سواها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ وما أشعرك يا محمد ما الهاوية ؟! ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ هي النار التي قد حميت من الوقود عليها .

* * *

---

(١) القارعة : اسم من أسماء القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرع الأذان والقلوب بأهوالها .

(٢) التكرار هنا للتفخيم والتهويل ، فإنها في الفظاعة والشدة بحيث لا يدركها خيال ، والأصل أن يقال : ما هي ؟ ولكنه وضع الظاهر ﴿ما القارعة﴾ موضع الضمير لزيادة التهويل .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

* * *

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ألهاكم أيها الناس المباهاة بكثرة المال ، عن طاعة ربكم ، وعما ينجيكم من سخطه عليكم ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حتى صرتم إلى المقابر ، فدُفِنتم فيها ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما هكذا ينبغي أن تفعلوا ، فسوف تعلمون إذا صرتم في القبور ، عاقبة اشتغالكم بالتكاثر في الدنيا ، عن طاعة الله ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما تلقون من مكروه اشتغالكم ، عن طاعة ربكم ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ كلَّا لو تعلمون أيها الناس علماً يقيناً ، أن الله باعثكم بعد مماتكم ، لسارعتم[1] إلى رفض الدنيا ، إشفاقاً على أنفسكم من عقابه ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ لترون أيها المشركون جهنم يوم القيامة ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ثم لترونَّها عياناً لا تغيبون عنها ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ثم ليسألنكم الله عز وجل ، عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا ، ماذا عملتم فيه ؟ من أين وصلتم إليه ، وفيم أصبتموه ؟

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾

﴿وَالْعَصْرِ﴾ أُقسمُ بالدهر[2] ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إن ابن آدم لفي هَلَكةٍ ونُقصان ﴿إِلاَّ الَّذِينَ

(١) جواب « لو » محذوف للتهويل أي لو عرفتم ذلك لما خُدعتم بنعيم الدنيا ، وقد قدَّره الطبري بقوله : لسارعتم إلى رفض الدنيا .

(٢) قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : « لو لم يُنزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس » يريد أنها جمعت خصال الإيمان والعمل الصالح .

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

* * *

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلا الذين صدَّقوا الله وأقرُّوا له بالوحدانية ، وأدَّوْا فرائضه ، واجتنبوا معاصيه ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وأوصى بعضهم بعضاً ، بلزوم العمل بكتاب الله ، واجتناب ما نهى عنه ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر ، على العمل بطاعة الله (٢) .

* * *



(١٠٤) سُورَةُ الهُمَزَةِ مَكِّيَّةٌ وآياتها تسع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ الوادي الذي يسيل من صديد أهل النار ، لكل مغتاب[١] للناس ، يعيبهم ويطعن[٢] فيهم[٣] ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ الذي جمع مالاً ، وأحصى عدده ، ولم ينفقه في سبيل الله ، ولكنه جمعه فأوعاه ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ يظن أن ماله الذي جمعه وبخل بإنفاقه ، مُخلِّده في الدنيا ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ليس ماله مخلده ، ولكن ليُقْذفن يوم القيامة في النار ، التي تحطم كل ما أُلقي

---

(٢) حكم تبارك وتعالى بالخسران على جميع أفراد البشر ، إلا من اتصف بهذه الخصال الأربع وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالمعروف ، والتواصي بالصبر .

(١) الهُمَزة : الهمَّاز الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم .

(٢) اللُّمزة : اللمَّاز الذي يعيب الناس وينال منهم بالحاجب والعين .

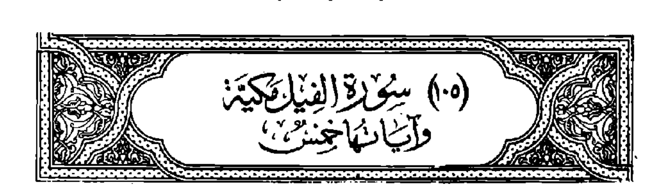
(٣) نزلت السورة في « الأخنس بن شريق » كان كثير الطعن في الناس ، يسخر منهم ويعيبهم ، والآية عامة .

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨
فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩

* * *

فيها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ وأي شيء أشعرك يا محمد ما الحطمة ؟ ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ النَّار المسعَّرة بأمر الله تعالى ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ التي يبلغ ألمها ووهجها القلوبَ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ إن النار على هؤلاء الهمازين اللمازين مُطْبقةٌ ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ إنهم يعذبون بعَمدٍ في النار .

* * *



(١٠٥) سُورَةُ الفِيلِ مَكِّيَّةٌ وآيَاتُهَا خَمْسٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم

* * *

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ألم تنظر يا محمد بعين قلبك ، فترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة ، ورئيسهم « أبرهة الأشرم »[١] ؟ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ألم يجعل سعي الحبشة في تخريب الكعبة ، في ضياعٍ وخسار ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ وأرسل عليهم ربك طيراً متفرقة ، يتبع بعضها بعضاً ، من نواحٍ شتَّى ﴿تَرْمِيهِمْ

* * *

(١) روي أن « أبرهة الأشرم » ملك اليمن ، بنى كنيسة بصنعاء ، وأراد أن يصرف إليها حجَّ العرب ، فجاء رجلٌ من العرب من « كنانة » وتغوَّط فيها ليلاً ، ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقاراً لها ، فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة المشرفة ، وجاء بجيش كبير على الأفيال ، فأرسل الله على جيش أبرهة طيوراً سوداً ترميهم بالحجارة حتى أهلكهم عن آخرهم .

بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

* * *

﴿بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ تقذف هذه الطيور أصحاب الفيل ، بحجارة من طينٍ متحجر فتهلكهم ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ فجعل الله أصحاب الفيل كزرعٍ أكلته الدواب فراثته، فيبس وتفرَّقت أجزاؤه .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ
أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

* * *

﴿لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ . إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ اعْجبوا من اعتياد قريش رحلة الشتاء والصيف التي ألفوها[1] !؟ رحلة الصيف إلى « الشام » ورحلة الشتاء إلى « اليمن » وتركهم عبادة رب هذا البيت ، الذي أنعم عليهم بنعم كثيرة لا تُحصى !! ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ فليقيموا بموضعهم ووطنهم من مكة ، وليعبدوا ربَّ هذه الكعبة ﴿الَّذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ الذي أطعم قريشاً من جوع ، بما يُجبى إليها من الثمرات ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ وآمنهم من خوف العدو والأمراض .

(١) هكذا فسَّرها الإمام ابن جرير ، وقال غيره من المفسرين المعنى : من أجل تسهيل الله على قريش ، وتيسيره لهم ما كانوا يعتادونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، فليعبدوه على هذه النعمة الجليلة ، إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، وهو معنى وجيه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ
ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

* * *

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أرايت يا محمد الذي يكذِّب بثواب الله وعقابه ؟ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ فذلك هو الذي يدفع اليتيم عن حقه ، ويظلمه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ولا يحثُّ غيره على إطعام المحتاج من الطعام ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ فالوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم للمنافقين ، الذين يُصلُّون لا يريدون اللَّهَ عزَّ وجلَّ بصلاتهم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وهم في صلاتهم لاهون ، يتغافلون عنها أحياناً ، ويضيِّعون وقتها[1] أحياناً أخرى ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ الذين يراءون بصلاتهم إذا صلوا ، لأنهم يصلون ليراهم المؤمنون ، فيكفُّون عن سفك دمائهم ، وهؤلاء هم « المنافقون » الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، يبطنون الكفر ، ويُظهرون الإسلام ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ويمنعون الناس منافع ما عندهم .

* * *

(١) قال بعض السلف : الحمد لله الذي قال : ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ ولم يقل : في صلاتهم ساهون ، لأنه لو قال « في صلاتهم » لكانت في المؤمنين ، والمؤمن قد يسهو في صلاته ، ولكنه أراد بهم المنافقين ، لأنهم يؤخرون الصلاة عن وقتها ، وهذا هو السر في التعبير بعن .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

* * *

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ إنا أعطيناك يا محمد نهراً في الجنة ، عظيم القدر ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ فاجعل صلاتك كلها لربك ، خالصاً دون ماسواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك اجعل نحرك الذي تنحره لله ، شكراً لله على ما أعطاك من الكرامة والخير ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ إن مبغضك يا محمد ، هو الأقلُّ الأذلُّ ، المنقطع ، دابره ، الذي لا عقب له(١)

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾

* * *

﴿ قُلْ يَا أَيُّها الْكَافِرُونَ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، الذين سألوك عبادة آلهتهم سنةً ، على أن يعبدوا إلهك سنة ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ لا أعبد ما تعبدون من الآلهة والأوثان ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا

---

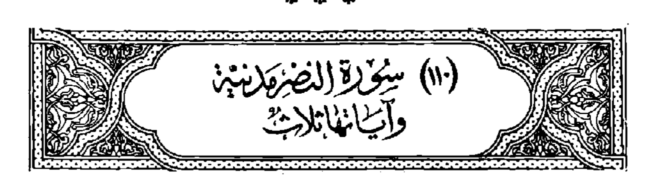
(١) قال العاص بن وائل لما توفي القاسم بن رسول الله ﷺ : « دعوا محمداً فإنه رجل أبتر ، لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره . » فأنزل الله تعالى هذه السورة ، وأخبر تعالى أن هذا الكافر الفاجر هو الأبتر .

﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

* * *

أَعْبُدُ ﴾ ولا أنتم الآن عابدون إلهي الذي أعبده ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُم ﴾ ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ولا أنتم عابدون فيما تستقبلون ما أعبد الآن ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ لكم دينكم فلا تتركونه وتموتون عليه ، وليَ الدين الذي أنا عليه ، لا أتركه أبداً ، ولا أنتقل عنه إلى غيره .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾

* * *

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إذا جاءك نصر الله يا محمد على قريش ، وفتح مكة ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها ، يدخلون في دين الله الذي ابتعثك به ، زمراً زمراً ، وفوجاً فوجاً ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فسبِّح ربك وعظِّمه ، بحمده وشكره على ما أنجز لك من وعده ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ وسله أن يغفر ذنوبك ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ إن الله يرجع على عبده المطيع بما يحب من التوبة[٢]

---

(١) هذه السورة الكريمة سورة البراءة من عبادة الأوثان ، وهي مع سورة الاخلاص دعائم التوحيد ، ولهذا يسنّ للمحرم أن يقرأهما في الصلاة عقب انتهائه من الطواف .

(٢) في هذه السورة الكريمة إشارة الى قرب وفاة النبي ﷺ ونعيٌ له ، ولهذا لما نزلت السورة قال رسول الله ﷺ لعائشة : ما أراه إلا قد حضر أجلي ، وتسمى « سورة التوديع » وهكذا فهم عمر وابن عباس كما في صحيح البخاري أن فيها بيان أجل الرسول ﷺ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾
وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

* * *

﴿ تبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ خسرت يدا «أبي لهب»[١] وخسر هو وهلك ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ أيُّ شيءٍ أغنى عنه ماله ، ودفع من سخط الله عليه ؟ وما أغنى عنه ولده ؟﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ سيصلى أبو لهب ناراً ذات لهبٍ عظيم ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ وامرأته حمالة الحطب ، التي كانت تحمل الشوك ، فتطرحه في طريق الرسول ، ستصلى أيضاً ناراً ذات لهب شديد﴿في جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ في عنقها حبلٌ من الليف واللحاء ، يجعل في عنقها كالقلادة يوم القيامة .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين سألوك عن صفة ربك :ربي واحدٌ أحد ، لا شريك

(١) أبو لهب : هو عمُّ الرسول ﷺ وكان كافراً يؤذي رسول الله ﷺ هو وامرأته العوراء التي تكنى « أم جميل » وفيهما نزلت هذه السورة الكريمة

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

* * *

له،ولا شبيه، ولا نظير ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاَّ له،وهو السيد الذي يلجأ إليه الناس في حوائجهم ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ليس بفانٍ ولا بائد ، لأنه لا شيء يلد إلا وهو فانٍ[1] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وليس بمحدَثٍ لم يكن فكان ، لأن كل مولود فإنما وُجد وحدث بعد أن كان غير موجود ، ولكنه تعالى قديمٌ لا يزول ولا يفنى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ ولم يكن له شبيه ، ولا مثيلٌ أحدٌ من خلقه .

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣
وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

* * *

﴿ قُلْ أعوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ قل محمد :أستجير برب فلق الصبح ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ من شر كل شيء ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ومن شر كل مظلمٍ هجم بظلامه[2] ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ومن شر السواحر اللاتي ينفثن في عُقَد الخيط ، حين يرقين عليها ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ومن شر كل حاسد ، إذا حسد غيره ، فسحره أو بغى به السوء .

---

(١) هكذا فسره الإمام الطبري وقال بعض المفسرين المعنى : ليس له ولد ولم يتخذ ولداً ، وهذه السورة ردٌّ على النصارى الذين يقولون بعقيدة التثليث ، وعلى اليهود الذين جعلوا عزيراً ابن الله .

(٢) المراد بالغاسق : الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، فإن ظلمة الليل مخيفة ، فيه تخرج السباع من آجامها ، والهوام من أوكارها ، ولهذا قالوا في المثل « الليلُ أخفى للويل » وهذا هو سرُّ التعوذ من شر الليل .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾
مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

* * *

﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** ﴾ قل يا محمد: أستجير برب الناس ﴿ **مَلِكِ النَّاسِ** ﴾ وهو ملك جميع الخلق ، إنسهم وجنهم وغير ذلك ﴿ **إِلَٰهِ النَّاسِ** ﴾ معبود الناس الذي له العبادة ، دون كل شيءٍ سواه ﴿ **مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ** ﴾ من شر الشيطان الذي يختفي مرة ، ويوسوس مرةً ﴿ **الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾ الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ، جنِّهم وإنسهم[(١)] والحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) قال في الصفوة : الذي يوسوس في صدور الناس ، هو من شياطين الجن وشياطين الإنس . قال تعالى ﴿ شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ فالآية استعاذة من شر الإنس والجن جميعاً .

خاتمة

يقول راجي عفو ربه محمد علي الصابوني أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة « أم القرى » بمكة المكرمة : إنه قد تمَّ بعون الله وتوفيقه ، في البلد الأمين ـ مكة المكرمة ـ إختصار هذا التفسير الكبير ، لإمام المفسرين « أبي جعفر محمد بن جرير الطبري » رحمه الله ، وكان الفراغ منه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين ، ونسأل الله تعالى حسن القبول ، وأن يمنحنا التوفيق والسداد ، في البدء والختام ، وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الشيخ محمد علي الصابوني ـ الدكتور صالح أحمد رضا

فهرس

الموضوع	الصفحة

* * *